سلسلة الرحالة الأوروبيين في بلاد العرب

الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية

منطقة حائل

(١٨٤٥ - ١٩٢١م)

د. عوض البادي



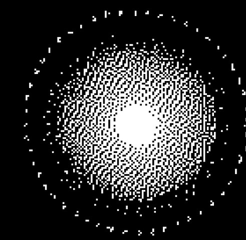
الرحالة الأوروبيون
في شمال وسط الجزيرة العربية

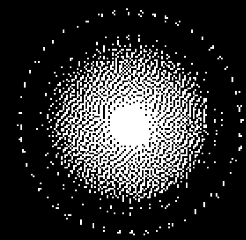
منطقة حائل

(١٨٤٥ - ١٩٢١م)

د. عوض البادي







دار برزان للنشر
www.barzanpress.com

سلسلة الرحالة الأوروبيين في بلاد العرب

الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية:

منطقة حائل

١٨٤٥م-١٩٢١م

"نصوص مترجمة"

د. عوض البادي

دار برزان للنشر

الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية

سلسلة الرحالة الأوروبيين في بلاد العرب

الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية:

منطقة حائل

١٨٤٥م-١٩٢١م

"نصوص مترجمة"

د. عوض البادي

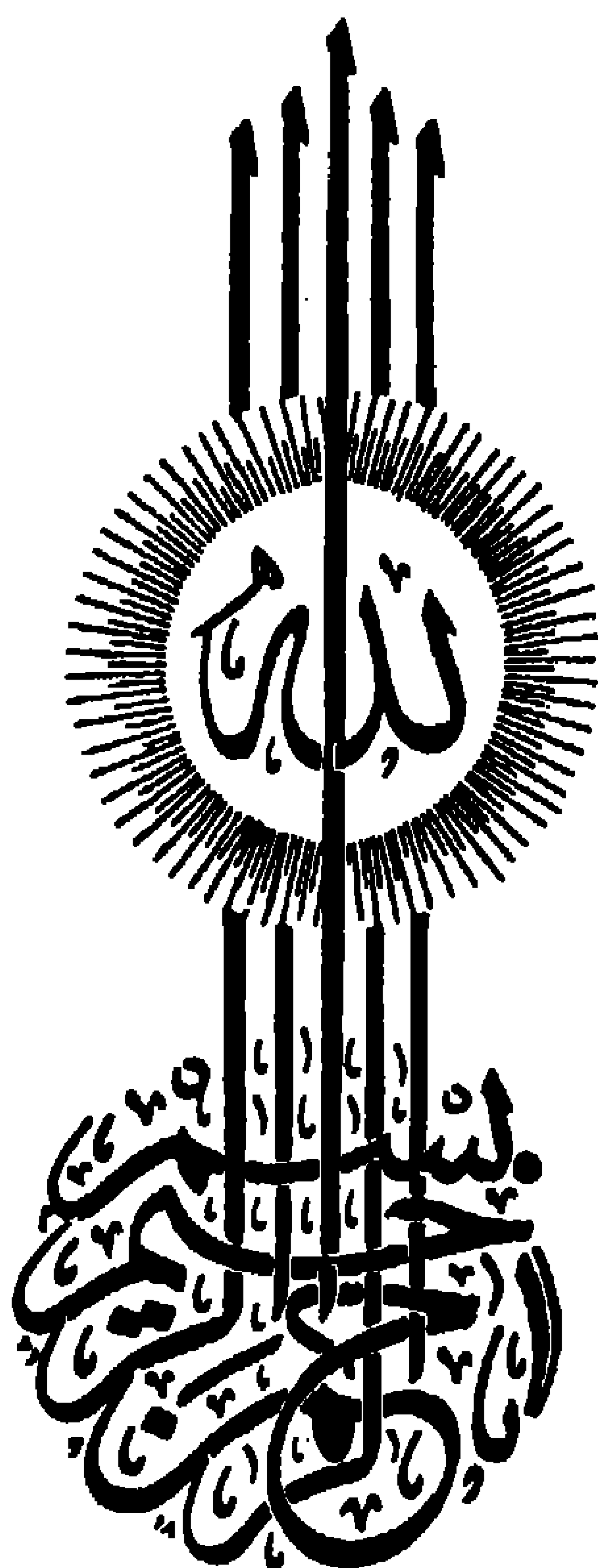
دار برزان للنشر

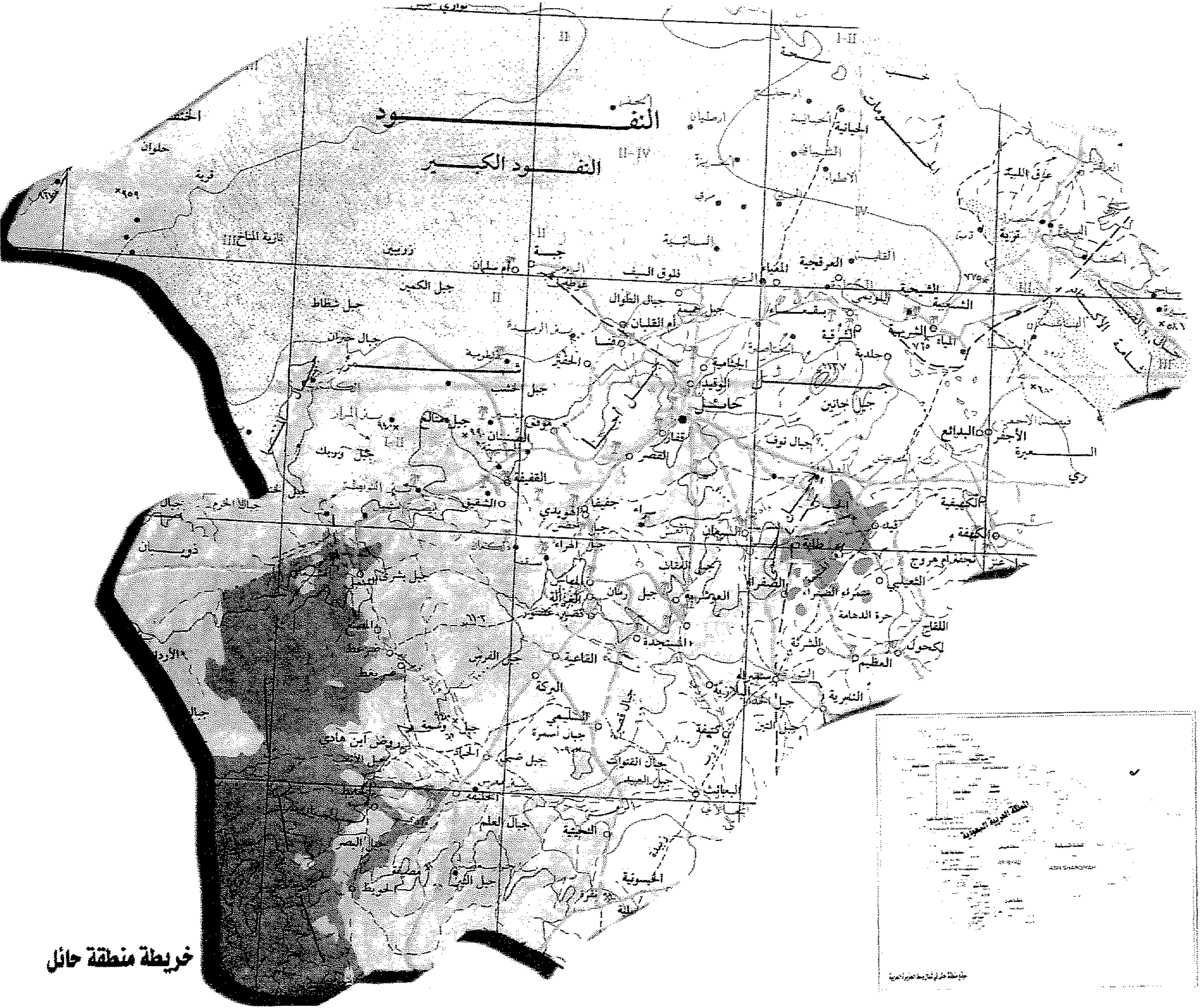
الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م
لبنـــــان
ISBN: 9953-0-0336-X



Barzan Publishing Ltd.

Jounieh, FAP Bldg.
P.O.Box: 29 Jounieh, Lebanon
Telefax: +961 9 646453
http://www.barzanpress.com
info@barzanpress.com
arabic@barzanpress.com


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



خريطة منطقة حائل

المحتويـــات

مقدمـة

على الرغم من تزايد النشاط في الكتابات عن تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث في السنوات الأخيرة، إلا أنه مازال منصباً على التاريخ العام لها وما يرتبط به من قضايا وتشعبات. ونلحظ أن التواريخ المحلية بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسكانية للأقاليم المؤلفة لأرض الجزيرة لم تحظ بالاهتمام الكافي بعد، وبما يسهم في كشف حقائق هذه التواريخ وتحليل أحداثها تحليلاً علمياً يقوم على حقائق أو معلومات موثقة ومناهج علمية سليمة، وبما يسهم أيضاً في كشف أهمية هذه التواريخ للتأريخ العام للأمة وللكيانات السياسية التي قامت في جزيرة العرب. ويمكن إرجاع أسباب عدم العناية بالتواريخ المحلية إلى ندرة المصادر والوثائق المتعلقة بها بسبب انعدام ثقافة التدوين بين سكانها لانتشار الجهل والأمية فيها لحقب طويلة من الزمن، وإلى تركيز المدرسة التاريخية العربية عنايتها ، منذ بداياتها، على تدوين تواريخ الدول والحكام والغزوات والحروب أكثر من عنايتها بالشعوب والأقاليم التي لا يرد ذكرها إلا حينما يرتبط أمرها بالوقائع المرتبطة بالدول والحكام. وهذه الأسباب المهمة أدت، في ما أدت إليه، إلى وجود فترات انقطاع طويلة في تواريخ أقاليم معينة من الجزيرة العربية، بحيث تبدو وكأنها كانت خارج التاريخ، لا يعرف عنها إلا القليل، الذي إن وجد يكون متفرقاً ولا يمكن بناءً عليه تقديم أو حتى تشكيل صورة متكاملة عن أوضاعها خلال فترات الانقطاع التي قد تصل إلى ألف سنة في بعض الأقاليم. وكان يمكن أن

تسم فترات الانقطاع، التي طبعت تواريخ مناطق عديدة من مناطق الجزيرة في تاريخها القديم والوسيط، وتاريخها الحديث بأبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

وفي هذا السياق تكتسب كتابات الرحالة الأوروبيين إلى الجزيرة العربية أهمية بالغة في مجال توفير معلومات أولية في الجوانب المتعلقة بها كافةً، لا غنى عنها للباحث في التاريخ العام للجزيرة العربية وفي التواريخ المحلية للمناطق التي زاروها، لاسيما في ظل عدم وجود كتابات مماثلة من أبناء البلاد أنفسهم، وانعدام السجلات والوثائق المحلية عن الفترات التي ارتحلوا فيها عبر الجزيرة العربية. ولأنها تقدم أيضاً مسحاً عامّاً لأوضاع بلادنا في مراحل معينة يمكن أن يساعد على دراسة مراحل التطور التي مرت بها في عهودها المختلفة. وهي علاوة على فائدتها العلمية، مفيدة في توضيح رؤية الآخر لنا والصورة التي طبعها عنا في مخيلته حول ديننا وحضارتنا وشخصيتنا وعاداتنا وتقاليدنا. وهي الصورة، التي أخذت إلى حدٍ ما من خلال كتابات الرحالة والمستشرقين، والتي ما تزال قائمة.

يؤرخ دارسو أدب الرحلات[1] إلى الجزيرة العربية بدايات الاهتمام بأوضاعها، برحلة لويس فارثيما الإيطالي إلى مكة والمدينة، عام ١٥٠٣م[2]. إلا أن التأريخ العلمي لاكتشاف الجزيرة العربية، يبدأ مع رحلة كارستن نيبور الألماني أحد أعضاء البعثة العلمية الدنماركية التي أرسلها ملك الدنمارك عام ١٧٦١م/ ١١٧٥هـ إلى اليمن. انتهت هذه الرحلة بعودة نيبور، الناجي الوحيد من أفراد البعثة الذين قضوا خلال رحلتهم، في شهر نوفمبر ١٧٦٧م/ ١١٨٢هـ إلى كوبنهاجن، وتقديمه في عام ١٧٧٢م/ ١١٨٦هـ خلاصة عمله في كتاب، مهدى إلى ملك الدنمارك، يحتوي على وصف عام للبلاد، من

النواحي الجغرافية والدينية والاجتماعية والسياسية واللغوية ، وفصول عن المناطق المتعددة للجزيرة العربيةكاليمن، وحضرموت، وعُمان، ومشيخات الخليج، ونجد، والحجاز، وصحراء سيناء[٣]. كما نقل فيه أول أخبار عن ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، التي كانت قد ظهرت في نجد إلى أوروبا. على خطى نيبور سار عدد من الرحالة الأوروبيين، الذين أخذوا مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري، بالتوافد على مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية، لا سيما الحجاز واليمن، فشكلت كتاباتهم مصدر المعرفة الغربية الوحيد عن هذه المناطق، جغرافياً وسياسياً واجتماعياً ودينياً وثقافياً وسكانياً. وابتداءً من عام ١٨٤٥م/ ١٢٦١هـ اتجهت أنظار كثيرين منهم إلى مناطق شمال الجزيرة العربية ووسطها وشرقها وغربها، وهي المناطق التي لم يصل إليها الرواد الأوائل منهم ، لاستكمال النقص في معلوماتهم حولها وكشف مجاهلها.

كانت منطقة حائل [٤]، وعاصمتها مدينة حائل ، إحدى أهم مناطق شمال ووسط شبه الجزيرة العربية التي اتجهت إليها أنظار أولئك الرحالة الأوروبيين، وخصّوها بعناية كبيرة في كتاباتهم نظراً للأهمية السياسية التي كانت تحظى بها زمن قيامهم برحلاتهم، إذ قامت فيها إمارة عربية استطاعت في خلال إحدى مراحلها أن تضم أجزاء كبيرة من مناطق شمال ووسط وغرب الجزيرة العربية، كما سنرى في ثنايا هذا الكتاب؛ ونظراً لأهمية موقعها الجغرافي الذي يتوسط مناطق عدة فقد قامت فيها على مر القرون محطات تجارية لوقوعها في طريق قوافل الحج والتجارة بين العراق والحجاز.

زار منطقة حائل خلال الفترة الواقعة ما بين ١٨٤٥م/ ١٢٦١هـ و١٩٢١م/ ١٣٤٠هـ اثنا عشر رحالة من الأوروبيين خصوها باهتمام في كتاباتهم[٥].

وقدم هؤلاء الرحالة عن المنطقة الكثير من المعلومات التي تصف جغرافيتها وتؤرخ لأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتركيباتها السكانية، حاضرة وبادية، إما في كتب نشروها أو محاضرات عامة ألقوها في المنتديات والجمعيات الجغرافية في أوروبا، أو في تقارير خاصة قدموها إلى دولهم أو إلى الجهات الممولة لرحلاتهم.

ونظراً لغزارة المادة التي وفرها هؤلاء الرحالة حول هذه المنطقة، فقد جاء الكتاب في جزأين: يتناول الجزء الأول الرحالة الأوروبيين الأوائل، وهم جورج أوغست والن الفنلندي، ووليم جيفورد بلغريف الإنكليزي، وكارلو غوارماني الإيطالي، وتشارلز داوتي الإنكليزي. ويتناول الجزء الثاني كل من الليدي آن بلنت وزوجها ويلفرد بلنت الإنكليزيين، وتشارلز هوبر الفرنسي، وجوليوس أوتنغ الألماني، وإدوارد نولده اللاتفي، وليتشمان الإنكليزي، وجيرترود بيل الإنكليزية، والويس موسيل التشيكي.

ويأتي هذا الكتاب كجزء من مشروع علمي بدأته منذ سنوات عدة يهدف إلى جمع وترجمة كل ما كتبه الرحالة الأوروبيون عن مناطق الجزيرة العربية كافةً باللغات الأجنبية على اختلافها، لقناعتي بالأهمية العلمية لهذه النصوص، وضرورة توفيرها باللغة العربية للباحثين والدارسين والجمهور، لأعمل على نشرها مسلسلة على أساس مناطقي، وبمنهج ميسّر يتضمن التعريف بالرحالة وأهدافه وأهمية ما قدمه ثم أورد النص الخاص بالمنطقة المعنية، وأن أبدأ بأول رحالة زار المنطقة وأنتهي بآخر رحالة زارها ضمن الإطار الزمني المحدد لكل منطقة. وقد بدأت هذه السلسلة بدءاً من شمال الجزيرة العربية الذي شكل لأغلبية الرحالة الأوروبيين البوابة لدخول الجزيرة العربية. وصدر المجلد الأول ضمن هذه السلسلة بعنوان "الرحالة الأوروبيون

في شمال الجزيرة العربية : منطقة الجوف ووادي السرحان "[٦].

وضمن هذه السلسلة، وبالمنهجية نفسها، يأتي هذا الكتاب الذي يقدم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا منطقة حائل ونصوصهم حولها[٧]، حيث أُعرِّف بالرحالة وخلفيته وأهداف رحلته، ثم أورد النص المترجم للرحالة، حسبما ورد في أصله، دون تدخل في المعنى أو المبنى إلا ما تطلّبته عملية تحرير النص، بهدف تصويب معلومة أو كلمة أو تاريخ، دون المساس بجوهر المعلومة، وسيأتي تدخلي بين معقوفتين[ ]. وحاولت أن أختصر الملاحظات والهوامش وأتجنب التعليق قدر الإمكان، وحصرها في التعريف ببعض الأعلام أو الأماكن أو إرجاع المعلومات المقتبسة في نص الرحالة إلى مراجعها الأصلية؛ ولكنني وجدت نفسي، في حالات معينة، مضطراً لتجاوز فقرات محددة في بعض النصوص، حول قضايا اجتماعية ودينية، لأن فائدة الجهل بما ورد بها، وقد تكون غير صحيحة، تفوق فائدة العلم بها، وأشرت إلى ذلك بوضع . . . مكان النص الذي تم تجاوزه.

من هنا لابد من الإشارة مسبقاً إلى أن القارئ سيجد تفاوتاً واختلافاً بل وتناقضاً في بعض النصوص والآراء والانطباعات التي سجلها كل رحالة. وإنه سيجد ما لا يرضيه أو يتوافق وقناعاته الشخصية بل ربما وقف على ما يثير غضبه وحنقه، وما سيرى أنه يسيئ إليه وإلى قيمه وإلى نظامه الاجتماعي وحتى معتقداته . ولذلك ينبغي أن أشير إلى الآتي : أولاً، إن ما يقدمه هؤلاء الرحالة من معلومات وآراء تعبر عنهم وترسم انطباعاتهم وميولهم وربما تخدم توجهات الجهات التي أرسلتهم، لذلك لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها حقائق لا تقبل الدحض والمناقشة، أو أخذ ما يورده بعض الرحالة استناداً إلى مرجعياتهم الدينية والحضارية والثقافية، وإلى أهداف رحلاتهم، حول

أوضاع معينة أو أشخاص أو جماعات في كتاباتهم، على أنه مرجعية موثوقة لتقويم تلك الأوضاع أو الأفراد أو الجماعات، أو تعميم للأحكام حولهم. فهم أحياناً يعممون مقولات أو آراء لا تستند إلا إلى تجربة فردية واحدة، وهذا فيه جور على الحقيقة، ويقدمونها على أنها أحكام عامة. وحكمنا هذا أيضاً لا ينبغي تعميمه أيضاً على الرحالة كافةً، فمنهم العالم الذي يسعى لخدمة العلم، وامتازت كتابته بالموضوعية والإنصاف، ومنهم التاجر أو السائح المحايد الذي يصف ما يراه، خلال إقامته القصيرة، دون إصدار أحكام أو تعميمها. ومنهم الجاسوس الذي يقصر إسهامه على انطباعات لا تصمد أمام الحقائق، ومنهم المغامر المتعصب الذي لا يرى شيئاً إلا وأصدر حكماً عامّاً عليه وربطه بديننا وثقافتنا وعقليتنا، ومنهم الدبلوماسي الذي قصر ملاحظاته على ما كانت عليه أهداف رحلته. . . إلخ. ثانياً، لا يعني تقديم هذه النصوص وبالمنهج المتبع أنني أتفق مع ما جاء فيها، وأقبله كحقائق، بل أختلف مع كثير مما جاءوا به، وأعدُّه جوراً على الحقيقة؛ لأن بعضهم يذكر حالات أو يصف أوضاعاً ويصدر أحكاماً تخلو من الموضوعية والإنصاف لأنه ينظر إليها خارج سياقها الاجتماعي. ثالثاً، إن ما كتبه الرحالة وسبق نشره لم يكتب لنا بل كتب بلغاتهم ولشعوبهم لتتعرف على الشعوب الأخرى، وعليه نجدهم يركزون على ما يرونه غريباً بالنسبة لهم ويقّومونه من خلال مرجعياتهم الدينية والحضارية، ومن خلال ذهنيتهم التي تقوم على هذه المرجعيات. رابعاً، ينبغي للقارئ أن لا يتخيل أن ما سيقرأه ويصدمه كشف لأسرار يجب عدم البوح بها، فهي نصوص منشورة ومعروفة، ويعود أحدثها إلى ما لا يقل عن ثمانين عامًا. وبعضها ما تزال دور النشر الغربية تعيد طبعها ويقرأها الملايين، وبعضها قد يكون سبق نشره أو قدم باللغة العربية. لذلك لا ينبغي أخذ الأمور

بحساسية شديدة وكأن ما هو مذكور في بعض هذه النصوص غير معروف عند الآخرين، كما أن عدم نشره الآن لا يعني عدم نشره مستقبلاً. خامساً، ينبغي للقارئ أن يأخذ في الحسبان السياق التاريخي والمرحلة التاريخية التي تتحدث عنها أو تصفها النصوص، وأن ما كان لا ينسحب بالضرورة على أوضاعنا الحالية أو أن الأوضاع باقية على حالها، فبلادنا خطت خطوات بعيدة في ميادين العلم والوعي والتنمية، وكثير من الظواهر والمظاهر التي كانت سائدة وتعدّ سلبية، قد لا تكون موجودة اليوم. وعليه؛ فإن نظرتنا يجب أن تكون أبعد ونعترف بحقيقة أننا كنا في مناطق كثيرة من الجزيرة العربية نعاني الجهل والأمية وتداعياتهما، وأن نحمد الله على أن أوضاعنا قد تغيرت، وأن نعدّ ما لا يعجبنا مما يذكره الآخر عنا دافعاً لنا لنتعرف على مواطن ضعفنا، لنعمل إن كانت ما تزال موجودة، على تلافيها وتعزيز الإيجابي منها، لا سيما وأن نقاط الضعف هذه موجودة في صورتنا عند الآخر التي تشكلت عبر السنين بناءً على معلومات هؤلاء الرحالة، والمستشرقين الذين اعتمدوا على كتاباتهم. لذلك ينبغي أن لا نغفل هذا البعد في قراءتنا لهذه النصوص، فمعرفتك للأسس التي تشكلت فيها صورتك عند الآخر تساعدك في تعاملك معه. سادساً، لا ينبغي، مهما تكن الشوائب في هذه الكتابات، أن نتعامل معها بالعاطفة وعدم الموضوعية، فبدونها ستبقى صفحات كثيرة ومهمة من تاريخنا وتاريخ أوضاعنا مجهولة.

وأخيراً؛ أترك للقارئ الكريم، أن يحكم بنفسه على ما قدمه هؤلاء الرحالة، وتقدير مدى أهميته العلمية والثقافية. كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من ساعد على إخراج هذا الكتاب.

عوض البادي

الهوامش :

(١) أهم هؤلاء المؤرخين: جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب :خمسة قرون من المغامرة**، ترجمة قدري قلعجي وتقديم حمد الجاسر ، بيروت و الرياض: منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ص ص ٣٥-٣٧.

روبن بدول، **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة عبدالله آدم نصيف، الرياض: خاص، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ص ٢٣-٢٦.

David George Hogarth, **The Penetration of Arabia: Records of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula,** New York: Frederick A.Stokes Co., 1904, p31.

(٢) جون ونتر جونز، **رحلات فارثيما**، ترجمة وتعليق عبدالرحمن عبدالله الشيخ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

(٣) توركيل هانسن، **من كوبنهاجن إلى صنعاء**، ترجمة محمد أحمد الرعدي، بيروت: دار العودة، ١٩٨٣م، ص ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) إحدى المناطق الرئيسية في شمال وسط المملكة العربية السعودية، وإمارة من إماراتها الإدارية. وسترد في ثنايا هذا الكتاب معلومات وافية حول تسميتها وموقعها وجغرافيتها وتاريخها القديم والوسيط والحديث.

(٥) قد يكون زار منطقة حائل عدد أكبر من الرحالة الأوروبيين، إذ تشير بعض المصادر الحديثة إلى أن الرحالة البولندي الكونت فاكلاف رزيفسكي كان قد زار جبل شمر ضمن رحلاته لشراء خيول عربية أصيلة في الفترة من سنة ١٨١٨-١٨١٩م في شمال وشمال غرب الجزيرة العربية. وكان قد كتب حول رحلاته وتجربته مع الخيول العربية لكن مخطوطته البالغة ٨٠٠صفحة لم تنشر بعد، وهي موجودة - في الوقت الحالي - في المكتبة الوطنية في وارسو ببولندا. انظر:

Peter Harrigan, "The Polish Quest For Arabian Horses", **Saudi Aramco World,** November/December 2001.

(٦) عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان**

١٨٤٥-١٩٢٢م، ط٢ ، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٠م.

(٧) سبق أن قُدمت بالمنهجية نفسها كافة نصوص الرحالة الأوروبيين حول مدينة حائل باللغة الإنجليزية. انظر:

Philip Ward, **Hail: Oasis City of Saudi Arabia,** Cambridge: The Oleander Press, 1983.

جورج أوغست والن
١٨٤٥م / ١٢٦١هـ



جورج أوغست والن
صورة زيتية

جورج أوغست والن

Yrjo Aukusti Wallin

يعد هذا الرحالة والمستشرق الفنلندي أول المكتشفين الأوروبيين الرواد الذين جابوا شمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي، وسجلوا ما رأوه وسمعوه وخبروه وقدموه في لغاتهم، وحفظوا بذلك ما نسيته الأجيال في مناطق عدة من شبه الجزيرة العربية عن تاريخهم القريب، لغياب وسائل المعرفة لديهم، ولافتقادهم لإرث التأريخ للذات والتوثيق لها. وهو، علاوة على هذه الريادة، يعدّ أكثرهم علمية وموضوعية حتى أن ديفيد جورج هوغارث، أحد مؤرخي تطور المعرفة الغربية عن الجزيرة العربية قال فيه: "مهما كانت دوافعه، فإن والن كان أحد أقدر الأوروبيين الذين وطئوا أرض الجزيرة، وكان مؤهلاً لمهمته. . . . كما يعترف له الإنسان، و ربما لأول مرة في تاريخ اكتشاف الجزيرة العربية بأنه مكتشف علمي من الطراز الحديث، فقد كان مُعدّاً بشكل كامل وعاقداً العزم على ألاّ يترك شيئاً لأي أحد يمكن أن يأتي بعده " (١). فمن هو يا ترى هذا الرحالة؟ وكيف أعدَّ نفسه لهذه المهمة وما هي دوافعه؟

ولد والن عام ١٨١١م في جزيرة أولاند الفنلندية، حيث كان يعمل والده في محكمتها. وفي سنة ١٨١٧م انتقلت عائلته إلى مدينة توركو، العاصمة القديمة لبلاده، حيث بدأ تعلّمه في مدرسة كنسية. واصل والن دراسته في

توركو حتى أنهى دراسته الثانوية، ثم انتقل إلى هلسنكي سنة ١٨٢٩م لتلقي تعليمه الجامعي في جامعة هلسنكي. ولمّا كانت الدراسة الجامعية في تلك المرحلة متنوعة المواد ولا تركز على تخصص محدد، فقد درس مواضيع متعددة، ولم يلفت نظر مدرسيه وزملائه من خلال تفوقه الدراسي، ولكنه كان نشطاً في الحياة الطلابية الجامعية حتى إنه كان أحد الطلاب الذين حرموا من الدراسة سنة ١٨٣٤م لمشاركته في تجمع محذورحضوره. وعرف أيضاً بموهبته في تعلم اللغات الأجنبية محادثة وكتابة بسرعة، فبالإضافة إلى اللغتين السويدية و الفنلندية اللغتين الرسميتين في بلاده كان يجيد، وهو في المرحلة الجامعية، اللغات: اللاتينية والفرنسية والروسية والإنجليزية والألمانية وبعضاً من العربية. وواصل والن دراسته وحصل على الماجستير في الفلسفة سنة ١٨٣٦م. ثم بتأثير من أستاذ الأدب الشرقي في جامعة هلسنكي وصديقه البروفيسور جبرائيل غيلتين، الذي كان يجيد اللغتين العربية والفارسية، واصل والن دراسة الدكتوراه متخصصاً باللغات الشرقية، وحصل على الدرجة سنة ١٨٣٩م، وكان موضوع أطروحته يتناول الفارق بين اللغة العربية الفصحى والعامية، وقد نشرت هذه الأطروحة عام ١٨٣٩م. وفي العام نفسه عيِّن محاضراً للأدب الشرقي في جامعة هلسنكي(٢).

ولـمَّا كانت مدينة سانت بطرسبورغ عاصمة الإمبراطورية الروسية في حينه أحد مراكز أوروبا الرائدة في الدراسات الشرقية، فقد كان المستشرقون الفنلنديون يتجهون إليها للحصول على تعليم أفضل لا سيما وأن بلدهم كان دوقية تابعة للقيصر الروسي منذ ١٨٠٩م. وهكذا قصد والن هذه المدينة سنة ١٨٤٠م أولاً لبحث إمكانية التحاقه بالسلك الدبلوماسي الروسي، ثم للدراسة في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية. وحيث لم

ينجح في هدفه الأول فـقـد نجح في الثـاني، وانتـقل من هلسنكي إلى سـانت بطرسبورغ وبقي فيها سنتين يدرس اللغات العربية والفارسية والتركية على يد أساتذة من أهل هذه اللغات، ويتابع محاضرات المستشرقين الكبار في المدينة. وكان لأستاذه اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية في بطرسبورغ الشيخ الأزهري محـمـد عياد الطنطاوي (٣) أكبـر الأثر في تشكيل حياته، وتطورت علاقتهـما من علاقة طالب بأستاذه إلى علاقـة صداقة شخصية دائمة، وكانت حواراتهـما دافعاً لرغبة والن في الذهاب بنفسه إلى بلاد العرب للتعرف إليهم و إلى حضارتهم.

تقدم والن في خريف ١٨٤١م بطلب إلى جامعة هلسنكي للحصول على منحة دراسيـة لمدة خمسة أعوام للقيام برحلة إلى مصر والجزيرة العربية، وأوضح أهمية مشروعه الذي سيرفع من شأن جامعته ويخدم العلم بشكل عام. كما أوضح القصور في دراسة لهجات العرب ومدى الحاجة لتلافي ذلك، وذكر في خطته للرحلة أنه سيذهب أولاً إلى مصر التي يجيد لهجتها ليتعلم فقه اللغة العربية على يد العلماء، وليتعود طريقة تلقي العلم في الشرق. وذكر أنه سيتجول في مصر، ومن ثَمَّ سيذهب إلى اليمن لاستكمال المعلومات حول اللغة الحِمْيَرية، ومنها سيسلك طريق القوافل إلى مكة [المكرمة] والاتجاه شرقاً لمتابعة مراحل انصهار اللغة الحميرية باللغة العربية. وأنه بعد هذه الجولة الطويلة سيكون قد أجاد اللغة العربية وتعلم العادات الإسلامية بالقدر الذي سيجعله يغامر في صحراء الجزيرة العربية دون خوف من انكشاف أمره على أنه أجنبي. وأضاف أنه بعد ذلك سيجمع معلومات عن لغة هذا البلد المجهول للأوروبيين وجغرافيته وتاريخه. واستطرد في خطته الطموحة، التي لم يتسن له تحقيقها، أنه سيذهب بعد مكة إلى الدرعية

واليمامة والعارض للتعرف إلى الوهابيين و إلى تعاليمهم، ومنها سيذهب إلى القطيف ثم إلى البصرة، بعدها يعود إلى المدينة [المنورة]، ومنها يسلك طريق القوافل إلى فلسطين ومنها إلى إستانبول. وافقت الجامعة على تمويل رحلته، فعاد من سانت بطرسبورغ إلى هلسنكي في ربيع ١٨٤٢م، يعدّ للرحلة لكنه طلب من الجامعة تأجيل الرحلة لمدة عام ليدرس الطب ويتعلم بعض الأعمال الطبية والعلاجية ليسافر بوصفه طبيباً. وكلفته الجامعة قبل السفر بمهّمات عليه القيام بها خلال رحلته وهي جمع مواد تشريحية، مثل الجماجم والهياكل العظمية الخاصة بالحيوانات، وأن يحصل للمكتبة على مخطوطات عربية وكتب مطبوعة بالقاهرة.

غادر والن يوم ٢٨ يوليو ١٨٤٣م هلسنكي ليبدأ رحلته الطويلة، وكان آخر مودعيه شيخه وأستاذه وصديقه الطنطاوي الذي قدم إلى هلسنكي خصيصاً لوداع تلميذه وصديقه، قبل عشرة أيام من مغادرته. ذهب والن إلى هامبورغ، وباريس، ومرسيليا ثم إستانبول، ومنها إلى الإسكندرية التي وصلها يوم ١٥ ديسمبر ١٨٤٣م. بعد بقائه خمسة أسابيع في الإسكندرية بشخصيته الأوروبية المسيحية، غادر إلى القاهرة التي وصلها راكباً حماراً يوم ٢٩ يناير ١٨٤٤م بشخصية جديدة، مسلم من بخارى الخاضعة للقيصر الروسي، وبإسم ولي[٤].

بدأ والن بشخصيته الجديدة الاندماج في المجتمع المصري، وأخذ يتلقى الدروس الدينية وحفظ أجزاء من القرآن الكريم ليكون مستعداً للظهور كرجل دين، وقد نجح في ذلك للدرجة التي لا تدع مجالاً للشك بأنه ليس مسلماً وليس شرقياً. وهكذا بدأ في تحقيق خطته للترحال في مصر والجزيرة العربية. وكانت البداية القيام برحلات في أنحاء مصر حتى وصل

الصعـيد. وبعد عودته من رحلته الصعـيدية بدأ في التـحضير لرحلته إلى الجزيرة العربية لكن ليس كما خطط عن طريق البحر الأحمر؛ لأنه عرف بأنهم في الجزيرة العربية يشكّون بكل من هو قادم من مصر بسبب أطماع محمد علي المستمرة في بلادهم. فاختار والن أن يبدأ رحلته من الشمال عبر الصحراء باسم عبد الولي، إذ رأى أن اسم ولي الذي كان قد اتخذه لم يكن مناسباً له رغم أنه حاول أن يقنع الناس بأنه اسم شائع في بلاده المزعومة، بلاد بخارى (٥).

غادر والن القاهرة يوم ١٢/ ٤/ ١٨٤٥م [١٢٦١هـ] برفقة مرشد بدوي عبر سيناء متجهاً صوب نجد. وكانت محطته الأولى في شمال الجزيرة العربية الجوف التي وصلها يوم ٢٥/ ٥/ ١٨٤٥م، وبقي فيها حتى ٣٠/ ٨/ ١٨٤٥م، ومنها سافر إلى حائل، عبر النفود، التي وصلها يوم ٢٠/ ٩/ ١٨٤٥م. بقي والن في حائل ما يقارب شهرين، يعدّها من أفضل أيام رحلاته. فبعد أن بقي ضيفاً لمدة ستة أيام في ضيافة الأمير عبدالله بن رشيد، وكان ينام في المسجد قابل درويشاً من بلاد فارس، وصاحبه واستكْرى مسكناً وانتقلا إليه. وقد ذكر والن في أوراقه الخاصة أنه في حائل نسي العالم كله، وقضى أياماً سعيدة لدرجة أنه فكر كثيراً في اقتراح أصحابه من حائل أن يعيش معهم إلى آخر العمر لا سيما وقد عرض عليه واحد من أشهر شعراء نجد [لم يذكر اسمه] أن يبقى في حائل ويتزوج ابنته (٦).

ولمّا كانت الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فقد أدرك والن أن ما معه من مال لا يكفيه ليكمل رحلته كما خطط لها، فغادر مع قافلة حج بغداد إلى المدينة المنورة حيث زار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومكة المكرمة وأدى فريضة الحج، وقد وصف حجه في مذكراته الخاصة . وبعدها عاد إلى مصر

ليخطط رحلة عودته إلى الصحراء التي أحبها [٧].

استقر والن في القاهرة بعض الوقت يتبادل الرسائل مع جامعته للحصول على بعض المال لإكمال مشروعه، والإعداد لرحلة أخرى إلى نجد واليمن . وخلال هذه الفترة زار سيناء والقدس [٨].

في نهاية عام ١٨٤٧م انطلق في رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية باسم عبدالمولى ؛ لأن أحد النجديين في مصر الذي قد يكون أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله ابن الشيخ، وهو من معارف والن في القاهرة أقنعه بذلك، لأنه كان متجهاً في رحلته الثانية إلى الرياض . وقد حمل والن رسائل توصية من هذا الشيخ إلى الإمام فيصل بن تركي آل سعود والشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ توصي بمراعاته[٩]. زار والن في هذه الرحلة مويلح على البحر الأحمر وتبوك وتيماء، ثم حائل حيث قضى بها شهراً ونزل البيت نفسه الذي نزله في رحلته الأولى. ولم يتمكن من زيارة الرياض والوصول إلى الخليج لوجود بعض الاضطرابات في المنطقة، وخوفاً من اكتشاف أمره بأنه غير مسلم بالإضافة إلى انتشار بعض الشائعات بأنه يعمل لحساب خديوي مصر، وأن هناك شكوكاً بأنه غير مسلم [١٠]. غادر والن حائل متجهاً إلى العراق فإيران، وعانى صعوبات كثيرة في رحلته حتى تمكن من العودة إلى القاهرة، التي غادرها إلى لندن [١١]. ألقى والن بعض المحاضرات عن رحلاته، وساعد في رسم وتعديل بعض الخرائط في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، ثم قفل عائداً إلى بلاده عام ١٨٥٠م. بعد عودته إلى بلاده تم تعيينه أستاذاً للأدب الشرقي في جامعة هلسنكي، بعد أن قدم أطروحة للحصول على دكتوراة العلوم التي ستؤهله ليصبح بروفيسوراً في الجامعة، وكانت ترجمة وتحقيق مخطوطة

أشعار الصوفي الشاعر ابن الفارض (١١٨٢-١٢٣٥م) وتعليقات عبدالغني النابلسي (١٦٤١-١٧٣١)عليها (١٢).

وما إن بدأ والن الاستقرار في بلاده حتى دعاه الشوق من جديد لصحرائه التي كانَ يتمنى أن يموت فيها، وأخذ يعد لرحلته الكبرى إلى الجزيرة العربية، وأكد ذلك ما ذكره في إحدى رسائله إلى رئيس الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، حيث قال: " سيبقى الذهاب إلى الشرق ولا سيما صحراء شبه الجزيرة العربية هو الهدف الأكبر في حياتي، وسأحاول أن أنفذ خطتي للذهاب إلى هناك بأسرع ما يمكن . . . ويمكن أن أرجع إلى هناك كرحالة أوروبي لأبحث أرض العرب المجهولة، وسوف أقدم نتائج أبحاثي إلى البلاد الغربية الطالبة للعلم . . . أو ربما أذهب من أجل سعادتي الشخصية فسوف أبعد عن حياة أوروبا الضاغطة، وأتمتع بطبيعة الصحراء الغنية. وسوف أنعم بحياة البدو الزاخرة بالحرية والنشاط، وأستريح من حياة المظاهر في أوروبا. ويمكن لي أن أحيا و أموت كالبدوي الحر بين أهل الصحراء الأحرار. وأنا مستعد أن أدير ظهري إلى الغرب وأتجه نحو الشرق وسوف أفعل ذلك عاجلاً أم آجلاً" (١٣). بهذه الروح كان والن يتفاوض مع الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية التي عرضت عليه المساعدة، والجمعية الجغرافية الإمبراطورية الروسية، ولكنه وقبل قفل باب المفاوضات حول هذه الرحلة أسلم روحه إلى بارئها في منزله بهلسنكي يوم ٢٣أكتوبر ١٨٥٢م، عن إحدى وأربعين سنة . وقد كانت وفاته صدمة لكل فنلندا كما كتب أحد المستشرقين الفنلنديين الكبار على الرغم من أن أهمية مساهماته العلمية لم تكن قد عرفت بشكل كامل في حينه (١٤).

لم يحقق والن شهرة كبيرة في حياته إذ إن أغلبية أعماله لم تُنشر إلا بعد

وفاته، ومع ذلك فقد حصل تقديراً لجهوده تمثَّل في حصوله على جائزة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، و الميدالية الفضية للجمعية الجغرافية الفرنسية . وكان كل ما قدمه حول رحلاته محاضرات في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بلندن. وكانت محاضرته الأولى في الثاني والعشرين من شهر أبريل ١٨٥٠م، عن رحلته الثانية للجزيرة العربية، و جاءت تحت عنوان " ملاحظات حول رحلة عبر جزء من شمال الجزيرة في ١٨٤٨م "[١٥]. ولم تنشر تلك المحاضرة إلا عام ١٨٥٢م في دورية الجمعية . أما ما كتبه عن رحلته الأولى فقد ألقي في ٢٦ أبريل ١٨٥٢ م، ونُشر في الدورية نفسها عام ١٨٥٤م وكان بعنوان " قصة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة عبر السويس، عربة، الطفيلة، الجوف، جبة، حائل، ونجد، في ١٨٤٥م "[١٦]، كما نُشر له في هذه الدورية الشهيرة " قصة رحلة من القاهرة إلى القدس عبر جبل سيناء " في عام ١٨٥٥م[١٧]، وكان قد كتبها سنة ١٨٥١م. كتب والن جميع هذه الدراسات المشار إليها باللغة الإنجليزية . وكتب أيضاً بعد عودته إلى بلاده دراسات باللغة الألمانية حول قصائد من الشعر العامي نشرها في مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق خلال عامي ١٨٥١-١٨٥٢م[١٨] . كما صدرت مراسلاته ومذكراته باللغة السويدية في خمسة مجلدات[١٩] .

كما ذكرنا آنفاً ؛ فإن والن أقام في حائل حوالى شهرين خلال رحلته الأولى، و درسها دراسة شاملة. وما كتبه عنها يعدّ من أفضل ما كتبه غربي من حيث علميته وموضوعيته عن الفترة التي تحدث عنها، وهنا نترك القارئ الكريم مع والن يتحدث بنفسه عن منطقة حائل[٢٠] :

في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس [١٨٤٥م / ١٢٦١هـ] غادرت الجوف[٢١] برفقة عائلة بدوية من قبيلة صغيرة، تدعى الحوازم، تعيش ممتزجة

مع الشرارات [٢٢] بجوار سكاكا [٢٣]. وأعتقد أن هؤلاء الحوازم هم بقايا قبيلة عدوان القوية سابقاً [٢٤]، التي انتشرت تحت اسم الحوازم في جزء واسع من نجد، وكانت تتمتع بنفوذ كبير في تاريخ العرب القديم. وهم يعيشون هنا مستضعفين، معرضين لسلب وغزو جيرانهم الأقوياء من قبيلة شمَّر، الذين يقومون في مجموعات صغيرة أو كبيرة بمهاجمتهم وسلبهم باستمرار. وقد سلبوا مؤخراً الجزء الأكبر من مواشي وإبل عدوهم الضعيف وساقوها إلى مضاربهم. وللحفاظ على نفسه وما تبقى له من القليل الذي كان يملكه قرر رفيقي أخذ عائلته وهذا القليل من الإبل التي بقيت له، متخلياً عن أرضه وعن قبيلته، والهجرة إلى منطقة عدوه، التي فيها سيكون متأكداً من وجود الأمن بإعلانه الولاء ودفع الزكاة لشيخ شمر. ولأنه من قبيلة معادية لمن هو ذاهب إليهم، فقد أراد حماية لنفسه في طريقه في حال وقع مصادفة مع جماعة من أعدائه. لقد وجد الحماية من خلال امرأة شمرية، أصلها من جبة، ولكنها متزوجة ومقيمة في الجوف. لقد تبعتنا هذه المرأة وزوجها، و أثبت وجودها أنه كاف لحمايتنا من قطاع الطرق من رجال بلدتها الذين التقيناهم في طريقنا. بعد عبورنا وادي الجوف باتجاه جنوب - شرق في ثلاثة أرباع الساعة، صعدنا جبال جال الجوف، التي في هذه الجهة منخفضة إلى حدٍّ ما، ومنحدراتها مغطاة برمال ناعمة ومتحركة. ومن جهتها الأخرى لم يكن علينا القيام بأي عملية نزول من قمم سلسلة جال الجوف؛ لأنها تتلاشى تدريجيّاً في رمال أرض النفود، التي تبدأ من هنا وتستمر دون انقطاع إلى قرب سلسلة جبال أجأ في منطقة جبل شمر. وبعد مسير خمس ساعات في هذه الأرض الرملية توقفنا للمبيت.

وفي اليوم الواحد والثلاثين من شهر أغسطس أوصلتنا مسيرة ثلاث عشرة

ساعة وثلاثة أرباع الساعة متواصلة باتجاه جنوب -جنوب-شرق إلى آبار الشقيق[٢٥]، وعددها ست آبار، واقعة في سهل ذي تربة صلبة وملحية، تختلف اختلافاً كبيراً عن الرمل الناعم الذي تتكون منه الأراضي المحيطة. تترواح أعماقها جميعاً بين ٢٠و٢٥ قامة [٢٦]، مشكلة أحواضاً واسعة في أسفلها، ولها فتحات دائرية ضيقة، قطر الواحدة منها حوالي ياردة. وهي مطوية ببراعة بحجارة كبيرة، وعلى الأحجار التي تشكل فتحات هذه الآبار استطعت التعرف على رموز مختلفة من الصلبان والأشكال، والتي بكل وضوح ترمز لحروف، مع أنها الآن غير مميزة وعفا عليها الزمن. الماء عذب وممتاز، ولا ينقطع طوال السنة. ولأن هذه الآبار هي الوحيدة مابين الجوف ونجد، وفي أرض غنية بمراعيها، حتى إلى نهاية الصيف، فهي ذات أهمية كبيرة، ليس للاتصال بين سورية ونجد فحسب، بل أيضاً للبدو الرحل، الذين يكونون متأكدين من وجود المرعى فيها لقطعانهم في أي فصل من فصول السنة. وخلال الشهرين الأخيرين من هذا الصيف خيم حول هذه الآبار أكثر من مئة عائلة من قبيلة الرولة ومن قبيلة شمر ومن قبيلة الشرارات، إذ وجدوا مراعَي كافية لقطعان إبلهَم خلال تلك الفترة الطويلة؛ ولأن الماء بدأ بالتناقص في هذه الآبار، وأصبح لا يكفي لسقيا قطعانهم كانوا مكرهين على مغادرة المكان قبل يومين من وصولنا. تقطع المسافة في العادة بين الجوف والشقيق في ١٢ إلى ١٤ ساعة، ولكننا قطعناها في حوالي ٢٠ ساعة بسبب ضعف وهزال رواحلنا. من المحتمل أن هذه الآبار هي التي ذكرها ياقوت تحت الاسم نفسه بوصفها ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم. و ذكر أن الشقيق جمع شقيقة، وهو كل غلظ بين رملين[٢٧]. وهذا الوصف ينطبق انطباقاً كاملاً مع طبيعة الأرض التي حفرت فيها هذه الآبار؛ وفي الواقع، وجدت أن كل

أرض مررت بها في النفود وبها آبار وماء لها خصائص هذه الأرض نفسها.

ولأننا قضينا الجزء الأكبر من اليوم التالي، الأول من شهر سبتمبر، عند الآبار، نملأ قربنا ونسقي إبلنا، لم نسر في ذلك اليوم إلا ست ساعات. وكان اتجاهنا نفسه اتجاه الأمس، جنوب -جنوب -شرق. وكنا نرى إلى يميننا طوال مسيرنا لذلك اليوم سلسلة منخفضة من الجبال تسمى الطويل، تمتد من شمال - غرب إلى جنوب - شرق؛ ولكن في اليوم التالي، عند الظهيرة، اختفت عن أنظارنا.

في اليوم الثاني من شهر سبتمبر سرنا أربع عشرة ساعة ونصف الساعة، وكان اتجاهنا دائماً الاتجاه نفسه جنوب - جنوب - شرق، متبعين ما يشبه الطريق يسمى الخل، مساراته يمكن تمييزها على طول الطريق من الجوف إلى جبة(٢٨)، ولكن بعض أجزائه قد اختفت بفعل الرمال المتحركة. وهذا الانقطاع في المسارات حيَّر كثيراً دليلنا، الذي لم يكن متأكداً من طريقه؛ ولكن في الصباح الباكر رأينا أمامنا في الأفق جنوب-جنوب-شرق قمتين لجبل منعزل ترتفعان فوق مستوى هذا المحيط الرملي، مثل منارة لمنتصف الطريق بين الجوف وجبة.

في اليوم الثالث من شهر سبتمبر وصلنا بعد مسير ثلاث ساعات إلى ذينك الجبلين اللذين يقفان متقاربين وكأنهما يشكلان قاعدة واحدة، منها يرتفع كل واحد منهما مثل قمة مخروطية. يسمى الجبل الشمالي العليم، والآخر الطرقي. وربما أن هذين الجبلين هما اللذان أشار إليهما ياقوت [الحموي] باسمي علم السعد و دجوج. وحدد موقعهما على أنهما يبعدان مسافة يوم من دومة الجندل، وأنهما يرتفعان عالياً ومتقاربان لبعضهما البعض، وكأنهما يتلاصقان. ويضيف أن دجوج سلسلة من الرمال المتصلة، التي تمتد مسيرة

يومين إلى دون تيمـاء بيـوم، وفي الجـانب الآخـر من هذه السلسلة تبـدأ الصحراء، التي قد تكون الصحراء السورية. وبالفعل، تبدأ أرض النفود على مسافة يوم من تيماء شرقاً، و حسب كل الاحتمالات، فإن المسافة بين هاتين القمتين وتيماء قد تقدر بثلاثة أيام؛ ولكن مسافة يوم واحد من الجوف إلى هاتين القمتين حسب قول ياقوت لا تنطبق عليهما(٢٩). إن لهذين الجبلين أهمية كمَعْلَم في الصحراء التي بسبب تشابه معالمها قد يتوه فيها المسافر بسهولة. لقد قطعنا في هذا اليوم مسافة اثنتي عشرة ساعة ونصف الساعة بعد هاتين القمتين.

في اليوم الرابع من شهر سبتمبر بلغت مسيرتنا مسافة ثماني عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة. وفي الصباح الباكر رأينا أمامنا في الأفق جبلاً آخر، يقع في جنوب-جنوب-شرق. في سفح هذا الجبل الذي يسمى أم سلمان (٣٠) تقع قرية جبة، مقصد رحلتنا؛ لذلك وجهنا سيرنا باتجاه الجبل، ووصلنا جبة في اليوم التالي بعد مسيرة ثلاث عشرة ساعة.

استغرقت رحلتنا من الجوف إلى جبة (٣١) سبعاً وثمانين ساعة؛ ولكن ينبغي عليّ أن أذكر أن رواحلنا كانت ضعيفة وهزيلة جداً، لاسيما عند نهاية الرحلة إذ لم تذق الماء لمدة أربعة أيام. وفي اليومين الأخيرين كثيراً ما بركت من التعب مقاومة للضرب والركل اللّذين حاولنا بهما حثها على الوقوف. واضطررنا لترك أحد الجمال غير المحملة ليموت إذ خر ساقطاً عند شجرة منعزلة. بالإضافة إلى ذلك سمح للرواحل أن ترعى ما تلقاه من عشب جاف على طول الطريق؛ ولأن الإبل التي لم يكن فوقها أحد كانت تبتعد عن الطريق، فقد كنا، دليلنا وزوجته التي تحمل طفلها على صدرها وولديه الصغيرين وأنا، ننزل عن رواحلنا لمتابعتها و إرجاعها للطريق. إن من الطبيعي

أن هذه الأشياء أعاقت مسيرنا كثيراً. ولو أخذنا في الحسبان، إضافة إلى ماسبق، طبيعة الأرض، المتموجة بالكثبان والأودية المتتابعة، المغطاة جميعها بالرمال العميقة المتحركة، التي تغوص فيها كثيراً حوافر حيواناتنا، واذا نظرنا إلى عدد الانعطافات والدورات التي يأخذها الطريق لتفادي الأراضي الوعرة جداً، فإننا قد نقدر أن التأخير الذي تسببت به هذه الظروف زاد عدد ساعات مسيرنا إلى الثلث فوق ما يتطلبه قطع طريق مساو لهذا الطريق في ظروف طبيعية. بشكل عام يمكن قطع هذا الطريق في أربعة أيام ونصف اليوم؛ ولكن حتى هذه المدة أطول من المدة التي تتطلبها المسافة نفسها في أرض سهلة ومستوية. كان اتجاه الرحلة في جميع مراحلها جنوب - جنوب - شرق، ووفقاً للنصيحة التي يقدمها أهل المنطقة للمسافر الذي ينوي قطع هذه الصحراء؛ فإن "عليه أن يترك دائماً النجم القطبي إلى يساره".

تقع جبة في سهل واسع مفتوح بيضوي، ذي أرض صخرية، التي هي في هذه المنطقة عموماً تميز المكان الذي يوجد به ماء. وهذا السهل محوط بسلسلة من التلال الرملية المنخفضة جداً، يرتفع فوقها إلى الغرب - شمال - غرب، جبل أم سلمان الأعلى ارتفاعاً، وإلى الشرق-جنوب - شرق، مقابله مباشرة، توجد قمة أقل علواً تسمى الغوطة. والمسافة بين هاتين القمتين عشرة أميال إنجليزية(٣٢) تقريباً؛ ولكن طول السهل في الاتجاه الآخر من الشمال إلى الجنوب أطول قليلاً. والتلال، التي تحد السهل في الجانب الجنوبي، منخفضة جداً، ومغطاة برمال، وهي جزئياً رملية، وبصعوبة يمكن تمييزها عن الكثبان الرملية [الطعوس] الموجودة في الجزء القريب من النفود؛ ولكن تلك التلال الموجودة في الجانب الشمالي أكثر ارتفاعاً. وقريباً من جبل أم سلمان، شمالاً، ترتفع قمة صغيرة، تسمى عنيزة. وقد تم بناء قرية جبة في الجزء

الشمالي من السهل على مسافة ميل تقريباً من جبل أُم سلمان، وتتكون بلدة جبة من خمسة أحياء أو أسواق هي الطريف، والسلال، والحمالي، والكلاب، والمجعلات. وهذا السوق الأخير منفصل عن الأحياء الأخرى، ويمتد إلى جنوب السهل. والأحياء الأربعة الأخرى في صف واحد من الشرق إلى الغرب. ومنازل جبة مبنية من الطوب الطيني المجفف، الذي هو مادة البناء الرئيسة المستخدمة في الصحراء، ولكن هذه المنازل بشكل عام أكبر ومريحة أكثر من المنازل في الجوف، وأيضاً يختلف تصميمها الهندسي نوعاً ما، فالمنازل الكبيرة منها لها واجهات تشبه في شكلها مداخل المعابد المصرية القديمة. و كل منزل تقريباً يلتصق به بستانه، وفي بعض الأحيان يقام المنزل في وسط البستان وليس مثل الجوف الذي تنفصل فيها البساتين عن البلدة. كل بستان فيه بئر ماء خاصة به، يستخرج منها الماء للزراعة بواسطة السواني؛ ويعنى بالبساتين عناية عظيمة وهي منسقة جيداً، والبئر والمجر اللّذين تدور فيهما السواني ساحبة لدلاء الماء من البئر معرشة. بجانب النخيل (الذي لا ينتج هنا بلحاً ممتازاً مثل ذلك الذي ينتجه نخيل الجوف وتيماء)، وأشجار الفواكه، المنتشرة في هذه الأجزاء من الجزيرة العربية، فإننا نجد هنا شجرة صنوبرية، تسمى أثل، والتي نادراً ما تنمو في الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية، وهي شجرة برية، ولكن سكان نجد يقومون بزراعتها من أجل خشبها الذي يستعملونه للبناء فقط. لا توجد في جبة عين ماء جارية، بل آبار كثيرة، مع ذلك فإنها جميعاً عميقة جداً، ومياهها عسرة ونوعاً ما مالحة. يبلغ عدد العائلات في جبة ١٧٠ عائلة تقريباً، جميعها تنتمي إلى قبيلة الرمال، التي تُعدّ إحدى أنبل وأعظم بطون قبيلة شمر. تختلف ملامح سكان جبة نوعاً ما عن ملامح الناس في الأجزاء التي قدمت منها، وتعبر عن نوعية أخرى غير

السوريين. فبشرتهم أكثر شحوباً وبنياتهم أكثر ضعفاً، والأمراض من مختلف الأنواع شائعة في القرية. وهذا قد يكون عائداً جزئياً إلى نوعية التمر الرديئة، الذي يشكل الطعام الرئيسي لهم، كما هو الحال في كل نجد، وإلى ملوحة الماء. إن نمط معيشتهم هو نفسه نمط عيش البدو الرحل، ماعدا أنهم يعيشون في منازل ثابتة. و أغلبهم يملك قطعان كبيرة من الإبل، التي يوكلون رعايتها إلى أخوانهم البدو، أو يرسلون بها رعاة منهم إلى مناطق الرعي بجوار القرية. إن موقع قريتهم وعددهم يحميهم ليس من الأعداء فحسب بل أيضاً من كل أنواع النزاعات مع شيوخ البدو؛ وهم أنفسهم يقومون بحملات متتالية ضد الشرارات وقبائل أخرى في الأجزاء الشمالية من أرض النفود. فبحجة الجهاد ضد الكفار، الذين لا يؤدون الزكاة، ولا يلتزمون أركان الإسلام التي أمر بها القرآن [الكريم]، يرون أن واجبهم كموحدين حقيقيين يحتم عليهم مضايقة ومعاقبة جميع القبائل التي لا تتبع الوهابية، بسلبهم والإغارة عليهم حتى يجبرونهم على التحالف مع شمر من خلال قبولهم بتأدية الزكاة إلى شيخهم والالتزام بالولاء له. وخلال هذا الصيف [١٨٤٥م/ ١٢٦١هـ] قامت جماعات عددها حوالى ١٠٠ رجل من جبة، في خمس فترات مختلفة، بغزو للشرارات، وغنموا منهم أكثر من ألفي بعير. نادراً ما يزور جبة باعة متجولون أو تجار عابرون من الذين غالباً ما يصادفهم المرء في القرى على امتداد درب الحاج وفي البلدات الأكبر في الصحراء. ومع ذلك، وخلال إقامتي هنا، كان هناك تاجر من المدينة [المنورة]، وكان يتذمر من عدم وجود إلا القليل من التجارة. يحصل السكان على ملابسهم والحاجات الضرورية الأخرى من حائل، وإمداداتهم القليلة من الرز يحصلون عليها من العراق عن طريق حلفائهم من البدو. وهم يزرعون بأنفسهم القمح والدخن والشوفان،

ويتجون عموماً أكثر من حاجتهم. ويأتي إلى جبة أعداد كبيرة من البدو من قبائل مختلفة، لاسيما في موسم جداد النخل، وفي أثناء إقامتي في القرية كان هناك أكثر من ١٥٠ بيت شعر للبدو نصبت في السهل وبين المساكن. القسم الأكبر من هؤلاء البدو كانوا من الرولة وشمر، ولكن عائلات من عشائر عنزة، مثل بشر والفقراء، كانو يشكلون عدداً لابأس به، وبعض الشرارات والحوازم الذين تحالفوا مؤخراً مع شمر. ولأن المناطق المحوطة بجبة من أحسن المراعي في النفود، ولأن جبة هي المكان الوحيد الذي يتوافر فيه الماء بين هذه المراعي والشقيق، فإنها، في كل مواسم السنة، تكتظ بجموع البدو الرحل.

إن الروايات التاريخية القليلة وغير المترابطة التي وصلت إلى السكان الحاليين حول أسلافهم أصحاب أرضهم القدامى، هي المعلومات نفسها التي لدى الشمامرة عامة، ولكن لأن الفرصة ستتاح لي لاحقاً لسرد هذه الروايات؛ فإنني لن أذكر الآن أي شيء إلا المتعلق بجبة من هذه الروايات. فجبل أم سلمان، الذي يرتفع حوالى خمس مئة قدم فوق مستوى السهل، ويشكل أبرز معالم هذا المكان، يقال إن اسمه في الأزمان السابقة، كان الكتيفة. وكثيراً ما سنحت لنا الفرصة أن نعرف في هذه الرحلة كيف تستبدل بأسماء حديثة أسماء المواضع القديمة التي وصلتنا عن طريق الروايات التاريخية أو عن طريق الجغرافيين. إن هذا التغيير في الأسماء أمر طبيعي في بلاد العرب، التي كل مكان فيها يغير مالكيه بصورة متواصلة، ويبدو أن ذلك هو ما حصل في ما يتعلق بجبل أم سلمان، إذ إن الكلمة نفسها، كما هو الحال باسم قمة الطرقي، التي سبق ذكرها، حديثة الأصل. ففي هذا الجبل، حسب السكان الحاليين، كانت توجد مساكن الأجيال السابقة من الذين ملكوا هذا

المكان، ومازالوا حسب قولهم يجدون آثار منازلهم وقصورهم. وأروني الأماكن التي كانت مقام أسواق البلدة الجبلية، وممراتها الكائنة عبر الجروف؛ ويزعمون أن جوانب الجبل المرتفعة وشديدة التحدر هي آثار جدران قصر، بناه جني، لسكنى أسلافهم. وأكدوا لي أنه يعثر أحياناً على قطع وشظايا أدوات متنوعة في شقوق الجبل. ومع ذلك؛ فإنني لم أستطع رؤية أي شيء في بقايا منازل أجدادهم المزعومة سوى انهيارات وشقوق في الجبل نفسه، لأنه مكوَّن من صخور رملية لينة جداً، عملت بها عوامل التعرية مع مرور الأزمان أعمالها، فانشطرت مشكلة هذه الشقوق والثغرات الكبيرة جداً، التي عدَّها خيال البدو قصوراً ومنازل لأجداد لهم من الممكن أنهم كانوا يسكنون الكهوف. أو أنه من المحتمل كما يبدو أن التغير الذي حدث في الجبل هو من تأثير زلزال شديد مفاجئ. فالسهل الممتد تحت الجبل مغطى بصخور ضخمة جداً وجروف، تظهر وكأنها انسلخت فجأة وتدحرجت من القمة، فأصبح داخل السهل شبيهاً بواد على شكل قاعة واسعة أرضيتها وجدرانها من الجبال. ويذكر السكان أنَّ السهل بكامله كان في سالف الأزمان مزروعاً، وليس كما هو الحال الآن إذ لا يزرع إلا جزء صغير جداً منه، ومكسو بحقول الحبوب والبساتين، يروي أغلبها نبع ماء وافر المياه، وهم مايزالون يشيرون إلى مكان مصدره في شق جبلي في منحدر جبل أم سلمان. وكان الماء يسيل في أقنية صغيرة عبر السهل الواقع أسفل الجبل، ويقال إن الأخاديد، التي يمكن مشاهدتها في بعض أجزاء السهل، تشير إلى مجاري الأقنية القديمة. ويقال أيضاً إن الآبار في تلك الأزمان كانت غزيرة المياه؛ ويزعم أن واحداً منها، على سبيل المثل، كان كبيراً لدرجة أن ستين دولاباً كانت مقامة عليه لمتح الماء، وكانت ترفع جميع الدلاء في آن واحد. وهذه البئر في حالة جفاف

الآن، وجميع محاولات السكان للوصول إلى منبعه باءت بالفشل، وكذلك فشلت التعاويذ والرقى، التي يجبرون كل غريب يصل إلى هنا على قراءتها لعل الماء يتدفق مرة أخرى .

إن المؤلف العربي الوحيد، الذي وجدت عنده إشارة إلى هذا المكان، هو مؤلف القاموس[المحيط]، الذي ذكر أن جبة مستوطنة لبني طيئ (٣٣). ويذكر ياقوت [الحموي] كتيفة، التي كتبها كُتَيْفَةُ، على أنها جبل بأعلى مبهل، وهو واد لعبدالله بن غطفان. وقال مؤلف آخر، هو أبو زياد [يزيد بن عبدالله الكِلابي]، الذي يورد ياقوت قوله، إن كتيفة ماء لعمرو بن كلاب. ولتأكيد هذين القولين السابقين روى شطر بيت شعر [فأضحى يسح الماء حول كتيفة] لامرئ القيس [يصف سحاباً] بشأن القول الأول، وبعض الأبيات الشعرية :

[أيا نخلتيْ وادي كتيفة حبّذا ظلالكما لو كنت يوماً أنالُها

وماؤكما العذب الذي لو شربته شفى غُلّ نفس كان طال اغتلالها

معنّى على طول الهيام غليلة بذكر مياه ما يُنال زُلالها](٣٤)

لأبي جابر الكلابي بشأن القول الثاني. ويمكن عد القولين صحيحين إذا افترضنا أن امرأ القيس يعني الجبل نفسه، وأن الشاعر الآخر يعني النبع الجاف الآن، الذي ربما كان مايزال ذا مياه في زمان الشاعر. وإذا كان السهل، الذي تقع فيه القرية، يسمى مبهل في الأزمان السالفة، والذي لم أسمع أحد يذكره، فإن جبل أم سلمان الحالي، يقع حقيقة في أعلى الوادي، لأن السهل ينحدر من الجبل جنوب - جنوب - شرق باتجاه قمة الغوطة المقابلة .

يوجد كمٌّ كبير من النقوش والأشكال المختلفة، بعضهامحفورة، كما يبدو، بأداة حديدية حادة، وبعضها الآخر بصخور محمرة، على جوانب جبل أم سلمان وعلى الصخور الضخمة المنتشرة أسفله. أكثر هذه النقوش والرسوم

من عمل أولاد البدو الذين يقضون الساعات في نقشها وهم يرقبون قطعانهم في المرعى؛ ولكن الأخرى واضح أنها تعود إلى أزمان بعيدة. وأكثر الأشكال المنقوشة هي لجمال وخيل، بعض الأحيان فوقها فارس مسلح برمح، وكلاب، وخراف، وأحياناً لحيوانات برية من الصحراء. لفت انتباهي بصورة خاصة شكل من الواضح أنه قديم يمثل عربة صغيرة ذات أربع عجلات منخفضة جداً، يجرها جملان . إن من المعروف في أزماننا أن العجلات نادرة في الشرق، ولا سيما في بلاد العرب، حيث إنني لم أشاهدها أبداً في أي مكان سوى في تيماء، التي يستخدم سكانها أحياناً عربة صغيرة ذات أربع عجلات منخفضة لجر صخور، وهي تشبه بمظهرها وتركيبها العربة المرسومة على صخرة كبيرة في أسفل جبل أم سلمان. إن جميع هذه النقوش والأشكال غير متقنة الرسم، وتشبه تماماً تلك النقوش والأشكال التي رأيتها في بعض الأماكن الأخرى في شمال الجزيرة العربية بجوار تبوك. لقد وجدت أن النقوش الأطول والأكثر وضوحاً في الجانب الشمالي الشرقي من أم سلمان على جدار، بدا جزء منه وكأنه مخصص لهذا الغرض. كانت الحروف، مطموسة في الصخور الرملية سريعة الانكسار، وصعبة النقل. وبدا أن هذا السطح الأملس كله في الأصل كان مملوءاً بمثل هذه الأشكال، وله شكل القطع الناقص، الذي قدرت أطوال قطريه بحوالى الياردة. وترى نقوش أخرى على بعض الصخور الضخمة المتناثرة في السهل في أسفل الجبل.

أسفل هذه النقوش رسم جمل . وأخبرت أن جوانب السلسلة الجبلية مغطاة جميعها بمثل هذه الأشكال والنقوش، و بناءً على ذلك انحدرت إلى أسفل الجبل، متفحصاً جوانبه والصخور ولكن تبين لي على الفور أنني كلما ابتعدت عن القمة الرئيسة لجبل أم سلمان أضحت النقوش غير ذات أهمية.

وجدت أيضاً على الجانب الشمالي الغربي لأم سلمان نقشاً بالخط الكوفي، يحتوي على البسملة فقط؛ ولكن ليس هناك أي نقوش بالخط العربي الحديث.

في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر غادرت جبة برفقة دليل من بدو شمر. كان طريقنا عبر السهل، باتجاه قمة الغوطة، التي وصلناها بعد مسيرة ثلاث ساعات. ومباشرة في الجانب الآخر من القمة، تبدأ أرض النفود، التي قطعها سهل جبة، بأرضه المتموجة بالكثبان. وتشاهد هنا قمم منعزلة أكثر مما تشاهد في الأجزاء الأخرى للنفود، ترتفع فوق التموجات، ويحدها كلها سلسلة جبل أجأ العظيمة، التي لمحناها من هذا الاتجاه شرق-جنوب-شرق. وسرنا اليوم ست ساعات أخرى فقط.

في اليوم التاسع عشر وصلنا بعد مسيرة تسع ساعات شرق-جنوب-شرق إلى قرية صغيرة تسمى قنا، في سهل أرضه طباشيرية، محوطة بكثبان رملية منخفضة. يعيش في القرية خمسون عائلة من قبيلة الرمال، وفيها ست آبار غزيرة وعميقة، مياهها جميعاً جيدة وعذبة. وحول كل بئر من هذه الآبار، المنفصلة عن بعضها البعض بمسافة قصيرة وسط السهل، قامت قرية صغيرة فيها من ستة إلى عشرة منازل. وهذه القرية حسب قول سكانها، وحسب قول أهل نجد بشكل عام، هي مسقط رأس أبي زيد، بطل بني هلال، المشهور كثيراً في الحكايات العربية؛ و يقال إن السلطان حسن، شيخ مشايخ هذه القبيلة أقام هنا. ويذكر أبو زياد، حسب نقل ياقوت، أن قنا ماء لبني قُشير، وأشار ياقوت إلى هذا المكان بناءً على ما أخبره به رجل من طيئ، من سكان الجبلين، بأنه جبل في شرقي وادي الحاجر، وفي شماله جبلان صغيران يقال لهما صايرتا قنا (٣٥).

وعلى ساعة إلى الجنوب من قنا تنتهي فجأة أرض النفود، وتتحول إلى أرض مستوية، صلبة، تغطيها طبقة رقيقة من الحصى الجرانيتية الصلبة. وهذه الأرض الجديدة يتألف منها أكثر نجد ويسميها العرب قاعاً لاستوائها، ويسمونها جلدة لصلابة تربتها. أما الأرض المتموجة وذات الجبال أو الكثبان الرملية فيسمونها وعراً. وكلمة نفود، التي هي الاسم الوحيد تقريباً الذي يطلق اليوم على هذه الأرض الرملية الواسعة، التي عبرناها في طريقنا من الجوف، ويطلق عليها بطحاء، فهي بالتحديد تستخدم لتعني الرمل الناعم المتحرك، وعليه فهي تطلق على كل منطقة وكل سهل وواد يتكون من مثل هذه التربة الرملية. ولكن في اللغة القديمة، كلمة نفود لا تعني غير ندرة ونفاد الزاد والماء. لهذا، يبدو من المحتمل أن الكلمة في الأصل كانت تطلق كاسم على كل بقعة صحراوية واسعة وخطرة، يتعرض فيها المسافرون وإبلهم لخطر الهلاك بسبب طول المسافة ونفاد الزاد والماء، بالطريقة نفسها التي تستخدم بها كلمات مهلكة وبيداء، والكلمات الأخرى ذات المعنى نفسه؛ وبالتأكيد لا يوجد إلا القليل من الأماكن، إن وجدت، غير هذه الأرض التي تستحق هذه التسمية، ويطلق عليها عموماً في أيامنا النفود (٣٦). إن الاسم القديم الدهناء، الذي تعرف به عند المؤلفين العرب نادراً ما استخدم من قبل السكان الحاليين، وإذا ما استعملوه فللدلالة على نعومة الرمل وكثرته، وليس كإسم شائع لكل الأرض، ويلفظونه دائماً دَهنَاء. ولم أسمع كلمة دهناء إلا مرة أو مرتين، وتستخدم كلمة طعوس لتسمية الكثبان الرملية التي تتكون منها هذه البقعة الصحراوية. ومهما كان الأمر فإن النفود الحالية من أكبر وأوسع بقاع بلاد العرب، تحتل جميع وسط وشمال الجزيرة العربية. وإذا ما حسبنا وادي السرحان جزءاً من هذه الأرض، فإن حدها الغربي سيكون خطاً يمتد من جبل

حلوان المنعزل، ويبعد ثماني ساعات شرق تيماء، وحتى بئر أويسط، ومنه يستمر حتى مسافة مدة يومين جنوب أو جنوب شرق دمشق. وتمتد الحدود الجنوبية من جبل حلوان، بشكل نصف دائرة تقريباً وعلى طول الطريق الذي اتبعته من تيماء إلى جبل شمر، مقتربة من سلسلة أجأ، وفي بعض الأماكن لا تتجاوز المسافة عدة ساعات.

أما الحدود الشرقية للنفود فهي غير منتظمة لأن الطعوس في هذا الجانب تتفاوت في امتدادها، بعضها يمتد تقريباً إلى الخليج الفارسي [العربي]، وبعضها يتلاشى فوراً في السهل الصخري، الواقع بين النفود وساحل البحر. إن أطول هذه الطعوس وأكبرها هي تلك التي تسمى دهناء(٣٧)، وحسب ما قال لي بدو من شمر، فإنها تبدأ من مكان ما قرب الجوف، وتمتد باتجاه جنوب شرق، مشكلة حدود منطقة الأحساء، ويتواصل امتدادها بعيداً حتى رأس الخيمة. وربما يفترض باحتمالية كبيرة، أنها تتصل برمال صحراء يبرين الواسعة. أما في ما يتعلق بحدود النفود الشمالية والشمالية الشرقية، فلم أستطع تأكيد امتدادها، ولكن قد يمكن افتراضها بأنها استمرار امتداد الدهناء شمالاً منعطفة باتجاه شمال - غرب حول أرض الجوف، وبالتالي تتصل بوادي السرحان (٣٨). والأجزاء الغربية للنفود مرتفعة وأكثر وعورة، وتتكون من طعوس وفلوق، تتتالى دون أي اتجاه محدد؛ ويبدو أن الأجزاء الواقعة بين الجوف وجبة، وبين جبل حلوان (٣٩) و منهل أويسط (٤٠) هي قلب النفود الحقيقي. إن خط الحد الغربي للنفود محدد بدقة بسلسلة النفود، التي حيثما رأيتها هنا، ترتفع ما يقرب من مئة أو مئتي قدم عن الصحراء السورية أسفلها، وتمتد بسلسلة لا تنقطع من المرتفعات الرملية، التي تشبه جدار سلسلة جبلية، على طول طرف ذلك السهل الصخري القاحل. وفي ناحية الحدود الجنوبية،

في الأرض المنحدرة نحو أجأ، تتسع الفلوق لتصير سهولاً مجوفة ويقل ارتفاعها، وتعترضها هنا وهناك تلال من صخور رملية . إلى الشرق، والجنوب الشرقي، تنحدر الأرض في طعوس منخفضة تتفرع من الأجزاء الغربية المرتفعة . ويحوط كل طعسين منها وادٍ مسطح طويل ينحدر على مسافة قد تطول أو تقصر نحو الخليج الفارسي [العربي]. ما شاهدته من وادي السرحان له الصفة نفسها، مع ذلك ؛ فإن حدود معالمه وتموجات سطحه بشكل عام أقل وضوحاً منها في الأجزاء الأخرى من النفود. وبين وادي السرحان والنفود الحقيقي، وهما الجزآن الرئيسان اللذان تتشكل منهما هذه الصحراء الرملية الواسعة، تعلو عنهما سلسلة جال (جبال) الجوف والأراضي الجبلية المجاورة لها، ولكن من المحتمل أن تكون هناك سلسلة كثبان رملية تمتد فيما بين الوادي والنفود.

إن أرض النفود، بكل اتساعها، واحدة من أغنى مراعي بلاد العرب ؛ ولكن لقلة مصادرها وندرة مياهها، لا يأتيها العرب الرحل إلا في أثناء فصل الربيع عندما تتجمع مياه الأمطار في البرك والخباري. إن الجزء الأوسط من النفود هو الأقل ماء، لذلك نادراً، ما يشاهد المرء مخيماً للبدو ما بين الشقيق وجبة؛ ولكن الأجزاء الشمالية لوادي السرحان، والمنحدرات الجنوبية للنفود المحاذية لجبل شمر، تكون مطروقة طوال السنة؛ فالأجزاء الشمالية ترتحل فيها قبائل الشرارات والرولة، والأجزاء الجنوبية ترتحل فيها قبائل شمر وبشر [من قبيلة عنزة]. وفي الأجزاء الشرقية ترتحل قبائل شمر، والظفير، والمنتفق خلال الشتاء والربيع؛ ولكن في الصيف يتجهون جميعاً إلى المناطق الخصبة؛ شمر إلى أرضهم، والآخرون إلى دجلة والفرات، وفي هذه الآونة لا يصادف المرء إلا القليل من البدو باستثناء بعض عائلات الصلبة، القبيلة الأكثر

استضعافاً، وهي من قبائل هتيم [٤١]. في بعض الأحيان تخيم إحدى القبائل الكبيرة حول آبار لينة الغزيرة [٤٢]، ومنها يرسلون قطعانهم لترعى في مناطق الجوار؛ ولكن الوضع في المنطقة خطر وغير مستقر بسبب جماعات الغزو البدوية الذين يعبرونها في حملاتهم ضد القبائل المعادية، الذين لا مناص لهم من البحث عن الماء في هذه الآبار. وفي هذه الأجزاء من المنطقة توجد بشكل عام وفرة في الآبار وأحواض الماء؛ لكن كمية الماء ومدة وجوده في هذه الآبار تعتمد على كمية المطر التي تهطل خلال الموسم. وأخبرني البدو أن في طريق حج بلاد مابين النهرين، الذي يعبر هذه الأجزاء الشرقية للدهناء، والذي مايزال معروفاً باسمه القديم درب زبيدة، يمكن الحصول على مياه عذبة وطيبة كل يوم، وأن تلك الآبار، مع أنها بشكل عام عميقة، فإنها تعدّ أقل عمقاً من تلك الموجودة في الأجزاء الداخلية لهذه المنطقة.

وفي مؤلف ياقوت [الحموي] الجغرافي [معجم البلدان] مقال طويل حول هذا الجزء من الأرض، ومنه سأحاول أن أقدم مقتطفاً رغم أن المخطوطة الوحيدة التي كانت لديّ الفرصة لمراجعتها لتحقيق معلوماتي فيها أخطاء كثيرة، وأعترف بأنني لم أفهم المعنى في مواضع عدة. فبعد الحديث عن اشتقاق الكلمة، ذكر المؤلف أن الدهناء سميت بذلك لاختلاف النبت والأزهار في عراضها، وأن الدهناء، حسب قول أبي منصور [الأزهري]: "من ديار بنو تميم، وأنها تتكون من سبعة أجبل من الرمل، يين كل جبلين منها شقيقة، وأن طولها يمتد من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة أعذاء ومياه، وإذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعاً لسعتها وكثرة شجرها، وهي عذاة مكرمة نزهة، من سكنها لا يعرف الحمى لطيب تربتها وهوائها" (مرض الحمى يتكرر كثيراً على ساحل الخليج

الفارسي[العربي]) ويتابع ياقوت: "وقال غيره: إذا كان المصعد بالينسوعة، وهو منزل بطريق مكة من البصرة، صبحت به أقماع الدهناء من جانبه الأيسر واتصلت أقماعها بعجمتها وتفرعت جبالها من عجمتها، وقد جعلوا رمل الدهناء بمنزلة بعير وجعلوا أقماعها التي شخصت عجمتها نحو الينسوعة ثفناً كثفن البعير، وهي خمسة أجبل على عدد الثفنات: فالجبل الأعلى منها الأدنى إلى حفر بني سعد واسمه خشخاش لكثرة ما يُسمع من خشخشة أموالهم فيه، والجبل الثاني يسمى حماطان، والثالث جبل الرمث، والرابع مُعَبّر، والخامس جبل حُزْوى؛ وقال الهيثم بن عدي: الوادي الذي في بلاد بني تميم ببادية البصرة في أرض بني سعد يسمونه الدهناء، يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منعج ثم في غطفان فيسمونه الرمة، وهو بطن الرمة الذي في طريق فيد إلى المدينة، وهو وادي الحاجر، ثم يمر في بلاد طيىء فيسمونه حائل، ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر، [ثم يمر في بلاد تغلب فيسمونه سُوَى]، وإذا انتهى إليهم عطف إلى بلاد كلب فيصير إلى النيل (قرية بجوار الكوفة)، ولا يمر في بلاد قوم إلا انصب إليهم كلها"(٤٣). بعد هذا الاقتباس من الهيثم يورد ياقوت على حسب عادته شعراً في وصف المنطقة، ولأن ليس له أهمية جغرافية فإنني لن أورده هنا. والقول الأخير المستشهد به من قول الهيثم ذكره ريتر Ritter (٤٤) نقلاً عن هماكر Hamaker (٤٥) الذي يبدو أنه رجع إلى مخطوطة فيها من الأخطاء أكثر مما في المخطوطة التي رجعت إليها في المتحف الآسيوي في سانت بطرسبورغ.

يتبين مما تقدم أن الجغرافيين العرب لا يتفقون على عدد الجبال الرملية التي تنتشر في أرض الدهناء الرملية؛ بعضهم يحسبها سبعة، آخرون يحسبونها خمسة فقط. وأعتقد أن الرقم الأخير هو الرقم الصحيح، ذلك لأن حائل

وبطن الرمة، اللذين ذكرهما الهيثم كجزء من الدهناء، تقعان، دون أدنى شك، في المنطقة الواقعة جنوب أجأ التي تختفي فيها طبيعة ومعالم النفود. وربما أن حائل هي أرض الوادي الذي يسمى حالياً البطين، ويمتد بين جبلي طيئ، أجأ وسلمى، ويمكن القول إن الحاجر هو تلك الأرض الواقعة جنوب جبل سلمى. وإذا ما عُدّ ذلك الجزء من الدهناء، الذي قال الهيثم إنه يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر، هو نفسه ذلك الموقع الموجود في خرائطنا لآبار تحمل اسم قراقر في المناطق الشمالية المحوطة بالجوف، فإن ذلك سيكون دليلاً على أن اسم وادي السرحان الحالي عند الجغرافيين العرب القدامى كان داخلاً ضمن الاسم القديم العام لهذه الأرض، ولذلك فإن الاسم الخاص، الذي يعرفه كل العرب اليوم كان قد تم تجاهله أو إهماله من قبل جميع الجغرافيين العرب بما فيهم ياقوت الدقيق في عمله. وإذا ما افترضنا أن حماطان الذي يشير إليه الجغرافيون العرب هو الجبل الواقع في الجانب الشمالي الشرقي ويحد الوادي، الذي يسمى اليوم الحماطية، فإننا قد نحدد بدقة مواقع الجبال الأربعة الأخرى، مع ذلك لابد أن أؤكد أنني لم أسمع أبداً أحداً من الناس هنا يذكر أياً من أسمائها القديمة. ومن وصف رحلتي التي قمت بها في صيف سنة ١٨٤٨م [١٢٦٤ هـ] من جبل شمر إلى مشهد علي [النجف] يمكن تبين أن الحماطية عبارة عن أرض واد مستوية ذات تربة أشد صلابة إلى حد ما من تربة النفود المحيط، الذي يحده من جهته الشمالية الشرقية الجبل الرملي الذي يسمى اليوم الدهناء، ويحده من جهته الجنوبية الغربية جبل رملي آخر، ذكر رفاقي من البدو في تلك الرحلة أنه يشكل نهاية النفود. وهذا الجبل الأخير، الذي لا أذكر أن رفاقي ذكروا اسماً له، أفترض أنه جبل الرمث الذي يذكره الجغرافيون العرب. ومن الأرجح أن سلسلة مرتفعات سيلة [؟] الرملية

المنخفضة، التي ذُكرت في ذلك الوصف، جزء من جبل الرمث. ويتطلب عبور أرض الوادي (الشقيقة) الواقع بين النفودين مسيرة ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة، وفيها ماء يسمى [الـ] حزل. وكذلك في جنوب غرب سلسلة جبال سيلة المنخفضة قطعنا في مسيرة ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة وادياً مماثلاً، يحده في جانبه الآخر جبل نفودي، أفترض أنه جبل مُعَبّر القديم، وفي هذا الوادي توجد البئر العميقة المسماة الأطواء. وإلى الجنوب الغربي من ذلك الجبل الرملي يمتد سهل الخطة، الذي يحده في جانبه الآخر جبل رملي، يتجه شمال شرق بموازاة منحدرات سلسلة أجأ، و جبال قيسي [؟] المنخفضة. وهذا السهل، الذي توجد فيه بئر التيم، قطعناه عرضاً في سبع ساعات. والنفود، الذي يحد هذا السهل أو الوادي في جانبه الجنوبي الغربي، قد يكون هو جبل حُزْوى الذي يذكره المؤلفون العرب. أما الجبل الأول من هذه الجبال المذكورة، وهو جبل خشاخش، الذي يضعه الجغرافيون العرب بعيداً إلى الشمال بالقرب من الأرض المنخفضة، التي يعيش فيها بنو سعد، فمكانه بكل وضوح يجب أن يكون في مكان ما شمال الدهناء أو جبل حماطان، في الأرض التي يطلق عليها اليوم اسم الحجرة (٤٦). ومع صحَّة القول إن صفة النفود تنتهي عند الجانب الشمالي الشرقي لذلك الجبل، والتربة الرملية التي يتكون منها النفود تتغير هنا لتصبح أرضاً جبلية وصخرية، فإنني أتذكر، في رحلتي في هذه الأرض، أننا وقعنا في مرتفعات رملية صغيرة، لم أتمكن من التأكد من اتجاهها. وربما جاز لنا الافتراض، دون أي تأكيد، أن سلسلة المرتفعات الرملية المنخفضة تمتد موازية لسلسلة الدهناء عبر أرض الحجرة، التي يفترض أنها خشاخش القديمة، وتشكل الحدود الشمالية الشرقية للأرض المسماة المشيقق، وهو الاسم المشتق من الجذر نفسه الذي اشتقت منه

كلمة شقيقة، التي تعني وادياً بين سلسلتين نفوديتين. وهذه السلسلة المفترضة ستعبر، إذا ما استمرت في اتجاه جنوب شرق، الصحراء جنوب غرب البصرة، على مسافة بضعة أيام من تلك البلدة. وهنا يجب أن يكون موقع ينسوعة القديمة، التي قيل إن في جوارها يبدأ آخر جبال دهناء النفود.

ويشير أبو منصور، الذي ينقل عنه ياقوت في معجم البلدان، إلى ينسوعة القف، بصفتها منهلاً من مناهل طريق الحاج من البصرة إلى مكة، وتقع عند منقطع رمال الدهناء بين ماوية والرياح، وهما منهلان على الطريق نفسه. وبالمثل يضع مؤلف آخر هو عبيدالله السكوني، الذي ينقل عنه ياقوت، ينسوعة على طريق حاج البصرة، على مسافة مرحلتين من النباج وبينهما الخبراء؛ ويضيف أن القاصد إلى مكة يترك ينسوعة في الليل، ويمر في الصباح على آخر أقماع الدهناء تاركاً إياها إلى جانبه الأيسر(٤٧). ضمن النباجات العديدة التي ذكرها ياقوت يوجد نباج في البصرة. وعليه فإنه إذا ما افترضنا أن هذا النباج هو منزل حجاج البصرة الواقع بالقرب منها، فإننا قد نضع بداية آخر مرتفعات صحراء الدهناء الشرقية على مسافة ثلاثة أيام من البصرة باتجاه جنوب - غرب، وهو الطريق الذي يتخذه الحجاج في الوقت الحاضر من البصرة إلى مكة، من المحتمل أن لقب القف و حَزْن أضيفا لاسم ينسوعة للدلالة على الأرض الصخرية والجبلية التي تتكون منها الأرض المحوطة بها، التي يشير إلى طبيعتها الاسم الحجرة، وهو الاسم الذي يطلقه عليها السكان الحاليون. يميز الجغرافيون العرب بين الأجبل والأقماع التي تشكل آخر منحدرات صحراء الدهناء الشرقية، و يضعون الأقماع على يسار درب الحاج من البصرة إلى مكة. وحيث إن رحلاتي في هذه الأرض كانت عبر أجزاء الدهناء الغربية، فإنني لم أتمكن من تأكيد طبيعة آخر منحدراتها باتجاه الخليج

الفارسي[العربي]؛ ولكن يمكننا الاستدلال من أقوال المؤلفين العرب بأن الجزء الشرقي من هذه الأرض الرملية الفسيحة، وعلى مدى اتساعها من ينسوعة إلى يبرين، تعترضه بقعة ضيقة من التربة الأكثر صلابة، تفصل بين الأجبل والأقماع. وفي هذه البقعة، شبه الشقيقة أيضاً، وبسبب موقعها، توجد أكثر الأماكن وفرة بالمياه في هذه الأرض، ولهذا يمر بها طريق الحاج من البصرة إلى مكة، وكذلك جزء من درب زبيدة . ويمكننا الافتراض أن المنطقة الواقعة في الجانب الشرقي لهذه البقعة تتكون من أقماع ذات رمل ناعم لها ميزات وادي السرحان في الجانب الآخر من النفود. ولكنني أبداً لم أسمع أي ذكر للأقماع في هذه الأرض من النفود من رفاقي البدو في الرحلة إلى الهلال الخصيب، ولم يذكر أحد من المؤلفين العرب أي معلومة لتحديد مدى امتداد هذه الأقماع باتجاه الخليج الفارسي [العربي].

ومع ذلك يمكنني أن أقدم هنا، كاجتهاد شخصي، الرأي بأن نفود الدهناء قد تشبه رماله الرمال اليمانية الهائلة، المعروفة باسم الأحقاف. مما يجعلنا تصور أن كل داخل الجزيرة العربية متكون من هضبتين واسعتين من الرمال، مفصولتين عن بعضهما بهضبة نجد. وهذه الهضبة، التي تحتل الجزء الأوسط من شبه الجزيرة، تحميها من أحد جوانبها سلسلة أجأ من رمال الدهناء، و من جانبها الآخر تحميها سلسلة جبال العارض من رمال الأحقاف. في الجانب الغربي، يتوقف امتداد هاتين الهضبتين الرمليتين بجبال الحجاز المنيعة، الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر، أو بالنجود الجبلية (السروات) المتفرعة من سلسلة جبال الحجاز؛ ولكن منحدرات هاتين الهضبتين من الناحية الشرقية تتجه إلى الخليج الفارسي [العربي] والمحيط [الهندي]، نحو أراضٍ ساحلية منخفضة ومستوية؛ الدهناء نحو وادي الأحساء، والأحقاف نحو المهرة؛

والهضبتان متصلتان ببعضهما من هذه الناحية بسلاسل أقماع الدهناء، الممتدة مابين ينسوعة ويبرين. وأنا لا أستطيع المغامرة بإجابة السؤال حول ما إذا كانت الهضبة الجنوبية كلها من الرمال ولا يقطعها شيء، وتحتل كل المنطقة الممتدة من جبال العارض إلى جبال اليمن، وبالتالي تشمل الأحقاف والربع الخالي الموجود على خرائطنا؛ أو ما إذا كانت مقسومة إلى نصفين ببعض الجبال، الممتدة من جبال عمان إلى أرض نجران في اليمن. وهناك بقاع لم تطأها أقدام أحد، عدا بعض البدو المغامرين، ولم يذكر المؤلفون أية معلومات عنها.

ومن الوصف الذي قدمته عن الدهناء وعن الجبال الرملية الممتدة من أجزائها الغربية المرتفعة نحو الخليج الفارسي [العربي]، يمكن الاستنتاج أن الأرض تنحدر نحو الجنوب الشرقي. ورأيي أن شبه الجزيرة العربية بكاملها، وليس هذه الأرض فقط، تنحدر نحو الجنوب أو الجنوب الشرقي، خلافاً لما ذكره ريتر وبعض المؤلفين العرب، الذين يرون أن بلاد العرب تزداد ارتفاعاً كلما اتجهنا نحو الجنوب. و أنا أعد سورية وصحراءها المجاورة أعلى جزء في بلاد العرب، والهلال الخصيب وساحل الخليج الفارسي [العربي] والمهرة أوطاها، رغم أن جبال اليمن قد تعلو في ارتفاعها ارتفاع الجبال في نجد. وأينما ذهبت في داخل شبه الجزيرة العربية إلى الشرق من سلسلة جبال الحجاز، لم أقع أبداً على واد أو سيل لا يجري باتجاه جنوبي أو شرقي. ويبدو أن المناخ أيضاً يثبت انحدار بلاد العرب نحو الجنوب الشرقي. ففي الأجزاء الغربية من شبه الجزيرة العربية يكون المناخ بشكل عام جيّداً وصحيّا، ويذكر السكان أن المدينة، وجبل شمر، والجوف أماكن صحية جداً، بينما يشكى من سوء المناخ في العارض والأجزاء الشرقية لنجد. وتتفشى الحميات أكثر أيام

السنة على طول ساحل الخليج الفارسي [العربي]؛ وحسب ما يذكره المؤلفون العرب، فإن يبرين معروفة بجوها الممرض والكريه؛ وما يزال الناس يتجنبون أهوار البصرة، وتقريباً كل الأجزاء المنخفضة لأراضي الهلال الخصيب المعرضة للفيضانات لشدة الحرارة والرطوبة فيهما. ويصح قول الشيء نفسه، إلى حدٍّ ما، عن سواحل البحر الأحمر، الذي، لا سيما في بعض الأماكن، كما هو الحال على سبيل المثل في جدة وحتى مكة، المعروفتين بمناخهما غير الصحي، بالمقارنة مع الأجزاء المرتفعة في دواخل بلاد العرب؛ لكن المناخ في السواحل المذكورة وفي الأجزاء الشمالية منها خصوصًا أحسن كثيراً و أكثر صحية والأمراض أقل مما في سواحل الخليج، وهذا ما يراه العرب أيضاً.

ويعبر سكان بلاد العرب عن هذا الانحدار نحو الجنوب أو الجنوب الشرقي لأرضهم حتى في لغتهم إذ يقولون إنهم ينحدرون أو ينزلون للتعبير عن انتقالهم من سورية إلى نجد، ويقولون إنهم يصعدون أو يطلعون عندما يعبرون عن انتقالهم من نجد إلى سورية أو إلى مصر. فسكان جبل شمر ينزلون إلى المدينة، وينزلون إلى بلاد ابن سعود، وحتى إلى البصرة والأجزاء الأخرى من العراق، التي قد تكون أرضه من أخفض البلاد في كل آسيا؛ وقد نقول إن تسمية نجد جاءت من ارتفاعها مقارنة بأراضي اليمن والأجزاء الجنوبية للحجاز التي انطلقت منها الهجرات الكبيرة، منذ أزمان مبكرة من تاريخ شبه الجزيرة العربية، إلى الأجزاء الداخلية والشمالية لشبه الجزيرة، بينما لم يسجل وجود هجرات من الشمال إلى الجنوب إلا في حالات نادرة.

ويوجد عند سكان نجد اعتقاد قديم حول التغيرات والأطوار المختلفة، فهم يعتقدون أن أرضهم خضعت في أزمان متعددة لتأثير من عناصر مختلفة، أحدها كان متأثراً بالريح. فيقولون إن الله أمر بإعصار شمالي قوي

طال مدة طويلة، فغطى أرضهم بالرمال الكثيرة، وأمالها نحو الجنوب. ويختلف المؤلفون العرب في الرأي حول انحدار شبه الجزيرة. بعضهم يقول إن اليمن وتهامة هما الأعلى، وأن العراق وسوريا هما الأجزاء السفلى لنجد؛ آخرون، ومن بينهم مؤلف الصحاح [أبو نصر إسماعيل الجوهري]، يؤكدون، وهذا ما يبدو لي، على أن نجد هي الأرض التي ترتفع من تهامة إلى العراق.

ولكن لنعُد إلى رحلتنا. لقد دخلنا، بعد مسيرة ساعتين وثلاثة أرباع الساعة من قرية قَنَا، سلسلة جبال أجأ، المعروفة أيضاً بجبال حائل. ووصلنا بعد مسيرة خمس ساعات عبر طريق مفتوح في سهل مستوٍ بين الجبال إلى قرية تسمى اللقيطة، التي تقع في السهل عينه، وفيها مئة وعشرون عائلة تقريباً، جميعهم من شمر. وذكر ياقوت هذه القرية بأنها بئر في طرف أجأ وتعرف بالبويرة(٤٨). وعلى مسافة ساعة من اللقَيطة مررنا بقرية صغيرة أخرى تسمى الوقيد، فيها ثلاثون عائلة تقريباً. وفي ساعتين منها نفذنا من الجبال إلى السهل المفتوح الممتد على طول سفح أجأ الجنوبي الشرقي، ووصلنا بعد ساعة أخرى إلى بلدة حائل، عاصمة جبل شمّر، ومقر إقامة الشيخ الرئيس لقبيلة شمر.

إن المعالم الأساسية والبارزة لهذه الأرض هي سلسلتان من الجبال الجرانيتية، تحملان إلى اليوم اسميهما القديمين أجأ وسلمى. وبكل وضوح؛ فإن الاسم الحالي للمنطقة، جبل شمّر، يعود إلى اسم القبيلة التي تسودها الآن، ويحتمل أنها كانت تسودها منذ عدة قرون. وقديماً كانت تسمى على اسم القبيلة التي كانت تعيش فيها فيقال جَبَلا طيء، الذي غالباً ما يقصر عند المؤلفين العرب إلى كلمة الجبلين، بالطريقة نفسها التي يقول بها السكان

الحاليون وسكان المناطق المجاورة، فهم يقولون الجبل، بدلاً من جبل شمر. وأجأ بكل المقاييس هو أكبر الجبلين إذ يمتد باتجاه شمال - شمال - شرق وجنوب - جنوب - شرق، ويبلغ طوله خمسة أيام وعرضه من ثماني ساعات إلى عشر، على ما قدّرته أثناء عبوري في أودية مختلفة من السلسلة التي قطعتها في مكانين مختلفين (٤٩). وقدرتُ ارتفاع السلسة بحوالى ألف قدم عن سطح السهل المجاور. وارتفاعها هذا ثابت على طولها. أما الجبل الآخر، سلمى، فيجري بموازاة أجأ، ويفصله عنه سهل البطين، الذي يبلغ اتساعه مسيرة اثنتي عشرة ساعة. وهو مماثل، إلى حدٍّ ما لأجأ وله الارتفاع عينه؛ ولكنه يختلف عنه في الحجم (٥٠). فمحيط هذا الجبل بكامله قد لا يتجاوز رحلة ثلاثة أيام، وكلا الجبلين يتكونان من صخور جرانيتية رمادية اللون، وتغطيهما، على عكس الجبال الأخرى في داخل الصحراء التي تكون جرداء وقاحلة، نباتات برية لا تختلف كثيراً عن نباتات الجبال السورية، وتقطع كل منهما أودية وسهول، ولا سيما في الجزء الشمالي - الشمالي الشرقي من أجأ. وسلسلة أجأ تواصل امتدادها نحو الجنوب - الجنوب الغربي إلى أن تنتهي إلى جبال الحجاز، مكونة الحدود الطبيعية لنجد من الجانب الشمالي الغربي. أما من الجهة الشمالية - الشمالية الشرقية، فهي تنقطع فجأة قرب جبل Keisy [؟] على مسافة يوم من حائل؛ ولا توجد في الأرض الفسيحة الممتدة إلى مسافة ثمانية أيام شرقاً إلى الخليج الفارسي[العربي]، وعشرة أيام إلى العراق، أية جبال ذات أهمية، عدا تلال من الصخور الرملية تبرز هنا وهناك فوق الرمال. ومن الجانب الشمالي الغربي لا يتصل أجأ بأي جبل بل يشمخ وحيداً، وينتهي بانحدار شديد، كما هو الأمر في جانبه الآخر، خلافاً لما ذكره ريتر الذي يفترض أنه ينحدر تدريجياً من جهة الجوف.

وتفصل الجبل عن النفود أرض حجرية يبلغ عرضها ساعتين، ولم أرَ رمال النفود تصل إلى قاع الجبلين في أي مكان؛ وفي الجهة الأخرى يمتد سهل البطين الفسيح، الذي تغطي أرضه حجارة جرانيتية مثل أكثر أرض نجد، و نم أشاهد في شقوق الحجارة والصخور رمالاً ناعمة على ما هو الحال في الجبال الأخرى داخل بلاد العرب. ولمّا كانت السلسلة ترتفع أكثر عند أطرافها فإنني لا أستطيع الجزم في هذا الأمر؛ ولكنني أظن أنه لا توجد ارتفاعات لها أية أهمية. وفي ما يتعلق بالأودية العديدة الموجودة في أجأ فهي تنحدر ناحية الجنوب الشرقي على الرغم من أن ارتفاع جوانب هذه الجبال في هذه الناحية لا يزيد على ارتفاع جوانبها من الناحية الشمالية الغربية. وبالمثل؛ فإن جبل سلمى يشمخ وحيداً فوق السهل، ولا يتصل، على حدٍّ علمي، بأي جبل آخر من أية جهة. إضافة إلى أجأ وسلمى، توجد في المنطقة جبال وقمم كثيرة منخفضة ومعزولة من الصخور الرملية، اتجاهها معاكس لاتجاه السلسلتين الجبليتين. وأهم هذه الجبال جبل مخروطيُّ الشكل، داكن اللون اسمه سمراء حائل، يرتفع قرب البلدة من الشرق ويكاد علوُّه يستوي وارتفاع الجبال الجرانيتية. ومن المرجح أن جبل سمراء حائل هو هضبة العوجاء، التي قال ياقوت إنها تناوح جبلي طيئ (٥١). وحول هذه الجبال الثلاثة يروي ياقوت اعتماداً على ما ذكره العلماء بأخبار العرب "أن رجلاً من العماليق اسمه أجأ بن عبدالحي، عشق امرأة من قومه، يقال لها سلمى، وكانت له حاضنة يقال لها العوجاء. وكانا يجتمعان في منزلها حتى نذر بهما أخوة سلمى، وهم الغميم والمُضلُّ وفدك وفائد والحدثان وزوجها. فخافت سلمى وهربت هي وأجأ والعوجاء، وتبعهم زوجها وإخوتها فلحقوا سلمى على الجبل المسمى سلمى، فقتلوها هناك، فسمي الجبل باسمها. ولحقوا العوجاء على هضبة بين

الجبلين فقتلوها هناك، فسمي المكان بها. ولحقوا أجأ بالجبل المسمى بأجأ فقتلوه فيه، فسمي به" (٥٢).

تكثر في جَبلي أجأ وسلمى الآبار والينابيع التي حولها يقوم البدو بزراعة النخيل وحقول الحبوب؛ ولكن في الأنحاء الأخرى من المنطقة لا يوجد غير قليل من موارد الماء الجارية، وهذه عموماً تكون مياهها فاترة ومالحة. ولكن مياه الآبار، على عكس هذه، جميعها دون استثناء، من نوعية ممتازة، عذبة وخفيفة، وتساعد على الهضم السريع. وإذا ما صدقنا سكان حائل فهم يقولون: "يستطيع الرجل أن يأكل خروفاً مشوياً كاملاً إذا ما شرب قدحاً من مائهم مع وجبة الطعام". عندما يستخرج الماء من الآبار، التي تكون عميقة، يكون فاتراً، ويتطلب التبريد بواسطة القرب الجلدية التي يستخدمها السكان هنا بدلاً من الجرار الفخّارية التي تستعمل في مصر وسواها من بلدان الشرق؛ والآبار جميعها محفورة بشكل دائري، وفوهاتها مطوية دائرياً بالحجارة، ومتوسط أعماقها قد يصل عشرين إلى خمس وعشرين قامة. ويتطلب العثور على المكان الذي تتجمع فيه المياه في جوف الأرض، أو البحر، كما يسميه السكان، مهارة فائقة؛ وقد رأيت بنفسي هنا، وفي أماكن أخرى من بلاد العرب أن آباراً عميقة جداً حفرت ولم يخرج منها ماء؛ ولكن القاعدة العامة هي أنه كلما اقتُرب من الجبال الجرانيتية كلما زادت فرصة العثور على مجمع الماء في جوف الأرض. يستخرج الماء من أعماق الآبار بواسطة وسائل تحريك مائية، تستخدم حصرياً في نجد وبلاد ما بين النهرين، وهي تتكون من دولابين نصبا عمودياً، دولاب كبير منصوب فوق منتصف فوهة البئر، يسمى المحالة، يجري فوقه حبل غليظ اسمه الرشا، مربوط بدلو كبير من جلد الجمال؛ والدولاب الآخر صغير أسطواني الشكل منصوب عند فوهة البئر مباشرة،

اسمه الدراج يجري فوقه حبل رفيع مربوط بفوهة دلو على شكل حلقوم حيوان طويل. وطرفا هذين الحبلين، أغلظهما مجدول من جلد جمل صغير، والآخر مجدول من سعف النخل، مربوطان بسرج صغير مصنوع لهذه الغاية، يثبت على سنام جمل يساق نزولاً في منحدر فيرتفع الدلو الثقيل. وما أن يعلو الدلو بواسطة الحبل الملتف حول المَحَالة حتى ينصب الماء من خلال الحلقوم الضيق المنحني في حوض مسطح ومنخفض مَبْنيٍّ بحجارة قرب البئر. وبواسطة جذوع نخل مجوفة تجرّ المياه من هذا الحوض إلى بركة تشكل خزّانا كبيراً في وسط البستان، توزَّع المياه منه في أقنية على أشجار البستان ومزروعاته وفقاً لرغبة المالك. وهذا الخزان يملأ دائماً وتستخدم النساء ماءه للغسل. ويستخدمه الرجال للوضوء؛ ولأن المكان محوطّ بأشجار العنب والأشجار المثمرة الأخرى على اختلاف أنواعها، وبارد ومنعش جداً، ويزيد كثيراً في جمال وراحة البساتين التي تكاد تكون الشيء الوحيد الذي يملكه السكان والمصدر الأساس لعيشهم، لذلك يعتنون بها كثيراً، وبالإضافة إلى النخيل الذي يبدو أنه الأكثر ملاءَمَةً لتربة الصحراء، يزرع السكان الأشجار المثمرة التي تنبت في المناطق ذات المناخ المشابه، مع أنها تزرع بكميات قليلة، بسبب قلة المياه وصعوبة وارتفاع تكاليف استخراجها من الآبار العميقة. ومع ذلك فإن الفواكه نادراً ما تركت حتى تنضج، ولكنها تؤكل خضراء، بسبب ولع العرب بأكل الفاكهة قبل أن تنضج أو لأنهم لا يملكون الصبر انتظاراً لنضجها. ويزرع هنا أيضاً الخضار أكثر مما شاهدته في أي قرية صحراوية أخرى لا سيما القرع الكبير الحجم، واليقطين وأنواع مختلفة من هذه المنتجات، ويحتفظون بكميات كبيرة منها لأيام الشتاء. وكذلك يزرع في هذه البساتين القمح والدخن والذرة، و يزرع كثير من الأغنياء أيضاً البرسيم علفاً

لخيلهم. وتزرع الحبوب في السهول المفتوحة خارج البلدة وتسقى بمياه الري، وبالمطر أحياناً؛ وفي السنين الجيدة يكاد المحصول يسدّ حاجة السكان من الحضر والبدو الرحل في المنطقة. وإذا أصابهم قحط جلبوا مؤنهم من العراق، مشهد علي [النجف] وكربلاء، المصدرين الرئيسيين لهذه المنطقة ومنطقة القصيم، وهما أيضاً اللتان تزودان منطقة نجد بأكثر حاجتها من الرز.

ومع ذلك؛ فإن الحبوب المزروعة هنا تُفضَّل على المستوردة من بلاد مابين النهرين بسبب جَودتها وطبيعة مادتها، وتباع بسعر أعلى من سعر الحبوب المستوردة. والشعير بشكل خاص ذو نوعية ممتازة، ويستعمل هنا، كما في كل نجد، لصنع الخبز. إن بني تميم، المستوطنين في هذه المنطقة، معروفون بنشاطهم ومهارتهم في الزراعة، ونادراً ما أشغلوا أنفسهم بأي عمل آخر. وشمر بدورهم قوم مغامرون جداً، يظهرون ميلاً أعظم للتجارة والغزو. وبخلاف سكان القرى الصحراوية الأخرى، فإن الحضر من شمر يعدّون أكثر تفوقاً من أخوانهم البدو في الشجاعة وفي فن استعمال السلاح؛ ودون أدنى شك يعود الفضل إليهم، وليس إلى البدو، في كل انتصارات عائلة ابن رشيد على كل جيرانهم.

عندما ينوي الشيخ القيام بحملة ضد قبيلة أخرى، يدعى أولاً أبناء القرى فرادى، وتقريباً يجبرون على الاشتراك في الحملة، كل واحد منهم على ذلوله أو حصانه الخاص، ويكون مسؤولاً عن توفير مؤونته وسلاحه طوال فترة الحملة؛ وهؤلاء دائماً ما يؤلفون القوة الرئيسة في الجيش. وبعد ذلك يصدر الشيخ دعوة عامة للبدو للتجمع في زمان ومكان محددين، لكي يشتركوا في الغزوة؛ ومع أن هؤلاء عموماً يأتون بأعداد كبيرة، فإنهم لعدم انشغالهم في أكثر الأوقات بأمور أخرى يعدّون إضافيين، ولا يعتمد عليهم

في المعارك إلا قليلاً. وعندما تنتهي الحملة ينال كلٌّ من اشترك فيها ما يقرره الشيخ له من مال أو غنيمة، مع ذلك فإن السكان يتذمرون من أن شيوخهم، في هذه الحالة، كما في حالات عديدة أخرى، يهملون العمل بتعاليم القرآن [الكريم] والأعراف. وحتى في الحملات السلمية؛ فإن الحضر لهم الأفضلية عن البدو. ففي القافلة السنوية، التي تنقل حجاج بلاد مابين النهرين، وإلى حدٍّ ما حجاج فارس من مشهد علي [النجف] إلى مكة، وتعود منها بعد أداء فريضة الحج على الطريق نفسه، يكون القائد أحد أبناء عائلة الشيخ، وأغلب أدلائها من الحضر من شمر، بينما يكون عدد البدو الذين يلتحقون بها قليلاً جداً. من ناحية أخرى، فإنه من جوانب عديدة يكون من مصلحة الحضر الحفاظ على الصداقة مع البدو الذين يشتركون معهم في النسب. فهم يحتاجون لحملاتهم المختلفة التي يقومون بها إلى عدد كبير من الإبل؛ ولأنه قد يكون من المستحيل الإبقاء على هذا العدد الكبير من الحيوانات في قراهم الفقيرة، فهم مجبرون على تكليف البدو بها في المدة التي لا يستخدمونها فيها. ولما كان الجملُ الحيوانَ الوحيد الذي يستخدمونه في مزارعهم وجب عليهم الاحتفاظ دائماً بجمل أو أكثر بحسب مساحة البساتين، ويبدلون به جملاً آخر بعد انقضاء ثلاثة أشهر على استخدامه لأنه لا يقوى على العمل المرهق الذي يقوم به في الري أكثر من تلك المدة.

والفقراء من القرويين، الذين لا يقدرون على شراء الجمال التي يحتاجونها لزراعتهم، يستأجرونها من البدو لمدة ثلاثة شهور، و يحصل البدو مقابل ذلك، ومقابل العناية بالجمال التي يكلفون برعيها مع قطعانهم مبلغاً من المال، أو (وهذا هو الغالب) يأخذون كمية من الحبوب والتمر. وبهذا يدوم الاتصال والعلائق الوثيقة القائمة على المصالح المتبادلة بين بدو وحضر شمر،

وأسهم هذا كثيراً في زيادة قوة تلك القبيلة. إنني أعد شمر، على نحو لا نزاع فيه، واحدة من القبائل الأكثر قوة ونشاطاً في بلاد العرب في الوقت الحاضر، وقوتهم ونفوذهم يزدادان باطراد كل سنة على جيرانهم. فمن القصيم إلى حوران، ومن ديار ابن سعود في الشرق من نجد، إلى جبال الحجاز، خضع العرب الرحل لابن رشيد والتزموا بطاعته من خلال أدائهم الزكاة له. و يأتي البدو وشيوخهم من أماكن بعيدة وأماكن قريبة إلى مجلسه متقاضين إليه في نزاعاتهم فيفضها لهم هو وقاضيه. وفي أثناء إقامتي في حائل كان هناك حوالى مئتي شخص، من جميع أنحاء بلاد العرب، ضيوفاً على الكريم عبدالله [الرشيد](٥٣)، ينتظرون صدور قرار في قضية أو قضاء حاجة أخرى. وتتكون حاشية ابن رشيد الخاصة من مئتي شخص، أغلبهم من الزنوج المعتقين ومن المصريين الذين تخلفوا من جيش إبراهيم باشا (٥٤)، وجميعهم أقوياء البنية، مدربين على استخدام السلاح، ولهم خبرة بالحرب، ومستعدين لطاعة سيّدهم طاعة عمياء. وبهذه المجموعة من الخدم، التي تشكل قوته الخاصة، وبنفوذه الشخصي، صارت لدى عبدالله القوة اللازمة لتنفيذ إرادته، وفرض الطاعة لأحكامه، ولمعاقبة المتمردين والعاصين له.

ولقد رأيت بنفسي بعض شيوخ البدو مسجونين في قصره لرفضهم تأدية الزكاة، ورأيت واحداً من حائل قطعت يداه لاتهامه بالتآمر ضد عائلة الرشيد؛ وكذلك شاهدتُ مراراً الشيخ القاضي يعاقب المذنبين بجلدهم بعصا على الأخطاء العادية. إنني أروي هذا فقط لأظهر الفارق الكبير بين سلطة شيخ شمر على قبيلته وسلطة شيوخ القبائل الأخرى العاديين على قبائلهم. فهؤلاء الشيوخ الأخيرين لا نفوذ أو سلطة لهم على أقل فرد في القبيلة، وليس لديهم أدوات السلطة لفرض الطاعة لقراراتهم، وليس لهم إلا بلاغتهم

وقـوتهم الإقناعيـة، والسلطة الأدبيـة التي يتـمـتعـون بهـا بين أفـراد قـبـائلهم لمؤهلاتهم وجدارتهم الشخصية.

طوال عشر سنوات تقريباً، كما أخبرني سكان حائل، وعبدالله الرشيد يحكم قبيلة شمر. وأن سلفه، صالح [ابن عبدالمحسن] بن علي (٥٥)، وهو قريب له، كان قد نفاه خوفاً من النفوذ والمكانة الكبيرة اللذين يحظى بهما بين الناس. لجأ عبدالله إلى الرياض، التي صارت عاصمة نجد بعد تدمير الدرعية [١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ] ومقر الأمراء الوهابيين من آل سعود، حيث كان الأمير آنذاك تركي [ابن عبدالله بن محمد بن سعود] (٥٦)، والد فيصل حاكم نجد الحالي[١٨٤٥م/ ١٢٦١هـ](٥٧). في الرياض، انضم عبدالله إلى حملة قام بها فيصل إلى المناطق المجاورة للأحساء. وبينما هم في الحملة، جاءهم خبر مقتل تركي [١٨٣٤م/ ١٢٤٩هـ] على يد قريبه مشاري [ابن عبدالرحمن آل سعود](٥٨)، الذي أعلن نفسه حاكماً على نجد، وسيطر على قصر المغدور بعد أن طرد منه زوجاته ونساءه وجميع من فيه. كتم الرجلان (فيصل بن تركي وعبدالله الرشيد) النبأ عن أتباعهم، وأسرع القائدان بالعودة إلى الرياض، التي احتلاها بعد معركة قصيرة، وبشكل رئيس بخطة رسمها عبدالله، وأصبحا السيدين في القصر وعلى مشاري نفسه. أُعدم مغتصب العرش، وأعلن عبدالله من على مئذنة المسجد فيصلاً حاكماً على نجد، وبايعه السكان.

وبعد أن أصبح فيصل إماماً [١٨٣٤م/ ١٢٥٠هـ] عين عبدالله، الذي لدهائه وحكمته يعود الفضل في نجاحه في هذه العملية، شيخاً على منطقة شمر، بدلاً من صالح [ابن عبدالمحسن بن علي]، الذي خلع. ولما لم يكن لدى فيصل أي إمكانية لمساعدة صديقه، ولا أي قوة ليضع الشخص الذي

عينه في منصبه، عاد عبدالله إلى بلده الأصلي وحيداً، معتمداً على مؤهلاته الشخصية وعلى تقدير مواطنيه له، للتغلب على صالح. لقد عانى عبدالله مصاعب جمة في ذلك، وصف بعضها في أبيات شعر قوية؛ فقد كان يختبئ خلال النهار في سلسلة جبال أجأ وينزل ليلاً إلى بلدتي حائل وقفار إلى منازل أصدقاؤه وأنصاره، الذين كانوا قد حرضوا الناس على الوقوف إلى جانبه. وبعد أن تجمع معه عدد كاف من الرجال تقدم ضد خصمه وهزمه. عندما رأى صالح أن القبيلة قد انفضت عنه فَّر مع أخوته الثلاثة إلى المدينة [المنورة] لعله يلقى مساعدة واليها التركي؛ غير أن عبيداً (٥٩) شقيق عبدالله، لحق بهم في قرية صغيرة تدعى قصر السليمي وقتلهم جميعاً إلا واحداً يدعى عيسى، الذي تابع فراره فوصل إلى المدينة، حيث استقبله واليها التركي بلطف ووعده بجنود أتراك لاستعادة حكمه. أوفد عبدالله في الوقت نفسه أيضاً أخاه عبيداً لمفاوضة الوالي التركي، ولأنه قدم عرضاً، يفوق عرض خصمه، وكان كما قيل لي، يتضمن تقديم ألفيْ رأس من الإبل ومبلغاً من المال وهدايا أخرى، أقرّه الوالي شيخاً على جبل شَمّر. احتفظ الوالي التركي بعيسى ضيفاً، في الواقع رهينة، ليجبر عبدالله على الوفاء بوعده. ومنذ ذلك اليوم استقرّ عبدالله حاكماً على بلاده دون منازع حتى وفاته في صيف ١٨٤٧م [١٢٦٣هـ]؛ خلف عبدالله في الحكم ولداه طلال ومتعب (٦٠)، اللذان يحكمان معاً. وهما يعترفان، وإن اسمياً على الأقل، بزعامة آل سعود المقيمين في الرياض، ويقولان إنهما تابعان لهم، على الرغم من أنهما لا يقدمان إلا شيئاً رمزيّاً تعبيراً عن تلك التبعية، يتمثل بإرسالهما أحياناً متطوعين لمساعدتهم في حروبهم، وبعض المبالغ البسيطة من الرسوم التي تجبيها شمر من الحجّاج الفرس البائسين الذين يمرون في ديارهم، وهم في

طريقهم إلى مكة. وأحياناً أخرى أيضاً يسمحون لهم بالحصول على جزء من غنائم غزواتهم المتتابعة للقبائل والقرى التي لم تدخل اتحادهم. لقد فقد آل سعود المتأخرون بشكل عام قوة الإرادة التي تميز بها أمراؤهم الأولون؛ وفيصل، شيخ نجد الحالي وإمام الوهابيين، الذي يحترمه الجميع لتمسكه الصارم بدينه، ويحبونه أكثر لطبعه اللين والرحيم، إلا أنه بشكل عام أقل من عبدالله النشط، الذي قبله أغلب الناس حاكم أمر واقع لنجد. وبالفعل فلحكمة عبدالله وعزيمته، ولشجاعة أخيه عبيد المقدامة يعود الفضل في تبوء شمر لمكانتها الكبيرة عند البدو الرحل، وفي القرى، وفي المنطقة المجاورة، على الرغم من أنها بالمقارنة قبيلة صغيرة. وبرسوم الزكاة، التي تجبيها عائلة الرشيد من كل قبيلة تدين بالطاعة لها ومن كل قرية فتحوها؛ مضافة إليها الغنائم التي يحصلون عليها من حملاتهم، وأملاك صالح [بن علي] وأعوانه التي صادروها، صارت عائلتهم من أقوى عائلات الشيوخ وأكثرها نفوذاً في كل بلاد العرب. لكن القوة والثروة وحدهما لم يحققا لعبدالله هذه السلطة الكبيرة بين العرب؛ إنه يدين بذلك إلى ماهو أكثر وهي صفاته الشخصية العظيمة، وجسارته ورجولته، وعدله الصارم، الذي غالباً ما يميل إلى القسوة، ولمحافظته على كلمته ووعده، وهو الذي لم يعرف عنه أنه نكث بهما، ولحسن ضيافته التي لا تضاهى ونزعته إلى فعل الخير تجاه الفقراء حتى صار معروفاً عنه أنه لا يطرق سائل بابه إلا ساعده. وهذه الفضائل، وهي أعلى ما يتحلى بها بدوي، كان عبدالله يتحلّى بها بأعلى درجاتها، ومع ذلك، كان له خصوم عديدون من الذين نجوا من عائلة سلفه، ومن عشيرة الجعفر، التي ينتمون إليها، والذين سمعت كثيراً أنهم يشكون من حكمه المستبد، وبشكل خاص من قسوة أخيه عبيد ووحشيته.

يمتدح الناس الحاكمين الحاليين، طلالاً ومتعباً، لتحليهما بصفات والدهما العظيمة، ولكن طباعهما ألين وأكثر اعتدالاً. وإني لأخشى كثيراً، لاسيما في حالة وفاة عمهما عبيد، أن يعجزا عن وقف حالة الاستياء المتنامية ضدهما؛ ومهما تكن النتيجة، فإن الأكيد أنه قبل عهد عبدالله لم يكن هناك أي أمن لإنسان ولا لمال، ولا يزال بعض من غير المتقدمين في السن يذكرون أوقاتاً لم يكن أحد يجرؤ على المغامرة بالسفر من حائل إلى قفار إن لم يكن برفقة عشرة أو عشرين مسلحاً؛ وهي رحلة ثلاث ساعات فقط [حوالى ١٠ أكيال]، والتي مشيتها وحيداً. و يقول السكان إن أيّ فرد يمكنه أن يسافر عبر أرضهم من أدناها إلى أقصاها حاملاً ماله فوق رأسه دون أن يعترضه أحد، وذكروا لي أن القرويين في السابق كانوا منقسمين جماعات متعادية، تسلب وتنهب بعضها بعضاً، عند كل فرصة، في الطرقات وحتى في بيوت أحيائهم.

وكان الشمامرة، منذ بدء الدعوة الوهابية، أكثر أتباعها وأبطالها، ولاءً، وأسهموا كثيراً في نشرها في المناطق الغربية من شبه الجزيرة العربية، وساندوها حينما تراجعت حماسة أتباعها لاحقاً، بصفتهم مقاتلين أشداء في جيوش السعوديين، أو محاربين مستقلين بذاتهم. ومع أن الحماسة الشديدة والصرامة القاسية التي اعتمدها أوائل دعاتها والقائمين عليها في نشر عقيدتهم، قد تراجعت تدريجياً، وذهبت الحماسة والتطرف اللذان يرافقان بشكل طبيعي نشر كل دعوة جديدة، فإن الوهابية ماتزال هي السائدة والمتبعة بشدة، في المنطقة التي ظهرت بها أول مرة، ولا سيما في الأجزاء الشرقية من نجد، الخاضعة لحكم آل سعود.

وقيل لي هنا إن الناس ليسوا فقط ملتزمين بمبادئ وتعاليم عقيدتهم بإيمان راسخ بحقيقتها، بل يمتثلون لفرائضها الصارمة المتعلقة بالعبادات الظاهرة

وبالبساطة في الحياة والسلوك، بدقة متناهية. في المراحل الأولى للوهابيين كان التبغ، على سبيل المثل، محرماً تحريماً قاطعاً بوصفه نبتاً ينمو ببول إبليس؛ و لبس الحرير محرّما على الرجال، ومباح للنساء بحدود معينة؛ والشعر والموسيقا واللهو من المحرّمات. وقيد أكل الرز كطعام لأنه لم يكن معروفاً عند العرب في عهد الرسول [صلى الله عليه وسلم] ولم يأكله الرسول؛ ويوصون بأكل الشعير وبأفضليته على القمح، وإنه أفضل غذاء للوهابي الحقيقي، وكانوا يحرمون العلاقة الودية مع المسلمين الآخرين، ويعدون قتالهم واجباً دينيّاً ما لم يتوقفوا عن زيارة أضرحة الأولياء، وغيرهم. وأخبرني أهل حائل بطريقة لا تخلو من التهكم أن أتباع ابن سعود لا يزالون متمسكين بهذه الآراء تقريباً؛ لكن شمر أبطلت هذه الممارسات أو على الأقل عدلتها كثيراً، وأدى استمرار علاقتهم مع العراق والحجاز ومصر والغرباء ممن زاروا أرضهم إلى تسامح أكبر في آرائهم. ولهذا، على سبيل المثل، يمكن أن يؤدي أحدهم صلواته بثوب من قماش تصل به نسبة مادة الحرير إلى النصف؛ وقد يرتدي ثوباً حريريّاً خالصاً في أوقات أخرى؛ لكن صلواته لا تعد مقبولة بذلك الملبس؛ و أصبح تدخين التبغ شائعاً، مع أن المدخن مكروه ولا يسمح له بإمامة صلاة الجماعة، ومع ذلك فإن أغلبية الناس ما تزال تحرم وتلعن تدخين التبغ، وأتذكر أن بدوياً شمّرياً قال لي إنه لن يحمّل على بعيره تلك العشبة البغيضة حتى ولو أعطي حملاً من الذهب. إن المبدأين الرئيسين في الدعوة الوهابية، اللذين مايزال الشمامرة متمسكين بهما هما رفض الأولياء، حتى الرسول نفسه، كوسائط بين اللّه والإنسان؛ وثانيهما وجوب الصلاة في المسجد مع الجماعة، لا منفرداً في المنزل، كما هي العادة السائدة عند المسلمين الآخرين؛ وانسجاماً مع هذه القاعدة تجد في كل حي من الأحياء

مسجداً صغيراً يجتمع فيه الناس لأداء الصلوات الخمس جماعة؛ وعلاوة على هذه المساجد، يوجد في حائل مسجد كبير في قصر ابن رشيد نفسه، حيث يلتقي الجميع لتأدية صلاة الجمعة ولسماع خطبتها. وتؤدي بعض النساء صلاة الجمعة مع الجماعة، حيث يصطففن بصفوف خلف المصلين؛ أما الصلوات الأخرى فيؤدينها في منازلهن إذ إن ذلك يعد أكثر احتشاماً، والنساء الوهابيات دقيقات في تمسكهن بواجباتهن الدينية؛ وبينما نادراً ما أتذكر أنني قد رأيت نساء يصلين في بيوتهن، أو في مسجد في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، وجدت أن أكثر النساء في جبل شمّر والجوف يؤدين الصلوات الخمس في مواقيتها. ويراقب الأمراء الوهابيون بحرص اجتماع الناس لصلاة الجمعة، وحدث مراراً في حائل أن عاقب عبدالله الرشيد عدداً من الرجال عقاباً شديداً لتخلفهم عن صلاة الجمعة. ويؤم الصلوات في الجامع الكبير بحائل إمام رسمي يعينه الأمير براتب، وهو في الغالب رجل تلقّى بعض التعليم في المدينة أو في القاهرة أو في الرياض، ويشمل تعليمه حفظ القرآن [الكريم] بكامله، أو جزء منه، ومعرفة شعائر الإسلام وكيفية أدائها، علاوة على بعض المسائل الدينية في الشرع والأحاديث النبوية التي قننها أحمد الحنبلي (ابن حنبل)، المؤسس للمذهب السلفي للوهابية، ويجب على الإمام أيضاً أن يكون متعمّقاً في مسائل الخلاف بين الوهابيين والمسلمين الآخرين، التي رأينا أنها تتركز حول عدد قليل من القضايا. وبما أن معرفة الإمام تنحصر في هذه المواضيع؛ فإنني نادراً ما حصلت على إجابات وافية عن تساؤلاتي حول مواضيع أخرى تتعلق بالأدب العربي وحتى قواعد اللغة وبعض التعابير الغامضة في لهجة البدو. وفي هذه البلاد يحتل القاضي دور الممثل الآخر للمعرفة الدينية، ويعيّنه الأمير الحاكم أيضاً في منصبه، وهو مثل الإمام يتلقى

تعليمه في إحدى المدن الكبيرة المجاورة، على علماء يدرّسونه فقه المذهب الحنبلي، إلا أنه يجهل المواضيع الخارجة عن علمه، مثله مثل الإمام؛ ويسمى الإمام في كل نجد خطيب. أما كلمة إمام فتطلق هنا حصراً على الأمراء من آل سعود، بوصفهم أمراء الوهابيين روحيّاً وزمنيّاً، ولا يطلق الوهابيون والبدو لقب شيخ على علماء الدين ورجاله، كما هو الحال في البلاد العربية، بل يسمونهم بالمدينين [المتدينين]. ومن النادر جداً أن تجد غير الخطيب والقاضي من المتعلمين بين السكان في جبل شمر ؛ فهم (السكان) بعمومهم أقل علماً بالدين وأصوله من أبناء البلاد التركية - العربية والفارسية، مع أن كثيرين منهم يعرفون القراءة والكتابة، وليس في البلاد مدارس عامة أو خاصة، ولا تلقى في المساجد أية محاضرات ذات أهمية، ويتعلم الأبناء من آبائهم مبادئ الدين، ويتعلمون في السنوات الأولى قرءاة القرآن وأداء الصلوات. وأما أي معرفة مكتسبة أو علم آخر لديهم فيحصلون عليه شفوياً من خلال مخالطة كبار السن التي لا يمنع الصغار منها. وحينما قدمت لأول مرة للعيش مع البدو دهشت كثيراً ليس فقط لرؤيتي الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث واثنتي عشرة سنة في مجالس كبار السن، ومبادلتهم الحديث، ولكن أيضاً أخذ رأيهم أحياناً في مواضيع تفوق مستواهم، والاستماع إلى ما يقولونه باهتمام. ويعيش الصغار مع آبائهم في محبة وألفة؛ ولم أر في الصحراء تلك المشاهد الكريهة المألوفة بمصر، مشهد والد حانق يضرب ابنه، ولا رأيت الإذلال الذي يعانيه صغار الأتراك الذين لا يسمح لهم أبداً بالجلوس أو حتى الكلام في حضرة آبائهم المتغطرسين، ولم أر في العالم كله أولاداً أكثر تعقلاً وأحسن خلقاً وأكثر طاعة لآبائهم من البدو. وعلى الرغم من الآراء المسبقة المجحفة للمسلمين، ولا سيما الوهابيين ضد

الشعر، فإن جبل شمر هو موطنه؛ وهم رجالاً ونساء ينظمون قصائد غالباً ما تكون مرتجلة، ويحفظ كل شخص، صغيراً وكبيراً قصائد كثيرة؛ وأمراء عائلة الرشيد شعراء، كما كان امرؤ القيس، الشاعر الشهير الذي كان ملكاً عليهم قديماً.

والكتب نادرة الوجود هنا، كما هي الحال في عموم الصحراء، و لم أجد إلا عدداً قليلاً من الناس من عنده كتب غير القرآن سوى القاضي. وتحتوي مكتبة القاضي، التي يحرص عليها كثيراً، على كتب فقهية فقط، اشتراها جميعاً حسب ما ذكر لي من مشهد علي [النجف]، وكل محاولاتي للبحث عن كتب تاريخية لم تثمر شيئاً. وعلاوة على القرآن كنت أقع أحياناً في بلاد الوهابيين على مؤلفات أخرى وضعها علماء من ذرية مؤسس الوهابية [الشيخ محمد بن عبدالوهاب] في مسائل دينية عن عقيدتهم. وهؤلاء الرجال يعرفهم أتباعهم باسم «عيال الشيخ»، ويعيش أكثرهم في الرياض، حيث يلقون الخطب في المساجد في مختلف فروع المعارف الإسلامية، وذكر لي أن محمداً بن عبدالوهاب وضع كثيراً من المؤلفات، أهمها: " كتاب التوحيد" ؛ و"كشف الشبهات" ؛ و" كتاب الكبائر " ؛ و"كتاب رياض الصالحين" ؛ و"الأحاديث الأربعين"(٦١). ومن بين هذه الأعمال لم أتمكن من الحصول إلا على كتاب "كشف الشبهات" ؛ وإذا ما حكمت من خلاله على كتب العلماء الوهابيين فإنها لا تقدم إلا القليل أو لا شيء من الأفكار الجديدة. ولا يحتوي الكتاب على شيء إلا آيات من القرآن الكريم في عشرين إلى أربعين صفحة لإثبات أن طلب شفاعة الأولياء دخيلة على الإسلام التوحيدي في أصله ومخالفة للدين الحنيف. خلف محمد بن عبد الوهاب أربعة أبناء، حسين وعلي وعبدالرحمن وعبدالله (٦٢)، وقد أرسل عبدالرحمن في صغره

مع عبداللطيف ابن عمه إلى القاهرة (٦٣) لتلقي العلم في الجامع الأزهر، حيث كان لا يزال سنة ١٨٤٩م يخطب في الناس في الفقه الحنبلي. وفي سنة [١٨٤٧م/١٢٦٣هـ] سمح الباشا المصري لعبداللطيف(٦٤) بالعودة إلى وطنه، وعلمت لاحقاً أنه عين قاضيا لمنطقة الأحساء، وأخبرت أن عبدالرحمن ابن حسن أحد أحفاد محمد بن عبدالوهاب هو قاضي الرياض حالياً (٦٥).

إن الفخذين الرئيسين والأقوى من بين الأفخاذ الكثيرة لقبيلة شمر هما عبدة والجعفر، و إلى عبدة تنتسب عائلة الرشيد الحاكمة، وذكر لي أن أكثر أفراد هذه العشيرة كانت ما تزال موجودة في منطقة عسير تحت اسم عبيدة. ومن عشائر شمر الأخرى التي تقطن في منطقة الجبلين، السويد، المعروفون في كل المنطقة بجودة سمنهم ؛ سنجارة؛ الأسلَمَ ؛ التومان؛ الرمال، الذين سبق وأن ذكرنا أنهم سكان جُبّة الرئيسيون، وأنهم موجودون في أماكن أخرى؛ وعلاوة على شمر يوجد في الجبلين، ويختلط معهم، كثيرون من مطير و من سبيع، ومن قبائل أخرى من الأجزاء الشرقية الأبعد من نجد، وبعض الناس مقتنعون بأن الشمامرة القاطنين في منطقة الجبلين هم الذرية الأساسية للقبيلة، وأن الصفوق الموجودين الآن في بلاد مابين النهرين هم أحسن وأقوى عشائرها، وإلى الصفوق ينتمي أيضاً أحد أشهر أبطال البدو في الأزمنة الحديثة، اسمه الجرباء، سجلت معاركه وبطولاته في عدد من القصائد التي ماتزال حية في ذاكرة الناس. وأخبرت أن الصفوق هاجروا من بلادهم في الأيام المبكرة للوهابية إلى الجزيرة في بلاد مابين النهرين حيث مازالوا يشكلون فيها قبيلة كبيرة وقوية، يخشاها باشا بغداد التركي خشية كبرى، وتعيش حالياً في المنطقة المجاورة لكربلاء عشيرة الزقاريط، وهي من عشائر شمر القوية التي هاجرت من هذه الأرض. و لا أعرف غير هاتين العشيرتين

هاجرتا بكاملهما من أرض نجد؛ ولكن أفراداً وعائلات يهاجرون يومياً من هنا إلى بلاد الرافدين ويلتحقون بأقاربهم، ويستمرون في حياة البداوة على طول ضفاف دجلة والفرات، أو بالتدريج يستوطنون القرى. ومن الغريب أن هؤلاء لا يتجهون إلى سورية أو مصر، ولم أسمع أن جماعة أو فرداً من شمّر قد هاجروا إليهما؛ فبسبب الموقع الجغرافي لبلاد مابين النهرين، بخلاف كل المناطق الخصبة المحيطة بصحراء بلاد العرب، كان من الطبيعي لسكان الجبلين أن يتواصلوا ويتعاملوا مع العراق أكثر من غيرها. وحيث إن بدو هذه المنطقة مضطرون دائماً لرعي قطعانهم الكثيرة في الدهناء الغنية بمراعيها، فإنهم يتنقلون من مكان إلى آخر فيها باتجاه الشمال حتى يصلوا تدريجياً إلى حدود مابين النهرين، حيث يستهويهم غنى وخصوبة الأرض، فيقيمون، بدلاً من العودة إلى أراضيهم القاحلة في نجد. إن أرض الرافدين هي الأقرب والأرخص للحصول على الغذاء والمؤن، في سني القحط، وفيها يستطيع البدو تسويق إبلهم التي يستغنون عنها أو مقايضتها بما يحتاجون إليه.

والعادة أن تسير إلى بلاد ما بين النهرين قوافل كبيرة من شمّر أربع مرات في السنة، ولكن جماعات صغيرة وأفراداً منهم تسافر يومياً تقريباً إلى العراق. وفي وصفي للرحلة التي قمت بها من جبل شمر إلى مشهد علي [النجف] أشرت الى الدربين المطروقين، وهما على صعوبتهما وقلة الأمن فيهما أقصر وأسلك من الطرق المؤدية إلى سورية ومصر(٦٦). أما الحجاز والنواحي الشرقية من نجد التي يسهل الوصول إليها من هنا، فقد كانت دائماً مجدبة جداً للدرجة التي لا تغري الناس على الهجرة إليها، مع أن الأماكن المقدسة في الحجاز مزار سنويٌّ لهم عبر العصور، وبالمقابل نجد في التاريخ القديم لهم أن القبائل المختلفة، التي تعاقبت على استيطان وملكية هذه

الأرض، كانت تأتي دائماً من الحجاز، أو عبر طريقه، وبعد البقاء مدة طويلة أو قصيرة، في الجبلين واصلوا هجرتهم باتجاه الشمال، وبشكل عام اتجهت القبائل القحطانية إلى بلاد ما بين النهرين، وتوجهت القبائل العدنانية إلى سورية ومصر.

ولو كان العرب شعباً بحرياً لكان من السهل الإبقاء على اتصال بحري مع البلدين الغنيين، مصر والهند، من مينائي، الوَجه ذي المرفأ الجيد على البحر الأحمر، والقطيف على الخليج الفارسي [العربي]؛ وإذا ما تمّ في المستقبل شق مضيق السويس، وأريد فتح طريق من الهند إلى أوروبا عبر بلاد العرب، فالطريق الطبيعي يكون بمد سكة حديدية بين الميناءين المذكورين، عبر أرض مستوية وممهدة، تقطعها الجمال في ثمانية عشر يوماً. وحتى الآن وعلى الرغم من الحالة السيئة للملاحة العربية فقد حافظوا على اتصال بحري ضعيف جداً مع كل من الهند ومصر عبر مينائي البصرة وجدة، ولا توجد تقريباً أية علاقة بين شمر وسورية؛ ومن بين سكان حائل الذين قدموا من بلدان أخرى كثيرة لم يكن يوجد إلا سوري واحد. أما العلاقات التي بدأت بالتطور في السنين الأخيرة بين هذه المنطقة ومصر فتعود جزئيّاً إلى حروب محمد علي [باشا مصر] على الوهابيين، وبشكل رئيس إلى ولع والي مصر الحالي عباس باشا(٦٧) بخيول شمّر. وفي رأيي أن هذه الخيول تستحق أن توصف بأنها أجمل الخيول العربية الأصيلة، وأسرعها، وهي هنا أكثر منها في أية منطقة أخرى زرتها من بلاد العرب. وأكثر الأثرياء يملكون عدداً، صغيراً أو كبيراً، منها. وذكر لي أن مجموعة عبدالله [ابن رشيد] وحده تقارب مئتي حصان، موزعة في مختلف قرى إمارته. ومن عادته أن يرسل اثنين منها إلى المدينة [المنورة] سنوياً مع قافلة الحجاج هدية إلى واليها التركي؛ وحصانين آخرين

إلى أمير مكة [المكرمة]؛ وقد يهدي والي بغداد حصانين أيضاً؛ وخلال السنوات الأخيرة كان عباس يرسل بعثة سنوية تقريباً لشراء الخيل لإسطبله الكبير في القاهرة. وهناك عدد من الخيول تهدى إلى أمراء آل سعود، أو تُباع إلى بدو في المنطقة؛ ولكن عدا هذا العدد الضئيل الذي يخرج من هذه الخيول إلى البلدان المجاورة لم أسمع بأن غيرها قد خرج من منطقتهم. أما إبل شمر، مع أنها أقل قيمة بكثير من الإبل العمانية، وحتى من إبل الأجزاء الشرقية من نجد، فهي من نسل جيّد، وتباع منها أعداد كبيرة في أسواق المدينة ومكة خلال موسم الحج؛ ومعدل سعر البعير منها يتراوح بين عشرة وأربعين دولاراً إسبانياً، بينما يتراوح معدل سعر الحصان من عشرين دولاراً إلى ثلاثة آلاف دولار، وعلاوة على الخيول والإبل يملك الحضر من شمر الحمير التي يستخدمونها للتنقل بين القرى. ولم أر أبداً حتى بغلاً واحداً هنا، والثيران نادرة جداً، ومن النوعية الهزيلة نفسها التي شاهدتها في الجوف، والأغنام كثيرة و غالباً ما تختلط قطعانها في المراعي بالغزلان التي تألفها تدريجيّاً وتتبعها عند عودتها من المراعي. أما الكلاب فمكروهة هنا أكثر من أي بلد إسلامي آخر زرته، ولا أذكر أنني صادفت كلباً في قرية، وهي حيوانات جبانة وهزيلة، وتهيم وكأنها حيوان بري في البراري المحيطة بالأماكن المأهولة كما لو أنها تريد أن تعبرّ عن رغبتها برفقة إنسان؛ ولكنها متأكدة من أنها حالما تشاهد ستُقذف بالحجارة وتُطرد. وقد يكون المذهب الحنبلي المتشدد الذي تأخذ به شمر هو أساس هذه الكراهية للكلاب إذ لا تعدّ طاهرة. و الطيور الداجنة نادرة في القرى كندرة الطيور البرية في الصحراء، والدجاج هو النوع الداجن الوحيد الذي رأيته هنا من الدواجن، وهو من النوع الجيد، ولا أتذكر أنني رأيت في القرى الصحراوية الأخرى أي نوع من الدواجن، والجبال

الجرانيتية غنية بالطرائد، ولا سيما الماعز البري [المها العربي] وحيوان صغير اسمه وبر، يصطادها الناس ويأكلونها، ومن الحيوانات البرية الأخرى الموجودة في هذه المنطقة الضبع، وهو نوعان الذئب والفهد، والثعلب وابن آوى، وهذان الأخيران نادران؛ لكن الأسُود لا تصل إلى هنا. وحسبما ذكر لي، فإنها قد توجد أحياناً على طول ضفاف الفرات، وصادفتُ بنفسي أسداً في الصحراء على مسافة يومين إلى الجنوب من مشهد علي [النجف]؛ ويصطاد الصلبة والشرارات النعام في الصحراء ولا سيما في محيط الجوف، وتكثر في جميع أنحاء هذه المنطقة الصحراوية الفسيحة الأرانب والغزلان والبقر الوحشي، والجرابيع، والضب، وكلها يأكلها البدو.

من بين مختلف القبائل التي ملكت هذه الديار في الأزمان السابقة لا يذكر السكان الحاليون إلا بني تَعمُر، وبني ساعدة، أو الساعدة، وبني فرير أو الفرير، بوصفهم القبائل الرئيسة والأقدم؛ لكنهم لا يعلمون أية منها سبقت الأخرى، ولا متى قدمت، وكم أقامت هنا؛ والأقوال المتوارثة لا تفيدنا بأية حقائق تاريخية عن هذه القبائل، ولا تؤكد، حتى ما إذا كانت أسماؤها أسماء قبائل أم أسماء عائلات رئيسة حكمت هذه المنطقة في الأزمان السابقة، بالطريقة نفسها التي عليها عشيرة العبدة وعائلة الرشيد في زمننا الحالي. علاوة على هذه القبائل الثلاث يعد الشمامرة الحاليون القبائل الكبيرة والشهيرة، بني طيء، وبني قيس، وبني تميم، وبني هلال من قدماء السكان في هذه المنطقة.

ولأن ما ذكره المؤلفون العرب عن منطقة الجبلين قليلاً ومتناقضاً، والروايات الشفهية المتوارثة ليست موثوقة أو كافية للكشف عن تاريخها القديم، فإنني سأحاول أن أقدم موجزاً مختصراً للحقائق الرئيسة التي توصلت إليها. إن من الواضح أن بني تعمر، الذين يعدّون أقدم سكان المنطقة في المنظور العام،

وخبرهم محفوظ، هم أولئك الناس الذين ذكرهم ريتر نقلاً عن بوركهارت[٦٨] باسم تعمور وأنهم قبيلة قديمة عظيمة في سورية ونجد، وتنسب إليهم آثار الآبار العميقة القديمة، والأبنية القديمة الأخرى المنتشرة، هنا وهناك، في شمال ووسط بلاد العرب[٦٩]. وكنت قد سمعت لأول مرة باسم أولئك الناس في جبة، التي يعتقد أهلها أن بني تعمر كانوا من بين أوائل من ملك قريتهم، وأنهم كانوا يسكنون في جبل أم سلمان؛ لكن أهل جبة وأهل جبل شمر لا يعدّونهم عمالقة أو أنهم هم أصحاب الآثار القديمة التي نجدها هنا، وينسبونها دائماً إلى [النبي] سليمان وأتباعه. ولم أجد لدى المؤلفين العرب ذكراً حتى للاسم تعمر، وكذلك لم يرد اسمهم في الكتاب العلمي لكوسان دي برسيفال[٧٠] الذي درس بتعمق تاريخ العرب القديم بشكل لم يسبقه إليه أحد.

والروايات المتوارثة التي وصلتنا حولهم لا تتعدى ذكر اسمي شيخين من شيوخهم هما خضراء وتونس، ويبدو أن القصة التي ذكرناها سابقاً وأوردها ياقوت في كلامه عن أجأ وسلمى والعوجاء، تشير إلى هجرة أولئك العماليق إلى هذه الأرض، وأن أخوة سلمى وزوجها لم يعودوا إلى بلادهم، التي قد تكون في الحجاز، بعد ثأرهم الدموي، وإنما بنوا بيوتاً واستوطنوا في أماكن، لا ريب أنها كانت في جوار الجبلين. وكان في الحقيقة شيء لا يصدق أن هؤلاء العمالقة القدماء، حسب المعلومات الطفيفة التي ذكرهم بها المؤلفون العرب، موجودون في البحرين وعُمان وسورية والحجاز، وبالقرب من هذه المنطقة في تيماء وخيبر والمدينة، إذا لم يكونوا قد ملكوا الجبلين أيضاً. ومن العماليق كان الجبابرة القدامى، وهم المعروفون عموماً بأنهم العناقيين الذين ورد ذكرهم في التوراة[٧١]. ولهذا فإن بني تعمر؛ إذا ما كانوا عماليق

حقيقة، أو، وهذا لا يقدم أو يؤخر، عُدُّوا عماليق من قبل السوريين الحاليين، الذين استقى منهم بوركهارت معلوماته، أو ما إذا كانوا، حسب الروايات المتوارثة، هم أقدم السكان الأصليين في هذه الديار، فيمكننا الترجيح بأنهم هم أولئك العماليق، أو أنهم من ذريتهم، وإن لم ترد كلمة العماليق بين أسماء القبائل القليلة من قبائل أولئك الناس، الواردة في المؤلفات العربية. و إذا ما كان تاريخ هؤلاء القوم ناقصاً ومحرّفاً، مثل التاريخ القديم لبلاد العرب؛ فإننا لا نجد أيضاً أية معلومات في المؤلفات العربية عن منطقة الجبلين قبل بدء العهد المسيحي حينما بدأ العدنانيون الرحل، الذين يقدر كوسان دي برسيفال أن جدّهم عدنان ولد حوالى سنة ١٣٠م، بالهجرة من الحجاز إلى نجد.

ويشير المؤلفون العرب إلى أن جميع العدنانيين، باستثناء قريش في مكة، عاشوا حياة بداوة وظلوا وحدهم يملكون نجداً إلى أن أخذت القبائل القحطانية بالهجرة من اليمن والسيطرة تدريجيّاً على هذه المنطقة، الأمر الذي دفع العدنانيين شمالاً إلى بلاد ما بين النهرين وسورية. وفي منتصف القرن الثالث الميلادي نجد أن قبيلة بني أسد العدنانية، التي يقدر أن تاريخ ميلاد جدهم أسد بن خزيمة كان في سنة ١٠١م، قد استوطنت في هذه المنطقة، ولا يذكر الشمامرة بني أسد من بين من استوطنوا أرضهم قديماً؛ ولكن آخرين، ربيعة على سبيل المثال، التي ينسب إليها كثير من البدو الحاليين أصولهم، قيس وتميم وهلال، المعروفين بأنهم عاشوا في منطقة الجبلين وتعاقبوا في الأزمان المتأخرة على حكمها، والذين كانوا جميعاً مع بني أسد ينحدرون من عدنان.
و يُجمع المؤلفون العرب على أن بني أَسَد كانوا يملكون هذه المنطقة حينما جاءت مهاجرة إلى المنطقة أول قبيلة قحطانية. وكانت هذه القبيلة هي قبيلة

بني طيئ المعروفة التي تركت بلادها، الجرف في اليمن، بعد قليل من هجرة قبيلة أزد التي تلتقي معهم بالنسب. وقد تعود هجرتهم بعد سنة مجاعة أو لأسباب ملحة أخرى، إذ أتوا الجبلين بين سنتي ٢٤٥م و ٢٥٠م . وأول مكان نزلوه هنا كان سميراء في الجنوب الغربي من جبل سلمى، ومنها شنوا الحرب على سكانها السابقين من بني أسد وهزموهم واستولوا على الجبال الجرانيتية، التي ربما أنها كانت حينها أغنى وأخصب أجزاء المنطقة، وإلى هذه القبيلة يعود نسب عشيرة الفَرير، التي يشير إليها الشمامرة بتمييز خاص من بين كل أسلافهم. وأنا أستند إلى ياقوت فقط في قولي إن الفرير من قبيلة طيئ ؛ ولم أجد غيره قال بهذا سوى ريتر في كتابه «علم الأرض، المجلد الثالث عشر، ص ٣٤٧» نقلاً عن المشترك (٧٢)، الذي قال إن الفرير قوم في أجأ.

ويقول ياقوت إن الحُفَير ماء بأجأ، لبني فَرير من طّيئ(٧٣)؛ وإذا لم يكن هناك خطأ في مخطوطة ياقوت التي رجعت إليها، فإننا لا نستطيع نسبة بني فَرير كما تزعم شمر؛ ولكن قد يمكننا عدَّهم أول قبيلة من طيئ سيطرت على السكان الآخرين في هذه المنطقة. وتكاثر المهاجرون القحطانيون على مراحل وانتشروا في طول المنطقة وعرضها، ويبدو أنهم تمكنوا بسرعة من بسط سيادتهم بلا منازع على القبائل العدنانية التي التقوها عند أول وصولهم. فأخذ اسم بني أسد يختفي مع الأزمان من تاريخ هذه المنطقة؛ واضمحلت القبيلة، وملكت طيئ أو ورثت على حدٍّ تعبير العرب أراضي نجد المحوطة بالكرخ، وموضع الكرخ غير محقق. غير أن قبائل أخرى ذات جذور عدنانية واصلت العيش بسلام في أراضيها، وبعلاقات ودية مع طيئ، وأعتقد أن الأمر لا يصح أن يكون على غير هذا الوجه لأن الأجزاء الرئيسة الأخرى من نجد كانت ما تزال مقاماً للعدنانيين، بينما كانت طيئ اليمانية غريبة مهاجرة

تعيش وسطهم. ولما تزايد السكان واضطرت القبائل المتخالطة إلى النزوح عن الديار كان العدنانيون أوائل الراحلين؛ ولهذا نجد أن بني تميم كانوا قبل الإسلام يتنقلون في الدهناء بين الكوفة والبصرة واليمامة، ثم توالت الهجرات فأجبرت بني تميم على النزوح أبعد في بلاد مابين النهرين، حيث تابع بعضهم حياة البداوة؛ لكن أكثرهم استوطنوا القرى، ولا نزال حتى اليوم نصادف بقاياهم في تلك الأرض. وبعد أن نزح بنو تميم عن مراعي الدهناء خلفتهم فيها طيئ، وامتد نفوذها من الجهة الأخرى إلى وادي القرى وملكوا أرض غطفان؛ وعليه فقد كانوا يملكون عند بداية ظهور الإسلام تقريباً جميع الأراضي التي تسود فيها شمر في أيامنا هذه.

إن المنطقة الوحيدة في هذه التخوم، التي لم تملكها طيئ والقبائل الأخرى من قبائل الجبلين هي الجوف، التي يبدو أن الجميع كانوا يتفادونها؛ ويمكننا أن نفترض أن سبب ذلك هو اتخاذ العشائر والعائلات المهاجرة إلى سورية طريق الحيرة وما بين النهرين، وهو الطريق المعتاد الذي مازال العقيلات يتخذونه في أسفارهم وهجراتهم من القصيم إلى سورية. أما الذين نزحوا من هذه المناطق إلى مصر فمن الطبيعي أنهم اتخذوا طريق الحجر و تبوك على طول السفوح الشرقية لجبال الحجاز، وكان الساعدة من آخر عشائر طيئ التي سادت المنطقة قبل انتشار الدين الجديد.

ويقول القلقشندي إن بني ساعدة بطن من غزّية من عشيرة هني من طيئ. ويشير القلقشندي إلى أن بني ساعدة، اعتماداً على ماذكره الحمداني [يوسف ابن سيف الدولة بن زماخ بن بركة بن ثمامة التغلبي الحمداني (٦٠٢-٧٠٠هـ]، من أحلاف العائلة الأميرية السورية، آل فضل (٧٤)، التي نعرف أنها تعود في نسبها إلى هني الطائية نفسها. ويقول كوسان دي برسيفال إن

الرياسة على كل طيئ كانت لعشيرة من غزية، تسمى حيا عند بداية ظهور الإسلام، ولما بدأ المؤمنون بالدين الجديد توسيع فتوحاتهم في البلاد الواقعة خارج حدود صحرائهم انضمت إلى جيوشهم قبائل من طيئ، وقبائل البدو الآخرين وتفرقوا في أماكن مختلفة. ومع ذلك يبدو أن قسماً كبيراً من طيئ ظلوا في شمال الجزيرة العربية؛ لأنه يروى عنهم أنهم سادوا في القرنين السادس والسابع الهجريين على بدو سورية والعراق، ولا نزال نصادف في العراق بعض بقاياهم . ولعله يمكن الافتراض أن قسماً صغيراً منهم بقي في أرض الجبلين، لأن الروايات المتوارثة تفيد بأن شمر وجدوا عند بداية وصولهم إلى هذه المنطقة كل من طيئ وقيس. وحسب روايتهم؛ فإن شمر نزحت من بلادها في عسير، باليمن، إثر مجاعة وسلكوا الدرب التي سارت عليها طيئ والبدو اليمانيون في هجرتهم، وأنهم وصلوا إلى هذه المنطقة في منتصف القرن الثاني للهجرة. ولما كان السكان الباقون في الجبلين قد ضعفوا بسبب نزوح الكثيرين، فإنهم حسب ما يبدو لم يكونوا يملكون القوة الكافية لرد غزو شمر، الذين يذكرون أنهم حاربوا سكان الجَبَلين وبعد أن أثبتوا أنهم أنداد لهم، سمح لهم بالاستيطان في المنطقة. وبقوا ثلاثين سنة كأصدقاء مجاورين للسكان السابقين، ولكن النزاعات ما لبثت أن نشبت بينهم واستحالت إلى حرب انتصرت فيها شمر، فطردت كُلاً من طيئ وقيس، أو أنهم اضطروا مثل تميم للنزوح إلى الدهناء وإلى ما بين النهرين، وبقيت شمر بمفردها في الجبلين.

هذا هو جوهر روايتهم؛ لكن الجغرافي العربي ابن سعيد[علي بن موسى ابن سعيد المغربي الغرناطي الاندلسي]، المتوفى سنة ٦٨٥هـ، يخبرنا أن "في بلادهم الآن أمم كثيرة تملأ السهل والجبل، حجازاً وشاماً وعراقاً" (٧٥). ومع

أن ابن سعيد لا يذكر أسماء هذه القبائل؛ فإنه يمكننا ترجيح أن شمر كانت في عدادها؛ ولكن لا توجد إشارة حول العشيرة أو العائلة التي كانت سائدة في تلك الأزمان. ولا يذكر المؤلفون ولا تذكر الروايات المتوارثة أية إشارة حول تاريخ بداية تسنم شمر للسلطة وسيادتها على الآخرين. وأنا لا أستطيع المجازفة والجزم كما جزم ريتر في كتابه «علم الأرض، المجلد الثالث عشر، ص ٣٥٣» بأن شمر متصلون بالملك الحميري القديم شمر بن العملوق. والكتاب العربي الوحيد الذي ورد اسمهم فيه، وهم في أيامنا هذه قبيلة قوية جداً، هو «كتاب الأنساب» للقلقشندي، وفيه يشير إلى أن "بنو شمّر بطن من العرب، مساكنهم جبل طيئ أجأ وسلمى "(٧٦)، دون أن ينسبهم إلى قبيلة معروفة، أو يقدم لنا معلومات أكثر عنهم. ولكن تاريخ شمر قد لا يختلف عن تاريخ القبائل الأخرى التي استوطنت هذه المنطقة، أو البدو الرحل عامة على الرغم من التقلبات المتواصلة التي تسود حياة البدو، حيث تتشابه الأحداث وتتكرر باستمرار. و لما ضعف، على مرّ الزمان، ما أوجده لهم الإسلام من باعث لحياة سياسية جديدة، وهجرات جماعية، وأخذ يتراخى تدريجيّاً ذلك الوثاق الذي جمع بينهم ووحّدهم ربما للمرة الأولى في تاريخهم عاد سكان الصحراء، كما يبدو، إلى سيرتهم الأولى من الفرقة والنزاعات بعد أن كان الجهاد الديني قد وضع حداً لها في القرون الأولى للإسلام.

وكان هذا في الأرجح حال القبائل الكثيرة التي قيل إنها خلفت طيئ في سيادة هذه المنطقة؛ ولأنهم كانوا بعيدين عن مسرح حروب الجهاد الإسلامية التي وصلت إلى أماكن بعيدة، لم يشاركوا في الفتوح الإسلامية في القرون المتأخرة، التي قامت بها أمم أخرى اعتنقت الإسلام من غير العرب، ومن ثم

خـرج أبناء الصـحـراء وأهل الجـبلين عن التـاريخ؛ ومن المحتـمل أن هؤلاء السكان تحوّلوا تدريجياً، في الآونة الممتدة من القرن السابع للهجرة إلى القرن الثاني عشر، من حياة البداوة إلى الاستقرار ونزلوا أماكن معيّنة ليبنوا القرى المنتشرة اليوم في مختلف أنحاء هذه الأرض، ولكن يتراءى لي أن أكثر هذه القرى بنيت حديثاً؛ ولم يذكر منها في كتب الجغرافيين العرب سوى اثنتين هما فيد وموقق؛ أما القرى الأخرى، وكثير منها قرى كبيرة فلم تذكر، وإذا ماذكرت، ذكرت بصفتها موارد ماء لهذه القبيلة أو تلك. وليس كذلك من إشارات ثابتة ومؤكدة إلى شمر وأرضهم حتى تم توحيد سكان نجد من جديد بالدعوة الوهابية، ودفعهم إلى حروب دينية ضد جيرانهم من البدو الرّحل وضد البلاد المتاخمة لصحرائهم ؛ ومن المحتمل أنه لم تكن لشمّر قبل هذا الزمن السلطة و القوة التي تتمتع بها منذ ذلك الوقت في الأجزاء الغربية من شبه جزيرة العرب.

ويمكننا أن نتتبع الخطوط الرئيسة لتاريخ المنطقة القديم لو ألقينا نظرة على وضعها السياسي الراهن، ونظرنا إلى العلاقات السائدة بين مختلف القبائل الموجودة هنا وفي الصحارى المحيطة بها. فشمّر اليمانيون يهيمنون كأسلافهم طيئ ويمتلكون أكثر القرى في هذه المنطقة والتي فيها أربع، على الأقل، من أكبرها، يسكنها بنو تميم العدنانيون. وسكان القرى مختلطون بالنازحين إليهم من شتى أنحاء بلاد العرب، الذين لقلة عددهم وعدم استطاعتهم تأمين استقلالهم تلاشوا في إحدى القبيلتين الرئيستين، ولا سيما شمر.

أما المراعي الفسيحة والسهول الصحراوية الكبيرة التي تحوط بالمنطقة فتسكنها عنزة العدنانية وتربطها علاقات ودية بشمر، بدوهم وحضرهم على السواء؛ ومع أنهم يؤدون الزكاة إلى شيخ شمر، وإلى حد ما معترفون

بسيادته، فإنهم دائماً مستقلون بأمورهم الأخرى. ونجد من ناحية عنزة أن قبيلة الروكلة القوية في حوران تهاجر عائلاتها واحدة بعد أخرى إلى سورية؛ بينما من الناحية الأخرى نرى أن العشائر القوية الصفوق والزقاريط من شمر، الذين دفعوا للنزوح من أرضهم لأسباب دينية إلى بلاد الرافدين، يستعدون بدرجة ما لترك حياة البداوة والاستيطان في قرى تلك البلاد، وبقيت القبيلة الأم للرولة، والقبيلة الأم للصفوق والزقاريط مقيمة في منطقة الجبلين أو في تخومها.

وهكذا تبدو لنا منطقة الجبلين أنها كانت منذ أقدم العصور العربية ممراً لمختلف القبائل التي نزحت إليها من مختلف مناطق شبه الجزيرة ونزلتها زمناً حتى اضطرها تزايد السكان، أو حاجة ملحة، أو الرغبة في الغنائم، أو عقيدة جديدة، للنزوح منها، أو إلى غزو البلدان الغنية المحوطة بالصحراء.

ففي نجد، وبالتحديد في هذه المنطقة، اجتمع فرعا الأمة العربية الرئيسان القحطانيون والعدنانيون، وربما جاز لنا القول القبائل اليمانية والقبائل السورية، واندمج الجميع في شعب قوي أخذ يعيد الحياة إلى جزء كبير من آسيا. ونعلم أن الإسلام، وهو مزيج من الأديان والعقائد الدينية السابقة التي ظهرت في سورية وربما طقوس عربية قديمة، قد ظهر في مكة، ولكن أول قوم اعتنقوه وحموه كانوا أهل المدينة، الأقرب في طبيعتهم وعاداتهم بالعرب الرّحل؛ ولما أُجبر الرسول [صلى الله عليه وسلم] على الهجرة من مسقط رأسه، وجد الملجأ في بلدتهم، الواقعة في، أو على حدود نجد. وكانت طيئ والقبائل الأخرى المقيمة في الجبلين من أوائل الذين آمنوا بدعوته وقدموا له الولاء. إن طبيعة الأرض التي يسكنها العرب اليمانيون، والتي تعترضها سلسلة كبيرة من الجبال، وأودية مياهها غزيرة، جعلت منهم مزارعين أكثر

منهم رعاة؛ ويؤكد هذا انتشار قراهم وحياتهم الاجتماعية تحت حكومة شيخ عام في جميع المناطق التي يقيمون فيها؛ لكن القبائل العدنانية التي ترتحل في سهول نجد الفسيحة وشمال بلاد العرب مع قطعان إبلها التي لا تحصى فكانوا بالأساس رحّلاً ورعاة. إن أرض نجد تلائم أنماط مختلفة من أنماط العيش، فمع أن معظمها أرض رعي إلا أنها ممتلئة بواحات قابلة للزراعة والاستيطان؛ ولهذا هنا، في وسط شبه جزيرة العرب، كان من الطبيعي جداً أن التقيا عنصرا الحياة العربية الزراعة والرعي وأثرا على بعضهما البعض. فالبدوي، هذا المالك الأول للأرض، تعلّم من المزارع الغريب الذي شقّ طريقه إلى الصحراء كيف يتغلّب على الكراهية التي أوجدتها الطبيعة في نفسه ضد الحياة الحضرية، وتعلم المزارع الذي يكون بالعادة خانعًا وضيق الأفق، روح الحرية والشهامة التي تميز دائماً ابن الصحراء الحقيقي. ولا توجد منطقة من بين مناطق نجد كافّة استطاعت من خلال صهر القحطانيين والعدنانيين أن تضاهي منطقة الجبلين، في تقديمها لقبائل عظيمة وشهيرة، أو بكونها مسقط رأس لرجال عظماء كثيرين، أو في تزويدها للأقطار المجاورة بمثل تلك الأعداد الغفيرة من المهاجرين. وكل ما يذكره العرب الحاليون ويتمجّدون به من شهامة أجدادهم وشجاعتهم وكرمهم وشعرهم وبطولتهم يرجع إلى قبائل أصلها من منطقة الجبلين، أو أنها أقامت فيها في الحقبة الأولى من تاريخها. بينما نجد أن القبائل التي نزحت من أماكن أخرى في نجد، أو من اليمن، ولم تمر في مسيرها بمنطقة الجبلين، كبني قضاعة القحطانية، مثلاً، قد طمس ذكرها بعد مدة، أو قلّ أن بلغت نفوذاً في الشؤون السياسية العربية. كما نجد أن كلاً من طيئ وتميم وهلال، الذين هاجروا جميعاً من هذه المنطقة، بقوا لمدة طويلة بعد مغادرتهم أرضهم يتمتعون بقوة وأهمية في البلدان التي

استوطنوها، وما زال في عصرنا ينظر لمن بقي منهم باحترام ويعدون عنصراً رفيعاً. إن الدليل على اتساع وضخامة الهجرات التي انطلقت من هذه المنطقة تتضح من خلال وجود بقايا طيئ وتميم وهلال بأعداد كبيرة حتى الآن في تونس ومدن أخرى من شمال إفريقية؛ وإذا صح ما أخبرني به بعض الدراويش من بخارى؛ فإن هنالك جاليات عربية ماتزال موجودة في ضواحي بخارى وسمرقند، وهي محافظة طوال القرون على لغة أجدادها . ويمكننا حقيقة عدّ وسط الجزيرة مصدر المهاجرين الذين اتجهوا إلى مناطق ما بين النهرين وسورية ومصر وشمال إفريقية؛ ولأن سكان هذه البلدان معرّضون بسبب طبيعة أرضهم، وغناها، لانحطاط في عرقهم أو لاستعباد يفرضه عليهم طغاة أجانب، فهم في حاجة، من وقت إلى آخر، إلى عملية إحياء بطاقة جديدة من العرب الرحل ذوي العقول الحرة والأسمى ؛ ولهذا أحسب نجداً، وبلاد الجبلين خصوصاً، عظيمة الأهمية في تاريخ هذه المناطق من العالم. ويلفت ريتر نظرنا في كتابه «علم الأرض، المجلد الثالث عشر، ص ص ٣٥٥-٣٥٧» إلى أهمية موقع منطقة الجبلين بالنسبة إلى شبه الجزيرة، بوصفه ممراً للتجارة والمواصلات للشعوب القديمة من المعينيين و الجرهائيين والأنباط، كما هي اليوم بالنسبة للمسافرين والحجاج الذين يذكر بوركهارت، أنهم يعبرونها في طريقهم من وإلى دمشق والجَوف والدرعية والمدينة. غير أن المعلومات التي حصلت عليها من هذه الأماكن لا تؤيد هذا القول، على الأقل في زمننا الحالي.

فالقافلة المهمة الوحيدة التي تمر من هنا هي قافلة الحجاج العراقيين والفرس التي تنطلق من مشهد علي [النجف]، والتي كانت تنطلق من الكوفة في السابق. فهذه القافلة تستريح في حائل، و كانت في السابق تستريح في فَيْد،

يوماً أو يومين، ثم تواصل السفـر إمـا إلى المدينة أو إلى مكّة، والطريق لكل منهما سهل وفيه موارد ماء كثيرة؛ أما الحجاج القادمون من البصرة والدرعية فيمرون بالقصيم دون أن يقتربوا من الجبلين إلا إذا دفعتهم بعض الأسباب، والحجاج القادمون من الجوف يفضّلون الذهاب إلى تيماء فالحجر لينضموا إلى قافلة الحجاج السوريين ويرافقوها إلى المدينة، وفي طريقهم إلى تيماء صهاريج ماء يتزودون به منها. وعلى الرغم من وعورة الطريق فهم يفضّلونه على الدرب المباشر من الجوف إلى جبة، وقد يكون أصعب الطرق وأشقّها في هذه النواحي من بلاد العرب بسبب النفود ورماله وقلة الماء فيه. والطريق من تيماء إلى خيبر والمدينة سهل، ومياهه كثيرة، وهو يخترق أرضًا يصادف فيها في أكثر الأوقات بدو الفقراء و بشر [من قبيلة عنزة]، وليس هنالك على حد علمي بين سورية والأماكن الشرقية من نجد أي اتصال مباشر. والطريق المعقول سلوكه بينهما قد يكون من الدرعية عبر القصيم وجبل شمر والجوف، ولكنه لا يطرقه سوى من اضطرته إلى ذلك ظروف استثنائية، ويأتي أحياناً بدو الروَلة من حوران إلى نجد في طلب المرعى فيمرون بالجوف أو بصحراء الدهناء [النفود]، إلى الشرق من سكاكا، متجهين إلى القصيم، والطريق من الدرعية إلى مصر تمرّ عادة عبر القصيم إلى جبل شمر وتنعطف منه إلى الأخضر أو تبوك في طريق الحج السوري. ومع هذا كله يصعب الكلام على الطرق في بلاد العرب، وتحديد اتجاهاتها: فباستثناء دروب الحاج الرئيسة ليس هناك طرق ثابتة في الصحراء؛ والجمل يستطيع السير على جميع أنواع الأرض. والبدوي الجسور الذي يعرف أرضه وآبارها، والذي تعوّد على صعوبات العطش والجوع ينتقي طريقه من حيث شاء، ولا يمكنني سوى القول إن موقع هذه المنطقة هو الأكثر أهمية في هذه الأجزاء من الجزيرة العربية، فهي

في وسط القسمين الشمالي والأوسط من بلاد العرب ومتاخمة لهما، وعلى المسافة عينها تقريباً من دمشق وبغداد ومكة، وفي منتصف المسافة بين البحر الأحمر والخليج الفارسي [العربي] فهي أفضل منطقة تصلح للسيطرة على البلدان المجاورة. وتربتها زراعية خصبة لا تحتاج إلا إلى الماء لإنتاج أفضل المحاصيل، ثم إن مناخها الصحي، والجبال الجرانيتية التي فيها، وقد تكون الوحيدة في الصحراء، والسهول الفسيحة، وحياة سكانها الزراعية الرعوية، هذه العناصر كلها تجتمع لينبثق من نجد رجال أصحاء أقوياء ذوو عقول حرة، وليس لديّ أي شك بأن هذه المنطقة أفضل مقام لرئيس الحكومة لو أن بدو نجد والصحارى السورية وسكان البلدان والقرى القليلة المنتشرة في هذه الأرض توحّدوا في ظل حكومة واحدة.

وبفعل الروابط القوية التي تربط بين شمر، بدوها وحضرها، نجد قروييهم ما يزالون يتمسكون بعض الشيء بتقاليد البداوة، بينما البدو من الناحية الأخرى يقومون بأعمال لا تعد لائقة لهم، ففي فصل الربيع يتنقل كثير من الحضر ومعهم خيولهم وإبلهم ومواشيهم إلى الصحراء يجولون فيها، فيضربون الخيام كالبدو ويقيمون أوقاتاً تطول أو تقصر، بينما يأتي البدو إلى مزارع نخيل وحقول زرع يملكونها في جبلي أجأ وسلمى ليرعوها. وهذه الأماكن التي توجد فيها مزارعهم، مزودة بمياه عيون أو آبار هي على سبيل المثل سميراء والحفير والحفنة و قرى أخرى، وفي رأيي أن القرى في هذه المنطقة نشأت بالأصل حول أماكن الماء . ولنا في قرية عقدة مثل صارخ على القرية الصحراوية الناشئة، وهي قرية صغيرة بائسة وسط سلسلة جبل أجأ، على مسافة أربع ساعات من حائل[١٠ أكيال غرباً]، فيها ينابيع قليلة وتحوط بها مزارع نخيل لبعض العائلات البدوية، التي تأتي إليها عندما ينضج التمر

لجمع المحصول في نهاية الصيف. ويزرعون أحياناً بعض الأشجار الجديدة ويسقون الأشجار الصغيرة التي نمت بنفسها، وهم يعودون إلى مزارعهم أيضاً مرتين وثلاثاً في السنة لتفقدها، أو أنهم يذهبون إليها في حالة هطول أمطار غزيرة لتحويل الجداول إلى البساتين لريها، إذ إن ماءها يكون قد شحّ بالنسبة لمساحتها، ويغامرون بزراعة بعض الحنطة والشعير معلقين أملهم على المطر. فإذا ما نجح الموسم زادوا في مساحة ما سيزرعونه من حقولهم في السنة التالية، وتحتاج هذه الحقول لعناية خاصة فيبقى فيها اثنان أو ثلاثة من كبار السن مدة طويلة لتنظيم الريّ فيها. فيبنون عشة من سعف النخل وخوصه، ولا يلبث أن يتبعهم في ذلك آخرون في السنة التالية ويعملون عملهم؛ وفي غضون عشرة أعوام يرتفع عدد العشش ليصير بين عشرين وأربعين عشة من الخوص، ولكن قد ينحبس المطر ويفشل المحصول وتنزل المجاعة بالمقيمين في تلك الحقول، فيدركون عدم كفاية الاعتماد على المطر وحده بل إن على الإنسان أن يعتمد أيضاً على كدّه، فيحفرون الآبار ويستبدلون بالعشش التي لا تردّ المطر عنهم بيوتاً من الطين، ويستنبطون وسائل جديدة للعيش وتأمين الرزق، فيحتطبون من الجبال ويجمعون الأعشاب من الأودية ويبيعونها في سوق إحدى القرى المجاورة الأكبر. وفي الوقت نفسه يرتحل أخوانهم من البدو بماشيتهم في الصحراء ثم يعودون إلى المزارع أيام الحصاد، وفي كل سنة تجتذب القرية الحديثة المزدهرة وحياتها الهادئة بعض البدو فيبقون فيها يوم تغادرها القبيلة إلى الصحراء، فيتخذون فيها منازلهم، وقد يبقى أيضاً سواهم لأسباب أخرى، فتقام بيوت جديدة، وتحفر آبار، وتمتد المزارع بازدياد عدد السكان.

وهكذا تنشأ القرية تدريجيّاً في الوادي بعد أن تكون قد بدأت مجموعة

عشش مؤقتة، ولا يلبث أن يرتادها البدو الرحل وتصير ملاذاً للفقراء الذين فقدوا قطعانهم ومواشيهم، وللذين لا يستطيعون الاستمرار في حياة البداوة. وكذلك يلجأ إليها البدو الذين «على رأسهم دم» وأكرهوا على مغادرة قبيلتهم وديارهم فراراً من انتقام ذوي ضحيتهم؛ وهكذا يتزايد سكان القرية، ويتمازجون، وتكثر حاجاتهم. ولما كان البدوي مطبوعاً على كراهية الأعمال اليدوية وإن أقام في بيوت ثابتة، فإن الحرفيين الذين أخفقوا في قراهم المجاورة يأتون إلى هذه القرية طلباً للعمل، وغالباً يجدون ما يطلبون فيقيمون فيها، ويزور القرية أيضاً تجار متجولون، ويعودون إليها مرة أو مرتين في السنة ليحصلوا على التمر والصوف والسمن وغيرها من منتجات الصحراء لقاء حاجات أخرى يحملونها إليها. ويبدأ بعضهم تدريجيّاً اكتساب عادات السكان، وينتقون زوجات من بنات البدو، وينتهي بهم المطاف بالإقامة الدائمة في هذه القرية.

ويمكن القول إنه من الطبيعي أن ينزح الحرفيون والتجار إلى البلدان الجديدة حيث الأغنياء أكثر عدداً؛ ونتيجة لمثل هذه الهجرات صارت حائل، التي تعدّ بكل المعايير عاصمة المنطقة، الأكثر تنوعاً واختلافاً في سكانها. ومن المحتمل أن حائل هي أحدث القرى التي تأسست في هذه المنطقة، ويعود الفضل في ذلك إلى كونها مسقط رأس عائلة الشيخ الحالي والشيخ الذي سبقه. ولا تشير مؤلفات الجغرافيين العرب إلى حائل بصفتها قرية، لكن كموضع في سلسلة أجأ. وتقوم حائل في وادٍ مستو غير عميق، يمتد تقريباً من الشرق إلى الغرب على طول سفح جبل سمراء حائل، الذي سبق ذكره، وعند طرفه الشرقي يوجد نبع ماء، هو الوحيد في كل القرية. ويبدو أن البيوت الطينية الأولى بنيت حوله، وما زال يمكن رؤية آثار كثيرة لمنازل أحدث عهداً؛ لكن البئر

حـاليّاً مـهـجـورة، بعـد انتـقـال السكان على مـراحل إلى مـوقع أعلى باتجاه الغرب؛ حيث توفر الأودية الموجودة في سهل البطين الفرصة لحفر عدد أكبر من الآبار.

إن من الطبيعي أن أول وأهم شيء على المستوطن الجديد أن يفكر فيه هو تأمين الماء، وحالما يكتشفه يحفر بئراً، ويزرع حوله النخيل والأشجار المثمرة الأخرى، وتقام وسطها المنازل التي تبنى على مراحل بمواد البناء الصحراوية نفسها، الطوب الطيني المجفف، وهو أصغر حجماً من الآجر الذي يصنعه السوريون ؛ ومن جذوع النخل أو الإثل تُعمل الأبواب وأعمدة السقف، الذي دائماً ما يكون مسطحًا. وأكثر البيوت من طابقين، غرفهما قليلة ولكنها فسيحة ومريحة ولا يدخلها النور إلا من الباب ومن كوّات صغيرة في الجدران تحت السقف مباشرة. وفي كل بيت، دون استثناء، مجلس قهوة منفصل عن المبنى، مقابل البستان أو في وسطه، وفيه يستقبل الضيوف و يجتمع الرجال لتبادل الأحاديث وإدارة أعمالهم، ويحوط بأرض كل بيت سور، غير أن مساحة القرية الفسيحة تجعل تسوير الأرض أمراً صعباً على أكثر السكان. ولا يختلف مقر ابن الرشيد عن المنازل الأخرى إلا بكونه أكبر وأوسع لما تتطلبه عائلته الكبيرة وأتباعه وضيوفه الكثيرون على مدار العام، فكل غريب يأتي إلى حائل وليس له فيها أقارب أو أصدقاء ليقيم معهم ينيخ بعيره عند قصر الشيخ، واثقاً بأنه سيُستقبل ويستضاف طوال المدة التي يريدها؛ وينيخ المسافرون ركائبهم في ساحة فسيحة تسمى مناخ، تحوطها مبانٍ صغيرة وغرف، أو بمعنى أصح مآوى صغيرة لا تختلف عن تلك الموجودة في الخانات الفارسية.

وينزل الغرباء في هذه المنازل والغرف، و في مجلس القهوة الكبير، وفي

المسجد. ويفترش الضيوف الأقل شأناً أرض المناخ قرب رواحلهم• وتلتصق بجدران المباني المحوطة بالساحة دكات ومصاطب طينية؛ يستخدمها الشيخ حينما يعقد مجلسه للنظر في شؤون الناس مرتين في اليوم، مرة صباحاً والأخرى بعد العصر، وفي البلدة ساحات كثيرة مكشوفة وأسواق تباع فيها اللحوم والخضار والمؤن، على عكس ما هو في الجوف والقرى الشمالية حيث يُعَدّ عرض الأغذية للبيع في الساحات العامة عملاً حقيراً. والشوارع في حائل واسعة وممهدة، مع أنها غير مرصوفة، وفي الشارع المسمى لبدة يوجد عدد من الدكاكين المكشوفة أغلبية أصحابها تجار متجولون يأتون من العراق والمدينة والقصيم، وتضم حائل حاليّاً [زمن الرحلة] حوالى مئتين وعشرة منازل ومثلها من العائلات؛ وإذا ما استمر اتساع البلدة بالطريقة التي هي عليها فإنها سوف تتصل قريباً بقرية صغيرة اسمها الوسيطاء يسكنها عشر عائلات، وتبعد عن حائل ثلاثة أرباع الساعة في السهل الأقرب إلى سفح أجأ.

وعلاوة على القرى التي سبق ذكرها توجد في المنطقة القرى الآتية: قفار، تقع على مسافة ثلاث ساعات سيراً حثيثاً من حائل في اتجاه غرب – جنوب – غرب [١٠ أكيال]، ولا تبعد عن سلسلة أجأ كثيراً، وهي دون شك أكبر قرى المنطقة، وربما أكثرها ازدهاراً، ويسكنها حصريّاً بنو تميم، وعددهم خمس مئة عائلة. ولهذا؛ فإن من المدهش أن حتى اسم هذه القرية لم يرد له ذكر عند أي من المؤلفين الذين أتيحت لي فرصة الاطلاع على مؤلفاتهم. وفي الطَّرف الشرقي من القرية توجد أنقاض وبقايا بيوت متداعية وأسوار طينية تؤكد أن السكان حتى هنا قد انتقلوا مع الزمان باتجاه الغرب، مقتربين من الجبل. لقد احتفظ بنو تميم ببعض السمات الخاصة في لهجتهم وعاداتهم، وبالمثل في ملامحهم، التي تميزهم بسهولة عن شمر؛ وبينما كنت أرتحل بين البدو في

الأجزاء الغربية من شبه الجزيرة كانوا على الدوام يسألونني، ومثلهم المصريون والسوريون، عن هذه القبيلة، عاداتهم ولغتهم، وقاماتهم، وميزاتهم الأخرى؛ وكانوا يبدأون بالسؤال العام عما إذا كانت قاماتهم أطول ولحاهم أكثف وأطول من العرب الآخرين. ويبدو لي أن هذه الملاحظة تعود إلى المعنى الأصلي لكلمة تميم، والتي كانت تطلق في اللغة القديمة على الرجل القوي البنية صحيح البدن، و إلى حد ما وجدت أن هذه الملاحظة حقيقية في ما يتعلق بهذه القبيلة، ومع أن أسلافهم كانوا في الأصل رُحَّلاً، فإن السكان الحاليين أهل زراعة فقط، ونادراً ما يتعاطون التجارة أو يشاركون في الحرب أو غزوات السلب مع شمر؛ ولا أعتقد أن أحداً منهم يعيش حياة البداوة في هذه المنطقة. ولكن في موسم الحصاد يجتمع حول قريتهم بعض البدو من شمر وعنزة لبيع أو مقايضة ماشيتهم ومنتوجاتها بالتمر والحبوب، التي يتوفر في قفار أكبر مخزون منهما في كل المنطقة. ويوفر سوق حائل، التي تسكنها أرستقراطية شمر، الذين من الطبيعي أنهم تعودوا على المظاهر والأناقة، لأهل قفار ملابسهم وضرورياتهم الأخرى، والكماليات مثل البن، والتوابل، والعطورات، التي زاد استخدامها في نجد مؤخراً تمشياً مع أمر النبي [صلى الله عليه وسلم]. ولهذا لا يزور التجار المتجولون قفاراً إلا نادراً. وبنو تميم أكثر دقة من غيرهم من الوهابيين في أداء واجباتهم الدينية، وربما ونتيجة لهذا التدين، كثيراً ما يكررون حجهم إلى مكة وبأعداد كبيرة. وهم مع أنهم يعودون من هذا التجمع العظيم لعالم الإسماعيليين محملين بالكثير من البضائع، وبقدر ما يستطيعون حمله، فإنهم يقومون بهذه الرحلة الطويلة والمكلفة جداً بوازع ديني أكثر منه وازع دنيوي، كما هو الحال مع شمر في غالب الأحيان. إن قسماً كبيراً من هؤلاء البدو، الذين كانوا في السابق أقوياء

وواسعي الانتشار، يعيش، كما سبق وذكرنا، في ما بين النهرين، غير أن أكثرية القبيلة حسبما ذكر السكان الحاليون هنا، يوجدون مع أقاربهم من بني هلال في شمال إفريقية، وفي تونس خصوصاً.

وبالإضافة إلى قفار توجد ثلاث قرى أخرى في منطقة الجبلين يسكنها بنو تميم وهي المستجدة، والروضة، وفيد. وتقع الأولى على مسافة يومين من قفار باتجاه جنوب - غرب [حوالي ١١٠ أكيال]؛ والثانية على مسافة نصف يوم إلى الشمال من المستجدة [حوالي ٣٠ كيلاً]، ويبلغ عدد السكان في كل من القريتين ما يقرب من مئتي عائلة. وقد تكون الروضة هي المراعي التي ذكرها ياقوت باسم روضة قراقر في الجَبَلين (٧٩).

أما فيد فلا يسكنها بنو تميم وحدهم كما القرى الثلاث السابقة، لكن عددهم قد يصل إلى نصف السكان تقريباً. وهؤلاء جميعاً قد لا يتجاوزون مئة وخمسين عائلة، وتقع فَيْد على مسافة مسيرة يومين قصيرين جنوب - شرق حائل [حوالي ١١٠ أكيال]، على الجانب الجنوبي الشرقي لسلسة جبل سلمى، وعلى مسافة يوم منه. وهي أقدم قرية في المنطقة، وذكرها جميع الجغرافيين بوصفها بليدة في نصف الطريق إلى مكة من الكوفة. ويذكر ياقوت أن قافلة الحج القادمة من الكوفة تمر بها "حيث يودع الحاج أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئاً من ذلك. وهم مغوثة للحاج في مثل ذلك الموضع المنقطع"؛ ويستنتج من هذا القول أن فيداً كانت في ذلك الزمان أقلّ في سكانها وزراعتها مما هي عليه الآن.

ويقول المؤلف نفسه: "ومعيشة أهلها من ادّخار العلوفة طوال العام إلى أن يقدم الحاج فيبيعونه عليهم". وبيعهم العلوفة ما يزال حال أكثر القرى الواقعة

على دروب الحاج كمعان وتبوك والمويلح ونخيل وسواها من القرى التي يعود الفضل في وجودها وبقائها إلى الحجّاج الذين يمرّون بها في طريقهم إلى الأماكن المقدسة ومنها. وينقل ياقوت عن الزجاجي [عبدالرحمن بن إسحاق النهاوندي الزجاجي (. . . -٣٣٧هـ)] قوله : " سميت فيد بفيد بن حام وهو أول من نزلها" . وقد يكون لاسم فيد علاقة بفائد أحد أخوة سلمى من العماليق، وقد قيل إنه نزل في هذا الجوار، وذلك وارد، فالزجاجي يعتقد أن لفيد وفائد جذراً واحداً. ويورد ياقوت أيضاً ما قاله السكوني: "فيد نصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكة، وهي أثلاث: ثلثٌ للعُمَريين، وثلثٌ لآل أبي سلامة من همَدان، وثلث لبني نبهان من طيئ" . وبنو نبهان هؤلاء، الذين أشار إليهم ريتر أيضاً في موسوعته «علم الأرض، المجلد الثالث عشر، ص٣٧٢» من قبائل طيئ، وينزلون مكان يسمى المغيزة، و كانت واحدة من أقوى عشائر طيئ من بطن غوث. أما آل أبي سلامة فهم قد يكونون من سلالة سلامان من الأزد، الذين يذكر أن همدان من بين أسلافهم؛ أما العُمَريون فلست متأكداً إلى من يعودون، على الرغم من أنني أفترض أنهم ينتسبون أيضاً إلى أحد فروع كهلان اليمانية. ويذكر السكوني حسب ما نقله ياقوت في مخطوطة سانت بطرسبورغ أن: "بين فيد ووادي القرى ست ليال على العريمة، وليس من دون فيد طريق إلى الشام، وبتلك المواضع رمال لا تسلك حتى تنتهي إلى زُبالة أو العَقَبة على الحزن، فربما وُجد به ماء، وربما لم يوجد فيجنب سلوكه "(٧٧) . ربما أن العَقَبة هذه هي العقبة الشامية، حيث يبدأ السهل والأرض المستوية من جديد. وقد مرّ بنا أن الطريق الأنسب من هنا إلى سورية تمرّ بتيماء وتبوك وعلى طول، درب الحاج، وقد تكون هي التي أشار إليها السكوني.

إن الماء شحيح جداً في الأرض الممتدة من جبل شمر إلى تبوك، وما وجد منه كان في صهاريج طبيعية لا يعوّل عليها؛ ولكن رمال النفود تقف عند تيماء وبعدها تصير الصحراء السورية سهلة ومستوية. ويظهر من هذا، بالإضافة إلى ملاحظات ريتر، أن فيداً كانت، فيما مضى من أزمان، القرية الأكبر والأهم في هذه المنطقة، وقد تراجعت مكانتها بعد أن أصبحت حائل محطة لقافلة الحج ومقراً للشيخ الحاكم. وقد سمعت هنا عن وجود بعض بقايا قنوات قديمة جداً؛ ولكنني لا أستطيع تأكيد مداها لعدم تمكني من زيارتها شخصياً، وعلاوة على هذه القرى الأربع التي ذكرتها من قرى جبل شمر، هنالك بلدة خامسة اسمها الحوطة [حوطة بني تميم]في نجد العارض يسكنها بنو تميم، ولا علم لي بوجود بلدات في بلاد العرب يستوطنها أحفاد هذه القبيلة الشهيرة غير هذه البلدات الخمس.

وتقع في منتصف المسافة بين فيد وحائل بلدة السَّبُعان، وهي عند سفح جبل سلمى مباشرة، وهي قرية صغيرة فيها مياه جارية، وهي مثل عقدة تأتي إليها أحياناً عائلات بدوية للاستيطان لزرع النخيل والحبوب. ويذكر ياقوت أنها موضع معروف في ديار قيس، وضبطها بفتح السين وضم الباء، قائلاً: إنه لا يعرف سواها في كلام العرب اسم على صيغة فَعُلان (٧٨).

وفي منتصف الطريق بين فيد والسبعان قرية صغيرة اسمها طابة ذكرها ياقوت أيضاً بوصفها موضعاً في أرض طيء (٧٩)؛ وعلى مسيرة يوم إلى الجنوب، وإلى الشرق، من فيد قرية الكهفة وهي حد أرض شمر من هذا الجانب. ومع أنني غير متأكد من عدد سكان القريتين، إلا أنني أقدر أنهم لا يتجاوزون خمسين عائلة في كل منهما، ويعبر الطريق من حائل إلى القصيم تلك القرى، وفي العادة تقضى الليلة الأولى في السبعان، والثانية في فيد،

والثالثة في الكهفة، وتبعد كلّ محطة من هذه المحطات الثلاث عن التي تليها مسيرة ثماني ساعات، وتبعد الكهفة عن القصيباء، أولى قرى القصيم، من هذه الناحية، مسيرة يوم طويل؛ ومن القصيباء إلى العيون مسيرة يوم طويل آخر، ومن العيون إلى بريدة، البلدة الرئيسة في القصيم، مسيرة نصف يوم. ومن بريدة مسيرة بضع ساعات [حوالى ٢٨كيلاً] إلى عنيزة، ثانية بلدان المنطقة.

وتقع في جوار المستجدة والروضة إحدى أكبر قرى المنطقة، الغزالة، وفيها حوالى مئتي عائلة من شمر، وهي مسورة بسور من الطوب المجفف؛ وفي طريقي من حائل إلى المدينة استغرق الوصول إليها تسع عشرة ساعة من السير الحثيث للذلول في اتجاه جنوب – غرب.

وعلى مسيرة ثلاثة أيام إلى الجنوب الغربي من الغزالة وخمسة أيام من حائل، وثلاثة أيام من المدينة، وعلى حدود المنطقة في اتجاه ديار بني حرب، توجد قرية صغيرة اسمها قصر السليمي، فيها حوالى عشر عائلات. ويطلق عرب نجد الاسم قصر على المواقع الصغيرة الموجودة على حدود المنطقة؛ ولأن سكان مثل هذه القرى معرضون على العموم لغزو القبائل المجاورة فهم يحيطون موقعهم بسور ويبنون فوق بيوتهم أبراجاً صغيرة تسهّل لهم مواجهة أعدائهم؛ ومن المحتمل أنه بسبب هذا النمط من البناء يطلق على قراهم اسم قصر. ويبدو أن كلمة قلعة التي شاع استعمالها في الأزمنة المتأخرة عند عرب مصر وسورية لها المعنى عينه، ويكثر استخدام كلمة قصر وتصغيرها قُصَيْر في الجغرافيا القديمة، وفي الصحراء، كصفة تضاف إلى أسماء المواضع الصغيرة، وهنالك قرية مماثلة في هذه المنطقة اسمها قصر العَشْرَوَات على مسيرة ثماني ساعات إلى الغرب من قفار، تسكنها حوالى عشر عائلات.

وتقع على مسيرة اثنتي عشرة ساعة على ظهر ذلول بطيء إلى الشرق

فالجنوب من حائل، وعلى سبع ساعات من السبعان، قرية صغيرة اسمها العدوة، يزرعها بدو شمر بالحبوب، وهي مثل عقدة. وتقع قرية سميراء في الطرف الجنوبي الغربي لسلسلة جبل سلمى، التي ذكر الجغرافيون العرب أنها كانت أولى منازل طيئ في هذه المنطقة، وتوجد قرى صغيرة أخرى هي العظيم والمكحول والحفنة، لم أضبط مواقعها بدقة.

وفي الجانب الشمالي الغربي من سلسلة أجأ تقع أيضاً بلدة موقق، إحدى أكبر بلدان المنطقة، وعدد سكانها أكثر من ٢٠٠ عائلة؛ وقد أخطأ ريتر فلم يفرق بينها وبين قفار في كتابه «علم الأرض، المجلد الثالث عشر، ص ٣٥٦». وتقع موقق عند سفح قمة عالية، ناتئة من سلسلة أجأ الرئيسة، تقريباً في طَرَف وادٍ يقطع السلسلة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ومن طرف لآخر، مسافة مسيرة لحوالى عشر ساعات.

ويقول عبيدالله السكوني، حسب ما نقله ياقوت إن موقق، الذي "لا يعرف أصله، قرية ذات نخل وزرع لجرم في أجأ. وقيل: موقق ماء لبني عمرو بن الغوث صار لبني شَمَجي إلى اليوم" (؟) (٨٠). وربما أن عمرو بن الغوث هو جد العمريين الذين سبق ذكر أنهم يملكون جزءاً من فيد؛ أما قبيلة الشمجي فلم أجد ذكراً لها؛ إلى الشمالي الغربي من موقق، على مسافة قصيرة منها تقع قرية الحفير الصغيرة التي سبق ذكرها، وفي جوار العقيلة في داخل السلسلة الجبلية قرية صغيرة أخرى، وهي طوية. وعلى مسيرة ست ساعات إلى الشرق من قنا قرية صغيرة جديدة اسمها أم القلبان، فيها حوالى عشر عائلات، وربما أن اسمها جاء لكثرة قلبانها(آبارها)، ومن المتوقع أن يزداد عدد سكانها بسرعة.

وعلى منسيرة ست ساعات إلى الشمال- الشمال الشرقي من حائل، في

السفح الجنوبي الشرقي من أجأ، قرية الجثامية وهي الأخيرة في هذا الجانب من المنطقة، وفيها حوالى عشرون عائلة. والمسافة بين هذه القرية، بل من الطرف الشمالي الشرقي لأجأ، الذي يبعد خمس ساعات من هذا المكان، إلى قصر السليمي، هي طول أرض شمر من جنوبها الغربي إلى شمالها الشرقي، وهي مسافة ستة أيام تقريباً على إبل سريعة. أما عرضها، من جبة إلى الكهفة شرقي فيد، فهو الطول نفسه تقريباً؛ ومع أنني مقتنع بأن هذه المنطقة هي أكثر مناطق نجد سكاناً فإن عدد السكان المستوطنين فيها من شمر ومن بني تميم لا يمكن تقديره بأكثر من ألفي عائلة؛ ومع أنه من الصعوبة بمكان تقدير عدد السكان من البدو الرحل من قبيلة شمر؛ فإنني، إذا ما استثنينا أولئك الموجودين في بلاد ما بين النهرين، أعتقد أنهم في هذه المنطقة والصحارى المجاورة لا يتجاوزون ألف عائلة.

لقد خرجت من حائل مع قافلة الحجاج العراقيين والفرس إلى المدينة ومكة، حيث أديت فريضة الحج؛ لكن يؤسفني القول إنه ليس عندي تفاصيل جغرافية عن رحلتي هذه، فقد عاقني عن طرح الأسئلة وتدوين الملاحظات وضعي الخطر بين الحجّاج، والسيرُ السريع المتعب، وما شعرت به لأول مرة من تحفّظ عند العرب أظن أن سببه القلق والمحن التي تلحق بالحاج المنفرد، ووجود الفرس الذين لا تستحب رفقتهم في الرحلات الصحراوية، بالإضافة إلى ذلك كله ظروف أخرى غير مواتية. يأخذ الحجّاج في أغلب الأحيان الدرب المباشر إلى مكة، إذا ماكان الوقت قصيراً - فيصلون إليها في اثني عشر يوماً؛ لكنهم اتبعوا في هذه السنة طريقاً غير مباشر يمر بالمدينة. وبلغت رحلتنا من حائل إلى قبر الرسول [صلى الله عليه وسلم] خمساً وثمانين ساعة من السير السريع جداً على ظهور الإبل [حوالي ٤٥٠ كيلاً]، في اتجاه جنوب-

غرب، أو غرب - جنوب -غرب.

وكنا خلال مسيرة تسع وثلاثين ساعة منذ خروجنا من حائل نعبر سهلاً فسيحاً انتهت بعده سلسلة أجأ التي كانت إلى يميننا طوال سيرنا، على مسافة عدة ساعات، وبدأ السهل يمتدّ نحو الشمال الغربي، وقيل لي إن هذا السهل يتصل بالبحر الأحمر باتجاه مرفأ الوجه دون أن تعترضه جبال أو تموّجات. وقد يكون جزءاً من وادي القرى القديم الذي يسيل نزولاً من الحجر إلى داخل الصحراء من جهة، وعبر وادي نجد [الرمة] من الجهة الأخرى.

وفي وسط السهل، إلى يسارنا، قرية صغيرة اسمها الحليفة فيها ثمانية منازل وبعض البساتين الصغيرة من النخيل لبدو عنزة، وفي الجهة الأخرى من السهل بدأنا نرى جبالاً تبدو وكأنها امتداد لأجأ، لكن صخورها رملية وكلسية، وذلك حتى أتينا ديار حرب والأجزاء الداخلية من الحجاز، حيث بدأت من جديد سلسلة جبال جرانيتية تحوط بالأودية التي يتخللها طريقنا.

* * *

الهوامش:

1- David George Hogarth, **The Penetration of Arabia : Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula**, New York: Frederick A. Stokes Co, 1904. p. 161.

2- H. Holma, "Georg August Wallin 1811-1852", **Studia Orientalia**, Vol. 17: 1, pp. 3-12.

M. Trautz, "A Forgotten Explorer of Arabia : G.A.Wallin", in Georg August Wallin, **Travels in Arabia (1845 and 1848).** Cambridge: The Oleander Press, 1978 , pp. xxii-xli.

٣- محمد عياد بن سعد بن سليمان عياد الشافعي المرحومي الطنطاوي، المولود سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا. تلقى تعليمه الأولي في الكتاتيب في طنطا ثم في الأزهر وأصبح من مدرسيه. كان يدرس اللغة العربية للدبلوماسيين والمستشرقين الأوروبيين في القاهرة، وكان من الدبلوماسيين الذين تعلموا العربية على يديه اثنان من الدبلوماسيين الروس، وهما اللذان رشحاه لتدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية في سانت بطرسبورغ. انتقل الطنطاوي في سنة ١٨٤٠م إلى سانت بطرسبورغ للعمل مدرساً للغة العربية في المعهد، حيث تعرف على والن، واستمر في هذه الوظيفة حتى بداية سنة ١٨٤٧م إذ عين على وظيفة أستاذ كرسي اللغة العربية في جامعة سانت بطرسبورغ، وبقي في هذه الوظيفة حتى وفاته سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م. من أهم أعماله العلمية كتاب **أحسن النخب في معرفة لسان العرب** وصدر في ليبزج سنة ١٨٤٠م، ورحلته إلى روسيا الموسومة **تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا**، وقد قدم لها وحررها الدكتور محمد عيسى صالحية ونشرها بعنوان رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠م، سنة ١٩٩٢م، وضمن مقدمتها ترجمة وافية عنه. انظر :

رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠م المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية، عمان: دار البشير للنشر، ١٩٩٢م.

4- kaj Ohrnberg,"Suomalaiset Arabiankavijat" [الرحالة الفنلنديون في الجزيرة العربية], in **matka-arkku**, edited by Markku Loytonen, Helsinki: Suomalaisen Kirjalli suuden Seura, 1989.

٥- المصدر السابق.

٦-المصدر نفسه.

٧- المصدر نفسه.

٨- نشر والن وصفاً لرحلته هذه انظر:

Georg August Wallin, "Narative of a Journey from Cairo to Jerusalem , via Mount Sinai", **Journal of the Royal Geographical Society**, No. 25, 1855, pp. 260-290.

٩- حمل والن توصيات هذا الشيخ معه لكنه لم يسلمها إلى أصحابها لعدم تمكنه من زيارة الرياض، وبقيت أصولها محفوظة ضمن أوراقه الخاصة في مكتبة جامعة هلسنكي:

١- توصية إلى الإمام فيصل بن تركي [بن عبدالله بن محمد بن سعود]

بسم الله الرحمن الرحيم

سعوده

حضرت سعادت الجناب المكرم والهمام المفخم الامام فيصل ادام الله

واعلى جده وده سلام عليكم ورحمت الله وبركاته وبعد فان تفضلتم

بالسؤال عن محبكم الداعي لكم بخير فيحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو بخير

بخير وعافيه وغير ذلك حفظكم الله ورعاكم الواصل اليكم عبد [illegible]

متشوق لزيارتكم وهو يحبكم ويحب [illegible] فالرجوا من همتكم العاليه [illegible] ودعت الله

الساعيه مراعاته والله تعالى يحفظكم والدنيا [illegible]

عبد الرحمن

عبد الله [illegible]



٢- توصية إلى الشيخ عبداللطيف [ابن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب]

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله الى جناب الابن المكرم وحبيبنا المعظم الشيخ عبد اللطيف [illegible]

عبد الرحمن [illegible] سلام عليكم ورحمة الله وبركاته [illegible]

[illegible] المولى اللطيف [illegible] واحمد [illegible]

[illegible] كثيره [illegible]

[illegible] بيتا [illegible] الجديد [illegible]

[illegible] عليهم [illegible]

[illegible] الواصل اليك عبد المولى وهو صاحب [illegible] على تاريخ [illegible]

[illegible] كذلك ذكر لي [illegible]

[illegible] بالثمن ولو بزياده او الاستئناس [illegible]

[illegible] الوالد والاخوان والاقارب والامام وبنيه [illegible] عندي والحال [illegible]

كذلك من [illegible] والكتب حال التاريخ وانا ان شاء الله اخدم [illegible]

10- kaj Ohrnberg, "Suomalaiset Arabiankavijat".

١١- نشر والن وصفاً لرحلته الثانية هذه، لكنه لم يذكر شيئاً جديداً حول حائل. انظر:
Georg August Wallin, " Notes taken during a Journey through Part of Northern Arabia", **Journal of the Royal Geographical Society**, No. 20,1851, pp. 293-344.

قد نشرت ترجمة باللغة العربية لهذه الرحلة ضمن كتاب: جورج أوغست فالين، **صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر**، ترجمة سليم شبلي ومراجعة يوسف إبراهيم يزبك، بيروت: منشورات أوراق لبنانية، ١٩٧١، ص ص ١٣٧-١٨٧.

12- kaj Ohrnberg, "Suomalaiset Arabiankavijat".

١٣- المصدر السابق. وحول تفاصيل علاقات والن مع المؤسسات البريطانية انظر:
W. R. Mead, "Georg August Wallin: The English Connection", in Georg August Wallin, **Travels in Arabia (1845 and 1848)**, Cambridge: The Olean-

der Press,1978 , Ibid pp. vii-xiv.

14- H. Holma,"Georg August Wallin 1811-18852", p. 10.

حول دوره وأهميته في الاستشراق الفنلندي انظر:

عوض البادي، "صفحات من الاستشراق الفنلندي"، **مجلة الفيصل**، عدد ٢٦٦، نوفمبر- ديسمبر ١٩٩٨م.

١٥- انظر الهامش ١١ .

16- Georg August Wallin, " Narrative of a Journey from Cairo to Madina and Mecca, by Suez, Arabia, Tawila, al-Jouf, Jubbe, Hail, and Nejd, in 1845, **Journal of the Royal Geographical Society**, No. 24,1854, pp.115-207.

وقد نشرت ترجمة باللغة العربية لهذه الرحلة ضمن كتاب:

جورج أوغست فالين، **صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر**، ص ص ١١-١٣٤.

١٧- انظر الهامش ٨.

١٨-سعد العبدالله الصويان، " أدب البدو في كتابات الرحالة والمستشرقين " (١)، **جريدة الحياة**، العدد ١٢٢٧٢، ١ أكتوبر ١٩٩٦.

عوض البادي، "الرحالة الأوروبيون ومنطقة الجوف"، محاضرة ألقيت في النادي الأدبي بالجوف بتاريخ ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٣م.

١٩- صدرت أربعة مجلدات من هذه اليوميات باللغة السويدية في السنوات ١٨٦٤-١٨٦٦م، وجاءت تحت عنوان: **مذكرات جورج أوغست والن خلال رحلاته في الشرق ١٨٤٣-١٨٤٩م**.

Georg August Wallins reseatechningar fran Orienten aren1843-1849, 4 Vols, edited by S. G. Elmgren, 1964-1866.

أما المجلد الخامس فقد صدر سنة ١٩٠٥م بعنوان رسائل ويوميات جورج أوغست والن، حررها المستشرق والرحالة الفنلندي كنوت تالكفست.

Berf och dagboksanteckningar af Georg August wallin,ed.Knut Tallqvist,1905.

هذا، ويعكف المستشرق الفنلندي كاي أورنبرغ منذ سنوات طويلة على دراسة رسائل والن ومذكراته و يومياته كافةً خلال رحلاته في الجزيرة العربية لنشرها باللغة الإنجليزية وباللغة الفنلندية. وستنشر باللغة الإنجليزية تحت عنوان " ملاحظات حول الجزيرة العربية في

أربعينيات القرن التاسع عشر "

G. A.Wallin, **Notes on the Arabian Peninsula in the 1840s**, edited by Kai Ohrnberg.

وستنشر باللغة الفنلندية في أربعة مجلدات تحت عنوان " رسائل ويوميات جورج أوغست والن " .

Georg August Wallins brev och dagboksanteckningar, edited by Kaj Ohrnberg.

٢٠- النص المترجم :

Georg August Wallin, "Narrative of a Journey from Cairo to Madina and Mecca, by Suez, Arabia,Tawila, al-Jouf, Jubbe, Hail, and Nejd, in 1845", in Georg August Wallin, **Travels in Arabia (1845 and 1848)**. pp. 44-93.

وإذ سبقت الإشارة (هامش ١٦ آنفاً) إلى أنه قد سبق ونشرت ترجمة هذا النص باللغة العربية؛ فإننا هنا نقدم ترجمتنا الخاصة، التي استفادت من الترجمة الأولى كثيراً وحاولت تجنب الأخطاء الواردة فيها، ولهذا يبقى الفضل والشكر للمتقدم في الترجمة .

٢١- المقصود بلدة دومة الجندل التاريخية المعروفة، الواقعة شمال المملكة العربية السعودية، حاضرة منطقة الجوف وقت رحلة والن . ويطلق محليّاً مسمى الجوف على هذه البلدة حصرياً . أقام والن في الجوف ما يقارب ثلاثة شهور، وكتب عنها : انظر نص ما كتبه في : عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية : منطقة الجوف ووادي السرحان (١٨٤٥-١٩٢٢م)**، ط٢، بيروت : دار الموسوعات العربية، ٢٠٠٢، ص ص ١٥-٥٠ .

٢٢- قبيلة رئيسة من قبائل شمال الجزيرة العربية .

٢٣- مدينة سكاكا مدينة تاريخية من مدن منطقة الجوف، وعاصمتها حالياً، وتبعد عن بلدة دومة الجندل (الجوف) عاصمة المنطقة السابقة بحوالي خمسين كيلاً .

٢٤- قد يكون والن يقصد غطفان التي كانت قديماً في مناطق شمال الجزيرة العربية .

٢٥-مورد ماء رئيس لبادية منطقة الجوف، ويبعد عن مدينة دومة الجندل حوالى ٧٠ كيلاً .

٢٦- القامة مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام .

٢٧- اعتمد والن على مخطوطة "معجم البلدان " الموجودة في المتحف الآسيوي في مدينة سانت بطرسبورغ في روسيا قبل تحقيقها ونشرها . وهي الآن محققة ومنشورة في عدة طبعات، ويمكن الرجوع الى المعجم مباشرة . وعليه ستعتمد مراجعتنا لما يذكره والن نقلاً

عن ياقوت في سياق هذا النص على النسخة التالية :

ياقوت الحموي، **معجم البلدان** . تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي . بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ . ولما ورد عند ياقوت عن الشقيق، انظر : الجزء الثالث، ص ٤٠٤ .

٢٨- المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٦٦ .

٢٩- يبعدان عن دومة الجندل حوالى ١٣٠ كيلاً .

٣٠- سلسلة جبلية، سيأتي وصفها في سياق نصوص هذا الكتاب، تحوط ببلدة جبة من الناحية الغربية، وتسمى محلياً أم سنمان .

٣١- تصل المسافة بين الجوف وجبة إلي ما يقارب مئتين وثلاثين كيلاً .

٣٢- الميل الإنجليزي ١٦٠٩,٣٩ متر .

٣٣- **القاموس المحيط** لمحمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي . وفي مراجعتنا لما كتبه والن نقلاً عن هذا الكتاب اعتمدنا النسخة التالية : الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، بيروت : دار الرسالة، ١٩٩٤م . وما ورد عن جبة جاء في ص ٨٣ .

٣٤- ياقوت الحموي، مصدر سابق، الجزء ٤، ص ٤٩٩, وهنا الجدير بالأشارة إليه أن والن قد يكون أخطأ في مطابقة ما ورد عند ياقوت على هذا الموقع، فكتيفة ومبهل تتكرر في مناطق مختلفة من بلاد العرب . انظر حول ذلك : حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : شمال المملكة**، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٧هـ، القسم الثالث، ص ص ١١٤٠-١١٤١ .

٣٥- المصدر نفسه، ص٤٥٣ .

٣٦- النفود صحراء رملية كبيرة تقع في الجزء الشمالي من المملكة العربية السعودية، بين منطقة الجوف من الشمال ومنطقة حائل من الجنوب بين دائرتي عرض ٠٥َ ٢٧ْ و ٤٠َ ٢٩ْ، وتبلغ مساحتها حوالى ٦٤٦٣٠ كيلاً مربعاً، ويبلغ أقصى امتداد لها من الشرق للغرب حوالى ٣٤٢ كيلاً، أما من الشمال إلى الجنوب فيصل إلى حوالى ٥٧٢ كيلاً، ويقل اتساعها كلما اتجهنا شرقاً بحيث لا يتعدى ١٢٨ كيلاً عند نهايتها الشرقية .

انظر : **أطلس المملكة العربية السعودية**، الرياض : وزارة التعليم العالي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٣٠ .

٣٧-الدهناء صحراء رملية تتخذ شكل قوس يمتد مسافة ١٢٠٠ كيل، وتربط صحراء النفود الكبير (المشار إليها آنفاً) شمالاً بصحراء الربع الخالي جنوباً . انظر : المصدر السابق، ص ٥٣٠ .

٣٨- وادي السرحان واد رئيسي في شمال الجزيرة العربية يبدأ من حوران جنوب سورية وينتهي في الجوف ويبلغ طوله حوالي ٣٤٠ كيلاً، ويتراوح عرضه بين ٣٥ كيلاً و٥٠ كيلاً . وتجتمع

فيه سيول أودية كثيرة، تنحدر إليه من الغرب ومن الشرق، انظر حوله: حمد الجاسر، مصدر سابق، ص ص ١٣٣٦-١٣٣٩ .

٣٩- يقع غرب النفود ويبعد عن تيماء بحوالى ٥٠ كيلاً شرقاً .

٤٠- مورد ماء في وسط وادي السرحان .

٤١-لا تؤكد المصادر الأخرى أن الصلبة من قبائل هتيم .

٤٢- مورد ماء معروف في الطرف الشمالي الشرقي للدهناء، لوقوعه على طريق الحاج إلى مكة من العراق. وهو في شرق طريق زبيدة (بقرب درجة الطول ٤٥َ ٤٣ْ ودرجة العرض ٤٣َ ٢٨ْ).

وحوله انظر: حمد الجاسر، مصدر سابق، ص ص ١١٦٧-١١٧٣ .

٤٣- ياقوت الحموي، ، مصدرسابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٦٠-٥٦١ .

٤٤- يشير والن هنا إلى الجغرافي الألماني كارل ريتر Karl Ritter، أحد مؤسسي علم الجغرافيا الحديث، ومؤلف موسوعة: **علم الأرض وعلاقته بالطبيعة وتاريخ الإنسان**

Die Erdkunde im Verhaltniss zur Natur und zur Geschte des Menschen

التي بدأ نشرها عام ١٨٢٢ وحتى وفاته ١٨٥٩م قبل إكمالها، وبلغ ما نشره منها ١٩ جزءاً. في عشرين ألف صفحة، غطت قارتي إفريقية وآسيا .

٤٥- هـ. أ. هماكر (١٧٨٩-١٨٣٥م)، مستشرق هولندي، عمل أستاذاً لكرسي اللغات السامية في جامعة ليدن. حقق عدداً من المخطوطات العربية، وشارك في وضع فهرس المخطوطات العربية في جامعة ليدن. انظر: نجيب العقيقي، **المستشرقون**، الجزء الثاني، ط ٤، القاهرة: دار المعارف، [د. ت]، ص ٣٠٦.

٤٦- الحجرة هضبة تنحدر من شمال المملكة العربية السعودية إلى شرقها أي من خط طول ٣٠َ ٤٠ْ شرقاً تقريباً حتى خط طول ٠٠َ ٤٥ْ. انظر: **أطلس المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص ٥٣ .

٤٧- ياقوت الحموي، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص ٥١٥ .

٤٨-المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ٦٠٨ .

٤٩- تمتد سلسلة جبل أجأ حوالي ١٢٠ كيلاً طولاً من الشمال إلى الجنوب، وحوالى ٢٥ كيلاً عرضاً .

٥٠- تمتد سلسلة جبل سلمى حوالي ٦٠ كيلاً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وحوالى ١٥ كيلاً عرضاً.

٥١-ياقوت الحموي، مصدر سابق، الجزء الرابع، ص ١٨٨ .

٥٢- المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١١٩ .

٥٣- عبدالله بن علي الرشيد من آل جعفر أحد بطون عبدة من شمر، ومؤسس إمارة آل الرشيد في حائل بدءاً من سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م، حسب أغلب الروايات، حينما عينه الإمام فيصل بن تركي آل سعود أميراً على حائل مكافأة له على ما بذله من جهود في استلامه الحكم بعد مقتل والده الإمام تركي بن عبدالله، وحكم حائل حتى وفاته سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م. هذا وسترد في ثنايا هذا الكتاب كثير من المعلومات حوله وحول إمارته مذ بدايتها حتى نهايتها. ولمزيد من التفصيلات حول تاريخ نشوء هذه الإمارة وجميع ما يتصل بهذه النشأة يمكن الرجوع إلى: عبدالله الصالح العثيمين، **نشأة إمارة آل الرشيد**، الرياض: جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥٤- إبراهيم بن محمد علي باشا والي مصر (١٨٠٥-١٨٤٨م)، قاد جيوش والده الغازية للجزيرة العربية في الفترة من ١٨١٦م/ ١٢٣١هـ - ١٨١٩م/ ١٢٣٤ هـ للقضاء على الدولة السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية، وتمكن من ذلك. تولى الولاية في مصر بعد أن تخلى له والده عنها بسبب مرضه سنة ١٨٤٨م/ ١٢٦٥هـ لكنه لم يعمر فيها طويلاً ومات بعد شهور من توليه الحكم .

٥٥-صالح بن عبدالمحسن آل علي من آل جعفر أحد بطون عبدة من شمر، وفي أسرته كانت الإمارة في حائل، ولا تقدم المصادر المتاحة معلومات وافية حوله. وحول هذه الإمارة انظر: عبدالله الصالح العثيمين، مصدر سابق، ص ص ٥-١٧ .

٥٦- الإمام تركي بن عبدالله بن عبدالله بن محمد بن سعود مؤسس ما اصطلح عليه المؤرخون بالدولة السعودية الثانية التي بدأت محاولات تأسيسها عقب سقوط الدرعية سنة ١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ وانسحاب إبراهيم باشا بأغلبية جيوشه منها. وقد تحقق له تأسيس هذه الدولة في سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م وحكمها حتى اغتياله سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م. وحول عهد هذا الإمام ودوره انظر:

عبدالله الصالح العتيمين، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، الجزء الأول، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ص ٢١٥- ٢٣٤.

٥٧ - الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود تولى الحكم في الدولة السعودية الثانية على فترتين، الأولى من سنة ١٨٣٤م/ ١٢٥٠هـ إلى سنة ١٨٣٧م/ ١٢٥٣هـ، حيث سقط بغزو مصري جديد وحمل إلى مصر، والثانية من سنة ١٨٤٣ م/ ١٢٥٩هـ حتى سنة ١٨٦٥م/ ١٢٨٢هـ. حول عهد هذا الإمام ودوره انظر: العثيمين، المصدر السابق، ص

ص ٢٦٣-٢٨٤ .

٥٨- مشاري بن عبدالرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود، أحد أفراد أسرة آل سعود الذين رحلوا إلى مصر بعد سقوط الدرعية، وعاد منها في عهد خاله الإمام تركي بن عبدالله. طمع في الحكم و سعى لإسقاط خاله حتى تمكن من تدبير اغتياله سنة ١٨٣٤م/ ١٢٤٩هـ تولى الحكم بالرياض لمدة أربعين يوماً ثم قتل واستلم الإمام فيصل بن تركي الحكم. انظر: محمد بن عمر الفاخري، **تاريخ الفاخري**، دراسة وتحقيق وتعليق عبدالله يوسف الشبل، الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٠٦ .

٥٩ - عبيد بن علي الرشيد، شقيق عبدالله بن علي الرشيد وشريكه في تأسيس إمارة حائل وتوسيع مناطق نفوذها. كان فارساً وشاعراً شهيراً، توفي سنة ١٨٦٩م/ ١٢٨٦هـ. هذا وسيرد كثير من المعلومات حوله في ثنايا هذا الكتاب.

٦٠- كان الحكم بعد وفاة عبدالله الرشيد لابنه البكر طلال حتى انتحاره سنة ١٨٦٦ م/ ١٢٨٣هـ، فتولى بعده الحكم شقيقه متعب الذي قتل على يدي أبناء شقيقه طلال سنة ١٨٦٨م/ ١٢٨٥هـ. هذا وسترد في ثنايا هذا الكتاب معلومات وتفاصيل كثيرة حول هذين الأميرين .

٦١- لم يرد ضمن الكتب والرسائل الكثيرة المعروفة للشيخ محمد بن عبدالوهاب كتاب بعنوان الأحاديث الأربعين، وحول آثاره انظر : أحمد محمد الضبيب، **آثار الشيخ محمد بن عبدالوهاب: سجل بيليوجرافي**، الرياض: دار المريخ، ١٩٨٢م.

٦٢- اختلفت المصادر حول عدد أولاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولكن أغلبها اتفقت على أن أولاده من الذكور هم الشيخ علي، والشيخ حسين، والشيخ عبدالله، و حسن وقد توفي مبكراً و لكنه خلف ولداً هو عبدالرحمن الذي تربى في أحضان جده، وإبراهيم، وعبدالعزيز وهؤلاء الأخيرين ليس لهما ذرية أو عقب. وعبدالرحمن الذي يذكره والن وحسب المعلومات التي يوردها عنه هو عبدالرحمن بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد خلط كثيرون في ذلك. انظر حول ذلك وحول تراجم أبناء الشيخ : عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٦٣- كان كل من الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب و الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد رحلا مع والديهما وآخرين من أسرة آل الشيخ إلي مصر بعد سقوط الدرعية سنة

١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ. انظر: المصدر السابق، ص ٧٠-٧١.

٦٤- الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب المولود سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م في الدرعية، رحل مع والده بعد سقوط الدرعية إلى مصر فنشأ وتعلم وأقام بها إحدى وثلاثين سنة. عاد إلى الرياض سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م [حسب تاريخ رسالة التوصية التي حملها والن إليه من الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله والمؤرخة في ذي الحجة ١٢٦٣هـ، يكون الشيخ قد عاد قبل سنة ١٢٦٤هـ، انظر هامش ٩ السابق] فبعثه الإمام فيصل بن تركي إلى الأحساء، وأقام بها مدة سنتين ثم عاد إلى الرياض للتدريس والتأليف. وتوفي سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. انظر ترجمته الكاملة في: المصدر نفسه، ص ص ٧٠-٩٤.

٦٥-الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب المولود سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م في الدرعية، تربى في أحضان جده الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تلقى العلم الشرعي من علماء الدرعية ثم جلس لطلاب العلم يدرسهم التوحيد والفقه ثم ولي قضاء الدرعية، واستمر في وظيفتي القضاء والتدريس حتى سقوط الدرعية، حيث رحل إلى مصر، فبقي بها ثماني سنوات يتلقى التعليم في الأزهر. عاد من مصر إلى الرياض سنة ١٢٤١هـ حيث ولي القضاء في الرياض. توفي سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م. انظر ترجمته الكاملة في: المصدر نفسه، ص ص ٥٨-٦٩.

٦٦- انظر هامش ١١.

٦٧- عباس باشا بن طوسون بن محمد علي، خلف عمه إبراهيم باشا بن محمد علي في حكم مصر سنة ١٨٤٨م/ ١٢٦٥هـ حتى وفاته سنة ١٨٥٤م/ ١٢٧٠هـ.

٦٨- يوهان لودفيج بوركهارت، رحالة سويسري من مواليد سنة ١٧٨٤م، تلقى تعليمه في ألمانيا وانجلترا، ورحل بتمويل من الجمعية الأفريقية البريطانية. بدأ رحلاته سنة ١٨٠٩م تحت اسم إبراهيم بن عبدالله فزار بلاد الشام ومصر حتى وصل النوبة، والجزيرة العربية. توفي في مصر بالطاعون سنة ١٨١٧م. وقد جاءت خلاصة رحلاته في أربعة كتب باللغة الإنجليزية: **رحلات في سورية والبلاد المقدسة؛ ورحلات في بلاد النوبة؛ وملاحظات حول البدو والوهابيين؛ ورحلات في بلاد العرب.**

٦٩- أورد بوركهارت في الملحق السادس من ملاحق كتاب رحلاته في بلاد العرب ملاحظات جغرافية علي المنطقة الواقعة إلى الشمال من المدينة وإلى الشرق منها فذكر أن في نجد "بقايا مبان قديمة ذوات أساسات ضخمة وأبعاد واسعة إلا أنها خربة تماماً. وتنسب إلى قبيلة عربية قديمة جداً (وربما كانت خرافية لا وجود لها) هي بنو تعمور الذين تشاهد بقايا أعمالهم ايضاً

في الصحراء السورية إلى الشرق من سهل حوران" . ورجح المترجمان لرحلة بوركهارت بأن بني تعمور تحريف لبني عامر الذين منهم بني هلال الذين تنسب لهم العامة مثل هذه الأعمال. انظر: جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، ترجمة عبدالعزيز صالح الهلابي وعبدالرحمن عبدالله الشيخ، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٤٢٨ .

٧٠- أرمان بيير كوسان دي برسيفال مستشرق فرنسي، وابن لمستشرق شهير هو جين جاك - أنطونيو كوسان دي برسيفال. ولد سنة ١٧٩٥م، وتوفي في باريس سنة ١٨٧١م. وقد أقام في الشرق فترة طويلة، ولما عاد إلى فرنسا عين في كرسي اللغة العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية ثم في كرسي اللغة العربية الفصحى وأدبها في الكلية الفرنسية سنة ١٨٣٣م، كما اختير عضواً في المجمع اللغوي سنة ١٨٤٩م. له مؤلفات حول اللغة العربية والأدب العربي، ومن أبرز آثاره كتابه عن التاريخ العربي المطبوع سنة ١٨٤٧م الذي جاء في ثلاثة مجلدات : يتناول المجلد الأول مرحلة ما قبل الإسلام ؛ و المجلد الثاني عصر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، والمجلد الثالث ويتناول انضواء القبائل العربية تحت راية الإسلام . انظر ماورد حوله :
عبدالرحمن بدوي، ، **موسوعة المستشرقين**، ط ٣، بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ص ٤٨٨ . و العقيقي، مصدر سابق، الجزء الأول، ص١٧٧ .

٧١- كتاب العهد القديم، ، سفر التثنية، الإصحاح الثاني.

٧٢-ياقوت الحموي، **المشترك وضعاً والمختلف صقعاً**، تقديم وتعليق فردناند فستنفلد، جوتنجن: جامعة جوتنجن، ١٩٨٤م.

٧٣- الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص. ٣٢٠.

٧٤-أبي العباس أحمد بن علي بن عبدالله القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٥٩.

٧٥- المصدر السابق، ص ٢٩٨ .

٧٦- المصدر نفسه، ص ٢٨٢ .

٧٧- ياقوت الحموي، مصدر سابق، الجزء الرابع، ص٣٢٠.

٧٨- المصدر نفسه ، الجزء الثالث، ص ٢٠٨ .

٧٩- المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص ٤ .

٨٠- المصدر نفسه، الجزء الخامس، ص ٢٦٢ .

وليام جيفورد بلغريف

١٨٦٢م /١٢٧٩هـ



وليام جيفورد بلغريف

وليام جيفورد بلغريف

William Gifford Palgrave

يعدّ هذا الرحالة أحد أشهر من زاروا الجزيرة العربية من الرحالة الأوروبيين، ونالت رحلته ما لم تنله رحلة أخرى من الاهتمام والنقاش، حتى عدّ كتابه من أمهات أدب الرحلات، مع أن النقاد كافةً يعترفون بدور الخيال في وصفه لرحلته والمبالغة فيما كتبه. وشكك بعض الرحالة في حقيقة المعلومات التي أوردها في كتابه، و في صدق قيامه بالرحلة نفسها وعدوها من نسج خياله، إلا أن كل ذلك لم يغير من حقيقة الشهرة التي نالتها قصته والاهتمام بها لا سيما في الأوساط غير العلمية. ومهما يكن من أمر فقد أصبح ما كتبه يحظى بمكانة عند مؤرخي المعرفة الغربية حول شمال ووسط وشرق الجزيرة العربية، ولا يمكن عد كل ما جاء فيها من معلومات، كما سنرى من نسج الخيال أو النقل عن آخرين على الرغم من عدم دقته في كثير من معلوماته [1]، ولكن من هو هذا الرحالة؟

ولد وليام بلغريف عام ١٨٢٦م، وتلقى تعليمه الجامعي في كلية ترنتي بجامعة أكسفورد الشهيرة، وتخرج فيها بتفوق، ثم التحق بعد تخرجه بالجيش البريطاني في الهند عام ١٨٤٧م. وفي الهند، تحول بلغريف عن مسيحية والديه البروتستانتية التي تحولوا إليها من اليهودية إلى المسيحية الكاثوليكية، واستقال من الجيش وقرر أن يكون راهباً فانضم إلى جماعة يسوع. عاد

بلغـريف إلى أوروبا ليـدرس علم اللاهوت في كليـة رومـانو في إيطاليـا عـام ١٨٥٣م، وبقي بها حتى عام ١٨٥٧م عندما انتقل إلى لبنان ليقوم بالأعمال التبشيرية لصالح جماعته الدينية التي أقامت لها مقراً في بلدة بكفيا لتمارس أعمالها في لبنان والمناطق المجاورة. بدأ بلغريف بالسفر إلى مناطق جبال لبنان وسهول حوران في سورية داعياً لدينه بين العرب، ولم تنته سنة ١٨٥٧م حتى أصبح المسؤول الأول عن البعثات التبشيرية التي تنطلق من لبنان، ومسؤولاً أيضاً عن المدارس التي أسستها جماعته في لبنان، وكان يتسمى في لبنان بأسماء عدة، أشهرها مايكل كوهين.

لم تستمر أعمال بلغريف بلبنان كثيراً فقد اندلعت حرب أهلية في عام ١٨٦٠م مما اضطر جماعته مع بعثاتهم التبشيرية إلى مغادرة لبنان. توجه بعد ذلك إلى بريطانيا وإيرلندا، وبدأ سلسلة من المحاضرات عن الأعمال التبشيرية في الشرق. ثم ذهب إلى فرنسا حيث التحق بالكلية الجزويتية في نيس. عرض بلغريف على المدير المشرف عليه في الكلية بيير سيبستين فويلوت فكرة العمل على تحويل سكان المناطق غير المعروفة في شمال الجزيرة العربية للديانة المسيحية. استقبل مديره الفكرة بحماسة، وعرضها على الحكومة الفرنسية التي رحبت بها والتقى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا بلغريف في مقابلة رسمية، عرض فيها بلغريف فكرته عليه موضحاً أهميتها من الناحية السياسية، فالوجود المسيحي في شمال الجزيرة سيسهل على فرنسا إيجاد موطئ قدم لها في بلاد العرب الشرقية. لاقى المشروع اهتمام الإمبراطور الذي تجاوبت الفكرة مع طموحاته السياسية في الشرق العربي، فقبل تمويل الرحلة ومنح بلغريف مبلغ ستة آلاف فرنك لتحقيق غرضه.

انطلق بلغريف بعد ذلك في رحلته عن طريق القاهرة، حيث ـ كما قال ـ

كـان في مـهـمـة سياسية كلفه بها نابليون الثالث. وانتقل بعد أداء مـهـمـته في القاهرة إلى بيروت، حيث اختار رفيقاً يونانياً من زحلة اسمه جريجري لمرافقته في رحلته إلى الجزيرة العربية.

تسمى بلغريف باسم سليم أبو محمود العيس، وتسمى رفيقه باسم بركات الشامي، وادعيا كلاهما أنهم أطباء من سورية.

انطلق بلغريف ورفيقه من بيروت إلى حيفا، فغزة، ومنها إلى معان التي وصلاها يوم ١٦/٦/١٨٦٢م. من معان بدأ بلغريف عبور الجزيرة العربية قائلاً بحماسة: "إما أن تكون هذه الأرض قبراً لنا أو نعبرها من أولها إلى آخرها". وقد نجح في ذلك فزار الجوف، وحائل، وبريدة، والرياض، والهفوف، والقطيف، والبحرين، وقطر، وعُمان، واستمرت الرحلة ما يقارب العام.

توج بلغريف هذه الرحلة، بكتاب من جزأين، تحت عنوان "قصة رحلة عام عبر وسط وشرق الجزيرة العربية"، تم نشره عام ١٨٦٥[٢]. استقبل الكتاب عند صدوره بكل اهتمام وتقدير، وعدّ أعظم عمل تم وضعه عن شبه الجزيرة العربية، فتُرجم الكتاب إلى الفرنسية بعد عام من نشره باللغة الإنجليزية، ثم إلى الألمانية. ومنحته الجمعية الجغرافية الفرنسية وساماً لأنه شرف المنحة التي منحه إياها نابليون الثالث.

تخلى بلغريف بعد الانتهاء من رحلته عن رهبانيته وعن مذهبه الكاثوليكي ودخل العمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية البريطانية، وتنقل في عدة بلدان حتى انتهى وزيراً مفوضاً في منتفيديو عاصمة جمهورية أورجواي في أمريكا الجنوبية، وتوفي عام ١٨٨٨م[٣].

انطلق بلغريف بعد أن قضى في الجوف[٤] حوالى ثلاثة أسابيع لإكمال

رحلته في الجزيرة العربية عبر حائل، التي بقي فيها لأكثر من شهر .

و الآن لندع بلغريف يتحدث مباشرة عن تجربته منذ مغادرته الجوف يوم ١٨/ ٧/ ١٨٦٢م وحتى مغادرته يوم ٨ / ٩/ ١٨٦٢م[١٢٧٩هـ] حائل (٥) :

إذا ما استخدمنا مصطلح بنات النفود، الذي يستخدمه العرب ليشيروا إلى سلاسل الكثبان الرملية، فإن هذه البنات لا تختلف كثيراً عن أمها غير الودودة. وماسبق وذكر في مصادر أخرى حول هذه السلاسل من الكثبان الرملية، أصلها وامتدادها وهيئتها، واتصالها بالدهناء، أو الربع الخالي في الجنوب ، قد يعفيني هنا من الكتابة عن تفاصيلها الجغرافية؛ و لنكتف حالياً بالقول إن تلك السلاسل ما هي إلا عروق رمليه - ربما يسميها المرء خلجان، وهذا قد لا يكون مجافياً للواقع - للمحيط العظيم من الرمال الذي يغطي ثلث شبه الجزيرة العربية تقريباً، و يخترق بعمق هضبتها الوسطى الخصبة ويتقاطع معها في بعض الأماكن. إن خصائصها العامة التى أعتقد بأن الصفحات التالية سوف تعطي فكرة صحيحة ومقبولة عنها، هي خصائص الدهناء نفسها، أو خصائص الصحراء الحمراء (النفود) نفسها. إن العرب وهم دائمًا ميالون للمبالغة يقدرون عدد هذه السلاسل بالعشرات، ولكنها قد لا تتعدى أربع سلاسل من الكثبان الرملية المترابطة، والشخص الذى يقطعها من الوسط لابد له بالضرورة أن يعبر اثنتين منها، أو ربما حتى ثلاثاً مثلما فعلنا.

إن الشكل العام للجزيرة العربية عبارة عن هضبة وسطى محوطةبدائرة من الصحراء، رملية في الجنوب والغرب والشرق، وصخرية من الشمال. هذه الدائرة المتسعة تطوقها الجبال المنخفضة الجدباء في أغلبيتها، ولكنها تتخذ في اليمن وعُمان ارتفاعًا وعرضًا وخصوبة معقولة، بينما يوجد إلى ما وراءها حافة ساحلية ضيقة يحدها البحر. وتحتل هضبة الجزيرة العربية الوسطى

مساحة تساوي إلى حدٍّ ما نصف مساحة شبه الجزيرة بأكملها، وحدودها تتأثر كثيراً؛ بل غالبًا بتحركات رياح النفود المتعرجة وزحفها إلى الداخل. وإذا ما أضفنا إلى هذه الهضبة الوسطى أو نجد، آخذين تلك الكلمة في أوسع معانيها، الجوف والطائف وجبل عسير واليمن وعمان والأحساء، باختصار كل المناطق ذوات الخصوبة التى تنتمي للدائرة الخارجية؛ فإننا سنجد أن الجزيرة العربية تحتوي على نحو الثلثين من الأراضي الخصبة أو على الأقل القابلة للزراعة، والثلث المتبقي لصحراء يتعذر استصلاحها، وبشكل رئيس إلى الجنوب. إن المساحات الفراغية الكبيرة في خرائط هذه البلاد لهي في الغالب دلائل على عدم وجود المعلومات أكثر منه عن خلوها من السكان. على أية حال؛ فإن ما ينتظرنا الآن لحسن الحظ هو سلسلة واحدة فقط من كثبان الصحراء غير الودودة، التي بعد أن نقطعها سنجد أراضيَ أفضل؛ ومع هذا الأمل لنتحلَّ بالشجاعة ولندخل النفود بجرأة.

لقد سمعنا من البدو والحضر الكثير عن النفود، للدرجة التي هيأنا أنفسنا لشيء رهيب وغير ممكن. لكن الحقيقة، لاسيّما في هذه الأيام شديدة الحرارة، أثبتت أن الأمور أسوأ مما سمعناه وتخيلناه.

إننا الآن نقطعُ محيطًا واسعاً، لا يحيط به النظر، من الرمال الحمراء غير المتماسكة، المتراكمة في سلاسل هائلة تجرى متحاذية من الشمال إلى الجنوب، تموّجٌ إثر تموج، ترتفع كل منها إلى ارتفاع مئتين أو ثلاث مئة قدم في المتوسط، بجوانب منحرفة وقنن مستديرة متجعدة في كل الاتجاهات بفعل أنواء الصحراء المتقلبة الأطوار. وفي الأعماق، بينها يجد المسافر نفسه كما لو كان حبيساً في حفرة رملية خانقة، محوطًا بأسوار لاهبة من كل جهة، وأحياناً، وهو يكد في صعود المنحدر، يطل على ما يبدو وكأنه بحر واسع من

النار، تتصاعد منه ريح موسمية شديدة، تتجعد بفعل انفجار مضاد في موجات حارة حمراء صغيرة. لاملجأ ولا راحة لعين أو لطرف وسط وابل من الضوء والحرارة المتدفقة من أعلى على وهج ساطع منعكس من أسفل.

أضف إلى هذا إرهاق أيام صيف طويلة من الكدح - وربما من الأفضل أن أقول الخوض - عبر رمال غير متماسكة ولاذعة على ظهور حيوانات واهنة نصف خَدرة، ومع ساعات نوم قليل ومتقطع ليلاً، ومع عدم راحة بالنهار لعدم وجود أي ظل، وبالقليل من المأكل والأقل من المشرب، بينما الماء الفاتر الملون في القرب يتناقص بسرعة أكبر بفعل التبخر أكثر منه بالاستخدام، وشمس عمودية، ويالها من شمس تخترق حتى الملابس، والمتاع، ويتخذ كل غطاء أو وقاء رائحة الحريق ونادراً مايسمح بلمسه. انقضى عاجلاً مرح البدو الصاخب، وتفرقوا واحداً في الأمام والآخر في الخلف، كل يشق طريقه في صمت لايقطعه سوى رغاء الإبل الغاضبة حينما تضرب، وهذا يحدث كثيراً، لتحث في سيرها.

غادرنا بعد ظهر يوم العشرين من يوليو [١٨٦٢م/ ١٢٧٩هـ] بقليل بئر الشقيق، وواصلنا بقية ذلك اليوم وكل الليل تقريبًا في المسير، ولم نتوقف إلا ثلاث أو أربع ساعات للراحة وتناول وجبة العشاء، وهذا هو كل ما يمكن تحمله، إذ إننا لو لم نصل إلى الجانب الآخر من النفود قبل أن ينفد مخزوننا من الماء فإننا لامحالة هالكون. وبالفعل خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية في هذه الدروب ـ كما يسميها العرب ـ لم نتوقف سوى لساعة واحدة فقط.

انقضى يوم الإثنين الواحد والعشرون من يوليو ببطء، وبدا أكثر بطئاً في العناء نفسه، ووسط المنظر نفسه. الرمال المتحركة لا تكاد تسمح لأي نوع من النبات ينمو فيها، وحتى شجر الغضا ، الذي هو مثل النباتات اليتوعية، بالكاد

يحتاج إلى تربة خاصة أو الرطوبة للبقاء، لهو نادر هنا أو متوقف عن النمو بصورة بائسة؛ لايقدم لا المأوى ولا المرعى. في بعض الأحيان يظهرُ مايشبه الدرب، وفي أغلب الأحيان لايظهر أي أثر، لأن الرمال المتحركة تكون قد أضاعت آثار أولئك الذين عبروا المنطقة.

في هذه المرحلة من مسيرتنا بدأنا نلاحظ في سلوك مرافقينا من قبيلة الشرارات، لاسيما الشباب منهم، بعضًا من عدم الكلفة الوقح الشيء الذي وضعنا في حالة كبيرة من اليقظة والحذر لهجوم مباغت؛ إذ إن من عادات البدوي، عندما يفكر في النهب والخيانة أن يقوم أولاً بجس الوضع على ذلك النحو، وإذا ما رأى أية علامات للجبن أو الإذعان في ضحيته المأمولة، فإنه يأخذها كإشارة للمضي قُدماً في فعلته. إن أفضل خطة في مثل هذه الحالات هو أن يتصنع المرء وجهًا متجهمًا صارمًا ويلتزم الصمتَ المطبق، مع توبيخ حادٍّ بين الفينة والأخرى على سبيل التهديد والتخويف. وهذا في أغلب الأحيان يروّع الشخص البدائي، كما الكلب النابح الذي سيتراجع عندما يجابه بوقفة صمود. لقد كان تصرفنا وفقًا لذلك النحو في هذه المناسبة. احتفظنا بأنفسنا متفرقين على بعد لساعات من الزمن، وحينما نكون بمحاذاة أولئك الناس لا ننطق إلا بالقليل، وذلك القليل لم يكن وديّاً على الإطلاق. ولم ينقض وقت طويل إلا وقد شعر أكثرهم وقاحة بالخجل والحرج، وتقهقر إلى الخلف، بينما أخذ أحد شيوخ العزام(٦) بوجهه الناحل، طريقه براحلته في محاذاتي زاعمًا البحث عن رأي طبي، ولكن في حقيقة الأمر أراد أن يبادر للصداقة والاحترام. وبالطبع قابلت مقدماته بتحفظ بارد ومتجهم، ومن هنا بدأ يعتذر عن «الغُشمُ»، أي الجهلة، من جماعته، مطمئنًا لنا بأنه لم يكن لديهم على أية حال أي سوء نية، وأن الأمر لايعدو مجرد الافتقار إلى التربية الحسنة، وأنهم

جميعًا إخوة لنا، وخدم لنا. . . إلخ. تلقينا اعتذاره بمظهر من الاعتزاز، وتبجحنا عما كان في استطاعتنا فعله، ومانستطيع أن نفعله - أخشى أنّ ما كنا نستطيع فعله قليلٌ جداً لو وضعنا على المحك - ثم بدأنا حديثاً وديّاً حول الموضوع الذي يشتكي منه وحسب مايسمح مستوى ذكائه.

لكن لاحقًا علمتُ من بدو شمر ومن رجال الجوف، أن الشرارات الذين ظنوا أننا قد جنينا ثروة طائلة بدعم ورعاية حمود[العقلاء، نائب أمير حائل في الجوف]، قد فكروا جدياً بانتهاز هذه الخلوة الصحراوية وسلبنا، ثم تركنا دون ماء أو رواحل لنجد طريقنا للخروج من النفود بأفضل مالدينا من مقدرة، أي إننا لن نجد مخرجًا على الإطلاق. أخبر هؤلاء الشرارات بعض الشمامرة المرافقين لنا بخطتهم، آملين مطاوعتهم ومساعدتهم. لكن هؤلاء الأخيرين، وهم أكثر تعودًا على قيود الحكم كانوا يخشون العواقب، ومدركون أيضًا بأن طلال بن رشيد، إذا ما علم بطريقة ما بمثل ذلك الفعل، فمن المرجح جداً أن يجعل من نفسه وريثنا الوحيد الموصى له، والمنفذ للوصية في الوقت نفسه، وشيئاً أكثر من ذلك. لذلك لم ينضموا إليهم، وأسرع المتآمرون، الذين أدركوا من طريقة تصرفنا بأننا نشك مسبقًا بنواياهم، بتهدئة الأمور قبل أن نتمكن بطريقة ما من فضح أمرهم في حائل بالشكوى من خيانتهم المدبرة.

قبيل غروب اليوم التالي وصلنا إلى مكان شاهدنا فيه قمتين هرميتين منفردتين من الجرانيت الداكن، يشمخان وسط أمواج من الرمال تملأ طريقنا، يطلق عليهما الناس عليم السعد [العليم]، لأنهما دليل على أن ثلث المسافة بين بئر الشقيق وجبل شمر قد قطعت. وهما يقفان مثل جزيرتين، أو بالأحرى مثل الجبال التى تبدأ من البحر بالقرب من مصب نهر Tagus (طاقوس)(٧)، أو مثل مجموعة من جزر المالديف وسط المحيط الهندي العميق. إن قواعدها

لابد أن تكون في الطبقة الصخرية، التي غطتها الرمال مثلما تغطي مياه البحر حوضه؛ وسنرى بعد ذلك ظاهرة مشابهة في أماكن أخرى من الصحراء. من الواضح أن الطبقة السفلى من صخور الجرانيت، وأحيانًا تكون كلسية أو جيرية. وفيما يتعلق بعمق الرمال، فإنني أقدر أن تكون حوالى أربع مئة قدم، ولكنها قد تصل في كثير من الأحيان إلى أكثر من ذلك بكثير؛ إذ إنني قد لقيت أغوارًا تصلُ إلى ست مئة قدم في نزول عمودي.

واصلنا المسير، وكانت قمم عليمٍ السعد تلوح داكنة أمامنا، إلى أن كان حوالى منتصف الليل، بقدر ما استطعت حسابه بواسطة النجوم التي كانت مصدرنا الوحيد لتحديد الوقت (وهو مصدرٌ لا بأس به في تلك السماء الصافية) إذ مررنا قريبًا بأسفل هذه الجبال الصخرية السوداء الهائلة. بالكاد متعت نفسي بالتوقف، حيث بقينا بقربها لمدة نصف ساعة فقط، وتقدمنا. ولم نترجل عن رواحلنا حتى بزوغ نجمة الصباح تحت نجم الثريا تقريباً، حيث رمينا بأنفسنا على الأرض بسرعة لنغفو قليلاً؛ وقبل طلوع الشمس كنا في طريقنا مرة أخرى.

وخلال وقت قصير كانت تلوح في الأفق قمم ضخمة، فقال رفيقنا جديع: "انظروا هناك" وهو يشير بيديه إلى الأمام. و بعيدًا في أقصى الأفق ظهرت قمة تشبه السحابة الزرقاء، وأخرى أقصر منها بقليل إلى جانبها. واسترسل قائلاً: "تلك هي جبال جبة، وهي أقرب الحدود إلى جبل شمر". وأول فكرة خطرت في بالي وأنا أتأمل كيف أن ما معنا من ماء قارب على النفاد، "وكيف يتسنى لنا أن نصلها؟" ويبدو أن المجموعة بأكملها كانت تفكر بالفكرة نفسها، إذ انهم اندفعوا متقدمين بأشد مما كانوا عليه.

بالقرب من هذا المكان قابلنا مجموعة صغيرة من البدو الرحل، القادمين

من الجنوب، ومن خلال حديثهم تلقينا أول الأخبار عن الحرب التي كانت رحاها تدور في منطقة القصيم بين مملكة الوهابيين والموالين لعنيزة؛ تلك الحرب التي سوف نرى ونسمع فيما بعد كامل تفاصيلها، والتى سنعرف أيضاً منها ـ على الرغم من أنها لم تحسم حتى السنة التالية عندما كنا نهم بمغادرة الجزيرة العربية، نتيجتها المأسوية.

في هذه الأثناء بدأنا ننحدر من موقعنا الرملي المرتفع بسهولة، وفي الحال فقدنا ـ لحزني الشديد ـ رؤية جبال جبة، ولم نشاهدها ثانية إلى أن كنا قريبين من سفحها على شفا النفود.

وكلما تقدمنا زادت الصحراء سوءاً، وأصبحت أكثر وحشة، ومفقدة للأمل بكثبانها الرملية المقفرة؛ وعند الظهر انقسمت مجموعتنا بنظام «لربما لينجو كل بجلده»؛ بعضهم كان قد استنفد مؤونته من الطعام والشراب، وآخرون لم يكونوا أفضل حالاً في المؤن؛ وكل واحد كان يهمز ضاربًا وحاثاً دابته للوصول إلى بر الراحة والأمان.

بالطبع بقينا أنا وجديع وزميلي معاً. وعلى حين غرة لفت انتباهي وجود اثنين أو ثلاثة من العصافير ترفرف حول أجمة على جانب الطريق. لقد كانت أول طيور نلتقي بها في الصحراء، وكانت تشير إلى اقترابنا من زرع ومن الحياة. تذكرت روايات سمعتها في الطفولة وأنا مرتاح إلى جوار موقد النار، إن لم تخني الذاكرة، كيف أن بعض البحارة وهم في أعالي البحار، كريستوفر كولومبس ورجاله، بعد أيام وأشهر في المحيط الموحش رحبوا وابتهجوا بطائر أتى من شاطئ لم يكتشف بعد، واستقر للمرة الأولى على صاري سفينتهم. عندها أجهش رفيقي بالبكاء من الفرح.

على أية حال، كان أمامنا درب طويل، وواصلنا المسير ذلك المساء بكامله

مع توقف لمدة بالكاد تصل إلى ساعة لتناول طعام عشاء فقير ، ومن ثم الليل بأكمله في صعود وهبوط لتلك المتاهة المتموجة مثل رجال في دائرة ساحرٍ ، قدرهم أن يرتحلوا على الدوام ولايتقدموا أبداً. أثناء الساعات المظلمة التي تسبق انبلاج الفجر التقينا زمرة من حوالى ستين فارسًا على صهوات الخيل ، مسلحين ببنادق عتيقة ورماح ، كانوا يشكلون جزءاً من الحملة العسكرية الموجهة بأمر من طلال ضد بعض من بدو التياهة [من قبيلة الحويطات] في جوار تيماء .

انبلج الصباح ونحن لانزال نكابد ونصارع وسط الرمال . مع ضوء النهار صرنا نرى رفاقنا المنتشرين مثل بقع سوداء هنا وهناك ، أحدهم كان متقدماً بعيدًا على ذلول نشط ، وآخر في الخلف مترجلاً يحثُّ دابته المنهارة لكي تقف بغرس خنجر إلى عمق يصل إلى البوصة في سنامها ، وثالث يتلكأ على مسافة بعيدة . كان كل واحد لنفسه وكان الرب لنا جميعًا! وهكذا سارعنا الخطى ، نتطلع في قلق ولهفة لجبال جبة أمامنا ، والتي لا يمكن حينها أن تكون بعيدة . عند الظهر لاحت لنا جميعها دفعة واحدة ، وكانت عبارة عن جروف صخرية شاهقة قفرة ورائعة تبرزُ شامخة على حافة بحر الرمال . سرنا بمحاذاتها لفترة من الزمن ، إلى أن دخلنا في منعطف ، فظهر سهل جبة بكامله أمام أعيننا .

هنا كان أمامنا عقود من صخور الجرانيت السوداء ، المائلة إلى الحمرة ، وبارتفاع يصل إلى حوالى سبع مئة قدم ، حسب تخميني ؛ إلى ما وراءها كان هناك سهل قاحل ، أبيض جزئياً ومكسوٌّ بقشرة من الملح ، ومخضوضر جزئياً بالمزروعات ، ومرصع ببساتين نخلٍ ، وتبينا قرية جبة وسطها على مسافة ليست بعيدة ؛ وهي تشبه الجوف إلى حد كبير في نظامها ومظهرها العام ، إلا أنها أصغر وليس بها قلعة أو برج . إلى ماوراء الوادي لمع خطٌّ آخر من الكثبان

الرملية، ولكنها أقل وحشة وقسوة من تلك التي خلفناها وراءنا، وعلى بعد في العمق تقع الجبال الرئيسة لسلسلة جبل شمر وهي سلسلة وردية طويلة وبمنظر أكثر روعة. ولو كنا قد صعدنا تلك القمم التى كانت إلى يميننا مثلما فعلنا لاحقًا لكنا قد شاهدنا أيضًا في أقصى الجنوب الغربي رقعة خضراء بالقرب من خط الأفق، حيث سلسلة بساتين النخيل في قرية تيماء، وهي مكان ذو شهرة في تاريخ العرب، ويعتقد البعض أنه مطابق لكلمة "التيمائيين" الواردة في الكتاب المقدس(٨).

لكن في تلك اللحظة، كانت جرعةُ من ماء عذب وظل عن شمس يوليو المحرقة يسيطران على أفكارنا أكثر من كل تيماء أو التيمائيين الذين وجدوا مطلقًا. كان ذلولي أيضًا ليس في أحسن حال، إذ إنه لم يأكل أو يشرب شيئًا، وكان بالكاد قادرًا على المضي قدماً بينما كنت أنا شخصيّاً مرهقاً للغاية لا أستطيع أن أحثه بقوة، وقد قضينا ساعة بأكملها في عبور شريط ضيق أبيض من خليط الملح والرمال كان يفصلُ بيننا وبين القرية.

كانت عائلة دليلنا النبيل ناصبة بيتها الوبري خارج أسوار بساتين القرية، وكانت زوجته والعائلة تنتظر سيدها في لهف وشوق. دعانا جديع – وحقّاً لم يكن ليفعل أقل من ذلك وفقًا لعادات شمر –لمشاركته طعامه وبيته، ولم يكن لدينا خيارُ أفضل من القبول لكليهما. وعليه تركنا رواحلنا لتهيم شبه نافقة أو محتضرة في الجوار، ودخلنا لنشرب الماء الممزوج باللبن الحامض، ولنستريح تحت ظل في بيت شعر بال.

وحينما أقبل المساء، وبعد أن قام جديع بسقي إبله حتى رويت من بئر البستان المجاور، وجه لنا دعوة لنقوم بزيارة مجاملة لأمير القرية عقيل، وهو من أهل القرية نفسها، ولكنه معيّن من قبل الأمير طلال. لقد كان الغرض

الحقيقي من دعوة صديقنا في هذا الوقت هو ضمان عشاء جيد، وهو أمر كان لا يستطيع توفيره في بيته. وفرح رفيقي بهذه الدعوة؛ لأن بؤس بيت جديع قاده للاعتقاد بأنه سيلقى بالمثل عشاءً فقيراً لو بقينا في البيت نفسه. تكللت مناورات دليلنا، بقدر ما في استطاعة البدوي المتحضر أن يقوم به، بما تستحقه من نجاح. شرفنا عقيل بالدعوة المرغوب فيها، وانتهى اليوم بعشاء جيد وأمسية حية قام جديع خلالها بالترفيه لكامل المجموعة برقص غريب مع المملوك قهوجي الأمير.

في اليوم التالي ظللنا مسترخين وفرحين بالاستراحة التي سنقضيها هنا قبل رحلة الأيام الثلاثة التي ستقودنا إلى حائل. كنا أحيانًا نتسلق الجبال لنحظى بمدى رؤية أوسع، وأحيانًا أخرى نتجول حول القرية غير المتناسقة ونتحدث مع سكانها، وهنا للمرة الأولى تبينا البرهان الثابت لذلك الأثر العميق شبه المصطنع الذي يحدثه اسم طلال عبر منطقة جبل شمر بكاملها. إن الحالة الهادئة المستقرة للأمور هنا تتناقض مع الحالة الأشبه بالفوضى التي شهدتها مؤخراً الجوف، ومظاهرها الحربية. لكن التربة في قرية جبة، كانت فقيرة، وإنتاجها من المحصول رغم أنه من النوع نفسه الذي تركناه خلفنا إلا أنه بكل المقاييس أدنى درجة منه.

تماثل قرية جبة إلى حدٍّ كبير الجوف، لذلك أجد نفسي في حلٍّ من الخوض في التفاصيل المتعلقة بالمنازل، والحدائق وما شابه ذلك. إلا أنه يمكن أن أضيف هنا، كاستماحة للعذر عن الاختصار في الوصف، أننا بينما كنا نسافر عبر مختلف مناطق جبل شمر، كنا نجد أن قراها، صغيرة كانت أمْ كبيرة، لها إلى حد كبير المظهر غير المنتظم نفسه، المزيج نفسه من البيوت والبساتين والأزقة، والتجاهل نفسه لمتطلبات التحصين والدفاع بخلاف قرى نجد الحصينة

والمحمية جيداً، الأمر الذي يشير إلى حرصها الأمني. ولكن أيضًا وياللحسرة ليس لدى أي عربي حقيقي من الشمال أي فكرة على الإطلاق عما يعرف في أوروبا بقواعد التناسق في البناء. أقول من الشمال؛ لأنني وجدت أنهم في الأحساء وعُمان يعرفون ويراعون قواعد التناسب المعماري، كما أنها ليست غائبة كلية في وسط نجد وجنوبه.

عند شروق شمس يوم الخامس والعشرين من يوليو غادرنا جبة، وعبرنا الوادي إلى الجنوب الشرقي، ودخلنا مرة أخرى في صحراء رملية، ولكنها صحراء كما نوَّهت من قبل ذات طبيعة ألطف وأقل قسوة من النفود الكئيبة الموحشة التي كنا فيها قبل يومين سابقين. فالرمال هنا تغطيها بقع من الآجام الخضراء، وليست خالية تمامًا من الأعشاب والحشائش؛ بينما تموجات الكثبان الرملية، التي تجري بشكل ثابت غير متغير من الشمال إلى الجنوب، وفقًا للقاعدة العامة لتلك الظاهرة، أقل كثيراً في عمقها، إلا أنها ليست غير موجودة تماماً. كنا نسير طوال ذلك اليوم؛ وعند حلول الليل وجدنا أنفسنا على حافة قاع واسع، حيث تتقهقر الرمال من جميع الجوانب تاركةً في الأسفل طبقة من الصخر الجيري؛ وهنا دعتنا النيران المتلألئة وسط خيام البدو في عمق الوادي لنجرب حظنا لعشاء مبدئي قبل التوقف للنوم لتلك الليلة. لقد كابدنا على كل حال عناء في نزول الفجوة إذ كان المنحدر الرملي حادَّ الانحدار؛ بينما شكله الدائري ونسقه اللولبي ذكراني بقصة الكاتب [الأمريكي] (١٨٠٩-١٨٤٩) إدجر بوي (Edger Poe) «سقوط في الهاوية» (A Descent into Maelstrom) الخيالية. كان الأعراب الذين يوقدون النار للمراقبة رعاة من قبيلة شمر الكبيرة، التي أخذ كلٌّ من الإقليم والسهل والجبل أسماءها منها. لقد رحبوا بمشاركتنا لهم عشاءهم؛ وكان الطبق الجيد

من الأرز بدلاً عن السمح أو الجريش، منبئاً باقترابنا نحو نوع من المدنية.

عند فجر اليوم التالي واصلنا مسيرتنا، والتقينا إبلاً ورعاة بأعداد كبيرة إلى جانب قليل من الأغنام. قطعنا الرقعة الرملية قبل الظهر ودخلنا في بديلها من التربة الحصبائية المتماسكة. وهنا استمتعنا بوقفة الظهر وفي ظل كهف طبيعي، عبارة عن تجويف في جبل جرانيتي عال، يشكل في ذاته دفاعًا متقدمًا لجبل شمر. شمخت الآن هذه السلسلة من الجبال أمامنا، وفي مجملها كانت لاتشبه أي شيء شاهدته من قبل على الإطلاق، كتلة هائلة من الجبال شديدة الانحدار ومن الحجارة المتراكمة في عدم تناسق رائع، تتخللها أودية خضراء ومساكن. لم تكن الشمس قد غربت بعد عندما وصلنا إلى قرية قنا الجميلة وسط حدائق وآبار. وليست هناك على أية حال عيون جارية مثل تلك التي في الجوف ولكن ريّاً صناعيّاً من الآبار وبواسطة الدلاء. على بعد مسافة من المنازل برزت سلسلة من ثلاث أو أربع أشجار ظليلة، وهي موضوع تبجيل المزارعين هنا كما كان الحال في زمن مضى في فلسطين. كان ترحيب الأهالي عندما ترجلنا عند ديارهم صادقاً ومضيافًا، بل كان مؤدباً وحذراً، وبأسرع ما يمكن قدمت لنا وجبة طعام طيبة، مع طبق من العنب الطازج، في عريشة أحد المنازل الصغيرة البهيجة، ذكرني كثيراً بكوخ مزرعة في الريف الإنجليزي، حيث كان صاحب المنزل الطيب قد دعانا لقضاء الأمسية.

أبدى الجميع رغبتهم في الاستفادة من مهارتنا الطبية؛ وعندما قلنا لهم بأننا لانستطيع فتح عيادة في يسر وراحة إلا في العاصمة حائل، صرح العديد منهم بقرارهم بزيارتنا هناك، وقد أوفوا بعد ذلك بكلمتهم، على الرغم من أنها كانت على حساب رحلة أربعة وعشرين ميلاً تقريباً.

نهضنا مبكرين. وكان طريقنا، وهو مطروق ومحدد بصورة جيدة يقع بين

سلسلة من الجبال شديدة الانحدار، والتي تشمخ بشكل حاد من سهل عشبي أخضر؛ وأحيانًا يخترق معابر ضيقة، وأحيانًا أخرى ينفتح على مساحات واسعة، حيث تشاهد الأشجار والقرويين، في حين تتزايد أعداد عابري السبيل راجلين أو راكبين، فرادى أو في جماعات كلما اقتربنا أكثر من العاصمة. وقرب الظهر وصلنا قبالة قرية كبيرة تسمى اللقيطة، حيث انتحينا جانبًا لنأخذ قسطًا من الراحة من الحر الشديد، وتوجهنا إلى منزل أحد الموسرين من السكان. وكانت هناك رائحة من العصرية والأمن في ما يتعلق بالمساكن والزراعة، من النادر أن تجدها في هذه الأيام في أي جزء آخر من الجزيرة العربية، عدا عُمان. ويجوز لي أن أضيف إلى ذلك كثرة الأشجار حديثة الزراعة والبساتين المسورة حديثاً، وهو منظر بهيج، تتعزز بهجته أكثر بالغياب الكامل للمباني والآثار المهدمة، المنتشرة كثيراً في الشرق؛ ولهذا السبب فإن الانطباع العام الذي يحدثه جبل شمر بالمقارنة مع معظم المناطق والممالك الأخرى المجاورة والقريبة والبعيدة؛ هو أنه عملة معدنية سُكَّتْ حديثاً بكل أناقتها ولمعانها وسط كوم من العملات القائمة الممحوة المعالم. إنها لتكوين جديد يوضح أن الجزيرة العربية ربما تكون الآن تحت حكم أفضل من ذلك الذي تمتعت به فيما سبق من الأزمان. وهذا استنتاج مقنع؛ لأن أرض منطقة جبل شمر في الحالة الطبيعية ودون تدخل في تخصيبها لربما تكون أقل المناطق امتيازاً في وسط شبه الجزيرة بأكمله.

كنا هنا قريبين من قاعدة جبل شمر الذي ارتفعت جروفه المحمرة بأشكال غريبة عن يميننا وعن يسارنا، بينما يؤدي شقٌ ممتد إلى مستوى السهل في الأسفل إلى ممر يؤدي إلى العاصمة. إنه لمن الصعب جداً إحضار جيش عبر مثل هذا الطريق ضد رغبة السكان؛ مع ذلك فإنني مع خمسين من الرجال

الشجعان يمكننا في الحقيقة أن نصمد في هذا الممر ضد آلاف من الرجال؛ ولا يوجد أي طريق آخر نحو حائل من الجهة الشمالية. إن المدينة تقع في الوسط بين سلسلة الجبال تقريباً؛ وكانت محجوبة عنا تمامًا بسبب تعرجات الطريق وسط أكوام هائلة من الصخر. وفي الوقت نفسه فإن كامل السهل الممتد من جبة إلى حائل يأخذ بالارتفاع التدريجي، وينتهي بين سلسلة الجبال، التي يقطع اتجاهها من شمال - شرق إلى جنوب-غرب، ثلثي عالية شبه الجزيرة العربية، مشكلاً تحصيناً خارجياً لوسط نجد.

كانت الشمس لاتزال على ارتفاع ساعتين فوق الأفق الغربي عندما شققنا طريقنا في حذر عبر الممر الضيق المتعرج، إلى أن وصلنا عند طرفه الأقصى. هنا وجدنا أنفسنا عند حافة سهل كبير، مساحته أميال عدة طولاً وعرضًا، يحوط به من كل جهة تحصين محكم من الجبال العالية، بينما أمامنا مباشرةً، على مسيرة تكاد تصل إلى ربع الساعة تقع بلدة حائل محوطة بسور بارتفاع حوالي عشرين قدمًا بأبراج محصنة، بعضها مستدير والبعض الآخر مُربع، وبوابات ذوات مصاريع على مسافات متباعدة، ولها المظهر العصري نفسه الذي أدهشنا من قبل في القرى التي كانت في طريقنا. على أية حال؛ فهي بلدة متكاملة ومساحتها ربما تحتمل وجود ثلاث مئة ألف نسمة أو أكثر، لو كانت منازلها وشوارعها متراصة مثل تلك التي في بروكسل أو باريس. لكن عدد المواطنين لايزيد حقيقة على عشرين أو اثنين وعشرين ألف نسمة، نتيجة لوجود عدد كبير من البساتين الواسعة، والساحات المفتوحة والمزارع، داخل وخارج الأسوار، بينما يحتل قصر الأمير وحده، مع ملحقاته من بساتين النزهة حوالى عشر المدينة بأكملها. لفت انتباهنا برج عال، ذو ارتفاع يقارب سبعين قدمًا، مشيداً حديثاً وشكله بيضاوي، في قصر الأمير. كان السهل

حول البلدة مملوءاً بمنازل وبساتين منفردة، يملكها مواطنون أثرياء، أو أعضاء من العائلة الحاكمة، وعند الطرف القصي للسهل كانت تظهر بساتين قفار، والعدوة والقرى الأخرى الواقعة عند مداخل الممرات الجبلية التي توصل إلى العاصمة. وكانت مباني وأسوار البلدة تلمع مصفرة مع شفق المغيب، وكان المشهد بأكمله ينم عن الطمأنينة الراسخة، وهو مبهج للنظر، على الرغم من أنه يفتقر إلى الخضرة الوافرة في وادي الجوف. وكانت بيوت شعر قليلة من بيوت البدو منصوبة قرب الأسوار، وأضفى منظر الأعداد الغفيرة لراكبي الخيل والراجلين والجمال والحمير والفلاحين ورجال البلدة، والصبية والنساء وغيرهم، بين راحٍ وغاد، في أعمالهم ومهنهم المختلفة؛ بهجة وحيوية للمشهد.

قطعنا السهل وتوجهنا إلى بوابة البلدة المقابلة للقصر؛ ومن ثم دون أدنى مشقة سرنا على ظهور رواحلنا لنقطع الشارع ذا الأسوار العالية، إلى أن وصلنا في النهاية إلى الساحة المفتوحة أمام القصر. كان وصولنا قبل ساعة من الزمن أو أكثر بقليل، من مغيب الشمس، وكانت الأعمال في البلدة قد انتهت، فتجمع حيث كنا نقف جمع كبير من العاطلين من جميع الأشكال والأحجام. أنخنا رواحلنا قرب بوابة القصر، إلى جانب أربعين أو خمسين آخرين، ثم جلسنا لنريح أعضاءنا على دكة حجرية مقابل المدخل، وانتظرنا الذي سيحدث لنا .

لكن قبل أن نتحقق من المثل العربي الذي يربط بين سوء الطالع وحوادث الليل، دعونا نلقي نظرة عابرة على هذا المشهد الغريب، الغريب بالنسبة للأجنبي ولكنه في توافق تام مع عبقرية البلاد وشعبها. أمامنا كانت الجدران الطينية للقصر المرتفعة حوالي ثلاثين قدماً، و الهائلة السماكة، والمثقوبة قرب

قـمتها بكوات، والممتدة نحو الاربع مئة وخمسين إلى الخمس مئة قدم في طولها. والبوابة الرئيسية، مقامة وفقًا لتقاليد البناء المتعارف عليها، في زاوية منخفضة من الجدران، و مجنحة بأبراج مربعة عالية؛ مع نتوءات بناء شبه دائرية متباعدة توجد على طول الواجهة الأمامية. وتحت ظل الجدار مباشرة توجد دكة أومصطبة من الطين والحجارة؛ ولاحظنا أن في وسطها نوعًا من العرش أو المقعد المرتفع، المخصص للأمير حينما يعقد مجلسه العام. ويوجد قصر متعب، الشقيق الثاني للأمير، ضمن هذا المجمع الضخم، ولكن له مدخله المنفصل الخاص.

على الجانب الآخر من الساحة المفتوحة، أي حيث مكان جلوسنا الآن يوجد صف طويل من المخازن والشقق الصغيرة محكمة القفل. وفيها تخزن السلع المملوكة للحكومة، وفيها أيضًا، يضيف طلال ضيوفه، حسب القاعدة المتبعة ؛ لأنه لايسمح مطلقاً لأي غريب أيًا كان بأن يبيت داخل جدران القصر. في الاتجاه نفسه، ولكن بعيدًا عن الساحة، ومقابل مقر متعب يوجد المسجد الكبير، أو الجامع. وعند زاوية المسجد تنفتح الساحة على السوق الجديد، الذي سنزوره غدًا. في الجانب الآخر من هذه الساحة المفتوحة، ولكن في اتجاه الجامع نفسه، يقع منزل زامل الكبير الفخم. وزامل هو رئيس الخزانة ورئيس الوزراء أيضًا وذاك ترتيب يسهل على الأقل دفع الرواتب الحكومية، وهو ميزة إيجابية في دول العرب الفقيرة. وأخيرًا توجد بوابة طويلة في نهاية الساحة تسمح بالدخول إلى شارع عمومي كبير يتقاطع هنا في زوايا قائمة، ويؤدي إلى باقي البلدة بكامله.

وعند الطرف القصي لهذه الساحة الواسعة يوجد شارع واسع آخر، يتصل بالبوابة الثانية التي مررنا عبرها منذ قليل، يؤدي بعدها إلى السهل. وباتجاه

ذلك الطرف من الساحة، ومقابل القصر نفسه توجد مساكن لاثنين أو ثلاثة من الضباط الرئيسيين من ضباط الأمير ؛ وأخيرًا يوجد باب منخفض، وهو متواضع بكل المقاييس، يؤدي إلى مدخل المنزل و البساتين الواسعة لعبيد، عم الملك الحالي، وهو شخصية مهمة جداً، وقد سبق ذكره سابقًا لمناسبة الحديث عن حملته العسكرية الأولى إلى الجوف، وسأكتفي الآن بهذا الحديث عنه إذ سيصبح في النهاية من المعارف الشخصيين الحميمين.

كان العديد من رجال الأمير موجودين حول المدخل، بعضهم واقف وبعضهم جالسٌ على دكة عند المدخل. كان هؤلاء الرجال أنيقين، بثياب بيضاء وعباءات سوداء نظيفة، ويحملون عصيًا طويلة ذوات أطراف فضية، وهذا الملبس يميز العاملين في خدمة القصر بين الحضور؛ ولكن العدد الأكبر منهم كان ممن له طبيعة عسكرية إذ كانوا يتمنطقون بسيوف ذات مقابض فضية. وكانت الدكك الملتصقة بأحد جوانب القصر وعلى الجانب الآخر ممتلئة بحشد من علية القوم من المواطنين، قادمين من متاجرهم أو منازلهم ليستطلعوا الأخبار ويتجاذبون أطراف الحديث حوله، ويستمتعوا بنسيم المساء. القليل منهم، من غير أولئك أصحاب المكانة الرفيعة، كان يحمل السلاح، ولكن مظهرهم العام كان ينم عن اللياقة في كل شيء. وكان بعض من كانوا في ملابس عادية يحمل نظرةً غريبة متزمتة، لابد أنهم من نجد؛ وفي المقابل تشير النظرة الأقل قليلاً في الالتزام من تلك النظرة المتزمتة إلى من هو من القصيم. وفي وسط الساحة نفسها، أو جلوسًا وسط المواطنين أنيقي الملبس، كان هناك عددٌ غير قليل من ذوي الثياب غير النظيفة والملامح الفظة التي تتحدث عن طبيعة مهنهم أو على الأقل فقراء، والجميع يجلسون في إخاء عربي أصيل ومساواة. اختلط بعض البدو مع الباقين، ويمكن التعرف إليهم

في الحال بأسمالهم المهترئة وبوضعهم المتذلل. وكان من الحضور هنا بعض البدو من الشرارات، و من الصلبة؛ بينما شمر وهم متصلون بعلاقات قربى للعديد من سكان البلدة، ونوعًا ما أكثر تهذيباً لاتصالهم المستمر مع العالم المتحضر، فقد يعدّون الأرفع مكانة من بين البدو الموجودين.

عند وصولنا حدث شيء من الهرج والمرج. أُلقي السلام المعتاد ورد من أقرب الموجودين؛ و تقدمت زمرة من الفضوليين لترى من وما نحن، وتضاعف العدد في وقت وجيز ليصبح حلقة كثيفة. أُلقي العديد من الأسئلة، أولاً على دليلنا جديع، وثانيًا علينا؛ وكانت إجاباتنا مقتضبة بقدر محتمل. في هذه الأثناء تقدم نحونا شخص نحيل ذو حجم متوسط، يعكس محياه تحضراً باسمًا ولباقةً دقيقةً تتلاءم مع وظيفته في البلاط. كان ملبسه النظيف البسيط، وعصاه الطويلة المحلاة بالفضة في يده، تحيته المحترمة، وسلوكه المهذب، كانت جميعها تشير إلى أنه واحد من حاشية القصر. لقد كان سيف ياور البلاط، المسؤول عن الاستقبال وتقديم الغرباء. وقفنا لاستقباله، وحيانا بلباقة: «السلام عليكم أيها الإخوة» بلغة مكتملة في نحوها وصرفها بأسلوب يرتاح إليه أكثر علماء البلاغة تدقيقًا؛ رددنا التحية بمثلها. «من أين حضراتكم رعاكم الله!؟» كان أول الأسئلة. بالطبع قدمنا أنفسناعلى أننا أطباء من سورية ولأننا كنا قد بعنا أكثر بضاعتنا فى الجوف فقد عزمنا ممارسة الطب وحده. قال سيف: "وماذا تريدون هنا في بلدتنا، نسأل الله لكم التوفيق؟ "، فأجبناه بأسلوب يتوافق مع أساليبهم وصيغ التعبير السائدة في منطقتهم والتي التقطناها مسبقاً "إننا نرجو الفضل من الله العلي العظيم، ثم من الأمير طلال". وعندها بدأ سيف بلطف، وكأنه ملزم بحكم الواجب، في مدح كرم سيده، وصفاته الأخرى الممتازة، ومؤكداً لنا بأننا قد وصلنا إلى المكان الصحيح.

لكن وا حسرتاه! إذ بينما كنت ورفيقي نتبادل النظرات الجانبية للتهنئة المتبادلة لمثل تلك البدايات المعقولة، استيقظت «نيميسس» [آلهة الانتقام عند الإغريق] لتطالب بدينها المستحق، وفي الحال تلبد الود في أفقنا بسحابة غير مريحة، ولم تكن متوقعة. ربما يكون قراؤنا قد أدركوا مسبقًا بأنه ما من شيء أكثر أهمية بالنسبة لنا من أن نسافر متخفين، وفوق كل شيء ألا يبدو منا أي شيء مما يعدّ أوروبي الأصل والصفة. فبمجرد التعرف إلينا بوصفنا أوروبيين، فإن جميع المداخل الحميمة ومصداقية التعامل مع مواطني هذا البلد ستذهب بلا عودة، وتقدمنا في رحلتنا إلى نجد سوف يضحي مستحيلاً. وهذه لو حدثت لكانت أقل ما يصيبنا نتيجة للكشف عن هويتنا، ولكن أشياء أكبر قد تحدث. وحتى تلك اللحظة لم يحدث أي شيء من شأنه أن يثير الشبهة بشكل خطير، إذ لا أحد قد تعرف إلينا أو تظاهر بالتعرف إلينا. ونحن أيضًا من جانبنا كنا نظن أن غزة ومعان وربما الجوف هي المحلات الوحيدة التي قد يخشى المرء فيها من هذا النوع من انكشاف الهوية. ولكننا لم نظن أن أول الأخطار الحقيقية ستكون في حائل، داخل حدود نجد، وبوجود الحزام الصحراوى الفاصل بيننا وبين معارفنا القدامى.

وبينما كان سيف يقوم بإجراءاته التمهيدية اللطيفة، رأيتُ ما أثار روعي حيث كان هناك شخص وسط دائرة الحاضرين، وجهاً معروفاً لي، على الأقل منذ ستة أشهر، في دمشق، وهو معروفٌ عند الكثيرين أيضًا، فهو مرة بائعًا، ومرة أخرى تاجرًا، ومرة متعهد بريد، داهية، ومغامر مقدام، ونشط على الرغم من عمره الذي يناهز الخمسين عامًا، وهو صديق حميم للعديد من الأوروبيين ذوي المكانة المرموقة في سورية وبغداد؛ إنه باختصار معتاد على معرفة جميع أصناف الرجال، ولا يمكن لأحد أن يؤثر عليه بأي شكل من

الأشكال.

بينما حدقت لا إرادياً إلى صديقي في فزع، مع أنني مازلت أشك بأنه هو، تبدد الشك بتحيته المرحة لنا، وبطريقة تنم عن معرفة قديمة، أعقبها استفسار بتعجب عن الريح التي جاءت بي إلى هنا، وماذا أنوي فعله في حائل.

وإذ كنت سأتمنى له الخير من كل قلبي - في وضع آخر، لم يكن بإمكاني إلا أن أرد تحيته وكأنني لا أعرفه، ومن ثم لذت بالصمت.

لكن المصائب لا يأتين فرادى، فبينما كنت في هذا الوضع بموقفي الدفاعي ضد الخطر الجاثم المتمثل في هذا الصديق، ياللهول! إذا بشخص طويل القامة ذي ملامح شريرة مشئومة يتجه نحوي مرتدياً لباس أهل القصيم ويقتحم علينا الوضع قائلاً: "وأنا أيضاً قد شاهدته في دمشق" ذاكراً في الوقت نفسه اسم المكان وتاريخ اللقاء محدداً بدقة ظروف اللقاء لتبين أنني أوروبي حقيقي.

هل ياترى كان قد قابلني حقيقة كما ذكر؟ لايمكنني الإقرار بذلك؛ حيث إن المكان الذي ذكره كان أحد الأماكن التي يرتادها باستمرار الرجال الموجودون هناك، نصفهم من الجواسيس، ونصفهم من الرحالة، وكل المتآمرين من المناطق الداخلية، بل حتى من نجد نفسها؛ وحيث إنني شخصياً قد زرت المكان أكثر من مرة، ومن المحتمل جداً أن يكون محدثي الفضولي حاضراً في إحدى تلك المناسبات. وحتى لو أنني لم أتعرف إليه، فإن هناك احتمالاً قوياً بصدق قوله ولكنه جاء في توقيت سيء، الشيء الذي يضعني في مأزق خطير، بل أسوأ من ذلك.

ولكن قبل أن أجهز إجابة أو أقرر أي موقف يجب عليّ أن أتمسك به، تقدم ثالث، والذي بتدخله القوي، وضع الكرة في أيدينا، وضمن لنا الفوز. حياني هذا الرجل أيضاً كصديق قديم، ومن ثم التفت إلى أولئك الذين من

حولنا، وبنغمة صوت غير عادية تنم عن الدهشة والفضول قائلاً: «وأنا كذلك أعرفه جيدًا، لقد التقيت به مراراً في القاهرة حيث يعيش عيشة رغدة في منزل كبير بالقرب من القصر العيني واسمه عبد الصليب؛ وهو متزوج، وله ابنة جميلة جداً، وتركب حصانًا غالي الثمن، إلخ، . . إلخ».

ما قاله هذا الأخير كان افتراءً أو خطأ محضاً (إذ إنني لا أدري أيهما) تطلب إنكاراً صريحًا فقلت: «أصلحك الله، فأنا لم يسبق لي أن عشت في القاهرة على الإطلاق، ولم أحظ ببركة أي بنات شابات يركبن الخيل». ثم قلت محدقًا بتركيز إلى مكتشفي الثاني الذي كان يحق لي أن أشك فيه: «لا أذكر أنني قد رأيتك على الإطلاق؛ فكر جيدًا في ما تقول؛ إن هناك العديد من الرجال سواي ممن لديهم لحية حمراء، وشارب في لون القصب» محاولاً جهدي على أية حال لكي لا أبدو حريصًا على الإجابة عليه بمثل هذه الطريقة، ولكن لكي أبدو وكأني فقط أتساءل عن الهوية بالتحديد. أما بالنسبة لأول الثلاثة فلم أكن أعرف ماذا أنا فاعل أو بماذا أجيب، لذلك استمريت في التحديق إليه بمظهر قاتل من البلاهة الفضولية، وكأنني لا أفهم تمامًا مايعنيه.

لكن سيفاً على الرغم من أنه شخصياً قد تردد نوعًا ما للوهلة الأولى بهذا السيل المفاجىء من العارفين، قد اطمئن الآن بعد حالة الارتباك للشاهد الثالث ووصل إلى الخاتمة المريحة بأن الاثنين الآخرين ليسوا أجدر بالتصديق. «لاتهتموا لهم» صاح موجهًا الحديث إلينا «إنهم كاذبون ثرثارون، مجرد مثيري شائعات؛ دعوهم وشأنهم، فإنهم لايستحقون الاهتمام؛ تعالوا معي إلى القهوة في القصر، واستريحوا». ثم التفت إلى صديقي الدمشقي المسكين، الذي كان خطأه الوحيد أنه كان مفرطًا في الصواب، فوبخه بحدة، ثم وبخ الآخرين، وقادنا، ونحن فرحين خلفه، عبر المدخل الضيق المظلم إلى داخل

المقر الأميري.

بعد المرور بين صفوف من حملة العصي والسيوف، عرباً وزنوجاً دخلنا إلى فناء صغير، حيث كانت مدافع طلال المرعبة مصفوفة تحت مظلة، كان مجموعها تسع قطع، ذات أعيرة مختلفة، أربعة فقط منها مركبة على عربات المدافع، وثلاثة فقط من بين الأربعة هي العاملة. من بين هذا العدد الأخير كان هناك مدفعا هاون كبيران، وهما اللذان أدّيا دورًا مهمّاً في حصار الجوف. كان الثالث قطعة نحاسية ميدانية طويلة منقوش عليها التاريخ ١٨١٠ مع الحرفين الإنجليزيين «G . R». وكانت البقية معطوبة بطريقة أو بأخرى وغير قابلة للعمل، ولكن تلك كانت حقيقة غير معروفة للعرب من حولهم، وربما لطلال نفسه؛ ويبدو أن كل هذه القطع التسع لها الأثر نفسه في إثارة الرهبة في عقول الناس. وبعض هذه المدافع كان قد حصل عليه الأمير عبدالله والد الأمير طلال وسلفه، والجزء الآخر منها حصل عليه طلال بواسطة وكلائه في الكويت على الخليج الفارسي [العربي]، وهي مدينة صغيرة مزدهرة.

قطعنا هذا الفناء، ودخلنا آخر، وكان أحد جوانبه يشكل مساكن الحريم، المفصولة بجدار عال، وتشكل الجانب الآخر القهوة أو مجلس الضيوف. وهذه القاعة كانت حوالى ثمانين قدمًا طولاً وثلاثين قدمًا أو أكثر عرضاً، وذات ارتفاع متناسب؛ وترتكز دعامات السقف المسطح على ستة أعمدة مستديرة كبيرة في صف واحد وسط القاعة. وكانت بكل وضوح حديثة البناء، جيدة الإضاءة ونظيفة ومرتبة بشكل ممتاز. وكان وجار القهوة ذا أبعاد متناسبة مع أبعاد القاعة. وإلى جانب الوجار كان يجلس زنجي قوي، هبَّ واقفًا عند اقترابنا. وكان هناك عدد قليل من الضيوف من الأقاليم المجاورة، وبعض خدم البلاط. كان هناك اثنان من الرجال الذين تم تقييد أقدامهم

بحلقات ثقيلة من الحديد يجرجران أقدامهما حول القهوة. لقد كانا سجيني دولة، حكم عليهما الأمير بالسجن، ولكن كان يسمح لهما بدخول القهوة لتجديد نشاطهما العقلي والجسدي؛ وهذا نموذج غريب لإنسانية الشخصية العربية، حتى في توقيع العقوبة. ولنا أن نتخيل ما الذي سيثيره ظهور سجين ثائر في صالونات تيوليريز أو قصر باكنجهام من دهشة للحضور في البلاط! أحد هذين الرجلين كان شيخاً من شيوخ الجوف أحضره طلال معه عند استيلائه على ذلك الإقليم، ولم يتم الإفراج عنه بعد، وليس من المحتمل أن يتم ذلك سريعاً. ولكن لا يبدو من مظهرهما أنهما في حالة بائسة.

بقينا في مجلس القهوة، حيث عملت القهوة وقدمت لنا. وعندها عاد سيف الذي كان قد غادرنا لفترة قصيرة ليقول لنا إن طلالاً سيعود خلال وقت قصير من نزهة في أحد البساتين، حيث كان يستمتع بالهواء الطلق، وإننا اذا ما خرجنا إلى الساحة الخارجية، فإننا سنجد الفرصة للسلام عليه عند عودته وتقديم أنفسنا. أضاف أيضًا بأننا سنجد فيما بعد عشاءنا جاهزًا وكذلك مكانًا جيّدًا لنبيت فيه تلك الليلة، وإن مجلس القهوة سيكون تحت تصرفنا في جميع الأوقات مادمنا شرفنا حائل بوجودنا فيها.

بناءً على ذلك نهضنا وعدنا مع سيف إلى الساحة الخارجية، لقد كانت ممتلئة بحشد أكثر من ذي قبل، لمناسبة الظهور المتوقع للأمير. بعد ذلك بدقائق قليلة شاهدنا مجموعة من الناس تتقدم من الطرف العلوي للمكان، أعني ذلك الطرف الذي باتجاه السوق. عندما اقترب القادمون الجدد رأينا أنهم من الرجال المدججين بالسلاح مع بعض المواطنين الذين يبدون أنهم من أصحاب المقامات الرفيعة، وكانوا جميعاً سائرين على الأقدام. في منتصف الدائرة على الرغم من أنهم منفصلون عمن حولهم، تقدم ببطء ثلاثة من الشخصيات

البارزة، وكانت ملابسهم ومشيتهم بالإضافة إلى المسافة التي احتفظ بها الآخرون خلفهم احترامًا تظهر مكانتهم الرفيعة. "هاهو طلال قادمٌ" قالها سيف في صوت خفيض.

كان الشخص الأوسط بين الثلاثة في حقيقة الأمر هو الأمير نفسه. قصير القوام، عريض المنكبين، قوي البنية، داكن البشرة كثيراً، مع شعر أسود طويل، وعينان سوداوان حادتان، وسيماء قاسية أكثر منها متسامحة. وكان يبدو فوق الأربعين عامًا من العمر، على الرغم من أنه في واقع الأمر في حوالى السابعة والثلاثين أو الثمانية والثلاثين على الأكثر. كانت خطواته محسوبة، وسلوكه رزيناً ونوعًا ما متغطرس. كان يرتدي رداءً طويلاً من الشال الكشميري يغطي الثوب العربي الأبيض، وفوق ذلك كان يرتدى عباءة دقيقة الصنع من وبر الإبل العمانية، وهو نادر جدًا وذو قيمة عالية في هذا الجزء من الجزيرة العربية. كان يزين رأسه منديل مطرز مملوء بغزارة بخيوط مذهبة من الحرير، وفوقها عصابة عريضة من وبر الجمال مضفرةٌ بالحرير الأحمر، مصنعة في مشهد علي [النجف]. وكان يتدلى إلى جانبه سيف ذهبي، وكانت ملابسه معطرةً بالمسك لدرجة يستسيغها الأنف العربي أكثر من الأوروبي. لم تكن نظراته تثبت للحظة؛ فهي تارةً موجهةٌ إلى مرافقيه القريبين، وتارة أخرى نحو الجمع المحتشد؛ و نادراً ماشاهدت «عين صقر» حقيقية بهذه السرعة والبريق. إلى جانبه كان يسير شخص نحيف طويل يرتدي ثوبًا أقل تكلفة في مادته نوعًا ما، ولكنه ذو ألوان أبهج وأجمل تطريزاً من تلك التي يرتديها الأمير نفسه. كان وجهه ينم عن ذكاء غير عادي، وأدب جم؛ لم يكن سيفه على أية حال، موشّحًا بالذهب، إذ إن ذلك قصرٌ على العائلة المالكة، ولكنه كان مُحلى بالفضة فقط.

كان ذاك هو زامل أمين الخزانة ورئيس الوزراء ـ الوزير الوحيد ـ، حقاً، للحاكم المُطلق. كان زامل يتيماً وفقيراً، رفعه من العدم عبدالله الملك السابق، الذي رأى فيه إشارات لقدرة نادرة، وبقي يرعاه حتى وفاته. وبعد وفاة عبدالله حافظ زامل على الأهمية نفسها أو حتى أكثر عند طلال، الذي صار يرقيه من منصب إلى آخر إلى أن شغل في النهاية أعلى منصب في المملكة بعد الملك نفسه. لقد جعله إخلاصه لسيده، و أصله العامي الذي أبعد عنه غيرة العائلات المنافسة، وطبعه الودي والهادئ الذي جعله محبوبًا جداً خارج القصر، وبالمثل عزيزاً عند سيده داخل القصر. كما أن تأديته لأعماله بذهن حاضر ولكن هادئ، والخدمات التي يؤديها للدولة في وظيفته المزدوجة، تجعله مستحقاً في رأي الجميع للثروة الشخصية، التي ينثرها بكرم وسخاء.

لن نذكر شيئاً في الوقت الحاضر عن عبد المحسن المبتسم باحتشام، الرفيق الثاني للملك في نزهته المسائية؛ إذ إنه خلال وقت قصير سيكون من معارفنا وصديقاً حميماً.

هَبَّ الجميع وقوفًا حينما اقترب طلال، وأشار علينا سيف باتباعه، وشق طريقه وسط الجمع، وحيا مليكه بالصيغة المعمول بها: «الله يسلمك يالمحفوظ!» وألقى طلال في الحال نظرة ثاقبة نحونا، ووجه سؤالاً في صوت خفيض إلى سيف، الذي كانت إجابته في درجة الصوت نفسها.

نظر الأمير بعدها نحونا، ولكن بتعبير أكثر وداً على وجهه. تقدمنا وصافحنا يده الممتدة، مرددين التحية نفسها التي استخدمها سيف. لا انحناءة أو تقبيل للأيدي، أو أي نوع آخر من المراسم، مألوف في مثل هذه المناسبات. رد طلال تحيتنا، ودون أي كلمة إضافية إلينا، همس للحظة في أذن سيف وواصل مروره عبر بوابة القصر.

" قال سيف : " سوف يستقبلكم في مقابلة خاصة غداً وسأعلمكم في الوقت المناسب عن موعدها ؛ والآن تعالوا إلى العشاء " . كانت الشمس قد غربت حينما دخلنا القصر ثانيةً. هذه المرة ، بعد مرورنا بترسانة الأسلحة دلفنا جانبًا إلى رواق مربع كبير ، متميز عن سابقه ، ومحوط بفرندة مفتوحة مفروشة بالحصير. وكانت نعامتان كبيرتان ،كان أحد شيوخ قبيلة الصلبة قدمهما هديةً لطلال ، تتبختران حول السور ، ويلهو معها الأولاد من الزنوج وعمال مطبخ القصر . قادنا سيف إلى الجانب القصي من الرواق ، حيث جلسنا .

وأحضر بعض العبيد العشاء في الحال ، وكان كالعادة ، طبقاً كبيراً من الأرز واللحم المسلوق ، مع بعض قطع الخبز غير المخمر ، والبلح ، وبصل صغير مع قرع مُقطع ممزوج معه . كان الطبخ أفضل مما قد تذوقناه حتى الآن . لقد تناولنا وجبةً دسمةً ، وشربنا القهوة في مجلس القهوة ثم عدنا لنجلس للحظة ندخن الغليون في الهواء الطلق . لا أحتاج إلى ذكر روعة أمسيات الصيف ، وبرودة النسيم ، والسماء الصافية في هذه الأقاليم الجبلية .

عمل سيف من جانبه على تجهيز نُزلنا الليلي ، ويأمر منه ، تم إفراغ أحد المخازن وكنسه وتنظيفه ، وفرشه بالحصير لاستقبالنا . إن قرائي ، كما يجوز لي أن أعتقد ، مطلعون بما فيه الكفاية ، على العادات الشرقية ، ليعلموا أنه لا كراسي أو طاولات ، ولا صنبوراً أو أحواض لغسل الوجه يمكن توقع وجودها . دخلنا إلى مهجعنا ، وأغلقنا الباب الخارجي ؛ ومن ثم دخلنا في مناقشة عميقة عما يلزم عمله في الفترة التالية ؛ واصلين في النهاية إلى أفضل خاتمة بعد رحلة طويلة ، وهي نوم طويل وعميق .

و الآن بدلاً من أن نقوم بسرد أحلامنا ، قد يكون من المستحسن أن نلبي

فضول أولئك الذين يرغبون في معرفة ما إذا كانت لنا لقاءات لاحقة مع أصدقائنا غير المرحب بهم من الشمال، الذين زعموا معرفتهم بي، كما ذكرت آنفاً، وماذا كانت تتمة قصتهم. كان أولهم وأصدقهم، التاجر - متعهد البريد -، في حيرة شديدة من الأمر، من برودة ردنا عليه وبالتالي من التوبيخ الذى تلقاه من سيف ومن الآخرين، لدرجة أنه انتهى للشك في عينيه ذاتهما، واستنتج بأنه لابد ارتكب خطأً غريبًا من نوعه في ما يتعلق بشخصيتنا، أو ربما حتى بشخصيته هو نفسه؛ لأنه في اليوم الثالث عندما تقابلنا ثانية في الشارع، بدأ يتحدث معنا مرتبكاً وأخذ يعتذر بتذلل عن سلوكه السابق، لدرجة أننى شعرت بميل من دافع الشفقة البحتة أن أريح ذهنه المضطرب، وأن أقول «لاخطأ على الإطلاق ياصديقى القديم، لقد كنت محقّاً فيما ذهبت إليه». ولكن التعقل والحكمة لايسمحان بمثل هذه العاطفة؛ علاوة على أن تراجعه واعتذاره العلني قد أحدث أفضل أثر يمكن تصوره على أولئك الحاضرين؛ لذلك تركته لاعتذاراته، التي ربما أنه ما يزال يشعر بها. في صباح اليوم التالي غادر حائل؛ ولم أشاهده منذ ذلك الحين في أي مكان آخر.

أما بالنسبة للرجل القصيمي [من القصيم]، فقد كانت إقامته في هذه العاصمة أقصر، حيث شوهد في اليوم التالي متوجهًا إلى بلده، كما أننا لم نشاهده ثانية، وهكذا فإن روايته، حقيقة أم لا، لم يتبق لها أثر.

وفيما يتعلق بالثالث الذي تكرم بالمساعدة بوصفي ووصف منزلي وعائلتي فإنه كان من أهل حائل نفسها، ولذلك كانت لنا مقابلات متكررة خلال الأسابيع التالية. ولكنه في النهاية تخلى عن ادعاءاته غير المؤسسة، وأعلن أمام الجميع بأنه قد أخطأ، وهكذا مرت السحابة الثلاثية المشبعة بالشك والخطر عابرة دون عواقب سيئة، على الأقل ذات طبيعة مباشرة. لكن شمس

مخطط حائل كما رسمه بلغريف

١- قصر طلال.
٢- قصر متعب.
٣- ساحة أمامية.
٤- قصر عبيد.
٥- المسجد العام.
٦- السوق.
٧- منزل زامل.
٨- بساتين القصر.
٩- شارع مرتفع.
١٠- الساحة المركزية.
١١- منزل عبد المحسن.
١٢- الحي القديم للبلدة.
١٣- حي آخر من أحياء البلدة.
١٤- منزل دحيم.
١٥- منزل Dohey.
١٦- بساتين داخل الأسوار.
١٧- منزل عجيل.
١٨- بساتين وحي ثالث من أحياء البلدة القديمة
١٩- حي جديد.
٢٠- بوابة طريق الجوف.
٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩ بوابات أخرى.
٣٠- منزلنا.
٣١- القهوة ومكان عقد الجلسة الصباحية الأولى للأمير.



الغد قد أشرقت، ولا بد لنا أن ننهض معها.

كان بابنا مغلقًا، عندما أنبأت قرعات خفيفة عن مقدم زائر، فتح رفيقي الترباس مع كلمة «سم» التي تعني في مثل هذه المناسبات «ادخل».

إنه عبدالمحسن نفسه الذي كنا قد شاهدناه في الليلة السابقة برفقة طلال. ودخل بمحيا يقول: «آمل أن لا أكون قد أزعجتكم» وبدأ بالاعتذار لدخوله علينا مبكرًا، مستفسرًا عن صحتنا، وواثقًا أننا لابد وأن نكون قد استرحنا من عناء رحلتنا؛ وبأدب جم، دون أي مبالغة أو تصنع مطلقًا، لايقل عن ما يمكن لنبيل فرنسي من المدرسة القديمة أن يعرضه على ضيوفه الذين وصلوا توًا إلى قصره. ثم بدأ يسأل عن رحلتنا إلى هنا، وعما إذا كنا خائفين في الطريق، وتطرق إلى خشونة أخلاق البدو وسوء تربيتهم، وحرارة الصحراء. بعد ذلك أظهر رغبة كبيرة في تعلم الطب، مضيفًا إلى أنه ليس جاهلاً تمامًا بتلك المهنة، ثم وجه محادثته بكاملها لكي نشعر بأننا في بيتنا حقًا، وليستنتج منا هدف زيارتنا إلى حائل، ومن نكون في الحقيقة.

كان مظهره بلا شك في صالحه كثيرًا، فقد كان يوحي بالثقة وحتى الألفة. لم يكن بالقطع تحت الخمسين من العمر، ولكنه كان قد حمل سنينه بصورة جيدة، بشرته توازي في الوسامة تلك التي لمعظم الإيطاليين، عيناه واسعتان تنمان عن ذكاء، وملامحه طبيعية؛ لابد أنه كان في شبابه وسيمًا للغاية. كان نحيل البدن ومنحنيًا قليلاً بتقدم السن؛ وكانت ملابسه أنيقة جدًا على الرغم من أنها غير مزركشة ومزينة، وعصا عادية في يده تدل على أنه رجل مدني؛ باختصار كان له هيئة عالم أو أديب قصر، ربما مؤلف، وبالقطع نبيلاً. كانت ابتسامته حذرة غير كاملة، بسبب طابع المجاملة للزيارة الأولى، ولكنها أظهرته بأنه إنسان مرح، لطفته التعابير الجدية لجبهته العريضة، ونظراته

المعبرة.

هكذا كان عبدالمحسن [بن محمد بن عبد الله آل أبي عليان]، الصديق الحميم والرفيق الملازم للأمير. وهو ينتمي إلى عائلة العليان العريقة النبيلة، شيوخ بلدة ومقاطعة بريدة في القصيم. هناك كان قد تمتع فيما مضى بثقة مواطنيه، وبنعمة التبعية لخورشيد باشا الحاكم المصري، خلال الفترة التي كان الأخير يسيطر فيها على القصيم [١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م - ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠]، قبل إعادة ترسيخ حكم الوهابيين فيها. بعدها تفادى عبدالمحسن أي دور علني في الشؤون السياسية، وكرس نفسه فى الظاهر للأدب والمجتمع، ولكنه في حقيقة الأمر كان أكبر المتآمرين في المقاطعة، ووجه جميع مؤامرات أقاربه لكي يحرر بلاده من الاحتلال الأجنبي. ولكن بعد أعوام قليلة تالية وعندما اكتشف عبدالمحسن أن فيصل[بن تركي] كان قد تعاون فقط في تحريرهم من الطغيان المصري، لكي يخضعهم لطغيانه الخاص، نشط من جديد، وصار الوكيل السري لعائلته القوية في معارضة تقدم نفوذ الوهابيين وحكمهم. وأخيراً جاء القضاء على عائلة العليان، الذي اكتمل بأسوأ أعمال الغدر التي لطخت سجلات تاريخ وسط الجزيرة العربية. نجا عبدالمحسن من المجزرة التي قضت على معظم أقاربه، ولكنه حرم من الحماية التي تلت المجزرة مباشرة، واضطر للهرب لينجو بحياته. وبعد بضعة أشهر من التخفي في ضواحي المنطقة، وحينما وجد أنه لا أمل قد تبقى له في موطنه، لجأ إلى طلال، وقد عاش حتى الآن حوالى عشر سنوات في قصر أمير شمر، أولاً ضيفاً، ثم صديقاً، ومقرباً، مرحباً به في لحظات الاسترخاء بسبب مرحه وأناقته الطبيعية، ومعرفته الواسعة تاريخ العرب ونوادرهم؛ ولكن قيمته مثمنة أكثر في الأوقات العصيبة لنصائحه المتسمة بالدهاء، ورأيه الحكيم. عندما كنا في

طريق عـودتنا إلى بلدنا بعـد سنة لاحقًا، قـمت ورفـيقي بتزجـيـة السـاعـات الطويلة على ظهور الخيل في سهول المُوصل ومرتفعات أورفة بإعادة شـريط أحداث رحلتنا في الجزيرة العـربية وكنا مجـمعين على أنه من غزة إلى رأس الحد [في عُـمـان] لـم نلتق بأي أحد أرفع ، أو ربما يعـادل، في المواهب الفطرية والذكاء المصقول ما لعبدالمحسن العليان.

حال دخوله في المحادثة معنا خمنا، وكنا مصيبين في تخميننا، بأنه مرسل من طلال تمهيداً للمقابلة المحددة معه بعد ساعات قليلة . لذلك كنا متيقظين حـذرين وتمسكنا بدأب على أننا من دمـشـق، سـورية، ونعـمل في المجـال الطبي. وحول أي موضوع آخر بدأه صديقنا بينما كان يراوغ ويلف ويدور في الحديث كنا نعطي إجابات مرتجلة، لكي نحدث انطباعات بأن تلك الأشياء لاتهـمنا، وعن بعض الأسئلة حـول مصر، وحـتى عن أوروبا، كنا نتـصنع الجهل وعدم الاهتمام.

في الوقت نفسه جاءت فرصتنا في ذلك الحوار لمعرفة كل شيء ممُكن عن طلال، ووضعه الحقيقي، لا سيما علاقته بالعائلة المالكة الوهابية [آل سعود]، وطريقته في الحكم. كانت أجوبة عبدالمحسن بالطبع حذرةً، وواعية؛ ومع ذلك استطعنا في هذا الصباح بالذات أن نكتشف كثيراً مما كنا نجهله في السابق.

أقدِّم هنا ملخصًا لما علمنا به آنذاك من زائرنا الودود مع ما أمدتنا به الأسابيع اللاحقة من معلومات أكثر تكاملاً، إن حدود كتابنا تسمح فقط باستعراض نماذج قليلة من التاريخ العربي كما رواها العرب.

إن هذه المنطقة، شأنها في ذلك شأن بقية شبه الجزيرة العربية قد خضعت للطغيان قصير الأجل للإمبراطورية الوهابية الأولى عند بداية القرن الحالي [التاسع عشر الميلادي]، ومثل العديد من المناطق الأخرى تأثرت به مرحليّاً

فقط. فقد خمدت العاصفة في وقت قصير، وتركت الأمور إلى حد كبير كما كانت عليه من قبل. في هذه الفترة كان يُنظر إلى مدينة حائل بصورة ما على اعتبار أنها العاصمة لجبل شمر، وهو تميز يعزى جزئياً إلى مساحتها الكبيرة جداً وإلى مواردها، وجزئياً إلى موقعها الوسطي، ومع ذلك فإن زعماءها لم يكونوا يستطيعون فرض سلطتهم إلى مسافة أبعد من أسوار البلدة، على الأقل بشكل مستمر. كانت السلطة العليا للحُكم في أيدي عائلة العلي وهم من أهل البلدة القدامى، والذين يبدو أنهم كانوا مدركين إدراكًا كاملاً نظرياً وعملياً «للحق المقدس للملوك ليحكموا بالخطأ».

ولكن كان يعيش آنذاك في بلدة حائل نفسها زعيم شاب، مقدامٌ ومغامر من عائلة رشيد التي تنتمي إلى عشيرة الجعّفر أنبل فروع قبيلة شمر. كان العديد من أقربائه الأقربين بدواً، على الرغم من أن أسلافه المباشرين كانوا حضراً منذ زمن طويل في البلدة نفسها. كان اسم ذلك الشاب عبدالله بن رشيد؛ ثري، حسب معايير الثراء هنا، عالي النسب، وواعٍ بقدرته وعزمه، طامح إلى انتزاع السلطة التي كانت حتى ذلك الحين دون منازع، من شيوخ عائلة العلي؛ وقد سانده أقرباؤه الأقوياء والكثيرون في محاولاته. كان بعض مواطني حائل يُفضلون هذه الجماعة، وبعض آخر يفضلون الجماعة الأخرى، وباختصار فإن حزب عبدالله كان الأقوى داخل أسوار العاصمة. لكن قرية قفار المجاورة التي يسيطر عليها رجل من قبل عائلة العلي صدته، وكانت قفار في ذلك الوقت تساوي بالتقريب في القوة والسكان بلدة حائل؛ وبالفعل إذا حكمنا على قفار من واقع قصيدة مشهورة، ومن الروايات المحلية، وهي دليلنا الوحيد هنا، فإنها كانت أكثر البلدتين أرستقراطية.

بعد مناوشات أولية، بدأ الصراع بين عبدالله وعائلة العلي؛ ولكن النتيجة

جرت في غير صالح المنافس الشاب على السيادة؛ لقد أجبر على المنفى. حدث هذا في حوالي عام ١٨١٨م أو ١٨٢٠م. مع عدد قليل من أقاربه، هاربين مثله، توجه إلى الجوف معلقًا الآمال في ملاذ وتحالف؛ ولكنه لما لم يجد أيًا منهما، عبر إلى وادي السرحان، الذي كان وسطه ملاذ عام للرجال الذين في مأزق مماثل حتى يومنا هذا. وبينما كان هو وأتباعه هائمين وسط متاهات الوادي، هجمت عليهم فجأة مجموعة قوية من بدو عنزة، وهم أعداء لدودون بالوراثة لقبيلة شمر. قاتل عبدالله ورفقاؤه قتالاً جيدًا، ولكن العدد يغلب. وخرَّ بنو جعفر جميعاً صرعى دون استثناء في ميدان المعركة؛ وقام العنزة المنتصرون بتجريد المطعونين والتمثيل بهم، لم يبق أيًا من رفقاء عبدالله على قيد الحياة، وهو نفسه تُرك على اعتبار أنه ميت وسط الجثث على الرمال.

إن عنزة، كما هي نزعتهم في الغالب «يجعلون من التأكيد تأكيدًا مضاعفًا» وذلك بقطع أعناق الجرحى، وفي هذا لم يتوقع عبدالله أفضل مما جرى لرفاقه. ولكنه وهو المقدر له الاستيلاء على العرش لم يهلك هكذا قبل يومه. فبينما كان مرمياً على الأرض فاقدًا الوعي، ينهمر دمه من الجرح البليغ المفتوح، أحاط جراد الصحراء بالزعيم، حسب رواية العرب، وبأجنحتها وأرجلها نثرت الرمال الحارة في جروحه إلى أن أوقفت هذه الطريقة البدائية النزف. في تلك الأثناء رفرف سربٌ من طيور القطا، وهي طيور شبيهة بطائر الحجل، معروفة في هذه المناطق، فوقه ليحميه من الشمس الحارقة - وهي خدمةٌ سوف لن يكون المسافر غير الجريح في البراري العربية أقل عرفانًا وامتنانًا لمثلها. كان هناك تاجر من دمشق تصحبه قافلة صغيرة في طريقه إلى موطنه متجهًا من الجوف إلى سورية، وتصادف مروره قريبًا من مشهد

المجزرة، والمعجزة. شاهد الشاب الجريح، والمعجزة المدهشة التي تدخلت فيها القدرة الإلهية لصالحه. مندهشًا للمشهد المذهل، وحزر وحدس مستقبلاً غير عادي لإنسان كانت حياته غالية في نظر العناية الإلهية، ترجل التاجرُ إلى جانبه، وضمدجروحه، مستخدمًا وسائل الإنقاذ التي يُمكن للمكان والظروف تلك أن تسمح بها، ووضعه على أحد جماله، وأخذه معه إلى دمشق.

هناك، استعاد عبدالله قوته ونشاطه بسرعة كبيرة، وهو الضيف المحبوب للتاجر المُحسن الذي عامله كابن له. بعد ذلك أمده منقذه الكريم بالسلاح والمؤن للطريق، وأرسله جاهزاً إلى الجزيرة العربية مرة أخرى.

ولكن لأنه لا يستطيع أن يعود إلى جبل شمر أميراً، ولا يمكنه أن يعود واحداً من الرعية سافر إلى نجد الداخلية، سالكًا درباً دائرياً، وهناك عرض خدماته على تُركي بن عبدالله بن سعود بصفة قائد لمجموعة عسكرية. كان تركي آنذاك منهمكًا بهمة ونشاط في إعادة بناء مملكة آبائه التي دمرها الغزو المصري، وفي استعادة المناطق التي كانت خاضعة في السابق للسيطرة الوهابية، الواحدة تلو الأخرى، وجد عبدالله بن رشيد بالطبع ترحابًا وعملاً على الفور. لقد كان المتُقدم في كل نزال، وفي وقت قصير أصبح على رأس فرقة معتبرة في الجيش الوهابي.

في عام ١٨٣٠م، أو حوالى ذلك الزمن، حيث لم أتمكن بسبب الجهل وإهمال العرب، أن أتبين التاريخ الصحيح لهذا وللعديد من الأحداث الأخرى المهمة، قرر تركي الاستيلاء على الأحساء، وهي إحدى أغنى المقاطعات للمملكة النجدية القديمة. ولكن بما أن الشؤون العامة لم تكن لتسمح بتغيبه شخصياً عن العاصمة الرياض، فقد عين ابنه الأكبر فيصلاً على

رأس الجيش الملكي وأرسلهم لغزو الساحل الشرقي. انضم عبدالله بن رشيد كآمر طبيعي للغزوة، وعلى الرغم من أنه غريب بالمولد فقد كان يعتمد عليه من قبل فيصل وضباطه، وكان قائدهم تقريبًا في جميع العمليات العسكرية.

لم يكد الجيش الوهابي يصل إلى حدود الأحساء، بعد أن عبر الممرات الضيقة لجبل غوار، وقد عبرناها لاحقاً، وكان على وشك التقدم لحصار مدينة الهفوف حينما وصلت إليهم الأنباء بأن تركيّاً قد اغتيل غدرًا أثناء تأديته لصلاة العشاء في الجامع الكبير بالرياض على يدي ابن عمه مشاري، وأن القاتل جلس على العرش.

تمت الدعوة لعقد مجلس حرب في الحال. وكان الذين يرغبون بكتم الأمر حاضرين بالمجلس، وقد كانوا كثيري العدد، ونصحوا فيصلاً بأن يستمر في الحرب ضد الأحساء وبعد الاستيلاء على تلك المحافظة الغنية، يعود محملاً بغنائمها لانتزاع الملك من قريبه المغتصب. ولكون عبدالله بن رشيد وهو ذو شأن وبُعد نظر في إسداء النصح، رأى بأن مثل هذا التأجيل والتأخير سوف يعطي مشاري وقتًا أفضل لجمع الجنود وتحصين العاصمة، وهكذا يصبح أكثر خطورة لاحقاً، إن لم يصبح عدواً لا يمكن التغلب عليه. بناءً على ذلك أصر على عودة فيصل في الحال مع جميع قواته إلى الرياض ضمانًا لمفاجأة مشاري وهو غير مستعد، والانتقام لدم تركي الذى لايزال ساخناً، وتأمين العاصمة والمناطق الأخرى لوريثها الشرعي. أما الأحساء، فإن هزيمتها قد تكون مؤكدة أكثر إذا ما تم تأجيلها في الوقت الحاضر.

استجاب فيصل، وهو أحكم من لقمان الحكيم، إلى رأي عبدالله التي أكدت الأحداث صوابه. ودون إضاعة أي وقت انفض الجمع وتحرك الجيش بكامله في طريق عودته إلى الرياض، التي وصلوا تحت أسوارها بعد سير

حثيث، بينما كان مشاري متخيلاً أن منافسه بعيداً هناك في الجانب الآخر للممرات في سهول الأحساء النائية.

عند أول ظهور للأمير الشرعي هبت كل نجد منضوية تحت رايته. وحذت العاصمة حذوها، ففتحت البوابات على مصاريعها، ودخل فيصل الرياض وسط تهليل حماسي، ودون إيقاع أي ضربة لسيف أو خوض أي معركة.

لكن مشاري كان مُحتلاً القصر، الذي بفضل أسواره العالية وأبراجه الكثيرة يمكنه الصمود لحصار طويل، كيفما كان الحصار في الجزيرة العربية؛ ففي داخل القصر تحت تصرفه كل خزانة الدولة، والمدفعية والذخائر علاوة على مخزون جيد من المؤن في حالة الحصار، وأخيراً كان محصناً ومحمياً بواسطة حامية عسكرية منيعة مكونة من أتباعه الخاصين، المدفوع لهم جيداً والمسلحين جيداً. وبهذا الاستعداد قرر الصمود، وانتظار تحول في طالعه، لقد حدث تحولٌ للحظ بالفعل، ولكن كان ضده.

أمر فيصل من جانبه بهجوم في الحال على القصر. وحدث الهجوم، ولكن الأسوار السميكة والبوابات المثبتة بالحديد، انضمت إلى شجاعة المدافعين اليائسة فأربكت كل المجهودات؛ فاضطر المهاجمون لانتظار النتائج البطيئة لحصار متواصل.

استمر هذا الحصار مدة عشرين يومًا دون أن يأتي بميزة مادية وإيجابية لأي من الطرفين. لكن في ليلة الحادي والعشرين، قام عبدالله وهو تواقٌ ليصل بالأمور إلى نتيجة بأي وسيلة مهما كانت خطورتها، باصطحاب اثنين من رفاقه الأقوياء من عشيرته شمر، وهما لاجئان مثله، وفي جنح الظلام ذهب يحوم حول جدران القلعة على أمل أن يكتشف نقطة غير محروسة. وعند نافذة ضيقة علوية تحت الشرفات المفرجة على سطح القلعة ولاحقاً حددت لي

لنافذة عندما كنت عند المكان نفسه [في الرياض] كان هنالك ضوءٌ يتلألأ. تقدم عبدالله قريبًا تحت المكان مباشرة، وأخذ حصاة وقذف بها إلى أعلى نحو النافذة. ظهر رأس لشخص سأل بصوت ذي نبرة مكتومة «من أنت؟»؛ تبين عبدالله الصوت وكان لأحد أتباع القصر المسنين، كان لزمن طويل في خدمة الملك القتيل، وصديقاً شخصيّاً حميماً له. أجاب عبدالله باسمه. فقال الرجل «ماغرضك؟». فأجابه عبد الله: «أنزل لنا حبلاً، وسوف نقوم بتدبر الباقي». في وقت قصير سُمع حفيف حبل يتدلى إلى أسفل الجدار. تسلق عبدالله ورفيقاه الواحد تلو الآخر، وفي وقت وجيز كانوا يقفون معًا داخل القصر. "أين ينام مشاري؟" كان السؤال الذي ينذر بالسوء. أشار خادم تركي إلى الطريق؛ وصل المغامرون الثلاثة أمام باب غرفة نوم مغتصب السلطة بعد أن شقوا طريقهم عبر الدهاليز المظلمة بحذر وبصمت وهم حفاة الأقدام. حاولوا فتح الباب إلا أنه كان مغلقًا من الداخل، صرخ عبدالله قائلاً: «بسم الله» وبدفعة واحدة قوية خلع القفل وانفتح الباب.

كان مشاري مضطجعاً في الغرفة، وتحت وسادته مسدسان معبآن بالطلقات. هب واقفًا عند سماعه الضجة وشاهد ثلاثة أشباح في الظلام أمامه. اختطف سلاحه، وأطلق النار بدفعات متتالية سريعة، فسقط رفيقا عبدالله أحدهما مقتولاً والآخر بجرح مُميت، لكنه كان مايزال حيّاً. لم يصب عبدالله بأذى، واندفع نحو ضحيته، وسيفه في يده. أمسك مشاري، وهو رجل ذو حجم وقوة هرقلية، بذراعي خصمه وتصارع معه. وسقط الاثنان أرضاً، ولكن مشاري ظل ممسكًا بقوة على ذراع عبدالله التي يقبض بيدها على السيف. بينما هما في تلك الحالة من الصراع المرير، استجمع رفيق عبدالله المحتضر كل مالديه من قوة أخيرة وزحف بنفسه إلى جانبهما،

وأمسك بمعصم مشاري بقوة عنيفة مُتشنجة للدرجة التي جعلته يرخي للحظة من قبضته، تلك اللحظة كانت كافية ليحرر عبدالله سيفه ويطعن به مراراً وتكراراً في جسم خصمه الذي لفظ أنفاسه الأخيرة دون مقاومة.

لم ترتفع أي صرخة، ولم يُصدر أي إنذار. قام عبدالله بقطع رأس مشاري حيث كان يرقد، وعاد عبدالله والرأس في يده إلى الغرفة التي كان خادم تركي ينتظر فيها مرتعداً نتيجة المحاولة. بواسطة ضوء المصباح تأكد كلاهما أن الرأس رأس مشاري. بعد ذلك دون إضاعة لحظة توجه عبدالله إلى النافذة وصاح بأعلى صوته وهو يُطل برأسه إلى الخارج لينبه معسكر فيصل، الذي كان حرسه المُتقدم ليسوا بعيداً من القصر. هب بعض الجنود، وعندما اقتربوا من الجدار صاح عبدالله «خذوا رأس الكلب»، ورمى بالتذكار الدامي وسطهم، ارتد صدى صيحة النصر عبر أرجاء المدينة. في تلك الأثناء أسرع خادم تركي إلى الأسفل حيث البوابات الخارجية للقصر وفتحها على مصايعها معلناً الأمان لكل حاشية مشاري الذين يعترفون بفيصل سيداً لهم. بعد بضع دقائق كان فيصل نفسه يقف داخل أسوار قصر والده، الذي أصبح الآن ملكاً له.

لم تبدر أي مقاومة. «إنها إرادة الله» كان التعليق الوحيد لأتباع مشاري عندما قدموا البيعة لمليكهم الجديد. أصبح فيصل الآن السيد بلا منازع في كل أرجاء نجد، وأدت ظروف توليه الحكم إلى تعلق رعاياه به بصورة أكبر.

لم يكن ابن تركي غير ممتن لذلك الرجل الذي أدت بسالته إلى وضعه على عرش والده. فقد أعلن صراحة اعترافه بخدمات عبدالله البارزة، وقرر مكافأة جسارته بتاج تم منحه في مقابل التاج الذي حصل عليه. لهذه الغاية عينه حاكماً مطلقاً في منطقة موطنه جبل شمر مع الحق بالتعاقب على السلطة

وراثياً ، وأمده بالجنود وجميع الوسائل الأخرى لتأسيس حكمه .

عاد عبدالله إلى حائل ، ولم يعد الآن منفيّاً ، بل زعيمًا قويّاً مُهابًا ، مع جيش تحت تصرفه . وفي وقت قصير قام بطرد عائلة آل علي المنافسة خارج البلدة ، حيث كانت سلطته هي الأعلى . اتخذ عبدالله حائلاً مكاناً لإقامته وعهد بالانتقام الكامل من شيوخ العلي سيئي الحظ إلى شقيقه الأصغر عبيد الملقب بالذئب وهو الاسم المعروف به عمومًا ، والذي استحقه بقسوته الصارمة ومكره الشديد . قضي على آل علي بعد هروبهم إلى القصيم ؛ ولم ينج من الجلادين والمذبحة إلا طفلٌ واحد فقط ، كان قد تم إخفاؤه في قرية صغيرة في حدود القصيم . وأرسل طلال بعد توليه الحكم بسنين في طلب الفتى ، الممثل الوحيد ـ الذي بقي على قيد الحياة ـ لأعدائه بالوراثة ، وقام بمنحه أراضي وأملاكًا وثروات وأسكنه في منزل فاخر داخل العاصمة نفسها ، وهكذا بكرم نادر لكنه سياسي تفادى آخر الفُرص لوجود حزب منافس .

كان اهتمام عبدالله الرئيس في تلك الأثناء هو تعزيز سلطته في جبل شمر نفسه ، وقبل مضي زمن طويل وجد نفسه السيد الوحيد لكل الإقليم الجبلي . لكن حكمه وسيطرته لم يمتدّا إلى ماوراء جبلي أجأ وسلمى ، أما الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بالفتوحات بواسطة شقيقه في الجنوب فقد تم تسليمها وفقًا لاتفاق مُسبق إلى ملك الوهابيين . ظل عبدالله يدفع ضريبة محددة طوال حياته إلى فيصل الذي كان ينظر له في واقع الأمر على أنه نائب له في جبل شمر ، وللتأكد من دعم جاره القوي والغيور اعتمد عبدالله رسميًا المبادئ الوهابية لدولته الجديدة ، وشجع المطاوعة النجديين في حماستهم لاجتثاث العديد من الممارسات الخرافية التي كانت سارية في جبل شمر . في الوقت نفسه لم يُهمل على أية حال ، تقوية نفوذه الوطني ، ولهذه الغاية كان قد عقد

زواجًا في فترة مبكرة لمصاهرة عائلة أحد الشيوخ الأقوياء في عشيرته الجعفر، وهم أقاربه بالدم. كان لدعم عشيرته، التي كانت لاتهتم كثيراً بالوهابية وقوانينها التي كانوا يعلمون جيداً بأنها لن تطالهم على الإطلاق، أكبر الأثر في القضاء على النزاع بين سكان البلدة، وإخضاع أعيان المناطق الأخرى، محققاً بذلك طموحه الخاص، ونزعة حلفائه من البدو إلى السلب من خلال إجراءات سحقت أعداءه المحليين، وضمنت له التفوق.

حيكت المؤامرات ضده الواحدة تلو الأخرى، وفشلت، وتتبعه القتلة المأجورون في الشوارع، واندلعت ثورة علنية في المنطقة، ولكن عبدالله كان يفلت في كل مرة من الخطر، متغلبًا على كل خصم، إلى أن أضحى «نجمه» مثلاً للسعد في شمر؛ وذلك عائد فقط إلى شجاعته المحسوبة وعزمه الذي لايلين. ومع ذلك فإن ذكراه ليست حسنة كثيراً عند المواطنين في حائل لعدم تعاطفهم مع الوهابيين والبدو؛ ووطأة الحكومة الجديدة كانت ثقيلة، في حين كانت حاجات أكثر السكان بازدياد.

نحو الجزء الأخير من حُكمه، اتخذ عبدالله إجراء محسوبًا حسابًا دقيقًا على الأقل تحت ظل الظروف الفعلية، ليضمن به استمرارية حُكم عائلته. كان عبدالله يقيم في حي بالعاصمة يسكنه الشيوخ القدامى والأعيان، وكان يحوط بالحاكم الجديد رجال يساوونه في الأصل وحتى أعرق منه للقيادة. ولكنه الآن أضاف حيّاً جديداً إلى البلدة، حيث وضع هناك الأساس لقصر ضخم ليكون المقر المستقبلي للملك وتجسيداً لمكانته وسط أعيان من صنعه الخاص. كانت أسوار مشروع الصرح الضخم ترتفع في سرعة عندما عاجلته المنية فجأة تقريبًا في عام ١٨٤٤م أو ١٨٤٥م[٩]، تاركًا وراءه ثلاثة أبناء هم: طلال ومتعب ومحمد، وأكبرهم سنّاً لا يكاد يبلغ العشرين عامًا، إلى جانب

شقيقه الوحيد عبيد الذي لم يكن آنذاك تحت الخمسين سنة بكثير.

كان طلال محبوبًا بشكل كبير قبل توليه الحكم، وأكثر من والده، وكان قد أظهر دلائل عن تلك الصفات الرفيعة المتميزة التي رافقته إلى العرش. اتفقت جميع الأطراف على عدِّه الوريث الوحيد للمملكة والخلف الشرعي للسلطة الملكية، وهكذا خمدت ادعاءات المنافسة من عمه عبيد، المكروه من العديد من الناس، والذي يخافه الجميع، في بدايتها وأزيحت جانبًا دون نزاع.

كان الأمير الشاب، في واقع الأمر، يمتلك جميع المواصفات التي تتطلبها المفاهيم العربية لضمان قيام حكومة صالحة وشعبية دائمة. فقد كان دمثًا مع العامة من الناس، متحفظًا مع عجرفة مع الأرستقراطيين، شجاعًا وماهرًا في الحرب، محباً للتجارة والعمران في أوقات السلم، كريماً إلى حد الإسراف، ومع ذلك كان دائماً حريصًا على زيادة عائدات الدولة، وسطي في تدينه، كتومًا في أهدافه، ولكن لم يُعرف عنه على الإطلاق حنث لوعد قطعه، أو انتهاك لعهد أخذه على نفسه؛ صارمًا في الإدارة، ومع ذلك كان كارهًا لسفك الدماء، بكل تلك الصفات قدم النموذج المطلوب الذي يجب أن يكون عليه أمير العرب. ويجوز لي أن أضيف، بأنني وسط جميع الملوك والحكام، أوروبيين كانوا أم آسيويين، الذين شرفت بالتعرف إليهم لا أعرف إلا القليل ممن يوازي طلال بن عبدالله بن رشيد في الفن الحقيقي للحكم.

كان أول اهتماماته موجّهًا نحو تجميل العاصمة وتمدينها. فبناءً على أوامره، وتحت إشرافه الشخصي، وفي وقت قصير كان القصر الذي بدأه والده قد شارف على الانتهاء. ولكنه أضاف مالم يكن من المحتمل أن يكون والده قد فكر فيه، أضاف صفاً طويلاً من المخازن الملحقة بالقصر نفسه؛ تلا ذلك قيامه ببناء سوق يشتمل على حوالى ثمانين دكاناً أو مخزنًا تم تخصيصها

للتجارة العامة، وأخيراً شيد جامعًا كبيراً لصلاة يوم الجمعة. وقام بفتح شوارع حول القصر وفي العديد من أجزاء البلدة، وحفر الآبار، وزرع البساتين الفسيحة، علاوة على تقوية السور القديم للمدينة من الجهات كافة مع إضافة تحصينات جديدة. في الوقت نفسه استطاع أن يضمن في الحال غياب عمه الخطر بأن عهد إليه بمسؤولية تلك الغزوات العسكرية التي أشبعت بصورة كافية الحماسة المتأججة لعمه عبيد. أولى هذه الحروب كانت موجهة ضد مدينة خيبر، ولا أدري تحت أي ذريعة وحجة. لكن لأن طلال كان يريد فرض الإذعان أكثر من إحداث الدمار، فقد أشرك مع عبيد في القيادة العسكرية شقيقه متعباً شخصياً، ليضع رقابة على ضراوة ووحشية الأول. تمت هزيمة خيبر، وقام طلال بإرسال شاب حكيم متعقل من حائل إلى هناك حاكماً باسمه، وقد التقيته في وقت لاحق عندما كان في زيارة للعاصمة.

خلال وقت ليس طويلاً بعد ذلك، تحولت أنظار سكان القصيم، وهم ضجرون من الطغيان الوهابي، نحو طلال، الذي كان مسبقًا يمنح الملاذ والملجأ المنيع الذي لاينتهك للعديد من المنفيين السياسيين القادمين من تلك المنطقة. جرت مفاوضات سرية، وفي اللحظة الملائمة انضمت كل الأراضي العليا لتلك المنطقة إلى مملكة شمر - بطريقة ليست خاصة بالجزيرة العربية - وذلك من خلال اتفاق عام وبالإجماع. قام طلال بتقديم الاعتذارات الملائمة للملك النجدي، الحاكم الأصلي للإقليم الذي ضمه، و أنه لم يكن في مقدوره معارضة الرغبة الشعبية، وأن ذلك الأمر قد فُرض عليه، . . . إلخ . . إلخ . . إلخ؛ وهذه الطريقة ليست غريبة على أوروبا الغربية. شعر فيصل بأن الأمر في غير محله ووقته للدخول في نزاع مع السلطة المتنامية بسرعة، والتي كان نفسه قد أسهم في قيامها قبل سنوات قلائل فقط، وبعد تردد

ابتلع الطعم ، أي قبل الاعتذار على مضض . في هذه الأثناء قام طلال، وهو مدركٌ لأهمية وضرورة السمعة العسكرية العالية في كل من الداخل والخارج، بتولي سلسلة من العمليات بشخصه ضد تيماء وما جاورها، وفي النهاية ضد الجوف نفسها . كان النصر حليفه في كل مكان ، وكان اعتداله في النصر يضمن له انضمام المهزومين أنفسهم إليه .

وقاد بعض الغزوات الأخرى الثانوية ، وكان الحظ حليفه، بينما قيل إن عُبيّداً قد نزل إلى الميدان أكثر من أربعين مرة . وكانت هذه الأعمال العسكرية غالبًا استعراضاً للقوة أكثر منه تقتيلاً وذبحاً ، وكانت موجهة بشكل رئيس ضد البدو ، الذين كانوا يحتلون ، جزءاً كبيراً من مملكة طلال ، التي يريد بسطها في كل مكان . لم يكن يواجه صعوبة كبيرة مع البدو الرُّحل من الأقاليم الخارجية ، ولكنه واجه الكثير مع قبيلته وجيرانه القريبين من عرب شمر .

ومن أجل تحقيق رؤاه في إغناء البلاد من خلال جني فوائد التجارة الحرة والمنتظمة ، بسط الأمن على الطرقات العامة ، وأوقف غارات النهب . والآن وقد أضحى رجال قبيلة الجعفر ، أقرباؤه بالدم ، أقوياء جداً بسبب ما منحه لهم عبدالله ، حيث كانوا أدواته لإخضاع مُدن وقرى الجبل ؛ فإن طلالاً الذي لم تكن لديه الحاجة نفسها إليهم قد قام بتأدية لعبة والده نفسها في اتجاه مُعاكس ، بإخضاع هؤلاء البدو أنفسهم عن طريق السكان الذين كانوا قد اضطهدوا بواسطتهم في السابق ، والذين كانوا بالطبع تواقين لأخذ دورهم في الانتقام ؛ بينما هيأت له خلافات رجال العشائر بين بعضهم البعض الفُرص المتكررة ليؤلب الواحد منهم ضد الآخر ، ليضعفوا وينقسموا ، ويخضعوا جميعهم لسلطته . إن المثل الشائع «فرق تسد» معروف عند العرب ، بصورة لاتقل عما هو معروف عند رؤساء الدول الأوروبية .

تم التغلب على هذه العقبة وإزاحتها من الطريق، وكرس طلال نفسه بنشاط وبحكمة لتنفيذ مشروعات سلمية أكثر. تمت دعوة التجار من البصرة، ومن مشهد علي [النجف]، ومن واسط، وبائعين من المدينة المنورة وحتى من اليمن، بعروض سخية للحضور وتأسيس أعمالهم في السوق الجديد لبلدة حائل. وقام طلال بإبرام عقود حكومية مع البعض منهم، وكانت مريحة بالقدر نفسه له ولهم، ومنح بعض آخر امتيازات وإعفاءات، وللجميع كل الحماية والتشجيع. كان العديد من هؤلاء التجار ينتمون إلى طائفة الشيعة، المكروهين من السنة، والممقوتين بصورة مضاعفة من قبل الوهابيين. لكن طلالاً وهو غير متأثر بإدراك نواقصهم الدينية، أسكت كل تذمر بواسطة إعطاء هؤلاء الأفضلية، وإثبات ما جلبوه من فوائد خلال فترة قصيرة للبلدة. لقد أوجدت الحوافز، فأصبحت حائل مركزاً للتجارة والصناعة، وحذا الكثير من سكانها حذو الأجانب الذين استقروا وسطهم، ونافسوهم في الاجتهاد والثروة.

إن كل هذا، على أية حال، لم يكُنْ إلا ليُغضب جماعة الوهابيين في البلاد، التي كان يتزعمها عبيد المُتعصب المتعطش للدماء. وأرسل فيصل أيضًا من معاقله النجدية، والذي كان متضايقًا مسبقًا من ضم القصيم، احتجاجًا صارخًا ضد لين وتسامح "أخيه" طلال. علاوة على هذا شاع، وهذا أمر فظيع لأفكار الوهابيين وسمعهم، عن طلال انغماسه في بدعة الاستمتاع بتدخين التبغ، وارتداء الحرير، وعدم رؤيته إلا نادراً في الجامع؛ مع أنه قد يكون مؤديًا للصلاة في منزله. وأخيراً، وكانت هذه ليست بالمؤشر الحسن في نظر الوهابيين، فإنه يُظهر ميلاً أكثر نحو منح العفو للسجناء أو المجرمين بدلاً من قطع رؤوسهم؛ وإن التشجيع الذي منحه للتجارة لا يبدو في نظرهم

متماشيًا مع شخصية المسلم الحقيقي.

على الرغم من كل شيء واصل طلال طريقه في ثبات، بينما بحكمته البارعة أسدل الستار على تصرفاته الشخصية. فإذا ما كان قد دخن، فإن ذلك يتم فقط في خصوصيته، وهو من أجل العلاج الذي وصفه له أمهر الأطباء، لمرض غامض خفي ليس له دواء آخر، وبمجرد زوال المرض سيقلع عنه. وإذا ما آوى الشيعة فلأنهم حسب علمه الشخصي قد أعلنوا باخلاص تحولهم إلى المذهب السني. إن تجارة حائل ليست ملكًا شخصيًا له بل هي عمل لأفراد خصوصيين، والذين لايمكنه، لأسفه الشديد، أن يتدخل في أمرهم. أما عن دفاعه عن نفسه حول لينه في الحرب أو إصدار الأحكام فلم أسمع عنه، ولكنني لا أعتقد بأنه كان غير مقبول ظاهرياً. وأخيراً فإذا ما اضطر بسبب انشغاله إلى التغيب أحيانًا عن الحضور إلى الجامع، فإنه كان يحرصُ على أن يكون عمه أو أحد أفراد عائلته هناك ليمثله.

لكن علاوة على ذلك وفوق تلك التبريرات، والهدايا التي يُرسلها في حصافة من وقت لآخر إلى نجد، والتحالف الذي نتج عن ارتباطه بإحدى بنات فيصل كثيرات العدد، فقد ذهب أبعد في تهدئة الوهابيين. لقد قام طلال في مملكته الخاصة بعمل تنازلات مُناسبة للحماسة الدينية. كان البيع العلني للتبغ ممنوعًا؛ ولكن إذا تم الحصول على أي منه بصورة غير مشروعة في المتاجر الخلفية، أو تحت أسقف خاصة، فإن الحكومة لايمكن أن تعد مسؤولة عن ذلك. وعلى الرغم من أن هناك تسامحاً في لبس الحرير، فقد صدرت الأوامر بأن يتم خلط تلك المادة «الشريرة» بالقطن للدرجة التي لا تجعلها موضوعًا للنقد القاسي والمساءلة الشرعية. في العاصمة، حيث يحضر الجواسيس النجديون في كثير من الأحيان، كان ينادي بالسكان لأداء

الصلوات في المسجد الذي صار يمتلئ بالمصلين . علاوة على ذلك كان عُبيد ملتزماً وورعاً، بعيداً عن أي علاقة بغيضة بارتداء حرير أو استخدام تبغ، ومداومًا على تلاوة القرآن لأوقات طويلة، وذم الكفار، ووجوده كان يُكفر ويغطي الفضائح التي يرتكبها ابن أخيه، وخاصة تلك التي يرتكبها متعب وهو شاب متمرد، صدمت نارجيلته، وثوبه الحريرى غير المطعم بخيط قطن، الأنوف والأعين الورعة، وكانت تُشكل جريمة قال عنها أحد المطاوعة النجديين مشيراً إلى لباس الرأس الذي يلبسه الأمير: «جميع الشرور الأخرى يجوز أن تغتفر، إلا ذاك على الإطلاق» وعليه وفي فورة غضب طرد متعب ذلك المطوع المتشدد بشكل فظ خارج الأبواب.

كانت إدارة طلال لشؤون رعيته منتظمة بطبيعة تستحق منهم الطاعة والاتباع، وقليلاً من الملوك هنا أصابوا نجاحًا أفضل. كان يعقد كل يوم مجلساً عاماً مرة واحدة، وغالبًا مرتين، ويستمع في صبر وأناة ويقرر شخصيّاً في أصغر القضايا بحكمة عظيمة. وبالنسبة للبدو الذين هم ليسوا بالجزء الذي لا أهمية له في حكمه، كان يعوض القيود المفروضة عليهم، والجباية التي يقررها عليهم، بالكرم الفياض للضيافة الذي لا مثيل له في أي مكان آخر في كل الجزيرة العربية من العقبة إلى عدن. كان ضيوفه منهم لوجبتي الغداء و العشاء لايقلون مطلقًا عن خمسين أو ستين شخصًا، و قد حسبتُ في عدد من المرات أن الضيوف يصلون إلى مئتين في الوجبة الواحدة، في حين يتم تقديم الهدايا من الملابس والسلاح بصورة شبه دائمة إن لم تكن بصورة يومية. إنه لمن الصعب بالنسبة للأوروبيين تصور الكم من الشعبية التي يجلبها مثل ذلك المسلك لأمير آسيوي. على صعيد آخر، فإن سكان البلدة والقرويين يحبونه لتحقيقه للسلم في ديارهم، وللتجارة المزدهرة، ولتوسع سلطته، وللأمجاد

العسكرية.

كـان طلال مناوئاً لعـقـوبـة الإعـدام بشكـل حـاسـم، وكـانـت أقـسى عـقـوبة يوقعها حتى الآن على الجرائم السياسية هي النفي أو السجن. في واقع الأمر كان قد عُرف عنه، حتى في حالات القتل الجنائي أو القتل العمد أنه يستفيد من الخيار المسموح له حسب عادات العرب بين الدية أو الثأر، لذلك كان يقوم بمنح عائلة القتيل مقدار المال المقرر عن الدم من خزانته الخاصة، وذلك بدافع من الإنسانية الصرفة. عندما كان يتم الإعدام بالفعل فإنه كان دائمًا يتم بضرب العنق بالسيف، وليس هنالك بالفعل طريقة أخرى للإعدام متعارف عليها سوى تلك في الجزيرة العربية. الجلد، على أية حال ليس غير شائع، ويتم إيقاعه على الظهر المكشوف، وليس على باطن القدم. إنها العقوبات التأديبية الشائعة للجرائم الطفيفة، كالسرقة، والسب، أو المشاجرات، وفي الحالة الأخيرة أي المشاجرات، فإن كلا الطرفين في العادة يأخذان نصيبهما من العقوبة.

وكان متساهلاً مع موظفيه الكثيرين، و يغفرُ في الحال أي غلطة أو إهمال؛ الكذب وحده كان لايغفر عنه أبدًا؛ وكان من المشهود أن من يكذب مرة واحدة على طلال فإنه يجب أن يتخلى عن كل أمل لحظوة مستقبلية.

في حياته الخاصة كان طلال يتحلل من وقار وضعه الرسمي؛ بالضحك والنكت، والأنس، والاستمتاع بالشعر والروايات، والتدخين، ولكن في حضور أصدقائه الحميمين الأكثر قربًا فقط. كان له ثلاث زوجات، وإذا ما أخذنا وضع كل منهن على حدة، يبدو أنه ارتبط بهن لدافع سياسي. إحداهن كانت ابنة فيصل ملك الوهابيين، والثانية تنتمي إلى عائلة كريمة في حائل، والثالثة من جماعته من الجعفر؛ وهكذا جمع ثلاثاً من المصالح المختلفة،

ولكن موحدًا لهن في منزل واحد. كان له ثلاثة أبناء: الأكبر ويدعى بدر(١٠) وهو صبي ذكي وسيم في الثانية عشرة من العمر أو حوالى ذلك؛ والثاني يدعى بندر، والثالث عبدالله، وهو طفلٌ جميل جداً وذكي في الخامسة أو السادسة من العمر. كان له بعض البنات أيضًا، ولكنني لم أعرف عددهن، حيث إنه هنا مثل كل مكان في الشرق يُنظر إليهن كشيء يخجل منه، وبالتالي لا يأتي ذكرهن على الإطلاق.

هكذا كان طلال. وقد استمر حكمه حتى الآن حوالى عشرين سنة تقريبًا، وحتى الآن بنجاح مستحق وثابت. لقد قطع شوطًا بعيدًا في تمدين ثلث قارة شبه الجزيرة العربية وأكثرها همجية، لقد أسس القانون والأمن في مكان لم يكونا معروفين فيه لعهودٍ مضت. والآن سوف ننظر إليه من وجهة نظرٍ أكثر قُربًا وأكثر حميمية.

بقي عبدالمحسن معنا لبرهةٍ ثم غادرنا قائلاً بأن المجلس العام لذلك اليوم قد اقترب، وأن حضوره متوقع هنَاك؛ وبالنسبة لنا فإنه سوف يتم إدخالنا مباشرة بعد ذلك في لقاء خاص. في هذه الأثناء يجوز لنا أن نخمن بأنه قد ذهب ليُخبر طلالاً بنتيجة ما توصل إليه بشأن المغامرين السوريين.

كانت الشمس عالية في السماء؛ ولكن بما أن جدران القصر تواجه الغرب، فإن المقاعد أسفلها، وحتى جزءًا لا بأس به من الساحة، كانت ظلاً. عندما تقدم الصباح امتلأت هذه الساحة تدريجيًا بالمواطنين، ورجال القرى، والبدو، بعضهم بأعمال، وبعضهم الآخر مُجرد متفرجين. في حوالي التاسعة صباحًا، إذا كان تقديري للوقت صائبًا من خلال موقع الشمس، ظهر طلال مرتديًا أفضل مايكون من هندام متكامل، ومحوطًا برهطٍ من المرافقين المسلحين، مع شقيقه الثالث محمد إلى جانبه (إذ إن الشقيق الثاني متعب كان

متغيبًا عن حائل، ولم يعد إلا بعد بضعة أيام تالية)، خارجًا في مهابة ووقار من مدخل القصر، واتخذ مجلسه في منصة في الوسط إلى الجدار. جلس عبدالمحسن وزامل قريبًا منه بينما اصطف الضباط والمرافقون الذين يقارب عددهم نحو ستين شخصًا. مباشرة أمام طلال، ولكن على الأرض الجرداء كان رفاقنا من الشرارات، شيوخ العزام يجلسون القرفصاء، وكل منهم مع سوط بعيره الذي لايفارقه في يده؛ ومن حولهم وخلفهم جلس أو وقف جمهور من المتفرجين، إذ إن المناسبة كانت لها هيبتها.

استغرق اللقاء حوالى نصف الساعة، قدم خلاله شيوخ العزام فروض الولاء والطاعة بطريقتهم البدوية الفظة، . . . قبلها طلال، رغم أنه لم يجعلهم يدركون نواياه الخاصة المتعلقة بهم وبرجال عشائرهم، واحتجزهم أيام عدة دون إجابة حاسمة، مانحًا لهم وقتًا مناسبًا لمعايشة كرمه الفياض، وليصبحوا بعد ذلك أعمق تأثرًا باستعراض سلطته.

«إن فهم العربي في عينيه» مثل شائع هنا، ومعروف عند الجميع بدوًا كانوا أو حضرًا، و يعني ضمنًا «أن العربي يحكم على الأشياء حسبما يراها ماثلة أمامه، وليس في أسبابها ونتائجها المترتبة عليها» : وحكمه قاطع وسطحي. إن هذا أمر حقيقي وأكثر ما يتجلى عند البدو، مع أنه بشكل أو بآخر يسري على كل عربي أيًا كان؛ وهو حقيقي أيضًا عند جميع الأطفال، حتى الأوروبيين. ولا يوجد أفضل من قصر منيف، وبعض القطع الكبيرة من المدفعية، ورجالٌ مسلحون في ملابس زاهية، وعشاءٌ وفير وجمع غفير لإقناع البدو الرُّحل للخضوع والرهبة؛ وإن المرء ليشعر بكل تأكيد بأنهم لن يتعمقوا في التحري عما إذا كانت المدافع قابلة للتشغيل، وعما إذا كان الرجال المسلحون مخلصين، وأن دخل الخزانة مضمون، أو أن العشاء ذو فائدة

للهضم. إن طلالاً يدرك ذلك جيداً، وفي هذا الأمر يبدو أنه تفوق على الكثيرين من الذين حاولوا تأسيس نفوذهم، جزئيّاً أو كليّاً على الجنس العربي.

انتهى حسم أمر بعض الشئون الثانوية وانفض المجلس؛ ونهض طلال، وتحرك ببطء، مصحوبًا بكل من: زامل، ومحمد، وسعيد (ضابط فرقة الفرسان)، وتاجر مشهدي [من مشهد علي] يدعى حسن واثنين أو ثلاثة آخرين، نحو الطرف البعيد للساحة حيث تلتقي بالسوق، وتقدم سيف نحونا و طلب منا أن نتبعه.

بمجرد تخلص طلال من الجموع المختلطة، توقف لبرهة لنلحق به. قُدمت التحية المُبسطة المعتادة ورد عليها. ثم قمت بتقديم التوصية الوحيدة معنا، وهي القصاصة التي كتبها حمود [نائبه في الجوف]. فتح طلال الرسالة، وسلمها لزامل، الأفضل مهارة في القراءة من سيده. ثم، ملقيًا جانبًا كل رزانته المألوفة، أخذ يدي في يمينه، ويد رفيقي في يساره وهو يبتسم وسار معنا بتلك الصورة عبر الساحة العامة، إلى ما وراء المسجد، وعبر السوق، بينما شكل مرافقوه جدارًا متحركًا خلفه وعلى كلا الجانبين.

لقد كان مقتنعًا في قرارة نفسه بشكل قاطع بأننا سوريون، بناءً على مظهرنا؛ لكنه تخيل، وهو ليس مخطئاً كلياً، بأن لدينا أهدافًا أخرى غير مجرد ممارسة الطب. ولكنه وإن كان محقّاً في ذلك، فإنه كان أقل حظّاً في التفسير الذي اختاره حلاً للغزنا، متصوراً بأن هدفنا الحقيقي لابد أن يكون شراء خيل لحكومة ما، وإننا لابد وأن نكون عملاء لها؛ وهو تخمين كان له بكل تأكيد حسنته المقبولة. على أية حال، لم يكن لدى طلال أي شك في الأمر وبدأ مسبقًا مصممًا على معاملتنا معاملة حسنة في مسألة تجارة الخيل، وبأسعار

جيدة، كما تبين خلال فترة قصيرة.

وبناء عليه بدأ سلسلة من الأسئلة، جميعها كانت بطريقة مرحة، ولكن لدرجة أن طريقة استفساراته بعينها جعلتنا نُدرك في وقت قصير ما كان يحسبنا حقيقة. أما نحن، وحسب قرارنا السابق، تمسكنا بإصرار بالطب، وإننا نأمل لحاجتنا في أن نحقق النجاح برعاية ملكية في المجال نفسه. لكن لم يكن من السهل أن تنطلي على طلال أية حيلة، وبقي على حُكمه الأول علينا. في الوقت نفسه كنا قد قطعنا الشارع، الذي اصطف عليه المحدقون إلى الملك وإلينا، وفي النهاية وصلنا إلى الباب الخارجي لمنزل كبير قرب الطرف القصي للسوق؛ وكان منزل حسن، التاجر المشهدي.

تمركز ثلاثة من أفراد الحاشية حراساً عند باب الشارع وسيوفهم في الأيدي. ودخل البقية مع الملك ومعنا؛ وعبرنا فناء المنزل، حيث إتخذ الرجال المسلحون مواقعهم، بينما واصلنا إلى مجلس القهوة. كان المكان صغيراً لكنه مفروشاً جيداً بالسجاد. أجلسنا طلال في ودٍّ إلى جانبه في صدر المكان؛ ودخل شقيقه محمد وخمسة أو ستة أشخاص آخرون، وجلسوا كل وفقًا لمرتبته، بينما قام حسن بوصفه رب الدار بواجب الضيافة.

أحضرت القهوة وأشعلت الغلايين، وفي الوقت نفسه جدد ابن رشيد استجواباته، مُلقيًا الملاحظات بمهارة، تارة عن حكومة سورية، وتارة عن حكومة مصر، وتارة أخرى عن البدو إلى الشمال من الجوف، أو عن قبائل الحجاز، أو ضفاف الفرات، ليعرف من أين أتينا ولأي هدف. بعد ذلك استفسر عن الطب، ربما لكي يكشف عما إذا كانت لدينا الخبرة الحرفية في هذا المجال؛ ثم عن الخيل، التي أظهرنا جهلاً غير طبيعي وغير مُغتفر مطلقًا لرجل إنجليزي عن تلك الحيوانات العريقة، والتي آمل فيما بعد أن أقدم تعويضًا عنها

للقراء الأعزاء. ذهبت المحاولات كافة سُدى؛ وبعد ساعة كاملة لم ينجح صديقنا النبيل بذكائه إلا بالإدراك أنه ذهب بعيدًا عن المسار الصحيح عما كان عليه عند البداية. لقد شعر بذلك، وقرر أن يترك الأمور لتسير في مجراها وينتظر نتيجة مايكشف عنه الوقت. وهكذا انتهى بتأكيده لنا، بأننا سوف نجد منه كامل الثقة والحماية، عارضًا علينا إضافة إلى ذلك السكن فى البيوت الملحقة بالقصر. لكننا اعتذرنا رافضين لهذا العرض، إذ كنا راغبين في دراسة البلاد كما هي على الطبيعة، وليس من خلال البلاط، وكذلك رجونا أن يكون سكننا بالقرب من مكان السوق أو أقرب مايمكن لذلك؛ ولقد وعد بتحقيق ذلك، على الرغم من أنه، بكل وضوح، كان متضايقا من طريقتنا المستقلة بالتعبير عما نريد.

بعد ذلك تم إحضار بطيخ ممتاز، مقشر ومقطع، مع خوخ لم يكد ينضج لأن ذلك كان في بداية الموسم، وقد شاركنا جميعًا في تناوله. كانت تلك إشارة انفضاض الجلسة؛ وجدد طلال عروض الخدمة والرعاية؛ ثم عدنا إلى مقر إقامتنا يصحبنا أحد الحراس.

عندها ذهب سيف ليبحث لنا عن مكان دائم للسكن لنقيم فيه، وقبل حلول المساء استطاع أن يجد واحدًا يقع في شارع مؤدٍّ عند زاوية قائمة إلى السوق، وعلى مسافة بعيدة عن القصر. كان المنزل نفسه مكوناً من شقتين، يفصلهما فناء غير مسقوف، مع باب خارجي يفتح على الطريق؛ وكان سطح الغرف مستويًا يحوط به حاجز عال جداً، وبذلك يوفر مكانًا ممتازًا للنوم في فصل الصيف. كان يشغل ذلك المنزل أحد أتباع القصر ويدعى حسين المصري، الذي قام بإخلائه من أجلنا بناءً على طلب سيف، ورحل ليسكن في الجوار. قمنا بتفقد المنزل ووجدناه مناسباً إلى حدٍّ معقول؛ وكانت كل

غرفة حوالى ستة عشر قدمًا في الطول، وثمانية أو تسعة أقدام في العرض وبارتفاع ملائم؛ إحداها يمكن أن تفي بالغرض مخزناً ومطبخاً والأخرى لا بد من تهيئتها شقة للسكن. كان الوقت ذروة أيام الشِّعْرَى القائظة، لذلك كان وجود غرفة للنوم أمرًا فائضًا عن الحاجة؛ وكان السطح والهواء الطلق مفضلين بكل المقاييس، ولم نكن لنخشى تعديًا، إذ إن جدران الفناء كانت بعلو ستة عشر قدمًا أو أكثر. كان كل باب به قفله الخاص؛ وكانت المفاتيح هنا مصنوعة من الحديد، وفى هذا الشأن كانت حائل أفضل من أي مدينة عربية أخرى واتتني الفرصة لزيارتها، حيث كانت المفاتيح دون إستثناء من الخشب، وهي بالتالي قابلة على نحو كبير للكسر والعطل.

قبل حلول الظلام قمنا بنقل أغراضنا وأمتعتنا إلى سكننا الجديد، واستأذنا من سيف، الذي أفادنا بابتسامة عذبة بأننا متى رغبنا في تناول وجبات الطعام فإنها سوف تكون جاهزة في القصر، وأن مصاريف إقامتنا كافةً ستكون على نفقة الملك، وإننا نعد ضيوفًا عليه مهما طالت مدة إقامتنا. رجوناه أن ينقل شكرنا لطلال؛ وبمجرد وصولنا "لبيتنا" قمنا بإغلاق الباب الخارجي، وقمنا بعمل الترتيبات الخاصة بالغد.

في صباح اليوم التالي، التاسع والعشرين من يوليو[١٨٦٢م/ ١٢٧٩هـ]، وبعد ساعة من مطلع الشمس، اتخذ المتسكعون من أهل البلدة- وهم كثرٌ هنا - منا ومن منزلنا مركزًا جديدًا للجذب وحب الاستطلاع. وكان هذا هو ما أردناه بالضبط؛ لذلك كنا قد تركنا الباب الخارجي مفتوحًا عن عمد، ورتب داخل المنزل بطريقة تسر الناظرين.

لقد فرشنا السجاد ووضعنا خروج الأشدة الفارغة، وما شابه ذلك حول جدران الفناء إلى حدود ظلها، لراحة من قد يأتي للزيارة أو لاستشارة الطبيب

العظيم؛ وأستميح كلية الطب عذراً عن اللقب الذي تقمصته. وفرشت الغرفة الداخلية الموجودة في الجانب الأيسر للفناء بالسجاد بصورة لائقة، وهناك جلست متربعاً، وأمامي ميزانان وهاون نحاسي وزجاج تكرير وخمسون أو ستون من علب الأدوية وصف صغير من القوارير. وكان بجانبي كتابان من كتب علوم الطب العربي تفي بالغرض؛ وباللغة الإنجليزية أو الفرنسية كان معي كتيبان طبيان للاستعانة بهما، وكانا مخفيين خلف الوسادة الخلفية للرجوع إليهما خفية إذا تطلب الأمر ذلك. وجلس رفيقي، الذي بذل أقصى جهده ليبدو ممرضاً، بالخارج قرب الباب؛ كان واجبه أن يستفسر من القادمين عن حاجتهم، وأن يقوم بإدخالهم الواحد تلو الآخر إلى العيادة. في الغرفة المقابلة، إلى ناحية اليمين كان هناك قدر وكوم من الحطب وبطيختان أو ثلاث، وخبز وتمر، وما إلى ذلك، وكلها تَعد بشيء أفضل من الأدوية المسهلة والمقيئة الموجودة في الغرفة الأخرى. كنا بالطبع قد ارتدينا أفضل ماعندنا من ملابس، ثياب نظيفة، وغطاء رأس لائق، وجلباب فوقي أو زبون، وهو موضة هنا. كان ذاك هو مظهرنا ونحن نستعد لمباشرة عملنا في حائل.

لم نكن لننتظر طويلاً. ففي وقت قصير ازدحم الفناء بحشد من الزوار، بعضهم من القصر، وبعضهم الآخر من البلدة. فواحد كان لديه قريب مريض، وقد توسل لنذهب ونراه، وآخر كان يشكو من علة خاصة، وثالث قد جاء من منطلق الأدب وحب الاستطلاع المحض؛ باختصار كانوا رجالاً من كافة الخلفيات، ومن جميع الأعمار، ولكنهم في الغالب الأعم منفتحين وودودين، للدرجة التي توقعنا معها التعرف بسرعة على البلدة وما فيها.

أدت طبيعة عملنا إلى نوع من الروتين اليومي، مع أنه كان يتنوع في الغالب بأحداث عرضية مقبولة. وربما أن الاختيار عشوائياً لسجل صفحة من

يومياتي، المحفوظة بشكل منتظم، قد يخدم في تقديم نموذج من طريقة حياتنا وحياة المجتمع في حائل لقرائي الأعزاء؛ بينما في الوقت نفسه يعطي فكرة واضحة عن البلدة وسكانها أكثر مما قدمنا حتى الآن. والسجل علاوة على ذلك ممتع لي لاسترجاع الذكريات عن فترة ممتعة، وكل فترتنا في حائل كانت كذلك؛ وأرى أن القارئ يجب أن لايُحرم من مشاركتي لبعض مشاعري.

لذلك سوف أقوم بجمع الملاحظات المدونة باختصار وعلى عجل في دفتر يومياتي، ليوم العاشر من شهر أغسطس، وأضع تفاصيلها. وربما كان من الممكن أن آخذ الملاحظات المتعلقة باليوم التاسع أو الحادي عشر، حيث إنها جميعًا متشابهة؛ لكن اليوم الذي اخترته يبدو أنه الأكثر تعبيراً ودقة مما كتبته حول اليومين الآخرين، ولهذا السبب وحده فضلت أن أقدم ما احتوته يومياتي عن ذلك اليوم.

في ذلك اليوم من عام ١٨٦٢م [١٢٧٩هـ]، وبعد حوالى الأسبوعين من استقرارنا في حائل، وبعد أن اعتدنا بالكامل على وجودنا في البلدة، سليم أبو محمود العيس وبركات الشامي، أي أنا وزميلي، نهضنا، ليس من أسرَّتنا، حيث لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، بل من فوق السجاد المفروش في السطح، وكان ذلك قبل طلوع الشمس بساعة. ولاستغلال هدوء ساعة الفجر تلك، حيث لم تزل النجوم في السماء ترقبُ سكان جبل شمر الهاجعين في نومهم، غادرنا المنزل في نزهة منعشة لا يعكرها الازعاج قبل أن تطلع الشمس ومن ثم يتحرك الناس جيئة وذهابًا لأعمالهم ولمزارعهم. أغلقنا الباب الخارجي، ومن ثم سرنا في عتمة الفجر الكاذب إلى تقاطع الطريق المؤدي إلى السوق، الذي تبعناه بعد ذلك حتى نهايته أو طرفه الجنوبي - الغربي، حيث بوابات كبيرة مزدوجة تفصله عن بقية البلدة.

وكانت كلاب المدينة الشبيهة بالذئاب، التي يجعل نباحها بل وعضها أيضًا من السير في الطرقات ليلاً، أمرًا محفوفًا بالمخاطر، تسير بوداعة في الغسق، بينما هنا وهناك جملٌ يرغي، والحمل لايزال على ظهره، وراكبه النائم إلى جواره، منتظرًا فتح المخزن، الذي قضيا الليلة أمام بابه.

على الرغم من أن الوقت كان مبكرًا، فقد كانت بوابات السوق مفتوحة، والحارس في مقر حراسته مستيقظًا بالكامل. عند مغادرة السوق كان علينا أن نسير في شارع عريض تتداخل فيه المنازل والبساتين بشكل بهيج، إلى أن وصلنا أخيرًا إلى السور الغربي للبلدة، أو بالأحرى الحي الجديد الذي أضافه عبدالله حيث المداخل العالية بين الأبراج الجانبية المستديرة قادتنا إلى السهل المفتوح، الذي كانت تهُب عليه في تلك الساعة عاصفةٌ حفيفةٌ للحياة والبرودة المنعشة. نحو اتجاه الغرب، ولكن على بعد أربعة أو خمسة أميال، شمخت الكتل المسننة لجبل شمر، ملقيًا بقممه الزرقاء الرائعة، التي غطاها حينها بعضُ من الاحمرار جراء ضوء الفجر المنعكس، على صفحة السماء الزرقاء الرُصاصية. إلى اتجاه الشمال تنحني السلسلة نفسها مستديرة إلى أن تلتقي بالبلدة ثم تمتد بعيدًا لمسافة تُقدر برحلةٍ لعشرة أيام أو اثني عشر يومًا، متناقصة تدريجيّاً في الارتفاع عند اقترابها من مشهد علي ووادي الفرات(١١). وإلى جنوبنا كانت توجد عُقدةٌ من الصخور المنعزلة، وتتقاطع أطراف سلاسل القمم القصية لجبل شمر أو أجأ، الاسم التاريخي له، مع الممرات العريضة التي تقود في الاتجاه نفسه إلى جبل سلمى. وخلفنا كانت تقع العاصمة، وبدت جميع ملحقات قصر طلال بقبابه البيضاوية العالية، ومنازله، وحدائقه وأسواره وأبراجه، سوداء في مقابل الشعاع المتورد لضوء الشرق، ومن خلفه قمة هرمية ضخمة ناتئة مُطلة على البلدة، ومتصلة بالجبال الدنيا من سلسلة

الجبال الرئيسة إلى الشمال والجنوب، تلك الأضلاع الصخرية التي تحمي قلب المملكة. في السهل نفسه كان باستطاعتنا أن نميز بصعوبة بواسطة ضوء الغسق الضئيل عدة بقع مسودة متناثرة في غير انتظام فوق سطحه، أو تُرى وكأنها تتكئ إلى أعلى على شفير صخور شديدة الانحدار؛ وكانت تلك هي البساتين والمنازل الريفية لعبيد والشيوخ الآخرين، إلى جانب بليدات وقرى، مثل قفار وعدوة ببساتينها من النخيل والأثل التي كان يصعب تمييزها في الغسق. وكانت مناظر مسافر وحيد على ظهر جمله، ومجموعة من بنات آوى تتسللُ إلى كهوفها الصخرية، وبضع خيام حقيرة لبدو شمر أخر تفاصيل صورة ذلك المشهد الطبيعي. بعيدًا فوق التلال الجنوبية كان يشع ببهاء نجم سُهيل معلنًا دخول عامٍ عربيٍّ جديدٍ؛ وكانت النجمة القطبية إلى الشمال منخفضة فوق قمم الجبال.

حثثنا الخُطى فوق السهل الحصبائي إلى اتجاه الجنوب، إلى أن تركنا خلفنا أسوار البلدة، ووصلنا إلى المجموعة الصغيرة من الجبال التي ذكرناها آنفًا. زحفنا متسلقين إلى نوع ما من الكوة قُرب القمة، حيث عند ارتفاع مئة قدم أو أكثر، كان باستطاعتنا رؤية الامتداد الكامل للسهل، وأن ننتظر مطلع الشمس. وعندها وقبل أن تصطبغ أعلى قمم جبال شمر بأول شعاع، أو قبل أن تتحول الظلال الطويلة الضخمة للسلسلة الشرقية عن السهل، شاهدنا مجموعة من الفلاحين يسوقون أمامهم حميرهم محملة بالخضروات والفواكه، وقد بدوا من بعيد مثل مجموعات صغيرة من النمل تخرج من أغوار الجبل المجاورة، يتقدمون ببطء على المسارات المؤدية إلى العاصمة. وكان راكبو الخيل من أهل البلدة خارجين إلى البساتين، وصف طويل من الإبل على الطريق الغربي القادم من المدينة[المنورة] المنعطف نحو حائل.

انتظرنا مستكينين في مرقبنا الصخري نستمتع بالمنظر إلى أن أشرقت الشمس وبدأت الحرارة تشتد؛ لقد حان الوقت لكي نعود للبلدة. لذلك غادرنا مرقبنا المنعزل، ونزلنا إلى السهل وسرنا بمحاذاة ظل الأسوار الغربية إلى أن وصلنا إلى بوابة البلدة ومن ثم إلى السوق. كان كل شيء حينها يعج بالحياة والحركة؛ فبعض المخازن المملوءَة بالأرز والدقيق والتوابل، أو البنّ، وغالباً ما يخفى في أعماقها التبغ الأمريكي الممنوع، قد فتحت أبوابها. وكانت أحمال الجمال تنزل في قارعة الطريق، والبدو يقفون جانبًا، لايبدو عليهم أي شعور بأنهم بين أهلهم. وكان الإسكافي والحداد، أصحاب المهنتين الرئيستين في الصناعة اليدوية للعرب، قد باشرا عملهما مسبقًا، وكان مجتمعاً حولهما بعض المتفرجين المنهمكين في القيل والقال. وعند الزاوية التي يلتقي عندها تقاطع شارعنا مع السوق، جلست ثلاث أو أربع من النساء القرويات، وأمامهن أكوام من البطيخ، والقرع، والباذنجان، و الفواكه ومنتوجات أخرى معروضة للبيع. دخل رفيقي في مساومة مع إحدى أولئك الفتيات وانتهى بالحصول على كمية من الباذنجان وبطيختين، كل منهما أكبر من رأس رجل بما يعادل اثنين من البنسات الإنجليزية. مع هذه المشتريات عدنا إلى المنزل، حيث أغلقنا الباب الخارجي وأحكمناه بالرتاج ثم أخرجنا من سلة ماتبقى لنا من ليلة الأمس من خبز حائل وجهزنا به مع البطيخ إفطارًا على عجالة. أقول على عجالة، لأنه على الرغم من أن الوقت كان مبكراً ولم يمض نصف ساعة فقط من شروق الشمس، فقد أنبأت طرقات متكررة على باب دارنا عن وصول مرضى وزوار: فالاستيقاظ المبكر هنا هو نمطٌ معتاد، وهذا أمر ضروري في كل مكان لا توجد فيه الإضاءة الاصطناعية الكافية. على أية حال، لم نفتح الباب في الحال لأصدقائنا، كما أنهم لن يتضايقوا للتأخير، بل ظلوا حيث هم

يتـجاذبون أطراف الحـديث أمام بـابنا إلى أن سمـحنا لهم بالدخـول؛ فـالوقت قيمته قليلة هنا. كان شرابنا الماء الذي كنا نحفظه في قربة جلدية تملأها فاطمة ابنة مالك الدار حسن المصري من بئر مُجاورة، وتُعلق القربة على الجدار في الركن الظليل للفناء. كنا نفتح فم القربة حيث ينساب الماء منها في كوب نحاسي بسيط جداً ولكنه قوي، من صُنع البلدة، وبهذه الجرعة من المشروب الخالي من المسكرات كنا مكتفين. لا أدري بالضبط لماذا لم نبدأ حتى الآن في حائل بإعداد قهوتنا الخاصة في بيتنا؛ إذ أصبحنا مدبري منزل ممتازين بعد نهاية الرحلة. قمنا بعد ذلك بترتيب السجاد، وقفلت إلى مقعد الطبيب الخاص بي في الداخل، مهتمّاً بأن تكون الموازين وكتاب الطب العربي أمامي بشكل يلفت الأنظار، بينما يفتحُ بركات الشامي المدخل.

دخل علينا شاب ذو مظهر حسن، يرتدي العباءة السوداء الشائع لبسها عند جميع أبناء الطبقات الوسطى أو العليا في وسط الجزيرة العربية؛ وكان يحمل في يده عصا من السدر أو خشب «اللوتوس»، وسيفًا مزخرفًا بالفضة وكوفية تتلألأ كانت تنبئ بأنه شخصٌ ذو أهمية، بينما تُظهر الجدائل السوداء الطويلة لشعره، وملامحه الوسيمة وبشرته المائلة قليلاً للسُّمرة، مع قامة طويلة، وطريقة مشيته البسيطة عن أنه من مواطني جبل شمر ومن سكان بلدة حائل؛ لقد كان ذلك الشاب هو عُجيل، الابن الأكبر لعائلة كبيرة، ووريث لمنزل كبير وبستان من والده المتوفى منذ وقت غير طويل، في حي من البلدة يبعد مشياً مسافة عشرين دقيقة تقريباً. وكان يقتاد شقيقه الأصغر من يده، وهو صبيٌّ متواضع المظهر ذو سحنة بيضاء، و جسم نحيل، ولكنه كفيف البصر تقريبًا، ومن الواضح أنه في صحة مُنحرفة أيضًا. وبعد الانتهاء من تشريفات التعارف الأولية مع بركات، تقدم نحو موضعي المنعزل، وقام بتحيتي بمنتهى الاحترام

والتقدير. ولأنني فكرت بأنه قد يكون من الأشخاص الذين يجدر بنا التعرف عليهم ، قمت باستقباله بتهذيب ولطف شديدين ، وتوسل إلي أن أرى ما كان من أمر شقيقه. قمت بفحص الحالة، ووجدت أنها تقع ضمن قدرتي ومعرفتي، ومن غير المحتمل أن تتطلب أكثر من فترة قصيرة جداً من العلاج. وتبعًا لذلك قمت بوضع تقديراتي لفُرص الشفاء ووجدت أن عُجيلاً متقبل للشروط المقترحة، وبقليل من المساومة تم الاتفاق حول المعالجة على أن يكون دفع المبلغ المطلوب مؤجلاً. حقاً إن العرب ـ على وجه العموم ـ جيدون في إدارة المساومة للحصول على أفضل الصفقات وكرماء في العطاء؛ إنهم ليقضون نصف يوم في المساومة حول فلس واحد، بينما يقومون بوهب ماقيمته عُدة جنيهات لأول سائل. لكن عجيلاً كان من أفضل الشخصيات في حائل، فقد كان ينتمي إلى عشيرة طيئ، التي يشتهر رجالها على مر الأزمان بالكرم، وبحسهم الرفيع للشرف.

بعد ذلك باشرتُ وصف تلك الأدوية التي تتطلبها حالة مريضي، وتلقاها بذلك المظهر الثابت والثقة شبه الدينية التي يُظهرها العرب المتعلّمون جيداً لأطبائهم، الذين يعدونهم ذوي قوى تكاد تكون مقدسة وخارقة للطبيعة؛ وهو بالمناسبة شعور مفيد للمريض أكثر منه للطبيب، الأمر الذي يُسهم كثيراً في أغلب الأحيان في نجاح العلاج.

أثناء بقية إقامتنا في حائل، بقي عجيل أحد أفضل أصدقائي، وحريٌّ بي القول من المريدين؛ كانت زياراتنا المتبادلة مُتعددة، وجالبة على الدوام للبهجة والسرور، وقد عضد شفاء شقيقه في أقل من أسبوعين من تعلقه بنا، وليس لديّ سبب للشكوى من ضآلة مكافأته.

في تلك الأثناء كان الفناء قد اكتظ بالزائرين. قريبًا من بابي شاهدت وجه

عبدالمحسن الذكي المبتسم بوقار، حيث جلس بين غلامين جميلين وحسني الملابس؛ وكانا ابني طلال الأكبر، بدر وبندر؛ وجلس حارسهما، وهو عبدٌ زنجي يلبس عباءة أنيقة ويحمل سيفًا في يده، قربهما. وبعيدًا كان هناك اثنان من رجال البلدة، أحدهما مُسلحٌ والآخر وضع عصا إلى جانبه. وكان هناك شابٌّ خشنٌ بشوشٌ ودود ذو ملامح برونزية تتحدث ملابسه المتسخة عن مزاولته لمهنة الصناعة، يتحدث مع آخر ذي ملابس تختلف نوعًا ما في الشكل وذات قماش أخشن مما يُلبس عادةً في حائل؛ لابد أن هذا الأخير فلاح من إحدى القرى الجبلية. اثنان من البدو رثا الثياب وعلى هيئة فظة امتزجا على غير نظام مع البقية؛ بينما إتخذ شابٌّ طويل القامة ذو سحنة داكنة، مع سيف ذي مقبض محلى بالذهب، ويرتدي من الحرير بالقدر الذي لا يقره الوهابيون، مكانًا له قُبالة عبدالمحسن محاولاً جرّه إلى الحديث، لكن هذا الأخير طلب من بركات أن يُعيره واحدًا من كُتبي العربية ليقرأ فيه، وانهمك في قراءته بإمعان.

استأذن عجيل للانصراف، ومنحت الفرصة التالية بالطبع لعبد المُحسن، الذي أبلغني أن طلالاً قد أرسل إليّ ابنيه بدراً وبندراً لكي أفحص حالتهما الصحية، وأقرر عما إذا كانا يحتاجان إلى معالجة. كان هذا في واقع الأمر نوعًا من العمل السياسي الفذ من جانب طلال، الذي يعلم تمام العلم مثلي بأن الغلامين في صحة تامة ولا يحتاجان لأي شيء على الإطلاق. لكنه كان يرغب في تأكيد ثقته بنا، وفي الوقت نفسه يُساعدنا في تأسيس سمعتنا الطبية في البلدة؛ لأنه على الرغم من عدم اقتناعه بأي حال من الأحوال بمصداقية لقبنا الطبي، فإنه يُدرك تمامًا أهمية بقاء تلك الصفة أمام الجمهور.

حسنًا، تم فحص الصبية بكل الجدية التي تتطلبها حالة شكوى قلبية، أو

حمى دماغية ، بينما بغمزة مني قام بركات بتحضير شراب القرفة في المطبخ، والذي كـان مع السُكر هو الدواء المناسب لمثل هذه الحـالة، ويسـر الوريثين الصغيرين، ويملح المسرحية؛ وعبدالمحسن يطنبُ طوال الوقت على المتفرجين عن المهـارة الرائعـة التي تمكنت بواسطتـهـا من اكـتـشـاف العلة في الحـال والعلاجات المناسبة لها؛ والصبيان الصغيران يفكران بأنه إذا كان هذا هو الدواء فإنهما سوف يبذلان ما في وسعهما ليظلا مريضين كل يوم.

عهد عبدالمحسن بعدها بالصبيين إلى الزنجي، الذي لم يأخذهما، على أية حال إلى القصر قبل أن يعرض شكواه من بعض الآلام، التي قمت بوصف العلاج لها دون مقابل، لأنه تابع للقصر، و كان من المهم الحصول على أكبر عدد مُمكن من الأصدقاء، حتى وسط الخدم. لكن عبدالمحسن بقي يقرأ ويتجاذب أطراف الحديث، ويردد الشعر، ويتحدث عن التاريخ، والأحداث المعاصرة، والفلسفة الطبيعية أو الطب كيفما تأتى الأمر.

لنَرَ الآن بعض المرضى الآخرين. كـان لابد للفـارس ذي السيف المحلى بالذهب أن يطلب بالطبع اهتماماً خاصاً منا. إنه خال طلال. كان قصره يقع في الناحية الأخرى للطريق، بالضبط قبالة منزلنا؛ و لن أذكر عنه أكثر من هذا في الوقت الحاضر، لنيتي القيام بزيارة خاصة له لاحقاً، وهكذا أكون على معرفة أكثر دقة بكامل الأسرة.

بعد ذلك دعونا نلاحظ الاثنين من سكان البلدة، اللذين كانا يتحدثان، أو بالأحرى «يمزحان» مع بعضهما. على الرغم من أنهما كانا متماثلين في الملبس البسيط، وإلى حد كبير في الهيئة والملامح، إلا أن هناك الكثير مما يُميز هما عن بعضهما؛ كان أحدهما ذا مظهر مدني، والآخر ذا مظهر عسكري. ولم يكن الشخص صاحب العصا سوى محمد القاضي، القاضي الرئيس في

حائل، وبالطبع فهو شخص بالغ الأهمية في البلدة. على كل حال كان مظهره الخارجي لرجل كبير في السن متواضعاً ضئيل الحجم؛ وعلى الرغم من المثل الشائع الذي يُعزى الوقار للقضاة، كان مُحبّاً للمزاح، علاوة على كونه مُمثلاً لما قد يُعرف هنا بالحزب المعتدل، غير مُشارك في التعصب الوهابي، ومختلف عن الشيوخ الآخرين، ما يقوم به يأتيه بتوجيه من الديوان الأميري، وهو محبوب من جميع الأطراف لأنه لاينتمي لأي منها.

كان القاضي يريد علاجاً لنفسه، وبقدر أكبر لابنه، وهو صبيٌّ ضخم سمين بذراع متورمة، وقد صحبه إلينا. هنا أيضًا مصدر معرفة مُفيد، مُطلع على كل الفضائح، وأسرار البلدة وله رغبة في الإفشاء بها. كانت زياراتنا متكررة، ولقد وجدت أن منزله ممتلئٌ بالكتب، جزء منها مخطوطات والجزء الآخر مطبوع في مصر، تختص بشكل أساسي بالمواضيع الشرعية أوالدينية. ومن بين الكتب ذات المواضيع الدينية كانت هناك، على سبيل المثل، مجموعة خطب الجمعة التي تغطي جميع السنة. كان محمد مُتحدثًا عظيمًا، ويمارس حرية الرأي حول كافة الأمور، وهو أمر شائع بين رجال المهن القانونية على الرغم من أن هذه الصفات غير محصورة وقصرًا عليهم؛ لقد أصبح باختصار مصدر "أخبارنا اليومية" عن مكائد القصر، والقيل والقال في البلدة، ما قد قيل علنًا، وما تم سراً، ومن هرب مع من، وهكذا دواليك. ومع ذلك فإن الصورة المجملة التي وضعها أمامنا عن حائل وسكانها، النبلاء والعامة، كانت إطرائية، وربما أكثر مما قد يكون من العدل أن توصف به معظم العواصم. قد يكون سبب ذلك انتقال الصفات المميزة لتلك القبائل، حسب ما تذكر كتب تاريخ العرب، التي اندمجت في السكان الحاليين، أعني قبائل طيئ ووائل، مع عشائرهما، التي تطغى شهرتها لتؤكد لنا أنهم زهرة العرب

في الشجاعة والكرم، وأكثرهم دماثة في السلم ، والأكثر جرأة في الحرب، والأكثر احترامًا في جميع الأوقات وسط سكان نجد، وعالية الجزيرة العربية. وفي العصور المتأخرة أضفت حضارة حياة التحضر نوعًا من البريق على صفاتهم البدائية، ولكن هذه الحضارة نفسها كانت في أبسط سماتها بحيث أنها لم تؤد إلى إفسادهم أو إظهارهم بمظهر مصطنع.

أما عن أهل الريف في القرى المحوطة، مثل مُوقق والدلهمية[١٢] وباقي القرى فقد اعتاد محمد أن يتحدث عنها بنوع من الإشفاق المزوج بالاحتقار، أشبه مايكون بباريسي يتحدث عن أهل مقاطعة بريتاني [شمال غرب فرنسا]؛ وفي واقع الأمر، إن الفرق بين هؤلاء الفلاحين الصلبين والأجلاف، وسكان العاصمة الأكثر تهذيبًا، هو أنهم، مع كل ماتسمح به النسبية، ليسوا استثناء عما هو الحال في أوروبا نفسها. وسوف ندع أحدهم يتقدم من تلقاء نفسه، ولقرائي الحكم عليه.

لقد كان فلاحاً بدينًا من مُوقق، رث الثياب في ملابس العمل، وهو الذي كان مشغولاً خلال نصف الساعة الماضية في خط بعض الرسومات المختلفة على الأرض أمامه بعصى سميكة من شجر الخوخ ليزجي بذلك الوقت إلى أن يحين دوره في الخدمة. وعندما جاء دوره أخذ يتقدم إلى الأمام وجلس أمام الباب، لافتًا انتباهي بقوله «أقول يادكتور». وبينما كنت أقول له بأن جسمه الضخم قد حجب عني القدر الضئيل من الضوء الذي قد أتمتع به في معتزلي بسبب جلوسه في الموضع الذي اتخذه لجلوسه، بدأ الرجل في الاعتذار، وتزحزح جانبًا مقدار بوصة أو بوصتين. بعد ذلك سألت عما يعاني منه، بحُب استطلاع لمعرفة الإجابة، لم يصرح «الهيكل الهرقلي» الذي أمامي بالكثير عن مرضه. حيث كلما سألت دُعيميس، أو أيّاً كان اسمه كان يجيبني

قـائلاً: «أقول كلي أوجاع». إن مثل هذا القول، مثل الكثير غيرها، يبدو لي عـامًا جداً ولا يعبر عن الحقيقة. لذا واصلت استجوابي «أيؤلمك رأسُك ؟» «كـلا». «أيؤلمك ظهرك ؟» «كـلا» «ذراعـاك ؟» «كـلا». «سـاقـاك ؟» «كـلا». «جسْمُك ؟» «كلا». واختـتـمتُ أسئلتي قائلاً: «ولكن إن لم يكن رأسك أو جسمك أو ظهرك، أو ذراعاك أو ساقاك تؤلمك، فكيف يمكنك أن تشتكي كل هذه الشكوى؟ فيجيب قائلاً: «إنني أتألم وكلي آلام يادكتور» ، مُصممًا على موقفه الأول، والحقيقة أنه كان هناك شيء ما يعاني منه لكنه لايعرف كيف يحدد موضع إحساسه به. لذلك واصلت استفساراتي حتى اتضح أن فلاح موقق يعاني من روماتيزم مُزمن؛ وبالفحص الدقيق البعيد الذي أعـملتُ وبركات فيه كل المهارة التي نتمتع بها، اتضح أنه أصيب قبل ثلاثة أو أربعة أشهر مضت بنوبة حادة من ذلك المرض مع حُمى مرتفعة، والتي لم يشعُرُ بعدها بأنه على مايُرام.

قد يكفي ما حصلنا عليه من معلومات لتشخيص حالته، ولكنني رغبت في أن أكتشف كيف سيجدُ مخرجًا من أسئلة أكثر تعقيداً؛ علاوة على أن الموجودين من أهل البلدة بالقرب منا، وهم مستمتعون معي بما يجري، همسوا قائلين: «حاول معه مرة ثانية». لذلك واصلت الأسئلة: «وما هو السبب في مرضك مُنذ البداية ؟» فأجاب المريض: «أقول، يادكتور أن سببه من الله» . فأقول له: «لاشك في ذلك فجميع الأشياء وأسبابها من الله، ولكن ماهو السبب المباشر بالتحديد ؟» فيجيب : «يادكتور، إن سببها من الله، وثانيًا كنت قد أكلت لحم ناقة في الوقت الذي كنت أشعر فيه بالبرد» ، فسألت: «ولكن ألم يكن هناك أي شيء آخر؟» وكنت غير مُقتنع تمامًا بالتفسير الواضح الذي أدلى به للتو. فيجيبني : «ثم أيضًا شربتُ حليب

الإبل، ولكني أقول، إن الأمر كله من الله يادكتور» .

حسنًا، تأملتُ الحالة، وقررتُ ما يتعلق بالعلاج، تلا ذلك مسألة الدفع التي يجب أن يتم الاتفاق عليها مسبقًا، فالدفع مشروط بنجاح العلاج، وإلا فليست هنالك أتعاب للطبيب، ليس في حائل فحسب، بل في أرجاء الجزيرة العربية كافةً.

استفسرتُ عما سيعطيني عند شفائه فأجاب الفلاح: «يادكتور سوف أعطيك، أتسمعنى؟ أقول سوف أُعطيك جملاً». ولكنني أجبتُ بأنني لا أريد جملاً. فأجاب: "أقول، اذكر الله"، والتي تعني هنا لاتكون غير معقول؛ " إننى سوف أُعطيك جملاً سمينًا، والجميع يعرفون جملي، إن كنت ترغب سوف أحضر شهودًا على ذلك". وبينما كنت أصرُّ على رفض الجمل المعروض، كان يتكلم عن السمن، واللحم، والتمر وماشابه ذلك. على أية حال، انتهى الأمر بتصرفه بشكل معقول، واتبع وصفات الدواء التي قررتها له بالطاعة المعهودة، وشفي من مرضه، وأعطاني نظير أتعابي رسمًا يعادل ثمانية عشر بنسًا.

هكذا انقضت ساعتان أو ثلاث اتخذ فيها كل من بقية الزوار الذين أشرت إليهم آنفًا دوره وآخرون يجيئون ويذهبون، واقتربت الشمس من كبد السماء. لدواعي الاختصار أنتقلُ إلى صاحب المهنة الصناعية، الذي بعد طول انتظار في الظل، بصبر العرب الحقيقي أخذ دوره، وبتقطيبة ودودة أخذ يتوسل إلي أن أصحبه إلى منزله، حيث شقيقه طريح الفراش يعاني من الحمى. بعد مناقشة قصيرة، طلبت من بركات البقاء في المنزل، حتى أعود، وأكافئ متوسلّي بالاستجابة لدعوته.

وكان دحيم، وذلك كان اسمه، صغير الحجم، داكن البشرة، قوي البنية،

وعلى وجهه سيماء المكر، التي تشبه بصورة مُذهلة سيماء الصبي الإسباني الشحاذ في لوحة الرسام الإسباني موريلو [١٦١٧-١٦٨٢م]، ويجوز عده نموذجاً لطبقة كبيرة موجودة ضمن سكان وسط نجد. ارتحلت عائلته من القصيم إلى حائل منذ زمن ليس بالبعيد، جزئياً من مُنطلق زيادة الرزق، وجزئياً من منطلق مقتهم لتزمُت الوهابيين، حيث استقر بهم الحال في حائل و اتخذوها مقراً لإقامتهم الدائمة، ولكنهم كانوا يحتفظون بالكثير من العادات وطرق العيش المميزة والسائدة في موطنهم الأصلي. مثل تلك الهجرات أصبحت مؤخراً شائعة كثيراً، وقد أسهمت بصورة كبيرة في زيادة العدد والقوة العسكرية لإقليم جبل شمر، وفي الوقت نفسه أضافت الكثير إلى ازدهاره الصناعي والتجاري. وربما سوف يتذكر قرائي لويس الرابع عشر [ملك فرنسا ١٦٤٣-١٧١٥م] وإلغاء مرسوم نانتس «Nante»(١٣)، ومن ثم إضافة واحد من أوجُه الشبه بين الجزيرة العربية وأوروبا. ولأن حضارة القصيم ضاربة في القدم، وسُكانها أصحاب مهارة في أنواع الأعمال اليدوية والتجارية كافةً، بصورة تفوق بكثير كل ما يوجد عند القبائل التي انتظمت حديثًا في الشمال، وحتى ذكريات الاستقلال السابق، والحروب الممتدة والانتصارات، أضفت على شخصيتهم صفة المثابرة والتصميم في أعمالهم كافةً، وهم في هذا يختلفون كثيراً عن الشماليين في شجاعتهم غير الثابتة والمندفعة المتشكلة من خلال الغزوات قصيرة الأمد، وفي حروب البدو. إن الطبع الودُود والميل للحياة الاجتماعية الشائع بين العرب عمومًا قد تعزز وسطهم أيضًا جراء قرون من الحياة في المدينة و القرية حتى بلغ أحيانًا مستوى كبيراً من الحيوية والنشاط، الأمر الذي جعلهم أكثر تحرراً وتهذيباً في مخاطبتهم عما هو معهود بشكل عام في جبل شمر والأقاليم التابعة له. إنه لمن

الطبيعي جداً بأن مثل هؤلاء الرجال لابد أن ينجحوا في الحصول على قبول سهل و نجاح سريع في بلد غريب على الرغم من أنهم على استعداد بعد إقامة قصيرة تحيُّن أي فرصة مناسبة للعودة إلى موطنهم الأصلي، الذي أنعم عليه بالطبيعة والجمال أكثر من تخوم حائل الصخرية، والسلاسل الجبلية الوعرة لأجأ وسلمى.

يأخذ دحيم عباءته السوداء الخفيفة ويلفُّها حوله بطريقة لا يملكُ النحات نفسه إلا الإعجاب بها، وننطلقُ معاً. وبينما نسير في السوق يومئ ويبتسم لما يقارب الخمسين من المعارف، أو يقف ليتبادل كلمات معدودات مع أولئك الذين من منطقته. كان السوق وقتها قد ازدحم بالكامل بالناس من سكان البلدة، ومن القرويين، ومن البدو، بعضهم يجلسُ أمام أبواب المخازن يساومون أصحابها الموجودين بالداخل، وبعضهم تجمع في مجموعات تقضي وقتها في الثرثرة حول أحداث الساعة؛ لأن اللسان هنا هو الصحيفة المطبوعة بالنسبة لأوروبا.

وكانت مجموعات من الجمال المحملة وغير المحملة تسدُ الطريق؛ أتلفت يَمنةً ويُسرى؛ وهناك داخل المتاجر أشاهد أحد التجار منهمكاً بجمع حساباته (لا أعرف كيف كان العربُ الأقدمون دائماً جيدين في علم الرياضيات، وبالتأكيد هم كذلك في الوقت الحاضر؛ وإن عملية بسيطة للجمع كافية لإظهار ذلك)؛ وآخر لافتقاره للزبائن، يقرأ في بعض المخطوطات المطوية القديمة عن الصلوات، أو التاريخ الطبيعي، أو الجغرافيا - ويالها من جغرافيا! حيث كل العالم تقريبًا ماعدا الجزيرة العربية ممتلئ بـ«أكلة لحوم البشر، ورجال تنمو رؤوسهم من تحت أكتافهم». وهم قليلاً ما يتاجرون في القرآن هنا ، ولكن الشيعة من مشهد علي [النجف] ربما بالمصادفة يحوزون على بعض

الرسائل القصيرة المزخرفة حول ميزات خيالية لعلي[بن أبي طالب] أو أحد أفراد أسرته، أو على الأرجح رسائل لا دينية، أو على الأصح حول قصة غير مقدسة عن علاقة يوسف مع زليخة، زوجة «بوتفار» التقليدية، أو عن تاريخ زلات داود، وكيف إن خطأ الملك لم يكن، كما يفترض البعض بحسن نية، في أخذ زوجة جاره، بل في الإسراف في إضافة الزوجة المئة إلى التسعة والتسعين اللائي يعتقد بأنه كان يمتلكهن، ولكن بصورة مشروعة، - وماشابه ذلك من القصص التثقيفية .

وكان، الفرسان والزنوج الذين يرتدون الملابس الزاهية، إذ إن الزنجي شديد التأنق في ملبسه ومظهره حينما يكون في استطاعته أن يتحمل نفقات ذلك، وغالبيتهم تابعون للقصر، قد بدأوا حينها يقومون بعملهم وسط زحام أهل البلدة؛ وكان الشيوخ وعلية القوم المهندمون محتشدين وسط العامة في أُلفة وعدم كلفة مذهلة؛ وقد يدفعون أو يدفعهم الحرفي أو الحمال؛ ضباط البلاّط فقط أنفسهم يقابلون بدرجة من الاحترام، الذي يشيرُ إلى اختلاف أكثر منه شعوراً بالنقص من قبل أولئك الذين يُقدمونه. إنه لمنظر بهيج زاخر بالحيوية؛ ونسيمات الصباح في الشوارع لاتزال تحتفظ ببرودة تكفي لجعل أشعة الشمس الساطعة مُحتملة، وكان يشع في كل مكان جوٌّ من الطمأنينة والأمن والازدهار المعلوم للزوار من داخل الجزيرة العربية، ولكنه غير مألوف بتلك الدرجة للمسافر السوري أو الأناضولي. وإذا ما استمعت إلى همهمات الأحاديث من حولك، فإنه يندرُ أن تسمع سبابًا أو لعنًا، أو شجارًا، ولكن كثيراً من العمل، والبراعة في الرد، والضحك. شققنا، دُحيم وأنا، طريقنا ببطء عبر الحشد وسط الكثير من السلام، إلى أن وصلنا الساحة المفتوحة لمَجلس القصر حيث يلتقي بالسُّوق؛ ومن ثم عبرنا البوابة العالية

ودخلنا إلى الشارع الرئيس للبلدة.

إنه طريقٌ عـريض ومـستـو؛ إلى يساره أسـوار بسـاتين القـصـر؛ تعلوه هنا وهناك غرائس أشـجار النخيلِ المغروسـة حديثاً في عهد الحكم الحالي؛ وإلى يمينه سلسلة من المنازل المتناثرة وسط بساتين قديمة كثيفـة الأشجار؛ وكـانت أغصـان الأشجار تتدلى فوق الجدران، وقد كنا مسرورين لسيرنا تحت ظلها. كـان دحيم يؤنسني بوصفه لنجد وللقصيم، وكـان يُمجد ويُطري بلا حدود مسقط رأسه؛ وقد سبق له أن شاهد ملك الوهابيين شخصيّاً، ولكن ليس في عاصمته الرياض. وهكذا قضينا ربع ساعة في مسيرة مُتمهلة إلى أن وصلنا إلى ساحة مفتوحة خلف بستان القصر، حيث تشيرُ حفرة كبيرة إلى ان الجزارين في حائل يستخدمونها مسلخاً. في أي مناخ آخر كانت مثل تلك المنشأة ستكون غير محتملة لكافة الجيران، إذا ما أقيمت هكذا داخل حدود البلدة، وفي وسط البسـاتين والمسـاكن. لكن جفـاف الهـواء هنا يصل إلى الدرجة التي تمنع التسبب في نتـائج سيئـة، ولا يحدث التعفن بسبب الأثر التجفيفي للهواء، الذي يجعل رائحة جثة ذات ثلاثة أو أربعة أيام غير مؤذية للأنف، وتصبح وكأنها طبلة جلدية؛ ويُمكن للمرء أن يسير متمهلاً قرب جثة جمل نفق حديثًا على جانب الطريق، وقد يحسبُ الرائحة لجثة تم تحضيرها بالزرنيخ والكحول لمتحف للتشريح.

عند هذه النقطة يُفضي الشارع إلى داخل العاصمة. إن الجزء الذي قطعناه حتى حينه في سيرنا هو الحي الجديد الذي يرجع تاريخ تأسيسه إلى تاريخ تولي عائلة ابن رشيد للحكم؛ لكننا الآن ندخل بلدة حائل الأصلية، حيث إن كل شيء يعبر عن قدمها رغم أن تاريخها ليس بالبعيد. إن الحيين الرئيسين اللذين يشكلان المدينة القديمة يفصلهما طريقٌ طويل، أضيق وأقل انتظامًا عن ذلك

الذي كنا قد قطعناه. ولم يكُن هذا الحد الفاصل ليشير إلى فصلٍ بين المباني أكثر منه إلى السكان الذين انقسموا كما كانوا من قبل بسبب العداوات والحروب الأهلية. ولكن يد ابن رشيد القوية وضعت أخيراً نهاية لهذه العداوات. إلى اليمين وإلى اليسار تقاطعات تتفرع عن المسار الرئيسي، تؤدي إلى شوارع جانبية، وممرات أقل منها. أخذنا من جهة اليمين ممرًا بالغ الضيق والتعرج، قادني فيه دُحيم لفترة من الزمن عبر متاهة من البساتين، والآبار والبيوت العتيقة غير المتناسقة، إلى أن وصلنا إلى مجموعة من المباني، و دهليز مسقوف سرنا في ظلامه أوصلنا إلى طريق عريض تحوط به المنازل من كلا جانبيه، ويلحظ أن جدران أحواش البيوت والأبواب الخارجية تتداخل فيما بينها وبين الشارع نفسه. والمداخل المقوسة غير معروفة هنا، وجميع الأبواب مصنوعة من الخشب مثبتة بطوق من الطوب، وهي صلبة وقوية البناء. وقف دليلي أمام أحد تلك الأبواب وطرقه. وجاء الصوت من الداخل يقول «سم»، وفي الحال تقدم أحدهم وفتح الباب. وحيث كنا نقف في الفناء كان يوجد اثنان أو ثلاثة من الأفران الصغيرة، وأوان وقدور معدنية ذات أحجام مُختلفة، بعضها كبيرٌ لدرجة غير عادية - لأنّ العرب يتفاخرون مثل أسلافهم قبل ألفي عام مضيا، بحيازتهم لقدور كبيرة للدرجة التي يمكن معها طبخ خروف بأكمله فيها - ألواحٌ من النحاس وقضبان من الحديد وأشياء مشابهة تدلُّ على أعمال الحدادة العربية. وتقدم بعض الشبان مفتولي العضلات، أنصاف العرايا الملوثين بالسخام للمصافحة بأيديهم غير المغسولة، بينما كانوا يتبادلون النكات النجدية مع دحيم. تكدر سويد، شقيق دحيم الأكبر، بوصفه رأس العائلة بالتصرف غير اللائق لأقاربه الصغار، وقام بتوبيخ الأحداث اليافعين وأسرع ليُطهر وجهه ويديه، ثم قادني إلى

داخل المنزل، حـيث يرقـد في غـرفـة مُظلمـة شـقـيق آخـر، هو المـريض الذي استدعـيت من أجله؛ كـان المريض يعـاني من نوبة حـمى عـالية، ويتـحـدث بصعـوبة، على الرغم من أن حـالته، لحسن الطالع، ليست خطرة. اتخذت مقـعدي إلى جانب المريض ووجهت للحضـور أسئلة أولية، ممتزجة ببشائر خير، بينمـا يحاول المريض أن يبدو مرحًا، ويُظهرُ بأنه كان يتوقع حضوري لرؤيته، وأنه مسـرور لذلك. إخراج اللسان حتى دون طلب، ومد اليد التي يتـمكن بهـا الطبـيب من جس النبض هي إجـراءات مألـوفة هنا؛ ولكن إن لم تكن ترغـب في أخـذك مـأخـذ جـاهـل، فـإن عليك أن تجـرب جـس نبض كـلا الرسـغين بالتتـابع على افتراض أن كل رسغ مستقل عن الآخر، ولكلٍّ قصة مُختلفة ليرويها؛ لذلك فإنه يجوز لقرائي أن يستنتجوا بأن النظرية الحقيقية للدورة الدموية ليست من اكتشـاف هارفي فـقط(١٤). بعـدمـا قـمت بأداء دوري، أخذني الشقيق الأكبر جانبًا، واستفسر عن التشخيص وتوقعاتي. وعند إجابتي المُتحفظة، وعد بالإذعان لكل ماقد أصفه، ثم دعاني للجلوس وتناول القهوة قبل أي معالجة. أظهرت رغبة في أن أشرع في الحال في معالجة المريض، ولكن حتى المريض نفسه تحدث في صوت خـفـيض مـصحـوب بالإشارات مشيرًا إلى رغبته في أنه لابد أولاً وقبل كل شيء أن أشارك كرم ضيـافتهم. وأشك فيـما إذا كـانت الأمور ستجري في مسار آخر في هذه البلدان، حتى لو كان ذلك الشخص يحتضر. وهكذا قُدم التمر، وأشعلت الغلايين، وحضّر دحيم القهوة، وامتلأت الغرفة بالزوار، والتي كان يرقد فيها المريض. إن عزل المريض لايشكل أي جزء من المعالجة العربية؛ بل على العكس إنه يعد واجبًا مقدسًا تقريبًا أن تتم زيارة المريض ومواساته من قبل الجميع. والعربي المريض نفسه لاتوجد لديه أي فكرة عن تركه وحده؛ وإن

كل رغبته هي أن يكون مع أحد؛ كلا، بل إن الطريقة نفسها متبعة في حالة حدوث وفاة وسط العائلة، ويفتح أقرب الأقربين منزله لأيّام عدّة لتلقي أكبر قدر مُمكن من زيارات التعزية، لذلك فإن الوحدة عند البلاء ليس لها من أنصار هنا.

كان أغلب الزوار في منزل دحيم من أهل القصيم أو عالية نجد . كان من السهل أن تدرك من هيئتهم ومن لهجتهم بأن سكان المناطق المذكورة آنفًا ليسوا أقل في رفعة منزلتهم من أولئك الذين ينتمون إلى جبل شمر فيما يفهم من أي معنى للحضارة والثقافة العامة، بالمقارنة بمنزلة الشمامرة بالنسبة لأهل الجوف، أو بمنزلة أهل الجوف بالنسبة إلى البدو. وبالفعل، لو كان قرائي سيرسمون خطًا قُطرياً عبر خريطة الجزيرة العربية من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، متبعين اتجاه مسار رحلتي الفعلية عبر البلاد، ثم ميزوا الأقاليم المتعددة لشبه الجزيرة بأحزمة من الألوان تتدرج في التوهج حسب درجات التقدم في الآداب، والتجارة والمكتسبات الجمعية، على نظام «دُوبن Dupin»(١٥)، فإنهم سوف يجدون أن الخط القاتم هو الأقرب للشمال، أو وادي السرحان؛ بينما الجوف، وجبل شمر، ونجد والأحساء، وملحقات هذه المناطق، تتفتح فيها الألوان على التوالي، أكثر فأكثر، إلى أن تصل إلى الحزام الذي يمثل عُمان حيث يجب أن يكون اللون أخف الألوان وأكثرها بهجة. وفي الواقع، وجدت أن فكرة همجية العرب أو البدواة وصلت إلى تلك الدرجة من القبول العام في أوروبا بسبب رئيس هو أن الرحالة لم يزوروا حتى الآن إلا الأجزاء الشمالية والغربية للجزيرة العربية.

وهنا نحن الآن في حائل، حيث يُقابل التعصب الأعمى والطغيان الوهابي بالمقت الشديد، ومع ذلك كنا في خضم السياسة والأحاديث النجدية. فقد

كان حصار عُنيزة، وآخر أخباره، التخمينات، والآمال والمخاوف المتعلقة بمداه ونتيجته، كانت هي المواضيع الرئيسة للأحاديث. كنا في الحقيقة قد سمعنا عن الحدث العظيم لذلك اليوم في التاريخ العربي بعد أن تركنا حدود الجوف. لكن هنا كان هو الموضوع المستحوذ على التفكير والبحث المصحوب بالقلق، وهو السبب الحقيقي، رغم أنه مستتر، للزيارات المتكررة التي كان يقوم بها شيوخ القصيم إلى طلال، ولقاءاتهم التي لا نهاية لها في مساكن عبدالمحسن.

كانت [عنيزة] تلك البلدة الكبيرة لقرون عدّة عاصمة المنطقة، أو بالأحرى ثلث الجزيرة العربية، وأعني بذلك ما يمكن تسميته وسطها الشمالي الغربي. وتجارتها مع المدينة ومكة المكرمة من ناحية، ومع نجد، بل ومع دمشق وبغداد من ناحية أخرى، وفرت لها حركة تجارية لا تعرفها أية محلة أخرى في وسط الجزيرة العربية، وتجد تجارها الجسورين على شواطئ البحر الأحمر والخليج الفارسي [العربي]، وأحيانًا على الضفاف البعيدة لنهر الفرات، أو عند ينابيع دمشق. وحيث إن أهلها يمتازون بالشجاعة والنشاط لم تطغ الروح التجارية على الروح العسكرية فيهم، وشوهد محاربو عنيزة مرتين في فترة حديثة تحت أسوار باهلة في قلب عُمان على الرغم من أن المسافة الفاصلة بينهما مسيرة ثلاثة شهور حسب مسيرات العرب. وعنيزة نفسها محوطة بسور مزدوج من التحصينات، التي مع أنها مبنية بالطوب الطيني، فهي في ارتفاعها وسماكتها ليست أقل إرعاباً لمحاصرين عرب في حالتهم العلمية الراهنة، من دفاعات مدينة Antwerp [في بلجيكا] أو مدينة Badajoz [في إسبانيا] بالنسبة لجيش أوروبي. وتقوم الدائرة الخارجية من الأسوار، بخنادقها وأبراجها، بحماية البساتين، بينما سلسلة الأسوار الداخلية تحوط بالبلدة نفسها. وفي عنيزة

زعيم شاب وشجاع هو زامل[16]، أو لنسّميه بالاسم الذي اعتاد أن يلقَّب به، زويمل العطيه [؟]، كان محبوبًا من قبل مواطنيه وأتباعه لدماثته وتسامحه في أوقات السلم، وجرأته في الحرب. وهو الزعيم الصامد الآن بعنيزة ضد قوات فيصل [ابن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود] الملك الحالي للوهابيين أو عائلة ابن سعود. تلك كانت الأوضاع في شهر أغسطس من سنة ١٨٦٢م [٣/ ١٢٧٩هـ]؛ وقد استمرت خلال بقية أيام إقامتي في الجزيرة العربية مأساة تلك الدراما الدموية، التي جعلت الظروف مني شاهد عيان لبعض فصولها في غير رغبة مني على الإطلاق.

تركنا دحيّم وأصدقاءه أو أقاربه وهم في مناقشة جادة حول هذه المواضيع. على أية حال، كانت مجالات محادثاتهم محصورة بشكل مطلق عن الحرب والسياسة؛ وقد طرحت كثيراً مواضيع الطب والجراحة (لأن العرب لا يكادون يميزون بين الواحد والآخر، ما إذا كان في النظرية أو التطبيق؛ وبالفعل فإن دواءهم المفضل، أو الدواء العام لجميع الأمراض، هو الكي الفعلي، الذي ينتمي للجراحة أكثر منه للطب) على بساط الأحاديث، و سرني أن أجد معارفي من القصيم يتحدثون عن هذه المسائل بفهم إلى حدٍّ كبير، واستلمت أجرتي المطلوبة، وفوقها شيء من التجربة. تنمو في الجوار نباتات كثيرة لها خاصية علاجية، منشطة، ومهدئة، أو مخدرة، وأحيانًا يستخدمها السكان الأكثر دراية. وأيضاً لا يخرج استخدام الكمادات والعلاجات ذات الاستعمال الخارجي أو المسكنات كلية عن نطاق مهارتهم، وقد يعوض الذكاء الفطري، وهو يعوض إلى درجة معينة، نواقص الجهل النظري.

انقضت ساعة في الحديث المتناغم والمفعم بالحيوية. وقدم لي بعض المرضى الآخرون لمعاينتهم، وتم تحديد موعد لزياراتهم، وبقيت حتى أعطيت الأدوية

المناسـبة للـمريض، ونهـضتُ للاسـتئذان بالانصـراف. عرض شـقيق دحيّم الأكبر أن يصحبني إلى بعض المنازل المجاورة، حيث يتوقع أن منفعة متبادلة للمرضى وللطبيب قد تتحقق.

يتكون هذا الجزء من البلدة من مجموعات كبيرة، أو جُزر من المنازل، بنسق فيه نوع من الانتظام وسط البساتين والآبار؛ ولكن ليس فيه سوق أو جامع، وهو برهان إضافي لغياب التنظيم قبل عهد حُكم ابن رشيد. كانت الشوارع أو الأزقـة أنظف مما كنت أتوقع أن أجـدها عليـه، ولكن هـذا يعـزى جـزئيّـاً إلى الجفـاف غـير العـادي للمناخ. تجولنا في أماكن عـدة وكنا أحيـانًا نقـترب من الجبل العالي شـديد الانحدار الذي يطلُّ على السور الشرقي للبلدة، وأحيانًا نشق طريقنا عبر البساتين القريبة من الحد الداخلي للتحصينات الجنوبية، إلى ما بعد الظهر، حيث جعلت حرارة الجو من المشي أمرًا غير حكيم. قام سويد بإعادة توجيهي إلى الطريق الرئيس، وهناك افترق عني مع وعدٍ بإرسال دحيّم في المساء ليُعلمني عن حالة مريضي.

وعندها عدت باتجاه المنزل وحدي؛ كانت الشوارع والسوق خالية تقريبًا؛ والظلال السوداء الضئيلة متجمعة أسفل أشجار النخيل أو تحت الجدران، كل شيء ينام تحت وطأة وهج الظهيرة. ربما، بدلاً من توجهي مباشرة إلى مقر إقامتنا، قادني حب الاستطلاع ومتعة وجودي وحدي، إلى بضع دقائق بعيدًا إلى البـوابة الغربية، ومن ثم النظر إلى السـهل العظيم بين حائل والجبل. بدا ذلك السـهل عندهـا وكأنه قد تحول إلى بحيرة واسعة، تغـمر مياههـا الحافة الصـخرية لجبل شـمر، بينمـا تبـدو بالقـرب من البلدة وكأنهـا انكمـشت إلى أحواض و مياه ضحلة؛ إنه وهم السراب اليومي. ولو عُدنا عندما تبدأ نهاية حرارة الظهر، فإننا قد نرى البحيرة الخرافية تنكمش إلى بركة بعيدة، وقبل

المساء سوف تختفي تمامًا، لتعود في اليوم التالي بساعة أو ساعتين قبل الظهر. إن شبيه الماء هذا، يجعل المنظر الذي كان سيضحي مقفرًا قاسيًا، لطيفاً جداً. ياحبذا لو كان حقيقياً!

بعد أن أشبعتُ حملقتي إلى هذه الظاهرة الجميلة، على الرغم من أنها الآن أصبحت مألوفة، عدت إلى مسكننا. قمتُ وبركات بإعداد طعام غدائنا، وتبادلنا الأحاديث حول الزيارات وشؤون الصباح. كان لدينا بعدئذ ساعتان أو نحوهما من الهدوء، إذ إنه من النادر أن يأتي إلينا أحد في هذه الفترة من اليوم، إنها فترة القيلولة التي لا تقل عما هي في إيطاليا وإسبانيا. وأخيراً اقترب العصر، وهو تقسيمٌ للوقت مشهور في الشرق، ولكن ليس لديه في اللغة الأوربية اسم مطابق؛ إنه يبدأ من اللحظة التي تكون الشمس قد وصلت فيها إلى منتصف مسار انحدارها، ويستمر حتى حوالي الساعة والنصف، أو بالأحرى أقل قبل غروبها. عندها غادرنا المنزل معاً، واتجهنا نحو القصر عبر طريق فرعية توصل بين المساكن الخاصة ببعض حاشية البلاط وإحدى زوايا الجامع الكبير. في هذا الأخير (الجامع) سوف يكون هناك بشكل عام عدد من المصلين لأداء صلاة العصر، خاصة أن هذه الصلاة هي التي إختارها كل من طلال وزامل من بين الصلوات الخمس المفروضة لأدائها في الجامع، على الرغم من أنهم حتى في تلك كثيراً ما يتغيبون عن الحضور. يعقب هذه الصلاة بشكل منتظم قراءات بصوت جهوري لفصل أو قسم يتم اختياره من بعض الكتب الدينية التقليدية، ويتبعها في الغالب موعظة قصيرة مُرتجلة أو شرح لما تمت قراءته.

في ما يتعلق بشعائر الصلاة نفسها - على الرغم من أنها تختلف اختلافًا طفيفًا بين «الحنابلة» و«المالكية» في وسط الجزيرة العربية، عن أولئك المتكيفين

للوهابيين من جهة، وعما يلاحظ عمومًا وسط الشافعية والحنفية الذين يوجدون بكثرة في سورية أو في تركيا من جهة أخرى - فإنني هنا سوف لن أعوق القارئ حولها. ولأخذ فكرة صحيحة عن الديانة الإسلامية في شكلها العادي، فإننى أستميح القارئ عذرًا لأحيله إن كانت له الرغبة إلى الفصل الثالث من كتاب [إدوارد وليام] لين حول مصر [أخلاق وعادات المصريين المعاصرين](١٧)، حيث سيجد كل ما قد يحتاجه حول هذا الموضوع والمواضيع المشابهة بتفاصيل واضحة ومثيرة للاهتمام، وبدقة لا تضاهى حول كافة النقاط.

عند انتهاء الصلاة يغادر حوالى نصف المصلين الجامع. ويتجمع أولئك الذين يبقون في الجامع قرب وسط المبنى الكبير والبسيط، ويجلسون على أرضيته المفروشة بالحصى، في دائرة داخل دائرة؛ بعضهم يسند ظهره على الأعمده المُربعة الخشنة، التي يجدر بي أن أسميها ركائز، والتي تدعم السقف، بعضهم يلعب بعصاه أو سوط الركوب بأيديهم. من بينهم يتم اختيار شخص ليقرأ، ولكنه ليس بإمام أو خطيب، والذي يُفترض فيه أن يكون بمستوى أعلى من الآخرين في القراءة، علاوة على امتلاكه لصوت جهوري حسن، ويمسك بمخطوطة كبيرة بين رُكبتيه؛ والتي قد تكون شيئاً مثيراً للكثير من الاهتمام في برلين أو باريس؛ وتحتوي بين دفتيها على أحاديث النبى [ﷺ] أو سير صحابته، أو ربما صحيح البُخاري، أو شيءٌ آخر من هذا القبيل. من هذه المخطوطة يقوم بالقراءة في صوت واضح إلا أنه ذو نغمة مُملة رتيبة، مصاحبًا لكل كلمة بتصريف وتشكيل أجدرُ بسيبويه أو قُصي [؟]وقد لا يستطيع بلوغه أفضل عالم نحوٍ وصرف في سورية أو القاهرة. والسبب واضح؛ فهنا الموهبة فطرية، وهناك مهارة. تستمر مثل هذه المحاضرة في

العادة لمدة من عشر دقائق إلى ربع ساعة، ويستمع إليها بسكون ملائم، في حين ينظرٍ جميع أولئك الذين لديهم أي نوع من الشعور الديني، وهم يشكلون نسبة كبيرة من الحاضرين لمثل تلك المناسبات، إلى الأرض بصمت، أو يثبتون نظراتهم على القارئ ومجلده. وآخرون وهم الأقل جديّة في مشاعرهم، والمستمعون من الشباب، يجلسون براحتهم؛ وآخرون، أيضاً، يهمسون بانتقادات بتشكك لجيرانهم، أو يتبادلون نظرات سخرية عند قراءة بعض المآثر العجيبة، أو الرؤى غير القابلة للتصديق. ويؤسفني القول إن طلالاً نفسه، عندما يُشرف مثل هذه اللقاءات بحضوره لها، يقدم مثلاً سيئًا للاهتمام، مُكرسًا الوقت لدراسة وجوه جماعة المصلين، ومُظهراً بحركة عينيه اللماحة، بأنه مشغول بمسائل تتعلق بواقع الحياة والسياسة أكثر منها بأقوال النبي [ﷺ] الحكيمة، أو بالإنجازات المجيدة لصحابته.

وإذا ما كان الأمير موجوداً في الجامع؛ فإن من عادته أنه بعد حوالي عشر دقائق من الصبر يؤمي للقارئ بإشارة تدل بأنه قد سمع مافيه الكفاية، فيغلق القارئ كتابه، وينفضُّ الجمع بدون أي طقوس لاحقة. ولكن إذا كان الأمير متغيبًا، فإن أحد الأفراد من كبار السن الأكثر احترامًا من المنتمين إلى فئة أشباه المتعلمين المتدينين، أو الإمام أو الخطيب نفسه، يتولى دور القارئ، ويقدم شرحًا شفهياً قصيراً للفصل الذي تمت قراءته للتو، أو في أحيان أخرى موعظة مرتجلة وهو جالس بطريقة حميمية. و كثيراً ما استمعت في هذه المناسبات، هنا وفي القصيم، إلى الكثير من الحكمة والمبادئ الأخلاقية العملية.

عندما تنتهي القراءة، أو القراءة والموعظة معًا، يظل كل واحد جالسًا في مكانه صامتاً مدة دقيقة أو نحوها، وكأنه يتأمل فيما قد سمعوه من ناحية، ومن ناحية أخرى ليعطوا الشخصيات المهمة من الحاضرين الفرصة للانصراف قبل

ضـغط الازدحـام. إن من الطبيـعي أن يكون طلال أول من يقف ويغـادر الجامع، يصحبه زامل وشقيقاه أو عبدالمحسن، ويتخذ مكانًا له فوق مصطبة حجرية في الساحة الخارجية ليعقد مجلسه المسائي لمدة قصيرة. وفي هذه المناسبة ينظر طلال في الغالب بالقضايا الثانوية، وأي شيء عد غير مهم بما فيه الكفاية لينظر فيه في مجلسه الصباحي. وطلال نفسه أحياناً يتراخى بابتسامة لطيفة عندما يعرض عليه أحد البدو شكوى غريبة، أو حينما يحضر أمامه اثنان من رجال البلدة كلاهما مذنب لسبه الآخر بألفاظ نابية. كنت لأكثر من مرة متفرجاً ضاحكاً لهذه المناظر؛ كانت طريقة طلال موجزة وساخرة؛ والحكم في الغالب جلدات سوط قليلة، غير قوية، تنفذ في الطرفين، والملك القاضي يراعي بحكمة أن الإهانة دائماً، وإلى حد كبير، تأتي نتيجة استفزاز؛ والخطأ في هذه الحالة مشترك، وعليه فإن العقاب يجب أن يكون كذلك. ولكنها كانت عقوبة معتدلة.

كنا حينها نحضر مع الجمع؛ وأحيانًا كان عبدالمحسن يخرجنا من وسطهم، ويدخل معنا في نقاش عميق عن الأدب والتاريخ العربي؛ أو يدعونا أحد الأصدقاء من أهل البلدة، وفي أغلب الأحيان أحد الشيوخ من الشباب الذين أصبحوا بطريقة ما زبائن ورفاقًا، لتناول خوخ وتمر مع فنجان من القهوة، التي لا تقدم إلا في الجزيرة العربية، في منزل والده أو منزل عمه.

أما عن وجبة العشاء فقد تحدثت عنها سابقاً بإسهاب، ولا أحتاج أن أخوض في هذا الموضوع ثانية. طبق واحد لايتغير، على الأقل فيما يختص بالأطعمة، في كل المنطقة الممتدة من الجوف إلى جوار الرياض. وليس هناك من أمة تفتقر إلى مفهوم فن الطبخ أكثر من العرب؛ وفي هذا العلم، على كل حال، يتقدمهم الأتراك، والفُرس، والهنود بصورة لا حد لها؛ ولايعرفون

في الحقيقة عنه إلا القليل. فالوجبة لا تتعدى الرز ولحم الضأن المطبوخ، مكوم في صحن كبير واحد، وقليل من الخبز، والتمر، وربما بيضة أو بيضتان مسلوقتان، وقرع مهروس، أو شيء من ذلك القبيل لنكهة الأكل؛ وليس لملك جبل شمر والجوف وخيبر كافةً أكثر من ذلك عند سفرة طعامه. ولتناول الأكل، اغسل يديك وقل "بسم الله"، واجلس للطعام، وكل بسرعة وكأنك تخشى أن يهرب العشاء منك، ثم قل «الحمد لله»، واشكر مضيفك إذا رغبت أن تكون مُهذبًا، واغسل يديك ثانية، بالصابون أو بالبوتاس؛ لأنه أحياناً يقدم الصابون وأحياناً أخرى يقدم البوتاس، وبذلك يكون كل شيء يتعلق بالوجبة قد انقضى. وإذا ما كنت قد أشعلت غليونًا أو غليونين من التبغ، وشربت ثلاثة أو أربعة فناجين من القهوة قبل العشاء؛ فإنك قد تدخن غليوناً واحداً وتشرب فنجاناً واحداً من القهوة بعد العشاء، لأن ذلك من آداب ما بعد الأكل، ثم تتمنى لأصدقائك مساءً طيبًا وتنصرف.

كان رشيد، خال طلال، وجارنا المباشر، كما ذكرت آنفًا، قد دعانا مرات مُتكررة إلى منزله. كان داهية ومسلياً، ولكنه شخصية بالغة السطحية، فخور بمعرفته للبلدان الخارجية، بوصفه قد سافر تقريباً أبعد من أي أحد آخر من أهل حائل، حتى أنه قد وصل إلى كركوك وهي رحلة سبعة أيام شمال بغداد؛ وكان علاوة على ذلك قد ذهب إلى مصر بشقيها العليا والدنيا. لقد تمكن، مثل كثير من الرحالة من الأجناس الأكثر تحضراً، من مشاهدة مظاهر الأشياء وليس بواطنها، وقد يحبك قصصًا خيالية لمغامرات، وصفات غريبة، تذكرُ المرء كثيراً بالطريقة التي يميل للحديث بها الرجال ممن زاروا بلدانًا أخرى دون معرفة سابقة باللغة والتاريخ والعادات، أكثر مما يتحدثون عن بلدانهم. ومع ذلك كان قلبه أفضل من عقله؛ وهو ولو لم يكن حكيمًا فقد كان على الأقل

صديقًا طيبًا وموثوقاً به.

كانت دعوات Dohey [؟] خصوصًا تلقى الترحيب منا، لحسن مسكنه، وللمحادثات المتنوعة المثيرة للاهتمام التي كنت متأكداً دائمًا من حصولها عنده. هذا التاجر، كان رجلاً طويلاً جليلاً مابين الخمسين والستين عامًا من العُمر، تشعُّ ملامحه ببريق لذكاء غير عادي، ومن الحائليين الأقحاح من الطبقة القديمة، وكان كارهًا للوهابيين من أعماق قلبه، مُتشوقًا للمعلومة عن الأسباب والنتائج، وعن البلدان والحكومات، ويؤمن بأن التجارة والحياة الاجتماعية دعامات رئيسة إن لم تكن الغايات للتنظيم المدني والوطني. وكان خاله، الذي يقترب الآن من حوالى الثمانين عامًا من العمر، وهذا الرقم تخميني في بلد يخلو من السجلات، قد زار الهند، وعمل في التجارة في بومبي؛ وكذكرى لتلك المرحلة لايزال يرتدي طاقية رأس هندية وشالاً كشميرياً. وكانت بقية العائلة لا تختلف عن مستوى كبارها، ومن النادر أن رأيت أبناء أكثر إحساسًا بالواجب، أو على تعليمٍ أفضل من هذه العائلة. إن قرائي بالطبع سيتفهمون أنني هنا أشير ضمنًا للتعليم في طوره الأخلاقي وليس الفكري. فقد كان الابن الأكبر نفسه، وهو رجلٌ في وسط العمر، لا يجرؤ أبداً على الوجود في حضور والده دون أن ينزع رباط السيف ويتركه عند المدخل، ولا لأي سبب من الأسباب أن يجلس في مستوى الجلسة نفسها أو إلى جانبه في الديوان.

كان الديوان نفسه واحداً من أجمل ما رأيت في هذه الأنحاء. كان غرفةً كبيرة مربعة تطل على حديقة المنزل الكبيرة، ومُضاءٌ بشكل بهيج بواسطة نوافذ معرشة في جدارين من جدرانه، بينما الجدار الثالث قد أُوقفَ عن قصد عند نحو نصف ارتفاعه، وأقيمت أعمدة في الفراغ المتروك بين نصف الجدار هذا

والسقف، ومن بين هذه الأعمدة ترى "أغصان شجر عنب مثمرة قد جدلت على جانبي المنزل"، وكأنها وضعت لسد الفراغ بين الأعمدة بشبكة بهيجة من الأوراق الخضراء والأغصان، شفافة كزجاج مُنقط في أشعة الشمس الشرقية. ومقابل هذا الضوء البهيج رفعت أرضية الديوان بحوالى قدمين فوق البقية، وفرشت ببساط فارسي رائع، ووسائد حريرية، وأفضل أنواع الأثاث العربي. في النصف المنخفض لمجلس القهوة، وعند زاوية بعيدة، كان يوجد وجار القهوة الحجري الصغير، لكي لا تضايق حرارته المضيف وضيوفه. يتردد العديد من علية القوم في المدينة على هذا المكان، ويتجاذبون أطراف الحديث التي تنحو عموماً نحو مواضيع جادة، وفي مقدمتها التحزبات والسياسة في الجزيرة العربية؛ ومع أن Dohey سيظهر نفسه على أنه وطني بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فهو في الوقت نفسه حكيماً كيسًا متسامحًا مع الأجانب، وهي صفات تندر أن تجتمع مع بعضها بدرجة ملحوظة، لذلك هي موضع ترحيب أكثر.

لقد قضيت ساعات كثيرة سارة في هذا المنزل نصف المخضوضر، في مجلس قهوته، وسط وجوه مرحة وأحاديث متنوعة، بينما في داخلي أتفكر في المواهب الفطرية لهؤلاء الناس الشجعان النشطين، وأمعن النظر لأتبين عبر الرؤى الضبابية للمستقبل السبيل الذي يمكن من خلاله تغيير وضعهم الحالي غير المثمر بسبب عزلتهم، وربطهم بعلاقة مفيدة مع البلدان المتقدمة الأخرى، للمنفعة المتبادلة لكل طرف و للجميع.

سرت الأحاديث بالسلاسة والذوق الذي يميز مجتمع شرقي صالح، دون قلة الاحترام أو الإثارة التي أحيانًا تشهدها المجالس في بعض البلدان، بدرجة لا تقل عما يسببه الصمت المُطبق في بلدان أخرى. وفي رأيي أن الشرقيين

عمومًا متفوقون في علم المحادثة مقارنة بالغربيين؛ ربما من منطلق ضرورة استخدامها بشكل مستمر، بوصفها الوسائط الوحيدة والمتاحة للاتصال والأخبار العامة، حيث الصحف والمنشورات غير معروفة.

وإذا لم نكن في ذلك الديوان فقد نكون في حديقة مميزة أخرى تكون هي مسرح راحتنا وقت العصر، وسط أشجار الفاكهة والنخيل، بجانب مجرى ماء، بدا وكأنه ليس من عمل الإنسان، بل من فعل الطبيعة، وتزوده بالماء بشكل متواصل بئر مختفية عن نظرنا وسط الأوراق الكثيفة للنباتات. وكنا هنا، و نحن متمددين في الظل البارد السار، نناقش لساعات مع عبدالمحسن، ومع آخرين من المستوى نفسه، الميزات الخاصة بشعراء ومؤلفين عرب، عمر ابن الفارض، أو أبو العلاء، في لقاءات تتسم بشيء من الظرف، ولكن إلى الحد المقبول للشخصية السامية التي تتميز بالمرح الرزين والطرب الهادئ.

أو كنا أنا وبركات، حينما تظهرُ النجوم متلألئة تزين السماء، نخرج بعيداً عن الهواء الساخن للشوارع والسوق، إلى السهل المفتوح معتدل البرودة، وهناك نمضي ساعة أو ساعتين منفردين، أو في حديث مع من قد يباغتنا بالصدفة من المارة في الظلام، ونسلي أنفسنا ببساطته إن كان بدوياً، أو بدهائه إن كان من الحضر.

هكذا مضت حياتنا العادية في حائل. وجرى العديد من الأحداث الطفيفة التي أضفت بعض التغيير، والعديد من المنغصات التافهة والطبيعية في التعامل البشري؛ في بعض الأحيان كان عدد المرضى والحاجة المُلحة للعناية بهم لاتسمح إلا بالقليل من وقت الفراغ، وفي بعض الأحيان يمُرُّ يوم أو يومان دون أي عمل حقيقي، ولكن لدى قرائي عن مثل تلك الأحداث مايكفي مما سبق لي ذكره. ويفي بالغرض أن نقول بأننا من السابع والعشرين من يوليو

إلى الثامن من سبتمبر [١٨٦٢م/ ١٢٧٩هـ] ظللنا نمارس الطب في العاصمة، وجوارها المباشر.

بحلول هذا الوقت كنا قد حصلنا على معرفة كافية بعاصمة شمر وسكانها، بينما الجزء الأكبر من الرحلة مايزال متبقياً أمامنا، والخريف قد بدأ يقترب. علاوة على ذلك فإن أي إطالة تزيد على الحد المعقول في إقامتنا في حائل قد تكون خطرة علينا وعلى طلال؛ فقد كنا تحت رقابة جواسيس عبيد[الرشيد] وجواسيس فيصل [بن تركي آل سعود]، وكذلك جواسيس الملك نفسه. وكان، أيضاً، تجار بغداد، وعددهم كبير، ولهم تأثير في البلدة، ينظرون إلينا بكره تام، معتقدين حقيقة أننا دمشقيون، والذين يكن لهم الشيعة مقتًا خاصاً موروثًا، بحيث أن الاثني عشر قرناً التي مضت على بدايته قد زادته بدلاً من أن تنقص منه. ووفقاً لذلك، ومع أنهم لا يتفقون مع الوهابيين في أغلب المسائل، فقد اتفقوا حينها مع الوهابيين على شيء واحد، وكان ذلك هو النظر شزراً لنا، والتحدث عنا بكل أنواع الضرر المتخيل، متى ما كان في استطاعتهم الحديث باطمئنان، أعني فيما بينهم، ومن وراء ظهورنا. علاوة على ذلك فقد كان مخزون أدويتي محدوداً، وكان لدي سبب معقول أن أخشى معه من صرف الكثير منها في مكان واحد، الشيء الذي لا يترك لنا ما يكفي لممارسة الطب الذي ينتظرنا في بقية رحلتنا الطويلة. والآن لا يمكن أن تتم الرحلة عبر حدود جبل شمر دون علم طلال، وموافقته. وفي واقع الأمر، فإن جواز مرور يحمل توقيعه الملكي شيء لا غنى عنه لكل من يرغب في عبور الحدود، ولا سيما إلى منطقة الوهابيين؛ وبدون مثل تلك الوثيقة لا أحد سوف يُغامر بتوصيلنا.

وفقاً لذلك طلبنا مقابلةً خاصة في القصر، وحصلنا عليها. لقد أثبت

طلال، الذي أسبغ علينا رضاه بشكل متواصل خلال إقامتنا في حائل وببراهين يومية ، أنه صديق حميم؛ بل راعٍ وهي الكلمة التي ستكون أكثر عدلاً لوصفه، إلى النهاية؛ مُجسدًا للمثل الإسكتلندي القائل بأن الضيف ليس فقط «من سيبقى»، بل أيضاً «من يرحل». لهذا أملى على زامل ليكتب؛ لأن طلال نفسه لايكتب، جواز مرور أو توصية عامة للمرور الآمن ، كافياً ضمان معاملتنا معاملة كريمة حسنة داخل حدود حُكمه، وأيضًا ما وراءها . وأضيف الترجمة لذلك الجواز لمنفعة وزارة الخارجية وكافة الموظفين فيها .

«بسم الله الرحمن الرحيم، نحن طلال بن رشيد، إلى جميع أتباع شمر الذين قد يرون كتابي هذا، السلام عليكم ورحمة الله . وبعد، فنعلمكم بأن حاملي هذه الورقة «سليم العيس أبو محمود، ومساعده بركات، أطباء، ينشدون رزقهم بالمعالجة، بمشيئة الله، ويسافرون تحت حمايتنا، وليس لأحد أن يعارضهم، أو يضايقهم، والسلام عليكم» ويتبعُ التاريخ .

حينما انتهت الكتابة وضع طلال ختمه عليه، ونهض ليتركنا مع زامل، بعد أن ودعنا مصافحة ، مُتمنيًا لنا رحلة ناجحة وعوداً سريعًا . ومع كل هذه الدوافع للمغادرة لم يسعني إلا أن أشعر بتردد لمغادرة بلدة مريحة، حيث بكل تأكيد وجدنا أصدقاء مخلصين، مُتمنين الخيرَ لنا، إلى بلاد لا نتوقع فيها - بأي حال من الأحوال - مثل تلك الحظوة، أو حتى مثل ذلك الأمان. وبالفعل، كان كل الذي سمعناه عن نجد الوهابية، مُنذراً بالشؤم، وقد بدت طبيعة الأرض أمامنا عند اقترابنا منها سوداء للدرجة التي كدتُ أن أندم على قراري، وكنت ميالاً بشكل كبير لأن أقول: «كفى إلى هذا الحد» .

ولكن مر بخاطري قولان أحدهما مثل إنجليزي «Over Shoes Over Boots» [أي، من ينجح في تحقيق جزء من هدفه يكون قادراً على تحقيق كل

الهدف] والآخر مقطع [من الكوميديا الالهية لدانتي] يقول «بينك وبين بياتريس هذا الحاجز» يشجعان على الثبات على الرغم من أنهما قد قيلا في مناسبات مُغايرة نوعًا ما، ومنحاني الشجاعة لمواصلة الرحلة. وآنذاك كنا قد وصلنا إلى مسافة بعيدة، للدرجة التي تصبح معه العودة عما قطعناه حتى حينه، مهما يكنْ من أمر، جبنًا لايغتفر. والآن طلبنا من زامل أن يخبرنا عن وجود رفاقنا المقرر لهم مرافقتنا في الطريق. أجابنا بأنهم قد تلقوا أوامر بالحضور إلينا، وأنهم لابد وأن يأتونا في منزلنا في ذلك اليوم نفسه.

كان عبيد عم طلال قد غادر حائل في اليوم السابق في غزوة ضد بدو المناطق الغربية. وذهبنا إلى مشاهدة مغادرته مع المتفرجين كافةً من أهل البلدة. لقد كان مشهداً بهيجاً ومثيراً. كان عبيد قد وجه بنصب خيمته في السهل خارج الأسوار الشمالية، وهناك قام باستعراض القوات. كان حوالى الثلث منهم على صهوات الخيل، والبقية على ظهور إبل خفيفة وسريعة. كان الجميع يحملون الحراب والبنادق ذات الفتيل، ويحمل عليتهم السيوف إضافة إليها، وبينما كانوا ينطلقون هنا وهناك في مناورات وهمية فوق أرض العرض، كان المظهر بكامله رائعًا وإلى حد معقول كان عسكرياً. وعندها رفع عبيد بيرقه الخاص، الذي إليه أضيف اللون الأخضر المُميز للإسلام كإطار للخلفية البيضاء للراية النجدية القديمة، التي ذكرها الشاعر عمرو بن كلثوم، شاعر تغلب، وكثيرون آخرون، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. اختلطت أنا وبركات مع الجموع الغفيرة للمتفرجين. رآنا عبيد، وكنا حينئذ لم نقابله منذ أيامٍ عدة. ودون تردد، حث فرسه نحونا، وبينما مد يده لتحيةٍ الوداع قال: «لقد سمعت بأنكما تنويان الذهاب إلى الرياض؛ هناك سوف تلتقيان مع عبدالله، الابن الأكبر لفيصل؛ إنه صديق شخصي لي؛ وأريد أن تكونوا كباراً

في عينه، لذلك كتبت له رسالة لأجلكما ، ستحملانها له بأنفسكم، وسوف تجدانها في منزلي حيث تركتها لكما مع أحد خدمي». بعد ذلك أكد لنا بأنه إذا ما وجدنا في حائل بعد عودته، فإنه سوف يظل صديقًا لنا في جميع الأحوال؛ ولكن إذا ما واصلنا السفر إلى نجد؛ فإننا سوف نجدُ في عبدالله صديقًا مخلصًا، لاسيما إذا ما قمنا بتسليمه الرسالة المعنية.

ثم بعد ذلك استأذن بالانصراف وبدا أنه قد تأثر عاطفياً، مما جعل المتفرجين يحملقون بدهشة؛ وهكذا يبقي إلى النهاية الرياء الذي يصعب فهمه، والذي استطاع أن يخفيه إلا مرة واحدة فقط وللحظة. استلمنا الرسالة في عصر اليوم نفسه من رئيس الخدم، الذي تركه ليعتني بالمنزل والبستان في غيابه. لا شك لديّ بأن قرائي سيملأهم حُب الاستطلاع لمعرفة نوعية التوصية التي قدمها عبيد في خطابه. لقد كان مكتوبًا في قصاصة من الورق السميك بحوالى أربعة بوصات في كل اتجاه، وقد تم طيه بعناية وتأمينه بثلاثة أختام. وعلى أية حال «ومخاوفنا تطغى متناسية الأخلاق» رأينا أن نقوم بقراءة هذا التفويض الكبير قبل تسليمه إلى الجهة المرسل إليها. لذلك قمنا بفض الأختام بحذر شديد بالقدر الذي يسمحُ بإعادة قفله بشكل سليم، وقرأنا المكر الملكي. وهنا نص الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبيد بن رشيد إلى عبدالله ابن فيصل بن سعود، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (هذه هي المقدمة الثابتة لجميع الرسائل الوهابية، البديلة عن كافة أساليب المجاملة المستخدمة عند الشرقيين الآخرين). وبعد، فنخبركم بأن حاملي هذه الرسالة هما المدعو سليم العيس؛ ورفيقه بركات الشامي، والذين يقولون بأن عندهم المعرفة في - وهنا تعقبُ كلمة مريبة ذات معنيين، قابلة للتفسير بأي من المعنيين سواء «الطب» أو «السحر»، ولكنها تُستخدم في نجد للأخير، الذي

يعدّ في الرياض جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام-والله يبعد عنكم الشر. والسلام أيضًا لوالدكم فيصل، وأخوانك، وكل عائلتك؛ ونحن ننتظر بشوق معرفة أخباركم في ردكم، والسلام عليكم." وفي نهايتها طبع الختم.

كانت هذه التوصية ستكون توصية لطيفة لا سيما في الظروف الطبيعية. ومع ذلك، ولأنه لم يكن مقتنعًا بها، وجد عبيد وسيلة أخرى ليرسل مزيداً من المعلومات حولنا، وجميعها بالفحوى نفسه، إلى الرياض، حسبما اكتشفنا لاحقاً. أما رسالته هذه، فلا حاجة لي للقول بأننا احتفظنا بها تذكاراً، ولم نسلمها إلى عبدالله؛ والذي لو وقعت بيده لكانت وفرت له الدليل الوحيد الناقص، كما سنرى حينما نصف وجودنا في الرياض، لتعزيز فرصة فقدنا لحياتنا في المصيدة النجدية.

قبل غروب الشمس قرع ثلاثة رجال بابنا الخارجي؛ وكانوا الذين سيكونون أدلاء نا في المرحلة القادمة. كان أكبرهم يحمل الاسم مبارك، وكان من ضواحي بريدة؛ وكان ثلاثتهم من أهل القصيم، داكني البشرة وذوي قامة أقصر من قامات سكان حائل، ولكن مظهرهم غير سيء، يمتازون بدماثة فائقة في مسلكهم. أخبرنا مبارك بأن المغادرة من حائل كان محدداً لها صباح الغد في البداية، أو السابع من الشهر، ولكن بسبب بعض التأخير من قبل رفاقهم، اذ كانت المجموعة كبيرة، فقد تم تأجيلها إلى الثامن، أو اليوم الذي يليه. إن مثل هذه التأجيلات تحدث باستمرار في الشرق، حيث إن طريقة السفر تجعل التأجيل فيه من الأمور التي لا يمكن تفاديها، ولا بد للمرء أن يكون مستعداً لها ويأخذها كيفما تأتي وإلا وضع المرؤ نفسه موضع اسهزاء بنفاد الصبر. عندها عقدنا اتفاق مع مبارك لاستئجار راحلتين من رواحله لحملنا وحمل منقولاتنا؛ وكانت الأجرة ضئيلة إلى حدٍّ مضحك،

حتى بعد الأخذ في الحسبان القيمة المرتفعة نسبيّاً للنقود في هذه المناطق الداخلية؛ وقد كنا مسرورين برؤية لطف وعذوبة حديث أدلائنا الجدد، مما يبشر برحلة موفقة.

قمنا بسرعة بعمل كل الترتيبات الضرورية لمغادرتنا، وجمعنا بعض الديون المتفرقة، وحزمنا أدويتنا، ولم يتبق أي شيء عندها سوى الألم المُمتع للوداع. لقد كان عدد المودعين كثيراً، وكان الوداع حميمًا من الطرفين. كان متعب[بن عبدالله الرشيد] قد ودعنا قبل أيام عدة. إذ غادر حائل للمرة الثانية أثناء وجودنا للمرعى. وسبق أن استأذنّا من طلال، ولكن بقي شقيقه الأصغر محمد ليودعنا وداعاً حاراً مبشراً بالخير. معظم معارفي القدامى أو المرضى، Dohey [؟] التاجر، ومحمد القاضي، ودحيم وعائلته، ولاننس صديقنا منذ البداية سيف ياور البلاط، وسعيداً ضابط الفرسان، وآخرين من القصر، أحراراً وعبيداً، بيضاً أو سوداً (لأن الزنوج يتبعون بسرعة أوامر أسيادهم، ولأنهم ليسوا عاقين إذا ما عوملوا بلطف بينما هم في مواضعهم المناسبة)، وعديدين آخرين، والذين كان هوميروس HOMER [الشاعر اليوناني] سيكتب دليلاً بأسمائهم، ولكنني لن أفعل ذلك، سمعوا بنبأ مغادرتنا فجاءوا ليعبروا عن أسفهم لذلك، مع أمل للقاء في المستقبل والعودة إلى حائل.

وجاء عبدالمحسن، أيضًا، وكان مصحوبًا ببندر، الابن الأكبر لطلال قبل حلول المساء بفترة قصيرة، ليرانا للمرة الأخيرة وليتمنى لنا رحلة موفقة. لقد كان طوال الوقت رفيقنا اليومي المُرحب به، وأضفى عقله الحكيم والكبير، المجّمل بالبلاغة الرائعة على إقامتنا الكثير من الجمال، وخفف من الشعور بالوحدة الذي يتعرض له الغرباء، حتى وسط كثير من الناس، في البلدان الأجنبية. وكان الصبي بندر، أيضًا، لا يختلف كثيراً عما لا بد أن والده كان

عليه حينما كان في مثل ذلك العمر؛ كنا قد عالجناه من بعض نوبات الحمى الخفيفة التي تشيع في العادة عند تلك المرحلة من العمر، وأظهر مريضنا الصغير في المقابل الامتنان الأكيد والولع البريء ربما أكثر مما هو معتاد وسط الأطفال، على الأقل من ذوي الأصل الرفيع، بينما اخلاقه وسلوكه المتواضع المهذب كانت ستضفي مفخرة للتعليم في أي بلاط أوروبي. أكد لنا عبدالمحسن باسم طلال وباسمه وطمأننا بأن كل من في القصر يشعر بالود نحونا، وجلسنا هكذا معًا حتى مغرب الشمس، ندرأ حتمية الفراق بعبارات لامعنى لها، سوى أننا لم نستطع أن نقرر الافتراق. وكانت الزيارة الأخيرة لنا، التي لاتقل رقة، تلك الليلة، زيارة زامل.

في الصباح الباكر لليوم التالي، قبل طلوع الشمس، كان مبارك وشخص آخر من مواطنيه يدعى داهش، عند بابنا مع الركائب. وكان بعض أصدقائنا من البلدة قد حضروا أيضًا، حتى في تلك الساعة المبكرة، ليصحبونا حتى بوابات البلدة. امتطينا دوابنا، وعندما استوت أول أشعة الشمس فوق السهل، كنا قد خرجنا عبر البوابة الجنوبية الغربية الكائنة خلف السوق، وكان

اليوم الثامن من شهر سبتمبر من سنة ١٨٦٢م [١٢٧٩هـ]، وغادرنا بلدة حائل.

*   *   *

الهوامش:

(1) Zahra Freeth and H.V.F.Winstone, **Explorers of Arabia from the Renaissance to the End of the Victorian Era,** London: George Allen & Unwin, 197, pp.153-158.

Rashid Shaz, **In Pursuit of Arabia,** New Delhi: Milli Publications, 2003, p.75.

روبن بدْول، **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة عبدالله أدم نصيف، الرياض: خاص، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٧٥.

وحول المناقشات حول رحلته انظر:

جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة**، نقله إلى العربية قدري قلعجي وقدم له حمد الجاسر، بيروت، الرياض: منشورات الفاخرية ودار الكتاب العربي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣، ص ص ٢٩٨-٣٢٢. وانظر أيضاً:

Peter Brent, **Far Arabia:Explorers of the Myth** , London, Melbourne, New York :Quartet Books,1977, pp. 130-131.

(2) William Gifford Palgrave, **Personal Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-1863),** 2 Vols, London: Macmillan, 1865.

(٣) كافة المعلومات الواردة حول حياته الشخصية والعملية مستقاة من:

Mea Allan, **Palgrave of Arabia,** London: Macmillan, 1972.

(٤) حول نص ما أورده بلغريف عن منطقة الجوف انظر: عوض البادي، الرحالة الأوروبيون في منطقة الجوف ووادي السرحان ١٨٤٥-١٩٢٢م، ط٢، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢م، ص ص ٥٥-٩٤.

(٥) النص المترجم للفصلين الثالث وعنوانه "النفود وجبل شمر"؛ والرابع وعنوانه "الحياة في

حائل " ، من فصول كتاب الرحلة كما وردت في طبعة سنة ١٩٨٥م :

William Gifford Palgrave, **Personal Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-1863)**, London: Darf Publishers Limited, 1865, pp.61-130.

(٦) إحدى عشائر قبيلة الشرارات .

(٧) ينبع نهر طاقوس من الهضبات الوسطى في إسبانيا ويجري باتجاه جنوب غربي عبر البرتغال ، ويصب في المحيط الأطلنطي ، وطوله (١٠٠٧كم) .

(٨) هذه من مبالغات بلغريف إذ تبعد تيماء عن جبة مسافة تتجاوز ٢٥٠ كيلاً .

(٩) كانت وفاته سنة ١٨٤٧م/ ١٢٦٣هـ .

(١٠) الابن الأكبر هو بندر وليس بدراً كما ذكر بلغريف ، وهذه أيضاً من دلائل عدم دقته في كثير من المعلومات التي يذكرها . وقد صوبت في سياق النص .

(١١) لا تمتد سلسلة أجأ باتجاه مشهد علي ووادي الفرات شرقاً ، بل تمتد من الشمال باتجاه جنوب غرب .

(١٢) الدلهمية من أحياء الجوف وليست من قرى جوار مدينة حائل .

(١٣) مرسوم ملكي أصدره في شهر أبريل ١٥٢٨م الملك هنري الرابع ، ملك فرنسا (١٥٨٩-١٦١٠م) يقضي بمنح الحرية الدينية لمعتنقي الديانة المسيحية البروتستانتية في كل فرنسا وذلك بعد عقود من الصراعات والحروب بينهم وبين الكاثوليك الذين لا يعترفون بهم . وقد ألغى الملك لويس الرابع عشر هذا المرسوم سنة ١٦٨٥م مما دفع البروتستانت إلى الهجرة إلى بريطانيا وهولندا وغيرها وكان منهم الأغنياء والصناعيون .

(١٤) وليام هارفي William Harvey (١٥٧٨-١٦٥٧م) طبيب إنجليزي ، يعّد أول مكتشف للدورة الدموية .

(١٥) نسبة إلى عالم الرياضيات والاقتصادي الفرنسي تشارلز دوبن Charles Dupin (١٧٨٤ - ١٨٧٣م) . وهو أول من استخدم ألوان مختلفة لإظهار درجة تطور التعليم في مختلف المناطق الفرنسية .

(١٦) زامل بن عبد الله السليم آل زامل أشهر ساسة وأبطال عنيزة في القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري ، تولى إمارتها عام ١٨٦٨م/ ١٢٨٥هـ وظل أميرها حتى مقتله في

موقعة المليداء التي حدثت بين إمارة حائل وأهل القصيم في جمادى الأولى عام ١٣٠٨هـ/ يناير ١٨٩١م. ذكره وأشاد به عدد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا منطقة القصيم خلال فترة حكمه.

(17) Edward William Lane, **An Account of the Manners and Customs of Modern Egyptians,** 2 Volumes, London: Charles Knight & Co., 1836.

كارلو غوارماني

١٨٦٤م / ١٢٨٠هـ

كارلو غوارماني

Carlo Guarmani

يعدّ هذا الرحالة الإيطالي من الرواد الأوروربيين الأوائل ممن رحلوا في شمال الجزيرة العربيةفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي؛ لكنه لم يحظ بالشهرة التي نالها سابقوه وتابعوه . و تنبع ريادته من كونه زار بلدانًا في شمال ووسط الجزيرة العربية لم يسبقه إليها أحد من الأوروبيين . كما أن صفته كتاجر خيل اتاحت له تقديم معلومات أولية حول شؤون شمال الجزيرة العربية لم يتطرق إليها من سبقوه . ولكن من هو هذا الرحالة؟

ولد كارلو كلاوديو غوارماني في مدينة ليغورن (Leghorn) بإيطاليا ، في ١١ ديسمبر ١٨٢٨م. هاجر مع والده ، الذي كان يعمل في التجارة، إلى بيروت عام ١٨٥٠م. وفي بيروت، اشتغل كارلو غوارماني بالتجارة، ولكنها لم تناسبه، فحصل على وظيفة ممثل للبريد الإمبراطوري الفرنسي في القدس. من موقعه الجديد بدأ في رحلاته في صحارى بلاد الشام، حيث نسج علاقات مع القبائل، وفي ممارسة هوايته الشخصية في دراسة الخيل العربية والتجارة بها حتى عُدّ خبيراً بها . كما قادته خبرته في الترحال بين القبائل إلى التكيف مع الحياة الصحراوية ومعرفة العادات واللهجات المحلية للقبائل الرحل في شمال الجزيرة العربية .

تمخضت جهود غوارماني في دراسة الخيل العربية عن تأليفه لكتاب

«الخـمسـة»، الذي يتناول الخيل العربية الأصـيلة، ويحـدد أنواعـهـا، ويضع نظاماً، يعتقـد، بأنّه كفيل إذا ما تم اتباعه تطوير هذه السلالة من الخيل. وقد طبع هذا الكتـاب لأول مـرة عـام ١٨٦٤م(١)، وطبع ثانيـة في عـام ١٨٦٦م ، وكان مهدى إلى الملك فيكتور عمانويل الثاني ملك إيطاليا. وأشار غوارماني إلى أن رحلته التي نحن بصددها هي التي أتاحت له فرصة إكمال تأليف هذا الكتاب لصعوبة الكتابة حول الخيل العربية الأصيلة دون وصف الأرض التي كانت مهد أكثر انواع الخيل أصالة منذ فجر التاريخ.

بسبب خبرته في الخيل العربية تم في عام ١٨٦٣م استدعاء غوارماني إلى باريس وتورين من قبل الحكومتين الفرنسيـة والإيطالية، فـتم تكليفه بشراء الخيل العربية الأصيلة لاسطبلات نابليون الثالث ملك فرنسا، ولملك إيطاليا.

بهـذا الهـدف المعلن انطلق غـوارمـاني يوم ٢٦ يناير ١٩٦٤م من القـدس، متنكراً بشخصية موظف تركي باسم خليل آغا، في رحلته إلى داخل الجزيرة العربية. اتبع غوارماني في رحلته طريقاً لم يسبق لأحد من الأوروبيين أن تبعه إلى تيـماء، وخـيبر، والقـصيم، ثم حـائل، التي عـاد منهـا إلى القـدس عبـر الجـوف. بعد عـامين من انتـهـاء رحلته نشر غـوارماني تفاصيـلها في كتـاب بعنوان: «شمال نجد: رحلة من القدس إلى عنيزة في القـصيم»، في القدس، ثم توالت ترجمات هذه الرحلة إلى اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية.

عاد غوارماني بعائلته بعد رحلته للاستقرار في جنوى بإيطاليا حيث أصبح أحد أشهر تجار هذه المدينة، وتوفي بها في أكتوبر ١٨٨٤م، وهو في منتصف عقده السادس (٢).

وصف غـوارمـاني بكثير من التفـصيل طريق رحلته وأحداثها، ووصف البلدان التي زارها، والشيوخ الذين قـابلهم في تيماء وخيبر وعنيزة وحـائل.

وحول ما أورده عن منطقة حائل نترك له وصف رحلته[٣]:

عند العصر من يوم ٢٣ مارس ١٩٦٤م انطلقنا من مدينة بريدة صوب العيون[عيون الجواء]، وتركناها ثانية نحو بلدة القوارة في الساعة العاشرة ليلاً حيث وصلناها في اليوم التالي، قبل الظهر بساعتين. ومكثنا في القوارة بقية اليوم الرابع والعشرين وكل يوم الخامس والعشرين، لأنه تم تحذيرنا بأن عدة مئات من قبيلة مطير كانوا في طريق الكهفة، التي لم ندخلها حتى فجر اليوم السادس والعشرين وتركناها بعد منتصف الليل، ولم نترك لأنفسنا سوى ثماني ساعات لكي نصل إلى فيد وهي قرية صغيرة يعتقد أنها الأقدم في نجد أو على حدودها، وتقع في واد طويل تحوط به مجموعتان من المرتفعات من الشرق والغرب. والجرف الغربي جزء من الجرف الواقع على حدود وادي سلمى في الشرق. واسترحنا مدة أربع ساعات، وبعد مسيرة ست ساعات أخرى عبر الجبال وصلنا إلى طابة في جبل شمر. وعلى مسيرة ثلاث ساعات إلى الجنوب الغربي من طابة كان معسكر الأمير بندر، وهو أكبر أولاد طلال بن رشيد وكان معه ثلاث مئة من العبيد يحرسون حوالى خمس مئة فرس أصيلة كانت في المرعى. وكان بعضها يؤخذ لفحول خاصة لتسفيدها كل صباح ثم تعزل عن البقية فوراً وترسل للرعي في أراض قريبة من البلدان والقرى التابعة للأمير طلال.

اقترح عنيبر [٤]أن نقوم بزيارة الأمير بندر ، وكان هذا كل ما أتمناه. فقد قبلت اقتراحه بامتنان، فأيقظني ذلك الطيب قبل الفجر بساعتين لكي نصل معسكر ابن الأمير وقت انقشاع الظلام.

وما أن احس العبيد بوجودنا حتى بدأوا باطلاق عيارات نارية لتحذيرنا وإبعادنا إذ لم يكن يسمح لأحد حسب ما أخبرني عنيبر بالاقتراب من

الأفراس خشية إصابتها بالعين. ولما رأى العبيد عدم اكتراثنا لتهديداتهم أقبلوا علينا وهم يصيحون ويلوحون بالنبابيت(٥). وضحك عنيبر من هذا، لكنهم سرعان ما عرفوه وعاملوه باحترام كبير وقبلوا يده وهنأوه على عودته سالماً. ولما أخبر الأمير الشاب بوصوله طلبه إلى خيمته. وبعد أن تحدث إلى خادم والده المخلص مدة خمس دقائق دعاني للدخول واستقبلني بالترحاب، قائلا باحترام، إن الموظف [التركي]، يجب أن يتوقع كل احترام من أمراء يضربون بسيف السلطان[العثماني] ويعدون أنفسهم عبيده. والأشد من ذلك أن والده يرى أن له الشرف في خدمة الحكومة[العثمانيه] ناهيك عن التفكير بالاستقلال. ولم يخف دهشته عندما رفضت التدخين، وسألني ضاحكاً إن كان رفضي "بسبب وهابية نجد". ولم يشرب القهوة قبلي، ولما رفضت تناول الفنجان، أخذه من يد العبد وقدمه إليّ بنفسه. وبعد شرب القهوة أمر بتبخير لحيتي، وأقنعني بالمكوث ثلاثة أيام في خيمته، وأخبرني بأن والده طلبه إلى حائل ويرغب بتقديمي اليه شخصياً. ووبخ عنيبر لقبوله دور الشرطي في مراقبتي، وأشار إلى أن رعايا السلطان يجب أن يفخروا بي حتى لو كنت جاسوساً.

وانطلق عنيبر بعد العشاء فيما بقي [مرافقي]علي في طابة. وفي اليوم الحادي والثلاثين سافرنا باتجاه السبعان، ومررنا بطابة لاصطحاب علي. وبعد غروب شمس الأول من أبريل دخلنا حائل.

وكانت عند بوابة البلدة، جثة يهودي فارسي، تركت لتتعفن بعد أن قتلته الجموع لأنه تظاهر بالإسلام ولكنه رفض النطق بالشهادتين. وكان هذا الرجل التعيس قد توغل في نجد عبر منطقة الحماد لكي يشتري خيولاً لصاحب الجلالة شاه إيران. لقد كان هو السبب في مصيره المفجع، لذا فهو يستحق ما جرى

له. فعندما يقرر الإنسان المخاطرة بنفسه والدخول في مغامرة كبيرة، ينبغي عليه ان يبذل كل ما بوسعه، وأن يكون مستعداً لتحمل عواقب مغامرته. لقد ساد الاعتقاد في فلسطين ومصر بأنني أنا الذي قد قتل؛ ووصل الخبر إلى تيماء، ومنها إلى تبوك ومحطات القوافل الأخرى على طريق الحاج إلى مكة! وانتشر الخبر في القاهرة، حيث كان فيها المونسنيور صموئيل غوبات المطران الانجليكاني في القدس. كما وصل الخبر إلى مطراننا اللاتيني في القدس المونسنيور جوسيبي فاليرغا (شقيق القسيس الشهير ليونارد، أحد الأساقفة المتميزين الذين عملوا في الأرض المقدسة في هذا القرن[التاسع عشر الميلادي]) عندما كان في الإسكندرية. وقام أحد أصدقائي بعمل طائش إذ أعلم أسرتي بالخبر، وساد الحداد على موتي جميع أفراد الأسرة بينما كنت أنعم طوال الوقت بصحة ممتازة، آكل الرز أو التمن وأصلي إلى الله في قلبي على ديني ولكن على دين محمد [ﷺ] بلساني (مع كل الاحترام)، وأتذكر موعظة المسيح على الجبل. وبغض الطرف عن قوة رائحة اليهودي المتعفنة فقد عقدت العزم على ألا أكون بين ضعفاء القلوب وأن أدخل الجنة مع الأغبياء.

ولما ترجلت من جملي عند باب المسجد، في الساحة التي تفصل بينه وبين قصر الأمير، دخلت مع بندر لنصلي سبع ركعات لأني لم أكن قد صليت خلال النهار. كان المحراب نحو الجنوب (وليس باتجاه الكعبة) كباقي المساجد التي رأيتها من قبل. ولم يكن ذلك بسبب الجهل، بل العادة. ففي الأقاليم المجاورة، كان الإعتقاد السائد هو أن المحراب الأوسط، الذي يستعمل في القرى السورية للدلالة على جهة الجنوب، لايمكن أن يوجه إلى جهة أخرى.

وخرج بندر عندما فرغ من صلاته قبلي، ليصدر بعض الأوامر. ودخل ثانية وأنا أسلم يمنة ويسرة (وكان المسجد فارغاً) ماسحاً يدي بلحيتي ومتمتماً

بالسلام عليكم. وعندما غادرني تمنى لي ليلة سعيدة ورجاني أن أتبع عبده محبوب. وقطعت الساحة مع علي الذي لا يفارقني، ودخلت قصر الأمير من خوخة محفورة في الباب الكبير من البوابة الوسطى التي تغلق ليلاً. وأرشدني محبوب إلى القهوة. وكانت حوالى أربعة عشر متراً طولاً وخمسة أمتار عرضاً وارتفاعها ستة أمتار؛ ويرتكز سقفها على خمسة أعمدة، وقد زينت جدرانها الرمادية بزخارف بدائية بيضاء. أما الموقد [الوجار] فعمل على يمين الداخل. وكان شاب في العشرين من العمر يعّد القهوة. وشربت فنجانين مُلئت لنصفها لأن ملء الفنجان إلى حافته يعد إهانة. ومن ثم أخذت إلى رواق ضيق كثير الأقواس وطويل جداً. وقدم إلي أحد العبيد صينية من التمر والزبد الطازج. ويؤكل التمر مغموساً بالزبد لكي يظهر طعمه. ولم يكن عندي الرغبة بالعودة إلى القهوة، لذلك استفسرت عن ابلي وأمتعتي، فأجاب محبوب بأنه حسب أوامر بندر اخذت جمالنا إلى الحظيرة المخصصة لإبل الأمراء، وأنها ستؤخذ للرعي كل صباح. أما أمتعتنا فكانت قد وضعت في المكان المخصص لنا.

لقد بنى الأمير طلال عدداً من بيوت الضيافه المتشابهة. وتتألف من حوش أو فناء للجمال والخيول، وغرفة لها مدخل بلا باب لاستقبال الزوار واحتساء القهوة، وغرفة أصغر للنوم. وهذه لها باب مصنوع من جذوع النخيل ولها قفل ومفتاح من الخشب، كالمستعمل في لبنان. كذلك تفتح الأبواب الخارجية وتغلق بالطريقة نفسها. وكل سقف يدعمه عمود، وقد حفرت على عمودي في ساعة صفاء عبارة " زوليما ١٨٦٤ " - اسم ابنتي وسنة رحلتي.

ولو اقتفى أحد أثري وأراد معرفة داري، ما عليه إلا أن يعبر الساحة من الباب الكبير المؤدي إلى قصر الأمير نحو المدخل المقوس أمامه؛ ومن ثم يتبع

الطريق الذي يبدأ من هذا المدخل حتى يصل إلى شارع يؤدي إلى السوق؛ وكانت داري في الزاوية ومكشوفة من ثلاث جهات. لقد وجدت منزلي نظيفا؛ والنار مشتعلة في الوجار بالقرب من الباب على اليسار؛ وكانت الغرفة مجهزة بالحصائر والسجاد والمساند؛ وجهزت بجرة ماء وبقدح نحاسي يستعمل كغطاء للجرة، في الزاوية، وكانت أمتعتنا معلقة على الجدران.

واستيقظت باكراً صبيحة اليوم الثاني من أبريل. وكان حاجب الأمير قد جلب لي شيئاً من حليب النياق مع العسل والعنب. وطلب مني الخروج لرؤية البلد، حيث لن أتمكن من مقابلة الأمير طلال حتى صلاة العصر. وبعد الفطور ذهبت إلى السوق فوجدته فقيراً جداً بالمقارنة مع غيره من الأسواق. كان كثير من التجار من سكان مشهد علي وآخرون جاؤوا من بغداد والبصرة وقرى الجزيرة والعراق أو العراق العربي. ودخلت الدكاكين وأنفقت مئتي قرش حقيقية على علي إذ أعطيته عباءة جديدة وكوفية وقميصاً أبيض لأني لم أرغب بسماع الانتقادات لثوبه الأزرق الذي يرتديه أفراد قبيلته ولا تلبسه سوى النساء في العاده. وأقول قروش "حقيقية" لأنه في ذلك السوق للقرش قيمة متعارف عليها تساوي سبعة قروش ونصف. وكان ثمن بضائع الجملة يدفع بالثلر المجيدي (دولارات ماریاتریزا)⁽٦⁾. وتغلق معظم الدكاكين من العاشرة حتى الثالثة بعد الظهر.

قادني محبوب، الذي ظل يبحث عني مدة ساعة، إلى الرواق نفسه، الذي كنت فيه الليلة السابقة، حيث قدم لي البلح والتمن، وشاركني علي في طعامي. ودخلت القهوة برهة من الزمن قبل أن أعود إلى داري حيث كتبت ملاحظاتي و نمت.

وكان المؤذن ينادي لصلاة العصر من مئذنة المسجد عندما جاء بندر ليأخذني

ويقدمني إلى أبيه. ولم تنته استعداداتي للمقابلة قبل انتهاء الصلاة.

كان الأمير طلال بن رشيد رجلاً في الأربعين من عمره، قصير القامة، بديناً، أسمر البشرة، بعيون سوداء حادة، معقوف الأنف. وكان يرتدي عباءة حساوية بنية ورقيقة جداً وكوفية بغدادية وعقالاً مربوطاً بالحرير وبخيوط ذهبية ومعطفاً من قماش أخضر داكن وثوباً أبيض طويلاً. وكان قد خرج لتوه من المسجد ليعقد مجلسه عند الباب، في الجانب الغربي للمسجد، بينما جلس كبار موظفيه إلى يساره تبعاً لمنزلتهم في صفوف واحدا وراء الآخر. وجلس حوالى عشرين عبداً في شكل نصف دائرة أمامه وكلهم بلباس حسن وعباءات سود ناعمة ومعاطف من قماش أحمر أو أزرق موشاة بخيوط ذهبية، وحملوا بأيديهم، مثل الأمير وأتباعه، سيوفاً في أغماد فضيه، والتي لايثبتونها في أحزمتهم إلا عند ركوب الخيل. وفي الطرف الآخر من نصف الدائرة كانت هناك امرأة فقيرة تطلب انصافها من شيخ قرية الوسيطاء الذي أخذ حمارها؛ و الذي عندما سألته عن السبب أساء معاملتها. فأمر الأمير اثنين من الفرسان بأن يصحباها إلى قريتها وأن يختارا لها أفضل حمار يملكه الشيخ وأن يعطياه إلى المرأة الفقيرة عوضاً عن حمارها. وتعويضا عن سوء المعاملة التي لقيتها على يد الشيخ أمر بشراء كسوة جديدة لها. وانصرفت المرأة وهي تدعو الله بأن يبارك الأمير.

ولم ينهض الأمير لاستقبالي بل مد يده ولمستها بيدي ثم سحبت يدي إلى فمي وقبلت أصابعي ثم وضعتها على جبهتي وفعل هو الشيء عينه. ثم أشار دون أن ينبس ببنت شفة الي بالجلوس فجلست على الأرض عن يمينه على درج المسجد.

لقد أنهى ثمان قضايا في غضون ساعتين من الزمن، ثم لبس حذاءه وفض

الجلسة. وحياني مبتسماً ويده على صدره وفعلت أنا الشيء نفسه وأنا أحاول أن أكتم ضحكي لأنني غير معتاد على مثل هذا الاستقبال الصامت. وانصرف بندر مع أبيه.

ونادى محبوب إلى العشاء وأخذني هذه المرة إلى السطح ومد بساطاً كبيراً وأحضر ولد أسود منضدة مستديرة ارتفاعها بضعة بوصات. ثم أحضر صبيان آخران صينية فيها تمن ولحم وخبز. وعندما انتهيت من تناول عشائي غسلت يدي لأني أكلت بها مثل البدو.

وبينما كنت أتناول العشاء كانت نساء الأمير ينظرن إليَّ من خلال إحدى النوافذ الخشبية، وأظن أنني استطعت أن أميز من همسات النساء صوتي رجلين هما الأمير طلال وبندر. وفي حياة كل رجل مناسبة ينسى نفسه فيها ويتصرف كالمغفل حتى ولو كان أحكم الحكماء دون أن يدري. ونزلت الدرج دون أن أنظر إلى الحريم وتظاهرت بالصمم. وبينما أنا في طريقي إلى المكان المعهود لأحتسي القهوة أسرع بندر ورائي ودعاني إلى جناح والده الخاص.

واستقبلني الأمير بالعناق وتركني أتكلم مدة خمس ساعات. وكان بين الفينة والأخرى يأمر بتعطير لحيتي وبتقديم القهوة السوداء والقهوة البيضاء.

وكان قد سمع أن خيولي التي كنت قد اشتريتها قبل وصولي إلى حائل مازالت في المستجدة حيث كان رفيقي الهتيمي مختبئاً خشية رجال قبيلة مطير الذين كانوا يهاجمون على الحدود الجنوبية. وطلب بندر موافقة والده ليرافقني، فأذن له بذلك. وكان مفهوماً ضمنياً أنني قبلت ضيافتهم ثلاثة أيام. وعهد إلى عنيبر بقيادة كوكبة من عشرين فارساً أعدها الأمير وأذن لنا بالسفر نهاراً. ولم أذكر شيئاً عن توصية الأمير عبد الله بن فيصل[ابن تركي آلسعود] بشأني (٧).

كنت حتى اليوم الخامس من شهر إبريل آكل، وأشرب، وأنام، وأكتب. وقضيت ساعات عديدة من كل يوم في الدكاكين، وكنت منتظماً في حضور الجلسة الصباحيه للأمير عند بوابة القلعة وجلسته المسائية عند باب المسجد. وقد استفاد الأمير من شريعة الكتاب المقدس التي تنص على أن " من يعش بالسيف يجب أن يموت بالسيف " . فكان يأمر بإعدام القتلة، وقطع أيدي الذين يلحقون الأذى بالآخرين في المنازعات. أما شهود الزور والكاذبون فكان يأمر بحرق لحاهم على النار مما يؤدي غالباً إلى إحراق عيونهم أيضاً. ويأمر بسجن اللصوص، وبمصادرة أموال المتمردين. وكثيراً ما ذكر لي أنه يولي الأرامل والأيتام من الاهتمام أكثر من اهتمامه بأسرته. وكانت أحكامه عادلة وكرمه زائداً. وحينما لا يستقبلني في مسكنه الخاص مساء كان يأتي إلى مجلس القهوة لمدة ساعة، حيث كان شعراء القصيم يرتجلون الشعر على شرفه. وأعطى أحد شعراء ابن سعود - وكان أعمى - طقماً كاملاً من الملابس ومائة تلر مجيدي وجملاً وحصاناً، كل ذلك لقاء قصيدة انتهت ببيت شعر يشير إلى أن نجد كلها مع ابن رشيد.

ويمتاز طلال ابن رشيد بالكرم إذ يجتمع كل مساء حوالى مئة ممن هم في حاجة إلى الطعام في ساحة المسجد وينتظرون منادي البلدة ليدعوهم إلى الدخول إلى االقصر، حيث يوزع الطعام عليهم جميعاً، حتى لو كان عددهم ألفاً، ويشرف الأمير بنفسه على التوزيع حتى لا يحرم أحد منهم.

ونتيجة لكرم الأمير الفياض يزداد عدد مؤيديه يوماً بعد آخر، كما تزداد سلطته المطلقة، التي مع أنها سلطة طاغية تلاقي القبول. إن البشر قاطبة معرضون للضعف، وضعف رعايا الأمير يتمثل بشراهتهم! ولكن كيف يمكن عد هذه الشراهة سيئة والأمير نفسه لا يختلف عنهم في هذه الصفة؟

غادرنا حائل اليوم الخامس من شهر إبريل ومررنا بقفار وبتنا ليلة ذلك اليوم في الغزالة التي غادرناها إلى المستجدة حيث وصلناها عند الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم السادس. وأخبرني أمير البلدة أن خيولي في مراعي الروضة. وفي الروضة، في اليوم التالي، قيل لي إنها غادرت في تلك الليلة إلى المستجدة. فرجعت على الفور ووجدتها في وضع ممتاز. وكان في انتظاري خبر مفرح أيضاً فقد تراجعت قبيلة مطير إلى ماوراء وادي سلمى. وبهذا أصبح بامكاني أن أرسل خيولي إلى جفيفاء وأنا مطمئن. وذهبت مع الخيل في اليوم الثامن حتى السليمي، حيث تركتها لتتابع ا لمرعى حتى أقصى حدود منطقة الجبل. وانطلقت مع علي كي أنضم إلى بندر وعنيبر اللذين ذهبا مباشرة إلى الغزالة. وفي بلدة القصر شكرتهم على رفقتهم لأنهم كانوا ذاهبين الى قفار. بقيت مدة ليلتين، التاسع والعاشر من شهر إبريل، في القصر لأنني أردت الذهاب إلى موقق وتيماء قبل أن أعود إلى حائل. وأعطاني بندر رسالة إلى الأمير سميحان بن مشير أمير موقق يأمره فيها بتزويدي حرساً وطعاماً.

وفي اليوم العاشر أخذت قسطاً من الراحة في لزام ثم تقدمت إلى موقق حيث بقيت حتى العصر ثم تابعت مسيري إلى جفيفاء وأنا متشوق لرؤية خيولي بحالة ممتازة.

وتقع جفيفاء في سهل واسع قريب من الجبال، حيث ستنشأ في العشرين سنة القادمة قرى كثيرة. وهناك منازل متفرقة ومعزوله وآبار محفورة وأشجار نخيل مزروعة. وكان السهل سجادة خضراء كبيرة يبلغ طول نبات النصي فيها حوالى قدمين. كانت خيلي سائبة وقوائمها الأربع مربوطة، لكن حراسها لايتركونها تغيب عن عيونهم. وكانت ترعى نهاراً وتؤخذ إلى القرية ليلاً.

وفي اليوم الحادي عشر من شهر إبريل قضيت أربع ساعات في السهل مع

رجالي ثم ذهبت إلى بيدان وهي قرية جديدة تحمل اسم البـدع أيضا، مثلما تسمى الحيانية أيضاً بالحناكية. وتقع هذه القرية الأخيرة إلى الشمال من جبل شمر، لذلك من المؤمل فيه أن يتم تبني الاسم الأول لأن هناك حناكية أخرى في أراضي قبيلةحرب.

وفي البدع، تمكنت من الحصول على المؤن دون الاعتماد على كرم شيخ تلك البلدة، وفي صباح يوم الثاني عشر اتجهت الى تيماء، ولم يذهب معي إلا دليلي علي. وحملت من المؤن ما يكفيني لقضاء ليلتي في المكان الذي أختار عند الغروب. ولم أرغب باصطحاب أيّ مرافقين لكي أكون حراً في رسم خريطة الطريق ودراسة الأرض. وفي ذلك الوقت كنت ترى مضارب شمر وولد سليمان و اليديان في كل مكان. لذا كان من المستبعد التعرض لأي هجوم من البدو المناوئين؛ وقد جعلت النفود في الشمال والحرة في الجنوب هذا الاقليم الموغل في القدم آمناً لبني طيىء. والخطر الوحيد الذي كنا نخشاه هو من بعض العصابات المنفردة، ولكن لأننا كنا راكبين على رواحلنا ومسلحين جيداً فلم يكن هذا مصدر قلق لنا. وكان علينا أن نعرف جيداً كيف ندافع عن أنفسنا، ففي حياتنا المملوءَة بالتجوال، كان علينا دائماً أن نعتمد على الله ثم أنفسنا.

وبعد ثلاثة عشر يوماً، أي في اليوم الرابع والعشرين من شهر إبريل، عدت ثانية إلى البدع مع دليلي علي ورفيقَيَّ محمد والدريبي وسلكنا الطريق نفسه لكي أتأكد من صحة كل شيء على خارطتي، ولكي أضيف إلى الملاحظات التي كتبتها عن معالمه الطبيعية.

لقد زاد وزن الدريبي، أما محمد فكان يتماثل إلى الشفاء من رمد سيء أصاب عينيه. فقد عالجته عجوز من تيماء أولاً بالكحل، وبعدها ببخار حساء

من رأس وأقدام ماعز مسلوقة بشعرها وهي عادة متبعة في الصحراء لعلاج جميع أمراض العيون، و داء النقرس على وجه الخصوص. ويقف المريض فوق القدر بعد انزالها من على النار، ويغطى بعباءتين إلى أن ينتهي البخار. وفي جبال البلقاء[الأردن] يستعمل بخار الغار المغلي بدلاً عن هذا.

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر إبريل طلبت إحضار الخيول إلى البدع ودفعت ثمنها واستلمت إشعاراً بهذا الخصوص من الشيوخ الذين شهدوا عملية الدفع؛ ودفعت بعد ذلك للهتيميين اللذين كانا يرعيانها أجرهما، وأجزلت لهما العطاء ليكونا سعيدين وممتنين، ودون أن أنسى مكافأة دليلي علي التي استحقها عن جدارة، وصرفتهم جميعاً. وفي اليوم السادس والعشرين جئت باثنين من فرسان شمر، ومن رجال الأمير، ليحلا محل الهتيميين. وأخذت الخيول بنفسي حتى طوية ثم أرسلتها مع الرجال إلى جبه، حيث سينتظرون وصولي إليهم.

وجدنا سكان طوية منشغلين بجمع الجراد لشيّه في حفر عميقة في الرمل. فاشتريت أربعة أكياس وحملتها على رواحل محمد والدريبي.

والجراد الذي يشيع الذعر في قلوب المزارعين يعد مصدر طعام قيِّم لسكان نجد. وتراقب العيون أسرابه وهي طائرة ويتبعها الناس حيث تحط؛ ثم تحفر حفر تشعل فيها النار ويشوى بها الجراد بسرعة فائقة. لقد علمتني التجربة أن الجراد لا ينصح به كغذاء للإنسان رغم أراء الشرقيين بعكس ذلك. فالجراد عندما يشوى يفقد طعمه، وحينما يغلى يصبح مذقًا، ولكن قيمته الغذائية لا تقل عن قيمة الشوفان كطعام للخيل. فهو يشبعها ويقوي عضلاتها دون أن يسمنها. وإذا ما جففت كمية قليلة منه وطحنت فإنها تشكل وجبة غنية للخيل، كما يمكن تخزينه كطحين لسنوات حتى ولو تعرض للرطوبة.

وذكر ماثيو دي لا دروم Mathieu De La Drome خبير الأحوال الجوية في أحد تقاويمه " إن الأرض تعطي ما تعطى " . فالجراد أكثر انتاجا من الأرض، لأنه يعطي أكثر بكثير مما يأخذ؛ فبالنسبة للوزن فإن وزناً من الجراد يعادل وزنين من الشعير، ويمكن جمعه في مكان لا يعطي خمس الوزن من الشوفان. ولا ينصح باتباع مثل القديس يوحنا في الصحراء، والذي بدلاً من أن يأكل التوت البري (الذي كان وفيراً في زمنه مع أنه لا يتوافر الآن) أفطر على الجراد. لكن المسافر الآن يجدها جاهزة فيشتريها (بعد نزع الأجنحة والأرجل) وبسعر الشوفان. ويحصد الفلاح محصولاً هائلاً من هذا الوباء المنتشر في مصر، وإذا لم يكن بجودة أمطار المن والسلوى، فانه مطر من ذهب، وسوف يحمد خالقه، بعد أن كان يحزن لرؤية الجراد يحط في أرضه قبل أن يعرف قيمته.

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر إبريل رجعت وحيداً إلى موقق؛ وفي اليوم السابع والعشرين اخذت دليلا إلى قفار. وفي منتصف الطريق تقريباً، وقبل قطع مسافة ربع ساعة في الجبال، يوجد شق على اليمين شكلته الصخور الغرانيتية التي انفصلت عن الجبل بفعل هزة أرضية لم تكن قوية بما فيه الكفاية لتسقطها إلى أسفل الوادي. وهناك الكثير من الماء في ذلك الشق. ويذكر الكثيرون أنه نبع ماء؛ ويذكر آخرون أنه مجمع لمياه الأمطار وتغذيه قنوات تحت الأرض. على أية حال، تبقى الحقيقة أن الماء يظل في المستوى نفسه. وهو ماء صاف ونقي، ولكني عندما أتذكر ما عانيته سابقاً من شرب مثل هذا الماء كنت حريصًا على عدم الشرب منه.

وفي تلك الليلة التي قضيتها في قفار حملني الفضول لأطلب إلى مضيفي الأمير زيد الخشيم (٨) أمير قفار أن يأخذني إلى منزل أمير بني تميم (وهو بطل

طواه النسيان) (٩). و يعيش أمير بني تميم حياة لابأس بها لكنه لا يتمتع بأي منصب في بلدة قفار التي يسكنها بشكل شبه حصري أحفاد أجداده، والذين بدأوا الآن يطأطئون رؤوسهم تحت نير الحكم الحالي.

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر إبريل عدت بشيء من الرضى إلى بيتي الصغير في حائل. وكان بندر قد ذهب إلى قرية بقعاء، وفكرت أنه من الأفضل لي ألا اتبعه. وبدلاً من ذلك صعدت تلة مجاورة حيث استطعت أن أرى منها الجبال المحوطة بنا لكي أكتشف موقع هذه القرية. وبعد بضعة أيام أتيحت لي فرصة مصاحبة الأميرين عبد الرحمن ورشيد بن رشيد (أقارب الأمير طلال) لكي أشاهد أفراسهم في الطريق الي بقعاء، والذي سرنا عليه مدة ثمان ساعات، وقد وصلنا بعد سبع ساعات جبل يقال إنه في منتصف الطريق إلى هذه القرية نفسها.

وكان الأمير طلال يعد عدته للخروج للغزو؛ وأخبروني سراً أنه يخطط لمهاجمة الشرارات. وكانت الحيانية مكان التجمع. وحزنت لسماعي أن حياة سليم اللحاوي شيخ الشرارات[الذي سبق وإن قابلته أثناء قدومي] لفي خطر، لأنه سمح لبعض الأسر المتمردة بالنزول في مضاربه.

وذهبت إلى حصن عقدة في اليوم الثلاثين من شهر إبريل مع عنيبر لإحضار الأسلحة التي تخزن فيه في أيام السلم. وكان هناك حمولة أربعين بعيراً منها. وكانت أبواب حصن عقدة مصفحة بالحديد. أما الممر المؤدي اليه من وسيطاء فلا يزيد عرضه في كثير من الأماكن عن القائمتين الخلفيتين للبعير. وهذا الحصن هو على أغلب الظن ملاذ للأمير طلال هيأه للمستقبل في حال أفول نجم آل رشيد.

وعند الفجر، في يوم الرابع من شهر مايو، كانت راية الأمير تخفق على

سارية نصبت أمام بوابة قصره في حائل. وكنت قد تلقيت إشارة الليلة السابقة بأنني سأرافق الحملة حتى الحيانية. ومع أنني نهضت مبكراً، إلا أن الأمير كان قد سبقني، ووجدته يساعد في توزيع السلاح والرواحل على المتطوعين المحتاجين. ووزع حوالى ستمائة بعير. وفي الساعة العاشرة حمل الراية احد العبيد، وامتطى حصانه وبدأت المسيرة وتبعه جميع الجنود وعددهم قرابة ألف. ثم سار الأمير مع ابن عمه وأخيراً عنيبر وأنا. ووزع عنيبر نقوداً من فئة العشرين بارة على نساء وأولاد العبيد الذين رافقونا لمدة نصف ساعة خارج البلدة وهم يهتفون (أو كما كانوا يظنون أنهم يغنون) تمجيداً لسيدهم العظيم والكريم.

وعند الوقيد تم تعزيز القوات بثلاث مئة خيال من قبائل الأسلم وعبدة؛ وانضمت الينا فرق سنجارة والدغيرات عند لقيطة، حيث قضينا معظم الليل. وقبل الفجر بثلاث ساعات، انطلقنا من جديد فوصلنا الحيانية بعد المغيب، واستقبلنا خمسمائة متطوع بالتهليل ممن كانوا قد سبقونا إليها. وفي صباح اليوم التالي أرسل الأمير في طلبي وبدل ذلولي الذي كان قد بدأ يهزل ويفقد سنامه بذلوله الخاص، وحاول أن يقنعني بأن أقبل هدايا أخرى محاولاً بشتى الوسائل التغلب على حيائي. ووضعني في رعاية شمري ورويلي من جماعة المشهور، وأنيط بهما أمر إيصالي إلى جبة ومن ثم إلى الجوف. وأنا على أهبة الرحيل اشتريت (من أحد بدو عتيبة) فحلاً صغير السن، رمادي اللون من سلالة كبيشان الشهيرة، إحدى سلالات الخيل العربية الأصيلة .

ولم يكن في الحيانية التي كانت قد بنيت مؤخراً سوى الحصن وثلاثة منازل تحوط بها رمال صحراء النفود من كل جانب. وأعتقد أنها ملاذ آمن آخر هيأه الأمير طلال في حال تخلي الحظ عنه. وهذه الاحتياطات الكثيرة لا تبشر

بالخير بالنسبة لأعدائه؛ فمن الواضح أنه كان مقدماً على خطوة جريئة إلى حد بعيد؛ إنه "حمار وحشي" يتبع الحظ رايته! وأطلب من القارئ ألا يظن أن بي رغبة باهانة الأمير بتسميته "حمار وحشي". ففي الجزيرة العربية يعتبر الحمار مثلاً على الذكاء، وكلما زاد ذكاؤه قل خضوعه للإنسان. وكان هذا لقبا مألوفا لمروان بن محمد الخليفة الأموي في دمشق.

وفي اليوم السابع من شهر مايو، وعند دخول مدينة جبة وأنا متعب جداً بعد مسيرة ست عشرة ساعة في النفود، شعرت بأن الذلول على وشك الانهيار تحتي، وحاولت أن أشد الخطام ولكن عبثاً. وضربته على رأسه وجرحته عدة جروح ولكن دون جدوى. فبرك ممداً جسمه، واخذ ينتفض وهو يتمرغ في التربة ويتقلب مثل خنزير صغير في مستنقع. وكان رفيقاي يعانيان من المشكلة نفسها. وضحك الدريبي ومحمد اللذان خرجا لاستقبالنا حتى كادا ينفجران من الضحك، وكذلك فعل سكان الجوار. وبدأ الشمري والرويلي يكيلان الشتائم مثل النصارى لأن المسلمين لا يشتمون إلا بعبارات معتدلة. أما أنا فنزلت من على الحيوان وأنا أضحك من كل قلبي ولأرد على سخريتهم وأظهر لهم أنني لا أمانع في مزاحهم معي.

ويبدو أننا مررنا دون أن نعلم فوق مراغة. والمراغةحفرة كبيرة فيها تربة ناعمة جداً؛ وإذا ما استلقى فيها جمل ترك رائحته (التي لا يميزها الإنسان)، بحيث لا يمر بها حيوان من ذات النوع دون أن يستلقي ويتمرغ فيها. وهذا يقوي مفاصلها، وتستطيع الحيوانات بعدها أن تسير ساعات طوال دون راحة.

وفي جبة بعت جملي الدريبي ومحمد واشتريت أربعة جمال وأمرت بذبح صغارها - اثنين منها للطعام ونحن نعبر النفود إلى الجوف، والآخران

لوليمة صغيرة للقرويين الذين لم يطالبونا بدفع الثمن المقرر للماء، حتى أنهم ملأوا خروجنا بالتمر والسمن دون مقابل.

يعود الفضل في عدم اندثار بلدة جبة تحت رمال صحراء النفود إلى الرياح الجنوبيه وإلى جبال أم سلمان والغوطه التي تحميها من الشرق والغرب. فعلى مسيرة ربع ساعة نحو الشمال يرتفع جبل رملي يطل عليها تماماً؛ وإلى يمينه يقع طريق الجوف؛ والذي يبعد عن جبة مسيرة ساعة وخمسة عشر دقيقة؛ والمسافة بينها وبين جبل أم سلمان في الغرب وبينها وبين جبل الغوطة في الشرق واحدة.

عندما نظرت في مسحي للجبال إلى الجنوب الشرقي من لقيطة والطوية والحيانية وجبة تمكنت من تحديد موقع بلدة قنا، وهي محطة للتوقف للمسافرين بين جبة وحائل وبالعكس، ولكن لم تتح لي الفرصة لزيارتها. والقرية محوطة بالرمال من كل جانب، وليس فيها مايثير الاهتمام، وبعد أن حددت موقعها لم أجد هناك ما يبرر التعب والوقت الذي يبذل في زيارتها.

وفي اليوم التاسع من شهر مايو غادرنا جبة وتركنا جبل شمر نهائياً. ركب كل من الدريبي ومحمد على حصان، وقادا الحصانين الآخرين، وتبعتهما الجمال المحملة بالأمتعة الخفيفة والمؤن واحدا وراء الآخر يقودها رفاقنا الشمري والرويلي، الذي عهدت اليه أيضاً بالفحل الرمادي. وأخيراً ركبت بعيري الذي كان أسرع من الذلول الذي بدله لي الأمير لكنه أسوأ منه طباعاً.

وكان الأتان الأبيض الذي اشتريته لأبنتي من الصلبه يجري جيئة وذهاباً بحرية دون أن يبتعد عن القافلة. وعبرنا صحراء النفود بسلام حتى وصلنا إلى الجوف[١٠].

وكنت أفكر بما مرّ بي في صمت! وأخيراً فتح جبل شمر أسراره أمام

أوروبا، وكنت أغادره دون مواجهة أية مشكلة ولو صغيرة. وفي الواقع فقد حظيت بكرم فياض. وكنت أحظى بهدايا كثيرة أيضاً. إن تعصب المسلمين شديد في تلك المناطق؛ والزمتهم هزيمة الوهابيين الظهور بمظهر المتحمس لإثبات إخلاصهم لدينهم.

. . . وللنساء بشرة برونزية تشبه المصريات في قرى النيل، ولهن عيون لوزية براقة؛ وايديهن واقدامهن يمكن أن يجعلن أي فتاة جريئة من مدينة ليون أو باريسية أنيقة تشعر بالغيرة؛ ومعالم أجسادهن تبز معالم تمثال آلهة حب مديسي (Paraxiteles`s Venus of the Medici) أو المخلوقات الرشيقة في جنوى ويارادير (مدن ايطالية)؛ وشعورهن الطويلة السوداء اللماعة تدهن بزيت لا رائحة له يتألف من دقيق لحاء النخيل ودهن مصفى يستخرج من إليات الاغنام. ولا شك في أن هذا الدهن العطري البسيط وغير المؤذي الذي يكسب نساء نجد شعراً رائعاً سيجلب البسمة إلى شفاه الأوروبيات الحزينات ذوات الشعر الخفيف. . . .

وتعد منطقة الجبل كما بقية نجد تحت سيادة فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، وهو من المصاليخ من قبيلة ولد علي العنزية المقيمة في سورية. ويمكن أن نعد الأمير الذي يحكم نجد مستقلاً.

وطلال بن عبد الله بن علي بن رشيد، أمير الجبل، لايدفع سوى ضريبة صغيرة سنوياً الى الدرعية، تتألف من ستة أفراس من أسوأ الأفراس في إسطبلاته؛ ويرسل فيصل بن سعود هذه (مع أفراس أخرى من نوعية أجود) الى السلطان العثماني من خلال شريف مكة. ويتمتع حاكم الجبل بسلطة الحياة والموت على رعاياه، رغم أنه مجبر على اتباع قواعد الحكم المحددة في قوانين وأعراف البدو. وفي السنوات الأخيرة زاد من قوته وفرض ضريبة على

فيد والكهفة على الطريق الى القصيم، وجوف العمرو (سابقاً دومة الجندل) وبلدة سكاكا، وقرية خيبر وتيماء، وغيرها كثير، كما أن أخضع بعض قبائل عنزة، ولد سليمان واليديان، وكذلك قبائل الشرارات وهتيم، والتومان من شمر الجزيرة [العراق]، الذين يأتون الى نجد غالباً. ويدفع سكان المدن والقرى التي خضعت لسلطانه، كما الحضر من سكان الجبل، عشر انتاجهم من الأرض؛ أما البدو، فيدفعون، مثل بدو شمر، ثلاثة أصواع من السمن عن كل بيت شعر، وخمس مجيدي عن كل بعير، وعشرة قروش عن كل قطيع من ٢٠ رأس من الخراف أو الماعز.

وتشمل حيوانات الجبل البرية النعام والبقر الوحشي وأسود الجبل والفهود والثعالب والذئاب والأرانب البرية والغزلان. أما الحيوانات الأليفة فهي الأبل والخيول والابقار والكلاب والحمير والقطط إضافة الى قطعان الأغنام والماعز. ويملك الصلبه أو النَّوَر سلالة من الحمير السريعة ذات لون أبيض صاف.

ويتألف سكان الجبل من الحضر ومن البدو. وقد يصل عددهم الى ٧٥٠٠٠ نسمة تقريباً. وينتمي الحضر الى بني تميم، أما البدو فينتمون إلى شمر.

وتنقسم شمر الى سنجارة (شيخهم ابن رمال)، الأسلم (شيخهم ابن طوالة)، عبدة(شيخهم ابن جبرين)، والدغيرات (شيخهم ابن سعيد)، وهم موزعون على كامل الإقليم الذي ينقسم الى أربعة أقسام للبدو، وقسمين للحضر. وبنو تميم هم أقدم سكان البلاد. ومازال الأمير علي بن عيادة أحد أحفاد أمرائهم- على قيد الحياة - مع أنه لايملك أية قوة، ويقيم في قفار.

أما بلدان جبل شمر وقراه فهي كالتالي: حائل وسكانها ٧٥٠٠ نسمة،

وتشتهر بقصر الأمير، وبمسجدها الكبير وسوقها - وهو الوحيد في الأقليم؛ وموقق وسكانها ٢٠٠٠نسمة بمن فيهم خمس عائلات من بني خالد؛ ولقيطة وسكانها ١٥٠٠ نسمة؛ وجبة وسكانها ٩٥٠ نسمة. وفي جبة يدفع المسافرون القادمون من الجنوب ضريبة تبلغ تلر مجيدي، والقادمون من الشمال يدفعون تلرين مجيديين لقاء استخراج الماء. وإذا كان المسافر من التجار، يضاف ثمن ثوب كتان الى الضريبة. وجفيفاء وعدد سكانها ٦٠٠ نسمة؛ وطوية وعدد سكانها ٥٠٠، وقنا وعدد سكانها ٤٠٠ نسمة؛ والوقيد وعدد سكانها ٤٠٠ نسمة؛ والبدع و عدد سكانها ٤٠٠ نسمة؛ والوسيطاء وعدد سكانها ٤٠٠ نسمة، وعقدة وعدد سكانها ٣٠٠ نسمة؛ ولزام وعدد سكانها ٣٠٠ نسمة؛ والحناكية ويسميها معظم البدو الحيانيه وفيها مئة نسمة.

ويستوطن بنو تميم بلدة قفار، و عدد سكانها ٨٥٠٠ نسمة، والروضة وسكانها ٢٠٠٠ نسمة، والسبعان وسكانها ٢٠٠٠ نسمة، والمستجدة ١٨٠٠ نسمة، والغزالة ٥٠٠ نسمة، والسليمي ٤٠٠ نسمة، وطابة ٣٠٠ نسمة.

ومن قرى الجبل فيد (وعدد سكانها ٥٠٠ نسمة) على مسيرة ٦ ساعات الى شرق-جنوب-شرق من طابة. والكهفة (وعدد سكانها ٢٠٠نسمة) على مسيرة ٢٨ ساعة الى جنوب شرق من حائل، وهما المحطات الأولى للقوافل المتجهة الى عنيزة عاصمة القصيم، والاكثر سكانا في وسط الجزيرة العربية.

وتقع الحناكية وقنا وطوية وموقق ولزام وجفيفاء والبدع في أرض سنجارة - الغفيلة والزميل. كما تقع القصر والسلمي والروضة والمستجدة في أرض الدغيرات - الشريهة والغيثة والتريبان والعليان والحسين. كما أن الأرض التي تضم الغزاله وقفار وعقدة ووسيطاء وحائل والوقيد ولقيطة وبقعاء تعود الى عبدة - الجعفر - والجبرين والمعطري. والأسلم - الطوالة والوجعان

والجحيش - لها الأجزاء المحوطة بالسبعان وطابة. وعندما يدخل التومان منطقة الجبل فإنهم يجدون أنفسهم في أرض الأسلم وعبدة، ويبلغ عدد قوتهم ٢٠٠ فارس و٨٠٠ من راكبي الهجن المسلحين ببنادق، تحت قيادة الشيخ فحل بن عيشة(Fahal eben Aiesce)[؟] .

وفي كل هذه المناطق تنتشر بساتين النخيل الكبيرة في السهل الذي شكلته الرمال بين الجبال. وكل منها محوط بسور من الطوب الطيني المجفف بالشمس وأبراج في أطرافه. ولا تختلف المنازل عن مثيلاتها في تيماء ماعدا أن بعضها أكبر حجماً. أما إنتاج الأرض فهو مماثل. وليس هناك أية صناعة منتظمة. فالنساء يقمن بحياكة الثياب الخشنة (كالعباءات) أو المعاطف الصوفية المقلمة والبسط الخشنة. ويتجول الباعة باستمرار بين القرى، يبادلون البضائع التي جلبت من أجزاء أخرى من نجد، ومن العراق العربي والحجاز، بالمنتجات المنزلية.

ويتكون لباس الرجال من ثوب كتاني أبيض طويل، وعباءة من صوف الماعز، مقلّمة بخطوط بنية أو سوداء وبيضاء، وكوفية تثبت بالعقال وزوج من الصنادل. والنساء يلبسن ثوبًا أزرق وشمبر أوحجاب أسود كبير من الحرير يغطي الوجه وعباءة سوداء أو بنية تغطي الجسم من الرأس حتى القدم.

يتمذهب أهل هذه المناطق بالمذهب الإسلامي السني؛ ولايوجد أي وهابي كما كان في السابق، مع ذلك، فعادة حلق الشارب لازالت سائده عند عدد من العائلات، وكذلك تجنب التدخين حسب القواعد التي وضعها أتباع ابن عبد الوهاب. والامير طلال لايدخن علناً مطلقاً.

ولا يتقبل سكان الجبل المسيحيين ولا اليهود لأنهم متعصبون لأبعد الحدود. وعلمهم الوطني عبارة عن أرضية خضراء وله إطار أحمر وفي

وسطه، أسفل سيف مسلول مكتوب باللون الأبيض " لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

وفي حالة الحرب يجبر جميع الرجال القادرين بدنياً على حمل السلاح . ويمكن للجبل الذي يبلغ عدد سكانه من الحضر حوالى ٣٣٠٠٠ نسمة، أن يسلح ٤٠٠٠ رجل من راكبي الإبل المسلحين بالبنادق (ذات الفتيل). ويبلغ عدد المسلحين من بدو شمر ٦٠٠ فارس، و٢٠٠٠ حامل بندقية من راكبي الهجن. ويضاف الى فرسان شمر ٦٠٠ فارس أسود من أتباع الأمير؛ وهؤلاء كلهم تقريباً من العبيد ويركبون أفراساً يملكها سيدهم. ولا ينضم البدو وسكان البلدان الذين يدفعون الخاوة إلا نادراً للدفاع المشترك. فالبدو لايعدون موالين تماماً، كما أن سكان المدن لا يستطيعون إرسال مسلحيهم بدون تعريض البلدة الى الخطر. ومع هذا فإن البدو غالباً ما يدعمون جيش الامير بألف من حملة البنادق و٣٠٠-٤٠٠ فارس إن كان ينوي غزو أعداء بعيدين وتهيأت الفرصة للغنائم. وعلى كل رجل مشترك في الغزو أن يزود نفسه بالطعام والذخيرة ما أمكنه ذلك.

والأعداء الذين كان الأمير طلال بن رشيد يحاربهم باستمرار هم عنزة السوريون (بشر والرولة) والظفير وعتيبة و مطير.

ويقدم الأمير طلال بن رشيد حراسة قوامها ٦٠٠ رجل بقيادة أخيه متعب لقوافل الحجاج الإيرانيين التي تسافر كل سنة من بغداد الى مكة. ويمتلك ٨٠٠ عبد و٨٠٠ فرس أصيلة ويعتبر اكثر أمراء وسط الجزيرة العربية ثراء؛ ويلقب باسم أبوبندر بشكل عام، وهو اسم ابنه الأكبر- وأحياناً بابن رشيد الذي يشير إلى أنه كبير أسرته. وله ١٦ ابناً وابنة على قيد الحياة، منهم ٩ أولاد و٧ بنات من زوجاته الأربع (ثلاث منهن من بنات شيوخ شمر وواحدة شقيقة فيصل

بن سعود). وله أيضاً أمه حبشية بارعة الجمال، كلما حملت أجهضوها باجبارها على شرب كأس صغير من عرق الفرس (يحصلون عليه بعد رفع درجة حرارة الفرس بإجبارها على الدخول في سباق قصير وسريع). وهذا لمنعها من انجاب بنات لا يمكن تزويجهن بشكل لائق.

وتحكم أسرة ابن رشيد التي تنتسب إلى عبدة- شمر منطقة الجبل منذ عام ١٨٣٥م [١٢٥١هـ]. وآلت الأمور الى الأمير عبد الله والد طلال بمساعدة أخيه عبيد بعد قتل الحاكم الشرعي صالح بن علي. وتوفي الأمير عبد الله عام ١٨٤٧م [١٢٦٢هـ].

الهوامش :

(١) يشير عنوان كتاب غوارماني عن الخيل العربية " الخمسة- الخيل العربية الأصيله : دراسة ستة عشر عاماً في سوريه، فلسطين، مصر، وصحاري بلاد العرب " إلى السلالات الخمس المعروفة من سلالات الخيل العربية الأصيله وهي : كحيلان، وعبيان، وصقلاوي، وحمداني، وهدبان. وكان الكتاب قد نشر أول مرة باللغة الإيطاليه عام ١٨٦٤ م. هذا وقد صدرت له ترجمة حديثة باللغة الإنجليزية . انظر :
Carlo Guarmani, **The Pure-Bred Arabian Horse,** London: Immel Publishing LTD., 1984.

(٢) حول شخصية كارلو غوارماني وظروف رحلته وخلفياتها اعتمدنا على ما أورده عنه محرر رحلته في طبعتها باللغة الإنجليزيه دوغلاس كارثرز. انظر :
Carlo Guarmani, **Northern Najd: A Journey from Jerusalem to Anaiza In Qasim.**Tras.by Lady Capel Cure, with Introdction by Douglas Crruthers, London:The Argonaut Press, 1938, pp. IX-XXI.

(٣) وردت النصوص المتعلقة بمنطقة حائل في رحلة غوارماني مفرقة في ثنايا كتاب الرحلة، فجاء بعضها في الجزء الخاص بيوميات الرحلة، وبعضها الاخر في الجزء الخاص بوصف طريق رحلته والبلدان التي زارها. وعليه فقد حررنا النص ليتسق مع النصوص الأخرى الوارده في هذا الكتاب. هذا وقد وردت النصوص الخاصة بمنطقة الجبل في كتاب رحلته المشار إليه في الهامش السابق : ص ص ٤٣-٥٨، وص ص ٨٦-١٠٣ .

(٤) أحد رجال الأمير طلال بن رشيد ، وقد صادف وجوده في مهمة إلى الأمير عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود وجود غوارماني في مخيم الأمير بالقرب من وادي الداث في منطقة القصيم، فكلفه الأمير بمرافقة غوارماني إلى حائل.

(٥) النبّوت : من أنواع العصي.

(٦) عملة نمساوية شهيرة ، كانت واسعة التداول في المنطقة، وهي تحمل اسم الإمبراطورة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا (١٧٤٠-١٧٨٠م).

(٧) كان غوارماني قد قدم إلى مخيم الأمير عبدالله بن فيصل بن تركي آل سعود في وادي الداث بمنطقة القصيم، من مناطق قبيلة عتيبة التي اشترى منها حاجته من الخيل. وكان يحمل رسائل توصيه من بعض شيوخ قبائل شمال الجزيرة العربية للأمير عبدالله الذي لم يستقبله وأعاد إليه رسائل التوصية بعد الإطلاع عليها، وبعثه مع بعض رجاله إلى بلدة عنيزة، وحمّل عنيبر مندوب طلال بن رشيد إليه رسالة إلى سيده بشأن غوارماني.

(٨) ورد في النص باسم زيد الخشيب.

(٩) علي العيادة. وقد أورد غوارماني اسمه في فقرة لاحقة.

(١٠) لتكملة قصة رحلة غوارماني بعد مغادرته حائل انظر:

عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان (١٨٤٥-١٩٢٢م)**، ط٣، بيروت: برزان للنشر، ٢٠٠٥م.

تشارلز داوتي

١٨٧٨م / ٩٤- ١٢٩٥هـ -٧٧



تشارلز داوتي

تشـارلـز داوتـي

Charles Doughty

يُعـد تشـارلز مونتيـجيو داوتي أحـد أهـم الرحـالة الأوروبيين الذين زاروا الجزيرة العربية، و تعدّ رحلته في نتائجها العلمية الأكثر أهمية في إضافتها إلى أدب الرحلات. وهو ليس كغيره من الرحالة الذين سبقوه فقد مكث ما يقارب سنتين في الجزيرة العربية يجول برفقة قبائلها، ويتنقل بين مناطقها، بشخصيته الحقيقية كإنجليزي ومسيحي. كما أنه سجل في وصفه لرحلاته تفاصيل التفاصيل عن الأرض، شجرها وحجرها وإنسانها، معيشة وعادات وأخلاقًا، وذلك بصورة غير مسبوقة لغةً وأسلوباً ومضموناً، ولكن كتاباته سيطرت عليها روح التعصب الديني والقومي والنزعة النرجسية وعدم الموضوعية في اصدار الأحكام وتعميمها لأسباب ذاتية. ولكن يا ترى من هو تشارلز داوتي؟

ولد داوتي في مقاطعة سفولك (Suffolk) بإنجلترا سنة ١٨٤٣م، وهو ابن عائلة ارستقراطية، عمل معظم أفرادها في خدمة البحرية الملكية البريطانية والكنيسة، وكان والده رجل دين. وقد بدأ تعليمه بالتحضير للعمل في البحرية إذ التحق سنة ١٨٥٦م في مدرسة (Beach House) في ميناء بورتسموث، ولكنه لم يوفق في ذلك لاعتلال صحته منذ صغره، ولمشكلة كان يعاني منها في النطق. وقد أصيب بخيبة أمل لهذا الإخفاق، وبقي متأثراً

بخيبة الأمل هذه طوال حياته. وفي سنة ١٨٦١م بدأ دراسته الجامعية في علم الجيولوجيا بجامعة كمبردج. وبدأ رحلاته خلال فترة الدراسة برحلة إلى النرويج لدراسة الأنهار الجليدية بها، وأمضى فيها ستة شهور بين عامي ١٨٦٣-١٨٦٤م. وفي سنة ١٨٦٥م حصل على درجة البكالوريس في الجيولوجيا.

بعد انتهاء دراسته الجامعية انكب داوتي على دراسة اللغات الأوروبية القديمة والأدب الإنجليزي في جامعتي اكسفورد ولندن، وانطلق بعدها في رحلة طويلة إلى البلدان الأوروبية وشمال إفريقيا. فرحل أولاً إلى هولندا وفرنسا وإيطاليا ثم صقلية، ومنها إلى شمال أفريقيا حتى المغرب التي عبر منها إلى إسبانيا، ثم عاد إلى إيطاليا التي عبر منها إلى اليونان ثم مصر، ومنها إلى صحراء سيناء سنة ١٨٧٥م. من سيناء ذهب إلى مَعان والبَتراء شرق نهر الأردن؛ حيث علم أن هناك نقوشاً في مدائن صالح الواقعة شمال غرب الحجاز، فقرر رؤية تلك النقوش، ودراسة الصخور والجبال والصحارى المجاورة لمدائن صالح. وقرر أن يلتحق بقافلة الحجاج المسافرين من دمشق إلى مكة، ولكنه لم يتمكن من ذلك لرفض السلطات التركية السماح له بمرافقة قافلة الحجاج. عندها أقام في دمشق لمدة عام لتعلم اللغة العربية. وفي نوفمبر سنة ١٨٧٦م انضم إلى جماعة من الحجاج الفرس الذين كانوا ضمن قافلة الحجاج المسافرين إلى مكة، وكان متنكراً بزي سوري، ومتخذاً لنفسه اسم خليل.

في مدائن صالح انفصل عن القافلة، وشرع في رحلاته داخل الجزيرة العربية، متجولاً في بادية شمال غرب الحجاز، ومنها انطلق في رحلاته إلى حائل، وخيبر، وحائل مرة أخرى، والقصيم، وأخيراً الحجاز، حيث ختم رحلاته في شهر أغسطس ١٨٧٨م في مدينة جدة.

عند عودته إلى موطنه في أواخر سنة ١٨٧٨م، شرع داوتي في كتابة

وصف رحلاته في الجزيرة العربية، فاستغرق ذلك ستة أعوام، فقد أنجزه سنة ١٨٨٤م بعنوان: " **رحلات في صحراء الجزيرة العربية**". ولكن لم يتيسر له نشره إلا سنة ١٨٨٨م؛ لرفض بعض الناشرين له بسبب حجمه، أو بسبب إسلوب كتابته وطبيعة لغته. وقد كتب داوتي كتابه بلغة إنجليزية راقية، مطعمة بكلمات عربية كثيرة فصيحة وعامية، وكان يطمح من خلالها إلى إعادة المجد للغة الإنجليزية الفصيحة بعد أن ضعفت هذه اللغة، حسب اعتقاده. لم يلق الكتاب في المرحلة الأولى من نشره كثير اهتمام من عامة القراء إلا أنه تم الاعتراف بقيمته من حيث الأسلوب واللغة، فلقي بعد ذلك نجاحاً كبيراً حتى أضحى من الكتب الكلاسيكية في أدب الرحلات ومن أعظم ملاحمها.

بعد نشر الكتاب انعزل داوتي عن الناس وتفرغ للشعر فأنجز أعمالاً شعرية كبرى، وتوفي سنة ١٩٢٦م بعد حياة حافلة بإنجازات أدبية مهمة (١).

أما في ما يتعلق برحلة داوتي إلى حائل موضوع هذا الكتاب، فهو وبعد أن وصل مدائن صالح عند نهاية شهر نوفمبر عام ١٨٧٦م، قام بالتجول في المنطقة، واستنسخ الكتابات والرسوم المنقوشة في واجهات المقابر المنحوتة في الجبال، وبعد ذلك وبدلاً من أن يعود من حيث أتى قرر عدم العودة مع قافلة الحجاج إلى دمشق، فانضم إلى جماعة من قبيلة الفقراء العنزية، ورحل معهم في قفار شمال الحجاز متجشماً كثيراً من الصعوبات والمعاناة، واستمر في ترحاله ما يقارب عشرة أشهر. ثم انطلق من تيماء متوجهاً إلى حائل التي وصلها في شهر اكتوبر سنة ١٨٧٧م [١٢٩٤هـ]. والآن أترك القارى الكريم يطوف مع داوتي في مغامراته، منذ انطلاقته من تيماء وحتى مغادرته حائل(٢):

" قامت نسوة الحوطة [البستان] بتحميل بيوت الشعر ومستلزماتها،

وشاهدت البدو الذين كانوا معنا يغادرون قبل بزوغ ضوء الفجر. امتطى زيد [زيد السبيكان، أحد شيوخ الفقراء، ومضيفي وأنا مع أعرابه] فرسه، من القرية التي كان قد بات ليلته فيها، وإذا ما ذهبت الآن معه، فإنه سوف يُوصلني، كما قال، إلى قبيلة البشر ويلزمهم بضمان سلامتي. لكن زيداً لم يكن له أن يبقى، إذ لابد له أن يتبع جماعته، ولم يكن في مقدوري أن أكون جاهزاً في الحال؛ وهكذا غادر الرفاق من الفقراء، ولم أر أحد منهم بعد ذلك. مر شخص غريب، ومد لي يد المساعدة على عجل عند ركوبي على ناقتي المسنة، التي قدتها، وهي تقاوم متطلعة بشوق إلى اتباع الباقين، إذ إن مسافة نصف ميل تفصل أسوار تيماء عن أولئك [قبيلة] البشر، الذين لم يكونوا، لحسن الحظ متعجلين في المسير. وهناك لحقت بحيزان الرجل الذي وافق على مرافقتي، وبآخر كنت قد اشتريت له إطار سرج الركوب، وبذلك ربما أخفف الحِملَ عن ناقتي. لقد كانوا يدفعون بقطعانهم، فواصلنا مسيرنا.

تقدمنا إلى الأمام تاركين تيماء إلى يميننا، بين جبلي اربا وغنيم، إلى الصحراء؛ وبعد ذلك بوقت قصير، بدت لناظرينا الحدود الجرداء للنفود، تنحو إلى جهة الشرق أيضاً. واصلنا المسير في جو ممطر لا يحتمل؛ وفي الرابعة بعد الظهر ترجلوا في القفار المُبللة على ارتفاع من نحو ٦٠٠ قدم فوق مستوى ارتفاع تيماء، وتم إطلاق الإبل الجائعة لترعى. أشعل البدو المسافرون النار، بعد أن وضعوا نوعاً من العُشبة الصمغية، التي على الرغم من أنها نوع من النبات التي تأكله الماشية، وعلى الرغم أيضاً من أنها كانت مُبللة بقطرات المطر، إلا أنها اشتعلت في الحال. قاموا بوقاية أنفسهم قدر ما استطاعوا من هبات الرياح الرطبة، والرذاذ المنهمر، ببناء آجام من الشجر حولهم؛ وهذه ثبتت بالحجارة الثقيلة.

عاودنا التحرك عند طلوع الشمس: وقد ذكرني الضجيج المفاجئ لإبل البدو الكثيرة المتذمرة من عمليات تحميلها برحلات حج العام الماضي! قبل العاشرة صباحاً بدا جبل حلوان أمامنا، والطقس أكثر صفاء. رحل البشر في اتجاه جنوبي الشرق، وكان [جبل] برْد واضحاً للعيان: في الثانية بعد الظهر ترجلنا، وصرفنا الإبل للمرعى. كان الارتفاع هنا كالأمس، حوالى ٤٠٠٠ قدم. لقد توقف المطر، وتوجه أحد البدو(حيزان) للاصطياد بالصقور. كان هناك رجلان أو ثلاثة في هذه المجموعة يحملون صقورهم معهم، تقبع على حافة السرج في أغميتها وقيودها، أو تجلس على قبضة يد سيدها. وفي بعض الأحيان كان يتم إطلاق الصقور، ونحن راحلون، على أرانب الصحراء الصغيرة؛ كانت أجنحة الصقور مبللة بالكامل: وكانت الصقور نفسها تحلق متثاقلة على ارتفاعات منخفضة، وبعد دورة تحليق أو دورتين تتبلل تماماً، ويسرع الصقّار ليأخذ ما تمّ صيده. وهكذا فإن حيزان كان يحصُل على أرنب كل يوم، وقد أحضر لي جزءًا مما تم طبخه في المساء. وكان في ذلك راحة لأجسادنا المنهكة الضعيفة. لقد افتقدت هناس وابن عمه ريعان أثناء الطريق؛ لقد غادرا الأعراب المسافرين، ليذهبا إلى عشيرتهما التي تُخيّمُ بعيداً إلى اتجاه الجنوب في حرة خيبر. بقيت ذلك اليوم مع جماعة العواجي المعروفين بمعاملتهم الفظة نوعاً ما للآخرين، ودائماً غير مضيافين، ولكنني كنت أمني النفس بأمل الوصول في وقت قصير إلى حائل. جلسنا لنحتسي القهوة مع الشيخ مشل [مشل العواجي، شيخ شمل قبيلة ولد سليمان العنزية]، الذي يقوم بإعدادها بنفسه. هذا الشيخ الحاكم لسبعة من العشائر يقوم بتحميص، وطحن البن وغليه، وتقديم المشروب المُنعش بيديه. لكن مشل صَبَّ لي فنجاناً واحداً فقط، ولأفراد قبيلته اثنين أو ثلاثة. ولأن هذه الفعلة المجافية للذوق

كانت مخزية لكوني نصرانياً، فقد قلت بغضب: "هاهنا بالله شيخٌ كبير وقهوة قليلة! أهي من عادات قبيلة العواجي يا مشل أن يجلس الضيفُ بينكم وفنجانه فارغ وأنتم تشربون؟" وبهذه الطريقة، صب لي مشل وهو غير راضٍ، متمتماً ببضع كلمات من مرحه المتعصب، قائلاً "يا فرقا".

في صباح اليوم الثالث شاهدنا جبل عرنان، وقلت لجاري "ها هو[جبل] عرنان!" صاحت امرأة كانت تسمعنا بعنف: "آه، وما شأنك بعرنان"؟. عند العصر وصلنا إلى أرض عالية، حول جبال أبا مغير المرتفعة، حيثُ رصدتُ بالآلة ارتفاع ٤٠٠٠ قدم. حينها شوهدت إبل على مسافة، وكانت لبدو ابن المرتعد[من قبيلة ولد سليمان العنزية]، وهم حلفاءٌ لهم. وعندما نزلنا جاءت امرأة إلى خيمتي، وطلبت إبراً وخيطاً (مثل هذه الأشياء الرخيصة تعدّ هدايا قيمة في الخلاء)، ولكن لأنها طلبت حاجتها بأسلوب فظ فقد طلبت منها أن تنصرف. قالت بنظرة عدائية "ها! نصراني، ولكن ليس بعيداً أن نأخذ منك كل هذه الأشياء". لاحظت، مع مقت، أن جميع نسوة البشر يرتدين البرقع الذي لا يظهر من خلفه سوى العينين. هذا التوحد في تغطية وجه المرأة كان دلالة على أنني أسافر الآن في بلاد أخرى، ألا وهي نجد الغيورة (والوهابيّة)، وإن حتى صحراء الجزيرة العربية القاحلة ممتلئة بالتنوع.

في صباح اليوم الرابع منذ مغادرة تيماء كنا نعبر الأرض العالية الوعرة المكونة من صخر رملي، والواقعة خلف جبال أبا مغير. وغريب هو ذلك الشعور بالقلق الذي يصيب المرء، من المطر والهواء البارد في الجزيرة العربية، عند رؤيته لأشعة الشمس وقد بدأت بالغروب، لأن الرياح الممطرة تعصف بقوة عبر القفار المفتوحة أثناء الليل. نزلنا في المساء عند بيوت شعر لأعراب المرتعد، وذهبتُ قريباً إلى نيران المراقبة المتوهجة. وعندما وقفت عند ضوء

نار أمام بيت رئيس، استقبلني رب البيت بعطف، وفي وقت قصير أحضر لي قدحاً كبيرة مملوءَة بحليب النياق. لم يسألوني أي سؤال ـ فالتزام الصمت من جانب المُضيّف يعدّ من أصول اللياقة، وكانوا قد شاهدوا خيمتي البيضاء منصوبة قبل مغيب الشمس. وحينما هممت بالمغادرة واقفاً، رجاني الرجل بإشارة خفيفة لأبقى جالساً. ورأيت شاةً تقاد لتُذبح؛ ـ لأن مشل قد نزل عندهم، لذلك فإن الرجل سوف يقيم مأدبة عشاء. أخبرني عايد بن المرتعد، هذا الشيخ الطيب، بأن أعرابه يذهبون في سنوات الجفاف إلى الشمال وبعيداً حتى تدمر والقريتين [في سورية]. استلقيت وهجعت تحت أمان استضافته في خيمته المهترئة إلى أن تم تجهيز الوليمة، وبعد ذلك أرسل في طلب مشل وشيوخ العواجي. تم تقديم لحم الضأن المسلوق على كوم من التمن، الذي يُجلب من العراق، وهو (على الرغم من عدم عدِّه جيداً هنا) فهو ذو نكهة ومذاق طيب. عندما نهض مشل ورجال قبيلة البشْر بعد انتهاء العشاء، شكروا مضيفهم، وقام كل واحد منهم بأخذ قطعة من اللحم وعظماً، لزوجته التي تسافر معه، وهو شيء لم أشهده من قبل.

في الصباح الخامس لمغادرتنا تيماء طلعنا أراضي عالية وعرة للغاية في اتجاة الشرق بطريق يسمى "درب زِلاج" حيث كان الإرتفاع ٤٥٠٠ قدم، وشاهدت عشيبات قليلة قد بزغت في الصحراء. عند الظهيرة وصلنا إلى ديار الشيخ مشل، التي كانت عبارة عن بيوت شعر قليلة منصوبة عند سفح جبل عريض من الصخور الرملية، حيث كنا قد وصلنا إلى جبال الخرم، وهي بارتفاع ٥٤٠٠ قدم: كانت درجة الحرارة ٨٠ درجة فهرنهايت. ومن هناك كانت تظهر السلسلة الجبلية لعرنان من فوق السحب، وعلى مسافة مسيرة يوم تقريباً شمالاً.

عند الظهيرة جاء رجلان غريبان من رجال القبائل، وقد وصلا من ديرة بالقرب من المدينة، وذكرا أن الأمطار لم تهطل في ديار قبيلة جهينة، ولا في كل البلاد غرب وادي الحمض! تم إحضار طبق ملآن بالتمر ووضع أمامهما؛ وقام الضيفان البدويان حسب عادات الصحراء، بدعوتي [كضيف] لأدنو وآكل معهما. أما مشل، مع أنني أجلسُ في مجلسه فلم يقم بدعوة النصراني! قُمت بأخذ تمرتين وأكلتهما عَله يصبح بيننا "خبز وملح". كان لديّ حزام مغربي من الصوف الأحمر، فطلب مني مشل أن أعطيه له الآن، وإلا، فإنه بالله، "سوف يأخذني" وكل أشيائي غنيمة له. إن الحزام "كَمَر" مرغوب عند راكبي الخيل من البدو الرحَّل، ومن الحضر، وهو يشد أجزاء الجسم الضعيفة، ويعتقدون أن المرء يمكنه بواسطته أن يوظف قوته بصورة أفضل. رددت قائلاً، "إن الحزام ضروري لي، وإذا ما أعطيتني جملاً صغيراً قوياً، فإنني أعطيك ناقتي مع الحزام. "-إن إبل هذا الرجل تفوق المئتين بكثير! - "حسناً إذاً، أجاب مشل، سوف استولي عليك وعلى أمتعتك. "- "أترى نوى التمر الذي بيدي، إنك لن تستطيع يا مشل، إن بيننا خبز وملح. "- "ولكن ذلك لن يجديك نفعاً، وماذا يحدث إذا ما قمتُ بطردك عنا، فإنك وناقتُك لن تستطيعا معرفة الطريق في هذه القفار والعودة إلى الحجر؟" - "إنني أعرف أنها مسيرة أربع مراحل جنوب غرب، رحمك الله، ولا أشك مُطلقاً إن عملك لا يرضي الله، ومع ذلك سأتقدم في طريقي." - "ولكن البلاد مملوءَة بالأباليس. "- " يا مشل، إيها الرجل الغني، إنك لن تسلب رجلاً مسكيناً! وإن كل هذه التهديدات جوفاء، إنني ضَيفُك. "ولأنهم يعتقدون بأن النصارى فرسان مهرة، طُرح عليّ أمر مبارزة مشل في الغد على ظهر جواد، وأن أكون مسلّحًا. فقلت: "إن كان الأمر كذلك فإنني سأبذل

أقصى جُهدي، " فقال مشل: "كلا، ففي الصباح سوف يركب خليل ناقته الخوارة [الناقة التي تعرق كثيراً] ويتوجه إلى الحجر". وهكذا بابتسامة عريضة تَرك المسألة، لأنه لم يستطع إثارتي. ولكن ابنه الأصغر، الذي كانَ يجلس في خيمة والده مصاباً بداء الإستسقاء، قال عندها كلمةً طيبة "حسنا، لندع خليل ينام ونؤجل الرأي إلى الغد. "وأضاف ما معناه إنهم في الصباح سوف يعطونني ناقةً بدلاً عن ناقتي الخوارة والحزام. إن العرب في جشعهم أسوأ من أي شعب آخر.

طلب مني حيزان في الصباح أن أستعدَّ للمغادرة، إذ إن عسكر وبعض الرفاق الآخرين سوف يتوجهون إلى حائل، وإننا ربما نسافر في رفقتهم. وأستفسر عما إذا كانت ناقتي تستطيع مجاراة الذلول؟ فقلت "إنها ناقة مسنة وليست ذلولاً." قال "إذاً لابد لنا أن نسير خلفهم." كان حيزان قد ذكر حينما استلم أجرته إنه لن يتمكن من اصطحابي بنفسه، ولكن ذلك الرجل الآخر، الذي ادعى بأنه شقيقه، وسماه باسم غير اسمه، هو الذي سيرافقني. - إنه لمن الصعب تفادي مثل هذا الخداع لدى البدو! وقبلت لأن مشل قال: "حسناً، إنني أكفله، اذهبوا في سلام". وضعتُ شرطاً بأن يتم وضع حقائبي على الذلول، وإنني ربما أمتطيها بنفسي عند الحاجة؛ وهكذا تحركنا متقدمين في رحلتنا.

كان هذا الرفيق شبه متوحش: وكان عسكر ورفاقه قد سبقونا؛ مررنا على برك مياه ضحلة تم حفرها حديثاً؛ وقد دهشتُ لرؤيتها في مثل هذه الأراضي المرتفعة. وصلنا إلى حافة المُنحدر، في شمال جبل الخرم، وهو هنا عالٍ للغاية وشديد الانحدار باتجاه السهل أسفل الجبل؛ في مثل هذا المكان الوعر فإن الإبل تمد قوائمها الأمامية بتمنع، وتنتقل عمودياً من سلسلة صخرية إلى

أخرى، لتقوم بالنزول إلى أسفل. وهكذا، ونحن ننزل قدر استطاعتنا، في عناء ومشقة نحو رمال الصحراء في الأسفل، راكبين في اتجاه أطراف أراضي أبا السيح الصخرية المنخفضة إلى الغرب من [جبل] المسمى، وبنحو أو بآخر تمكنا من تخطي عسكر ورفاقه. بوصولنا قرب الطرف الشرقي للجبل، اعتقدوا أنهم قد رصدوا "أباليس" الجبال، أي قطاع طرق من "قبيلة هتيم النفود، ومن الأعداء"، حيث شوهد في المكان نفسه في اليوم السابق بعض قطاع الطرق. قال عسكر: "يا خليل أيمكنُ لناقتك أن تُجاري سيرنا؟ نحن بدو، ونحاش (نهج)!، أي أننا سوف ننجو من أي خطر ونحن على ظهور إبلنا؛ يجب عليك الإسراع الآن ما أمكنك ذلك، وإلا فإننا سنضطر إلى تركك وراءنا، وبذلك سوف تقع لوحدك في أيدي قطاع الطرق". قاموا جميعاً بحث ركائبهم الخفيفة والنشيطة لتسرع الخطو. ناقتي المحملة والمتعبة بعد الرحلة الطويلة من تيماء تخلفت عنهم، ولم أعد أحتمل مثل طريقتها في السير. وقدرت أن كل مجهود سوف يذهب سُدى لأي محاولة لحثها على السرعة. لقد كان نجمي معاكساً في هذه الرحلة، إذ لا أحد من مرافقيي لديه أي خير إنساني ما عدا عسكر. ورفيقي المتوحش، الذي ألزمته بقسم عند تحركنا بألا يتخلى عني، أصبح الآن يصيحُ عالياً "والله - بالله" إنه سوف يتركني إذا لم أسرع المسير (الأمر الذي كان مستحيلاً)؛ وإن عليه أن يتبع زملاءه، فهو رفيقهم، وقد سبقوا المسافة ميل أو ميلين.

أمطار الأيام السابقة كانت قد لطفت الجو؛ وقبيل الظهيرة كانت السماء مُلبدةً بالغيوم، إلا أن الشمس كانت تطلُّ أحياناً مُشعةً بالدفء. عندما بلغتُ رفاق سفري المسرعين، بعد جهد جهيد، قلتُ لعسكر:- "لو افترضنا أن الأعداء قد هجموا علينا، هل كنتَ ستتخلى عني وأنا رفيق دربك؟" فأجاب

قـائلاً: "كنتُ سـأرْدفُكَ خلفي على ذَلولي، وكنا سنطلق ونواجـه مـصـيـرنا معاً؛ يا خليل، إنني سوف لن أتخلى عنك". كانوا يأملون أن يبيتوا مع البدو تلك الليلة، قبل أن نصل إلى جبل المسمى، والذي كـان أمامنا. كـان السَهْلُ رمليّاً وبه ثنايا من الصخور الرملية، التي كانت في تجاويفها برك صغيرة من مياه الأمطار العذبة. عند العصر تبينوا جمالاً بعيدة إلى الأمام؛ ترَجلنا وتسلق البعض على الصخور ليستطلعوا الأمر، بعد وقت قصير ذكروا بأن أولئك الأعراب كانوا في حالة "رحيل"، وأنهم على وشك أن يضْربوا مضاربهم. ركبنا عندئذ متجهين نحو جبل المسمى إلى أن وصلنا إلى أولئك البدو، ولم يكونوا إلا عـائلة من قـبـيلة شَـمّـر، يرتحلون في الخـلاء. وبلا شك، فـإنهم بمشاهدتهم لنا، شعروا برعدة في فرائصهم، حيث وجدناهم مختبئين في أرض منخفضة، مع جمالهم القَليلة إلى جوارهم، ولم تقم الزوجة بعد بنصب بيت الشعر. شاهدونا نَمُرُّ راكبينَ بجوارهم، تملأهم نظرات مضطربة، فعنزة وشمَّر على غير وفاق، ولا يحتوي عداواتهم إلا أوامر الأمير فقط. كنت سأطلب من هؤلاء البدو أن يسمحوا لي بشُرب ماء، إذ إننا كنا نسافر طوال اليوم دون توقف، وقد بدأ ضوء النهار يخبو تقريباً؛ ولكن رفاقي وَخزوا جمالهم إلى الأمام. رجوت رفيقي أن يعيرني أخيراً ذَلوله الأكثر طواعية وإنقياداً، حسب ما اتفقنا عليه، ولكن الرجل المتوحش حرمني ذلك، ولم يبطئ من سرعته. كنت في كثير من الأحيان عندما يسرعون، أظل متخلفاً بعيداً للدرجة التي أخشى خطر ابتعادهم عن نظري، وكنت في حالة دائمة من الرعب خشية أن تنهار ناقتي المُجهدة من تحتي، وأن تُسْقطَ جنينها كذلك.

وبناءً على كلمة عسكر، عندما رأوا أنني قد لا أحتمل أكثر من ذلك، وافق الرفيقُ على مبادلتي الركوب، وأمتطيتُ مطيته. دخلنا حينذاك إلى فجوة

مُنخَفضَة في المسمى بالقرب من الطرف الشرقي لهذه السلسة الجبلية الطويلة من الصَخور الرملية. قام رفاقي بالاستطلاع من حافة المنحدر عن أي بيت شعر أسود لأعراب في الصحراء الممتدة إلى ما وراء الأفق. أحدهم اعتقد أنه شاهد بضع بيوت في الأفق البعيد، ولكن الباقين شكّوا في ذلك، والآن مَالتْ الشمسُ إلى الغروب. هبطنا إلى الأسفل عبر الرمال العميقة لجانبي الجبل، في إندفاع خاطف كالريح، مع ذلك فإن أي حصان كان سيسبقَهم في مثل الظروف نفسها. إن الركوبَ على ظهر ذَلول جيد فوق أرض رملية، لهو سَهْلٌ جداً للدرجة التي قد لا يشعرُ الراكب المتمرس معها أحياناً بالسرَج من تحته، ويشبهه شعراؤهم الأقدمون بالسباحة. هبطنا إلى خبرة كبيرة لمياه الأمطار في الصخر الرملي، حيث ترجلوا وقاموا بالوضوء وأدوا صلاة المغرب على رمال الصحراء، ولكن عسكر قام بغسل كامل جسمه، على الرغم من أن الليل قد دخل، وليس لديه شيء يُجفف جسمه به، وعندما سأله رفاقه عن ذلك فأجابهم بأنه على جنابة، ثم تركوه بعد ذلك ليعود في اطمئنان وثقة يطلب المغفرة من الله: وبمثل ذلك أمر موسى [عليه السلام]. فالمسلمون سواء كانوا في حالة مرض أو صحة، وكان الجسد غير نظيف، لا يجوز لهم أن يؤدوا صلواتهم الواجبة ما لم يغتسلوا ويَتَطّهرُوا. إن الكثيرين من المرضى الذين رأيتهم كانوا يشكون من أنهم محرومون من الصلاة لأنهم على جنابة. وهكذا يجعلون من الرَّب ناظراً للجسد وليس باحثاً في السريرة. ركبنا سائرين في الظلمة الكئيبة؛ ولم يستمر الركوب السَهّل طويلاً بالنسبة لي، فرفيقي ناصر لم يكَن ليرضَى، وكان لابد لي أن أعودَ إلى ظهر ناقتي العجوز، لأنه كما قال ربما أهرب بها (ذلوله) في أثناء الليل؛ إنني في نظر ناصر وحريش من قبله لستُ إلا بدوياً ولص جمال؛ ومع هذا الخيال المجنون

المهيمن عليه لم يحتمل في أول اليوم أن أمتطي ذلوله، الذي كان حقاً أسرع ذلول في المجموعة؛ وبالنسبة لعسكر والباقين، وهم من الشيوخ، فقد تركوا أفضل دوابهم بمنازلهم ليحتفظوا بها غير مجهدة لخوض المعارك.

لقد سرنا لمدة ساعتين منذ غروب الشمس، وقطعنا في هذا اليوم حوالى خمسين ميلاً؛ وعندها تشاوروا عما إذا كان من الأفضل النزول وقضاء الليل حيث كنا؟ لم نكن قد أكلنا أي شيء ذلك اليوم، ولم نكن نحمل معنا أي طعام أو شراب، إذ كانوا واثقين بأنهم سوف يتناولون طعام العشاء كل ليلة ضيوفاً مع الأعراب. اتفقوا على مواصلة السير لمسافة أبعد، ولم يمضِ وقت طويل حتى رأينا قبساً لنار بدو. وخلال ساعة كنا بالقُرب منهم، وسمعتُ الأصوات المسائية للمخيم؛ الصياح المعتاد للأطفال وهم يحومون حول نار الحراسة، ويغنون عند بيوت الشعر. وصلنا في هدوء شديد، لدرجة أن الكلاب لم تنبح. كان هناك بيتان أو ثلاثة من بيوت الشَّعر. عندما شعر الأعراب وأدركوا وجودنا صمتوا، واطفأت فجأة النيران المشتعلة التي كانوا يجلسون حولها منذ برهة بالرمال. كنا سبعة أو ثمانية أشخاص، وقد اعتقدوا أننا ربما نكون غزاة. نزلنا بهدوء و انتحينا بعيداً عنهم، ولم يتحدث أي منا إلى صاحبه إلا هَمْساً، ولم يناد أحدنا الآخر باسمه؛ إذ إن الصحراء مملوءَة بالعداوات القديمة المتعلقة بالثأر للدم. وعند مثل هذا اللقاء الغريب، وأكثر من ذلك في مثل هذا الوقت من الليل فإن البدو الرُحل يكونون في حالة من التوتر الذهني، وعدم الثقة في بعضهم البعض. وعندما نفد صبري من صمتهم، كنت على وشك أن أقول "سلامٌ عليكم" إلا أنهم توسلوا إليّ بأن أظل ملتزماً الصمت. وبعد أن أخذ المتهامسُونَ في المخيم علماً بشكل كاف بنيّتنا ومَسلكنا السّلمي، تقدم أحدهم نحونا باحتراس وحذرٍ وألقى علينا

كلمة "السلام عليكم" ، ورددنا جميعاً "عليكم السلام" . بعد أن تخرج هذه الكلمات المقدسة من الشفاه بين البدو ، فإنه لا يوجد بعدها أي شك بينهم من وقوع أي شرّ. قام الرجل باقتياد عسكر ورفاقه إلى بيته ، وذهبت مع رفيقي ناصر إلى بيت آخر ، ومعنا البدوي وابنه ، اللذان كنا قد التقيناهما راكبين في الصحراء وراء جبل المسمى . حرك الرماد ، وتوهجت النار مرة أخرى .

مَنْ كان أولئك الأعراب ، لم يكن في استطاعتنا أن نحدد ، وهم كذلك لم يكونوا ليعرفوا مَنْ نحنُ؛ لقد لاحظنا أن أهل الصحراء لا يسألون الضيفَ أي أسئلة ، إلى أن يتناولوا الطعام؛ ومن ثم بعد قليل من تبادل الحديث بينهم عن الأمطار هذه السنة ، والمرعى ، فإن كلاً منهم ربما يصل إلى تخمين عام عن القبيلة التي ينتمي إليها كل منهم . عندما سألتُ رفيقي الفَظّ من أيُ قبيلة هؤلاء؟" أجابني في هَمْس إنه لا يعرف بعدُ ، وبعد ذلك بوقت قصير فهمنا من خلال الحديث الذي كان يجري في البيت الآخر أنهم قد تعرّفوا على عسكر . لقد كان ابن شيخهم الأكبر؛ وكان هؤلاء البدو من قبيلة ولد سُليمان ، وهي فرعٌ من قبيلة البشْر ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون بعضهم بعضا . تركنا مضيفنا الذي ذهب إلى بيت الشعر الرئيسي ليستمع إلى الأخبار ، مع زوجته ، وقد شاهدتها تبدأ في طحن الذرة في هاون من الخشب ، وهي طريقة لم يستخدمها البدو الجنوبيون من معارفي السابقين . وتقدم الذرة المجروشة في الغالب للضيف مثل التمن . لقد بدأ الآن فصل الشتاء في الصحراء ، ولهذا قاموا بحماية عُشَشِهم من المطر الشديد الذي هطل مؤخراً ومن الرياح ، بالأعشاب الجافة .

أتى أحدهم من الخيمة الثالثة المتبقية ، وتناول طعام العشاء معنا . لقد اندهشت لرؤية هذا الرجل ، ونظر هو أيضاً نحوي في دهشة : بدوي ، ويلبسُ

طاقية الأتراك الحمراء "الطربوش" وثوب مُخططٌ قديم "القُمباز" الذي يستخدمه سكان المدن في الأقطار الحدودية! عندما سألته عن نفسه، أجابني بأنه عندما كان فقيراً، ذهب للجندية في بلاد الشّام وقد خدم الدولة [العثمانية]مقابل النقود: والآن عاد لدياره إلى حياة البدو الرحل مع ما حصل عليه من مال. وبهذا بدأ عهد غناه وقام بشراء إبل وأغنام، وإنه كان مستعداً لشراء ناقتي بالثمن الذي أحدده لها، وهو سبعة ريالات، ليضحي بها لوالده المتوفى. أن يؤدي البدو خدمة عسكرية، كان ذلك بالنسبة لي عالماً جديداً آخر ! ومع ذلك علمت لاحقاً أن هناك فرسانًا من قبيلة بشّر ومن قبيلة حرب ومن العقيلات يعملون في المدن الكبرى. كان ذلك البدوي الذي وجد في الغريب تجسيداً لحياته الخاصة في دمشق مسروراً لتجاذب أطراف الحديث معي، والذي لم يكن إلا حول أسماء الأسواق الرئيسية في تلك المدينة الكبيرة. كان عليه أن يحضر الريالات في صباح اليوم التالي، وإذا ما بقيتُ هنا فإنه سوف يعتني برحلتي اللاحقة إلى حائل إذ إنه كان ينوي الذهاب بنفسه إليها في القريب العاجل، ولكن عندما نادى عليّ رفيقي عند الفجر للرحيل لم يكن في استطاعتي انتظاره. وفيما بعد عندما وجدني في حائل، عاتبني على عدم انتظاري له، واستفسر عن ناقتي، التي كنت قد بعتها مسبقاً بخسارة. أخبرني بأنه عند حضورنا لهم تلك الليلة، أخذوا بنادقهم العتيقة استعداداً لإطلاق النار علينا، ولكن عند رؤيتهم للحقائب الكبيرة على بعيري، وبسماعهم لصوتي عرفوا بأنني لستُ من البدو، وأننا لم نكن في غزو.

انطلقنا مرةً أخرى في الخلاء لنجدَ مخيماً كبيراً للبدو، وعندها منّى رفاقي أنفسهم بشرُب القهوة عندهم. إن الشيوخ المعتادين على شرب القهوة، لا يعدّون اليوم الذي لم يرتشفوا القهوة فيه من أيام حياتهم؛ لقد كانوا وهم

راكبون يدخنون بصورة متواصلة التتن الذي يضعونه في رؤوس غلاينهم.
وصلنا عند الفجر وترجلنا، ومثلما سبق، في مجموعتين، عسكر ورفاقه توجهوا نحو بيت القهوة الخاص بالشيوخ؛ وتلك هي كياستهم في الصحراء إذ لا يُشكلون عبئاً على أي صاحب منزل. كان الناس الذين توجهنا إليهم من قبيلة شمَّر؛ واستقبلونا بحفاوتهم المعهودة. كان التمر الذي قدموه ممتازاً (مختلف في لونه ونكهته عن التمر في العلا وتيماء)، وقد وضعوه أمامنا مع قدح كبيرة من ذلك المشروب الأكثر إنعاشاً في الصحراء، لبَن نياقهم. تم استدعاؤنا إلى بيت الشيخ، الذي قام بنفسه بعمل القهوة، وهو يبتسم ابتسامات تعبر عن الترحيب ورحابة الصدر. وعندما سمع بأنني حكيم رجاني أن أسمح له بإحضار حفيدته المريضة. أخبرت الأم بأننا في طريقنا مسافرين، وأن دوائي سوف لن يفيد ابنتها كثيراً. قال الشيخ مُلتفتاً إلى رفاقه بأنني لابد وأن أكون رجلاً صادقاً جداً. "إنه هكذا، أجاب عَسكَر، ولك أن تثق في كلامه عن كل شيء". ناولني الشيخ القدح وبعد أن رَشَفْتُ جرعةً سألني "إلى أي بلد أنتمي؟" فأجبته "إنني إنجليزي"، فهمسَ في أذني عندها "إنغريز - إذاً نصراني؟" فقلت بصوت عال "أي بالله"؛ ورَشَقَني الشيخ بابتسامة مرة أخرى وتراءى لي أن نفسه تقولُ "إنني لن أخونك". وكان قد صَبَّ القهوة الجاهزة لي قبلهم جميعاً. عندما ابتلعَ رفاقي فنجانهم الثاني، نهضوا في عجالتهم غير الموفقة ليغادروا: رجاني الشيخ أن أنتظر لكي أشرب أكثر من الحليب الطيب المذاق وأقوي جسدي.

سرنا في الصحراء في اتجاه الشرق، خارجين هنا من منطقة المسمى، وكان إلى يميننا بعض الجبال، التي تشير إلى أننا بالقرب من منهل الماء الكبير بيضاء نثيل. كان يمكننا أن نسافر من جبل الحرم إلى حائل في الاتجاه الشرقي لجبل

أجأ، ولكنهم فكروا بأن ذلك الجزء سوف يكون في هذا الوقت خالياً من البدو المرتحلين. تنتشر في هذا السهل المرتفع المفتوح - وارتفاعه ٣٨٠٠ قدم - الصخور الصلصالية، والتي كأنها من الحجارة الحديدية، ولكن نحو الظهيرة لاحظت بأننا قد وصلنا إلى إقليم من الجرانيت، ومررنا أسفل جبل من صخر البازلت، أسود كالفحم ولامعٌ. إن الصخور شديدة الإنحدار التي كانت ترتفع بارزة في هذا الإقليم كانت من الجرانيت الرمادي؛ ولقد ظهر في الأفق جبل عبران المسود، على بعد مسيرة ساعات ممتّداً في اتجاه الشمال. بعد ذلك بقليل جئنا إلى رمال النفود وحينما وجدنا أعشاباً جافة هناك، توقف البدو ليجمعوا علفاً لإبلهم عندما تصل إلى حائل، لأن المناطق المجاورة لها محل (قاحلة)، وأرضها جرداء لا تقل عن أرض جوار تيماء. كان جمع الأعشاب الجافة لا يليقُ بمقام الشيخ الكبير: وبينما كان الباقون مشغولين في ذلك الأمر، قام عسكر بالحفر بيديه حتى المرفقين لكي يكشف العمق الذي وصلت إليه الأمطار التي هطلت مؤخراً؛ وهذا ربما كان كل ما يأملون وجوده ويبحثون عنه حتى خريف آخر، حيث ينبت العشب للسنة الجديدة. كانت الأمطار قد هطلت مؤخراً ولمدة ستة عشر يوماً كاملة؛ وعلى الرغم من ذلك لم يلاحظ أي دليل في تُربة الصحراء لأي سَيل تقريباً. وعندما غَرسَ عسكر يديه العاريتين حتى الكتفين تقريباً وصل إلى الرمل الجاف إذ لم يصل البلل إلى عمق ياردة كاملة! إن الأمطار الموسمية متفرقة في الجزيرة العربية، والمنطقة على هذه الارتفاعات تعدّ إقليماً دون أمطار تقريباً. فبينما كان المطر يهطل في الخرم، لم تَهْطلْ أية أمطار في ديرة جُهينة، وقليل جداً هطل بالقرب من خيبر على بُعد مئة ميل، مما يعني أن أشهر هذه السنة الجديدة لن تشهد ربيعاً في تلك الجبال البركانية.

لم نسر لمسافة بعيدة في النفود حتى شاهدنا عند العصر إبلاً تتحرك أمامنا ببطء، إذ كانت في مرعاها، وشاهدنا وراءها بيوت شعر لبدو، وقد نصبت في مكان منخفض. إن البدو عندما يكونون قلة، فإنهم يختارون لنصب مخيمهم أرضاً عميقة تقيهم من عوامل الطقس، وبحيث لا يمكن تبين وجود مخيمهم بسهولة خلال النهار، وكذلك الأمر بالنسبة لنيرانهم في أثناء الليل. كان هؤلاء أيضاً من قبيلة شمَّر، القبيلة التي تسيطر حالياً على كل الإقليم الذي كان أمامنا وحتى قرى الجبل[جبل شمَّر]؛ وكانوا منتشرين كعائلات في إقليم آمن تحت سلطة الأمير، وحولهم العديد من الآبار. كان الذباب الذي يتجمع هنا على الرمال إشارة إلى أننا قد اقتربنا من قرى النخيل. وكنا كلما وصلنا إلى خيام في هذه البلاد يسألنا الأعراب على الفور، "ماذا عن الأمطار؟ أخبرونا هل أمطرت بغزارة في "ديرة العواجي"؟ كان رفاقي يجيبون على الدوام في كل مرة بالكلمة نفسها "لا تنْشُد"، أي لا تسألوا عنه. وإذا ما سألهم أحد عمن هو الغريب الذي معهم، فإن العواجي يجيب بتعبير لم أستطع أن أعرف كنهه "الخير والله". وكان الشيخ في هذا المنزل أيضاً يرغب في شراء ناقتي، ملتزماً أيضاً بترحيلي إلى حائل بعد أيام قلائل، يتحتم عليّ أن أكون خلالها ضيفاً عليه.

رأيت إنه ينبغي على الأقل أن نرتاح هنا الليلة؛ ولكن رفاقي بعد تناول العشاء توجه كل منهم إلى ذلوله للركوب والانطلاق، وكان ناصر معهم، فهم لن يضيعوا وقتاً من أجلي لأساوم على الناقة. ورأيت أن من الأفضل المغادرة مع هؤلاء الذين أعرفهم وأطمئنُ على وصولي إلى حائل معهم عن أن أتخلف في بيوت بدو لا أعرفهم؛ علاوة على ذلك، فقد سمعنا بأن مُخيّماً كبيراً لشمَّر يقع على مسافة غير بعيدة أمامنا، وقد وعد عسكر، شيخ [مدمن]

القـهوة، بأن يعـهـد بي إلى أولئك البدو، إذا استطاع أن يقنع رفيـقي بالبـقـاء معي. لقدكنت منهكاً من طريقة سيرنا المرهقة: وكان قلبي يقفز في كل لحظة إلى حلقي، وهي حالة عذاب ومعاناة يطلقون عليها "قطع القلب". كانوا يسبقونني طوال ساعات النهار، بركوبهم السريع، ومع ذلك كنت محتفظاً بإرادتي القوية، لأن الموت كان هو الخلاص من تلك المعاناة. اختار البدو سفح الجبل التالي ولكنهم واصلوا المسير لمسافة أبعد لمدة ساعتين، ولم يشاهدوا أي نار في الجوار، ولذلك حسب قول العواجي فإنهم كانوا يفضلون السير طوال الليل ليصلوا إلى حائل في وقت مبكر. كان لابد لهم أن يهجروني خلال وقت قصير، إذ إنني لم أعد قادراً على التقدم أكثر، وناقتي انهارت من تحتي. بعدها مباشرة تمتم عسكر، والنعاس يغلبه "دعونا ننزل لننام". عندها رأينا نار مراقبة إلى يميننا، كان يحجبها عن الأنظار عدم استواء الأرض، ولكنهم تجاهلوها حبّاً في النوم: ترجلنا وعقلنا رواحلنا، واستلقينا لنرتاح إلى جانبها في الخلاء.

لم نسر لمدة ساعة في صباح اليوم التالي، حتى تبينّا مع طلوع الشمس العديد من بيوت الشعر السوداء لمخيم بدو، حيث وعدني العواجي بالراحة هناك: ولكن كالعادة ما إن شربوا القهوة الساخنة وابتلعوا قليلاً من تَمر شمَّر، حتى نهضوا ليواصلوا السفر. إن مثلَ تلك الوعود من البدو ما هي إلا كلام في الهواء، فرفيقي لم يكن ليستمعَ إلى كلامي، ولا عسكر يمكنه أن يُقنعه، حيث قال "والله، إنه لا سلطان لي عليه." وقال ناصر: "إخْتَر ياخليل، ما إذا ستبقى هنا أم تركبَ معنا؛ وأنا سأذهب مع أصحابي." ماذا بقي لي سوى أن أدخل سباقاً معهم؟ والذي هو بالنسبة لي معاناة شديدة، وناقتي على وشك الانهيار تحتي. وأثناء ركوبنا قال عسكر: "يظهر أن خليلاً لا يستطيعُ

الصـمـود، ألا تعـود يا خليل إلى المضـارب؟ ولا يسـاورك أي شك في أنهم سوف يستقبلونك" - "كيف سيستقبلونني؟ وأنت حتى قد كذبتَ عليهم في القهوة قائلاً لهم بأنك لست عواجي، كما أنك لم تكشف عن شخصيتي، فماذا سيحدث عندما يعلمون بأنني نصراني؟ وحتى رفيقي ناصر يتخلى عني!"، فقالوا "إننا سوف نصل اليوم إلى إحدى القرى وسوف نتركُك هُناك". لقد غفلنا عن أن نشرب عند الخيام، فأصابنا العطش ونحن سائرون، وعندما ارتفعت الشمس عاليةً إلى كبد السماء، وكان أملنا قليلاً في أن نجد خبرات مياه الأمَطار بعد ذلك في هذه القفار الرملية. ثم وعندما تبيّنوا بعض الشُّعاع تحت ضوء الشمسِ على مسافة بعيدة، أسرعوا إليه؛ ولكنه كان قاع طينٍ لامعٍ، وفي الوسط خـبرة صغـيرةٍ جـدّاً من الوحل، تخلينا جـمـيـعـاً عنهاً. يبلغ رتفاع هذا السَّهْل ٣٧٠٠ قدمٍ، وكان يبدو وكأنه يمتد نحو جبل أجا، الذي برز أمامنا مثل حاجز عملاق لجبل جرانيتي ليس عالي الارتفاع يمتدُّ شمالاً وجنوباً. وتتكون أرض السهل من تربة رمليه جرانيتية وصخرية، ومن حجارة ملساء وصخر جرانيتي. مررنا قبل الظهر بساعتين على خرائب قرية صغيرة قائمة حول بئر ماء، هجرها سكانها قبل خمس سنوات مضت. قال عسكر: "إن الماشية قد نفقتْ بعد سنوات قحط، وإن عدداً من الناس ماتوا من مـرض الجـدري". وهذا النوع من المآسي ليس نادراً في قـرى الجـزيرة العربية. عندما سألت عن اسم المكان أجابني باقتضاب "مَلْعُون طالبه"، التي قد تعني "اللعنةُ على أي شخص يستفسرُ عنه."

وجدنا خبرة صافيةً لمياه الأمطار في الَصخر، وكان ماؤها بتدفئة الشمس له بالنسبة لنا أحلى من الحليب. هناك أطفأنا ظمأنا ووردنا حيواناتنا لتشرب بعد أن كانت قد سارت مسافة مئة وثلاثين ميلاً دون مرعى أو ماء، أي منذ أن

غادرنا جبل الخرم. ذهب رفاق عسكر ليقطعوا كمية أكثر من العُشب الجاف قبل أن نواصل المسير، فقال لي عسكر: "يا خليل إن الناس حيث نحن ذاهبون غيورون. فلا تدعهم يرونكَ وأنت تكتب، وتأكد بأنهم سوف يعدّونها شؤماً، ولكن إذا كتبت فأكتب خفية، وضع هذه الأوراق والكتبُ بعيداً. إنك هنا مع البدو، وهم يعرفون من تكون، ولكن أتسْمع؟ إنهم ليسوا مثل الناس الطيبين في القرى الأبعد!". تقدمنا في مسيرتنا لمدة ساعة أو ساعتين وشاهدنا تيجان أشجار النخيل الخضراء تحت سَفْح الجبل لقرية صغيرة اسمها جفيفاء، حيث ذكروا بأن خمس أو ست عائلات يقطنونها. إلى جهةً الشمال شاهدت جبل الطوال، وهو جبل جرانيتي ضخم يقف وحيداً في أفق الصحراء. أصبح رفاقي وهم دائماً يسيرون متقدمين عليّ خارج مجال رؤيتي، وقد تركتهم يتقدمون لأنني لم استطع مجاراتهم، ولأنني مع هذه المعالم الأرضية سوف أصل إلى مكان مأهول. وهناك ترجلت وسرت على درب عميق مطروق - مثل تلك الدروب التي تنحفرُ في تربة الصحراء الصلبة، قرب القرى التي تقع على الطرق العامة، وقد خطتها الأجيال المتعاقبةَ من المسافرين من البدو الرحل. سرتُ على الأقدام، قائداً ناقتي المنهكة بخطى بطيئة، إلى أن تبينّت التيجان الأولى لأشجار النخيل، والخطوط الخضراء للمزروعات في موقق. وفي النهاية شاهدتُ ناصراً عائداً من بعيد ليقابلني. عند مدخل القرية انهارت ناقتي الهزيلة على الأرض، وهي ترغى، وقد أخّرَنا ذلك لبعض الوقت؛ ولكن ناصر أنهضها، وقادها بضربات قاسية، ومن ثم دخلنا موقق بعد ساعة ونصف الساعة بعد الظهر.

دُهشت أن أرى القرية ممتلئة بالخرائب، وأن الكثير من أشجار نخيلهم ميتة وذابلة، إلى أن علمت بأن موقق قد دمرها الطاعون منذ سنوات خلت. إن

طريقة بناء منازلهم لا تقوم على الطوب الطيني المملس، مثل ذلك الذي قد رأيناه في تيماء ، ولكن على جدران من طبقات طينية يعترضها كتل من الطوب الصلب المجفف؛ والأرض هنا جرانيتية. وذكرني المكان الخرب ببعض الواحات التي كنت قد شاهدتها قبل سنوات في الصحراء الجزائرية. و مياههم الجوفية هنا فاترة، مثلما هو في جميع أرجاء بلدان الجزيرة العربية، وذات مذاق رديء؛ والمكان محموم، وتمورهم جافة ذات مذاق غير طيب. ذهبنا نحو قهوة الشيخ، حيث سبقنا الرفاق، والتقينا بالشيخ الطيب، الذي تقدمَ لمقابلتنا، و قادني بود بيدي، وطلب من أحد رجاله أن يُقَدّمَ قصباً أخضر، يقطعه من البستان، ليعلف به رواحلنا. عندما اتخذنا مَجْلسَنا في القهوة، دخل عندئذ العديد من رجال القرية، الذين دون أن يظهروا تغيراً في هدوئهم ورزانتهم ـ ربما كان الأمر كما سبق وأن عَبّر عنه عسكر بكلمات سديدة ـ كان يبدو أنهم ينظرون إليّ نظرةً ودية. وحينما رأيت أن الجميع مُتّخذونَ هذا الموقف، طَرحت على الشيخ خلافي مع ناصر، وقد وافقني عسكر موضحاً بأن ناقتي لم تكن في وضع يمكنها من مواصلة السير.

وحتى في هذه الحالة كان رفاقي سيرحلون في الحال أيضاً، وسيسيرون طوال الليل ليكونوا في حائل قبل طلوع النهار. صرح ناصر بأنه سوف يذهب معهم، وإذا لم أستطع أن أسير معهم فإنه لابد له وأن يتخلى عني. رفض شيخ موقق ذلك لأن الناقة لن تستطيع مواصلة السير. حكم الشيخ على ناصر، الذي كان قد استلم أجرَهُ مسبقاً أن يبقى معي، أو أن يتنازل عن الكثير من أجرته وبما يكفي للدفع لرجل آخر (ليأخذني إلى حائل)، وعندها يمكنه أن يغادر في حرية تامة. فضل "الخبيث" أن يبقى معي لأنه بالحكم الذي أصدره الشيخ كان سيفقد الكثير مما كسبه. نهض عسكر ورفاقه في عجلة بعد تناول

التَمر والماء ليواصلوا رحلتهم متوجهين نحو حائل. وكانوا قد قطعوا الطريق الطويل من الحَرَمْ في عدو متواصل، لا يحملون طعاماً ولا شراباً ولا قهوة: لقد كانوا على ثقة ببصيرتهم الثاقبة بأنهم سيجدون أعراباً في كل يوم. كانوا جميعاً شباباً في فورة الصبا إلى الحد الذي يقودهم إلى شكل من أشكال التفاخرُ بقدرتهم على التحمل . سألت عسكر "لم العجلة؟ ولماذا لم يأخذوا في كل مكان قسطاً من الراحة "؟ فأجاب: لكي نعود إلى منازلنا بسرعة، وإنه من غير اللائق البقاء في مضارب وبيوت البدو ضيوفاً فهذا (عيب). عندما ذهبوا، عيَّر القرويون الجالسون في القهوة ـ وكانوا من شمَّر، رفاقي بأنهم من عنزة! كانت مثل هذه النَعْرات القبلية تقابلني كثيراً خلال ترحالي في أرض الجزيرة العربية الشاسعة.

شاهدت هنا لأول مرة بضائع بغداد المجلوبة من سوق حائل. ولم يعُدْ رجال موقق يشعلون غلايينهم بالرصاص والحديد، بل بأعواد ثقاب (Zundholzer) المشهورة المستوردة من فينا ـ لقد أصبحنا في العَالَم مرة أخرى. كان مجلس القهوة، غير منتظم البناء، معتمًا، وأقل نظافة عنه ترحيباً وضيافة. وكانت الأرضية الترابية التي نجلس عليها مملوءَة بنوى التمر الذي يلقيه الضيوف الذين يحضرون يومياً إليها.

كان القرويون ذوي روح طيبة، وكانوا يستمتعون بالحديث مع الغريب، وإلى المدى القصير الذي تمتدُّ إليه معرفتهم عن الأقطار الأجنبية والأديان: ذكروا بأن الكفار قد قاوموا الحق؛ ولا سيما النصارى، الذين كان لهم بحر من الفنون والمعرفة. كانوا يقدمون لي من آن لآخر غلايينهم. ووجدت أن مذاق تَبغهم الأخضر اللاذع، في ذروة الإرهاق هذه، ذا حلاوة لا مثيل لها، وكانت أصواتهم المتمدينة مريحة لي بعد أصوات بشْر المؤذية المُتوحشة. سألني

شابٌّ، "هل لي أن أقرأ؟ـ ألديك أيُّ كتب؟" وضعتُ في يده كتاباً للجغرافيا كتبه باللغة العربية عالم من الإرسالية الأمريكية في بيروت. انكب الشاب على الكتاب بشغف وتعطش للقراءة، مثلما يحدث في بلاد سعيدة متقدمة في المجالات العلميَّة: وفي النهاية أغلق الكتاب عندما أفلَت الشمس للمغيب، ووضعه على رأسه دلالة على تقديره الكبير له، وهي عادة شرقية لم أشاهدها مرةً ثانية في الجزيرة العربية، حيث القليل جداً من عادات الشرق (أو لا شيء منها البتة). سألني أيمكنه شراء الكتاب؟ (ولأنني أجبت بالنفي)، سأل أيمكنه أخذه للمنزل ليواصل القراءة ليلاً؟ وهو ما سمحت به. دخل القهوة رجل أسمر طويل، ولاحظتُ أنه غريب من أهل الشمال وبهيئة عزيزة، وملبس حسن. حيا المجموعة في برود وجلس: لقد وصل من قفار التي غادرها راكباً هذا الصباح. وضع التمر أمامَهُ، وقلب نظره بالجالسين، فتذكر واحداً أو اثنين منهم ممن قد يكون التقاهم في السنوات الماضية، حياهم، ونهض في وقار وقَبَّلَهم على الخدين واستفسر عن أحوالهم. لقد كان شمَّرياً من العراق، وتقعُ دياره على بعد ٢٥٠ ميلاً من هنا. نظر إلي طويلاً حيث كنت أجلس ومنديلي مُلقى إلى الخلف بسبب حرارة الجو، ثم سأل: "من يكونُ هذا؟ إيه! أنصراني؟" قلت: "نعم!" - "ولقد عَرفتُ ذلك: أيها الناس! إن هذا له مشروعٌ خطير، ولا تعرفون ماهو؛ و هذا الرجل من أمة الفرنجة!" - "إن الجميع هنا يعرفون بأنني إنجليزي، وهل يجب أن أخجل من ذلك؟ ومن أنت يا رجل، ومن أين أتيت؟" - "إنني من حائل، وجئت من أجل أعمال للأمير! والله، قال ملتفتاً نحو الجماعة، إنه لن يكون شيئاً سوى جاسوس، أحد الذين جاءوا لينقبوا في البلاد! أخبروني عما وصلكم من أخبار هذا الرجل؛ وإذا ما كان يسأل البدو، ويقوم بكتابة

إجاباتهم؟ " أجاب أحد القرويين بقوله : "منذ سنوات خلت، كان أحدهم قد جاء إلى هنا، وأدعى أنه مسلم، وأظن أن اسمه كان خليل، وكتب عن كل ما استفسرهم عنه . "

ظل القرويون مستمرين في مجلسهم مُلقين قليلاً من الاهتمام لحديث ناصر (كان هذا اسمه)؛ وربما كانوا غير مرتاحين لنظرات رجل الشمال العدائية، وعلاوة على ذلك، فإنهم كانوا مقتنعين بشخصي . أجابه الشيخ : " إن كان هناك أي خطأ أو مأخذ من خليل فهو ذاهب إلى حائل وسينظر الأمير في الأمر . " وعندما رأى ناصر أن الجماعة لا توافقه، غض من نظراته العدائية وبدأ يتحادث معي بمودة . عند المساء تمت دعوتنا إلى منزل في القرية، حيث تم إعداد مأدبةِ عشاء كبيرة لنا مكونةً من لحم الضأن والتمن، وتناولنا الطعام سوياً .

أخبرني ناصر عن خيُوله في الشمال الموجودة في ديرته، وذكر أن لديه خمسة من الأمهار على الرغم من أنه ليس شيخاً، وأن لديه إبلاً كثيرة، إذ إن صحراءهم ليست مثل هذه الصحراء الجنوبية البعيدة، ولكنها ممتلئة بخيرات وغنائم الله . حينما رأى ملابسي قد بَلِيَتْ واهترأت - وكنت لزمن طويل أنتهج حياة البدو في الخلاء - رجاني أن أرتدي ملابس أفضل لمقابلة الأمير في حائل، وأن أكون حذراً ولا اتفوه حتى بكلمة واحدة يمكن أن تؤخذ في غير محلها، وسط أناس قليلي الفهم، سريعي الغضب (وهو أمر تكمن فيه كل مصاعب السفر في الجزيرة العربية)، غير معتادين على رؤية غريب . هنا وللمرة الأولى في نجد سمعت " النون " تنطق في أواخر الكلمات إلى ما لا نهاية . إنها اللهجة البسيطة الصافية العذبة في اللسان العربي، التي يستمتع المرء عند سماعها لأول وهلة، ولكنها بالنسبة لهم أمر مُكتسب . انتهى المساء شديد

الحـرارة والرطوبة بعـاصـفـة من البـرق والرعـد والمطر، كـانت تلك هي الأيام الأخيرة لشـهـر أكتوبر؛ وكـان يقطن في هذه القرية الصـغيرة عدد بالكاد يصل إلى ١٥٠ شخصاً.

وعند الصبـاح بقينا لنشرب قهوة الصباح الباكر؛ ثم ركبنا آخر ميل من السهل ذي الصـخور الجرانيتية الزرقاء والحمراء، إلى الأطراف حادة الانحدار لجبل أجـأ. شاهدت ممرّاً لدرب أمامنا في شقٍ يمر عبـر الجبـال، ويمتد لمسافة ثمانية عشر ميـلاً ويؤدي إلى السَهل من وراء الجبال؛ ويسمى هذا المضيق ريا السلف. إن الطريق في بدايتـه شـديد الانحدار ووعـر: وتقـريبـاً عند السـاعـة التـاسعـة مـررنا بشـلال مـاء بارد كـان ينبع من الجرف الصخـري الشـاهقْ في الأعلى!، ولم أشاهد شـلالاً منسـاباً بعد ذلك في الجزيرة العـربيـة الشحيحة الميـاه. هناك قـمنا بملْء قـرَبْ الماء، وخلع العـرب مـلابسـهم وانطلقـوا لغسل أجسامهم، حيث إن البَدو يلتفون حول كل فرصة لوجود المياه كـالعصافير. وليس ببعيد عن ذلك المكان كانت الأساسات الأرضية المتآكلة لسَد قديم، وفي جزء من الجبل توجد أشجـار نخيلٍ للبدو غـير معتنى بهـا؛ لقَـد كـانت هناك زراعـة للأرض في المـاضي. عند أعلى نقطة في ريَّا السّلف كـانت القراءة تشير إلى أن الارتفاع كان ٥١٠٠ قدم فوق سطح البحر.

كان قد انـضمّ إلينا في السهل بدوي فقير يقود حماراً، وقـد سُرَّ كثيراً عندما قدمتُ له حفنةً من تَمْر تيمـاء للفطور. ولاحقاً عند مُنعطف في الصخر إلتقينا ثلاثة أشـخاص من قبيلة شمَّر ذوي مظهر فَظّ قدموا في عـجالة شـديدة وهـم يحملون أسلحتهم في أيديهم. بقي هؤلاء الرجال معنا وفي أثناء وقوفناً وفقاً لعادات العرب للاستماع للأخباركانوا يحدجونني بنظرة عدائية. ربما علموا من بعض رفـاق عـسكر الخبيـثين عن نصـرانيٍ يمر اليـومَ بالريا، وأضـمـروا

لإغتيالي. والآن وهم يرون الفرصة مواتية، قالوا للرجل الذي انضم إلينا مع حماره، وكان من قبيلتهم: "غض الطرف يا هذا ودَعْنا نقتله!" - "معاذ الله (أجابهم الرجُلُ الفقير) إنه رفيقي!"، فغادرونا غاضبين. "الآن يا خليل! قال ناصر، أرأيت؟ إن هذا ما أخبرتُكَ عنه، أن السفر وحيداً في هذه البلاد أمر خطير! إن هؤلاء هم شمّر الملاعين، ولو كنا لوحدنا، لكانوا قد انقضوا عليك - لعن الله شمّر!" - "ألم نمالح في الأيام القليلة الماضية ضِيافَتهم؟" - "حسناً، أقول لك إنهم بشوشون ومُكرمون للضيف في بيوتهم، ولكنهم إذا وجدوا رجلاً "خلاوي" (أي وحيداً في الخلاء) فإنهم سوف يقتلونه! وإن أولئك الذين شاهدناهم الآن، يتربصونَ خلف الصخور ليقتلوا كل من يجدونه دون دفاع."

لا يوجد هناك سلام إلا سلام الأمير، ولا وُدَّ بين بشر وشمَّر. ومنذ سنوات ليست بالبعيدة اندلع قتالٌ مرير بينهم حول الحقوق في منهل الماء الرئيس للمياه في صحرائهم المسمى بيضاء نثيل، وقد قسم ذلك القتال سكان المنطقة المجاورة. تقع بيضاء نثيل على حدود بشر، ولم يحتملوا أن تأتي شمَّر إلى هناك، مدعومين من قبل الأمير طلال. ولذلك تخلوا عن ديرتهم، وهاجروا في اتجاه الشمال، وهاموا في القفار والصحراء عند أقاربهم من قبيلة عنزة سورية، وظلوا هناك لعامين أو ثلاثة أعوام، ولكن لأنهم جُدد في تلك المناطق، فإن العديد من الأعداء سرقوا ماشيتهم؛ ومن ثم عادت بشر إلى موطنهم الأصلي وإلى الأمير.

في وسط الريّا يتقلص الجبل الجرانيتي على الجانب الشمالي، وهناك قبابٌ منخفضة من البازلت البلوتوني كانت فوهات لبراكين حدثت في العصور السالفة. سَمعْنا جلبة واضطرابًا من خلفنا وجَرجَرة لأقدام إبل، لقد كانت

قطيعاً من "الأجلاب" - الجمال المجلوبة للبيع في جبل شمّر. وكان يقودها رجال من قبيلة البشر، وفي رفقتهم انتهت مخاوفنا. أحد الصبيان من قادة الجمال صاح عليّ "ألديك بعض الخبز لتعطيني شيئاً منه؟ فطوال هذا اليوم من السير والجري لم أذق شيئاً." كان الوقت متأخراً بعد العصر عندما تقدمنا في مسيرنا، وعندما نظرت إلى أسفل حيث سهل قفار كانت الواحة الخضراء تقع على مسافة قليلة أمامنا. كانت الشمسُ تميلُ إلى الغروب، وأراني ناصر جبل سمراء حائل البازلتي ذا القرنين، والذي كان يبرز شامخاً خلف القرية العاصمة في اتجاه الشمال. وقفار مثل موقق محوطة ببساتين تعزلها عن الصحراء. في السهل قبل البلدة قرأت الارتفاع فكان ٤٣٠٠ قدم. دخلنا قفار عبر طريق عريض خال يمر بين جدران بساتين طويلة، حيث لم نشاهد أحداً، ولم نر حتى المنازل. عندما تغيب الشمس يعود قرويو العرب إلى تناول طعام عشائهم. ولم يقابلنا إلا امرأة واحدة فقط، يثير النظر إليها الإشمئزاز! فالوجه الأنثوي كان مغطى بحجاب؛ وهو في نظرنا وثنية آسيوية! والجنس العربي الأصيل، في مسألة الحريم، أضحى فظّاً. وبدءاً من قفار فإن وجوه النساء، التي خلقها الله لتزين عالم الإنسان بالحبور، قد تم قلبها إلى هذا الشكل المخيف؛ ولا يُرى من زوجاتهم المحجبات المتوشحات بأثوابهن المثيرة للشفقة والسخرية، سوى اليدين! نزلنا عن دوابنا إلى جوار جامع، في المناخ، أو مكان إناخة رواحل الغرباء، حيث يحط جميع المسافرين، وتتم دعوتهم للعشاء. إن الضيافة العامة هنا مكلفة كثيراً حيث تقع قفار على طريق عام، ولأن المسافرين من حائل باتجاه الجنوب، وفق عاداتهم، ينطلقون عند الظهر من حائل ويقضون ليلتهم في قفار.

بوصولنا مع قادة الجمال، دُعينا سوياً لنتعشى بتمرهم الجاف والماء؛

والتمر، حتى الجيد منه، لا يعدّ شيئاً ذا قيمة ليقدم للغرباء. و الشخص الذي قام بخدمتنا أبدى أعذاراً لكون رب الدار كان في حائل. وأهل قفار، وهم من بني تميم، لا يذكرون بالكرم نفسه الذي تذكر فيه شمَّر. أخذ رفيقي ناصر، الذي أصبح أكثر وداً تجاهي منذ مغادرة رفاقه الآخرين، يلوم المارة على الطريق لأن لا أحد منهم قد دعاني لتناول القهوة والمبيت في منزله، قائلاً: "أيتركون شخصاً محترماً يهيم في طرقاتهم!" وضع ناصر كمية متساوية من مخزون علفه الجاف لذلوله ولناقتي المسكينة، ثم قام بعمل عجينة من الشعير الذي كنت قد اشتريته من موقق، وخلطها مع تمر وبدأ يحشرها في فم دابتي المنهكة. وهناك غطينا في النوم إلى جوار رواحلنا لنقضي هذه الليلة المتلألئة بالنجوم، في غبار طرقات قريتهم.

امتطينا رواحلنا عند بزوغ الفجر حيث كان ناصر يريد الوصول إلى حائل مبكراً، لتناول وجبة الفطور في مضيف الأمير، مع عسكر ورفاقه. لقد أصابتني الدهشة و أنا أرى كل ذلك الخراب في ذلك الجزء من بلدة قفار، الكائن في اتجاه حائل. كانت البيوت عبارة عن خرائب، وكانت أراضي البساتين، التي كانت مُثمرةً فيما مضى، تبدو مثل قطعة من أرض صحراء خالية، وكانت جذوع النخيل الطويلة التي مع إنها ما تزال منتصبة في صفوفها ذابلة وميتة. وسرنا عبر متاهة من الأزقة تحت أنقاض جدران منازل مهدمة، حمل خشبها، وعبر مجرات سواني مطمورة، هجرت آبارها. وعندما سألت "ما هذا؟" أجاب ناصر "بَلدُمات". لقد اندثر القرويون هنا، مثلهم مثل من كانوا في موقق، أثر وباء ضربهم قبل سبع سنوات مضت. وتتطلب عملية اصلاح آبارهم النزول إلى أعماقها التي تصل لأكثر من خمس وعشرين قامة. وأصحاب الأرض، بعد أن ضربهم وباء الطاعون، لم

يعودوا يقْوون على العمل، فنزحوا إلى الواحات الداخلية.

يبدأ بعد جدران بساتين النخيل في قفار السهل الصحراوي القاحل الذي يفصل بين قفار وحائل. وتمتد أرض هذا السهل الشاسع بين سلسلتي أجأ وسلمى، وهي قاحلة جداً؛ ومع ذلك تقوم بها قرى أخرى وقريات أصغر تعتمد على شرايين المياه الجوفية. وإذ إن الأرض تربة جرانيتية حيث لا ينبت أي شيء تقريباً من ذاته، فإنها عند ريها تنبت الشعيرَ والقمح، وحبوب نجد الأخرى. ومع أن أشجار نخيلهم تنمو عالية طويلة إلا أنها تثمر تمراً صغيراً لاذعاً، ولذلك يعدّ أقل أنواع التمور جودة. لم نجد بالكاد أي نبتة أو عُشبة في السهل بخلاف نبات السنا المزدهر ببراعم صفراء تشبة البازيلا. ولإيجاد مرعى فإنه لابد من أخذ أغنام القرية القليلة بعيداً إلى سَفْح جبل أجأ. بعد مضى ساعتين قال ناصر: "إن حائل غير بعيدة، ونحن في مُنتصف الطريق؛ وإن النساء والأطفال يبدأون تنقلهم بين حائل وقفار قبل إفطارهم." وهكذا لابد أن تكون مسافة الطريق حوالى أحد عَشر ميلاً تقريباً. كانت حائل لا تزالُ مَحْجُوبةً بحاجب الصحراء، - وفي كل مكان يبدو لي الأفق في بادية العرب قريباً جداً. توجد بين حائل وقفاردروب مطروقة؛ والآن قابلنا جماعة قادمين من حائل. كان هناك نسوة وأطفال راجلون، ورجال يركبون الحمير. "ها! (قال أحدهم، ثم تبعه آخر، ثم آخر) لناصر "لِم أحضرته؟" وهكذا علمتُ بأن خبر مجيء النصراني قد شاع في حائل! اصفر وجه ناصر وهو يسمعُ كلماتهم وأخذ يتساءل عما إذا أدى ذلك إلى قطع رقبته؟! ثم قال: "ياخليل، أين التبغ؟ وأعطني ذلك الغليون، فرأسي بدأ يدور". وبعد ميل آخر، تبيّنتُ فارسين على صهوات خيلهم يعْدوان نحونا مثيرين لغبار كثيف. بدأت أُفكر، أترى يكون هذان الفارسان، مرسلين من قبل الأمير، وخرجا يتسابقان في

طلبي ؟ إن اسم النصراني كان لا يزال لعنةً في هذه البلاد، وحتى وسط البدو الرُحّل تجد المرءَ يقولَ للآخر: "أتحسبني نصراني ! لأفعل مثل هذا الفعل اللعين." توقف الفارسان فجأة بمحاذاتنا ؛ وسأل أحدهم بصوت زاجر لناصر (الذي لم يجب لأنه كان خائفاً) "لمن كل تلك الأمتعة؟" ـ ثم انطلقا مواصلاين سباقهما ترفرف جلابيبهم من خلفهم في الهواء؛ جلست مجهداً فوق ناقتي من فرط الإعياء، ولم أهتمّ كثيراً من يكون أولئك الرجال.

شاهدنا بعد ذلك بناءً عاليًا، حسن البناء، بأبراج حربية مبنية من الطوب الطيني، تشبه المنارات التي نقيمها لإرشاد الملاحين؛ وعندها قال ناصر، الذي لم يذهب إلى حائل منذ عهد طلال: "ذاك هو المقر الصيفي للأمير". وعندما اقتربنا من حائل لاحظت أن الأسوار المحوطة بها ممتدة إلى الخلف بحيث بدت البلدة وكأنها طوق من بساتين النخيل؛ وإلى جهة اليمين منا شاهدتُ بستاناً ممتداً طولياً من أشجار النخيل، مسوّراً بجدران عالية، وإلى جهة اليسار بستانًا آخر ممتداً في القفر، وأكبر مساحة، زرعه عُبَيد ابن رشيد ليورثه لأطفاله. وعندها ظهرت الأبراج المُحَصّنة البيضاء للقصر وكأنها مُعلقة فوق البلدة ؛ وكانت تلك المباني الطينية مبيضة بالجبس. ركبنا مارين بالمقر الصيفي القائم إلى الجانب البعيد من الطريق؛ ويذكرون إن قطعة صغيرة من المدفعية مُركبةٌ في البُرج. تحت جدار المنزل الصيفي كان هناك جدول ماء، تنسابُ عبره مياه الريّ إلى الخزان العام، حيث يأتي رجال البلدة إليه طلباً للماء. إن هذا الذي يطلقون عليه "ماء السماء" يُعدّ أفضل المياه في البلدة، أما مياه آبارهم الأخرى فمالحة وطعمها لاذع بسبب المعادن الموجودة فيه، التي (رغم أن ذلك ليس استخفافاً على الإطلاق) قد تكون سبباً للحمى. نزلنا؛ وقامت امرأة كانت تحملُ جرة ماء على رأسها، بناءً على طلبي، بتقديم الماء

لنا. طلب مني ناصر بألا أركب ثانيةً، لأننا، حسب قوله، سندخل البلدة عبر بوابات منخفضة. لم يكن ذلك سوى مكْر البدوى المتوحش، الذي بضفائره المجدولة كان أشبه بالإنسان الذي مُسخ ذئباً منه بالرجل. إنهم يخافون من أن يُنتقص قَدْرهم بكلمة، أو من سوء المعاملة في المدن؛ كان دهاؤه إذاً ألا يدخل النصراني البلدة راكباً (بزهو) فوق راحلته.

واصلت مسيري على الأقدام متخذاً الطريق الخارجي القصير، ووصلتُ إلى البوابة الضخمة ذات المصراعين (التي يتم إغلاقها ليلاً) الخاصة بالسوق الداخلي لحائل. هناك شاهدت أحد معارفي القدامى الذي كان في انتظاري. إنه عبدالعزيز الذي كان يقودُ المُهر - الهدية للأمير ابن رشيد، و تعرفت به قبل اثني عَشرَ شهراً في خلاء الحجر. قمت بتحيته، وردها بمثلها مستفسراً بود عن صحتي، ودعاني للدخول. وتقدم أمامي، عن طريق آخر، ليبلغ خبري إلى الأمير. ومشيت عبر السوق العام الممتلئ بالتجار والبدو في هذه الساعة، وشاهدت العديد من المحال التجارية الصغيرة المعتمة، وهم في حركة دؤوبة من الشراء والبيع، ولم يلتفت إلينا إلا عدد قليل منهم. وبعد تخطي الحشد قام تاجر حسن المظهر بلحية مصبوغة بالزعفران، وفق عادات العرب بأخذي من يدي، وقادني بضع خطوات، ليستفسر من الغريب بحذر "من أين أتيتُ؟" ولا يشاهد المرء إلا القليلَ من اللحى المصبوغة بالزعفران في حائل. في سنواته الأخيرة قام عُبَيد ابن رشيد بصبغ شعر لحيته البيضاء بالزعفران. إنها عادة فارسية، ويجوز لي أن أضيف أن ذلك كان من حسن حظي بوصفي رحالة باللون الإنجليزي الأشقر، في الجزيرة العربية. كما ويقوم الرجال ميسورو الحال بتكحيل عيونهم، لذلك تجد أن الذكور من هؤلاء العرب هم الأكثر جمالاً. بالقرب من نهاية السوق يوجد سوق الحبوب حيث يباع أيضاً

الحطب، والعلف البـري الذي يؤتى به من الصـحـراء. وفي أدنى السـوق شاهدت نسوة من البائعات مُحجبات تحت رواق مع سلالهن حيث يجلسن يومياً منذ شروق الشمس لبيع التمر والقرع؛ وبعضهن يقمن ببيع أدوات الزينة الرخيصة المستوردة من الشمال للحريم.

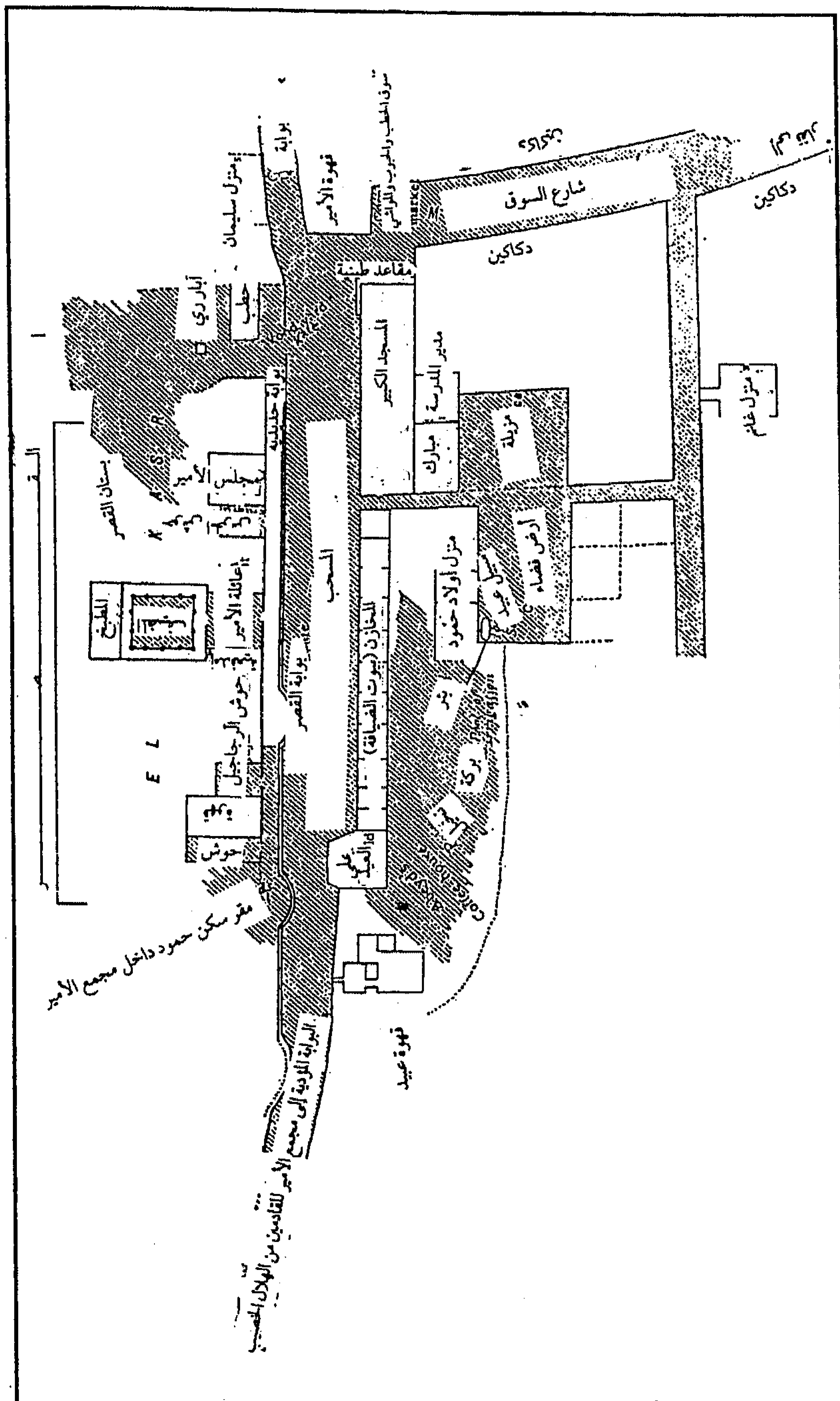
وصلنا إلى الساحة العامة المسماة المسحب، الواقعة أمام القصر، وتحت الشرفة العالية التي يحتمي بها الفقراء من البدو المسافرين، قام ناصر بسرعة بإناخة ناقتي، وتنزيل الحقائب، ثم انسَحَب عني؛ كان البدوي المسكين خائفاً. عاد عبدالعزيز من القصر، وجلس إلى جواري، واستفسر مرةً ثانيةً عن صحتي. كان يبدو أنه يتمنى الخير للغريب، ولكنه كان يخشى اللوم؛ أو لم يشجع مجيئي إلى هنا؟ تركني ودخل بوابة القصر، ليتحدث مجدداً مع الأمير. كان عبدالعزيز على الرغم من وظيفته جباناً وغير كريم، فنهاية الحياة بالنسبة لهم جميعاً هي اغضاب ابن رشيد، وما هو في الأخير إلا خادماً له. لم يلاحظ الناس في الساحة العامة النصراني بعد، مع أنني كنت قد جلست زهاء ثلاثة أرباع الساعة في وسط حائل. وفي هذه الأثناء ربما كانوا يناقشون مصير حياتي داخل القصر. ومع ذلك كنت واثقاً أن الفضول والجشع العربي سيؤخر تقرير مصيري (خصوصًا تأجيل حُكم الإعدام). ولم آمل في تلك اللحظة سوى أن ينادي عليّ أحدهم للدخول، ويخلصني من ألم الجوع بتناول وجبة الفطور.

في الطرف القصي من المسحب كانت هناك مجموعات من الإبل المُناخة؛ وهي خاصة بالبدو الذين يصلون يومياً ليبحثوا شؤونهم مع الأمير. تجمع بعض البدو حولي، ودهشوا لمشاهدة الغريب يجلس تحت تلك الشرفة. شاهدت أيضاً أحد الأشخاص يخرج من بوابة القصر القائمة تحت البرج

الطيني، أنيق المظهر، يحمل عصا تعكس وظيفته، ويتجه نحوي. لقد كان ذلك الرجل، مفرج، مسؤول المضيف، وهو أجنبي، مثل الكثيرين في حائل من خدم الأمير. كان مفرج من مدينة عُنيزة في القصيم (التي هجرها بعد حادثة رهيبة حصلت له، سأذكرها عندما أصف إقامتي في عنيزة). لقد جاء ليدعو الغريب للفطور؛ ولكنه قادني أولاً مع ناقتي عبر المسحب وعيّنَ لي مكاناً للإقامة، كان الأخير في صف مساكن الضيوف(المخازن)، التي تقع على الجانب الطويل لهذا المكان العام الكائن أمام القصر؛ ثم قادني عبر بوابة القصر إلى القهوة الكبيرة الخاصة بالضيوف، وخدمة قلعة الأمير. في هذه الساعة، وهي متأخرة حيث إن الجميع قد تناولوا طعام الإفطار، وذهبوا إلى سبيلهم، كانت القهوة خالية، ولكنهم أرسلوا في طلب مُقَدِّم القهوة. لقد أعجبْتُ بالمقاييس المتناسبة الراقية لمجلس القهوة، مثلما كان اعجابي من قبل بالقصر الكبير؛ الجدران الشامخة المزينة بالمغرا الصفراء والجبسْ، وصفوف الأعمدة الطويلة، التي تسندُ وَسَطْ السقف البسيط المُسَطّحْ والمكون من خشب الإثل، وعسب النخيل وسعفها، والذي كانت تكسوه بشكل جيد وتزينه طبقة من دخان كرم الضيافة اليومي. وتوجد تحت الجدران مصطبات طينية مفروشة بسجاد بغدادي. وعند المدخل وضع حوض نحاسي هائل مملوءاً بالماء (تملأُه يومياً النساء العاملات في المطبخ العام من عين ماء السماء)، ربط فيه بسلسلة حديدية قدح معدني؛ ومنه يأخذ خادم القهوة ماء قهوته، ويسقي العطشى. في الطرف الأقصى لهذه القهوة الأميرية وجاران للنار، كقَبْرين مسطحين قليلاً، حيث يشعل الحطب حينما يكون الطقس أكثر برودة؛ وهم يفتقرون للوقود الجيد، وتشعل النار عادة تحت دلال القهوة الكبيرة في وجار يشبه فرن الحداد. وخلال وقت قصير دعاني مفرج إلى مجلس الضيوف الواقع داخل

مباني القصر، ويسمى المضيف ، وهو عبارة عن غرفة مربعة الشكل يحوط بها رواق مُعمّد مسقوف، فوقه شُرفةٌ خارجية. ويمر الضيوف وهم في طريقهم إلى المضيف بجانب مدفعية الأمير المكوّنة من خمس أو ست قطع صغيرة.

يتناول البدو الطعام في المجلس الأرضي، أما الشيوخ الرئيسيون وأتباعهم فيتناولون الطعام في الأروقة العليا؛ اقتادني مفرج عبر الدرج إلى مكان مفروش بالسجاد تتناثر عليه أكوام من نوى التمر القديم. جلست، ثم وضع التمر أمامي - أسوأ نوع من التمر في صحرائهم - في وعاء معدني يكسوه غبار عالق؛ وتركوني لآكل، ولكنني فضلتُ أن أظَلَّ صائماً. وهذه هي تحية صباح ضيوف الأمير العربي - إنهم بدو - وليسوا بنظافة أغلب قرى الصحراء العربية التي يتوافر بها الماء. وبانتظار استدعائي مشيتُ على الشرفات الخارجية، حيث كانت حمامات عراقية منزلية صغيرة بيضاء ترفرف بأجنحتها، وكانت أليفةً للدرجة التي حملتها في يديّ. وجدت أن هذه الأروقة الطينية على السطوح تمتد ثمانين قدماً ، وتحملها خمسة أعمدة مستديرة ذات تيجان بدائية حادة كأسنان سَمَك القرش. وجاء مُفَرِّج ثانية وعُدنا إلى مجلس القهوة، حيث أصبحت القهوة جاهزة. وخلال وقت قصير دخل شابٌ في ملابس حريرية زاهية وبدأ في استجوابي. كان هذا العربي كاتب الأمير، و بدت كلماته القليلة إزدرائية. "أقول، إيه! من أنت؟- من أين جئتَ؟ ولأي أمر أتيتَ؟ " أجبتُ بطريقة البدو "يا ولد، أن ما أقدر أتحمل الأجابة على أكثر من سؤال واحد في كل مرة، خلني أولاً إسمع سؤالك الأول. " ثم بدأ وكأنه قد خرج قليلاً عن الهدوء أمام كلام غير دبلوماسي لرجل فقير، وهمس صوت في أذني قائلاً "احترمه، إنه ناصر. وهكذا قال هذا الناصر "انهض! فإن الأمير يطلبك. " ومن ثم خرجنا متجهين نحو مقر الأمير.



مخطط وسط حائل (المجمع الأميري والسوق)

كان هناك رواق طويل مبني تحت هيكل مَبني القلعـة الطيني، يلي الجدار الخارجي القريب من المسحب؛ ومررنا عبر هـذا الرواق، وفي الوسط يوجد باب مُطعّمٌ بالحديد، يحرسه عبدٌ شاب؛ وطرقنا على ذلك الباب. كان الباب يفتح على حوش داخلي صغير، حيث كان يجلس فيه بعض من رجال الأمير المسلحين؛ وعند الجانب الجنوبي كان مجلسه. عبرنا الحوش ودخلنا إلى مجلسه المفتوح، وكان معتماً، لأن نوافذهم ما هي إلا فتحات للهواء، ولا توجد نوافذ زجاجية في كل نجد. كان الحاكم محمد[٣] - الابن الأصغر لعبدالله ابن رشيد، الأمير الأول لشمَّر، والأمير الرابع منذ والده - نصف مستلق، متكئاً على وسادة وثيرة تحت مرفقه، بجانب وجار حيث كانت نار مشتعلَة. حيّيتُه قائلاً "السلامُ عليك"؛ فرفع يده اليمني إلى رأسه، وهي الطريقة التي خبرها في الأقطار الحدودية، ولكنه لم يرد؛ - يرون أن من هو خارج عن دينهم لا يمكن أن يتلفظ بسلام الله! كان الأمير محمد يحتفظ بضفائر شعر طويلة كان جمالها مثار الإعجاب في الصحراء حينما كان شاباً. بشرته أكثرُ سمرة من المعتاد، وحتى مُصفرةٌ؛ هزيلٌ ونحيل مثل النجديين، متوسط الطول: محياه الظاهري نجدي، ونظراته تشبه نظرات إمرئ قد نجا من أسوأ داء. وهل كان هناك أي احتمال في السابق أن يكون في يوم من الأيام هو الأمير؟

قال الأمير: "إجلس!" - لقد زار محمداً، الذي كان قائداً لقافلة الحج الفارسي إبان عهد الأمراء السابقين، مُدن بلاد ما بين النهرين، وعَرف سياسات الدولة، وكيفية تعاملها مع الناس. - وقادني رئيس الحرس إلى المكان المخصص لي. وكان يجلس، بين مقعدي ومقعد الأمير في هذا المجلس المفروش بسجادة طويلة، أحد الشخصيات، وكان مُتكئاً على وسائد؛

وكان، وهوكما سمعت أحد أقارب ابن رشيد، شيخاً مهيباً ولطيفاً . سألني الأمير: "من أين أتيت، وما هو الهدف من رحلتك؟ "- "لقد جئت من تيماء والحجر، وكنت قد قدمت من سورية لكي أزور مدائن صالح". "رجلٌ صدوق والله! رجل ثقة (قال الشيخ العجوز) "إنه ليس كالآخر الذي كان قد جاء إلى هنا، ألا تذكرُ يا محمد في أي سنة، أنه امرؤ يخبرنا بكل الأشياء بصراحة". فقال الأمير: "والآن من تيماء، حسناً، وماذا رأيت في تيماء-أي شيء؟" - "إن تيماء بلدة نخل طيبة، وهواءها طيب "- "ما أسمك؟" "خليل"- "هاه! إذاً كنت مع البدو يا خليل، ما رأيك فيهم؟" لا يوجد شيء طيب عند البدو: -مع أيُ بدو كنت؟" - "الفقراء، والمواهيب والسهمه خلف الحرة." "وما هو رأيك بالفقراء وشيوخهم؟ إن مطلق ليس بالشخص الطيب؟"- "إن الفقراء لا يختلفون عن اسمهِم، وينعتهم جيرانهم بيهود خيبر." . ثم بدأ الأمير، وهو بين مندهش ومبتسم، يردد كلماتي (مثله مثل العرب كافة) على الحضور "إنه يقول إنهم يهود خيبر!" - "وحسناً، كيف تعامل معك البدو يا خليل؟ هل حلبوا لك الإبل، هل أظهروا لك كرم ضيافة؟" - "إن حليبهم قليل جداً وبالكاد يكفيهم." . تبسّم الأمير ونظرَ إلى الأرضِ، لأنه كان قد سمع بأنني هِمت مع البدو لأشرب حليب النياق. ثم سأل: "هاه! وهل المواهيب قوم طيَبون؟ وهل طُلُق رجل طيب؟" - توقع الأمير أن أقول "كلا" لأن طلق عدو قديم لهم أو متمرد عليهم - فأجبته "لقد كان الرجل طيباً معي جداً، وأرى أنه بدويٌ محترم." وعلى هذا رد بقوله "همم! همم!-والسهمه، من هو شيخهم؟" - "مهنا وفضيل."- "وكم عدد بيوتهم؟"

ثم سأل، "هل معك أي شيء (لتبيعَه)؟ وما هو؟" - "معي أدوية، وأنا

حكيم "- "أيُّ أدوية؟كناكينا (كينين)؟" - "معي من هذا أجود نوع" - "وماذا أيضاً؟" معي أشياء كثيرة؛ ومعي أيضاً نوع جيد من الشاي، وسوف أقدمه هدية لك، أيها الأمير!" - "عندنا شاي هنا، من بغداد، كلا، كلا، لدينا ما يكفي (فيما بعد قيل لي في مكان آخر- "أنه لم يكن ليقبل الشاي مني على الرغم من أنه قد يكون من أجود نوع، فهو لا يأكل ولا يشرب أي شيء لا يعده له عبد خاص؛ إنه يعيش في حالة دائمة من الخوف أن يسمم. ") ثم سأل "حسناً !أيّ نوع من الأمراض تُعالج؟ أيمكنك معالجة المجنون؟ "(الممسوس بالجان حسب فهمهم): . إن الأمير لديه بعض من المصابين من أبناء عمه عُبَيد، وفي داخله ربما تكون الذكرى المؤلمة لشقيقه طلال. أجبت قائلاً: "المجنون مجنون"، أي أن المجنون فطرياً هو المجنون فعلياً. قام الأمير بترديد هذه الحكمة من بعدي، وفي حركة مهيبة رافعاً رأسه قال للحضور: "هو صادق!" بعض حاشية البلاط أجابوه "ولكن فيه طريق". إن الأعراب يفترضون أن هناك طريقة إذا وجدها الإنسان، وهي طريقة ربانية، توصل إلى النتيجة التي يريدها. - "وأخبرني، أيُ من الحيوانات شاهدتَ في القفار؟" "أرانب وغزلان، وأنا لست صياداً"- "هل لحم الأرنب البري محرم!- هل تأكله؟" (كان سيعرف بطريقة اسئلته إن كنت مسيحياً حقاً) "وهل تأكل لحم الخنزير؟" فقلت "إن هناك حيوانًا بقريًا غريبًا في قفار الشرارات، يسمونه وضيحي [بقر الوحش أو المها العربي]، ومعي قرون منه حصلت عليها من تيماء "- "هل ترغبُ في مشاهدة الوضيحي، إن لدينا واحداً منها هنا، وسوف نُريك إياه". أخيراً سأل: "هل تشرب، أي هل تدخن؟". إنهم يعدّون استخدام التبغ الذي لم ينتشر بعد في شوارع نجد، ولكن هناك تسامح تجاهه داخل البيوت، لا يليقُ بهم. لقد كان محمد نفسه وابن عمه حمود

أصدقاء مخلصين للغليون في السابق؛ ولكن حينما وصلوا إلى مراكزهم، تخلوا عنه. ثم قال الأمير "إذاً فأنت مسيحي؟" - كانت تلك كلمة كريمة! فهو لم يطلق عليّ الاسم التأنيبي النصراني؛ وقد ذُكر أيضاً إن "له زوجة مسيحية من بين زوجاته. "-يسمي النصارى من ذوي اللسان العربي في البلدان الحدودية الكبيرة أنفسهم مسيحيين.

طلب الأمير من ناصر أن يقرأ من كتاب تاريخي عظيم : أخبار الدول وآثار الأول (في التاريخ) [أحمد بن يوسف بن أحمد القرماني]، كان موضوعاً على رف، ومربوطًا بشريط أحمر، ما كان مكتوب فيه عن النبي عيسى بن مريم؛ - وقرأ الكاتب بصوت عال. يعلمنا المؤلف المسلم، عن شخصية عيسى، ولونه، وملامح المسيح "ابن العذراء" الإنسانية؛ وسيرته النبوية، وكيف كان يمشي مع أتباعه في أرض إسرائيل، وأن رغبته كانت أن يستريح في ذلك المكان حيث أشرقت عليه الشمس. استمع الأمير في تَجَهُّم عابس لهذه القصة، وفي نفاد صبر. ثم سأل: "حسناً، حسناً، ولكن ما الذي دفعك لأن تقوم بمثل هذه الرحلة الطويلة" -. فأجبتُ بسرعة: "العلوم"!. ولكن المعنى لصفة الجمع هذه في نجد وفي كلام البدو، يعني الأخبار. أجاب الحاكمُ في عجالة من الأمر "ومن أجل هذا جئت إلى هنا!" لقد كان الأمر صعباً أن أوضح له ما أعنيه بالعلوم، لأنه ليس لديهم أي خبرة في لغات العالم. فقال عندئذ "وهذه اللغة، هل تعلمتها وسط البدو، أتقرأ اللغة العربية؟-طلب من ناصر أن يُحضر الكتاب ويضعه بين يدي خليل. ونهض محمد من مكانه (يقال إنه ضليع في اللغة العربية، وشاعر رقيق، على الرغم من أنه مع مرور الأحداث والشؤون الحالية للدولة، مشغول الذهن للدرجة التي لم يعد يقوم بأي قراءات لا فائدة منها)، وبحبِ الاستطلاع المتعجل وشبه الطفولي

للعرب، نهض الأمير ابن رشيد وجاء بنفسه وجلس إلى جواري - فسألت "من أين يجب أن أقـرأ؟ " - "إبدأ من أي مكان من أحـد الفـصـول، من هناك! " وأشار بإصبعه. ومن ثم قرأتُ من ذلك المكان "قتل الملك (وياله من ملك) جميع أخوانه وأقاربه"، لقد أوقعني الشيطان في اختيار مثل هذا النص الدامي؛ ولقد كان التأثر واضحاً على الأمير، وبسرعة البديهة العربية، فهم أنني عددته رجلاً قاتلاً. "ليس من هناك! قال في عُجالة "بل إقرأ من هنا! - من أعلى هذا الفصل " (واضعاً اصبعه على المكان)؛ وقرأت ثانية بعض المقاطع. عندها قال الأمير: "إيه! أنك تعرف القراءة قليلاً" . ومن ثم نهض وعاد إلى مكانه. بعد ذلك سأل "وإلى أين ستذهبُ من هنا؟ "- "إلى بغداد" . "حسناً سوف نعمل على إرسالك إلى بغداد"، وبهذا القول نهض الأمير ونهض معه من حوله للتوجه مباشرة إلى بساتين الأمير، حيث سوف يريني الوضيحي.

جاء عندئذ ناصر ومعه مغلف رسالة في يده، وطلب مني أن أقرأ ما هو مكتوب على المغلف. قلت له: "حسناً هذه ليست كتابة عربية! " - "نعم، ولذلك نريد منك أن تقرأها "- "من أين حصلتم على هذه الرسالة؟ " - "من نَصْراني، كان قد جاء من حَوران إلى هنا، وقد أخذناها منه. " على الختم وجدت بالأحرف الإغريقية "بطركية دمشق"، وكان الشعار المحوط بالختم مكتوب باللاتينية وفيه "أخرجوا في كل العالم وبشروا بهذا الإنجيل كل الخلق". كانوا قد انحنوا لينتعلوا صنادلهم، وانتظروا برهة ليستمعوا إلى إجابتي، وعندما قرأت بصوت عال "أُخرجوا في كل العالم"، قال الشيخ المهيب للأمير محمد، "أتسمعُ؟ - إنهاَ كلمات المسيح! "

تبع جميع من كانوا في المجلس الأمير؛ وكانوا أصدقاءَ من حاشيته

وبطانته. لم يكن بينهم من غير الشيخ العجوز وناصر وضابط الحرس أي رجل ذو وجه حسن . وكان رجال الأمير يرتدون لباس أهل البلد، ولكنهم لم يكونوا متمنطقين بالسيوف. بدا لي الأمير محمد حينما خرجنا إلى الضوء، صغير السن إلى حد ما، ومظهره مظهر بدوي هزيل؛ ولكنه كان يسير بغطرسة وبنظرات مضطربة نوعاً ما. عند بئر الري، بالقرب من سور قصره، توقف لبرهة، مؤشراً بيده إلى البكرات الدائرة بصخب، وسألني فجأة "عما إذا كنت قد شاهدت مثل هذه الآلة؟" - "كم قامة عمق آباركم هنا؟" - "خمس عشرة." كانت تلك إجابته الأميرية، ولكن الواقع غير ذلك الموقع، حسبما رأيت، إذ إنه ماذا يفيدهم أن يسحبوا الماء من مثل تلك الأعماق؟" واصلت المشي مع الأمير محمد والشيخ العجوز إلى أن وصلنا إلى بستانه الموجود داخل قصره؛ وكان البستان كما بدا لي غير مصان كما يجب. وقف الأمير إلى جانب شجرة زيت الخِروع (ولم يكن يُوجد سواها في حائل) ليسأل "ما هذا؟" سألني وهو ما بين العجلة، وبين كياسة العرب العفوية، عن نباتاته وأشجاره - أشجار النخيل والليمون، والحمضيات ثم أراني نوعاً من البامية والزعتر، وبعض الخضروات. إنهم لا يأكلون هذه الأشياء الخضراء! لذلك يختلف غذاءهم في نجد عن ذلك الغذاء الموجود في الأقطار العربية الحدودية.

كانت الغزلان تتراكض في الأحواش المسورة القصية؛ ووقف الأمير وأشار بأصبعه قائلاً "هناك الوُضَيّحي"! . كان ذلك حيواناً ذكراً (ثوراً) يبلغ العام ونصف العام، ولم يكن أكبر من ماعز كبيرة بيضاء؛ وكان يهجع مريضاً تحت شجرة تين. قال الأمير: - "ولكن انظر هناك، فتلك بحالة أحسن ، إنها بقرة"، وقال رجال الحاشية: "ابتعد عن قرونها! ولا تقرب منها". ذهب

أحدهم مع ربطة من جريد النخل إلى تلك البهيمة الخَطْرة، وضربها؛ كان قرناها كقضبان حادة، تقف مستقيمة، طولها، كما أفترض، حوالى سبعةً وعشرين بوصه. وشاهدتها عن بعد خمس ياردات، وكانت أصغر من حمار صغير؛ كان جلدها بلون الرماد متدرجاً إلى الأصفر الفاتح، وكان هناك ارتفاع طفيف قرب مؤخرة عنقها، لكنه ليس سناماً، وذيلها الناعم الطويل ينتهي بخصلة. ويمكن أن يقال عنها حقاً إنها "تشبه بقرة صغيرة". ولكن شكل مخلوق هذه القفار القاحلة كان رائعاً وبدنها متناسقاً. وقال الأمير "أكتبها!"، أي أرسُمها. وحينما رجعنا تحدث معي الأمير بودّ، وأخيراً سألني "أين صَنْدلُك؟" - "لا تستغرب إن رأيتني حافياً وملابسي مهترئة، فقد قضيت سنة مع البدو في الخلاء". "لا غضاضة في أن يسير دون نعل (أجاب الشيخ الطيّب) فحتى أنبياء الله كانوا يسيرون حفاة." هذا الرجلُ الجليل، كما سمعتُ، كان خال الأمير: لقد أظْهَرَ بمحياه اللطيف موقفه، الذي يعبر عند العرب عن تمنياته لي بمغامرة موفقة.

كان الأمير في كلامه وفي غطرسته أشبه بشيخ كبير من شيوخ الأعراب. وكان يحمل في نفسه شيئاً من ماضيه غير السعيد، مع بعض الأدلة على رجاحة فطرية للعقل. يبلغ محمد الآن الأربعين عاماً من العمر، ولكنه كان يبدو أصغر من ذلك. عدنا ثانية إلى فناء القصر حيث يخزن الحطب، وكانت هناك بوابة ذات مصراعين تفتح على المسحب؛ وحيث الطرف الأبعد لذلك الرواق الذي دخلنا عَبره. يغلق الممر بباب مُطعمٌ بالحديد؛ والألواح الحديدية (في افتقادها للفَنْ) ما هي إلا صفائح حديد أشبه بالصيجان، التي تخبز عليها نساء البلدة خبزهن؛ ولكنها تشير إلى ما يتوقعه الطغاة! فهم الأكثر خوفاً مما يخاف منه كل الرجال. أين - أحلى الأشياء الإنسانية - سكينتهم؟ إنهم

يعـرفـون أن كل مـا أخـذوه من الآخـرين بالقـوة سيُطلـب منهم ثانيـة! وهناك صرفني الأمير بإشارة وُديّة، وطلب من أحدهم أن يصحبني إلى مقر إقامتي.

* * *

عند غروب شمس ذلك اليوم دعاني مفرّج إلى رواق المضيف حيث وضع أمامي طبق عشاء كبير من لحم الضأن والتّمنْ. وحينما عُدت ثانية إلى مجلس القهوة، وبينما كانت الفناجين تدور بدأ التساؤل وسط الضيوف البدو، وخدم القصر، عن ديانتي. عدت مبكراً إلى مقر إقامتي، وبعد ذلك استدعاني الخدم لأقابل من كانوا يسـمونه "الشيخ الكبير"- إستفسرت، "من هو ذلك الشيخ الكبير؟" فأجابوا "الأمير!" ومن ثم قـادوني إلى دار قريبة، تسمى قـهوة عُبَيد. طرقوا وفتح البـاب أحد العُبَيـد. دخلنا عبر باب قصير، كان يعبقُ برائحـة ماء الورد، إلى تلك القهـوة التي بدت في عيـوني رائعة. إن الغـرف الشـرقيـة عبـارة عن أمكنة مغلقة عن الهـواء، ودون أثاث متحـرك وزينتـها الوحيدة السجاد المفروش على جنبات المجلس، حيث توضع مساند للأمير، وأقاربه. كل شيء كان من الطين، الأرضية كانت مضروبة بالطين، والجدران كانت مبيضة بالمغرا؛ وكان الجالسون من أعيان البلدة، وشيخ أو اثنان من شيـوخ البـدو، ورجـال الخـدمـة الأمـيرية، وكـانـت مـلابس هؤلاء العـرب المحظوظين ناصعة البياض. كانوا قد قالوا "الأمير!" حينما استدعوني، وفي المكان الرئيسي شاهدت شخصية كبيرة متكئةعلى مرفقها! ولكن ألم أر الأمير ابن رشيد بنفسه ذلك الصباح؟ إن العـامة من العرب إذا ما رأوا أن الغريب مندهش وسطهم، يزدادون سروراً فيه لؤم.

كانت هذه الشخصية [حمود بن عُبَيد الرشيد]، الوريث، مع أنه ليس الابن الأكبر، لوالده عُبَيد؛ لأن فهد (٤)، الابن الأكبر كان "خبلاً"، ولكن عدا

ذلك فهو حسن السلوك ومستقيم. لقد كان الرجل المسكين [فهد] الأكثر وداً لي. كان حمود قد رهن روحه بعهد لابن عمه الأمير، بأن يحيا ويموت من أجله ومعه. كان والداهما أشقاء، ولأنه لم يبق أحد بالغ من عائلة الأمير، فإن حمود بن رشيد هو التالي بعد محمد في السلطة، وهو نائبه في غيابه، والمحارب إلى جانبه في ميادين الحروب، ويتصرف كأمير. وهو المرافق للحاكم في جميع أعماله اليومية والمستشار له. استقبلني ابن عُبَيد ببشر وترحاب وأجلسني إلى يمينه، وحينما رأى أنني منهكٌ للغاية، رجاني أن أمدد أقدامي، وأن أجلس دون أي مراسم.

تحدث حمود بود إلى النصراني الغريب؛ ولاحظتُ أنه ضخم البنية، بعيون مُكَحّلة، ولحية صغيرة، وشعرٌ مُسْبَل [مثلما نرى في هيئة صورة المسيح] متدلياً في ظفائر. محياه لطيف ورجولي، ويتظاهر في مرح بإخفاء تشنج مؤلم في الرقبة، يحوله إلى رشاقة إذ يبدو منحنياً إلى الأمام. في حديثنا استفسر عن الأشياء الرائعة للنصارى، كالتلغراف، والزجاج، ومن أي شيء صنعت؟ وعما سمعوه من أن في بلادنا المسيحية يوجد قصر من الكريستال؛ وإن باريس مدينة مبنية بأكملها من الكريستال؛ وما هو الزيت الصخري، الذي يشتعل به مصباح كان على منضدة أمامه، وينتشر استخدامه في البيوت الرئيسة في حائل، و يقولون إنه مصنوعٌ من بول الإنسان. لقد تعجب حينما أخبرتهم بأنه يُستخرج من آبار في الدنيا الجديدة [أمريكا]؛ كان قد سمع بهذه "الدنيا الجديدة"، واستفسر عن موقعها، ووراء أي بحار. استفسر عن أدويتي، ثم قال "أُدْنُ مني أريد أن أستفسر منك عن شيء". همس حمود من تحت طرف منديله المُعَطّرة "هل معك أي دواء يمكن أن يُقَوي الرجل؟" أجَبته على الفور "لا وحياتك"- "لا وحياتي!" ردد، ملتفتاً ثانيةً ومبتسماً نحو

الحُضور، وقَهْقَه في مرح "ها!ها!" لأن بعض سيئي النية قد يظنون بأنه في همسه كان يستفسر عن سمٍ. كما أن ذلك القَسَم الشائع في الصحراء "وحياتك" مكروه وسط أنصاف الوهابيّين هؤلاء. قال حمّود بالمسلك المبتسِّم نفسه "هل ترى هنا الفارسين اللذين التقيا بك على الطريق؟" - فأجبته: "لا أتذكر فقد كنت متعباً جداً" - "أيه، كنت تعبان كثير؛ اسأله!" فأشار حمود بإصبعه إلى شخص، من ذوي اللحى الزعفرانية في حائل، كان يجلُس متكئاً بجواره، كمن يليه في الأهميةَ. كان ذاك هو قليل الذكاء، سليمان، [والد زوجة حمود]. سألته "هل كنت أنت؟"؛ ولكنه ابتسم ولم يجب بشيء. فقال حمود: "انظر جيداً! هل كانوا يشبهوننا؟ ألم نكن نحن الفارسان؟ ـ لقد كان سباق يا خليل، حيث كنا نجرب أي من مُهرينا الأسرع. كيف رأيت ذلك؟ أي الخيل أفضل، خيل الإنجليز أم خيلنا النجدية؟ـ" عندها نهض حمود عائداً إلى منزله (حيث إن منزله في مكان آخر) ونهضنا كلنا معه. في منزله الواقع إلى جوار بركة ماء عامة، يتم ريها من بئر في بستانه، يوجد الأطفال، والزوجة والأم، وأشقاؤه الصغار؛ ولكن كأمير من العائلة الحاكمة فقد كان له مقره الخاص (حيث ينام) داخل مجمع القصر. لا تختلف ملابس أمراء حائل عن ملابس البدو، ولكن ثيابهم جديدة ونظيفة، ومن أجود أنواع القماش، ويتم تبييض ثيابهم الطويلة هنا في البلدة، بحيث تصبح بيضاء ناصعة تشبه الأردية الكهنوتية، ويرتدون العباءات المصنوعة من الصوف البغدادي الناعم أو من القماش الأوروبي الأسود. و يلبسون الحقب [الأحزمة] على أجسامهم كما هو الحال في كل بادية الجزيرة العربية.

لقد أُنزلت بصورة سيئة في "زنزانة" ضيقة، معتمة وغير نظيفة: وأخبروني، أن يهودياً عندما جاء لأول مرة هنا أُنزل أيضاً في المكان نفسه!

كان هذا يهودياً من بغداد، والآن قد أصبح مسلماً غنياً يقطن في حائل ومتزوجًا، ويزداد غنى؛ ويملك الرجل منزلاً جميلاً في البلدة، ودكانًا في السوق، حيث يبيعُ الأقمشة والتمور والبن للبدو: وقد رزق من زوجته الحائلية بطفلين. وكان الناس المُحدقين نحوي فاغرين أفواههم يصيحون عليّ "أسلم يا خليل مثله قل: "لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، وحينها ستحظى بثروة مماثلة يقدمها الأمير بنفسه." كان يتجمع مع بزوغ فجر الصباح عدد من المرضى والمتطفلين على باب النصراني، حيث يجلسون الساعات الطوال يثرثرون، ولم يتركوا لي وقتاً للراحة. كانوا يسألون عن الأدوية واعدين أن يدفعوا الثمن إذا ما وجدوا أنها علاجات نافعة، ولكن ليس الآن. وعندما كنت أجيبهم بأن عليهم دفع ثمن الدواء أولاً، ثبط ذلك من عزمهم؛ ولكن لا شيء يمكن عمله ليرضيهم. فقلت أخيراً "لا يأتي أحد منكم إليّ ليساوم، لأنني لن أستمعَ إليه"، وأغلقتُ البابَ دونهم، وخرجت. بينما كنت أجلس على عتبة الدار في جو وقت العصر البارد، كان حمود يمر مع أصدقاؤه، وتوقف لتحيتي، ودعاني للعشاء معه، وأراني سيفه الذي كان يحمله معه منساباً في يده داخل غمده، كعادة البدو، قائلاً "ما رأيك فيه؟"- إنهم يفترضون أن كل ابن للنصارى قد تعلم حرفة الصناعة. وعندما سحبتُ نصله الكبير الثقيل من غمده- الفولاذ ليس دمشقيًا- أضاف حمود "إنه إنجليزي (من أحسن صناعات البلدان المسيحية): لقد حَصل على هذا الحسام من ابن سعود و"دفع ألف ريال ثمناً له". قلت له "إنه يبدو ممتازاً"، وردد كلماتي على طريقتهم مبتسماً "إنه ممتاز". يقدر العرب السيف بوصفه السلاح الأمضى؛ وهم جميعاً يتوقون لاقتناء أجود أنواع السيوف.

عند غروب الشمس أتى أحد العبيد من مجلس قهوة عُبَيد ليوصلني إليها

لتناول العشاء. يتناول حمود عشاءه هناك عندما لا يستدعى لتناوله مع الأمير؛ ويتعشى معه ابنه الأكبر ماجد، ومعلمه؛ ومن بعدهم يتم وضع الطبق نفسه أمام الرجال من خدمه. كان غذاؤه البسيط ذا قيمة غذائية كبيرة، ويتكون من لحم الضأن المسلوق على كتلة من التمن، مع الزبد مخلوطًا مع البصل ونوع من التوابل. بعدما سكَبَ أحد العبيد الماء على أيدينا لغسلها، من إبريق معدني على صحن، جلسنا حول الصينية الكبيرة وقالوا "مد يدك" وهي كلمة العرب للدعوة لتناول الطعام. ومع "بسم الله" بدأوا يأكلون بأصابع أيديهم. لا تستغرق عملية تناولهم للأكل أكثر من ثماني أو عشر دقائق، حيث يكتفون، ويقدم عندها العبد قدح الماء ليشربوا قليلاً؛ وهكذا ينهضون قائلين "الحمدُ لله"، ويذهبون لغسل أيديهم وأفواههم - حيث أحضر لنا العبد صابوناً خشناً. ومن ثم يعودون إلى أماكنهم منتعشين، ويتم تقديم القهوة للجميع؛ ولكن مقدم القهوة - للخوف من الأمراء - تذوق القهوة قبل حمود. ولا يوجد عندهم مأدب طعام، ولن يصدق العرب أن الطعام المكون من ثلاثة أطباق (في بعض البلدان الأسعد حالاً) و مع بعض المشروب المسكر، ربما لا يكاد يغذي الأمعاء، وإن الرجال الذين يجلسون ليشربوا حتى الثمالة لابد وأن يبدو لهم كمن يحيون حياة وثنية كريهة. هنا لا توجد نفقات للقصر مُغالى فيها، ولا هبات وسخاء قاتل لكسب ولاء العامة. مباشرة بعد طلوع الشمس، يفطر أمراء شمَّر بالخبز والزبد مع الحليب المخفوق؛ وعند الظهيرة طبق من التمر يوضع أمامهم؛ وعند مغرب الشمس يتناولون طعام العشاء كما رأينا الآن: الأمير والعَامّة، جميعهم سواء يتغذون في غير إسراف. إن الشيطان ليس في طبقهم؛ وكل ملذات طبيعتهم تتجسد في الحريم. أذكرُ أنني سمعت من أحد الناس الذي يعرف سلطان الإسلام

[السلطان العثماني] السابق، عبدالعزيز - كان ينتقد لانغماسه في الملذات- يقول إن غذاؤه كان طبقًا واحداً فقط- تتذوقه أمُه وتغلقه بنفسها، ويوضع أمامه، وكان هذا هو الطبق التركي اليومي بيلاو Pilaw (الذي يقولون إنه جاء مع تيمورلنك)، ويتكوّن من الأرز ولحم الضأن المسلوق؛ وإنه كان يمتنع (لسبب قد يكون دينيًا) عن القهوة والتبغ. لقد سمعت حمّود يذكر أنه ذبح شاةً على شرفي؛ ولكن في العادة يتم شراء لحم الضأن لعشائه من السوق.

بعد مضي ساعة أو ساعتين من تناول العشاء، وعندما يسمع نداء المؤذن لصلاة العشاء، لا يتخلف حمود على الإطلاق عن النهوض مع مرافقيه للذهاب لتأدية الصلاة، يتقدمهم أحد العبيد مع غصن مُشتعل من سعف النخيل إلى المسجد، الذي يقع في الجزء الأقصى من المسحب في اتجاه مساكن الضيوف، ولكن يفصله عنها ممر صغير. ان الأمراء من الرجال هم خدام الدين!

عندما عاد حمّود، فرش أحد العبيد الذي كان في انتظاره سجادة صغيرة، محتفظًا بها له. ويقوم الرجل بالصلاة لمدة أطول مما يقضيه في صلاته الواجبة. في إحدى الأمسيات سألته، ولكن ألم تؤد مسبقاً الصلاة في المسجد؟ "، أجاب "بأن تلك التي نؤديها في المسجد هي الفرض، وهذه من السُنة". الجالسون في مجلس القهوة لم يحدوا من ثرثرتهم أثناء تأدية حمود للصلاة، ولم يكن من أحد يصلي معه تلك الصلاة. لقد كانوا غير أمراء، فلماذا يجب عليهم أن يلتزموا بهذا التزيد في الدين! وكلما علت درجة المسلم كلما كان من الواجب عليه أن يظهر نفسه أكثر ورعاً، وفي الحالة تلك مستحقاً لمثابة الله. إن حمّود لا يتأخر على الإطلاق عن المسجد في أوقات الصلاة؛ وفي باقي الأشياء يستمتع بفراغ رجل قوي، يملك ثروته الخاصة الكبيرة،

وغير معني بهموم الدنيا . ربما كان حمود أصغر بقليل من الأمير؛ وبنيته الجسمانية تشبه تقريباً، كما يقولون، بنية والده شاعر الحرب عُبَيد بن رشيد : إن حُمّود والأمير محمد ليسا بالمبتدئين في مهارة الحكم الموروثة عن والديهما في هذه العائلة الأميرية؛ لكن الناس العاديين يطرون على طريقة عملهم الجديدة أكثر من الطريقة القديمة لوالديهما.

يذهب الأمير محمد مرة واحدة في اليوم إلى المسجد الكبير لأداء صلاة العصر؛ فهو يصلي في مصلى داخل القصر، أو في مجلسه الخاص. ولو لم لم يكن الأمر كذلك لأصبح ذهابه في أوقات كثيرة من القصر إلى المسجد مقلقاً له ولخدمه، ولسكان البلدة أيضاً، إذ إنهم جميعاً يخافون عندما يرونه، فهو يحمل سيف الطاغية . ومحمد نفسه يخاف السيف!ـ إن السيف الذي دخل هذا البيت الأميري، سوف لن يفترق عنهم ـ هكذا يقول الأعراب ـ إلى أن يدمرهم. لقد قطع رؤوس كل أقاربه تاركاً حموداً فقط؛ والصغار منهم بدأوا يكبرون في العمر؛ ولابد أن محمداً يرى الكثير من الأحلام المخيفة والكوابيس، وعلى الرغم من كل احتياطاته المنيعة، فإنه ما يزال يتشوف العقاب الدنيوي. هل يثقُ في نفسه ليمر عبر المسحب مرات عدة يومياً في ساعات محددة؟ـ لقد أخفق العديدون في ذلك. إن كلا من حُمّود والأمير محمد يتمتعان بطباع محببة : حمود بصراحته البسيطة، وذلك المحيّا الباسم، الذي لا يبدو بعيداً عن العامة؛ ومحمد باعتداله بين اللّين والشدة ، وكلماته اللطيفة؛ وبتفهمه وإدراكه العميقين . إن محمداً عندما يمر في جمع فإنه يُلقي بنظرات من عينيه المضطربتين مثل صقر جارح؛ و يمشي مشية ممثل مسرحي، متقدماً على أتباعه من الحاشية ورجال الحرس المسلحين. وعندما يكون حمود معه، فإن الأمراء الآخرين يمشون خلفهم. ويقول سكان البلدة (على الرغم

من أن ذلك قد يُعّد مستحيلاً) بأنهم يحبونه ويخشونه في الوقت نفسه، ولكنهم في كل الحالات يثنون على الأمير، الذي ساروا تحت قيادته إلى الأحسن وعاشوا في أمان وشهدوا كل ازدهارحولهم؛ ولكنهم يفزعون من قسوته، لأن كثيراً جداً من الرؤوس تم حصدها سابقاً بسيفه.

في الليلة التالية دعاني الأمير محمد إلى مقره: كانت الجدران الطينية قد زينت بالمغرا. وعندما ذكرت للأمير، بأنني إنجليزي، حيث إنه لم يكن يعرف ذلك مسبقاً! كان لطيفًا وعلى سجيته. كان يجلس إلى جانبه رجل ضخم داكن البشرة، اسمه صالِح (سمعتُ أنه كان بدويًا)، وكان يرقبني بنظرات متعصّبة قاسية من عينيه، قائلاً في النهاية بصوت عنيف "أتفكرُ في رؤية بلادك ثانية؟ "-أجبت قائلا "إن كل الأمور بيد الله. " - "لا، لا يا صالح! قال الأمير، لقد قال خليل قولاً طيباً، بأن كل الأمور بيد الله". من ثم سألني الأمير محمد أسئلة حمود نفسها تقريباً. "ما هو التلغراف؟ لقد شاهدناه (في بغداد وقت قيادته لقافلة الحجاج الفرس) ولكن ألا تستطيع أن تعرفنا طريقة عمله الرائعة؟ "- "إنه عبارة عن ترددات - يمكننا معها أن نعمل إشارات معينة، تتولد في أكسدة المعادن بواسطة أدوية قوية مثل الخَلّ". قال الأمير: "إنها إذاً عملية دوائية، أليس كذلك؟" - فقلت "لو جاز لنا أن نفترض أن رجلاً ممدداً، وضع رأسه في إستانبول وكعب قدميه في حائل، وبحجم كبير يصل بين الأثنين، وأحرق المرء قدميه الموجودة في حائل أفلا يجب أن يشعر بذلك على الفور في رأسه الذي هو في إستانبول"؟ - "وما هو الزجاج؟". سأل أيضاً عن البترول، وعن القارة الجديدة [أمريكا] أين تقع، وعما إذا كانت داخل المُحيط. استمع في برود لروايتي عن اكتشاف الأرض الجديدة وراء البحار العظيمة، واستفسر "ألم يكن فيها سكان عندما تم اكتشافها؟" وفي النهاية

سألني "كيف أجد حائل"؟، وشارع السوق، هل هو جيد؟ (أجاب على نفسه) "إنها سوقٌ للبدو! وهي شيء ضئيل بالمقارنة مع أسواق المدن الرئيسة في العالم". سأل "عما إذا كنت قد سمعت بجبل شمَّر في بلادي؟" كان الحاكم مسروراً لمعرفة أن النَصَارى لم يكونوا واضعين أعينهم على مناطقه الصحراوية؛ ولكن لم يرض غرور الرجل الأجوف بأننا لم نسمع إلا القليل عما يجري تحت حكمه. سألني حمود سؤالاً آخر بينما هو السؤال نفسه "ماذا! ألم تسمعون على الإطلاق، بابن سعود الوهابي!" وبعد أن أمتدت الجلسة لمدة ساعتين، و ربما قد صارت الساعة العاشرة، قال الأمير لقائد الحرس وهو المسؤول عن حراسة مجلسه "لقد حان الوقت لإغلاق الأبواب"؛ وانصرفتُ.

في الأيام الأولى لوجودي في حائل، كنت إذا مشيت عبر سوقهم تجمع من حولي الأطفال، والجهلة وفقراء البدو، وعبرت مثل الديك مع جمعه من الطيور الصغيرة المندهشة، إلى أن يخلصني أحد المواطنين ذوى السلطة، قائلاً لهم "والله، إنكم تضايقون الغريب بهذه الطريقة، وإن ذلك سيغضب الأمير!". ويومياً كان بعض الأشخاص المحترمين يدعونني لشرب القهوة وتناول الفطور، ومعظمهم كان ينشد استشارة "الحكيم" في أمراضهم، وقليل منهم من تحرك من منطلق كرم الضيافة المحضة، لأن ضمائرهم تدعوهم إلى عدم إظهار الشفقة إلى من هو مخالفٌ لدينهم الحنيف المنقذ؛ ولكن المسلم الذي يأتي إلى حائل، أو حتى غريب من الفرنجة ويروق لهم ويختلط معهم، سيجد أن سكان البلدة من شمّر مضيافين، وهذا معروف عنهم.

في البداية دعاني غانم، صائغ الأمير، وشقيقه غنيم. لقد كانا من الأثرياء

من طبقة الصناع، وكانوا سابقاً من الجوف، حيث يوجد بعض أحسن الصناع المشهورين في أعمال المعادن والخشب والحَجر في البادية العربية. وقد أحضرهم عُبَيد بن رشيد عند الاستيلاء على الجوف إلى حائل بعد أن وجد أن هؤلاء الرجال أمهرهم في مهنتهم، ولحاجته لهم. إنهم مشغولون على الدوام في العمل للأمراء، في صنع، وتزيين وزخرفة مقابض السيوف بالفضة واسلاك الذهب، ولف مقابض البنادق بصفائح لامعة من المعادن نفسها. وترسل جميع أنواع السيوف والبنادق العتيقة التي يتم الاستيلاء عليها (من البدو) في غزوات ابن رشيد لهم لإعادة تركيبها ثم وضعها في مستودع الأسلحة في القصر. ومن هذه بعض من السيوف الفارسية والهندية الممتازة التي يحملها رجال الحرس الأميري. كان غانم في صباه قد ترحل في المنطقة حول حوران في سورية لتجارة المعادن، فسألني عن هذا وذاك من شيوخ الدروز ممن عَرفهم، وعما إذا كانوا على قيد الحياة حتى الآن. كان الرجل مُتعصباً، ذكاؤه وإدراكه في يديه، وتأملاته لم تكن دائماً حكيمة على الإطلاق: لذلك كان يومياً يبادرني حينما يقابلني بقوله "خليل، إنني عدوك!" وفي النهاية يقوم بتقديم نصائحه الودية. كان غانم قد بنى هذا المنزل الطيني وزخرفه بكل ما يملك من فن الصناعة، فعلى الجدران الطينية كانت هناك نقاط بلون الذهب، وأشكال للطيور والزهور، وبعض الآيات القرآنية في دهان أبيض من الجص الموجود في كل مكان في رمال الصحراء. وغالبية المنازل في حائل مبنية بصورة جيدة جداً. لقد بنى غانم جداراً مزدوجاً مع نوافذ في كل منهما تسمح بدخول الضوء، وليس العوامل الجوية. لم أشاهد سخاماً لكير الحداد في الداخل، ولكن غانمًا كان يجلسُ مرتدياً ملابس نظيفة مفعماً بالنشاط في أفضل غرفة؛ كانت الأرضية مفروشة بحصير ناعم رفيع،

والمجلس بسجاجيد بغدادية. دعاني غنيم شقيق غانم إلى منزله لتناول وجبة الفطور: لقد أعاقه المرض عن مزاولة مهنته، وهدده الأمير مراراً بالتخلي عنه. أراني ابنه بندقيةَ جيش (من الهند) حيث وجدتُ أن علامة التصويب وفتحة النظر قد أزيلتا ـ لعدم معرفتهم لاستخداماتهما.

جاء يدعوني لتناول القهوة عنده اليهودي ـ المسلم الذي تسمى باسم عبدالله، واختار لقب المسلماني لقبًا له. سألني مرافقه عما إذا كانت أمُتي تحبُ اليهود؟ " فأجبت: " أننا لا نستفسر عن أديان الرجال، بل عما إذا كانوا مواطنين صالحين. " وصلنا إلى بوابة اليهودي ودخلنا منزله. كانت الجدران من الداخل مبيضة بالمغرا بصورة تسر الناظرين، نقش عليها بالجص مقاطع دينية، و زهور بيضاء. و قرأت " لا حول ولا قوة إلا بالله "، وبدلاً عن كلمات موسى[عليه السلام] كانت مكتوبة بأحرف كبيرة كلمات " لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ". كان عبد الله رجلاً راشداً من بغداد، لا يختلف عن المسلمين في سلوكه عدا في تلك العلامة الفارقة (وأقولها بلا قصد) التي وضعها الرب على قسمات اليهود. بينما كان رفيقه غير موجود لبرهة، سألني هامساً بصوت خافت "ألديك أي ـ" (لم أستطع سماع الشيء) ـ "عَم تتحدث؟ " ـ " براندي [من أنواع الخمور]، ألا تعرف براندي؟ " دخل عندئذ رفيقه الذي ربما يكون شقيق زوجته، وقال عبدالله هنا بصوت عال، إذا ما صرّتُ مسلماً، فإن منزله سوف يكون لنا سوياً، وكان قد همسَ أيضاً بكلمة فيَ أذني "إن لديّ ما سوف أقوله لك لكن ليس في هذا الوقت ". لقد انقضت سبع سنوات منذ وصول يهودي بغداد هذا إلى حائل. وكان قد اعتنق دينهم بعد وصوله إلى حائل و انتهاء أيام الضيافة مباشرة حيث ذهب إلى عُبَيد بن رشيد قائلا بأنه سوف يعتنق دين الإسلام على يديه؛ وقبل عُبَيد إسلام هذا

اليهودي، وذلك على يديه الملطختين بالدماء والعنف القديم . وهبت العائلة الأميرية المسلماني عند تحوّله " ألف ريال " ، وصرّح له الأمير بالإقامة في حائل ليقوم بالبيع والشراء. وكان عبدالله على معرفة بمهنة التجارة القديمة. وهو الآن تاجرٌ ناجح. لقد سمعت عنه في تيماء وبأنه كان يقرأ في كتب مثل تلك التي شاهدوها معي، ومع ذلك فقد وجدت أنه رجل بلا تعليم. لا ريب أنه كان يقرأ العبرْية، رغم أنه كان يُنكر ذلك.

و أحضر ليّ تاجرٌ في البلدة، يدعى جار الله، كتاباً أجنبياً كبيراً. لقد كان مُجلداًمطبوعًا في امستردام في القرن الماضي[الثامن عشر الميلادي]، باللغة العبْرية! ومن ثم قلتُ له "خذه إلى عبدالله فهذه لغه اليهود". "إن عبدالله يقول لي إنه لا يعرفها". وهذا الكتاب قد أحضر إلى هنا منذ سنوات مضت، بعد إنقاذ قافلة من بغداد، هلكت من العطش وهي في طريقها إلى سورية . لقد قادهم دليلهم "لأن الله قد أخلف عقله" خطأ وضلّوا في القفار؛ ولم يستطع المسافرون أن يجدوا الآبار، والقليل منهم فقط ممن كانت لديهم قدرة بدنية صمدوا إلى أن وصلوا إلى بدو. قام البدو بالبحث ما أمكنهم عن أحمال الإبل التي نفقت "لمدة شهر وأكثر" . كانت هناك بعض الكتب ضمن القليل من الأشياء غير ذات القيمة التي تم إحضارها إلى حائل.

لقد أخبرتُ بأن عبدالله اليهودي المولد كان سعيداً للغاية هنا؛ ولقد أرسل له والداه عدة رسائل تحملُ عروضاً كبيرة إذا ما وافق على العودة، ولكنه كان دائماً يرفض استلامها، لقد تخلى عن الروابط القانونية والوعود؛ ولكن رجلاً تحركه عواطف ومؤثرات الطبيعة البشرية، ربما لن يتخلى بسهولة عما تربى ونشأ عليه.

دعاني جار الله إلى منزله الكبير الذي يقع في الشارع العلوى بالقرب من

بوابة قفار؛ لقد كان تاجر قمح كبيراً. التقانا في الطريق شخص يدعى ناصر، وهو بدوي متعصب من قبيلة حرب ومن الرجاجيل، والتقانا أيضاً عنيبر الذي كان قادماً حينذاك لرؤيتي، وتمت دعوتنا جميعاً. مضيفنا المحترم، والمتعصب قليلاً، أعد لنا فطوراً ممتازاً. كان عنيبر حبشياً، وُلدَ عبداً في منزل عبدالله بن رشيد، ولذا يعدّ عبداً شقيقاً لطلال، ومتعب، ومحمد؛ ويحمل اسم ابن رشيد. هذا العبد كان شخصية مهّمة في حائل، ومسؤول المالية تحت حكم الأمراء منذ عهد طلال. لقد كان الرجل صافي الذهن، وذا أخلاق أميرية، ومع ذلك فإن في داخله نفساً خجولة لعبد: وبوصفه قد تربى في هذه البلاد فقد كانت له تلك الصفة للحديث المفاجىء والعقلية المتشككة لعرب شبه الجزيرة العربية. عندما عُدت مرة أخرى إلى حائل كانت حياتي رهن تصرفه. لقد كانت فرصة طيبة، اليوم، أن شاركته الخبز والملح.

دعاني حُمّود مرة أخرى للعشاء، وأثناء ماكنت أغسلُ يدي قال أحدهم "يالبياضَ بشرْته!" أجابه حُمّود في همس "إنه الجذام" - "ياالله! الحمد لله! صحت قائلاً، ليس في بلادنا مرض الجذام" - "إيه! قال حمّود (مضطرباً قليلاً لأنني سمعتُ حديثه) هل الأمر كذلك. أيه! أيه! "(لأنه لم يجد شيئاً أفضل ليقوله، وردّدْ من بعدي "الحمد لله". وقال آخر "والله إنني رأيت في بغداد خادمة ببياض يشبه هذا البياض، وشعرها أصفر، للدرجة التي قد تقول بأنها ابنة لخليل." "ولكن قل لي (قال ابن عُبَيد) ألا يشتري علية القوم في بلادكم الجواري الشركسيات؟ - وكيف الحال عندكم أن يكون المرء إبنًا لامرأة جارية، وحتى عبدة، أقول أليس الأمر مقبولاً في نظرك؟" - عندما بدأ الأمر بأن ذلك الرجل المتوحش يأخذني كغير عادي لبياض بشرتي، كابن لامرأة مملوكة، أجبت بشيء من الحرارة "إن شراء اللحم البشري ليس بالأمر

المعروف في بلادي؛ و جعلنا الله ضد كل الذين يتعاملون في الرِّق، إننا نطارد سُفن الرقيق في كل البحار ونصطادها، كما تصطادون الضباع. " انزعج حَمّود قليلاً لأنني أظهرتُ لهم بعض العيوب في أخلاقهم، بعض ظلال الوثنية في دينه، بينما لا توجد نقطة سوداء في ديننا، وتبجحت بعدوانية بحريتنا (التي بسببها تضررت مواردهم المالية). ثم سأل " ويا خليل، هل يأكل النصارى لحم الخنزير؟ " - " أي بالله، وإن ذلك لا يختلف عن لحم الوبر الذي تأكلونه، أو النيص. ألا يأكل البدو الذئابَ والضباع، والثعالب، والضب والجرابيع ؟ أليس البُوم والحِداء والصقور من أكلة الجيَف؟ أنا لا أكل أيًا منها " . أجاب حُمّود بطبعه الإنساني البسيط " أننا لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لأنه سيئ، بل لأن الدين قد حرمه علينا "، وملتفتا إلى سليمان قال: " أتذكر بأن عبدالله الذي كان قد جاء إلى حائل في عهد طلال، وعالج بندر، أخبر والدي بأن لحم الخنزير لحم طيب جداً. " " وماذا (سأل ذلك الرأس البليد وهو يجد الآن اللسان لينبس بشيء من نفسه الحقيرة) عن الزواج لدى النصّارى؟ وإذا ما كانوا يتناسلون [كما يقال في كل نجد] مثل الكلاب! "

ومع أنهم لا يأكلون اللحم المُحرم، فإن البعض في حائل يشربون " دم العنب " (ماء العنب)، العصير المُخَمّر للفاكهة التي تنتجها أشجار العنب القَليلة في بساتينهم، والذي ينضجُ هنا في منتصف الصيف. أخبرني ماجد بأنه يتم تحضيرُه في منزل والده، وسألني الصبيّ عما إذا كان لديّ شيء منه؛ وإن من المرجح أن يكونَ طلبه قد جاء بناءً على طلب والده. إن المسلمين، في ترفهم الديني، يشتهون في شغف المشروب المحرم، متخيّلين أنه سوف يزيدُ من مقدرتهم الجنسية.

عندما يتم تقديم القهوة في منزل حمود كنتُ دائماً أتعجبُ لنفسي بأن

فنجاناً واحداً يُصب لي ؛ في ذلك ا المساء عندما مر الخادم بالدلة والفناجين، أشرت إليه فصَبَّ لي على الفور. وفي يوم آخر سأل ماجد، الذي كان يجلس بجانبي "ألا تشربُ القهوة يا خليل؟"، وحينما أجبت "تأكد بأنني أشربها" صب ليّ فنجانًا ـ نظر حُمّود نحونا وكأنه يودُّ أن يقول شيئاً. ويجوز لي أن أفترض بأنها كانت مزحة ودية منه، لأكون أكثر ارتياحاً. في البلدان الإسلامية غالباً ما يكمن الموت السري للمرء في فنجان القهوة. إن الأمير عندما يدخلُ منزلاً لا يتم تقديم القهوة له، ولا يتم تقديم أي قهوة في مقره ولكنه إذا ما رغب فهو الذي يطلب فنجاناً منها، مثل ذلك الخوف هو جزء من حياتهم اليومية.

وسط جلساء المساء الذين يزورون حُمّود في قهوة عُبَيد كان هناك شخصية ذات شأن يعدونها من علية القوم، ومع ذلك فهو ليس إلا تاجراً أجنبيًا غنيًا، هو سيد محمود، شيخ التجار المشاهدة [من مشهد علي]، وهم حوالى خمس وثلاثين عائلة مستوطنة في حائل؛ وبضاعة السوق (بضائع من بلاد ما بين النهرين) تحت أيديهم. إن "مشهْدَعلي" مكان استشهاد علي [علي بن أبي طالب رضي الله عنه] تقع عند آثار الكوفة، وهم مسلمون من طائفة الشيعة.

إن هؤلاء الشيعة متسامح معهم ومكروهون في بلدة ابن رشيد مع أنهم يُصلون مع الناس في المسجد العام. وهم مكروهون أكثر من قبل البدو المتعصبين، الذين سمعتهم يقولون "لا شيء بالله، أكثر نجاسةً من هؤلاء المشاهدة الملاعين". وهؤلاء الرجال القادمون من الشمال المتحضر لديهم آذان حساسة للأمور السياسية، وعندما كانوا يرون "الإنجليزي" ماراً، فإن بعضاً منهم يناديني من متجره ليستفسر عن أخبار الحرب وكأن لديّ وأنا أتجول هذه المدة الطويلة في الصحارى، أي شيء جديد عنها!ـ إنهم لا يصدقون أي شيء

عن " انتصارات " السلطان التُركي! ومثلهم كان الأمراء في حائل الذين قد عرفوا شيئاً عن أقطار العالم، وقد سألني حمّود بصراحة: " ما رأيُكَ، أترى أن دولة السلطان سوف تستمر لمدة أطول؟ "- " الله أعلم "- " إيه! إيه! ولكن أخبرنا، ماذا يعتقد مواطنوك؟ "- " إن السطان قد أصبح ضعيفاً للغاية. " لم يكن حُمّود آسفاً (إنهم لا يحبونَ السلطان)، وسألني عما إذا كنتُ قد زرتُ الهند؛ - يرسل الأمير كل سنة خيوله التي يرغب في بيعها إلى هناك، ويسمعون أن الحكومة الهندية هي من الإنجليز. كان عند حمود رجل متعلم ضمن حاشيته، هو مُدرس ماجد، وهو فطرياً مهيئا للدراسات العقلية. سألني المعلم عن أحوال عدة بلدان نصرانية، سمع عن أسمائها، وعلى وجه الخصوص عن فرنسا وعن بروسيا [ألمانيا] وعن إمبراطورية النمسا. قلت له: " يمكنك قراءة ما تريد معرفته بصورة ممتازة في أحد كتب الجغرافيا التي معي، كتبه باللغة العربية واحد منا كان يقيم في الشام لمدة طويلة، إن الكتاب في مخزني. " ثم قال حمود " إذهب يا خليل وأحضر الكتاب إليّ. " وأرسل أحد خدمه لينير لي الطريق بغصن نخيل مُشتعل.

" كيف! (قال حمود بعد أن عدنا مرة أخرى) يتعلم قومك اللغة العربية! " فتحتُ مُجلدي عند فصل " شبه جزيرة العرب ". قلّبَ حمود الصفحات بنفسه ووجد الأبيات الجميلة التي يتغنى بها شاعر بنجد وطيب هواها؛ وبابتسامة سعادة ونصف تنهيدة، قام الوطني، والقصّاد نفسه بإعطاء الكتاب لكاتبه، وأضاف متعجباً " كيف يكون هذا؟- هل النصارى إذاً أهلُ آداب! وهل هناك مثل هذا الكلام الجميل وسطهم؟ هيه!- يا خليل هل هناك الكثيرون ممن يقولون مثل هذا؟ " وعلى الرغم من كل هذا، فإن العمل لم يرُق لهم، لأن من كتبه من غير دينهم! أظهرت للرجل المتعلم الموضع الذي ذُكرت فيه

حائل، وقام بقراءته بصوت عال، وحينما أغلق الكتاب قلت له بأنني سوف أعُيِّره له، وقبلَ ذلك ببرود. وضعتُ بين أيديهم أيضاً باللغة العربية (سفْر) المزامير الخاص بداود والد سليمان[عليهما السلام]، وهي أسماءٌ يستمعون لها بتوقير واحترام، ولكن لم يشاهدوا كتابه على الإطلاق. وحتى هذا ربما لن يُرضيهم! بوصفه يجيء من عند النصارى، أولئك المُحَرفونَ للكتاب المقدس، وبلا شك فإن كلمة المزامير أسعدتهم (كما لو أنها أغان تُغنى بالمزمار) ولكنهم لا يرغبون في قراءتها.

قال حمود "هذا هو سيد محمود يا خليل، و يسره أن يسمع شيئاً عن الأدوية، قم بزيارته في منزله، وسوف يعدّ لك النرجيلةَ"- نوع من الكيف للأجانب، وغير شائعة الاستخدام في نجد. أخبرني حُمّود في مناسبة أخرى بأنه لا يعرف أي من التجار في حائل ممن لديه رأسمال يزيدُ على ألف ريال؛ سيد محمود واثنان أو ثلاثة آخرون فقط من تجار الجملة في البلدة، هم الذين ربما يكون لديهم أكثر بقليل. ولا يوجد من التجار الأجانب بخلاف أولئك المشاهدة، إلا واحداً من بغداد وآخر من المدينة؛ ولا أحد من مصر، أو سورية. طلب مني حمود أن أشاهد مدافع الأمير عندما كنت ذاهباً إلى المُضيف: ووجدت أنها خمس أو ست قطع من مدافع الميدان الخربة، وعلى اثنين منهما كتابات باللغة الألمانية. إن مثل هذه المدَفعية لن تكون ذات نفع كبير لدى أمهر الأيدي، ومع ذلك فإن قذيفتها قد تهدم الأسوار الطينية لمُدن نجد. حصل أمراء شمّر عليها من الخليج، ومع ذلك فإن القليل من الأشخاص يتذكرون متى تم استخدامها في حروب الأمير، ماعدا ذلك المدفع الوحيد الذي تم سحبه في آخر حملة مع بريدة ضد عنيزة، ولكن خدم الأمير لم يستطيعوا استخدامه. لقد أطلقت قذيفتان على البلدة فقط؛ وقد طارت

الأولى في الهواء، والقذيفة الثانية انطلقت بقوة رهيبة أمام أقدامهم في تربة الصحراء.

لنتحدث الآن عن الحياة العامة اليومية في حائل: بعد ساعتين تقريباً من شروق الشمس، يخرج الأمير إلى المسحب ليعقد مجلسه الصباحي، الذي يشبه مجالس شيوخ قبائل البدو الرُّحل. يجلس الشيوخ الكبار مع الأمير أمام الناس؛ ويشبه هذا المجلس المحكمة العلنية، حيث يجلس الأمير كرئيس وقاضٍ وسطهم. فقد كانت هناك مصطبة من الطين مَبْنية على طول جدار القصر الملاصق للمسحب مقابل المسجد، بجانب بوابة البرج؛ وفي وسط هذه المصطبة يوجد مقعد مرتفع من الطين (يخلو من كل زينة وحتى من بساط مفروش) هو المقعد المخصص للأمير، وتحته بدرجة واحدة وعند قدمي الأمير يجلس كاتبه، وسكرتيره ناصر. ويقع مقعد حمود (وهو مقعد طيني آخر، ودرجه أدنى بقليل) بالقرب من باب القصر. وهناك مصطبة طويلة مماثلة بمجلس عال ملاصقة لجدار المسجد في الجهة المقابلة حيث يجلس الشيوخ في الظل عند عقد المجلس الثاني بعد العصر. ومقابل الأمير كان يجلس بشكل دائم القاضي؛ ومن أمثال هذا الرجل يوجد أكثر من واحد في حائل، إذ يقدمون المشورة للأمير في المسائل الصعبة وتفسير الأحكام الشرعية. وعلى كل جانب من الأمير يجلس الشيوخ، ورجال البلاط؛ ويقف عبيد الأمير أمامهم، ويجانب الشيوخ، وفوق المصطبة الطينية الطويلة يجلس رؤساء الخدمة العامة ومرافقوهم؛ ويجلس وسط الجميع بدءاً من ثاني أعلى مكان بعد الأمير أي من البدو الزائرين، خلف شيوخهم - وترى يجلس في منحنى مثل القوس أمام كل هذا المجلس على تراب المسحب الرجاجيل متكئين على أغماد سيوفهم، وعددهم بشكل عام حوالى المئة وخمسين رجلاً؛ وهم

الرجال المسلحـون، منفذو أحكام الأمير الرهيب، والمشاركون في غزواته، وهم هنا يجلسون (أمام الطاغية) بدلاً من رجال القبيلة في مجالس شيوخ البدو الرُّحل. إن المجلس في حائل هو هكذا حشد يومي لهذا الخليط لحملة السيوف؛ والكثيرون منهم يعملون في ساعات اليوم الأخرى بأعمال مدنية في البلدة. في هذه الدائرة المسلحة يدخل المتقاضون مع المتهمين والمتوسلين له، وباختصار كل أولئك الذين لديهم أي سؤال (غير تلك الأسئلة المتعلقة بالدولة)، أو الذين يتم طلب حضورهم ليجيبوا على الأمير في مجلس علني أمام الجمهور؛ ومن ثم يستمع إلى قضاياهم، إلى كل واحد منهم ويصدر حكمه خلال فترة قصيرة؛ وما يصدر من فم الأمير من أحكام يتم تنفيذها فوراً. وفي خلال مدة الشهر التي قضيتها في حائل، كان عدد الحضور اليومي لمجلس الأمير حوالى الأربع مئة شخصًا.

وهكذا يكون الأمير قريباً من الشعب، متعرفاً على معظم شؤونهم. إن أحكام الأمير محمد وحكمته هي الأفضل، لأنه هو نفسه عانى من المحن. إنه قاض متسامح مثل شيخ في اتحاد قبلي، وعادل مع صرامة حادة: و لم أسمع أحداً يتحدث ضد طريقة إدارته في مجال تحقيق العدل. وعندما سألت عما إذا كان المقربون من الأمير يتعاملون بالرشوة، كانت الأجابة بالنفي. إن الفساد البيزنطي لا يمكن أن يدخل إلى البساطة النبيلة السرمدية لحياة هؤلاء الناس (الحرة)، في بلد البدو الرُحّل الفقير؛ ولكن (لقد شهدنا) ذلك النوع من الفساد معروف لأمراء شمَّر الماكرين، الذين ينهلون لأنفسهم من السلطات التركية في المناطق المجاورة. بعض أعراب ابن رشيد، من قبائل ديار المدينة جربوا بأنفسهم جزاء هذه العادة الشريرة: رويُت لي رواية عن أحدهم، كان قد أحضر رشوة ليسهل قضيته في حائل، وعندما كانت قضيته على وشك

النظر فيها، قام بوضع عشرة ريالات في يد القاضي. ولكن القاضي وهو يقف انهال بعصاه على أكتاف البدوي وأوسعه ضرباً إلى أن أرهقه، ثم اقتاده إلى الأمير، الذي وجه إليه ضربات إضافية بنفسه، وأمر عبيده بأن يجلدوه. إن مجلس الأمير يندر أن ينعقد لأكثر من عشرين دقيقة، وعموماً فإن هناك القليل من القضايا التي تتطلب النظر فيها، لدرجة أن الأمير، الذي كان متوعكاً لبضعة أيام (شكواه المعتادة من الصداع والمرارة) وهي حالات نظرت في أمرها، نظر في كل القضايا التي تجمعت خلال سبعة أيام في الجلسة الصباحية. إن المجلس ينتهي وينفض حينما ينهض الأمير من مقعده، وعندها يقولون "طار الأمير!" ومن بعد ذلك يالها من رفرفة لمئات من الملابس البيضاء الزاهية في المسحب، التي تبدو وكأننا نشاهد حالة تساقط لفراشات بيضاء. يلبس عرب البلدة ملابس نظيفة ولائقة، أما البدو فإن لباسهم أسمال، وحتى أنهم شبه عراة في مضاربهم.

يذهب الأمير بعد عقد مجلسه، مع مرافقيه من حاشيته، إلى منزل له عند الطرف العلوي للمسحب، حيث يشربون القهوة ويجلسون لفترة قصيرة، ومن هناك يذهب مع عدد قليل من مرافقيه لزيارة الإسطبل، حيث توجد خمس وثلاثون من خيل الأمير، مقيدة في موضع مجاور للقصر، مقابل قهوة عبّيد تقريباً. بعد ذلك يصرف الأمير رجاله قائلاً "روحوا، يا عيال" ويدخلُ عائداً إلى القصر، أو أحياناً يذهب مع حمود وشلة أصدقاؤه إلى الخلاء في نزهة، وقد يكون الذهاب إلى مقره الصيفي جوار ماء السماء، أو إلى بستان عبيد، أو يقوم بزيارة السوق ليزور أحداً، مثل غانم الصانع ليرى سير العمل في تنفيذ طلباته، ومن ثم يعود إلى القصر. وإذا ما كان لديه بعض الأعمال مع البدو، أو مع رجال من قُراه، ورسل ينتظرونه، يقومون بإدخالهم إليه.

إنها لحياة مملوءَة بالمشاغل الكئيبة أن تكون حاكماً لحائل. إن سياستهم سياسة آسيوية حاذقة جداً، وليس فيها الشكلية أو المظهرية التي للغرب (المسيحي)، التي تفترض الطبيعة الخيرة في كل امرئ؛ لذلك فهم بالتأكيد يحتقرون الإنسان، ويعدّون دون أسف أن كل روح آدمية ماهي إلا شيء تافه بذاته. وحكمتهم للحاضر أكثر منها للمستقبل، وتحمل بشكل دائم صفة عدم صبر العرب. إنه يحكم كالعقاب (الصقر) وسط الجوارح بأعين ومخالب في أرض الفرائس، ولكن بشكل عام بغير قسوة، إذ إن ذلك سوف يُضعف من موقفه. إن العربي لا يقف طويلاً متسائلاً، فالعقد الصعبة الحرجة يتم حلها بالسيف. في بعض الأحيان يخرج الأمير ابن رشيد ليروح عن نفسه في الهواء الطلق ممتطياً صهوة جواد، مهر أبيض هزيل، شأن الخيل النجدية في بلادها. في إحدى المرات كنت أجلس على مصطبة المجلس الطينية عند بوابة القلعة عند الغروب حينما وصل الأمير بنفسه، راكباً لوحده؛ ونهضتُ واقفاً لأحييه، وجفل حصانه، وهو يرى في الغسق منديلي الأبيض الكبير. حث الأمير جواده بالرِّكاب، الذي يستخدمه في ركوبه، مرتين، ولكنها لما لم تُطع، تخلى العربي الذكي عن دابته المشاكسة، وترجل في خفة وسلمها لأول يد من خدم القصر.

تحضر جماعات البدو كل يوم إلى حائل من أجل شؤونهم مع الأمير. ويخصص لكل جماعة أو ربع "مخزن"، ويعدّون ضيوفاً على الأمير (في العادة حتى اليوم الثالث). وعلاوة على رجال القبائل وأتباعهم، رأيت في حائل العديد من البدو الغرباء مثل بدو الظفير وبدو مطير، الذين كانوا أعراباً من الأصدقاء، وخارج اتحاده، ونطاق سُلطته، وعلى الرغم من ذلك يتلهف ابن رشيد لتلقي بعض الهدايا منهم سنوياً. إضافة إلى ذلك وصل أيضاً رجال

من قبائل عنزة الشمال المستقلة، ومن شمّر الشمال، وبعض قحطان المهاجرين، الذين يرتحلون الآن في القصيم.

قبل ساعة من انعقاد المجلس الصباحي، يبدأ العمل اليومي العام في الواحة. إن السكان المقيمين هم من المزارعين، والتجار (معظمهم من الأجانب) في السوق، ورجاجيل الشيوخ، وقليل من العبيد. وحينما تشرق الشمس يذهب المزارعون إلى العمل. وبعد ساعة يفتح السوق: ويبدأ الدلالون، وهم الباعة المتجولون لكل ما يعرض للبيع، جديداً أو قديماً، ملابس أم أسلحة، يصيحون على طول الطريق، ويعرضون أصناف بضائعهم على كل من يقابلونه، ويدخلون المتاجر أثناء تنقلهم مع ضجيجهم المزعج، ويبيعون لمن يقدم أعلى العروض؛ وهكذا في صبيحة يوم بعت ناقتي الخوارة. لقد قمت بقياس السوق، الذي يقع بين المسحب والبوابة الداخلية في اتجاه بوابة قفار فكان مئتي خطوة؛ وعلى كلا الجانبين توجد المتاجر، ومخازن صغيرة للبضائع مبنية خلف الدكاكين، يدخلها الضوء عبر الباب فقط - كان عددها جميعاً حوالى مئة وثلاثين يمتلكها ويؤجرها جميعها الأمير. كان سوق القصابين في ساحة تالية دون البوابة العليا للسوق: وقد يتم بيع لحم ضأنهم الممتاز سريعاً، بعد ساعة من شروق الشمس، بسعر أقل من بنسين للرطل الواحد، وفخذ صغير يكلف ستة بنسات، في الوقت الذي تدفع تسعة شلنات ثمناً للخروف الحي في حائل، وبالكاد ستة للتيس. وهكذا رأيتُ بعض البدو يعودون مع قطيع ماشيتهم الصغير بدلاً عن بيعه هنا بأسعار متدنية كثيراً، أو يأخذونه إلى سوق المدينة المنوّرة، التي تبعد ثلاث مئة ميل تقريباً، إذ إنهم سمعوا أن قيمة الضأن هناك تساوي ضعف قيمتها في الجبل. إن مهنة القصابة، مع أن جميع البدو الرُحّل على دراية بكيفية الذبح، لا يمارسها

أصحاب الخلفية القبلية في بلدان نجد.

يجول مفرج عند المساء مرة أخرى في المسحب، ثم يعود إلى بوابة القصر، أو يرسل أحد خدم المطبخ، للمناداة على مجموعة جديدة لتناول العشاء، بعد أن تكون المجموعة التي سبقتها قد انتهت من أكلها. وتتكرر المناداة على عدد المرات التي تنتهي المجموعات البدوية من أكلها. والعشاء العام، ليس سوى طبق هزيل من التمن المغلي وخبز الشعير، مدهون بقليل جداً من السمن. يدعو مُفرِّج الضيوف بطريقته المعهودة، مراعياً وضعهم كشيوخ أو عامة، بوصفهم بطريقة أو بأخرى ضيوف الأمير. كذلك كنتُ أنا النصّراني أُدعى يومياً للعشاء في المضيف، وكنت أقبل ذلك لسببين: كنت غير مستقر، ومن الصعب أن أطبخ طعامي بنفسي، وليس لديّ وقود، ولا توجد مدخنة في مخزني، إذ كنتُ سأختنق بالدخان؛ ولأنني كنت اعتقد أنني سأكون في مأمن من الطغيان المفاجئ للأمير حينما آكل الخبز والملح في المضيف. ولكنني كنت لا أتناول الفطور في المضيف، حيث إنني أحصلُ على أجود أنواع التمر من السوق بثمن زهيد. ولو كنت قادراً على أن أصرف بحرية لقلة ما معي، لكنت بقيت بحائل. إنها الآن سنة كاملة منذ أن جئت إلى الجزيرة العربية، ولم يتبق سوى القليل في محفظتي لمجابهة الضرورريات المُلحّة.

في قرى الجبل تتم دعوة الضيف للأكل بكلمة: "سَمّ"، أو ما شابه ذلك مما يقال عندما يوضع الأكل أمامه. وهي كلمة تعني قل "بسم الله" أو "البسملة"، ولكنني عندما سمعتها لأول مرة! حينما وضع صبيٌ في المضيف طبق التمن أمامي، ظننت أنه قال (بغل) "سُمْ" أي (السُّم) القاتل، ولم يكن الصبي أقل دهشة عندما قمت بالاسلوب المفاجئ للعرب بدعاء الله ليلعن والديه:- في هذه الريبة والشك عما إذا كان قد قال "سُمّاً" تناولت العشاء مع

رفاق المائدة لكي لا يهربون مما قد ألاقيه. وبعد العشاء يلجأ البدو مع رَبْعهم إلى القهوة العامة. وبعد عشاء الضيوف تتم خدمة "الرجاجيل" [جنود الأمير] بالكيفية نفسها في مجموعات في المضيف؛ وهناك أيضاً يتناولون وجبتهم الخفيفة من مقدار من التمر عند الظهر، مثلهم مثل الضيوف العموميين. التمر والقمح الذي يرثي له في المطبخ العام يتم الحصول عليه مقابل الضريبة الحكومية للأمير، من قرى عدة ومستوطنات صغيرة؛ وأجود الأنواع منه يتم حجزه لمؤونه عائلات الشيوخ. وعندما ينتهي العشاء العام فإنك ترى العديد من النساء الفقيرات وبعض الأطفال، ينتظرون الدخول، وهم يحملون أوانيهم، عند بوابة القصر. و هؤلاء وبؤساء آخرون هم من قرر لهم الأمير وجبة غذائية مسائية، من ذلك الذي تبقى من الطعام. ويزود يومياً الضيوف والرجاجيل بـ١٨٠ وجبة تتكون من خبز الشعير وتمن درجة ثانية، وكل وجبة تساوي ثلاثة بانيتات وربع البانيت (٥)؛ علاوة على مقدار من السمن.

يحصل الأمير على السمن المُخصص للضيافة العامة من البدو التابعين له، بأسعار رخيصة لا تكون إلا في فصل الربيع عندما يكون السمن متوفراً. فهو يدفع شلنان لمقدار ثلاثة بانيتات من السمن، بينما قيمة الكمية نفسها الآن في حائل تبلغ ريالاً واحداً. يتم ذبح جمل، أو حيوان أصغر، وذلك مرة في كل ثمانية أو عشرة أيام، ويتم تقديم القليل من اللحم لأولئك الضيوف الذين يدعون لتناول الأكل أولاً. وعندما يكون الأمير متغيباً لا يأتي أي بدوي إلى حائل، وكذلك (كما لاحظت) لا يكون هناك أي ضيوف. وهكذا قمت بحساب ما قد يتم تخصيصه من مصروفات سنوية للضيافة بحوالي ١٥٠٠ جنيه إسترليني.

كان يتم إعداد قهوة المساء في القهوة العامة حيث يتم تقديمها للجميع. وفي أغلب الأحيان عندما أجلس مع جماعات البدو، فإنهم ينظرون نحوي بنظرة التسامح نفسها التي خبرتها في مضاربهم وبيوتهم؛ وهنا ألسنا جميعاً ضيوف الأمير؟ تفتح القهوة الأميرية أبوابها مباشرة بعد صلاة الصبح، لهؤلاء المدمنين على فنجان الصباح؛ ويغلق الباب مرة ثانية، عندما يكون الجميع قد خرجوا لحضور المجلس الأول للأمير. وتفتح مجدداً، ويتم تقديم القهوة بعد صلاة المغرب، والذي لا يرغبُ في الشرب، فإنه يقول باختصار في لباقة الصحراء "كَرَّمَكَ الله". يتم إغلاق باب القهوة في الليل عندما يكون البدو الذين يسيل لعابهم للقهوة، قد توجهوا إلى صلاة العشاء في المسجد. بعد ذلك يتم إغلاق البوابات الكبيرة ذات المصراعين الخاصة بقصر الأمير، وبشارع السوق، ولا يتم فتحها ثانية لا لصلاة ولا لعمل، حتى إنبلاج ضوء صباح اليوم التالي؛ والبدو الذين يصلون متأخرين لابد لهم أن يبيتوا خارجها؛ ولكن بقية حائل تظل مفتوحة، وهي كل الأجزاء المبنية تجاه قفار وجبل أجأ.

خرج الأمير محمد بعد عصر أحد الأيام مع رفاقه من حاشية البلاط والجلساء ليزور "الدبش"، ثروته الحية في الصحراء. إن أمير نجد غنيٌ جداً كمالك قطعان، لذلك لو صدقتهم فإنه يملك "أربعين ألف" من الإبل. ومجموعته من الخيول من سلالة نجدية أصيلة، وكما أخبرني علي العيد (وهو رجل صادق، وجارٌ لي، وكان فيما مضى في خدمة الخيل، وقد سبق وقاد خيولاً من الأمراء السابقين إلى باشوات مصر)، تبلغ نحو الثلاث مئة فرس، ومئة حصان، مع كثير من الامهار والفلاء. وحسب رواية آخرين فإن لدى ابن رشيد أربع مئة من الجند الأحرار والعبيد، ومئتين من الافراس الأصيلة،

ومئة من الأحصنة في قطعان متفرقة في الصحاري؛ وإن لديه "مئة من العبيد" (يسكنون مع عائلاتهم في بيوت الشعر مثل البدو) ليعتنوا بها. وأخبرني آخر بأن مجموعة خيول الأمير مقسمة إلى مجموعات من خمسين أو ستين، الأفراس في مجموعة، والأحصنة في مجموعة؛ وصغار الخيل من أمهار وأفلاء يتم جمعها بالكيفية نفسها بعد فطامها. يتم نشر مجموعات الخيل في القفار، مرة هنا، ومرة هناك، حسب مواضع نبت العشب البري. وتتم تربية خيول الأمير على طريقة البدو الرُحّلْ، حيث تقيد القوائم الأمامية وتطلق لترعى منذ الصباح. أما الشعير والحبوب الأخرى فإنها لا تتذوقه أبداً. وعند المساء يتم اقتيادها إلى بيوتها، ويتم تقييدها بحبال طويلة، وتسقى من الحليب الليلي للنياق، التي تمثّل المرضعات. وهكذا فإنه يبدو أن أمير غرب نجد يمتلك من الخيل والإبل ما قيمته حوالى ربع مليون جنيه إسترليني؛ وإن ذلك قد تم الحصول عليه خلال جيلين من البدو المساكين. إنه يمتلك علاوة على ذلك ثروات ضخمة من المال بعملات معدنية، ولكن الضرائب العامة يتم وضعها في "بيت المال" محفوظة في جوالات وفي حُفر. وهو يمتلك الكثير من الأراضي ليس في حائل فقط ولكن لديه بساتين كبيرة أيضاً في الجوف، وفي بعض الواحات التي استولى عليها عن طريق الحرب. لقد رأيتُ محمداً عند بوابة القصر يمتطي ظهر جمل مزركش سرجه بصورة جميلة. خلال الأيام السلمية القليلة لرحلته هذه في الخلاء، ينزل الأمير هو وجماعته في بيوت شعر مثل البدو. وكان قد ترك الأمير حمود في حائل، ليعقد المجلس اليومي الذي أصبح صغيراً الآن بعد مغادرة الأمير؛ ولا يجلس ابن عُبَيـد عندئذ في مقعد الأمير، ولكن في مقعده الأدنى الخاص به عند البرج.

أرسل حمود إليّ أحداً لأقابله في وقت فراغه عند الظهيرة، وقال: "إن

محمداً قد ذهب، وإننا نبقي أصدقاء" . أراني الآن ساعاته الخليجية الرخيصة، التي يعلق منها اثنتين على صدره، وهكذا يفعل أيضاً ابنه ماجد، الذي لديه عقل فضولي لمثل تلك الأغراض الجديدة، و يقال إنه يستطيع أن ينظف الساعات! ويمتلك حمّود ما لا يقل عن المئة منها، والأمير أكثر منه بكثير. سألني حمودّ عما إذا كانت الساعات إنجليزية، ومن أفضل صناعات النَصّارى. لقد كان طامعاً ليعرف مني إذا كنت قد أحضرتُ أشياءً مفرحةً في جوف خرج شداد ناقتي، من الصناعات الرفيعة للنصارى، ووعدني بهمجية بأنه سوف يعطيني مقابلها فلوس! التي يعتقد العرب التُعَساءَ أن كل الناس يحبونها مثل دَم حياتهم. لقد وجدت حمود متمدداً مثلَ البدو، ويتثاءب، في بستان قهوة عُبَيد، الذي كما قيل، يمتد خلف المخازن إلى منزل عائلته في البلدة . في بستان النخيل هذا لديه غزلان كثيرة، تقتاتُ على البرسيم الذي يتم قطعه لها يومياً، ولكنها كانت تنفر عند اقتراب المرء منها: وهناك شاهدت أيضاً ذكر الوعل. هذا التيس الجبلي البري القوي، قد يتبع الإنسان وحتى قد يطارده، ويأتي دون خوف إلى داخل القهوة. وهذا التيس بحجمه وقوته أكبر من التيس العادي، وله شعر كثيف قصير، ولونه أرجواني مُحْمَر، أو تقريباً مثل ذلك اللون الذي تصبح عليه الجبال الداكنة قبل غروب الشمس.

كان هذا البستان بستان نخيل عُبَيد، وهو مزروع على أفضل طريقة؛ وكانت جذوع النخل موضوعة في صفوف، متباعدة عن بعضها كثيراً، في تربة حائل الصلبة القاحلة. تحدثت عن زراعة النخيل مع جاري علي، المعتدل قليلاً، الذي عند أول قدومي تحسَّس حزامي بحثاً عن نقود، وهو من موقق، لكنه الان من الذين يرعون زراعة الأمير في حائل. ذكر راعي النخل هذا أنه في مثل هذه التربة الجرانيتية ،حيث تكون أشجار النخل متباعدة ، فإن إنتاجها

يكون أفضل؛ والطريقة التي أوضحتها له عن كيفية وضع الأشجار لم ترق له. إن بئر حمود الموجودة في هذه الأرض كبيرة وعمقها خمسة عشر قامة محفورة في أرض جرانيتية صلبة؛ وجدرانها ثابته دون بناء داخلي أو نظام. حُفرت البئر بعمل خمسة عشر رجلاً، كل تلقى ثلاثة أو أربعة قروش، لمدة عشرين يوماً، أي ما يعادل حوالى ١٠ جنيهات إسترلينية. وهناك ثلاث من أجود النوق تقوم بسحب الماء على بكرات، وثمن الناقة الواحدة خمسة وثلاثون ريالاً. لقد تضاعف تقريباً ثمن الإبل في الجزيرة العربية في السنوات الأخيرة بعد الجفاف الكبير الذي أصاب مصر وسورية، والحروب في الحبشة. لقد أدهشني أن أسمع بدوياً يتحدث في هذا الأمر: "وبالله، فإن السبب هو نزول قيمة النقود!" وإذا ما استمرت سنوات الجفاف فإن طاعون الماشية يأتي في النهاية. وقد حصل هذا قبل سنوات عدة حيث كان البدو يبيعون الجمل مقابل "كراون" [قطعة نقدية فضية بريطانية تساوي ٥ شلنات] واحد، والذلول الهزيل، الذي كان من قبل يساوي، وهو في حالة صحية جيدة ستين ريالاً، أصبح يباع لقاء ريالين أو ثلاثة ريالات، ولا يمضي وقت طويل إلا وتنفق الحيوانات المتبقية في أيديهم في الخلاء.

كان ماجد أكبر أطفال حُمّود صبياً في الخامسة عشرة من العمر، صغير الحجم بالنسبة لعمره، وذا جمال أنثوي، وابناً لامرأة بدوية. وكان يرافقه بشكل دائم شاب فاسق أسمه علي، له أربع زوجات، وكان ملحقاً في خدمة حمود. هذا الثنائي اللطيف كانا يداهماني دائماً في بيتي، بحب الاستطلاع الطفولي لدى العرب بقصد أن يضعا أصابعهما اللئيمة على أي شيء أجنبي للنصّارى - ويأملان أن يجدا ذلك في أمتعتي؛ وحينما يعثرون على شيء فإن ماجداً وصديقه المجرم علي يرغبان بأخذه قسراً - عندها فكرت أنهما بهذه

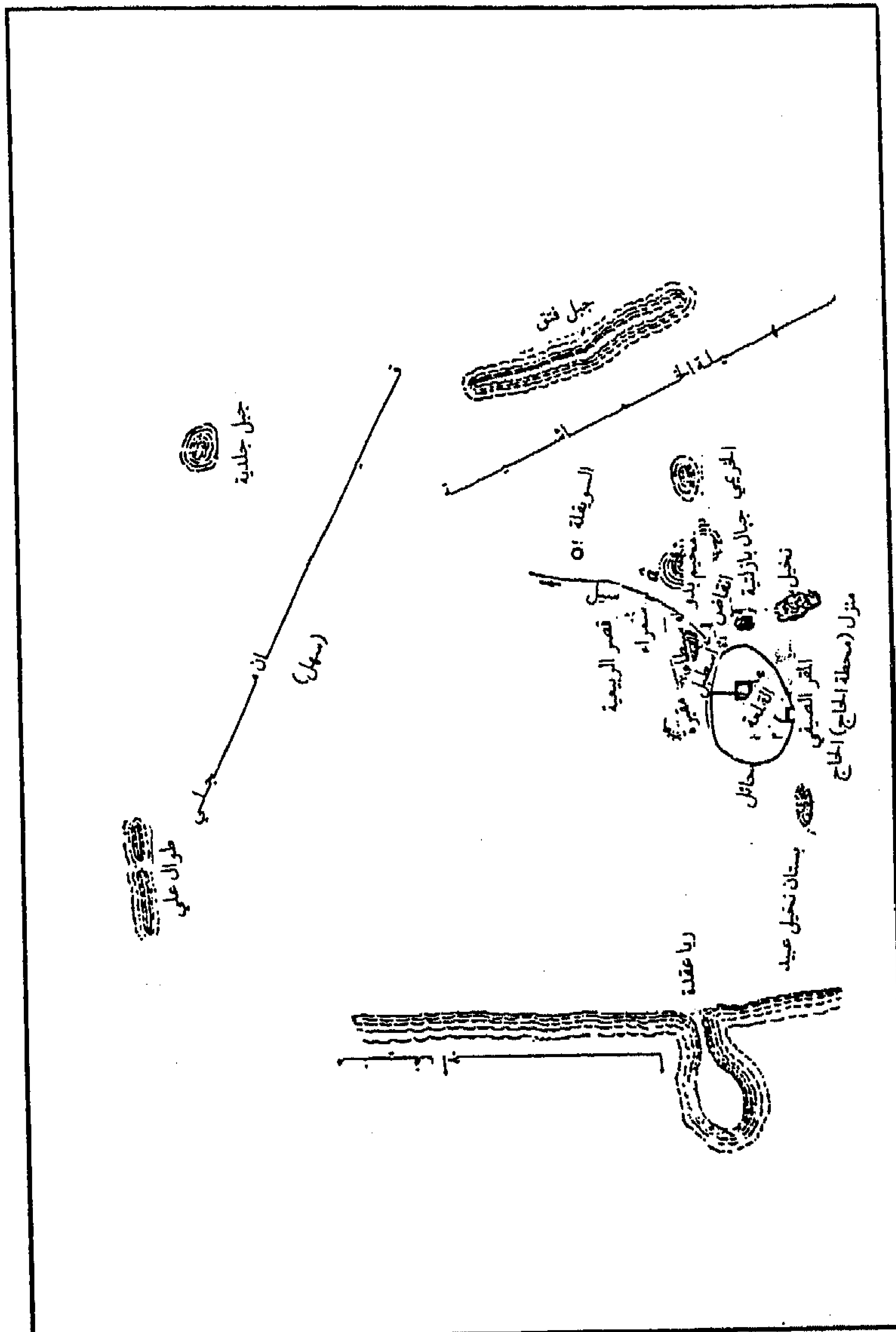
الطريقة قد يعثران على مسدسي وأدواتي، فسحبت الأشياء من أصابعهما المنقبة، وذكّرتهما بالمثل الأمين للبدو الرُّحل، الذين يحتقرونهم، فأجابني ماجد بمرح طفولي: "ولكنك يا خليل تحت رحمتنا، وباستطاعة الأمير أن يقطع رأسك إذا ما رغب في أي وقت!"

في إحدى الأيام عندما سمعتهما عند الباب، قمت بوضع غطاء على أشيائي السائبة، وجلست عليها، ولكن لا شيء يمكن أن يخبأ من وقاحتهما، وقد اتضح بأنهما اكتشفا أنني كنت أجلس على القرآن [الكريم]. "ها! قالا الآن بمَرارة: إنه يجلس على القرآن!" وتم نقل هذه الحكاية من فم ماجد إلى القصر، وعاد الخبيث ماجد ليخبرني بأن الأمير مُستاءٌ للغاية.

أظهر ماجد نفسه بأنه ذو طبيعة ودودة، مع السلطة المتساهلة لوالده، وفي الغالب يكون طفولياً في مرحه، ولكنه في طبعه أناني واستبدادي. إنه يقوم بضرب الأطفال الفقراء بالعصا عندما يمر بهم في الشارع، ويصيح فيهم "الله يلعن أبوكم!" وهم لا يجرأون على الرد على الأذى أو مقاومته - إذ إنه من أحسن "عيال الشيوخ"؛ إذ هكذا يلقب أطفال العائلة الحاكمة. لقد كان بالنسبة لعمره فاسد في باطنه ويحب الاستحواذ على ما يملكه الغير؛ ولكنهم جميعاً قد تربوا على أيدي العبيد! وإذا ما قدر له يوماً أن يكون الأمير فإنني أتنبأ بأنه سوف يكون يوم شؤم لحائل، ما لم يعتدل مسلكه ويصير أكثر إنسانية. إنه مملوء ببراعة ولباقة العرب، مع ابتسامة مقنعة، وكان ينحو إلى معاملتي دائماً وفقاً لطيبة والده نحوي، حتى أنه كان يناديني بـ "صديقه العزيز"؛ وعلى الرغم من ذلك فقد شعر بأن لديّ بروداً تجاه جشعه. كان فيه الكثير من الاشتغال بالتوافه السّامية، إلى درجة أنه لعب دور الدلال في عملية بيع ناقتي، و عندما ساوم على ناقتي بأدنى سعر، متخيلاً أنه سوف

يحصلُ على ثمن مضاعف لها (عندما تصبح مُدرّة للحليب ومعها حوارها) في الربيع المقبل، وللثمن الذي قدمه استجبت في الحال. ولكن الأمير الصغير قال "كلا" وأنه يجب عليّ أن أعطيه عدتها أيضاً (التي تساوي الثلث زيادة على الثمن). لقد استغرقتُ في التفكير وتأملتُ مرات عدة عما هو معنى الشرف عندهم! إنهم يعتقدون بأنهم يفعلون حسناً من آجل آخرتهم؛ ولكن الأعمال الإنسانية التي تحاكي أحلامنا حول الأعمال الخيّرة ما هي إلا كلمات جميلة لشعرائهم، و ليست معروفة لهؤلاء الشرقيين.

بينما كنت أسير في مدينتهم النظيفة المبنية جيداً، اعتقدت أنه لشيء جميل أن يعيش الإنسان هنا، لولا رهبة و قسوة الحاكم، وحياتهم المضطربة بسبب الخروج في حملات الغزو التي يقوم بها الأمير سنوياً، ومع ذلك فإن ما هو غير مريح في نظرنا هو قسوة حياة الصحراء التي تحوطُ بهم! وحائل بسبب موقعها هي بلدة أكثر منها واحة، أو إنها واحةً "غصباً". فالمساحة المتاحة لمزارعهم غير واسعة، ربما مسافة ساعة تقريباً؛ والبلدة تقع على مسافة بعيدة من جروف جبل أجأ (المنيف). كما أنها مسورة بالكامل من الناحية الشمالية ومحجوبة عن الهواء بجبال سمراء حائل، وتكاد لا توجد فيها نسمة هواء في أشهر الصيف الطويلة. وجبال سمراء البازلتية (يمكن مشاهدتها من بوابة المشهد) التي تعلو سلسلة جبل أجأ ما هي إلا مجموعتان جبليتان تقفان خلف البلدة بمسافة قليلة في شكل نصف قمر. ويقع قاع سيل حائل، الذي يقولون إنه يمتد من قفار يمر بين البلدة وسمراء حائل. أما طبيعة الأرض نحو الغرب فهي منخفضةٌ، ويرتفع الجزء الشرقي إلى خمس مئة قدم، وعلى ذروة القمم يوجد ركام من الحجارة؛ وكانت في السابق نقاط مراقبة عندما كانت حائل أضعف منها اليوم.



حائل وجوارها (رسم داوتي)

وقمة سمراء الأعلى ارتفاعاً، أم رقاب، فهي شاهقة، ولقد استأجرتُ في ذات صباح جحشاً، بثمانية بنسات للصعود إليها. وكانت الحجارة المنثورة بكثافة على هذا الجبل هي من البازلت الأسود الصلب، وهو ثقيل وصلب كالفولاذ، ويرن مثل معدن الأجراس. إن كلمة "سَمَراء" في لغة البدو الرّحل في نجد تعني أي جبل من الحجارة السوداء في الصحراء؛ وفي هذا الإقليم ذي الصخور البركانية المتحجرة من هنا وحتى مكة، فإن السمراء دائماً من البازلت. وعندما تنمو أي شجيرات عشبية على مثل هذه الصخور، فإنها تسمى حزم، والحَزم يشبه تلك الهضاب البركانية في الحرات(٦). شاهدت من نقطة المراقبة في أعلى سمراء بأن حائل واقعة وسط سَهْلٍ طويل، يسمى سَهيّلة الخماشيّة، و يقع بين منيف أجأ (الذي يرتفع فوق السهّل في أعلى نقطة له إلى ارتفاع ١٥٠٠ قدم) وسلسلة التلال المتقطعة المنخفضة، التي تحوط بالسهيلة، وممتدة شرقاً باتجاه سلمى إلى جبل فتق؛ وإلى الأسفل منا في اتجاه الشمال الشرقي من حائل يُمكن رؤية الخريمي، وهي بساتين كبيرة من أشجار النخيل يمتلكها الأمير؛ ويقال إن هناك ينابيع ترويها!

شاهد بعض الشبان الذين يعملون في الحقول النصراني صاعداً، فلحقوا بنا. وقالوا إنه توجد في باطن الصحراء كنوز هائلة لو وجد الإنسان القادر على إظهارها، وملأوا سمعي بجبل طُميه المشهور في كل أرجاء نجد "بالثروات المدفونة "هناك؛ و يقع جبل طمية في وادي الرُمّة إلى الجنوب من جبلي آبان التوأمين [أبان الأبيض وأبان الأسود]. بعد ذلك، جلس أحدهم، وكان على دراية بالكتابة، ودوّن لي المعالم الأرضية، التي شاهدناها في البرية المقُفرة من حولنا. وعلى مرتفع في اتجاه الشمال أروني قبر الصانع، مبنيّاً بطول من ثلاث قامات. في مثل ذلك الحجم كان الرجل، الذي عاش في

عهد بني هلال؛ والذي طارده الأعداء الراكبون على الخيل، فجرى أمامهم حاملاً ابنه الصغير على كتفيه، وسقط هناك. كل هذا السَهْل من الشمال من قيسان مجَلي إلى جبال طوال علي، على حدود النفود، وإلى جبل جلديّة المنعزل، الذي يبعد مسافة أقل من رحلة يوم من حائل، هي المنطقة التي تحدد في الغالب كنقطة تجمع لغزوات الأمير. كانت هناك قرية تقع شمال حائل بمسافة ميلين وراء السَمّراء، تسمى السويفلة؛ وقبل السويفلة تشاهد خرائب قرية بها بقايا زراعة نخيل، وأراض لزراعة القمح تدعى قصر الربيعية. والربيعية والسويفلة هما حائل القديمة؛ وهذا يعني أن المدينة القديمة كانت مبنيةً على أرض وموقع أفضل، على الجانب الشمالي من السمراء. ثم أشار لي بيده في اتجاه أسفل مُنيف أجأ إلى ممر ريّا عَقْدة، وهو فجوةٌ أو مضيقٌ يقود إلى صدر السهل العميق في وسط جبل أجأ، وهو كبيرٌ للدرجة التي، حسب قولهم، يُمكن أن يستَوعبَ "رُبع الدنيا"، أي ربع عالمهم ذي الكثافة السكانية القليلة. وتوجد هناك أشجار نخيل ضمن سور من الصخور الكبيرة؛ إنه خليج جبلي، وهو متجه نحو الشرق، وحار جداً في الصيف.

وهذا المدخل الضيق مغلقٌ ببوابات، وقد حصنه عُبَيد [ابن رشيد] بقطعة من المدفعية. وتعد ريّا عقدة ملاذاً وملجأ مضموناً لأهالي حائل بكل ممتلكاتهم، كما قدر عُبَيد، في حالة أي حملة عسكرية من قبل الدولة (الحكم التركي) ضد الجَبل، وهو أمر كان أحياناً يضعهم في حالة من الرُعب. إلى اتجاه الشمال وراء المنيف توجد ضفة أجأ وتسمى العويرض.

نزلت في رفقة الشباب، ووجهوا لي الدعوة لتناول وجبة الظهر المكوّنة من التمر، الذي يحضر إليهم في الحقول. في الجوار وجدتُ شارعاً من الجدران المهدمة والمنازل الطينية الخربة، والأساسات الأرضية لبناء ضخم قديم من

الآجر الطيني ، الذي لم يعد مستخدماً في حائل . إن أساس هذا الاستيطان يرجع إلى عهد ضارب في القدم ؛ و بعضهم يقول " إن المكان كان يُسمى في السابق الحَائر ، نسبة لكثرة (عروق المياه) الجوفية " . وعلى الرغم من ذلك فإن اسم حائل ذكر في القصائد القديمة لعنترة . لقد نقلت البلدة من وراء السمراء ، كما يقولون ، بسبب تناقص مياههم الجوفية . كانت حائل في الجيل الأخير ، قبل حكم ابن رشيد ، واحة ، تقريباً نصف قفار ، التي كانت ذات موقع طبيعي أفضل ؛ ومع ذلك فإن حائل بلدة عبدالله ابن رشيد كانت منذ أصبح حاكماً لهذه المنطقة تحت الحكم الوهّابي هي العاصمة . ومازالت البلدات المجاورة لها تساويها تقريباً في الحجم ، وقدرت أن سكان حائل ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف نَسمة) ؛ و أهالي قُفار ، وهم من بني تَميم ، وجميعهم من الفلاحين تقريباً يقولون إن عددهم يفوق سكان حائل بقليل . عند عودتي للمنزل باتجاه البوابة الشمالية ، زرتُ خرائب قرية [حي] الوسيطاء(٧) ، التي يفصلها عن مدينة حائل السيل والحقول فقط . وكان فيها قبل بضع سنوات مضت " أربعون قهوة " ، أي أربعون منزلاً لعلائلات غنية ، تستقبل أصدقاءهم يومياً للقهوة .

إن وسيطاء اليوم عبارة عن خرائب بدون سكان . وكان سكانها (مثل أولئك الذين كانوا في الجزء الخَربْ من قفار وموقق المندثرة) قد ماتوا قبل سبَع سنوات مضت من وباء الطاعون . وشاهدت جدران منازلهم الطينية من غير أسقف ، وهي الآن آيلة للسقوط ، وقد أُخذ الخشب منها ؛ والحقول والآبار تقبع مهجورةً .

لقد ترك المُلاك وورثة الأرض أعمال السُّقيا منذ زمن طويل ، للدرجة التي ذبلت معها أشجار النخيل ، وماتت ؛ والقليل منها مازال مخضراً . وقبل أن

أغادر حائل شاهدت تلك الجذوع التي لا حياة فيها تقطع، ويتم تخطيط الأرض من جديد في قطع صغيرة للزراعة. كان قد مات في وسيطاء ثلاث مئة شخص؛ وفي حائل، واحد أو اثنان هَلَكا في كل منزل (أي حوالي السبع مئة أو الثماني مئة شخصًا)، ولكن الآن والحمد لله، حسب قولهم، فإن الأطفال قد كبروا وحَلّوا مَحلهم تقريباً. ومن العائلات الأميرية، وعائلات الشيوخ، ومن المتغذين جيداً لم يمت أحداً! وقد هلك البدو الذين زاروا حائل أثناء الوباء خلال وقت قصير، ومع ذلك فإن العدوى كانت أخف في الصحراء، ولم يعم على الإطلاق كمرض فَتاك. كان المرض يصيب الرأس والمعدة؛ والبعض مات في اليوم نفسه، والبعض الآخر ترنح لفترة أطول قليلاً. كانت الأعراض الدالة على الإصابة بالطاعون، ظهور بقعة سوداء على الأنف وتغيير في لون الأظافر؛ وكانت الإصابات ومعاناتها أشبه تقريباً بأعراض الكوليرا. وبعد سنتين من الوباء ضربت البلاد حُمّي خبيثة، حيث كان الناجون يحملون موتاهم على الحمير (لأنه لم تعد لديهم القوة الجسدية لحملهم بأنفسهم حسب الطريقة الدينية)، وكانوا منهكين ليقوموا بإجراءات الدفن. قام أحد رجال البلدة، وكان قد أحضر آنذاك حبوب "كينين" من الشمال، بصرفها للمرضى بثمن مقداره خمسة ريالات للعشرة أو الاثنتي عشرة حبة، يأخذونها بعد جرعة مسهلة من الماغنيزيوم. وأخبرني، بأنها قد أراحتهم بشكل عام. وقع هذا الوباء في العهد القصير لبندر، وقبل قليل من بداية حكم محمد، الذي يعدّونه عهد رخاء لم يسبق له مثيل من قبل، ولم تحدث فيه كارثة عامة. والآن ولأول مرة يبلغ مُلك شمَّر النضج الكامل: وبعد مثل هذا النضوج السريع يجوز لنا أن ننتظر التدهور، إما باستلام رجال ذوي موهبة طبيعية أقل ليديروا حكماً تمَّ الحصول عليه بعنف أشبه بالحرب، أو

حينما تدور عليهم دوائر هذه الدنيا .

بعـد وسـيطاء في السـهل الذي يقع بين أسـوار البلدة وبين قـمم الجـبل المنخفضة لسمراء توجد المقابر الفسيحة لحائل. فالفقراء والأغنياء الذين انتهت دنيـاهم، يرقـدون هناك على حـد سواء في أرض الصحـراء التي ربتـهم ذات يوم، وفيما عدا اختلاف المواقع، فإننا نرى اختلافاً قليلاً أو لا اختلاف في شكل القبور. إن طلال بن رشيد وعُبَيد بن رشيد مدفونان في هذه المقـابر. وقبر الأول هو كومة صغيرة وحجر عند الرأس من قطع الصخر البازلتي ، والقبر الأخير مثله تماماً، وهكذا هي جميع القبور؛ ولا يرى أي نقش، حيث لا يكتب الكثير، مثل الاسم، والذي كـان اسمـاً في الماضي. إن القبـر هنا بسيط، دون أي زينة أو تعبير أخير للحب. على جانب المقبرة كانت كومة قبر عُبَيد، رجل ذو سطوة كبيرة ومجد في أيامه: لكنها الآن ليست سوى ذكرى بعيدة؛ إنه يرقد في عمق باردة واحدة تحت التراب في كفنه؛ وعلى الشـاهد الحجري محفور بمسمار في خط رديء عُبَيد بن رشيد. وعندما سألت ماجد " وهل يرقـد الجد العظيم، عُـبَـيـد، بكل بسـاطة الآن تحت التـراب؟ " بدت كلمـاتي باردة وغريبة على أذنيه، حيث إنه في هذه البلاذ القاحلة، وحيث لا يتم صرف أي قطعة من النقود على شيء لا يكون ضمن ضروريات حياتهم، فهم يرون أن دفن الميت بتكلف مضيعة للمال. وفي غير هذا الأمر لا يبخلون لا سيـما في مباهجـهم . وعندمـا يموت أحـدهم فإنهم يقولـون " خـلاص! انتـهى " ، وينسون بحكمة هذه المسألة التي هي مصير الجميع، دون أي حداد مبالغ به.

بين المقبرة وبوابة المدينة كان مخيم صغير للمستوطنين من البدو. إنهم المتقاعدون من خدم القصر، الذين على الرغم من مظهرهم البائس فإن بعضاً

منهم من أقارب العائلة الأميرية. وبيوتهم ذات الطراز البدوي مسيجة من الخلف بجدران طينية، وبعضاً منها عبارة عن غرفة طينية مسقوفة بقماش الخيام. أو برج منخفض من البناء الطيني نفسه. إنهم من شمّر، الذين يرسلون قطعانهم القليلة من الماشية مع أفراد قبيلتهم في البراري؛ وفي شهور الربيع يرتحلون إلى هناك أيضاً، ويمتعون أنفسهم بموسم الحليب القصير. أثناء مروري نادت عليّ إحدى النسوة من بيت شعر مهترئ، وكان الأوسع بين بيوت الشعر الأخرى، وسألت عما إن كان لديّ دواء لعينيها المريضتين؟ وأخبرتني في أثناء حديثها معي بأن شقيقتها كانت زوجة لمتعب، وأنها كانت خالةَ لمحمد الأمير الحالي، وأن أبناءها هربوا في أوقات الاضطرابات، ولا يزالون يقيمون في الديار الشمالية. عندما ذكرت اسم الأمير تحدثت بهمس، ناظرةً على الدوام نحو القصر وكأنها تخشى أن تحمل نسمات الهواء كلماتها إلى سمع الأمير. وقفت ابنتها البالغة إلى جانبنا تسحَن التمن في هاون خشبي كبير، ولقد دهشت أن أراها غير متحجبة؛ وهذا ربما لأنها غير متزوجة، أو ربما لأن المسلمين لا يغارون من النصراني. توهجت وَجْنَتا الفتاة الجميلة عندما أجهدت نفسها؛ ولم أر من قبل مثل تلك البشرة النضرة في أي امرأة من البدو، فجميعهُن هزيلات، لا دماء في خدودهن، ولكنها كانت قوية البنية، تربت في الديار الشمالية الغنية. قمت بتعداد بيوتهم فكانت ثلاثين بيتًا؛ وبالقرب من بوابة قفار كان هناك خمسة عشر بيت شعر آخر، لشبه المقيمين من شمّر، منصوبةً دون أي بناء طيني.



وجدت عند عودتي من سمراء ظهيرة ذلك اليوم أن موضوع زيارتي له قد أصبح موضوع حديث في البلدة. وأول أشخاص التقيت بهم اقتربوا منّي ليسألونني عما وجدت هناك؟ أخبرنا! لابد أنك ذهبت إلى هناك لترى شيئاً مهماً؛ وإلا لماذا تسلق النصراني تلك الجبال العالية، ودفع بنساً أجرة للحمار الذي حمله؟ وحينما مررت بالسوق أشار عدد من التجار إليّ من داخل دكاكينهم فهم أيضاً يريدون التحدث معي عن المغامرة.

سوف لن يجرؤ أصدقائي القدامى بعد هذه المغامرة أن يظهروا علناً في صحبة النصراني خوفاً من أن توجه لهم تهمة موالاة الكافر. وبينما كنت في اليوم التالي أتجول في البلدة جاء أحد رجال الأمير ليستجوبني: إن معظم هؤلاء الشباب الأنيقين الذين يمكن التعرف عليهم من خلال معاطفهم الحريرية اللماعة هم أكثر الأرواح وضاعة في حائل. وبفظاظة واستعجال جذب عباءتي وقال: "خليل، ماذا تفعل هنا بعيداً عن السوق؟ لماذا تجول في هذا المكان؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟ عَمَّ تبحث؟ وهل حائل بلدة زينة؟ وهل الهواء جيد؟ ومتى ستغادر؟"

حينما قفلت عائداً ثانية حياني بودّ بدوي كان يجلس في الطرف العلوي للمسحب، وكان من شيوخ قبيلة ولد علي [العنزية]، سبق وأن رأى النصراني في الحجر. جلست معه، وجاء إلينا شاب آخر من أصحاب المعاطف اللامعة، متسلحاً بثقة الأمير الوقحة. قطع الديك الصغير بازدراء حديثنا، فقاطعته: "اذهب أيها الشاب، إن أُذُنّي يؤلمانني من حَديثكُم الذي كله جهل وحقد." غادرنا الشابُّ غاضباً، وعندما ذهب، قال البدوي الودود "ياخليل، من منطلق العشرة (الصداقة) التي بيننا أقول لك، لا تتعامل بصراحة تامة مع الحضر؛ وصدقني أنهم سوف ينقلون كلامك، وهذا الذي

طردته الآن سوف لن يكُفَّ عن بغضك الشديد، وهو والله من عائلاتهم الكبيرة، ومن المقربين إلى الأمير ، أي نعم! إن الحياة هنا هي غير التي تعوّدت عليها في الصحراء، إننا هنا لسنا في الصحراء، وليس هؤلاء هم البدو. " وكان يبدو هو نفسه، كمبعوث لقبيلة متمردة، أنه مرعوبُ نوعاً ما من ظلال الطغيان التي تعُم المكان.

بعض الأشخاص الودُودين الذين جاؤوا لزيارتي، بعد أن انتقلت من منزلي القديم إلى المخزن التالي، قالوا لي: "إنك الحكيم الثاني الذي نشاهده في هذا النُّزُل" . - "من كان الحكيم الآخر من قبلي في هذا المكان؟" - كان مغربيّاً، طبيبًا بحق، (أي أحسن مني)، ليس له مثيل في كتابة الأحجبة، وكان يتقاضى ثلاثة ريالات عن كل حجاب: - "لماذا يا خليل لا تكتبُ الأحجبة؟ اكتب، يا رجل، وستكون كل حائل عند بابك، وكل واحد منهم يحمل دولاراً أو دولارين أو ثلاثة في يده. وقد تغتني سريعاً، أكثر مما تطمحُ إليه الآن من بيع الأدوية هذه، إن العرب لا يريدون أدوية. وكان المغربي يمسك أحجبته لبرهة في الدُّخان، ويسلمها إلى من يدفع له الريالات، وقد وجدها الناس ذات نفع كبير. وإذا كانت تلك هي أحجبة المغربي، فكيف هي إذاً أحجبة خليل النصراني الذي يستطيع أن يكتب حتى أفضل منه؟ - آه! كيف كان ذلك الرجُلُ قوياً في قراءته! لقد كان يطرُد الشياطين من الأشخاص الملبوسين، ويربط الجن في الرُّكن هناك" . سألتَ: "ماذا يربطُ في الركن" ؟ أجاب: "أهل الأرض (الذين يسكنون باطن الأرض)، الذين يمرضون الناس، والذين يصابون بمَسٍّ منهم يأخذون بضرب أنفسهم، أو يَخُرّون ساقطين، هائجين وزابدين. "

أحضر لي جاري علي العيد، الذي كان مُمْتَناً لي بشأن خدمة طبية قدمتها

له بإخلاص، مصباحاً يعمل بالشَّحْم الحيواني قائلاً إنه لن يَدَعَ صديقاً لينام هنا في الظلام، فالشياطين قد تعترك معي وتلبسني، ومتلفتاً حوله قال: "إن هذا المخزن مملوء بالجن (مع أن المغربي قد طرد الكثيرين منهم)، فأنا شخصيّاً لا أجرؤ على النوم في هذا المكان". فقلت: "ولكن قل لي من شاهد هؤلاء الجن، وما هو شكلهم؟" أجاب: "لقد شاهدتهم ياخليل، بعضهم طويل، والبعض الآخر قصير، أشكالهم مُرعبة؛ وبعضٌ منهم له عين واحدة فقط في منتصف الوجه، ووجوه جن آخرين مَمْطوطة بانحراف في شكل مُخيف مُرْعِب، أو إن وجوههم قصيرةٌ ومستديرةٌ، وشفاه الكثير منهم متدلية حتى منتصفهم." في صباح اليوم التالي جاء علي العيد إلى بيتي مبكراً ليرى كيف جرى الأمر معي، وعندما رأى أن ما مقداره ساعة لم يحترق من المصباح الزيتي، نعتني بالأحمق العنيد لأنني نمت دون ضوء. ولكنه وهو يشيرُ إلى أعلى، أطلعني على شيء أسوأ، فالعارضة الكبيرة في السقف كانت نصف مكسورة في وسطها! فالسقف الطيني آيل للسقوط، ولذلك فإنهم لم ينزلوا أحداً هنا في المدة الأخيرة. ولكن حتى ذلك المخزن المهجور لم يوافق حُمود على إسكان النّصرانيّ فيه إلا على مضض. وربما إن أغصان النخيل في بستان حمود، والتي يرونها ليلاً تتمايل مثل أشباح عبر النافذة المفتوحة، هي جن ضمائرهم القلقة. خلال النهار كانت العصافير المزقزقة في المسحب هي الزائرة لي، وأكثر من أي شيء آخر، كانت رفقةً أنيسة.

لقد وجدت أساتذة في كتابة التعويذات (كما سبق وذكرت) في حائل: لقد كانا شخصين كريهين وكاذبين. أحدهما كان رجلاً مسناً؛ كنت قد رأيته في قهوة عُبيد، وقد فاجأني بنوعية إجاباته، وبمعرفته للكتابة: كان هذا الشخص أجنبيّاً من شرق نجد، ويسكن في قفار. كان يبدو خائفاً أن يجيبني على

أسئلتي في ذلك الحضور؛ وربما لأنه كان لا يجرؤ أن يتحدث بصراحة، أو بصوت عال. وذلك الآخر كان شاباً من حائل، حضر ذات يوم، خفيةً إلى مخزني ليتعلّم إتقان ذلك الفن من النصراني. سألني عن طريقتي في كبح زمام الجن وتقييدهم، وعن الأدعية التي أستخدمها في قراءتي. وذكر أن لديه كتاباً أيضاً في منزله مملوءاً بقراءات قوية، وأنه تعلم بسرعة منه، إذ إنه الأحسن في طرد الجن. لقد كان هذا شخصاً رقيقاً، حَبَتْه الطبيعية بكل شيء، ولصوته الرّخيم كان يتم استدعاؤه (وقد تفاخر بذلك) في بعض الأحيان ليغني أمام الأمير.

عاش المغربي في حائل بمهنته المتهورّة بحظوة، وجنى الكثير من المال، وزوجوه أيضاً أرملة جميلةً، "وأين له أن يعيش دون حياة زوجية؟" في أحد الأيام جاء عبدالله وهو عبد من عبيد الأمير بعرض مُشابه للنصراني، كما أراني ماجد فتاةً حبشية جميلة من جواري والده، قائلاً، بأنني إذا ما وافقت فإنها ستصبح لي. كانت الفتاة المسكينة رقيقة وخجولة وراضية، ولكن ولأنني لن أُسيّرَ حياتي على ذلك النمط من الحياة رفضت ذلك العرض، وقد عزوا الأمر إلى العقيدة المسيحية، مع أنني كنت أكثر تسامحاً في باقي الأمور. لقد شاع أن الأمراء في حائل يحابون النصراني وله حظوة عندهم، وانتشرت هذه الشائعة بواسطة البدو العائدين من العاصمة في جميع الأنحاء المجاورة من الجزيرة للعربية؛ وفيما بعد لم أذهب إلى أي مكان في الجوار إلا وعرفوني بالوصف إلى أن وصلتُ إلى قرى القصيم حيث لم يسمعوا عن النّصراني المتجوّل. أخبروني أيضاً عن نصراني (أحد السوريين على وجه الاحتمال أو من بلاد الهلال الخصيب)، جاء إلى حائل قبل سنوات مضت، وقد استولى على أموال الناس لقاء تطعيم مزعوم. "ولكن الله قد قطعه، كما قالوا، إذ

قابله الأعراب في الصحراء وقتلوه . "

كـانت ممارسـتي للطب قليلة ، ولكن على الرغم من ذلك فـإن هذه المهـنة هيأت لي الدخول وسطهم ، والأصدقاء الأوفياء . لا يوجد رجلٌ من رجال مهنة الطب في نجد ؛ ولكنهم على وجه العموم كانوا يرون حكيماً أعجمياً في حائل يأتي ضمن قافلة الحجاج الفرس السنوية . لقد تم استدعائي لزيارة بعض المرضى ؛ وعلى الرغم من ذلك ولأنهم لـم يتـركـوا مـعي أقل قـدر من الثـقـة بحسن نواياهم ، فقد بقيتُ دون مرضى يوميين . أرسل إليّ حُمّود الآن ابناً له رضيعاً يُسمى فيصل ، وكان يبدو ذا هيئة حسنة جداً . وكان مريضاً بالحمّى والدوسنتاريا . لقد تركت الطفل الذي أحضروه إليّ ذابلاً ، وكان من المحتمل أن يموت ، وقد استعـاد صحته بالكامل تقريباً عند مغادرتي حائل . كما تم استدعائي لمعالجة زوجة حمود في منزل عائلته . وجدتها ، مثل أي امرأة عربية أخرى ، ترتدي ثوباً من القطن فضفاضاً مصبوغاً بالنّيلة ، ووجهها مغطى بخمـار ؛ وأعطيتـهـا دواءً ، وشـفـيت خـلال بضـعـة أيام . ومن بين جـميع أمراضهم ، فإن الأكثر شيوعاً (كما رأينا مسبقاً) هي أمراض العيون ، التي يصاب بها سريعاً الفقراء الذين يعانون من سوء التغذية ، ثم أمراض الأمعاء ، والملاريا ، وروماتيزم التـقـدم بالسن ؛ والرجـال غـالبـاً مـا يشكون من عَدم المقـدرة . وداء الملوك (Morbus Gallicus) [النقـرس] مـرض شـائع في حـائل وفي الجوار ؛ وقد شاهدت الكثيرين من المصابين بوسواس المرض [إنهم يمثلون ثلث سكان عـرب الجزيرة العربيـة] . ورأيت حـالات من البـرص المفـاجئ ؛ حيث يصـاب الجلد ببقع مُبيضة ، تزداد في مدى يومين أو ثلاثة في الصدر والرقبـة . والسرطان لـم يكن غيـر شـائع ، وكذلك الشلَل الجزئي مع ضـمـور الأطراف السفلية .

استفسرت عن تاريخ تأسيس القصر؟ الذي على الرغم من أنه مبنيٌّ من الطين له طابع فني راق. يقارب سمك سوره ثمانية أقدام عند الأرض، وأكثر من أربعين قدماً في الارتفاع، ويبدو أنه يحتل مساحة كبيرة. لقد قمت بقياس مبنى هذا القصر من جهة المسحب، فوجدت أنه يبلغ مئة وعشر خطوات وبه برجان. ومدخل القصر الواقع تحت البرج الموجود في الوسط يغلق عند المساء بباب من الخشب الثقيل، به بويْب صغير لا يدخله المرء إلا منحنياً، ويغلق أيضاً قبل حلول الظلام. إن سور وأساس هذا القصر الضخم موضوعة منذ عهد قديم، وضعها الشيوخ السابقون (من المؤكد أنهم كانوا رجالاً ذوي بصيرة) في حائل قبل عبدالله ابن رشيد. ويبلغ اتساع المسحب الموجود أمام القصر خمسًا وعشرين خطوة، والمخازن المبنية كبيوت ضيافة المواجهة للقلعة عددها تسعة [انظر رسم مخطط وسط حائل]. لكل مخزن باب بقفل من الخشب، ويفتح على فناء صغير خلفه مجلس للضيوف بدون باب، واسع ومُظلم، حوالي الخمسة عشر قدماً في اثني عشر قدماً. وإذا ما أرادت أية جماعة من الضيوف وقودًا في أيام الشتاء القارسة فلابد لهم أن يطلبوه مباشرة من الأمير عند عقده لمجلسه العام. لقد بنى طَلال المخازن والمسجد الكبير؛ وأكمل والده عبدالله بناء القصر، قبل سنة واحدة من وفاته. إن الطين المستخدم في بناء المنازل في حائل يُعد في طبقات سَميكة، توضع عليه بلوكات الطوب المسطحة، كالتي رأيناها في موقق، والمجففة لمدة طويلة في الهواء وتحت أشعة الشمس، وترص مائلة. وهي ثقيلة، وذات قوة وتحمل كبيرين. وتكسو أفاريز مائلة جدران وفتحات نوافذ المنازل في حائل، وهي تشبه الأفاريز الغريبة المنحوتة في الواجهات الأمامية للمواقع الأثرية في البتراء والحجر.

بدت لي شوارعهم وأنا قد جئتُ بعد طول عيش في القفار، مخططة بصورة جيدة؛ والمنازل تتكون من طابق واحد. لا يوجد أي مظهر من مظاهر الخراب فيها، بل مظاهر التحديث والنمو والإنفاق: إن عاصمتهم، كما هم سكانها، تكتسي الغنى والجمال. وتنقسم حائل إلى أحد عشر حيّاً، والحي الثاني عشر هو السويفلة. إن جميع أماكن الاستيطان في بادية الجزيرة العربية وحتى القرى الصغيرة منها، التي تحوط بها الصحراء النظيفة، تمتاز بشيء من النضارة وحسن المظهر، أكثر مما يلاحظه الرحّالة القادم من الغرب في سورية. إن القرويين من ذوي الأصل البدوي سعداء (فالسلام الرباني غير مشوب بالتناحر بين الأحزاب) تحت ظل الحكومة المعتدلة و العادلة لشيوخهم المولودين بين ظهرانيهم؛ ويتمتعون بكثير من العقلية الحرة والمدنية في جزرهم المخضرة بأشجار النخيل. في حائل وتيماء قد تلاحظُ عينا الغريب بعض الفتحات الصغيرة التي تأخذ شكل مثلث ذي زاوية قائمة، في أعلى الجدران الخارجية للعديد من المنازل؛ كما سيراها فوق المداخل. إن تلك كوات لإطلاق الرصاص (مثل كُوّات إطلاق القذائف على المهاجمين في حصوننا القديمة) للدفاع عن باب المنزل.

أما في ما يتعلق بإدارة البلدة، فليس هناك رسوم في حائل لصيانة طرق، أو لإنارة عامة، – هذه الأشياء غير موجودة حتى في دمشق – وليس هناك الكثير من الحُرّاس: ومع ذلك فإن الشوارع نظيفة، والقاذورات تجمع في حُفَر معينة، وفي أماكن جانبية. ومياه الري يتم سحبها بواسطة السواني من آبارهم العميقة، التي على الرغم من أنها ليست الأفضل، إلا أنها متوافرة في السبيل وفي القنوات؛ وإلى هذه الأحواض العامة تلجأ ربات البيوت في البلدة لملءِ أوانيهن وقربهُنَ، وللغسيل المنزلي. إن الكلاب لا تُرى في أي قرية من قُرى

نجد خلال النهار، ولكن بعضاً من الكلاب الضالة التي تبقى خارج الواحة تجوبُ شوارعهم ليلاً. ومن الحيوانات الأليفة المنزلية هناك في كل قرية تقريباً أبقار قليله لحليبها، وكحيوانات خفيفة للحَرْث، وحمير للركوب والاحمال، وقطط للقضاء على الهَوَام، علاوة على الدواجن.

إن الصناع المهرة قليلون في حائل، وهم من طبقة الحدادين العاملين في المعدن والخشب، ومنهم من يقوم بصنع الأواني اللينة. يختلف سَرْجَ الذلول هنا عنه في تيماء والمناطق الغربية من الجزيرة العربية، حيث إن أعمدته موضوعة في شكل منتصب إلى الأعلى. وهناك صناعة خفيفة وسط النساء من حياكة وتطريز، بالخيوط والإبر، للعباءات التي يتم جلبها من الجوف ومن بغداد (في قطع كاملة)، ولا شيء منها يتم صُنعه هنا. لقد شاهدت في السوق نوعاً رفيعاً من الخيوط الحريرية، ملفوفاً في ورق صحيفة مطبوعة، ويقوم أصحاب الدكاكين التي تبيع ذلك النوع من الخيوط في أغلب الأوقات بوضع الصحيفة بين يديّ لأقرأ لهم؛ ولم تكن لغتها إلا اللغة الإنجليزية! وكان اسم الصحيفة "بومباي غازيت". كما تقوم نساءهم بعمل حصائر المنازل الشعبية من سعف غرائس النخل، مثلما هو الحال في جميع الواحات. علاوة على ذلك هناك قليل من الرجال من مهَن البنائين والنجارين، وهم عمال غير مَهرة، وتقريباً دون أدوات للمهنة، ويعملون في الجص أو الجبس، وهو حجر جيري يتم جلبه من الجبل، ويكون على شكل كتل متلبدة مثل الملاط في رمال الصحراء. ويقومون بحرق هذا الحجر ثم بتكسيره وبسحقه إلى أن يصبح بودرة كالدقيق، ثم يخلطونه بالماء ويبسطونه على جدران مواقد النار. يَجفُّ هذا سريعاً ليكوّن قشرة بيضاء لامعة كالرخام، ويصبح قادراً على تحمُّل النار. وجامعو الحطب والقش الذين يذهبون بعيداً في القفار، قصمان، عمال

أجانب من القصيم، أما الحضر في جبل شمَّر، ذوو الخلفية البدوية لا يصلحون لمثل هذا العمل الشاق.

ذهبتُ خارجاً من حائل في يوم آخر في اتجاه السويفلة. وبعد الوسيطاء مشيت إلى جانب حقول حيث كان الرجال يعملون، وقذف أحدهم الطين على النّصراني، ولكن الباقين منعوه من ذلك العمل؛ وذهبت إلي ما بين السمراوين، وإلى جانب قاع سَيْل واسع، موجود هناك، نصف مغطى بالصخور. وكانت التربة طفالية خصبة وليست من الصخر الرملي الجرانيتي الصلب الذي تتكون منه تربة حائل؛ والتمور هنا جيدةٌ، الأفضل في البلاد. والمنازل الأولى التي وجدتها كانت خرائب ليس إلا، ولا أسقف لها، والزراعة من حولها مهجورة، وجذوع النخل الهزيلة تحمل تيجانًا من الأغصان الذابلة. لم أتصور أن أجد إنساناً من الأحياء في هذه الحقول، التي كانت فيما مضى مزروعة على كلا الجانبين لقاع كبير لسيل جارف. لقد حل بهم الوباء الذي دَمّرَ قرى الجبل بعد سنة مجاعة، حيث فشل محصول النخيل، وارتفع ثمن الذرة (ثلاثة أصواع للريال) إلى أكثر من الضعف. يبدو الأمر مُستغرباً لنا، نحن المعتادين على المساعدات العامة لمواجهة الأخطار، إذ كيف أن لا أحداً من التجار، ولا حتى الأمير شخصيّاً، كان عنده الاستعداد لجلب الدواء من مسافة بعيدة. عندما ضربهم الوباء مات في خلال شهرين في هذه القرية الصغيرة مئتاً شخصٍ، والقلة الباقية حتى الآن في السويفلة أضحوا ضعفاء، وفقدوا صحتهم، للدرجة التي كان يقال عنهم "إنهم بالكاد يتحملون ثيابهم." كان المرض الفتاك القاسي يصيب الرجال أسرع من إصابته للنساء والأطفال.

وفي النهاية وصلت حيث كان بضع أشخاص يجلسون خارج بيوتهم؛

فحيّيتهم في أثناء مروري، وسألت "من الذي لديه مجلس قهوة هنا؟ وأين السكان؟" وعندما أدركوا أن من يسألهم غريب ردّوا في سخرية لاَذعة "إنهم يرقدون هناك في المقبرة!" تقدمت إلى حيث سمعت صوت سَواني. كانت هناك امرأة (لأن الرجال قد تُوفوا) تقودُ مجموعة جمال عند البئر. عمق الآبار هنا ثماني قامات وجميعها مالحة الماء، ومياه الشرب العذبة لابد وأن تنقل من حائل "مقابل النقود". إن المياه المالحة في التربة الحُلوة هي الأفضل لري النخيل؛ ولكن إذا امتدت جذور النخيل إلى أي تُربة مَالحة أو مُرة، مثلما هو الحال في خيبر، فإنهم يحتاجون إلى ريّها بمياه عذبة: ودائماً لقليلٍ من الملوحة في التُّربة أو الماء أثر في نمو زراعة النخيل. إنّ شُربَ مثل هذا الماء في هذا المناخ أمرٌ ضارٌ، وأنه كان ـ كما يعتقدون ـ سبباً في موت الكثيرين هنا إبان وباء الطاعون. ويذكرون بأنه في الزمان الماضي، حينما كانت السويفلة هي حائل القديمة، كانت آبار هذا الجزء عذبة، لكن الزراعة الجديدة، التي قامت حولهم استنفدت شريان المياه الصالحة. قام أحد الرجال بقيادة الغريب في حفاوة إلى أفضل منزل تبقى لشرب القهوة. دخلنا غرفةً بائسةً من الطين، لم يتم كَنْسها منذ زمن طويل، وفي الشمس جحافل من الذباب؛ كانت هذه هي قهوتهم. كان الرجال الثلاثة أو الأربعة الكالحون الشاحبون كالموتى ويتحدثون بوهن و تبعونا إلى شرب القهوة من الناجين من الوباء في الحي؛ وكان يبدو وكأن الكابوس المخيف ما يزال جاثماً عليهم. استقبلوا الضيف بلطف، وفي الحال وضعت صينية من تمورهم الممتازة أمامي. يقال إن قرويي السويفلة لكرمهم هذا وروحهم الطيبة يماثلون البدو أكثر من سكان حائل. وكان يكفيهم أن يعرفوا أن الغريب كان حكيماً، إذ لم يثيروا أي نقاشات تافهة مع الضيف أو يسألوا عن دينه.

بينما كنت أجلس معهم في القهوة، دخل شاب أصم وأبكم حاملاً سيفه، وقد كنت أعـرفه من حائل، إنه أحد رجـاجيل الأميـر المسلحين: وبإشارات عنيفة وصرخات مكتومة أوضح لنا بأنه جاء من حائل بحثاً عني. كان البائس المسكين يحتـرمني دائماً في البلدة، وهو لن يفعل أي شيء يُزعـجني. لقد شاهدته يُهـدّدُ حتى مـاجد في غرفـتي بنظرات غاضبة، ويُلوح بعصاه على الصبي الأميري، لأنه اعتقد أنه يُضايقُني ويَتَحرَّشُ بيّ. لقد قام بإشارات - راسماً أصبعه السبابة مقاطعاً لحلقه - تعني أنه يخشى على حياتي، بتجولي بعـيداً هكذا. وطوال الطريق إلى المَنزل كـان المسكين يؤنبُني، وكـأنه يودُّ أن يقول "لماذا تُخاطر بحيـاتك بعيداً لوحْدك هكذا، وأنت في خطر أن يقضى عليك؟" أوضـحت له باستـخـدام الإشـارات بأنني ذهبتُ لزيارة مَـرْضى يحتـاجون إلى أدوية. وفي مكان منخفض مررنا به أراني وهو مبتسم بضع نخلات وحقلاً كان ملكاً له. لقد سمعتُ أنه كان غريباً (مثل العديدين من رجال الأمير) من العارض. وعند وصولي إلى حائل لأول مرة، أخبروه بأنني لستُ من ديانته، أسرع بتقديم نصيحته الودية، بأنه يجب عليّ أن أُصلي مثل الآخرين. عبر المسكين الأبكم عن نفسه بـ "البأبأة"؛ وهذا تقريباً هو أول صوت يتلفظ به الأطفال والمخلوقات الصماء. لقد أصبح كل ما ينطقه هذا الرجل مفهوماً لأهل حائل، وكان يجيبهم بحركات بالشفـاه كما لو كان يتكلم. ومن مقارناته الحزينة والتواقّة للكلام طوال حياته، فإنه يستطيع أن يخمن ما يدورُ في أذهانهم وما يعنون، ولكن إذ سَخر أحدهم منه فإنه بانفجار كبير من "البأبأة" واصطكاك الأسنان، وبعينين غاضبتين، واضعاً يده على سيفه، أو يستله فجأةً من غمده إلى المنتصف ويهـدّدهم. ربما أن معاناته الطويلة من خبث هذا العالم خلقت عنده الإرادة على حماية نفسه. ويقال إنه

يركب ذلوله في غزوات الأمير ويبلي بلاء حسناً.

التقيت عند عودتي للبلدة مع ماجد ورفاقه وهم يحملون البنادق في الحقول، وكان معهم عمه فهد. هكذا يخرجون يومياً للرماية، حث يصوبون ويطلقون النار على ورقة بيضاء معلقة على جدار بُستان يبعد عنهم مئة وعشرين خطوة. جلستُ مع فهد لأشاهد التمرين؛ كانت طلقات بنادقهم العربية العتيقة تَحيد أصابع قليلة عن الصحيفة ويندر أن تصيب الهدف. كان أفضلهم في الرماية غانم، الذي حينما يكون معهم، فإنه يرسل طلقته الأولى، ناظراً من خلال نظاراته، مباشرة إلى منتصف الصحيفة البيضاء؛ وكانوا يستخدمون في بنادقهم بارودًا إنجليزيًا! إن هناك العديد من البضائع التي تأتي عن طريق البحر إلى الخليج ومنه إلى حائل، والناس لا يهتمون كثيراً من أين تأتي إليهم، مثلما هو الأمر في بلادنا بالنسبة لصناديق الشاي الصينية. إن هناك كثيراً من الأشياء الأوروبية التي يحتاجونها كثيراً، مثل المجارف، والعتلات، وكُتل من معدن الرصاص، والحديد، والصفيح المعدني؛ وملابسهم من قماش قطني من مانشستر وبومباي. وجميع معاملاتهم بالعملات الأجنبية؛ ريالات إسبانية، ودولارات "ماريا تريزا"، وكرونات "المجيدي" التركية، أما العملات الذهبية فمعروفةٌ لديهم بالسماع أكثر منها مرئية. ويطلقون اسم "دوبلون" على فئة الجنيهات الخمسة التركية، و"السوفرين" الإنجليزي "جنيهات" أو "بنتو"، والورقة فئة العشرين فرنكاً "ليرة فرنساوي". وبالنسبة لقطع الفضة الصغيرة في سوق حائل فإن لديهم قطع البنسات الستة النمساوية، وبعض قطع النقد المعدنية الفارسية، المضروبة بانحراف، لسهولة صنعها، مثل الأختام في العالم الإغريقي القديم. ولحبهم للإبداع الذي هو أمر طبيعي حتى للأرواح السَّاميَّة، فإنهم أيضاً قد استوردوا

مع بضائعهم الأجنبية بعض الكلمات من الخليج؛ لاسيما من الفارسية، مثل قولهم "شِتَرْ" للناقة بدلاً من ثروتهم في اللغة العربية المعاصرة، هِجن، ذلول، رِكاب، هدوج، مطيّة، رحول، حاشي، حرة.

وجه ماجد لي الدعوة للمشاركة في رحلات الصيد في جبل أجأ إذا ما بقيت حتى فصل الشتاء. ففي ذلك الموسم يذهبُ مُلاك الأرض ورجال حائل، وحتى الأُمراء إلى الجبل لكي يصطادوا البدنَ [الوعل]، سائقين معهم حميرهم لحمل الماء، ويبقون في العادة لمدة أسبوع هناك، آملين في اصطياد ما يتغذونه. في الكثير من وديان أجأ الصغيرة توجد أشجار نخيل بريّة تُسقي من مياه الينابيع، أو تنمو جذورها في أرض السيل. ومالكوها هم من البدو الذين يأتون فقط وقت جداد التمر: إن تمر هذه الأشجار أصغر حجماً من تمر النخيل المزروعة في بساتين يعتني بها المزارعون. وتنمو في أجأ شجرة تُسمى العَرْعر يخرج منها نوع من علكة المستكا، وهي تشبه شجرة الإثل. إن جبل أجأ أكبر من شقيقه جبل سلمى ويمتدُّ إلى أميال أطول.

كنت أرى حُمود يوميّاً؛ وذهبت مرة لأتناول الأكل معه، وبينما كنا جالسين في المساء قال لي: "أليس هناك شيء مكتوبٌ في الإنجيل عن: [النبي] محمد [ﷺ]؟" - "كلا، لا شيء، وأنا أعرف كل ماورد فيه" - "ولكن أليس مذكوراً أن نبياً يأتي من بعد اسمه أحمد؛ وذلك هو محمد [ﷺ]؟" أجبت باقتضاب "كلا، لا يوجد شيء من ذلك". جفَل حمود، الذي صدّقني، إذ أقنعته إنسانيته أنني لا يمكن أن أقصد إساءة للدين. وقلتُ مضيفاً؛ "لو كان ذلك موجوداً في الإنجيل لكنتُ مُسلماً؛ هل تقرأ ذلك الذي ورد في القرآن حول الموضوع!". لم يرد حمود، بل جلسَ بهدوء مستغرباً. لقد كان الأمر لُغزاً بالنسبة لي ما قد يَعنون بنبوءة عن "أحمد" أو "محمد"

(وهما واحد) في المخطوطات المسيحية - إننا نقرأ في السورة ٦١ من القرآن، الآية ٦ : ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ . ولذلك فإن المسمى "أحمد" أو المجيد تعني في اللغة اليونانية الجديدة أو المخطوطات الأغريقية كلمة "المُبين" Περικλυτός. ولذلك فإن علماءهم يقولون بأن النصارى الماكرين حرفوا Παράκλητος المعزي (وهي الكلمة التي وردت حقّاً أربع مرات في الوصايا الأخيرة للمسيح، من الفصل الرابع عشر إلى الفصل السادس عشر من إنجيل يوحنا).

كان حمود يستمتع بالسؤال والحديث حول ديننا؛ وكان يبتسم باعجاب وهو يسمع النّصراني الغريب، يرددُ بعده بعض الآيات من قرآنهم، التي يقولَ إنه يحفظها تقرباً إلى الله، مثل سورة "الفاتحة" التي تُقرأ عند بداية صلاتهم، والتي تبدو عند تلاوتها بالطريقة النجدية بأن لها وقعاً جميلاً ومهيباً مثيراً للدهشة. كان حمود ذا قوة تحمل وتسامح لا توجد في غيره، حتى في مسائل دينه الرسمية: كان الدين عنده دين (سياسة) للحكام. في أرضه الخاصة بزراعة النخيل، والتي لا قهوة فيها، لديه مصلى ، كما هي العادة في البلدة؛ وهذا المكان عبارة عن منبسط مرتفع مربع الشكل مبني من الطين وبكورنيش منخفض، ومنثورة عليه حصباء نظيفة، والمكان كبير للدرجة التي يمكن لجماعة القهوة أن يصلوا فيه. يؤم حمود الرجال الذين في خدمة منزله في صلواتهم خلال النهار في هذا المصلى. في أحد الأيام أثناء أدائهم للصلاة، قام عليٌّ الحارس اللصيق لماجد بوضع يديه على عباءتي فجأة ليجُرَّني إلى وسطهم؛ ولكن حُمود بقي بصلاته والتفت يبتسم نحو أحدهم، وبإشارة منه منع أن يتم تعريض الغريب إلى أي نوع من المضايقة. في جميع أفنية المنازل

في حائل وفي بساتين النخيل، يبنون مثل ذلك المصلى؛ ربما أن ذلك من آثار الوهابية الإصلاحية في نجد، وقد رأينا أماكن مشابهة للصلاة في الصحراء المكشوفة، محوطة بأحجار. إن كل مصلى من هذه الأماكن المخططة للصلاة موجه نحو القبلة ومفروش بالحصباء النظيفة.

بعد مضي أسبوع عاد الأمير محمد من الصحراء: وفي نهار اليوم التالي استدعاني بعد انتهاء عقد المجلس: وجدني حاجبه الذي أرسله أغفو في مخزني، حيث كنت في حالة من الخمول ومن الانهاك والاحباط في هذه السنة الطويلة من المجاعة والتعب. أيقظني رجلُ الأمير في عجلة وعُنف على عادتهم: "قم، وتعالَ، إن الأمير يَطلبُكَ"؛ ولأنني تباطأت لألّبس منديلي وعباءتي، فقد أخذ التأخير ضدي عندما دخلت إلى المجلس، إذ إن العَبد قد قال للأمير: "إن خليلاً لم يكُن راغباً في أن يتبعه!".

كان محمد قد ذهب بعد المجلس مع "الرجاجيل" إلى قهوة عُبَيد. كان الأمير يجلس في المكان المعتاد لحمود، وجلس حمود في المكان الذي يجلس فيه سليمان يومياً. كان السيف وحيد الحدّ، ذا المقبض الذهبي، الذي يحمله محمد في يده، مسنداً إلى الجدار على جانبه؛ ويقال إن النْصلَ حاد، ومن الفولاذ المصفى. كان يجلس جلسة العربي، مرتدياً ثوبه القطني الفضفاض، والعباءة والمنديل، ممدداً ساقيه وقدميه، وصندله الذي خلعه عند البساط وضع أمامه. حييتُ الأمير السلام عليك فلم يرد: ثم سلمت على كل من حمود وسليمان اللذين قد أصبحا من المعارف الحميمين، ومع وعليكمُ السلام مُبتسمين، أشار أحدهما إلى المكان الذي كان يجب أن أجلس فيه أمام الأمير، الذي قال باقتضاب "من أين أتيت؟" - "من مخزني" - "وماذا تعمل هناك طوال اليوم، هاه! وماذا رأيت خلال الوقت الذي قضيته في حائل، هل كان

جيداً؟ " عندما قال الأمير، "ياخليل! " كان من المفترض أن أجيبَ "عَوْنك " أو "لَبّيكَ" أو "طويل العمر"! أمرُك؟ " ولكنني وأنا أشعرُ بشعور الأورُوبي وسط هؤلاء الآسيويين الذين لا يقدّرون ما يقولون، ومن التعب الشديد فقد لذتُ بالصّمت، وهكذا فإن الأمير الذي لم يرد على تحيتي التفت فجأة ليسأل حمود وسُليمان: "ما يرد؟ لماذا! لا يرُد حتى بكلمة لمن يتحدثُ إليه؟ " - رد حمود في لُطف نيابةً عني، إنه لا يدري، وربما أن خليلاً مُتعب. وبعد التردد قلت "لم يمض وقتٍ طويل لي في حائل، لكن أرى أنها بلدة في حالة حسنة! سَلّطَ الأميرُ عينيه العربيتين الأنثويتين الكبيرتين عليّ وكأنه يستغْربُ عدم الإطراء والمدح، والبساطة في حديثي؛ وقال فجأة في تشديد أمام الجميع "إيه، إنها كذلك!-وماذا يا خليل عن الهواء، هل هو صحي؟ " - " أعتقدُ ذلك - ولكن الذباب كثيرٌ"- "هُم! الذباب كثيرٌ جداً! وهل قمت بالحج إلى المدينة المقدسة (القدس)؟ " - "مرتين أو ثلاثة، وإلى جبل الطُّور، حيث جبل سيدنا موسى "- البعض منهم قال للأمير "لقد سمعنا أن رهبان النّصارى يقيمون هناك، وديرهم مثل قلعة في وسط الخلاء، والمدخل إليها عبارة عن نافذة في الجدار؛ ومَنْ يذهب إلى هناك لابد أن يُسحب بدواليب وحبال" [دير القديسة كاترينا في سيناء]. ثم سأل الأمير: "وهل يمتلكون ثروات؟ " فأجبته "إن لديهم عوائد من الصَّدَقات". نهض الأمير واقفا، وأخذ صندله، ووقف الجميع عند وقوفه - أشار إليهم أن يجلسوا في هدوء، وخرج قاصداً البساتين. في أثناء غيابه خيّم الصمت على جميع الحضور، وعندما عاد ثانية، جلس دون أية مراسم. سألني الأمير الذي كان يتبين ما يدور في ذهني من خلال إجاباتي: "هل التمر جيد أم رديء؟ "، وأجبته "بَطّال[سيىء للغاية]. " - "هل الخبز أحسن؟ "وما هو اسم الخبز في لغتكم؟ "رَدّدَ الاسم لنفسه والذي

سمعه بالتركية، ويعرفه باللغة الفارسية، لقد كان محمد في السابق قائداً لقافلة الحج الفارسي، ويستطيع أيضاً التحدث بتلك اللغة.

تحدث إليّ الأمير بأساليب وإيماءات العرب التي تنم عن عدم السرور، بتقطيب الحاجبين فجأة، ومدّ الرأس من العنق قليلاً وبحركة تشبه حركة الطائر، وعندما يكونون في نهاية كلامهم الساذج فإنهم يتوقعون منك الإجابة. كان الأمير مرتاحاً لي، ولكن جماعته من الشباب المتعصبين الحاقدين الموجودين من حوله على الدوام، كانوا دائما يطعنون في النّصراني. كان الأمير محمد أحسن منهم بكثير، إذ إنه كان ذا تفهم عال. وعندما كنت أجيب مؤكداً لبعض أسئلة الأمير على الطريقة البدوية قائلاً "وحياتك، قال حمود أترى؟ إن خليلاً قد تعلم التحدث (بالعربية) وسط قبيلة عنزة، فهو يقول بعض الكلمات بلهجتهم." - "وماذا يجب أن أقول، يا المحفوظ؟ إنني أتكلم حسبما سَمعْت من البدو." كان الأمير لا يرغب أن أسأله عن قواعد اللغة، ولكنه وهو يسمعني ألفظ لقبه المضبوط وهو "المحفوظ" (وهو لقب يشبه تقريباً لقب "الحامي" Protector الموجود في تاريخنا) قال في لطف "حسنا، أحلف بحياة الله!"، (بعد أن أصبحوا وهابيين، يعدون الحلف بـ "وحياتك" قول فيه شرك) أجبت نوعاً ما خارجاً عن إطار حديث الأمير، "وحتى البدو يقسمون بحياة الله ولكنهم يقولون "بحياتك" في الأمر الصغير." ولما لم يستطع الأمير أن يستخلص مني أي كلمات لطيفة، استعجل حمود وسليمان الدخول في الحديث، للمساعدة في الأمر وإيجاد العذر لي فقالا: "إن خليل اليوم ليس على ما يُرام، إن المسكين! يبدو مريضاً حقّاً!" - كنت قد قضيت معظم ساعات النهار مستلقياً في وهن على أرضية مخزني الذي لم ينظف حيث أبلغ الحاقدون الأمير بأنني أكتب عن بلده؛

لذلك بدأ جواسيس القصر يكررون زياراتهم ويدخلون فجأة عليّ ليروا ماذا يفعل النصراني، وبماذا يشغل نفسه ـ الأمير "ما هي أنواع أدويتك؟ ألديك ترْياق "؟ [وهكذا كان أجدادنا يقولون "تراكل "Treacle" ، المضاد لسُم "الثيرين"]. في هذا الوقت دخلت في حالة من الإغماء، وبدأ انتباهي يتشتت بعيداً، ولم يسعني إلا أن أقول ـ "ما هو الترياق؟ـ أتذكر بأنه ليس لديّ، والله لم يكن هناك شيء من هذا القبيل" . فقال سليمان: "إن خليلاً لديه الكثير من أملاح (الماغنيزيوم) الإنجليزية ـ أليس كذلك يا خليل؟ . عند هذه المرحلة، والأمير العربي مركزٌ كل أفكاره على السُّم، لم أعد أتحمل الابتسام ـ وهو إساءة أمام الحُكام. بعد ذلك بدأ سليمان يدعوني لأروي لذلك الجمع من الحضور عن القارة (الدنيا) الجديدة، وعما إذا كان يوجد تمر هناك، ولكن "طويل العُمُر" نهض فجأة وبغطرسة ـ وهكذا نهض الجميع معه وانصرفوا.

كلمة الآن عن العائلة الأميرية ودولة جبل شمّر: بدأت أول المآسي في بيت ابن رشيد عند عودة طلال من الرياض (تعود أن يذهب كوهابي إلى هناك كل سنة مع هدية من الخيل) إذ وقع مريضاً، "مُسَقّى" أي مسموماً، كما قيل، في شُربه، في شرق نجد. تدهورت صحته، ودخل الأمير في نوع من نوبة المانخوليا. أرسل طلال إلى بغداد طلباً لحكيم فارسي معروف. سافر الحكيم إلى حائل، وعندما زار الأمير، أدلى برأيه غير الحكيم: "إن هذا المرض ليس بمرض موت، بل إنه مرضٌ ممتد سيذهبُ بعقلك. " رد طلال "والله مجنون! وأنا الحاكمِ؟" وبسبب إبائه لم يعد يحتمل أن يعيش مثاراً للشفقة، وقام ذات يوم، بعد أن أغلق الباب على نفسه، بوضع مسدسه في صدره العريض وأطلق الرصاص وتوفي في الحال. أصبح شقيقه متعب أميراً على حائل،

بوصفه الأكبر سناً في العائلة الأميرية وارثاً لمنزلة والده عبدالله: تم تخطي أبناء طلال (شرعياً)، ومن بينهم بندر الذي اغتال عمه وأصبح أميراً على حائل، وكان آنذاك في السابعة عشرة من العمر. سمعتُ مراراً الثناء على متْعب بوصفه رجلاً ذا خلقٍ حسن، ولكن فهمه محدود؛ لقد كان أميراً وشعبياً في الوقت نفسه، بوصفه كبير عائلته، وسياسته تشبه سياسة شيوخ الأعراب، وحاكم سعيد الحظ. لم يجلس متْعب في الحكم لمدة عامين كاملين؛ و في حالة دائمة من الخوف من طموح وكُرْه ابن شقيقه بندر، الذي كان شاباً جلفاً عنيداً. تآمر بندر مع شقيقه الذي يليه بدر ضد عَمِّهما، لقد كان هذان الشابان الفظان مصممين على قتله.

كانا يعلمان أن عمهما يلبس في ذراعه "حجاباً يؤمن حياته ضد الرصاص" لذلك وجد القَتَلة الصغار وسيلة لصب طلقة من الفضة- جلس متْعب عند ساعته المحتومة مع أصدقائه ورجال حرسه المسلحين أمامه، في مجلس المساء، الذي عقده، كما قيل، في الجانب البعيد من المسحب، على بعد خمس وعشرين خطوة من القصر- تسلل بندر وبدر خفيةً من جناحهما الداخلي، إلى قمة جدار القصر، حيث توجد شرفة وحاجز. قام بندر وهو يصوب بندقيته العتيقة عبر فتحة صغيرة في الجدار باطلاق الرصاص أولاً؛ ومن المحتمل جداً أن تكون يده قد ارتجفت، إذ إن الأمر برمته كان يتعلق بتلك الطلقة، لذلك انحرف المقذوف قليلاً ومزق عمامة الشيخ ابن شعلان شيخ قبيلة الرولة العنزية الشمالية القوية، وغير الودية لابن رشيد، والذي كان قد وصل في اليوم نفسه من ديرته، لزيارة ابن رشيد. عندما سمع ابن شعلان الطلقة تئزُّ إلى جانب أذنيه، هَبّ واقفاً (وصَاح) واضعاً يده على رأسه، "اخس؛ يا المحفوظ، أتريد ذبحي!" الأمير، الذي استمر جالساً، ولم ينقذ

نفسه بهَرب مُخزٍ، رد على الشيخ بوجه لطيف لم يتغير "لا تخش شيئاً؛ إن الطلقة كانتَ مصوبة عليّ". طلقة ثانيةً أصابت الأمير في صدره كانت من بدر (٨).

أصبح بندر أميراً، ولكنه لم يجلس في حكمه لمدة عام واحد بالكامل (٩)، ولم يزدهر عهده: ففي عهده، كان ذلك الطاعون الذي دمّر البلاد. كان محمد الأمير الحالي، قد هرب إلى الرياض عندما سقط شقيقه متْعب، وعاش هناك لفترة من الزمن. كان الأمير الوهابي عبدالله [ابن فيصل بن تركي] آل سعود هو الوسيط للصُّلح بينهما، وأرسل بندر رسائل إلى عمه يَعد فيها بالأمان، ويدعوه ليعودَ إلى دياره. وهكذا عاد محمد مستلماً لوظيفته القديمة قائداً لقافلة حج بغداد. مَرّ محمد مع القافلة العائدة من مكة إلى بلاد ما بين النهرين، وهناك كان عليه أن ينقل مؤنة العام من التمن والحبوب للمَضيف (إذا تصدقون، حمل ألف جمل ـ ١٥٠ طناً!). وجد محمد أعراب الظفير عند "المَشْهَد" [مَشهد علي] فاستأجر الجَمال منهم، واعداً إياهم بسلامة المرور ذهاباً وإياباً في أراضي ابن رشيد، لأنهم كانوا بدو من الخارج، وليسوا على علاقة صداقة مع قبائل الجبل. كانت مدة الرحلة تستغرق مسيرة أسبوعين للجمال المحمَّلة. أرسل محمد وهو يقتربُ من حائل، رسولاً من قبله ليحيي الأمير وليقول له "إن محمد يحييك، وقد أحضر معه مطلبك من التمن للمضْيَف ـ "ها! قد جاء محمداً؟ أجاب بندر، إنه لن يدخُلَ حائل". بعد ذلك ركب بندر وبدر وحمود لمقابلة محمد؛ وأغلقت بوابات البلدة من ورائهم بأمر من بندر.

جلس محمد على ذلوله، عندما قابلوه، حيث جاء راكباً من الشمال، وخاطبه بندر قائلاً: "يا محمد، أي بدو أحضرت إلى حائل؟ "ـ" إنهم من

" الظفـير " !- " ألا تعرف أنهم قوم معنا [أعـداء لنا]! " ـ " والله يا المحـفـوظ ، حضرتهم بـ" وجهي " ، تحت ضمـانتي! (وحسب الطريقة العربية مسح بيده على أسفل وجهه حتى لحيته)ـ لأنني لم أجد أحداً آخر لحَمل التمن لك" . عندما دنا بندر منه ، قام حمود ، والذي كان على اتفـاق مع ابن عـمـه مـحـمـد بعمل إشارة له تعني بأن حياته في خطر ، ـ وذلك بوضع وتمرير أصبَعه السبابة على حنجرته (هكذا قيل) . تحدث مـحـمـد إلى أحـد رجال البلـدة الذي كـان على ظهر حصـان " يا هذا هناك! أعرني مُهْرك للحظة " مُمَوهاً وكـأنه يريدُ أن يذهب ليرى البوابة وتفريغ القافلة . وعندما استَقَر محَمد على ظهر الحصان ، توجه نحو الأمير الشاب وأمسك "بجدايله" (قرونه) ، وبيده الأخرى استَل الخنجر المعقوف العريض الذي يلبسونه في أحزمتهم خلال السفر . " لا يا عـمـيـمي ، لا يا عـمـيـمي! " صـاح بندر في رُعب وفـزع من الموت الوشـيك . أجاب مُحمد في صوت حازم مُميت : " ولم قَتَلْتَ عَمَّكَ؟ " وأهُو في بَطْنكَ" (أي أنت المسؤول عن دمه) ، وبتمريرة قاتلة من يده غَرَس النَصْلَ في أمعاء ابن شقيقه! ـ لم يتبق أيُّ خيار آخر لمحمد ، بعدما تلقى الإشارةَ ، ولابُد له أن يذبح الابن الأكبر لأخيه ، أو يَضيعَ هو نَفسَهُ؛ وهو لو حاول الهَرَب ، فأنّى له أن يَفْلُتَ من القتلة الشُبان؟ لقد كـان ذلوله مُنْهكاً ، وكـان هو نَفْسَهُ مُنْهكاً؛ وكان عليه والحال تلك أن يتخلى عن الظُفير الذين كـان قد أعطاهم كلمته الأمـيرية . قـاتل هو الطمـوح الواهن للحكم . لقـد كـان مـحـمـد رجلاً عـادياً مخلصاً تحت سلطة متعْب؛ وقد سقط شقيقه قتيلاً ، فماذا يتبقى سوى الانتقام له؟ وبالتالي يكون التاج له .

تم ذبح بندر ، ولابد من اجتثاث أسرته ، وإلا فإنهم سيشكلون خطراً عليه . لقد قاد شر القدر إلى تنفيذ هذه الجَرائم على يدي مـحمد ، أكثر منه طموحَه

اللعين . هذه هي مآسي عائلة ابن رشيد! كانت بدايتها من طلال قاتل نفسه : إن خطأ الواحد يمتدُّ بعيداً إلى من حوله، تلك هي الطبيعة الملعونة للشر . هناك من يقولون بأن حموداً قد عمل على التأكُّد من موت بندر بطلقة من مُسدس - إنه قد يُقْدمُ على ارتكاب مثل هذا الفعل، لأن قَدَرَه كان مُرتبطاً بحياة محمد : ولكن أشخاصاً من الثقاة في حائل أكدوا لي بأنه لم يكن لحمود يد في ذلك . انطلق حمود بعد هذه المقتلة مُديراً رأس فرسه إلى البلدة وأمر بأن تبقى البوابات مغلقة، وأن لايُدع أي رجل ليخرج أو يدخُل لأي سبب كان؛ وبينما هو راكب داخل المسحب أخذ ينادي : "اسْمَعُوا جميعاً! إن رشيدياً قد ذَبَح رشيدياً، - لا توجد لأي أحد منكم أي كلمة ليقولها! لا تدعوا أي رجل يرفع صوته، أو يثير ضَجّة، وإلا فأنني والله سوف أجتثُّ رأسه بهذا السيف . "

خيّم في حائل صمتٌ طويل، ولزمت الرعية منازلها ! البدو الذين كانوا في البلدة كانوا مَشْدُوهين، وهم سكان الخلاء، الذين لا أحد "يجرؤ أن يحجزهم "بأبواب مغلقة وقضبان" وهم يرون بوابات حائل تُغلق من حولهم .

بدأت في القصر مذبحة مُريعة، لأن محمداً قد أمَر بقتل جميع أبناء طلال، والأطفال الأربعة أبناء شقيقته، أرملة واحد من الجبر من بيت ابن علي (الذين كانوا في السابق في نزاع مع العائلة الرشيدية لتولي مشيخة حائل إلى أن كسب عبدالله بن رشيد كل شيء؛ ومنهم والدة محمد شخصيّاً) . تم تنفيذ أمر عمهم الدَّمَوي، وتم نقل الجثث المُضرجة بالدماء الدافئة، التي انتزعت منها الحياة، في الساعة نفسها ليتم دفنها؛ وتم كذلك قتل أقرانهم من العبيد المساوين لهم في العُمر، الذين شَبّوا في منازل والدهم، وهم بمثابة أخوتهم المطيعين، والذين يخشى بأنهم، في أي وقت، يمكن أن يكونوا

أدوات طيّعةً للانتقام لهم .

اهتـزت كل حـائل في ذلك اليـوم وحـتى صبـاح اليـوم التـالي عندمـا وقف محـمد في المسحب، مُستلاً سيفه، مخاطباً أولئك الذين كانوا يجلسون على المصطبات الطينية مرعُوبين ، ومُعظمهم كانوا من البدو، قائلاً: "يا مسلمين! إنني لم أكن لأتعامل معهم بمثل هذه الطريقة، ولكنني كنتُ أخشى على هذه (وضَـربَ بكف يده اليـسرى على جـانب عُنُقـه)، وحـينمـا أرادوا قـتلي أنا سَبَقْتُهـم. " وأضاف لاحقـاً: - "إنهم هم الذين قتلوا شقـيقي متْعب، هل تظنون بأنهم كـانوا سـيوفروني؟" ويحَـدثني شاهـد عـيـان من مطير قـائلاً: "ونحن نَسـتـمعُ إلى صـوته جلسنا تعـقـد ألسنتنـا الدهشـة، وكـلٌ يرى الموت الأسود الزؤام ماثلاً أمامه. "ثم جلس محمد في مقعد الأمير كحاكم. وخلال فترة قصيرة حضر أعيان حائل إلى المسحب مبايعين لسيدهم الجديد مباركين له استيلاءَه على السلطة. وهكذا، انتهى بندر، وبدأ محـمد يَحْكُمُ؛ ولـم يسبق للحكومة، كما يقولون، إن كانت في زمام أكثرُ كفايةً.

- أما بَدر فقد اندفع على مُهره هارباً من أجل حياته إلى مجاهل الصحراء: لقد هرب عند العصر. وفي صباح اليوم التالي، وهو يكادُ يُغمي عليه من الجوع والعطش، ويُكابدُ أسى الفؤاد والإعياء، أطلق رصاصة على حُصانه الهالك، وتسلق جبلاً - ومن هناك ربما تأمل رعُب هذا العالم، الذي أصبح بالنسبة له مكاناً فسيحاً للموت. كان محـمد قد أرسل رجالاً على صهوات الخيل ليجوبوا الخلاء للقبض عليه، وحينما وجدوا بدراً بين الصخور لم يستمعوا إلى توسلاته النائحة المولْولة: فقتلوه هناك دون رحمة، وحَملوا جثته على عَجلٍ ليعودوا إلى حائل في اليوم نفسه. صاح قائدهم أثناء دخوله على مُحمد متحمساً فرحاً، "والله يا المحفوظ ،إني أحملُ إليك العلمَ الزين (الخبر

السار)، وقد يَسُرُكَ أن تأتي إلى حيث أُريك بدر وهو يرقُدُ جثةً هامدةً؛ قتلته بيدي، وهذا هو مصير أعداء الأمير. " ولكن محمداً نظر إلى الرجل في حنق، وصاح: "من أمرك بقتله؟ هل أمرتك أنا يا ابن الكلب؟ متى، أيها الملعون؟ الله يلعن أبوك، اخس! هل قتلتَ بدراً؟" وساحباً سيفه من غمْده، عاجل الرجل بضربة خلفية قوية على عظمة العنق، وقطع في الحال (كما يَدّعون) رأس الرجلَ التعيسَ. لقد استخدم محمد سياسة قاسيةً قديمةً للطغاة، بواسطتها يأملون أن يجعلوا من سياساتهم المعقدة تبدو صادقة في النظر الضيق لعامة الشعب . استفسرتُ: "كيف حدث أن بدراً، الذي يعرف الصحراء لمسافات بعيدة، معرفةً جيدة، منذ صغره حينما كان يصطحبهم في الغزوات، لم يدفع بنفسه راكباً في اطراد حثيث في طريق ما للهرَب؟ ألم يكن حصانه يستطيع أن يحملهَ لمئة ميل؟ إن رجلاً ذو شجاعة حقيقية، وفي محْنة ربما يتحمّل الصعاب إلى أن يتعدى حدود سُلطة ابن رشيد ويدخل أول بَلدةً من البلدات المستقلة في القصيم. " وكانت الإجابة، "لقد كان الشاب مرتبكاً من المأساة المروعة الكبيرة وهو "جَاهِل" (أى صغير السن)، وأحمق، ولم يكن هناك من أحدَ يُنْقذه. "

لقد تحالف حمود ومحمد مع بعضهما حيث كان هناك خطر ماثلاً بينهما وبين أبناء طلال؛ ولو لم يُحبْطا مخططات بندر وبدر لكانا قد دفعا حياتهما ثمناً لذلك. لقد كانت المجازر بالتأكيد ضد الطبيعة الرحيمة المُعْتدلة للرجل القوي حمود. إن حمود، الذي لسيمائه الودودة ، استحق أن يُطلق عليه مواطنوه اسم "العزيز" ، إذا ما نُظر إليه بعيداً عن الصداقة، فإنه رجلٌ مُتكبر، عنيفٌ، وزلق اللسان، وجَبّار، مثلما كان والده عُبَيد بن رشيد؛ وبلاشك، فإنه يمكن أن يكون نمروداً طاغيَة في أي حالة من الحالات المحفوفة بالمخاطر .

علاوة على ذلك، فإنه هكذا يتعامل العرب مع العرب؛ وليس هناك مَن هو أكثرُ خَطراً وأحقرُ عداوةً منهم. إن حمود مُجرداً من كرم ضيافته، لهو، مثل جميع العرب من ذوي الطبع البائس، ولقد سمعتها تُنطَقُ في حائل "حمود [كلمة بذيئة]! " وقد جاءتهم تلك المفردات القذرة من الحجاز، وانتشرت من دواوين الحياة المتوحِّشة، لحكام مجرمين في المُدن المقدسة؛ وليست نتاج تلك المدارس ذات الكلام الطيب والعادات اللائقة، التي هي مجالس القهوة في الواحات العربية ومجالس الأعراب في الخلاء. - إن الضرورة المرعبة قد ألقَتْ بثقلها على محمد؛ إذ إنه لولا هذه الاغتيالات، لما كان سيستطيعُ أن يعقد مجلسه اليومي باطمئنان. ليس لمحمد أطفال وهو عقيم؛ أما المخلص حمود العُبَيد فلديه أطفالٌ كثيرون.

وهكذا مع زوال الأخطار المباشرة عنه، كرس محمد نفسه للعمل الحكومي ليكْسبَ الرأي العام بتصرفه ومسلكه الصحيح في عمله؛ وللتأثير على الرأي العام، فإنه يقيم العدالة بسهولة أكثر من سلفه طلال. ولم يسبق أن استخدم أميرٌ سُلطته، عندما لا توجد معارضة لها بأكثر منه اعتدالاً وحزماً في دياره، ولكنه كانَ دون رحمة في ما يتعلق باستئصال أي أجزاء غير سليمة داخل حدود مشيخته. عندما دانت له الجوف ثانية عن طريق تمرد القليل من المغاربة الذين بقوا في الحامية التركية، قيل بأنه أمر بقطع اليد اليمنى للعديد من الذين تحولوا إلى الدولة (العثمانية). وعلى الرغم من ذلك فإن الجوف لم تخضع بالكامل للجبل؛ لأن محمداً بنفسه، وعندما كان شاباً صغيراً ذهب مع عمه عُبَيد للاستيلاء عليها، وقد جُرح عندئذ بطلقة في رجله استقرّت في العظم؛ ولقد تمَّ استخراج الطلقة منه مؤخراً في حائل بواسطة حكيم فارسي، قدِم خصيصاً لهذا الغرض، من بلاد ما بين النهرين.

في ما يتعلق بأي سخاء في مثل هـؤلاء الأمراء العرب، فإنهم ينفقون على ما يحقق لهم فائدة. إنهم يحتملون بسهولة أن يفقدوا جنيهاً اليوم، والذي قد يعود لهم بعد فترة قصيرة بعشرة جنيهات. يقول العرب "إن ابن رشيد اعتاد أن يتعامل مع كل رجل "على قدر عقله." لقد كان الحظ بالنسبة لمحمد عندما كان شاباً، معاكساً، ولكن فرصةً دموية جعلته حاكماً. ويتعامل في حكمه مع وضع لا يحتمل أن يتغير في وقت وجيز، إنه لم يكن ليستطيع أن يكبح جماح إرادة البدو الرُّحّل الزلِقة بالقوة فقط؛ وكان بالرغم من أن قلبه يتفطرُ غيظاً في داخله، يستقبلُ الجميع بقسمات بشوشة وبكلمات معسولة، فهو بعد كلمات قليلة، مستفسراً بحكمة منهم عن حاجاتهم، يُدرك ما في نفوسهم. إنه يُرسل مُطلق شيخ قبيلة الفقراء، والذي يكرهه، إلى دياره مبتسماً؛ لذلك سيجبي الأمير ضرائبه "الميري" للعام التالي من قبيلة الفقراء برضاهم. وأعيان تيماء، البلدة الغنية البعيدة والتابعة له، يغادرونه مع أُعطيات. إن محمداً يهدىء من أذهان العامة من الشعب؛ فإذا نادى عليه بدوي وقح في الشارع أو في المجلس (إنهم جميعاً شحاذون بمعنى الكلمة) قائلاً: "أها! يا المحفوظ طوّل الله عُمرك! والله إني جيتك [جيئت إليك] وأنا عُريان"، فإنه سوف يصرفه في لباقة بـ"بسم الله! اذْهَبْ مع فلان وسوف يعطيك الملابس" - وهي عبارة عن ثوب قِيمته "شلنان" في حائل، وعباءة منسوجة من الصوف الخشِن قيمتها تسعة شلنات، ومنديل قيمته ستة بنسات؛ وبما أنها مشتراة بالجملة من بغداد، وتم إحضارها إلى حائل على جِمال الأمير الخاصة فإنها جميعاً قد لا تكلفه عشرة شلنات.

ما هي الدولة والسلطة التي يخضع لها هؤلاء العرب الأفظاظ؟ إن ابن رشيد هو سيدٌ، كما عرفت، لبضع وثلاثين واحة، والتي من بينها خمس

بلدات صحراوية كبيرة: سكاكا، والجوف [دومة الجندل]، وحائل، وقفار، وتيـمـاء، بإجـمـالي من السكان مـا بين ١٢٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ نَسَـمـة: والأخريات قرى كبيرة مثل: القصر ومُوقق والعلا والمستَجِدَة وفيْد والروضة وسميراء والحايط وغيرها، وبالكاد بها ٥٠٠٠ نسمة.

توجـد بالإضـافـة إلى الواحـات، العـديد من القرى الصـغيـرة النائيـة في صحراء جبل شمّر تقطن كل منها أسرةٌ أو أُسرتان أو ثلاث من عائلة واحدة، وهم مستوطنون من القرى المجاورة؛ وفي أفضل الحالات ربما يكون بها عدة منازل، وفي أقل الحالات لا أكثر من عشرة من السُكان؛ مثل جِفيفاء والعَقَلة والقصيصة والبدايع والحليّفَة وضرغط والمكحول والعظيم. البَعضُ من بينها ليست إلا بيوتاً ريفية، تبقى مهجورة، بعد الانتهاء من موسم حصاد شهر أبريل، إلى حين وضع البذور في الخريف، وبدء أشهر الرّي الجديدة: ولكن القرى الصغيرة التي بها زراعة نخيل يكون فيها سكانٌ أكثر استقراراً، مثل البدايع وضرغط. وهكذا فإن سكان جبل شمّر المستقرين لا يتعدون بالكاد ٢٠٠٠٠ نسمة: أضف إلى هؤلاء البدو الرُّحَل التابعين له وهم، بني وهْب، - الفقراء ٨٠٠، ونصف قبيلة ولد علي الجنوبيين ١٦٠٠، لنقُل معاً ٢٥٠٠؛ ثم البِشْر الجنوبيين لنقل ٣٠٠٠، أو أنهم أقل من ذلك؛ وحَرْب الشمـاليين الخَاضعين لابن رشيد لنفترض أنهم ٢٠٠٠؛ وشمّر الجنوبيين بالكاد يصلون ٢٠٠٠، وهتيم المناطق الوسطى لنقل إنهم ١٥٠٠، والشـرارات لنقل إنـهم ٢٥٠٠، وعداهم لا يوجد أحد. في مجملهم ١٤٠٠٠ نسمة أو أقل. إن جملة الحضر والبدو من سكان الجبل قد لا تكون على أفضل الفروض أكثر من ٣٠٠٠٠ نسمة.

إن الضريبة المقررة للأمير تفرض على إنتاج القمح والنخيل في المناطق

الحضرية. وهي في تيماء كانت تعادل حوالى جنيه إسترليني على كل رأس؛ وعلى البدو الرُّحّل، (الذين لا يعيرون الكثير لأي حكومة تؤسس للمصلحة العامة) كانت على قبيلة الفقراء، وهي قبيلة فقيرة صغيرة، تعادل جنيه إسترليني على كل ثمانية أو عشرة أشخاص. بخلاف هذه الضرائب فإن هناك بعض الرسوم الواجبة الدفع، والتي لم يخبرني عنها أحد بصورة صحيحة، مثل ضريبة الستين ريالاً التي يجب تأديتها عن كل حمولة جمل من "التبغ الحميدي"، الذي يتم جلبه إلى بوابات سوق مدينة حائل. في هذا الوضع غير المؤكد، فإنه يمكنني حساب عائدات دولة ابن رشيد، التي يتم دفع جزء منها عينياً، والجزء الآخر نقداً بأنها تقريباً ٤٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، والتي بالكاد يتم جمع الجزء العشريني منها من بين بَدوه الرُّحّل. إن الأملاك الخاصة بالأمير كبيرة للغاية. ويتم سنوياً وضع ثمن وثمار جميع الممتلكات التي تمت مصادرتها بالاستيلاء عليها في بيت المال.

إن المصروفات الحكومية العادية، لخدمة القصر، ولإعاشة جماعته المسلحة والمحافظة عليها، والعبيد السائسين لمجموعة خيله، وللرعاة المشرفين على ثروته من الماشية في الصحراء، وللوكلاء المشرفين على خدم القصر ولعماله ورجاله في المدن النائية مثل تيماء والجوف، وللضيافة العامة في حائل، وللكسوة، قد تصل إلى ١٢,٠٠٠ جنيه إسترليني تقريباً. أما مصروفاته غير العادية فتبلغ سنوياً حوالي ١٠٠٠ جنيه إسترليني للبارود والإمدادات لغزواته العامة، والمنح السنوية. أما الرشاوى التي يقدمها فتتوقف على المناخ المتقلب للعالم، وتذهب إلى رجال الدولة العثمانية العظمى؛ ولاسيما وهم الآن في خيبر، وكان يقدم رشاوى لبعضهم في المدينة[المنورة]. تتم تغطية هذه النفقات عن طريق بيعه، معظم السنوات، للخيل النجدية (وجميعها أفراس)

في بلاد الهند؛ والتي يتم شحنها وفقاً للطلب من ميناء الكويت، في العادة حوالى أربعين فرساً : يغيب خدم هذه الخيل، الذين يرافقون تلك الشحنات إلى الهند عن حائل حوالي الشهرين.

في حالة الضرورة عند شن الحرب فإن ابن رشيد يمكنه أن يستدعي إليها، حسب اعتقادي، دون أي مشقة ٢٠٠٠ من الرجال المحاربين من القرى، ممن يأتون على ركائبهم، ولكن لا يتم إمدادهم جميعاً بالأسلحة النارية؛ والركوب للمشاركة في حملة ليس سهلاً لربع هذا العدد. ومن بين رعاياه من البدو ربما يستدعي عند الحاجة، من القبائل الأكثر ولاءً له، أو الأكثر خَشْيَةً منه من الجيران القريبين، شمّر وبشر وحرب وهتيم، وفقاً لما يمكنني تقديره من معرفتي للبلاد، ثماني مئة أو تسع مئة شخص: ومن بني وَهب بوصفهم سكان حدود، ودائماً موضعِ شك في الثقة، وليس من النادر أن يكونوا من الثوار، مئتين وخمسين شخصاً؛ ومن الشّرارات المضطهدين، الذين ربما ينقلبون ضده بسرور إلى "الدولة" إذا ما وقفت الحكومة السورية إلى جانبهم، مئتين آخرين تقريباً؛ بمجملهم يصلون إلى ١,٣٠٠ من البدو، راكبي الإبل (بعض الشيوخ الرئيسين هم من الفرسان راكبي الخيل فقط)- وثلثان منهم مسلحون بالبنادق العتيقة، والبقية يركبون كيفما اتفق، بالسيوف والهراوات والرماح. يقال إن لدى الأمير "أربع مئة من الخيل" يسلفها لرجال من ذوي الثقة لديه وذوي النفوذ وسط القبائل الخاضعة له؛ وهؤلاء هم الفرسان في حملاته السنوية. في غزوات الأمير العامة يسير معه "رجاجيله" ورجال حائل والقرى المجاورة، حوالى أربع مئة في مجموعهم، وتقريباً العدد نفسه من البدو التابعين له، والذين هم رهن كلمة منه ليسيروا معه آملين في المغنم: ويتم إبلاغ الجميع قبل يوم من انطلاقة الغزوٍ عن مكان التجمع. إن

العرب الذين يقطنون في ديار ميتة ويرون أن حشداً رائعاً من أرواح الآدميين يتجمع لغزوات ابن رشيد سيقولون لك "كانت الطريق بين حائل وقفار مكتظة بالفرسان والهجانة! وحيث إن الطريق بالكاد يبلغ اثني عشر ميلاً، فإن ذلك لا يعني إلا راكباً واحداً لكل عشرين خطوة. إن مشاهدة ثماني مئة أو تسع مئة من العرب المسلحين فوق ظهور رواحلهم، حتى في نظر الأوروبي، يعدّ حدثاً رائعاً.

إن الأمير محمد عديم الرحمة في المعركة، فهو يطلق الرصاص من بندقية أوروبية الصُّنع؛ ويُشاهد حمود يُجَلْجِلُ بالسلاح إلى جانب الأمير، وإذا ما دعت الحاجة، ولأنهما متعاهدان بأن يبقيا معاً حتى الموت، فإنه سوف يحميه بجسده. يترجّل الأمراء في المعركة عن رواحلهم، ويمتطون صهوات الخيل ويكونون في الصفوف الأولى للمحاربين، وتقوم الأجنحة من الرجال المسلحين بإطلاق النار ضد العدو، وينقضّون عليهم من كل جانب. إن قوات الأمير بثقلها وعددها تهزم البدو المساكين؛ لأن "الرجاجيل"، والقرويين، معتادون على الحياة المدنية، وينصاعون للأوامر، ويستطيعون أن يحافظوا على أنفسهم في صف واحد. ولكن البدو غير البارعين، الذين في حياتهم الرَّعَويّة، ليس لديهم أي مفهوم عن الممارسات العسكرية، قد يتجمعون بالكاد مع بعضهم بعضاً، في يوم المعركة، بقيادة شيوخهم. إنهم مثل الجوارح الصائحة يحاربون متفرقين يتطايرون هنا وهناك، كل رجل ينظر لمصلحته الخاصة دون اعتبار للمجموعة، وذلك لعله يستولي على غنيمة ثمينة: إن البدو المساكين يُقرّون بأن الطَّمَع يستحوذ على أنفسهم. وهكذا فإن مقاومتهم تكون ضعيفةً، والويل لمن ينهار وينقلب فاراً بالهرب! لا أحد من أعداء الأمير يؤخذ أسيراً حتى تنتهي المعركة بالهزيمة: وقاسية هي رحمة الرجاجيل ومماليك

(عبيد) ابن رشيد قساة القلوب. لقد علمتُ بأنه عندما يتم أخذ بعض رجال القبائل التعساء أسرى، فإنه يتم القضاء عليهم بواسطة عصابة الأمير بإلقائهم في حُفر آبارهم: إن العرب لا يأخذون أي أسرى. تجرى المعارك مع البدو الرُّحّل عادةً في فصل الصيف، حول مناهل مياههم الرئيسية، حيث يقيمون لفترة طويلة في تجمعات ومخيمات كبيرة.

وهكذا فإن البدو يقولون: "إنه ابن رشيد هو الذي أضعف البدو!" لقد كسر شوكتهم، وهو عندما يهزمهم يضمهم إلى إمارته، ويخلصهم من جميع أعدائهم. يتم تقسيم جزء من الغنيمة العامة على "الرجاجيل"، ولكل رجل في العادة ما وضع عليه يده أولاً. وأخبرني إبراهيم الجزائري، وهو أحد الذين يأتون إليّ مراراً ليتحدث معي عن بلاده المغربية، بأن كل رجل من رجاجيل الأمير كان يُعطى ثلاثة أو أربعة ريالات عند التأهُّب للخروج للغزو ليتمكن من شراء القمح والتمر والذخيرة لنفسه؛ وأحياناً يتم تحميل مقدار يصلُ إلى حمولة أربعة جمال من البارود والرصاص من حائل، يذهب جزء منه للبدو الذين ينضمون إليه في الطريق.

لكن لنحدّد خط إمارة أو حدود سلطة حكم ابن رشيد في الصحراء:- إن حدوده في الشمال قبيلة الرّولة، وشمّر الشماليين، والظُّفير، وهذه قبائل بدوية مرتحلة على علاقة صداقة بالجبل، ولكنهم ليسوا خاضعين له. وإلى الشرق فإن حدوده هي عند حدود سُلطة بُريدة، وهي إمارة ذات قرى كثيرة في نفود القصيم، مثل العيون والخبراء والرَّس، ولكن دون بدو. إن البيت الأميري في حائل متحالف بحكم رابطة الزواج بذلك الفلاح ولد مهَنا (١٠) طاغية بريدة، وهم على اتفاق ضد الشرق، أي ضد عنيزة، وإقليم السلطة الضعيفة للوهابيين. وفي الجنوب بعد فقده لخيبر فإن حدوده تصل إلى حوالي

مئة ميل من المدينة [المنورة]؛ ويحد صحاريه من الغرب طريق الحاج العظيم من سورية، - إذا ما استبعدنا قبيلة بني عطيّة - فإن كل إقليم الشرارات الذي يليه خاضع بكامله له، وهو يمتد حتى جبل الشَراة ومن ثم يلتف إلى وادي السّرحان فإلى بلداته الشمالية الكبرى الجوف وسكاكا وضواحيهما. وباختصار فإن الإقليم الذي يحكمه ابن رشيد هو الواقع بين الجوف والقصيم ودرب الحاج؛ من الشمال إلى الجنوب حوالي تسعين فَرسخاً، ومن الشرق إلى الغرب ربما مئة وسبعين فرسخاً. ويحكم ابن رشيد إقليمه ويحفظه بقوة (حسب قولهم) تعدادها حوالي خمس مئة من الهجانة من رجاجيله وقروييه موزعين على هذه المنطقة؛ ولكن من يمكنه جمع أعداد مماثلة من البراري الجرداء، أو عدد مضاعف من البدو الجامحين، الذين نصفهم تقريباً دون سلاح، لمقاومته؟

* * *

إن القبائل الكبيرة الموجودة جزئيّاً أو بكاملها إلى الغرب من درب الحاج بعيدة جداً منه؛ وهم لا يخشون ابن رشيد في ديارهم المُحصنة الخطيرة. وهذه القبائل بدءاً من الشمال هي: قبيلة بني صَخْر في البلقاء[شرق الأردن]، وتخضع الآن للحكومة السورية، ثم قبيلة بني عَطيّة، ومن خلفهم قبيلة الحُويطات القوية، الممتدة بعيداً إلى ما بين البحرين [البحر الميت والبحر الأحمر]، وقبيلة بليّ وراء الحرة، وجيرانهم قبيلة جُهينة العريقة: علاوة على قبيلة حَرْب الجنوبية، بدواً وحضراً، في الحجاز، وكل من تصُبُّ سيول أرضهم في وادي الحمض. ومابين مكة والقصيم يوجد ذلك الإقليم الواسع للبادية، أكثر من مئة فرْسخ من جانب إلى آخر، (أفضل ما شاهدت في براري الجزيرة العربية)، وهو خاص بأمة [قبيلة]عتيبة؛ إنهم شجعان في الحرب،

وبدو ذوي روح مدنية، وأعداء ابن رشيد الرئيسيين. ويندر أن تمضي سنة دون أن يقـوم ابن رشـيد بغزوهم، وهـم بدورهـم كـانوا مـصـدر الهـلاك للأعـراب التابعين له لاسيما من قبيلة هتيم المقيمين في المناطق الوسطى عند وادي الرُّمّة، وجيرانهم من حرب. تلك هي مناطقه، وتلك هي حكومة ابن رشـيـد، وهو اسم الآن عظيم جداً (بعد هزائم الوهابية) في عالية، أو بادية الجزيرة العربية.

بين العاطفة والخوف يطلق عليه أهل الصحراء، لقب "أخو نورة" (النخوة المفضلة لعائلته). فقد انتخى أو اعتزى عبدالله، الحاكم الأول لحائل، وفقاً لعادات الكياسة والشهامة في نجد بشقيقته الصغرى نورة بقوله: "وأنا أخو نورة". كذلك اعتزى طلال من بعده، ومتعب، ومحمد أيضاً بنورة؛ حيث أن نورة الثانية، هي ابنة عبدالله، أي شقيقتهم، وهي الآن متوفاة - إن تلك النخوة لتعبير مرعب، فوق كل مزاح، عندما يطلقها الحاكم ضد امرىء ما! ولقد سمعت رجلاً، لم تكن له شقيقة، ينتخي بابنته الرضيعة قائلاً: "وأنا أبو عذبة!" لذلك إذا قيلت في موضع الصداقة فهي تُعد مُداهنةً جميلة، وقد تكونُ سخريةً لئيمة أن تقول لأحدهم "أنت يا أخو فُلانة (مُسمياً لها)، فمثلها مثل لو قلت "أنك حتى في أمورك الصغيرة لا تستحق أن تُعد بين الشُّجْعان". لقد سمعت صبيًا (من قبيلة البشر) يَهْتفُ "أنا أخو "شقتي" أي (اختي)! وقريبةٌ لهذه، قول (الرجل الراشد) تعبيراً عن الدهشة القوية، "أنا ولد أبويّ"!

لنتحدث باختصار عن العائلات الأميرية: إن محمد (كما ذُكر) رجل عاقر [عقيم] من جراء دواء ضار، تم إعطاؤه له لمعالجة مرض أصابه، "إذ كان لا يمكن إنقاذه من الموت إلا بذلك الدواء." وهو بذلك الأمر غير سعيد، إذ من المستحيل أن يقوي نفسه بذريةٍ من عنده. كان لدى محمد أربع زوجات وفقاً

لما يجيزه له دينهم؛ اثنتان منهن حضَريات، والاثنتان الأخريتان بدويات. عن طريق صدفة غريبة علمنا أن إحدى الحضريات تُدعى "بالمسيحية". لقد سمعت ذلك مراراً؛ ولكني لا أستطيع أن أجزم حول حقيقة هذا الأمر، ولم أعرف منهم إلى أي بلد كانت تنتمي. وحسب قولهم فإنها جاءت إلى حائل قبل بضع سنوات مضت مع شقيقها، وكان شاباً يعلمهم طرق التفوق والبراعة في المبارزة بالرماح على ظهور الخيل، وقد بَهَرَ هذا الشاب هؤلاء العرب الذين لا براعة لهم في ركوب الخيل. "لقد أصبح المسيحي مسلماً في حائل"، وترك شقيقته الشمالية زوجة لسيد البلاد عندما غادرهم. وسألت نفسي، هل كان هذا الرجل فارس من مصر أو البلدان الحدودية الشمالية؟ ولكنني لم أسأل عن ذلك أحداً لأنه لو تم نقل كلماتي محرفة بواسطة النمامين إلى القصر، وأنني أستفسر علناً عن شؤون الأمير الخاصة لبدا ذلك أمراً غير حكيم. الزوجة الأخرى الحضرية كانت شقيقة حسن ولد مَهَنّا طاغية بُريدة؛ كما أن حُمود متزوج من بين زوجاته ابنة أخرى من بنات الأمير حسن.

إن محمداً يصرف ويتزوج زوجات جديدات كيفما يشاء، "شهراً وراء شهر": وعلى الرغم من ذلك فإن الأمير البائس لا يستطيع أن يشتري البركة العادية! إن أطفاله ميتون في داخله. ويبقى الرجل المخيف ساكن ذلك القصر رجلاً وحيداً، أو أقل من رجل بزيجاته. ولكن الأمير الذي ليس لديه أطفال، يُعز ويُحب كابن له الطفل اليتيم عبدالعزيز، وهو الدم واللحم الوحيد الذي تبقى في العالم من شقيقه متْعب، ويسبغ عليه عطفاً وحناناً أبوياً ويشرف على تعليمه اليومي، والذي يفتقده هو نفسه. ويحضر الطفل واجبه كل يوم إليه، وهي آيات من القرآن[الكريم] مكتوبة، مثلما يفعل جميع أطفال الواحات العربية، بالحبر المصنوع من سُخام لحاء شجر الرُّمّان، على لوح خشبي مبيّض

بالجص أو طين الأنابيب الأبيض : وليوم الدراسة التالي يتم مسح الحبر بتبييض اللوح من جديد . كان عبدالعزيز يأتي مراراً إلى مخزني ويطلب مني أن أعطيه بعض الحبر الجيد، وورقًا، وطلقات هواء لمسدسه الصغير، الذي أعطاه له عمه محمد. و إذا ما حضر ماجد [بن حمود] عندئذ فإن عبدالعزيز كان ينهض، ويذهبُ خارجاً ـ ولاحظتُ أنه لم تكن هناك أي كلمة أو إشارة للود بينهما . كان عبدالعزيز يحضُر لوحده، أو مع أحد أطفال الأمراء الآخرين (الذين أبقى محمد على حياتهم)ـ لقد كان الابن اليتيم لبندر [بن طلال]! ويرافقهما عبدٌ صبي ذو طبيعة جيدة جداً .

لقد كان أولئك الأطفال الأمراء نتيجة لارتباك مريع في رباط الزوجية أنصاف أشقاء، ولدا من أم واحدة من عم وابن أخيه، اغتال أحدهما الآخر! والقاتل[بندر]، الذي لم يشيعه أحد، قُتل على أيدي محمد عمه الثاني (الأمير الحالي). فبندر بعد اغتيال عمه الأمير متعب تزوج من زوجته، والدة عبدالعزيز؛ وأنجب منها قاتل الأب ابناً . وأبقى السفاح الشاب [بندر] على حياة طفل عمه الرضيع، مؤقتاً، وربما كان يريد بمثل هذا العمل أن يوفر لنفسه بعض الضمان، من يوم يكبُرُ فيه هذا اليتيم الصغير للقتيل متْعَب . هل سيطلب عبدالعزيز في ذلك اليوم حياة والد أخيه من أمه، الذي تربى ونشأ معه، وابن ذلك الرجل نفسه الذي أودى بحياة والده منذ زمن طويل؟ إن محمداً يتخطى الآن بنجاح خطر هؤلاء الأطفال : ولكن هل سيقوم ابن بندر إذا ما بلغ أشده، من أجل عبدالعزيز، ولأنه هو نفسه قد تم الإبقاء على حياته، بالعفو عن محمد الذي قطع رأس والده؟ـ ولكن ذلك الفعل الشنيع لا يُعد ظلماً في نظر الرجال .

تشبه مشية عبدالعزيز الصغير مشية عمه الأمير، وله ملامحه نفسها،

ويحمل سيفاً صغيراً أهدته له أمُّه؛ إلا أنه مع ذلك يحمل نوعاً ما نظرات حُزن اليتيم، لغُصن ينمو وحيداً بمياه ليست لأبُوته الطبيعية. فهو الآن يتأمل كثيراً في هذه الأشياء؛ لقد سَمعْته يقول لنفسه، عندما جاء ليزورني "ها! إنه هو الذي ذبح-، وكانت الكلمة المُريعة تبدو نذيراً، لقد كانت خفيفة جداً على شفاه الطفل-رباه! من ذا الذي قد يتنبأ بمآسيهم المقبلة! كيف سيكون الانتقام التالي، وتولي الحكم، وإيقاف التقتيل بينهم؟ مع تكْحيل عينيهما، وشعرهما الطويل مُفرجٌ في الوسط، ومُجدلٌ في جدائل مضفورة حول رأسيهما اليتيمين، ومع الثياب البيضاء الطويلة حتى قدميهما، فإن هذين الطفلين الأميرين لهما الملامح النضرة نفسها التي للفتيات الصغيرات. وفي ما يتعلق بالحكم، فقد يقف ماجد في طريق عبدالعزيز، لأن الذي يطمح اليوم في أن يخلف الأمير محمد هو حمود بن عُبَيد، والد ماجد، و ابن عم أبيه متعب؟ وربما بسبب هذا كان تجنُّب الأطفال المُبكر لبعضهم البعض؛-لقد كان عبدالعزيز هو الذي اجتنب ماجد. ولكن أيكون الأمر لأن حمود هو والد ماجد؟ ربما أنهما قد قررا مُسبقاً في قلبيهما الغضين أن يُدمّرا بعضهما. إن ماجداً، هو أيضاً حفيدٌ محبب لأخ والد الأمير، ومثل ابن أخ له. إن ماجداً حفيد عُبَيد، وهو مثل أبيه، ذو طبيعة مرحة، ولكنّه أقلُ ولاءً؛ إن فيه إحساساً داخلياً خطيراً، وثقة طموحة بأنه يوماً ما سوف يصبحُ الحاكم. أما عبدالعزيز، حفيد عبدالله بن رشيد، فهو صقر صغير؛ وفي حياته، إذا ما عاش طويلاً، فإنه سوف يخترق اليد التي تمسكه بضربة من مخْلَبه؛ ولكنه يبدو ذا قلب رقيق، وإذا ما أراد الله أن يصبح ذلك الطفل فيما بعد أميراً لحائل (١١) فإنه من المحتمل أن يكون أميراً فاضلاً مثل والده متْعَب. -تلك هي- رغم مظاهرهم النبيلة - المآسي السريّة لحياة الأمراء في حائل؛ إن الرُّعْب لابد وأن يجثم فوق

رأس الأمير محمد، وإلا فإنه ليس برجل، في وحدته الدامية. في القصيم سَمعْتُ رجالاً يقولون عنه "إنه قد ارتكب جرائم لم يعرفها العالم من قبل!"

لنتحدث بعدئذ عن عائلة عُبَيد، التي على رأسها الآن ابنه حُمود. كان عُبَيد القائد العسكري لجبل شمّر في عهد شقيقه عبدالله وعهد ابن أخيه طلال. لقد كان رجلاً عسكرياً، ووهابيّاً أكثر مما هو عليه حُمود الآن، وقد وُلدَ في أزمان أسهل. لقد كان سيّد فنون الحرب العربية، وبطلاً في نظر الأَعراب المهزومين. وكان عُبَيد، كما قيل، شاعراً ممتازاً "قَصّاد"، ونظم قصائد عن جميع حروبه في الصحراء؛ وقصائد الفخر التي نظمها والمشهورة في أرجاء الصحاري كافةً رُددت لي مراراً في بيوت البدو. إن لغة القصائد مختلفة عن الكلام الشعبي؛ وفي واحدة من قصائده المشهورة يذكر فيها أنه قتل تسعين رجلاً من القصمان (أهل القصيم) في معركة معهم وأنه لم يتمكن من فك أصابعه عن مقبض السيف، وإن أكمام ثوبه تيبست من الدماء (١٢). هذه القصيدة نظمها عن حَملة رديئة القيادة وسيئة التنظيم انطلقت من مدينة عنيزة ضد ابن رشيد - "وكيف حدث" سألت مستفسراً "أن عُبَيداً وهو رجلٌ واحد، أمكنه أن يقوم بمذبحة وحشية ضد خصومه في ميدان معركة؟" فكانت الإجابة: "أنه عندما انهزم القصمان ولجأوا للهرَب، طاردهم عُبَيد خلال بقية النهار، وقتل عدداً كبيراً منهم (ضارباً لهم من الخلف) حتى بلغ عددهم التسعين." والشخص الثقةُ من الأعيان الذي أخبرني بالرواية يعدّ قتل ذلك العدد الكبير بتلك الطريقة فخراً لعُبَيد!.

قد يكون عُبَيد كريماً، في مواضع يكون فيها العرب أقل كرماً مع خصم؛ ولكنه عندما يكون مُرتَدياً لدرعه ذي الحلقات الذي يُطلق عليه الداودي، -

نسبـة إلى داود[عليـه السـلام] ، الذي يقـولون إنه أول من اكـتـشف الدِّرع الحديدية ذا الحلقات، وإن الله طوّع خام الحديد له ليشكله بأصابعه النبوية ـ لا تكون خطورته كبيرة في ميدان المعركة. ففي أحد الأيام لحربه المريرة مع عنزة ابن مجلاد، بدو القصيم الوارثين لأودية الحايط للنخيل (في حرة خيبر)، لمح شيخ القبيلة هذا الأمير، الذي دمرهـم في المعركة، وبصرخة مدوية، طلبه للمبـارزة، وانقض عليه في يأس؛ ولكن عُـبَـيدًا (رغـم أنه كـان غـاضبـاً من إصـاباته، إلا أنه أشـفق على الرجل الذي سبب له الألم) فـتـرك البـدوي يَمُـرُّ تحت رمحـه قائلاً له " إنه لن يقـتـل رجـلاً [لا يرتدي إلا ثـوباً] جـاء بإرادته إلى هلاكه المحتوم. "

كان عُبَيد في أيامه الأخيرة رجلاً كهلاً، ذا لحية زعفرانية، ملتزماً بيته، وأباً هادئاً لعائلة عربية؛ لقد توفي، وفقاً لأقوالهم قبل سبع سنوات من مجيئي إلى حائل، وبعـامين قبل موت طلال. من أبناء عُبَيد شـاهدنا فهداً، الابن الأكبر، وقد تم إقصاؤه جانباً بسبب ضعف إدراكه، وهو رجل في منتصف العمر، ذو ملامح حسنة للغاية، مُربّي جيداً، ويماثل في حجمه وهيئته تقريباً شقيقه التالي حـمود، الذي حل مـحله كـبيراً للعـائلة. كـان ذا ميـل لطيف للفـضيـلة، مع تواضُع مرِح مقـبولاً للآخرين، ولكـن تظهر عـليه عـلامـات انحـراف في عقله تتمثل في رسم غريب لحاجبيه، وحزن سري مُربك على الوجه، واضطراب للعينين. لقد كـان يبقى طوال اليوم مبـحلقاً عينيه في الناس بهـدوء، ولا ينبسُ إلا بالقليل؛ لذلك كـان في حائل، إلى حد مـا، أسعد الخلق، الوحيد الذي لا يخشى شيئاً. كـان فـهـد يقـضي سـاعـات يومه في قـهـوة عُبَـيد؛ وكـان حـمـود يجلس في المكان الذي كـان يجلس فيـه والدهـم في القـهـوة، وإلى جـواره في مقعـد الشرف كان يجلس سليمـان: وأمـا فهـد فليس له مقعـد رسمي، ولكنه

كان يجلس على بساط عادي مع شباب البيت الأميري، ومع ضباط الأمير، ومع أي شيوخ زائرين من القبائل والقرى. لقد أصبح فهد وكأنه تابع لحُمود، ورفيق اللعب لابن حمود ماجد. قال لي ماجد ابن أخيه: "إنني أحبه، إنه رجل هادئ جداً ومُسَالِم"؛ ومع ذلك لم ينعته بعَمّي. عند وقت العشاء يغادر فهد القهوة، فهو رجل عائلة؛ ولكنه كان يعود ثانية إلى قهوة والده ليقضي المساء، وفي تواضع قد يجلس لفترة قصيرة يخدم نفسه في مكان إعداد القهوة إذا ما كان الأمير حمود يؤدي صلواته الإضافية، وإلى أن ينتهي منها.

عندما يخرج الأمراء في غزوة، فإنهم يتركون فهداً في حائل. في إحدى المرّات ذهب راكباً إليهم، وأتى إلى والده في الميدان؛ خاطبه عُبَيد قائلاً: "ما الأمر يابُني! لماذا حضرت إلى هنا؟ـ "أبتي، إنني أرغب في المشاركة في الغزو وأخذ جزء من الغنيمة"؛ ويرد عُبَيد، "حسناً عُدْ إلى بيتك في حائل وانتظر عودتنا التي ستكون قريبة إن شاء الله، هذا ما أريده، وأنت لن تفقد أي شيء." لقد اعْتَمَلَ الجشع السامي للضحية في قلبه الضعيف: وذات مرة أخرى أحضر الرجل المسكين ابنته التي بلغت إلى عُبَيد قائلاً، لقد حان الوقت الآن لبيعها (لتصبح جارية)؛ ولكن عُبَيدًا الذي كان متأثراً بعطف أبوي لعقل ابنه المختل أعطاه "فلوساً" من الفضة، ثمناً لحفيدته وطلب من فهد أن يبقيها عنده. الأخ الثالث، إن أمكن استقراء أي شيء من نظراته الشاحبة الشريرة، كان شاباً سريع الغضب ومتعصباً للغاية؛ كان يسكنُ منفصلاً عن الباقين قرب بوابة "المشهد"، ولا يأتي مطلقاً للجلوس وسط أشقائه في مجلس والدهم. التقيته مرةً واحدةً أو مرتين خلال شهر كامل، ماراً بالشارع العام، وحدقني فقط بنظرات حانقة؛ ربما كان يقضي أوقاته مع الحريم، ولا يبدو أنه يلقى أي

تقدير في حائل. الأخ الرابع الأصغر كان فهيد، وهو شاب لطيف نقي القلب في السابعة عشرة من عمره. ومع ذلك فإن به شيئًا من الحظ العاثر للطبيعة، إذ إنني اكتشفتُ أن في فكه صفًا مزدوجًا من الأسنان. في بعض الأحيان عند غياب الأمراء في فصل الربيع أو في الغزوات كان فهيد يُولى أميراً بالإنابة ليعقد المجلس اليومي - في هذه الأوقات لا يكون هناك أحد تقريباً في حائل. ومن بعده كان أحدهم ويدعى سُليمان، كما أذكر، صبي ذو شأن قليل، وآخر ويدعى عبدالله في مثل عمر ابن أخيه ماجد، وجميعهم ذوو طبيعة غير سوية . . . . كان الأخير (عبدالله) قد سَقَط في صغره من مكان مرتفع فأخرج المفْصل لأحد ذراعيه، وبما أنه لا يوجد طبيب عظام في هذه البلدان، "ولم يكنِ الأمر يستحق" أن يتم إرساله إلى بلاد ما بين النهرين، فقد تركوه لرعاية الله، وذراعه الآن مُتدلية ذابلة. لقد جاء مرات كثيرة لمخزني، لطلب بعض الأشياء التافهة من الغريب: عيناه الملتهبتان أضافيا لمظهره غير المُحبب، فطلب دواء وقال: "ولكنني لن أدفع لك، فأنا لا أملكُ حتى نصف دولار". لقد كان متعصباً ويجرؤ حتى ليهددني. عندما يدخل عبدالله في مرات نادرة قهوة والده فإن حمود ينادي على الصبي في مرح ويُجْلسهُ إلى جواره، ويطوق ذراعه حول عنقه مثلما يفعل العرب (يَرْبتُون بالتساوي على أبنائهم الصغار وعلى أصغر أقربائهم)، ويسأله في حنان عما فعل في ذلك اليوم، ولكن الصبي الفظ بالكاد يستجيب، وخلال وقت وجيز ينكمش في حنق مبتعداً.ـ هكذا كان أطفال الصقر العجوز عُبَيد، "عفون"، جميعهم مولودون ببعض العيوب الخلقية، ما عدا حمود. لذلك يبدو أن الأصل كان موشبًا، وكان من الغريب أن الجوهر النبيل لحمود لم يوشب؛ والقدرة العقلية لحمود، رغم أنها جيدة، إلا أنها ليست ممتازة. ولكن هذه الصفة يمكن أن

تكون في الأمير محمد.

تعد عائلة عُبَيد عائلة ثرية لو اعتمدت على ممتلكاتهم في حائل فقط؛ وهم أيضاً يمتلكون بساتين نخيل في الجوف.- إن إنفاق الرجل العربي على بيته، عدا في ما يتعلق بالزواج، ضئيل بالمقارنة بنا [الأوروبيين]. علاوة على ذلك فهم أثرياء بنصف منتوج أودية الحايط في حرة خيبر، الذي كان يخص قبيلة عنزة، ولكن عندما تم طرد هؤلاء بواسطة عُبَيد منح طلال أراضيهم إلى عمه وورثته. كما أن عائلة عُبَيد سعيدة أيضاً، لأنها لم تعان من سُحُب الانتقام في السنوات الماضية كما حدث في بيت عمهم عبدالله. إن البدو ينظرون ويتحدثون في رهبة عن الأفعال اللعينة الأخيرة التي حدثت لعائلة عبدالله: فأبناء العمومة في مشيخات البدو الصغيرة في الصحراء ليس لديهم مثل هذه الطموحات القاتلة. وكان فهيداً وعبدالله مايزالان يعيشان في منزل شقيقهما حمود في حائل، حيث كنت أذهب يوميّاً لمعالجة فيصل، وكانت تفتح لي الباب جارية عندما أطرق، هي مربية الطفل؛ وأحياناً يفتح فهيد الباب بنفسه. لقد وجدته واقفاً يتشاجر مع نجار وكانا يؤنبان بعضهما كندّين. وربما يكون عبدالله من يفتح الباب؛ وأحياناً تأتي ابنة حمود إلى الباب، وهي صبية لطيفة، بملامح والدها البريئة الباسمة، مرتدية فستانها القطني الرديء، المصبوغ بالنّيلة، دون أي زينة، ولا تختلف عن فتيات القرية في مثل عمرها؛ وربما كانت هكذا ثامار بنت داود، التي عَجَنَتْ وخبزت الخبز. لقد كان منزلهم بسيطاً، حوش، ومن خلفه غُرف السكنى، وهو منزلٌ للحريم والعيال حيث لا يسمح بالدخول لأي غريب. شاهدت خطّاً وصليبًا محفورين معاً بصورة غير فنية على جدار المدخل (×|)- إنه وَسْمُ ابن رشيد. يختلط أطفال الشيوخ مع الناس في البلدة؛ ولا يختلفون عنهم إلا بملابسهم النظيفة. أما

الفتيات فهن مثل الطيور الحبيسة في أقفاص، تتم تربيتهن داخل منازلهم؛ ولا يشاهدن بالخارج في الطرقات العامة. في عمر الخامسة عشرة يركب أبناء الشيوخ في الغزوات؛ يأخذونهم لمدة عامين تقريباً من مُدرسيهم، الذين لا يتعلمون منهم سوى القليل، وبشكل خاص الحروف.

ولنتأمل الآن حكومة ابن رشيد وما قامت به من أجل تحقيق الأمن العام في بادية بلاد العرب: لقد توقفت النزاعات في المستوطنات، وتم القضاء على الفوضى في الصحراء بحد سيف الوهابية، وبلاد "إسماعيل" أصبحت "بلاد أمان". في مرحلة التأسيس الثانية في نجد، أصبح عبدالله ابن رشيد أحد شيوخ واحد من البيوتات الرئيسية في حائل، تابعاً رئيسياً للأمير الوهّابي بالرياض، فأرسله ابن سعود إلى بلدته في جبل شمّر ليصبح حاكماً على تخوم نجد الغربية (ليحكُم قبيلة عنزة) وعلى وجه الخصوص القبائل الجنوبية منها، التي كانت تملك أودية نخيل حرة خيبر. وطد عبدالله في وقت قصير سلطته بحد السيف على حائل وما جاورها، وأصبح الأمير لدولة جديدة، ولعشرات من القرى والقبائل؛ ورغم ذلك فإنه لم يكن يدفع أي مساهمة إلى الرياض من الزكاة التي تتم جبايتها، وتدخل إلى خزينة الحكومة، عدا هدية من الخيل كان يقودها معه في زيارته السنوية إلى ابن سعود. هذا الولاء انتهى بسبب اضمحلال الدولة الوهّابية؛ وابن رشيد اليوم هو أعظم أمير في نجد. إنه يحكم العرب المتفرقين بحد السيف، ولولا خوفهم، فإن أحداً لن يتبعه. إن البدو وسكان الواحات ليسوا مرتبطين بعهد الولاء (كما يرون ذلك) لأي أحد سوى شيوخهم الطبيعيين. لقد قال لي الحَضر مرات عدة عن ابن رشيد، حتى في حائل نفسها، "حنا مَمْلُوكين". مريضٌ من بدوِّ الشمال، وهو يشيرُ إلى الوراء، بينما كان يجلسُ داخل مخزني، وكأنه يخشى أن يصل قوله عبر

الخشب والجدران، تَمْتَمَ قائلاً بين أسنانه "إن ساكن القصر هناك ظالمٌ" . في حائل حيث لا توجد "خوازيق" ، تعذيب، ولا حتى سجن، فإن العقوبة تكون مفاجئة، فبكلمة من الحاكم يكون المذنب قد انتهى.

لقد حافظ أمراء حائل بالتأكيد على أمن الصحراء. وقد أُخبرتُ بهذه القصة عن عهد متْعَب: تعرض أحد التُّجار القليلين الذين يأتون من البلاد السورية للمتاجرة مع القبائل، وكان يحضر من آن لآخر إلى حائل للطعن والسلب أثناء سفره في ديار الشرارات. حضر الغريبُ إلى حائل وشكا للأمير هذا الاعتداء المشين. أرسل متعَب فرساناً لإبلاغ شيوخ الشرارت بأن عليهم القبض على الفاعلين وتسليمهم فوراً، الشيء الذي تم القيام به في الحال، فهم لا يجرأون على عصيان أمر ابن رشيد، وعاد الفرسان بسجين. أمر متْعَب البدوي بأن يقف أمام المجلس، واستفسر من الغريب عما إذا كان ذلك هو الشخص الذي اعتدى عليه. وعندما أجاب "إنه هو" ، قال الأمير: " . . . . يا كلب! كيف تجرؤ على هذا العمل؟" . طلب متْعَب من الغريب أن يأخذ رُمح الشراري الذي كان معه، وأن يفعل به مثلما قد فعل به. قال التاجر "ماذا يجبُ أن أفعل يالمحفوظ!" ، فرد الأمير قائلاً: «اطعنه، واقتله أيضاً، إن شئت!» ولكن قلب التاجر، وقد برد من فورة الغضب، ولم يكن ليستطيع أن يضْربَ الرجل، توسل إلى الأمير ليتركه ليذهب، مادام أنه قد استرد أشياءه.

لقد عرفت باعة دمشقيين من الذين يتاجرون مع البدو، والذين زاروا حائل، وواحداً منهم كان مسيحياً يتاجر كل عام في وادي السرحان والجوف. ولأن هذا التاجر كان يعرف أن العباءات نادرة في الجبل، فقد عبر النفود بحمولة جمل إلى حائل. وقد تحدث معه الأمير طلال بود وقبل أن يبقى الرجل لفترة من الزمن ليبيع بضاعته؛ مُحذراً له فقط "بأن لا يحلق لحيته. " - حيث أن

الدمشقيين المسيحيين يحتفظون بلحية . واندمج الشاب الأحمق وسط مسلمي حائل .

إن القبائل المتعادية في اتحاد ابن رشيد (كما رأينا) لا تتحمل أن تتحرش ببعضها بعضاً؛ ومع ذلك فإن هناك بعض البدو الرُّحّل (ما إذا كان بسبب أن حائل تنوي إضعافهم، أو أنهم بعيدون عنها، وليسوا ملتزمين بالمحافظة على حسن الجوار) الذين يشتكون للأمير من الاعتداءات والانتهاكات التي يقوم بها الأعراب الخاضعون له، فيجيبهم بغضب "إن هذا الأمر بينكم، وأنا لن أكون طرفاً في نزاعاتكم البدوية" . إن جميع شيوخ العرب الكبار هم رؤوس لسياسة ماكرة. وأظن أنه من الصعب أن يجد المرء مأخذاً على حكومة ابن رشيد ـ ومع ذلك فإن أصدقائي الذين تعرفت عليهم في القصيم لاحقاً (أعداؤه في عنيزة) يَذمّونها .

ـ وكلمةٌ عن القوة المسلحة للأمير ، "رجاجيل الشيوخ" : إن أغلب الذين يخدمون ابن رشيد (كما يقال) هم الأجانب (المغامرون والهاربون) من شرق نجد : ومثل هؤلاء يكونون خُداماً مخلصين للأمير ، يصمدون أو يسقطون معه . بالإضافة إلى هؤلاء، هناك ما يقارب ٢٠٠ رجل يتلقون رواتبهم من خزينته، من أهل حائل. لقد كان مبارك قائد الحرس وياور الأمير في القصر، وحامل البيرق[الراية أو العلم] في المعركة، رجل لطيف، ولكنه مُتعصْبٌ جداً. لقد كان غريباً من العارض، وترقى من الدرجة الدنيا خلال عهود الأمراء المتعاقبين، لكفاءته، إلى أن أصبح الآن، في أفضل سنوات عمره، الذراع التنفيذية لابن رشيد.

من بين الغرباء، إبان إقامتي في حائل، والذين كانوا يعيشون على رواتب ابن رشيد، كانوا بعضاً من المغاربة. هؤلاء المغاربة كانوا ضمن الحملة التركية

التي انطلقت من سورية للاستيلاء على الجوف. وقد عُهد إليهم بعد الاستيلاء على الجوف ومغادرة الباشا التركي، واحد من بُرجي مَارد [قلعة في منطقة الجوف]؛ والبرج الآخر لقلة من الجنود السوريين. تم ترك هؤلاء في الحامية مع «قائم مقام» للدولة. ولكن عندما مَرّ الزمن، ولم يتلقوا إعاشاتهم، قال هؤلاء الرجال ذوو الطبع الحاد القادمون من المغرب، بأنهم سيدعون ابن رشيد للعودة واستلام البلدة! وذهبوا أيضاً لمهاجمة العسكر السوريين، والذين بالرغم من أنهم في القضية نفسها، إلا أنهم رجال يرغبون في العودة إلى ديارهم، فبقوا على ولائهم للسلطان. كان للمغاربة اليد العُليا، وعندما بلغ هذا النبأ في عجالة إلى حائل، عاد الأمير مع رجاله المُسَلحين، واستعاد المكان الذي كان قد خسره مكرهاً قبل فترة قصيرة. تم نقل المغاربة ، وكان عددهم خمسة عشر رجلاً إلى حائل حيث أصبحوا في خدمة الأمير العسكرية. واحدٌ منهم (كان ثقيل الحجم لا يستطيع الركوب) تم تعيينه مسؤولاً عن بوابة القصر، ولا يُسمح لأحد أن يدخُلَ إلى هناك إلا بموافقة ذلك المغربي. في بعض الأحيان عندما يكون الشيوخ متغيبين، فإن المغاربة المسلحين يبقون في حائل، ويقيمون في القصر ليلاً، خشيةً من هجوم للبدو، الذين سمعوا العجائب عن خزانة ابن رشيد: وعليه، فإنه لا يوجد سلام وسط "الإسماعيليين"، ولا آمان حتى في عاصمة الأمير!.

تمت استعادة الجوف، بسبب إرتداد المغاربة، قبل أربع سنوات من مقدمي إلى حائل. وهؤلاء الرجال تزوجوا واستقروا في حائل، اثنان منهم فقط غادرا حائل. وواحدٌ آخر منهم الحاج إبراهيم الجزائري، والذي كان جندياً في شبابه (ويذكر كلمات الأوامر) في الخدمة العسكرية الفرنسية، كان غير سعيد بالراتب الضئيل للأمير العربي، والطعام الفقير للمضيف، وذكر أنه

حالما يبلغ ابنه الصغير المولود في حائل من العمر ما يمكنه من السفر فإنه سوف يغادر حائل. ويعد هؤلاء المغاربة العرب جَهَلَة غلاظ.

إن رواية الجوف قد تساعد في تقييمنا لأهمية الأرقام عند العرب في مواجهة قوات، تحت قيادة تركية، مسلحةً بالبنادق. في حوالى عام ١٨٧٢م تم إرسال حملة من قبل الحكومة السورية (كان الأتراك في ذلك الوقت يطمحون إلى توسيع سلطتهم في الجزيرة العربية) لإخضاع بلدة الجوف الصحراوية، التي تبعد خمسين فرسخاً إلى الشرق من طريق الحج، لطاعة السلطان. تم تجميع القوة الصغيرة في معسكر معان. وقدأخبرني محمود، الذي كان معهم بأنهم كانوا سبعين من العسكر غير النظاميين، والبقية طاقم متنافر من عناصر مختلفة لرجال مسلحين في الخدمة العسكرية، من ضمنهم هؤلاء المغاربة الذين تم توظيفهم في دمشق لهذه الحملة. أما محمد علي الذي كان في معية الباشا، قائد الحملة، فأعطاني عدداً لهم أكثر من العدد الحقيقي، مئتين من الجنود، ومئة من الشرطة العسكرية (الضبطيّة)، بالإضافة إلى خمسين من العقيلات الذين يعملون في خدمة الحج، وقادهم الباشا الكردي محمد سعيد.

تم حساب عشر رحلات أو مسيرات من معان إلى الجوف، مع جمال مُحَمَّلة. كما تم إتخاذ عناية كبيرة في الإمداد بقرب ماء كافية، لوجود مياه قليلة على الطريق. "ولكن، قال محمود، برحمة من الله أمطرت السماء بغزارة حينما كنا نتأهب للخروج، وبذلك كنا نستطيع أن نشرب من البرك الموجودة في الطريق حيث نشاء، خلال مسيراتنا اليومية." في مساء اليوم التاسع أوقف الباشا عسكره على بُعد ثلاثة أو أربعة فراسخ من الجوف، وطلب منهم إشعال أكبر قدر من نيران المُراقبة في السهل :- أولئك الذين كانوا

في البلدة، يراقبون من أبراجهم، رأوا هذا الضوء يملأ السماء وكأن كل الصحراء قد احترقت. وعند أول نقطة مراقبة مرّ عليهم بعض عرب الشرارات ـ وهم بدو رُحّل يميلون كثيراً إلى الدولة [العثمانية]، لأنهم يعتقدون أنهم مظلومون بطغيان ابن رشيد؛ ونقلوا أخبار العجائب في تلك الليلة إلى الجوف عن الجيش الكبير لعساكر السُّلطان! "يا أهل الجوف، لقد مررنا حيث يُعَسْكرون، وأنهم لا يمكن أن يقلوا عن أربعين ألف رجل. لقد شاهدناهم، والله رَهْطاً أو اثنان حول كل نار، عند بعضها يعزفون "الطمْبُور"، وعند البعض الآخر يرقُصون، وفرقهم لا حصر لها: إنك لتسير لمدة أربع ساعات وسط نيران معسكرهم!ـ وما هي الفائدة من ابن رشيد". خرج الشيوخ وسلموا مفاتيح البلدة في الليلة نفسها، واستسلموا للباشا، الذي قام في صباح اليوم التالي باحتلال البلدة سلماً.

عندما بلغ الأمير ابن رشيد النبأ في حائل، بأن بلدته الغنية في الشمال قد استولت عليها الدولة، أرسل رسالة خطية للباشا العثماني تقول: "بما أنك دخلت الجوف بدون قتال، فالآن بالاسلوب نفسه غادرها؛ وإن لم تفعل، فإنني سأتي لأخرجك منها."

انطلق ابن رشيد عبر النفود من حائل، مع رجاجيله والقرويين على ركائبهم؛ وتبعته سحابة كبيرة من البدو (قال محمد علي أن مجموعهم الكُلي عشرة آلاف، أي إن العدد ربما ألف رجل فقط). لقد كانت هناك مدافع قديمة في الأبراج: ولكن الباشا صوب نحو العرب قطعةً "إنجليزية" من مدفعية الفولاذ الجبلية، التي نُقلت محمولة على ظهور البغال مع الحَمْلة. أصابت القذيفة الأولى راكباً بدوياً من مسافة مناسبة، ولا شيء تبقى منه سوى ساقيه الداميين يتدليان من الشداد. وجَفتْ قلوب العرب من ذلك المنظر ـ إنه الموتُ

الزؤام الذي كانوا يعتقدون أنهم آمنون منه، ها هو وسطهم! ليس هذا فقط ما أخافهم بل إيضاً وصول القذائف من مسافة بعيدة جداً؛ وبالرغم من ذلك تقدموا إلى الهجوم. وقف محمود ورجاله السبعون خارج البوابات بأسلحتهم النارية الصغيرة لمقاومتهم وصَدِّهم، بينما الآخرون يمطرونهم بوابل من القذائف من الأبراج. قام ابن رشيد، الذي كان يُدْرِكُ بأن رجاجيله وجموع البدو قد لا يفيدونه، وأن أعداءه محصنون داخل الأسوار، وأن هذه البداية ضده كانت من فعل الدولة، بدعوة الباشا إلى التفاوض؛ لقد كان ابن رشيد واثقاً من أنه سيجد تركيّاً معتدلاً وجشعاً يمكن اقناعه برشوة منه. لقد التقيا، وكما يقول العرب "فهما بعضهما بعضاً". قال محمد ابن رشيد: "أعطيك إذاً الجوف" - فأجابه محمد سعيد: "ولكننا في الجوف؛ وإذا شاء الله فإننا ربما نواصل للاستيلاء على حائل." في نهاية الأمر اتفقا على أن تبقى الجوف تابعة للأمير، ولكن الضريبة تدفع للدولة؛ وتعهد ابن رشيد كتابة أن يدفع كل عام عن البلدة مبلغ ١٥٠٠ مجيدي في دمشق؛ وأن يبقى في البلدة قائم مقام مع حاميته السورية. كل من هذين الرجلين الكبيرين نظر إلى الآخر في إعجاب وتقدير؛ ومنذئذ بقيا صديقين طوال حياتهما.

وجدتُ أن هناك بعض البدو يعملون ضمن خليط الرجاجيل دفعهم الفقر إلى هَجْر حياة الترحال في الصحراء. وهم يحصلون على رواتب متدنية من الأمير، ولكن لا تتأخرُ على الإطلاق، علاوة على منزل طيني في حائل وحصص من المواد التموينية. بعضٌ من بين الغرباء في حائل كانوا في السابق خداماً للوهابي [ابن سعود]! - عَرفتُ جماعةً من رجال الرياض من الضيوف السرمديّينَ للأمير. و شارك هؤلاء في جميع غزوات ابن رشيد حيث كان يوفر لهم ركائب للغزو، ومن وقت لآخر يمنحهم طقم ثياب جديدة،

وأربعة أو خمسة ريالات؛ ومع ما يحصلون عليه من غنائم في الغزو، يصل دخلهم إلى عشرين ريالاً في السنة؛ وكانوا يتناولون وجباتهم اليومية في المضيف. لقد مارسوا هذا النمط من الحياة لمدة ستة أعوام، وهم غير متزوجين، وواحد من بينهم كان أعمى، وكان عندما يذهبُ زملاؤه في الغزوات يظلُّ بالمنزل. كان منزلهم واحداً من المنازل المجانية للأمير- حوش مُسَوّر لدوابهم، وغرفتين من الطين، وراء السوق، في الشارع القصي المؤدي إلى قفار. كنت أزورهم هناك مراراً، إذ إن أحدهم كان طالب علم ويعرف الكثير من الأشعار القديمة للبدو والمُعلقات، التي كان يقرأها عليّ من مخطوطة رقية. لقد أخبروني مراراً بأنني لو ذهبتُ للرياض فإنني سوف ألقى معاملةً حسنة. سألتهم: "ما الذي دعاكم إلى ترك دياركم وجاء بكم لتعسكروا بدون عائلاتكم في حائل؟". "إن ابن سعود (أجاب طالبُ العلم، بإيماءة عربية بيده الممدودة) في كل يوم يخفض، ولكن ابن رشيد هاـ هاـ هَا فهو يرتفع إلى فوق، وفوق وفوق [إلى أعلى]! ويكبر على الدوام." وكان يقال في حائل "ابن سعود خربان".

كان عبدالله، الأمير الوهابي، وابن الشيخ الكفيف فيصل[بن تركي]، قد جاء بنفسه قبل عامين إلى هذه الأنحاء، هارباً، مطروداً من حكومته بسبب التمرُّد الذي قاده شقيقه الأصغر سُعود. هام عبدالله لفترة من الزمن، لا يملك شيئاً، ينصب خيمته وسط البدو غرب حائل، وداخل حدود سُلطة ابن رشيد. أرسل الأمير محمد إلى عبدالله الوهابي الأغنام والإبل والخيل وكافة الحاجات الضرورية، مانعاً له فقط من دخول حائل: ولكن سعود مات فعاد عبدالله بسلام إلى ذلك القليل الذي تبقى له من سلطته السابقة. اتخذ عبدالله في ذلك الوقت واحدةً من شقيقات محمد ابن رشيد زوجة له ضمن زوجاته؛-

ولكنها ماتت، فاتخذ بعدها شقيقة لحُمود زوجة له. وبالرغم من ذلك، فمنذ العام الماضي[١٨٧٦م]، نَشَبَتْ بعض العداوات بينهما؛ وتعود هذه العداوات جزئياً إلى أن محمداً كان دائماً يغزو قبيلة عتيبة، الحلفاء المخلصين لعبد الله الوهّابي (رغم أنهم غير خاضعين له الآن). حضر مبعوث من الرياض في أثناء وجودي في حائل، وحينما كنت جالساً في القهوة ذات يوم، رآني أستخدم قَلماً من الرصاص، فاستفسر الحاضرين: "خبروني، أنتم يا مَن تعرفونه، هل النّصرانيُ ساحر!" وفيما عدا هذه لم يُظهر أي كراهية نحوي، بل كان ينظرُ بلُطف العربي تجاه الضيف والغريب. وقال له أحدهم: "إيه الآن! إذا ما ذهب هذا (الرجُلُ) للرياض، ماذا تقول، هل سيقتلونه؟" فأجاب بلطف "كلا، أعتقد بأنهم سوف يعاملونه برفق، ويساعدونه للتقدمُ في رحلته، ألم يسبق لنصارى آخرين زيارة الرياض بسلام!"

إن حائل الآن هي مركز بادية الجزيرة العربية من هذا الجانب لجبل طُويق، وداخل حدود درب الحاج السوري. وتأتي البعثات غالباً من قبائل غير خاضعة له، ولكن لا بد لهم من التعامل مع الأمير ابن رشيد. إن الأبرز من بين هؤلاء الأعراب كانوا بعض بدو قحطان، من ذلك الأصل العريق في اليَمن، ويسمون عرب الجنوب ـ كما هو الحال مع العائلة الإبراهيمية من أولاد إسماعيل بالنسبة لأصل العرب الشماليين. لقد كان الرجال يستغربون تسميتهم "بني قحطان". إن جَدّ أو الجد الأكبر لأمتهم كما أخبروني هو النبي هُود وإن منشأهم كان البلاد الجبلية المسماة الطِور في عَسير. إن "إسماعين" (إسماعيل) كما قالوا، كان شقيقاً لأبيهم هود. هؤلاء الرجال لم يسمعوا بضريح هُود في الإقليم الجنوبي، وليس لديهم علم (وتبدو لهم القصص كأحاجي العجائز) عن تصدُّع سَدّ مأرب [الذي بسببه نشأت رواية

انتشار العرب القدامى في عالم الجزيرة العربية الصغير]. لقد ذكر لي أحدهم بعض المقاطع لقصيدة معروفة لكل قحطان، وفيها مقطع شعري يشير إلى "أن رُمح النبي هُود قد شَق عنان السماء". بعضهم سألني "والله! هل يَعْبُدُ النصارى الأصنام"؟ أعتقد أن كلمة الأصنام لا ترد في تراث العرب الشماليين. كان بدو قحطان الموجودون في حائل مقسومين إلى خبرتين (جماعتين): وكانوا قد قدموا مع شيخهم الكبير الشاب حيزان [حزام](١٣)، من القصيم؛ التي استوطنتها جماعتهم خلال الستتين الأخيرتين؛ وبالتحديد في ديرة عنزة ابن مجلاد [الدهامشة]، المهجورة، بسبب طرد عُبَيد [ابن رشيد] لهم. لقد كانت هذه المجموعة تعد مئتين من الخيام، تم إكراهها على الرحيل من ديارها اليمنية التي بقيت بها بقية القبيلة.

إن رجال القبائل الجنوبيين هؤلاء، المرتحلين في حدود إقليم ابن رشيد، أُرسلوا للمرة الثانية، للتفاوض مع أمير شمّر لكي يدخلهم ضمن أعرابه وأن يدفعوا إتاوة لحائل؛ ولكن ابن رشيد الذي لا يريد أن تتوطن هذه القبيلة غير الموثوق فيها في نجد، صرفهم بقوله؛ بأنه يُمكنهم الرعي في الجوار كضيوف، على أن لا يعطوا أي فرصة على أنفسهم، وأنه يعدّهم أجانب، لذا فهو لن يفرض عليهم ضرائب، ولن يصدر أي أمر للقبائل بشأنهم. أجاب رُسل قحطان بقولهم: "والله! يا المحفوظ، ألسنا أخوانك؟ أليس ابن رشيد جعفرياً من عبدة شَمّر، التي هي من عُبَيدة قحطان؟" ولكن الأمير محمد رد بقوة: "إننا لا نعرُفكم، فكلامكم غريب على أسماعنا، وعاداتكم لا تمت لنا بصلة: اذهبوا الآن، إننا لسنا منكم، وسوف لن نساعدكم ولن نؤذيكم." إن هؤلاء مَمقوتون بشدة في الرياض، لأن تخليهم عن السلطة الوهّابية القديمة تسبب في إضعافها. وهؤلاء الأعراب الدخلاء الآن مطوقون من كل الجهات،

فأعراب نجد يضغطون عليهم، وكذلك تفعل قبيلة عتيبة من الجهة الجنوبية.

بدا لي بإن الرجال يتكلمون العربي البدوي بصورة جيدة جداً، مع اختلاف بسيط عن نُطق بدو نجد، عَدا ذلك فإنهم ربما يتكلمون بطَلاقة أكثر. عندما كان هؤلاء يقيمون في البلاد الجنوبية، كانوا يجلبون مؤنتهم من التمر من وادي الدواسر؛ أخبرني أحدهم بأن بساتين النخيل تبعد عن مناطقهم بمقدار ثلاث رحلات للذّلول ـ دون فترات توقف طويلة ـ في بطن قاع رملي، وأن جميع مياههم هي من الآبار. وقال لي إن سكّان الوادي أهل كرم. والنزاعات فيما بينهم هي التي تخلق الكثير جداً من المشكلات في البلاد، فالقرى في تلك المنطقة هي في الغالب في حالة عداء مع بعضها بعضاً. فالأفلاج (جمع فَلجْ ـ مثلما يعتقد بعض العارفين ـ والتي قد تعني (إنشقاق الجبل) هي في جبل طويق. والقرويون فيها هم من الدواسر. وقدر محدثي المسافة من الرياض إلى الأفلاج بثلاث رحلات على الذلُول، وإلى وادي بيشة باثنتي عشرة رحلة على الذلول، وذكر لي أسماء هذه الأماكن على الطريق وهي: الفرعة والسُلَيّل وليلى والبدايع، وسَيله والهدار وحَمر والسيح: بعضهم سألني إن كنتُ قد سَمعْتُ بقصة قصر ابن شدّاد. ويوجد بقر الوحش في منطقتهم، ويسمونه أيضاً الوُضيحي. إن رجال قحطان هؤلاء قطعاً لا يختلفون في أي شيء عن أي بدو آخرين قد عرفتهم؛ وكانوا ذوي بشرة فاتحة، وليسوا سمراً بالدرجة التي عليها كثير من الأعراب الشماليين.

إن أعراب قحطان الذين تحدثتُ إليهم في المسحب كانوا مسرورين عندما أكدتُ لهم تاريخهم العريق وأصلهم النبيل على مَسْمَع من رجال قبائل نجد، الذين لم يسمعوا عن ذلك التاريخ حتى تلك الساعة. وجّهَ الرجال الدعوة لي لزيارتهم مساءً في مخزنهم[مقر ضيافتهم]، عندما سيشربون القهوة مع

الشيخ. كان هؤلاء البدو لا يحضرونَ إلى مجلس القهوة العام في القصر، إما بسبب تدخين التبغ هناك، أو لأنهم كانوا على عداء مع معظم رجال القبائل الآخرين: كانوا يشربون قهوة الصباح وقهوة الظهيرة لوحدهم في مخازنهم الخاصة بهم؛ ولكنهم كانوا يحصلون على حبيبات البن من مطبخ الأمير. بعد العشاء توجهتُ أنشُدهم، فدعاني شيخهم الشاب حزام على الفور للجلوس إلى جانبه، وفي بادرة جيدة قدم لي الفنجان الأول من القهوة. كان هذا شاباً وسيماً يتمتع بكل صفات الرجولة، ولم يكن هناك أي شيء فيه تتمنى تغييره، وكان الزهرة من بين جميع الذين قابلتهم من عرب الجزيرة العربية: لم يعان في حياته من أي عوز في الخلاء. في ملامحه، مع قليل من وحشية سنين الشباب، تظهر صلابة مقبولة: ولم يظهر شعر اللحية بعد على الوجه النضِر الصلب لحزام. لقد اكتملت وسامته بأطول وأكبر ضفائر مجدولة، حيث تنتشِر عادة ضفر الجدائل وسطهم؛ كان كبيراً في حجمه، وذا أطراف قوية؛ ولكن كل هذا لم يُدمْ!

لقد كانوا يتناقشون حول الدين؛ وذكر شيخهم المُتعَصِّب الشاب أن واجبات المسلم تكمن بشكل رئيسي في ثلاثة أمور: "الصلاة اليومية خمس مرات، وصوم رمضان، وإخراج الزكاة." إنهم متدينون جداً، وفي الوقت نفسه على غير هدى! وحديثهم الدائم (بدون نفاق) هو عن الدين، الذي هو بالنسبة لهم تعبير عن الورع، وبالنسبة لنا هو تعبير عن الحزن، وشيء غريب، وغير مريح. خلال وقت قصير من وجودي بدأت مناقشتهم تتقلب نحو كوني نصرانيًا. بعد ذلك قال حزام لواحد من جماعته: "أعطني من هناك "قديميتي" وهو خنجرهم المعقوف الذي يتمنطقون به وسط أبدانهم. ثم وهو يحمل النّصل الكبير في الهواء، ويستديرُ به نحوي قال: "صلِّ على النبي"،

فأجبْتُ: "إننا جميعاً نعبدُ الإله الواحد. لا يمكنني أن أتخلى عن نصرانيتي، ولا أنت سوف تفعلُ ذلك لو كنت رجلاً عاقلاً"؛ ولكن بينما هو مايزال يوجه الخنجرَ نحوي قلتُ له: "أي خنجر هذا؟ وخبر هؤلاء الحضور عما إذا كان قصدك أن تُلحق بي أذى؟" عندئذ وضعه جانباً وكأنه قد شعَر بالخجل أن تشاهده الجماعَة وهو يُهدّد بوحشية ضيف قهوته؛ وهكذا وهو يعود إلى مَسْلَكه السابق أجابَ عن جميع أسئلتي وقال: "تعال إلينا في الغد، وسوف نقدمُ لَك القهوة، وعندئذ سَلْني ماتشاء، وسوف أخبرك بكل شيء كما هو." وعندما قلتُ "إن لديكم الكثير من اليهود في بلادكم اليمن" انزعج الشابُّ المتعصب كثيراً لسماع ذلك. ثم سألت "وذلك الخنجر من أين هو؟" - "من نجران" - "وفي نجران أليس هناك صُناع يهود؟ ألم يكن الحدّاد الذي صنع لك نَصْل الخنجر يهودياً؟ وأصدر البدوي الجاهل الشاب، الذي اعتقد أنني أعرف الحقيقة، صريراً من بين أسنانه قائلاً "الله يُسَلِّط عليهم" - عندما ذهبت إليه في الصباح وجدت الشيخ حزام يجلس بمفرده؛ وقد انتظرني بكياسة غير عادية حيث إنهم يرون أن من أقبح الأمور أن لا تفي بوعودك. وهكذا قال: - "لنذهبَ إلى الجماعة في المخزن الثاني، لقد وجهوا الدعوة لنا، وسوف نشربُ قهوتنا هناك."

عندما جئت في مساء يوم آخر إلى جماعة قحطان لأستمع إلى قصائدهم لم يرُد حزام على تحيتي بالسلام. وبمجرد أخذي لفنجان القهوة طلبَ الشيخ الشاب من أحدهم، مثلما فعل قبل ذلك، أن يحضر له "قديميته." وهو ممسك بالسلاح في نظرات قاسية أدار نفسه من جديد نحوي، وقال: "صلِّ على النبي" أجبت "أيها البدوي الجاهل، كيف يحدثُ أن أكون مُلمٌّ بدينك أكثر منك!" - "أنت ملمّاً بديني أكثر مني! صلِّ على النبي" - (بعض الحضور

من قحطان قالوا عندها: "لا يا حزام، إنه ضيفُك"ـ فقلت له: "إذا قُدر لك أن تعيش قَدرَ سنين هذه اللحية [وأشرت إلى لحيتي]، فإنك سوف تتعلم أيها الشاب، أن لا تقدم على عمل عنيف ضد ضيفك." فكرتُ إنني إذا ما قلت، ضيف الأمير، ربما كان ليجيب بأن الأمير سمح له! وفي اللحظة نفسها سيطر عليّ خاطر وحيد يكاد يكون اقتناعاً بأن موت الشاب الوسيم هذا قد أصبح وشيكاً؛ وأنه على الرغم من أن حياتي مهددة يوميّاً في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، وعلى الرغم من صحتي العليلة، بأنني سأظل على قيد الحياة من بعده. أضفتُ قائلاً "إن قهوتك كانت في حلقي عندما رفعت الخنجر في وجهي؛ ولكن أخبرني أيها القحطاني، ألا تُراعي أعراف البدو؟" بعضهم أجابني "أي والله! إننا نفعلُ ذلك"؛ لكن حزام ظل صامتاً، حيث إن بقية الجماعة لم يوافقوه، والعرب ليسوا على اتفاق إلا على عقيدتهم، وهذا من أسباب سلامة المرء الذي يُغامر وسَطهُم.

لقد قُتل حزام بعد أشهر قليلة في معركة مع أصدقائي[من أهل عنيزة]. لقد أصبحت قصتي مع حزام في اليوم التالي موضوع للثرثرة في البلدة، وبلا ريب تم نقلها للقصر، إذ سألني مبارك في القهوة الكبيرة: ـ "خليل، ماذا عن قحطان؟ وماذا عن حزام، الذي رفع عليك الخنجر ليطعنك، ألم تخف الموت؟" ـ "لو كنتُ أخافُ من أي كلمة، فهل كنت أدخلُ بلادك العربية؟ ولكن أخبرني، ما هو رأيك بذلك الجاهل الصغير؟" ـ مبارك الذي كان في أوقات مضت، الناطقُ باسم الأمير، لاذ بالصمت المُطبق.

إن هناك روايات قبيحةً تتناقلها حالياً أفواه عرب نجد عن قحطان. ويُشاع عنهم عموماً بأنهم آكلون للحوم أعدائهم؛ . . . . . وأنهم "يغدرون بكلمة واحدة، ولأي سبب تافه مستعدون لإشهار سلاحهم." لقد أخبرني

أحد الأشخاص عندما كنت في القصيم برواية غريبة عنهم، ادعى بأنه شاهد عيان للحادثة: "كان هناك بعض من فرسان قحطان، عائدين مرهقين وخالين الوفاض من غزوة، وعند مرورهم بجوار الرَّس، وجدوا عبداً من القرية خارجاً في الخلاء، فانقضوا عليه وأوثقوه وحملوه معهم. وقبيل المساء نزلوا في النفود، وكانوا في حالة من الإعياء بسبب الجوع الذي عانوه خلال الأيام السابقة؛ وقرروا فيما بينهم "إننا سوف نقتلُ الرهينة ونأكله، فقاموا أيضاً بجمع الحطب من أجل نار كبيرة لشواء الرجل الأسود بعد تقطيعه، كما يفعل المسافرون والصيادون في البراري خلال ممارستهم لصيدهم. ولكن في تلك اللحظة ظَهرت عصابة أخرى مسافرة عبر النفود! فركب هؤلاء بسرعة على جمالهم لأنهم رأوا أن القادمين أكثر منهم عدداً، وحسب عادة البدو حثوا دوابهم وانطلقوا هاربين. هؤلاء الذين وصلوا كانوا بعض القرويين الطيبين من القصيم، والذين قاموا بفك وثاق العبد، الذي أخبرهم بقصته (بعيدة الاحتمال). إن هؤلاء هم الأكثر تعصباً، ومتدينون جداً حتى في جرائمهم. ولذلك يقال عنهم في نجد "تقتل قحطان الرجل لشربه الدخان (التبغ)، وهم أنفسهم يشربون الدم البشري." ولكن أشخاصاً من الشيوخ في عنيزة أخبروني بأن قحطان في اليمن يقسمون على شربهم للدم البشري؛ وأيضاً لا يُزوْج الرجل منهم ولا يفك عصابته الجلدية إلى أن يذبح عدواً."

زار شيخ آخر من قحطان حائل قبل عامين، وبعد مناقشته أمورهم مع الأمير ابن رشيد قال له الأمير: "في جميع غزواتي عبر بلاد البدو، في اتجاه الجنوب، لم أشاهد مطلقاً مقبرة لقحطان". وقد قيل إن الشيخ أجابه (في فخر واعتزاز): "أي والله، يا الأمير، لقد شاهدت قبور قحطان في الهواء!- الغربان والرّخم والعقاب." لقد كان يعني أن جثثهم تبقى في العراء غير

مدفونة - تلك هي العادة في ميادين المعارك في الجزيرة العربية؛ والذين يخرّون صَرْعى من الجانب المهزوم يظلون في العراء بلا دفن. وهذا ما حصل أيضاً لحزام عندما قتل في فصل الصيف التالي: وعند مروري بعد أسبوع من مقتله في المنطقة نفسها، تفادى رجال القافلة ذلك المكان المشؤوم.

لقد سبق ذكر شيء عن نسب ابن رشيد. إن قبيلة شمَّر ليست مثل مُعظم القبائل البدوية الكبيرة المعروفة بانتسابها إلى جدّ واحد، ولكنها حسب الرأي السائد في نجد ذات أصل مختلط. وآخرون يقولون أن جدهم المؤسس للقبيلة كان يدعى شمَّر. وتنقسم شمَّر إلى بطون ذكرها لي أحد المتعلمين من السبعة، من بدو عنزة، المقيمين في حائل. يعود نسب "عبدة" إلى عبيدة قحطان، ومنهم الجعفر الذين منهم عائلة ابن رشيد، أما البطون الأخرى فهي كثيرةٌ وليست من أصل واحد وهم: سنجارة، والتومان، والأسلم، والدغيرات، والغيثة، والعمود، والفداغة، والثابت، والعفاريت، والزميّل، والهمزان، والسيح، والخرصة، وزويع، وشمَّر طوقة (في العراق).

لا أحد من سكان البراري يعرفُ الحرف (متعلم)؛ وكانت سعادةً جديدة لي أن التقي هنا ببدوي متعلم، مثل بصير بين عميان، لأنه تلقى تعليماً جيداً، ومجتهداً وذهنه منفتح بفطرته إلى التعليم الجيد. كان اسمه رشيد، نشأ كطالب علم في الرياض؛ ولكنه هجر منذ أمد دولة الوهّابيين المضمحلة، وارتحل إلى حائل حيث أصبح رجل حمود ومحل ثقته وخدمته. كان يقوم كل عام برحلة علمية إلى إحدى المناطق النائية. لقد كان في العام الماضي، كما أخبرني، في رحلة إلى أرض إسرائيل [فلسطين]، حيث زار بيت لحم "مسقط رأس المسيح" (قال ذلك بخشوع)، وبيت المقدس. إن لدى هؤلاء العرب استعداداً ذهنياً، للانخراط في أي طريق للتعليم ولكن يبدو أنهم فقط

يفتقدون للفرصة لتحقيق ذلك. كان رشيد رجلاً لطيفاً، ذا عقلية منفتحة (كم تمنيت لو كان معي رفيق مثله في رحلاتي عبر الجزيرة العربية)، ولكنه خجول جداً كبدوي خاضع لسادته: وتقريباً كان لا يجرؤ أن يراه أحد وهو يناقش النّصراني، خشية غضب الشخصيات الكبيرة في البلدة. ويقال إن هناك مستوطنة نائية في العارض، اسمها علية، يعود أصل سكانها إلى شمَّر.

ذات يوم وجدت رشيد يحمل كتاب الجغرافيا الخاص بي في المسحب. وكما ذكر فإن ماجد أرسله بالكتاب إلى أحد المتعلمين في حائل، وهو قاض، فصحبته، ولكن حينما وصلنا لداره لم نجد الرجل المتعلم في منزله. سَمعْتُ أن القاضي قد وضع شجرة أنساب، عرض فيها تفرعات أصولهم العربية. ذهبت في يوم آخر لزيارته، ولم أتمكن من الاهتداء إلى المنزل البعيد لأن سيّافاً للأمير، لقيته يجول في ملابسه الزاهية، ضللني في وصفه لموقع المنزل، وعندما وصلتُ وجَدت الشخص الضَّحْل يجلس هناك قبلي! إنهم مخادعون ماكرون في التفاهات، ومملوءن بالشكوك الآسيوية. وعندما أنَّبْتُهُ، لم يستطع أن يَرُد بكلمة واحدة، فقط كان يتحَسَّسُ حافة سَيفه، مما جعلني أتكهن بأن لديه الرغبة الأكيدة في أن يجعلني أجرب وأتحدى سلطته ليضع سيفه على عُنقي. كان الرَّجُل نفسه فيما بعد لا يألو جهداً للدفاع عني من وقاحة الآخرين.

حَيّيتُ القاضي، الذي بالكاد رد على تحييتي: "ماذا تُريد؟ قال المُعلّم؛ - إن كل تعليمهم، ينصب على الظهور بأنهم يجيدون اللسان العربي - وكان يجلسُ تحت جدار منزله في غبار الشارع، إن كل وقارهم لا يختلف عن تقلبهم السريع. وبادئ ذي بدء أراني ساعته، وسأل "ماذا مكتوب على واجهتها؟" ثم أرسل في طلب كتاب، وأراني في صفحات مُلحقة، صوراً

من بعض النقوش التي وجدها منحوتة على الصخور في المناطق المجاورة (كانت مكتوبةً بحروف نوعاً ما حميرية نسبة إلى الحِمْيريّين وهم عرب اليَمن القدماء) وسألني: «هل هذه إغريقية، أم هي موسكوفية؟» أجبتُه: "أأنت جاهلٌ لهذه الدرجة حتى في لغتك الأم! إن هذه حمْيرية، -سَمعتُ أنك رجلٌ مُتعلم، ومن هذا المنطلق المشترك يُمكن أن نكون أصدقاءَ. ورغم أن اسمك مسلم واسمي مسيحي، فنحن جميعاً نقول لا يوجد إلا رب واحد"- "إنني أعرف عن كفر المسيحيين؛ إنهم يقولون إن الله مولود، وأن الإله الواحد قد أصبح أكثر من إله! كلا! ولكن إذا ما تخليت عن دينك وأصبحت مسلماً! فإنني أعتقد بأننا سوف نتفقُ"- "أأصْبحُ مسلماً! أعتقد بأنك لا ترغب بأن تصبْحَ نصرانيّاً، ولا أنا أصبح مسلماً، أبداً!: ومن بعد، ألا نستطيعُ أن نكون أصدقاءَ في هذه الدنيا، وباحثين عن المعرفة الحقيقية"-" مَعرفَة المسيحيين! لا، إن تلك ليست بمعرفة، وأقرب إلى الجهل"- "كيف يُقال إنك عالم! وأنت لا تعرف حتى حروف لغتك. ولا تعرف شكل وحجم اليابسة، ولا أسماء مئات من الأقطار والأمم العُظمى، أما نحن بواسطة علم ملاحتنا أصبحنا جيراناً لكل الأمم، إننا نطوّقُ الأرض في لحظة بكلمة. ألم يقل سليمان بن داود: إن مَجْد وعَظَمة روح الإنسان التوّاقة هو أن تبحث في آيات الرب؟، إنك لا تدري شيئاً عن هذه الآيات من الكتاب المُقَدَّس، ولكن أطفالنا الصغار يقرأون هذا الأشياء ويفهمونها." لم يجد المُعلم كلمةً تُسْعف لسانه؛ و ربما شَعَرَ آنذاك وكأنه راهب يخرج من صومعته، ليدركَ أنه لا يعرف شيئاً، وأنه قد أخطأ بدخوله بمناقشة مع الغريب. لقد سكَنَ وهدأ، وكذلك من كانوا يجلسون معه.

في ما بعد، وأنا ألتقي رشيد، سألني: "كيف وجدته، أيعرف الكثير؟" -

" القرآنَ، والمعلقات، والقاموس ومدوناته (حركات التشكيل في كتابتهم)، وسوى ذلك لا يعرفُ أي شيء البتة" - "إنهاَ الحقيقة، وأعتقدُ أنك لم تُحبه" ؛ لذلك بدأ لي أن القاضي المتديِّن والمُتَعلِّم كان لا يحضى بالاحترام، لسوء طبعه، في البلدة. أثناء حديثنا عن النقوش القديمة المنحوتة، عندما كنا في قهوة عُبَيد، قال مُعَلم ماجد لحُمود: "ألم نر الصخور في جبة مملوءةً بها؟" إن جبة قرية صغيرة في أطراف النُفود تلي جبل شَمّر على الطريق إلى الجوف.

لقد وجدتُ أن دراسة الآداب في نجد تحظى بأعلى تشريف وسط التُّجار الأثرياء في عنيزة. أما في حائل فإنها كانت في بدايتها: ولوأنه يُقال إن حمود والأمير من المالكين لاثنين أو ثلاثة آلاف مُجَلد من الكتب (ولكن من ذا الذي يُصَدّقهم!). لقد وجدتُ في قهوة عُبَيد ما لا يربو على اثني عشر مجلداً في غلافها القطني، ومجلدة بجلد أحْمَر: ولكن بمقدار قلتها، قدرت قيمتها أكثر، فهم كأمراء يجب أن لا يكونوا طوال حياتهم في المدارس. يسألني حُمود أحياناً عن فن الطباعة، وعما إذا كنت أستطيع أن أريُه كيفية ذلك؟، ولكن عندما أجبتُ بأنه يستطيعُ أن يشتري لنفسه مَطبعة من بغداد بمبلغٍ ليس بالكثير، أصيبَ بالإحباط، إذ إنهم لا يرغبونَ في الإنفاق على أي شيء. إنه لشيءٌ رائع ذلك الجهل البدوي، الذين يمضون حياتهم فيه، بعالم الطبيعة. ذات مساء سألني حمود: "هل يرى النصارى، يا خليل، القَمر؟" - إن ما يقصدُه قد يكون -، الهلال الجديد شعار سُلطان الإسلام، القَمرُ إذاً هو قمر المسلمين؛ - القمر ليس للأديان الأخرى! "

لقد كان في حائل أربع مدارس عامة. كان مدير إحداها شاباً متعصِّباً، ذا مظهر مُنحرف، ينفث يومياً بوقاحاته المعبرة عن حقده وضغينته على جميع الجهلة في مجلس القهوة: كانت تعبيراته قاسية، ونظراته التي تشبه نظرات

الأفعى كانت تعبيراً عن وباء أخلاقي. في ذات يوم نادى عليّ بصوت عال، وكان يتبسمُ بأسلوبه الخاص، أمامهم جميعاً قائلاً: "ياخليل، لماذا تتمسك بشدة بالضلال؟ هلا حضرتَ لمنزلي غداً، لأضع أمامك البراهين من كتابك المُقدس. إنك سوف تقرأ نبوءة حزقيال والبَيّنات الأخرى؛ وبعدها، إذا أراد الله فإنك ربما تنطق بالشهادة، وربما تعترف بإنك كنت لزمن طويل أعمى وقد وجدت الحق، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله." فأجبته بالقول: "هل ستُصَدّع رأسي في مجلس قهوة الأمير حول أسئلتك عن الدين! بينما لم أحضرُ هنا إلا لتناول فنجان من القهوة مع أصدقائي: أجاب البدو نيابة عني "لقد أحسن القول؛ السلام أيها الشاب؛ ودَعْ هذا الغريب وشأنهُ" - "إنه الأمل في أن يترك هذا الرجل عقيدته؛ ألم يكن الأمر كذلك مع اليهودي قبله؟"

رغبةً مني في أن أرى كتاباً في حائل باللغة العربية عن النبي حزقيال! ذهبتُ في ظهيرة اليوم التالي إلى داره، التي وجدت أنها بالقرب من المسحب، قريباً من ساحة الحيوانات المملوءَة بالروائح الكريهة مثْلَه. وبادرني بقوله: "آه! مرحباً، وأتمنى أيضاً أن تكون قد جئت لتلقي الحقيقة." قام بوضع التمر أمام الغريب، وأحضر كتابه، الذي وجدتُ أنه جزء من كتاب ديني كتبه أحد علماء المسلمين، والذي في موضع مُعين اقتبس قولاً للنبي [حرقيال]، ولكن في الأجزاء الأخرى أشياء ذات معنى قليل. إن للعرب موهبةً غريبةً في الاستفادة من هذا العالم، ولكنهم جميعاً أطفال نصف بالغين في الدين. "حسناً (سألتُ) هل هُناك أكثر من هذا؟ وكنت تقريباً على أمل لأصلحَ نفسي!" ولكن الشاب، والذي بدا وكأنني قد جرحتُ كبرياءه، كان مستاءً من نَفسه، ومن ثم تركته وغادرتُ. كان مدير المدرسة مُعيناً من قبل الدولة؛

يتناول وجبات بائسة في المضيَّف، ويتلقى إضافة إلى ذلك بضعة ريالات في العام، وغياراً من ملابس.

إن العرب يتم كسبهم باللطف والنية الحسنة، ويقتنعون بالمجادلة الحسنة، وقبل أن أغادر حائل تمنى أعدائي القدامى لي كل خير من قلوبهم. واستخدام كلام صريح ليس فيه مجاملة أمر مقبول عندهم من السيَّاح، أو الزاهدين الهائمين في الصحراء. إن من أفضل الأشخاص الذين التقيتهم هنا كانوا ممَّن سبق وكانوا في مصرَ وسورية، أو قادة خيل الأمير الذين يذهبون لبيعها في بومباي، حيث أخبروني، في دهشة سارة، بأنهم شهدوا سباق الخيل في الهند؛ وهم رجال ينظرون للغريب، مثلما كانوا هم أنفسهم في أرض أخرى، بنظرة من الطيبة والفهم. وكانوا يقولون عن جماعتهم بأنهم لم يتعلموا العادات الحسنة ولم يصلحوا من أنفسهم بمشاهدة أقطار أجنبية؛ وإلا لما كانوا يُضايقونك يا خليل من أجل ديانتك؛ التي فيها يجب أن لا يُجبر أحد على اعتناقها. ـ لقد علّمنا أنفُسَنا بالأسفار، وأيضاً شاهدنا النصارى ـ وثروتهم وعبقريتهم، وعدالتهم وحريتهم. "

أصبح الطقس الذي كان شديد الحرارة لفترة بعد قدومي إلى حائل بارداً. إن الثلوج، التي ربما توجد خلال معظم فصول الشتاء على القليل من قمم الجبال العربية، لم يُعرف أنها قد هطلت في براري نجد، على الرغم من أن متوسط ارتفاع المنطقة يصلُ إلى ٤٠٠٠ قدم تقريباً. يقولون إن مثل هذا يحدث "مرةً كل أربعين عاماً". لقد سقط الجليد قبل شتاءين ماضيين، عندها بقي الثلج لمدة ثلاثة أيام على الأرض؛ تم وضع الإبل في المنازل، والعديد منها نَفَقَ من ذلك البرد القارس ومن الجوع.

كان يتم إيقاد النيران صباحاً ومساءً في القهوة الكبيرة، وكنت أذهب إلى

هناك لأستدفئ مع البدو. في إحدى الأمسيات، وقبل أن يصل أي أحد اقتربتُ لأدفئ نفسي عند موضع النار- "ابتعد! (صاح خادم القهوة، الذي كان متعصّباً) ودع النار للضيوف الذين سيصلُون قريباً. " دخل بعض البدو وجلسوا إلى جانبي. "أقول ارجعوا! " صاح خادم القهوة. "لحظةٌ يا رجل، وأكون قد دفأتُ، ألسنا جميعاً ضيوف الأمير؟ " همس بعض البدو في أذني: "من المستحسن أن ننصرفَ، وأن لا نعطيهم الفرصة. " كان ذلك القهوجي يبدي كل يوم حقدَه عليّ، وكان يقطع حديثي مع البدو عندما يسألني أحد عن وجهتي القادمة، فيصرخ قائلاً: "إلى جهنم! " لقد سَمِعْتُ أنه كان من رقيق عنيزة في القصيم؛ ولكن لأنه يحصل على الاحترام من شيوخ البدو من الضيوف، فقد أصابه الغرور بنفسه واعتقد بأهميته. فكرت أن الاستسلام لطغيان الخادم قد يشجع المتعصبين الآخرين عليّ في حائل مما جعلني لا أطيقه. صاح خادم القهوة في صوت متقطع في أحد البدو الجالسين قائلاً: "ناولني العصا " (يحملها البدو الرُحّل بشكل دائم في أيديهم)، فخطفها منه، وضربني العبد بكل قوته. هبّ البدو واقفين حولي بنظرات قَلقة- ربما كانوا يشعرون بأنهم أنفسهم غير آمنين؛ ولم يَجْرؤ أحد من هؤلاء الشيوخ على قول أي كلمة؛ أشاروا عليّ بالانسحاب معهم فقط، وأن أجلس معهم بعيداً عن المكان. لقد كان الأمر محفوفاً بالمخاطر أن أدافعَ عن نفسي وسط الجبناء؛ وإذا ما انتشر الخبر في البلدة بأن النّصْراني قد ضربَ مُسلماً، عندها سوف تضطرمُ النار في العديد من الصدور للانتقام مني. وعليه ينبغي أن يَسْمَعَ الأمير بالأمر وأن يُقيمَ العدل، وإلا فإنني مادمت باقياً في حائل فإن أي متسلط سوف يعتقد بأن له الحق في الإساءة إليَّ. مررتُ عبر الرواق إلى جناح الأمير، وسمعتُ وأنا أطرقُ الباب الحديديَ العبد الصبي الذي يحرُسُ الباب

يقول للحرس إنه خليل النَصْرَاني. أرسل الأمير ناصر ليستفسر عن أمري، وذهبتُ لأجلس في المسحب. لاحقاً جاء أحدهم من القصر، وقال بأن الأمير أرسل في طلب خادم القهوة في الحال وأنه قال له: "لماذا! الله يلعَنْ أبوك، ضربتَ النصراني"؟- "والله يا المحفوظ (أجاب البائس مُرتعشاً) لم ألمسْه!"- لقد خاف من الأمير، الذي قال لأحد الحراس "إجلده!"- ولكن حمود نهض وذهبَ إلى الأمير وقبّلَ يدَ ابن عمه راجياً، من أجل خاطره، أن يُسامِحَ خادم القهوة لأنه مسكين. "اذهب ياقهوجي، قال الأمير، وإذا سَمعْتُ مرة أخرى بشيء من هذا القَبيل فلا شيءَ سوف يُنْقِذُك، وسوف أطردك مِن وظيفَتكَ." ولأنني هَجَرتُ القهوة فإن الخادم الآخر فيها حضر مرات عدة إلى مخزني راجياً مني أن أعود إليهم؛ ولكنني رددت، "حيث لا يأمن ضيوف الأمير من الإهانة -!"



كان موسم الحج يقترب؛ - وهذه قافلة ابن رشيد من بلاد ما بين النهرين حاملة حجاج فارس إلى مكة على وشك الوصول:- وإذ وجدت أن الطفل فيصل قد تعافى تقريباً، فكرتُ أن أغادر حائل، لأنني لا أجد إلا القليل من الراحة على الإطلاق، أو ما ينعشني فيها. ولأن الأمير كان قد تحدث معي عن المناجم والمعادن فقد ظننت أنه سوف يرسل معي أحداً على صهوة جواد إلى هنا وهناك بحثاً عن المعادن:- ولكن حينما أضاف "إن هناك رمالاً لماعة في بعض أجزاء الخلاء تشبه صفائح الذهب" أجبت بالصراحة التي يمكن أن تثبط عزيمة العربي. كذلك تحدث معي حمود عن موضوع البحث عن المعادن.

دعاني مبارك ذات صباح إلى منزله لتناول القهوة، فله منزل حسن بجوار المسجد، في الجهة الخلفية للمسحب. وجدنا ابنه الصغير يلعب في الفناء؛

أخذ الأب المقاتل طفله بين ذراعيه في رقة العرب مع أطفالهم. يمنح الأوروبي الحب الأول في البيت لوالدة الطفل؛ ولكن بما أن الزوجات العربيات لا يأتين متقدمات بابتساماتهن وعيون الحب لاستقبال أزواجهن، إذ أنهن خادماتهم المُطيعات، واشتروهن من أهلهن، وعلى أفضل الأحوال، فإن حب العربي مقسمٌ. صاح الطفل: "إنك لن ترى الجنة يا نصراني!"، فقلت: "يا بنيّ، إنني سأراها مثل أي شخص آخر أو أفضل، وتعالَ حبني!"، أي قَبِّلْني، إذ أن الغرباء من العرب يُقَبِّلُونَ أطفال مضيفهم. عندما سألني بعض رجال البلاط الشبان "فين ربُّك؟"، أجبتهم بحزم "في كل مكان". وكانوا مسرورين كثيراً من كلمة النصْراني هذه بصورة غريبة، وخلال وقت قصير كانت على جميع ألسنتهم في القصر.

حينما جلسنا على الحصير قال مبارك: "يا خليل إننا نرغبُ في أن تقيمَ معنا في حائل، صر مسلماً، إنها كلمةٌ بسيطة يسهل نُطقُها. وسوف تعرف الكثير عن البلاد، وتَحظى بفرص كثيرة ويتم إرسالك في أعمال للأمير إلى هنا وهُناك. إن الأمير سوف يرقى بك إلى منزلة عاليَة، ويمنحكَ منزلاً يمكنك فيه أن تقضى حياتك في راحة، متحرراً من أي هموم، وتنام على الجنب [الجانب] الذي يُعجبُك. وعلى الرغم من أن الذي نستطيع أن نقدمه ليس بالكثير الذي يليق برجل في مكانتك، وليس مثل ما قد تجده في ديارك، ومع هذا فكّر في أن بلادك بعيدة جداً، ولترجعَ إلى هناك ثانيةً، فإنك ستواجه مخاطرَ كثيرةً وجديدة". لا شك أن مبارك كان يتحدث باسم الأمير، وكان وعده معقولاً، وأعتقدُ بأن المنصب الذي يعرضه عليّ ربما يكون جمع الضرائب؛ وهم في مسألة الأموال يثقون بسرعة في النصّراني.

تلك الريالات الستة أو السبعة التي كسبتها من بيع ناقتي قمتُ بوضعها مع

قطع قليلة من الفضة في صندوق صغير مع أدويتي، إكْتَشَفْتُ في أحد الأيام أنها قد سُرقت، ما عدا ريالين وبعض الفئات الصغيرة؛ والتي تركها لي السارق لتقواه، أو خشية من لعنة المسيحي وعقاب السموات. إنصَّتْ شكوك أصدقائي على شخصين. الرجل الأبْكم، الذي دخل منزلي مراراً، لأسباب واهية، وبدوي من الرجاجيل في حائل، كان يتسم بالكآبة المزمنة؛ كان هذا البدوي قد اشترى الناقة مني، وحضر مرات عدة فيما بعد إلى مخزني لمعالجته من مرض عينيه. سَمعْتُ الآن أنه يسرق محافظ الحجاج الفُرس، وأكَد الجيران أنه قد سرق بعض محافظهم. عندما تحدثتُ مع حمود عن هذا الضرر الذي لحق بي، تظاهرَ بمكْرِ العرب بأنه لا يُصَدقني. نظرتُ عندئذ في محفظتي، ولم تكن هناك الثلاثون ريالا! سَلمتُ خيمتي إلى الدلال المتجول لبيعها، وحصلت على أربعة أو خمسة ريالات إضافية. قام الدَلالُ ببيعها لشاب نبيل، وكان سيذهب للحَج لمسافة ١٦٠ فرسخاً أو أكثر عبر الخلاء إلى مكة. قام مبارك بوضع سيفه على عُنق الرجل الأبكم، ولكن الرجل احتج معبراً بجميع الإشارات الملتهبة العنيفة في العالم، مؤكداً أنه بريء من هذا الجرُم. أما في ما يتعلق بالبدوي فإنه لم يُعثر عليه في حائل.

كان متقدمو ركب الحجيج قد وصلوا إلى حائل: سَمعْنا أن عدد الحجاج لهذا العام قليل. شاهدتُ الآن الحشد السنوي في حائل من رجال القرى والقبائل، الذين سوف يتبعون القافلة للحج، وتُجار البضائع الرخيصة الذين يحضرون للمتاجرة مع قافلة الحج :ـ البعض منهم يحضر تُموراً من القصيم من مسافة تربو على المئة ميل. وكانت هناك جماعةٌ من قرى الجوف أقاموا في المخازن المجاورة؛ لقد كانوا أكثر من خمسين رجلاً، سافروا لمدة عشرة أيام عبر النفود تحت وطأة أمطار الشتاء والطقس العاصف؛ ولكن تلك المسافة

بالكاد تصل إلى ثلث مسيرتهم الطويلة (لمسافة سبع مئة ميل) إلى مكة. سألتُ واحداً من الرجال المُنهكينَ منهم، والذي حضر إليّ يرتعشُ من برودة الصباح، كيف يتوقع أن يكملَ وينجز رحلته الدينية ويعود إلى الشمال في الأشهر الباردة دون خيمة. فأجابني "من مات مات، ومن عاش يكون الله قد حفظه". أخبرني هؤلاء الرجال أن المسافة من الجوف إلى مشهد [علي] ثماني رحلات على الجمال، ومن مشهد [علي] إلى دمشق تسع رحلات، وإلى معان رحلة خمسة أيام فوق ذلول، أو تسع ليالٍ مع جمال محملة. يذهب العديد من رجال الجوف المسَاكين كل عام إلى حوران باحثين عن عمل، ويقومُ الدروز باستئجارهم لتنظيف وإصلاح البرك الخاصة بمياه الأمطار:-وهذه عادة عند الدروز الذين يعيشون وحدهم، في الأماكن التي تندر فيها المياه.

يتم حمل الكثير من ملح الجوف إلى هناك لبيعه. ويقول قرويو الجوف إن أصولهم تنحدر من السوريين، ومن بلاد الهلال الخصيب، ومن عرب نجد. كان السوق في حائل في تلك الأيام مُكتظًا بالبدو الذين قدموا لبيع الجمال في هذا الموسم السنوي. وكان المسحب ممتلئًا بالإبل المُناخة. وكان مفرج والعاملين في المطبخ العام يقومون بدعوة الأعداد المضاعفة من الزائرين من الناس في أوقات وساعات محددة لتناول طعامهم في المضيف.

بعد ثلاثة أيام تالية وصلت قافلة الحج، وكان معظمهم من "العَجَم، أي الغرباء ذوي اللغة الأجنبية، ولكنها تطلق عموماً على شعب بلاد فارس. كان وصول القافلة، حسب تقديري، عصر اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر [١٨٧٧م]. وأمامهم ركبَ جمَعٌ غفير من البدو لأداء فريضة الحج؛ قد يصل عدد الحجاج في مجمله إلى ألف شخص. كان الكثير من الأعراب الذين

وصلوا إلى حائل من رجال قبيلة عنزة السوريين، السبعة، الذين تقع ديارهم بالقرب من حلب. مع هذه القافلة السنوية يتم جلب أرتال من الجمال المُحملة بالبضائع إلى التجار في حائل؛ ولقد شاهدت اثني عشر جَملاً تُساق عبر بوابة القصر، تحملُ بالات من الأقمشة، لهدايا الأمير اليومية التي يقدمها لزائريه من البدو، وتشمل الثياب. مرت قافلة الحج متجهة إلى الغرب قريباً من البلدة، وذهبوا ليعسكروا أمام بوابة قفار والمقر الصيفي وماء السماء. كانت القافلة قد قضت اثنتي عشرة ليلة منذ خروجها من بغداد وحتى وصولها إلى حائل. عَدَدْتُ حوالى خمسينَ خيمة كبيرة: لقد كانوا، كما سمعتُ، ليسوا أكثر من نصف حُجاج الموسم الماضي؛ ولكن هذه كانت سنة الجهاد الأكبر، الذي سبب قلقًا في عالم الإسلام، ومعظم الحجاج الفرس ذهبوا (بسبب الخوف) عبر البحر إلى مكة. لم أر أياً من الحجاج الفرس يلبس القلنسوةَ الفارسية أو يرتدي زياً فارسياً: يزداد عدد الحجاج عند العودة إذ ينضم إلى القافلة أولئك الذين يزورونَ المدينة المنورة من الحجاج، الذين يرغبون العودة إلى ديارهم عن طريق مشهد علي [النجف].

تعجبتُ لملاحظة التشابه الكامل بين وجوه المسافرين، المتعبين من السفر، القادمين من بغداد، وأولئك الذين من دمشق. الأوجه البيضاء الشبيهة بالقمر نفسها لأهل كلتا المدينتين الكبيرتين المختلطتين. في مكان نزولهم تَم مسبقاً إقامة سوق للجزارين، ورأيتُ البائعات من نسوة البلدة يجلسن هناك مع سلال من الخبز الممتاز والتمر؛ بعضاً من أولئك النسوة كنّ زوجات متحجبات بخمارٍ لدرجة لا يستطيع معها أي أحد أن يتعرّف عليهن، وكنَّ يبعنَ الحليب المخفوق! وهي ممارسة لتجارة غير موثوقة، حتى في بلدان بادية الجزيرة العربية. يقضي الحجاج مدة يومين للراحة في حائل، ويغادرون في صباح

اليوم الثالث. في مساء اليوم الأخير، استوقفني أحدهم على الطريق مستفسراً عما إذا كنتُ سأذهب مع القافلة للحج إلى مكة! وحينما تعرّفتُ على صوته في ظلمة الغسق رددت فقط بقولي: "عنبر، كلا!" وقد اقتنعَ. كان عنبر عبداً مملوكًا بالمولد لعائلة ابن رشيد، وهو الآن أمير الحج، قائد قافلة الحج، وهذه كما رأينا كانت الوظيفة السابقة للأمير محمد؛ وعنيبر هو شقيقه الأكبر؛ وهما الآن أحرار، ولكن والدهم كان عبداً لعبد الله بن رشيد. ويعدّ عنبر وعنيبر بوصفهما أحراراً شقيقين للأمراء الذين يتبَعُون، ومحلاً لثقتهم. ويعملون تحت إمرتهم؛ وكانوا أيضاً رجالاً متنفذين في حائل.

في صباح يوم تحرّكت قافلة الحج، وقفت أمام المنزل لأشاهد مغادرتهم. توقف أحدهم، وكان يسيرُ بالقرب مني مع بعض تجار بغداد مُتمنطقاً مثلهم ومتحزماً بقمباز، ليتحدثَ معي. سألته: "ماذا ينشد؟" -اعتقدتُ أن الحاج سيقول دواءً؛ ولكنه أجاب: "إذا ما تحدثتُ بالفرنسية، هل ستفهمني؟" - "سأفهمك! ولكن من أي بلد أنت؟". لاحظتُ وجهَ أجنبيٍ شاحب مع لحيةٍ كستنائية اللون لا يمكن مشاهدة مثلها في هذه المدن المختلطة في الهلالَ الخصيب؟ أجابني: - "أنا إيطالي، بيدومنتي، من مدينة تورين." – وما الذي جاء بك في هذه الرحلة الخطرة؟ ياالله! إنك ربما تُذبحُ وسَطَهم؛ هل أنت مسلمٌ؟- "نعم" - "إنك لتقول بأنَ لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، التي لن يَسْمَعونى أنطق بها، لعنهم الله!" - "أي نعم أقولها، وأنا مسلم؛ ولذلك أقوم بالحج."

أخبرني هذا الإيطالي أنه كان قد جاء للبلاد الإسلامية قبل ثماني سنوات، وكان آنذاك لا يزيد عن السادسة عشرة من العُمر، وقد جاء من دمشق إلى بلاد ما بين النهرين: وخلال الثلاث سنوات الأخيرة دَرسَ في كلية إسلامية

بالقرب من بغداد، وتم ختانه. لقد كان واسع المعرفة في اللغة العربية، الشيء الذي ليس بالأمر السَهْل؛ قراءة وكتابة مثل طالب علم، وكان يستطيع أن يتحدثها بأفضلَ ما يكون، وكما قال: "دون اختلاف عن العرب". لفترة من الزمن درس اختلاف اللغة العربية الحديثة عن اللغة العربية الفصحى، الموجودة في القرآن، الذي سماه القرآن الشريف. ويرى هو ومدُرسوه أن كلام الأعراب السَهّل يعوزه الوُضوح والمعنى والترابط. وعندما قلتُ له إنني أجده أفضل من اللغة الفصحى التي جاء بها القرآن؛ وإنه ليدهشني أن إمرءاً ولد في البلاد الرومانية، وتحت اسم المسيح يتخلى عن حقوقه المتميزة، ليصبح أخاً للآسيويين البَربَريين في دينهم!، أجابَ في لغة إيطالية هادئة ونصف حضرية "أها! حسناً إن المرء قد لا يكون له الخيار دائماً، ولكن يجب عليه أحياناً أن يُسايِّرَ العالم." لقد كان يأمل أن يُكملَ رحلته ويعود مع الحجاج السوريين العائدين: وكان في نيته أن يزور بلدان ما وراء نهر الأردن، وقبائلها [بني حميده، وبني صخر] الذين يمتلكون أفضل سلالات الخيل في موآب؛ ولكن عندما فهم انني كنتُ قد تجولتُ هناك، بدأ وكأنه استخف بهدفه. وكان في نيته أيضاً أن يَنْشر رحلاته عندما يعود إلى أوروبا. وأضاف المسكين أنه يعيش في هذا العالم، وأنه يؤدي حَجَهُ في رفقة، وعلى نفقة بعض الشخصيات الفارسية الثرية المتدينة وذات العلم: ـ ولكن بمجرد عودته إلى إيطاليا فإنه سوف يقوم بإزالة كل هذا الصدأ للحياة الإسلامية. وذكر أنه كان قد سَمِعَ عن النصّراني عند مَقدمه إلى حائل وعن يهودي المولد عبدالله: لقد زار المسلماني، ولكن "وجده رجلاً بدون هدي كليّةً".

كان هناك هرج ومرج عند رفع الخيام وتَحْميل الأمتعة والرُكام المبعثر؛ وكان البعض قد امتطى الدوابَ مسبقاً: ـ وبينما وضعنا الأيدي للوداع، قلت

له " قل لي ما اسمُكَ؟ وتذكر اسمي، لأن هذه أوقاتٌ وأماكن خطرة" ، فأجابَ الإيطالي في تردد- ربما يكون صادقاً، أو ربما أراد أن يضلَلني - فرانسيسكو فيراري " . وحينذاك كانت القافلةُ تتحرك، فأسرع ليمتطي راحلته.

تقدر المسافة من حائل إلى مكة بخمس مئة ميل على الأقل، فوق صحاري شاسعة على مد البصر، يقطعونها بخمس عشرة رحلة طويلة، ولا يَسْلكونَ الطرقاتِ نفسها في كل الأعوام، ولكن حسب أماكن توافر الماء (وهي موارد ماء للبدو)، وحسب درجة الأمان أو المخاطر في القفار التي أمامهم. لقد عرف عن قافلة ابن رشيد للحج بأنها تَمرُّ قريباً من خيبر، لكنهم عموماً ينطلقون من المستجدة، أو من مورد ماء سميراء الكبير، ويمرون شرق حرة كشب، ومن هناك يسيرون لمدة يومين عبر وادي الليمون إلى مكة. إنه لمن المستغرب ألا تقوم قبيلة عتيبة (الأعداء الرئيسيين للأمير والأقوياء)، بمهاجمتهم. ولكن هناك سَرِيّة من رجاجيله ترافق القافلة للدفاع عنها.

كانت قافلة الحجاج هذه االقادمة من بلاد ما بين النهرين متجهة إلى مكة تمرّ، في الأزمان السابقة، عبر القصيم، مع قوافلَ من عُنيزة، أو من بُريدة؛ ويسلكون فيها دروبًا صحراوية طويلة. وكان يتعرض أولئك الحجاج الفرس للمضايقة وحتى للعُنف، ولا سيماً من طغيان مهنا [الصالح أبا الخيل]، الجَمّال المغتصب للحكم، شيخ بريدة، الذي تروى عنه الكثير من الروايات. وقد سمعتِ هذه القصة عن أعجمي مسكين: عندما وصلت القافلةُ إلى البلدة، تم وثاقه وضربه بناءً على أمر من مهنا وفي حضرته؛ وكان الأمير يُهَدّدُ الغريب المسكين،-«يا ابن الكلب، ضَعْ أربعة جنيهات، وإلا فإنك ستموتُ في هذا المكان. " إن الحضر من العرب عندما يغضَبون يتحولون إلى أرواح شريرة، وعداوتهم تنقلبُ إلى وحشية حيوانية ، ولا يَضَعونَ حدوداً

لوحشيتهم الجنونية؛ وإنه لمن الحكمة والعقل إذاً، أن لا تثيرهم أو تغضبَهم. - مضى الآن اثنتا عشرة سنة منذ تحول طريق جميع حجاج البر الفرس، القادمين من المشّهَد [النجف]، إلى طريق حائل وتحت القيادة القوية لأمير شمَّر، وهم يدفعون له ضريبة (وإذا تُصدقُ ما يقال) مئة ريال عن كل شخص. شاهدتُ مُهراً جميلاً يقادُ عبر البلدة: إنه هدية الأمير مُحمد (هديته السنوية) مع قافلة الحج إلى شريف مكة. كانت الساعة تشيرُ إلى الثامنة صباحاً عندما غادرت قافلة الحج؛ وكان راكبو الإبل الخفيفة يُغادرونَ البلدة تباعاً للحاقِ بقافلة الجمال المحملة البطيئة عند منتصف النهار.

عندما أسعد الحظ نجمي وعدت ثانية إلى بلدان السلام، تركتُ مذكرة للرحالة الإيطالي فيراري في قنصليته في دمشق بسورية، وعبثاً استفسرتُ عنه في إيطاليا: - لقد فكرت أن من واجبي القيام بذلك، إذ إن المخاطر التي يواجهها أي غرباء يُغامرونَ بأنفسهم بالذهاب إلى مكة عظيمة، - فقد سَمعتُ من مسلمين ثقاة بأنه: لا يَمُرُّ حج لا يتم فيه إعدام بعض الأشخاص تعيسي الحظ من المسيحيين المغامرين. وكان جندي وزميله، من الذين يرافقون قافلة الحج السنوية القادمة من سورية يتحدثان (بدون عاطفة) مع بعض المسيحيين الدمشقيين (وهم من معارفي اللصيقين) وذلك في العام الذي سبق خروجي إلى الجزيرة العربية، قد قالا: "بأنهما شاهدا اثنين من الغرباء تم القبض عليهما في منى في الحج الماضي، حيث أُكتشفا أنهما يكتبان في مفكرات الجيب. بعد التحقيق معهما اتضح أنهما مسيحيان؛ لقد شاهداهما يُعدمان؛ والأمر نفسه يحدث في معظم الأعوام!، إن حكوماتنا المسيحية قد عانت طويلاً من هذه القرصنة الدينية! لماذا لا يكون هناك مبعوثون مقيمون لشرطة أممية في مكة؟ لماذا لم يحتلوا المدينة الرهيبة باسم سلامة الدول، وباسم الدين

المشترك للإنسانية، ولأن رأس تجارة الرقيق هناك؟ إن من الحكمة للحكومات المسيحية، التي تحكمُ أيًا من المناطق المُسلمة بأن تفكر في هذا الأمر حتى يأتي اليوم الذي تتخلى فيه هذه الحكومات عن مستعمراتها المسلمة. في كل عام في مكة، كل اسم دين آخر يُداس عليه، و "بلاد الرسول، حسب ما يعتقدون، منيعة، وحرمتها غير قابلة للانتهاك، ولا يمكن لقوة على الأرض أن تطالهم. إنها "مدينة بيت الله" ـ وإن الإله الوحيد هو إله المسلمين.

القليلون أو لا أحد من الحجاج الغرباء الذين يعسكرون حول حائل قد دخل البلدة ـ ربما كان السبب هو خوفهم من العرب. بعض الدراويش فقط من بغداد دخلوا، ليأكلوا من الضيافة العامة، ولم أر غيرهم سوى جماعة من المغامرين المرحين، الذين يريدون تذوق عشاء في الجزيرة العربية كشيء جديد غير مألوف. في ازدحام ذلك اليوم كانت حتى أروقة المضيف مزدحمة؛ وهناك تناولتُ العشاء عند الغسق، وعندما نهضْتُ لأغادر، وجدتُ أن صندلي، الذي أهداه لي حمود قد سُرق. ومن الساعة الرابعة وحتى السادسة والنصف تم تقديم الأكل لألفين أو ثلاثة آلاف شخص؛ وما طعام وشراب الأمير إلا تَمن مغلي وقليلٌ من السمّن.

إنه لمن المؤلم أن يكون الإنسان هدفاً يصوب عليه كل أحد، ويكون له رأي منصف تجاه العالم. لقد شعرتُ بهذا خلال رحلتي في الجزيرة العربية، أكثر من الأخطار اليومية والمعاناة الجسدية الطويلة؛ ومع ذلك فإن هناك بعض الذكريات السارة؛ وهي في أغلب الأحيان حماقات البدو البريئة. في حشد الأعراب هذه الأيام في المسحب، جاءني العديد منهم ليتحدثوا عن سقمهم؛ كان الغرباء حيثما مررتُ ينادون عليّ، غير عارفين اسمي، "هَو! أنَت يا الحكيم!" وآخرين من الذين تلقوا مني استشارة (بالمجان) خاصة، كانوا

يدعــون لي بقــولـهم "الله يسلم ها الرأس، ولا أراك شــراً" . ومــثل هذه العبارات تطلقها قبائل البدو الرُحّل، وهي لهم مثل علامات الوسم الخاصة بهم: هؤلاء، حسب اعتقادي، كانوا من أهل الشمال. أحدهم، وبينما كنت قادماً أشار إلى رفيقه معُرّفاً بي بهذه الكلمات: "أراي، أراي، هُوَهُوَ! هذا هو النصّراني" - "تشيف [كيف] نصّراني؟" (سَمعتُ الآخرَ يردُ بخشونة الصحراء في صوته الرجولي)، "أقول! ويش ينصره؟" في هذه الكلمة الغريبة ظن البدوي البائس أنه سمع كلمة نصر، التي تعني الانتصار. بدويٌ فقير من الرولة اشتكى بعدما تلقى الدواء من إنه لا يملك ما يعطيه الحكيم! وتوسّل إليّ أن أقنع بأخذ ثوبه، ولو أنني كنت وافقت لكان ذهب عارياً في عباءته المفتوحة المهترئة، مثلما هو حال الكثير من الرجال في البراري، ومثل الهنود دون أي شيء سوى لباس يغطي العورة؛ وعندما تركته يذهب، تَمْتَمَ بجزاك الله خير؛ وذهب إلى حال سبيله متعجباً، عما إذا كانت الأشياء التي أعطاها له النصّراني دون مقابل، قد تكون دواءً نافعاً؟

لم أعد أفكرُ في السفر إلى بغداد، بل إلى خيبر. لقد بقيت بالفعل طويلاً في حائل. في المساء ذهبت إلى قهوة عُبَيد لأتحدث إلى حمود، الذي كان حينذاك منهمكاً في صلاته، فجلستُ صامتاً منتظراً فراغه. عند نهاية الفترة الأولى من الصلاة نظر ابن عُبَيد إلى أعلى، وهز رأسه مبتسماً: "إيه، يا خليل، أتريد شيئاً مستعجلاً؟" - "لا شيء، الحمدُلله" - "إذاً، سوف أنتهي من صلاتي سريعاً." حينما جلس حمود مرةً ثانيةً في مكانه قلتُ له، بأنني أرى أن الطفل فيصل قد استرد صحته، وإنني أرغب في المغادرة، وهل سيرسلني إلى خيبر. أجاب حمود بأنه سيفعل إذا رغبتَ في ذلك، "ولكن لماذا يا خليل إلى خَيّبر؟ ماذا هناك في خيبر؟ لا تذهب إليها، إنك ربما تموت

من الحُمّى هناك؛ وهم ليسوا أصدقاءً لنا، يا خليل، إنني أخشى عليك من تلك الرحلة. " أجبتُ قائلاً: "لابد لي من المغامرة هناك، أريد أن أرى الآثار اليهودية، مثلما شاهدت الحجر. " - "حسناً، سوف أجد وسيلة ما لأرسلك إلى هناك؛ ولكن الحمى قاتلة، لا تذهب إلى هناك، ياخليل! إنك قد تموتُ هناك. " لقد سبق لي أن عبرت حرة العويرض العظيمة [جنوب شرق تبوك] و رغبت في استكشاف حرة خيبر أيضاً، ذلك الإقليم البركاني العربي، الذي سَمِعْتُ أن منابع وادي الرمة تقع فيها. وهذا الوادي هو المجرى المائي الجاف لكلَ شمال الجزيرة العربية غرب جبال طويق. وينحدر المجرى المتعرج لهذا الوادي العظيم مسافة خمسين رحلة ذلول من منابعه شمال قريتي الحائط والحويط إلى نهايته في وادي الفرات، عند بلدة الزبير، قرب البصرة.

عندئذ وهو يمدُ ذراعه، طلب حمود أن أجس نبضه؛ كانت ضربات قلبه أشدّ قوة عن تلك التي لأي رجل آخر وسط العرب، إذ كان الرجلُ قوياً مثل بطل رياضي. وهم عندما يُمدون أذرعهم للحكيم، فإنهم يعتقدون أنه قادرٌ على أن يُدرك كل شيء عن صحتهم: لقد إنتُقصَ من قَدْري عندما قلتُ أن ذلك غير صحيح. بالأمس تم استدعاء طبيب فارسي من قافلة الحج إلى القصر ليُجسَ نبض الأمير. قال الفارسيُ للأمير "أتشعُرُ، سيدي، بألم في الرُكبة اليسرى؟ "، أجاب الأمير، "اي والله، إنني أشعر بألم هناك! ولا أحد يعرف عنه! "

لقد تخلف بعض المرضى من الحجاج في حائل؛ وكان منهم تاجر بغداديٌ ثري، عاوده مرضه القديم أثناء الطريق، وجمّال مصابٌ في رجْله، وبعض الدراويش المساكين. وفي صباح اليوم التالي ذهبوا ليقدموا أنفسهم أمام الأمير في المجلس، وتحدث الدرويش بصوت يبعث الأسى بلغة أهل المدن المتزلفة،

مبتدئاً بكلمة، جنابك! . لكم هو مختلف كلام أهل البلدان الحدودية الشمالية المصطنع والمتكلف عن بساطة ووضوح وصراحة لغة أفقر عربي من عرب الجزيرة العربية. أومأ الأمير لهم بإشارة لطيفة وعيّن لهم مؤنات يومية من المضيف. وتم تخصيص مخزن[بيت ضيافة] للتاجر؛ وفي حائل سوف يقضي تلك الأشهر الاثنين أو الثلاثة في هدوء تام، جالساً في الشمس، أو يثرثر طلوعاً ونزولاً في السوق، إلى أن يتمكن من العودة إلى دياره. فيما بعد شاهدت شاباً بائساً أعمى من البدو يُقتاد إلى داخل مجلس الأمير؛ وفي الوقت الذي كان يمد يديه المثيرتين للشفقة نحو مقعد الأمير تحدث بصوت عال قائلاً: "يا طويل العُمُر! يا ولد عبد الله!" تحدث الأمير على الفور إلى أحد المسؤولين عن الملابس، وأقتيد الولد المسكين إلى الخارج ليتلقى هدية من الثياب.

في ما بعد، التقيتُ مبارك الذي قال: "أتنوي الذهاب إلى خيبر؟ يوجد هنا رجال من عنزة، وسيرافقونك إلى هناك." عندما سَمِعْتُ أن منازلهم في جبل الحَرّم، وانهم سيوصلونني فقط إلى الشيخ مثل [العواجي]، وأنهم سيغادرون في الحال: قلتُ إنني لا أستطيعُ أن أرحل في الحال، وإن عليّ أن أسترد ديوناً لأدوية. "إننا سوف نقوم بجمعها لك؛ ولكننا لن نحتملَ أن تبقى مدة أطول في بلادنا؛ إذا كنت ترغبُ الذهاب إلى خيبّر فإننا سوف نرسلك إلى خيبّر أو إلى القصيم، سنرسلك إلى القصيم." - "إلى خيبر ولكن أمهلني يوماً أو يومين قبلها لأكون مستعداً."

في صباح اليوم بعد التالي، كنتُ أشرب القهوة مع رجال الرياض عندما دخل شابٌ يلهثُ، قال إنه جاء يستدعيني إلى مبارك. وعندما قابلتُ مبارك قال: "لقد وجدنا بعض رجال من قبيلة هتيم سيرافقونكَ إلى خيبّر" - "ومتى

سوف يغادرون؟" - "صباح الغد، أو صباح بعد غد". ولكنه أرسل إليّ بعد ساعة من الزمن ليقول بأنه قد أعطاهم الهدية، وأنني يجب أن أتحركَ على الفورً. "- "لماذا خدعتني بقولك أولاً بأن المغادرة غداً؟" - "أحْزم أشياءك واركب"- "ولكن هل ستَرسُلني مع هتيم؟"- "إيه، إيه، اعطني مفتاح مَخْزَنك، واستعد، حيث ستغادر في الحال"- "أو الن استطيعُ أن أتحدث مع الأمير؟"- "أخلُص! وأجهز ولا تتأخر، وإلا فوالله! سيقطع الأمير رأسك. "- "هل يعني هذا أن تدفعوا بي إلى الصحراء لتتخلصوا مني سراً؟"- "كلا، لا شيء سوف يحدُثُ لك. "- "والآن، حسناً دعْني أولاً أرى حمود". جاء عندها عبد لحمود يحمل في يده أربعة ريالات، قال إن "عمه" أرسلها لي. ثم جاء زيد، المغربي بواب القصر؛ والذي كنت قد أحسنتُ إليه بهدايا من الأدوية، ولكن المجرم الفظّ نطق قائلاً "إنك لا تفهم إن أنت عَاندت مبارك؛ لأن هذا هو القائد، ويقود قوة من خمس مِئة رَجُل. "

ماطَلْتُ في تسليم المفتاح الخشبي لباب مخزني، خشية بعثرة أشيائي وإهانتي، أو سرقة مسدسي لو قاموا بتفتيشها وعثروا عليه، كما أنني خشيت أن يكون لدى قائد الحرس (الذي أصبح يضع يده على مقبض سيفه كل لحظة) أمراً سرياً لذبح النصّراني داخل المخزن. لقد بدأ عبيده مُسبقاً يتحرشون بي، بعضهم يَمسكُ بملابسي والبعض الآخر يدفعُني للأمام؛ إنهم يدفَعُونَ بي قَسّراً إلى المخزن. قال مبارك: "هل المخزن مَلْك لك أم لنا يا خليل؟"، فأجبته "ولكن يا مبارك إنني لم أعُد أثقُ بك: انقل كلامي للأمير، لقد حضرتُ هنا بإذن من الدولة [العثمانية] فأعيدوني إليها". بصق هذا السيّاف العربي في وجهي. فقلت: "فلتَلعَن السماء المرء الذي لا يخجلُ من أن يَبْصُقَ في وجه رجُل"- "يا خليل، إنني فعلتها لأنك قُلتَ بإنك لم تعدُ تثقُ بي. " رأيتُ

المغربي البواب يذهب ويكسر باب مخزني، والعبيد يَدْفعُون بي بوحشية مرةً ثانيةً، فتركتُ العباءة العربية في أيديهُم، ووقفتُ بثوبي أمام البائسين المدهوشين مما يجري وقلت: "إن ما تفعلونه عيب، وأنا دخيلك يا مبارك." خطف مبارك عصا من أحد الواقفين قربه، وضربهم، وطردهم عني.

تركوني في المخزن، فقمتُ بترتيب أمتعتي على عجل، وأخذتُ سلاحي خفيةً. جاء الآن فهد الذي كان في طريقه إلى قهوة عُبَيد فقلتُ له: "يافهد إنني سوف أدخلُ معك، إذ أنني هنا الآن غير آمن، وأين حمود؟". أجاب الرجل المسكين بود "إن حمود لم يخرجُ حتى الآن، ولكن لن يمضي وقت طويل حتى يحضر." فقال مبارك: "والله، أقول إن الأمير سوف يرسلُ في الحال ليُقْطَعَ رأسك!" ثم مر ماجد وهو في طريقه إلى قهوة عُبَيد وسأل: "إيه! يا مبارك، هل سيفعلُ الأمير ذلك حقاً؟" وتَبَسّمَ الصَبيُ بحُب استطلاعٍ طفولي غير شريف لمشهد مُريعٍ عادي بالنسبة له. بينما تقدمْتُ ماشياً مع فهد، تخلف مبارك عناً، ودخل عبر بوابة القصر، ربما أنه ذهب إلى الأمير. تنهد فهد متنفساً الصعداء عندما دخلنا القهوة، فقال الرجل المسكين: "خليل، إن الأمر سيسير بصورة حسنة، وإن حمود سيكونُ هنا خلال وقت قصير. لم أكن قد جلست لمدة طويلة عندما جاءوا ليخبرونني بأن الأمير يرغب في رؤيتي، قلتُ "لا تخدَعونني، فمبارك هو الذي يدبر الأمر." فقال فهد: "كلا، اذهب يا خليل إنه الأمير."

عندما خرجتُ، وجدت أن الذي استدعاني كان هو مبارك، الذي استقبلني بالتهديد والوعيد والمكر القديم لأغادر في الحال. فقلت: "إنني سأرى حمود أولاً"، وهكذا تركني وذهب. ثم قفل الباب من خلفي، فعدتُ إلى المخزن، ووجدت أن أشيائي في مأمن؛ وأتى فهد مرة أخرى وقال: "إن

حمود الآن في المنزل" ، وبناءً على طلب مني أرسلَ خادماً ليأخذني إليه. بعد برهة دخل حمود الذي سلم عليّ وأخذني بيده. سألتُ: "هل تم هذا بناءً على أمر من الأمير؟" فأجابني: "أي والله يا خليل، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا، فهو يحكم علينا". فقلت: "إن هناك بعضاً من كُتُبي، وأشياء أخرى، أُخذت مني." فقال: "هاه! أكيد العيال أخذوها من مَخْزنك، وسوف تعاد لك." عندما تحدثت عن السرقة اللئيمة الماكرة لرجُله علي الذي كان قد ذهب إلى الحج - قال حمود: "ليأخذ الربُ أنفاسه!" - وإنه لن يكونَ عربياً إذا ما رضي بسرقة رَجُله. وسألت "ماذا كنتَ تعني بتلك النقود التي أرسلتها لي مؤخراً؟" - "إنه كَرم مني يا خليل، لماذا ترفُضها؟" - "أهي مُقابل الأدوية والعناية اليومية لمدة شهر بطفلك، الذي استردَ الآن صحته؟" - "نعم إنها من أجل ذلك، وإن لدينا كميةً وافرة من الكينين، هل لك أن تشتري مني جزءًا منها مقابل ريالين؟" كان حمود يتوضأ للذهاب إلى صلاة الظُهر عندما جئت، ولأنه بقي ليتحدث معي، فإن الوقت قد تأخر. واصلت حديثي معه، وقلت "إن هناك شيئًا يا حمود" - "ما هو يا خليل؟" - "أرجوك، ساعدني في هذه الورطة من أجل الخبز والملح الذي بيننا" - "وماذا يمكنني أن أفعل؟ إن محمدًا يَحْكُمُ فينا جميعاً" - "حسناً، تحدث إلى مبارك بأن لا يتصرف بشيء حتى مَجْلس بعد صلاة العصر، عندها قد أتكلم مع الأمير" - "إنني سوف أطلب منه هذا"، وذهب حمود إلى المسجد.

بعد الصلاة قابلت الأميرَ نفسه في المسحب، هو كما ذكرت سابقاً يسير دائماً مع زمرة من الشُبان المُتَعَصّبين، ومجموعة من الرجال المسلحين بالسيوف خلفهم. وفي الأيام الأخيرة كلما تصادف لي أن ألتقي الأمير وجماعته في الطرقات، كان يردُ تحيّتي له بنظرة استعلاء، كما تصورت.

وعندما رأيته هذه المرة قلتُ له بدون تحية "أروُح[أغادر]" ، فأجاب "رَوحْ [اذهب]" - "هل لي أن أحضُرَ لأتحدث معك؟" - "مَشْغول!"

عندما انعقد مجلس العصر، عبرتُ من بينهم وأقتربتُ من الأمير، الذي جلس مختالاً أمام الناس؛ وكان يتحدث حينئذ مع بعض شيوخ البدو الكبار الذين كانوا يجلسونَ إلى جانبه . نظر محمد ابن رشيد نحوي، كما اعتقدتُ، باستياء وبنوعٍ ما من الملامح التي تنذر بالشَرّ عند العرب. قال: "ماذا من أمرك؟" - "إنني على وشك أن أُغادر، ولكنني أريد الأمان. لقد تعرضتُ اليوم لمعاملة سيئة عندكم بصورة جعلتني أخاف. إن عبيدك تجاذبوني هنا وهناك، ومزّقوا ملابسي؛ وكل ذلك بتحريض من مبارك، الواقف هنا. لقد هددني أيضاً، وحتى بَصَق في وجهي." استفسر الأمير في هْمسٍ من مبارك عما فعل، فأجاب مبرراً فعله. وأضفْتُ "وإنه الآن يريدُ أن يجبرني بالذهاب مع رجال من قبيلة هتيم، وأنا لا أتوقع إلا المصائب." - "كلا (قال الأمير ضارباً بيده على صدره)، لا تخش شيئاً إذ أن كل هَمّنا هُو سلامَتُك، وسوف نعطيك ورقة مرور آَمن ، "وقال لكاتبه ناصر، الذي كان يجلسُ عند قدميه - "اكتب له تذكرة بالمرور الآمن."

قلت له: "لقد أحضرتُ لك من بلادي منظاراً (تليسكوب) ممتازاً." كانت قيمته ثلاثة أو أربعة جنيهات؛ وفكرت أنه، إذا قبل ابن رشيد هديتي، فأنه يُمكنني أن أطلب منه جملاً: ولكنه عندما قال: "إن لدينا الكثير، ولسنا في حاجة له" ، أجبتُ الأمير بكلمة بدوية صريحة "ويش عاد [وإذا كان عندك]!" انكمش محمد ابن رشيد إلى الوراء في مجلسه وكأنني قد جرحت كرامته أمام رعيته؛ ولكنه وهو يستردُ أنفاسه ورباطة جأشه قال بنظرة قوية وصوت ودوُدَ، "اجلس". إن محمداً رجل كريم، وربما تذكر في شخص

الغريب أيامه الماضية التعسة. قام ناصر وقد أكمل كتابته على ورقة صغيرة مربعة الشكل بتسليم التذكرة للأمير التي تطلع فيها، ثم غَمسَ خاتمه النحاسي العربي في الحبر، وختمها. طلبت من ناصر، "إقرأ عليّ ما هو مكتوبٌ فيها، " فقرأ، "إلى كل من تقع في يده هذه الورقة، ويتبع لابن رشيد، أن لا يتعرض لحاملها، أو يسيئ للنصّراني". نهض ابن رشيد في تلك اللحظة، فنهض معه جميع الحضور في المجلس، وأنفَضّوا. سألتُ الأمير وهو ذاهب: "متى يجبُ أن أُغادر؟ "- "متى ما تشاء"- "غداً؟"- "كلا، اليوم." واستدار على عقبيه عابراً المسحب.

"إركبْ!" صاح مبارك: ولكن عندما عَلِم أنني لم أفطر، إقْتَادني عبر بوابة القصر، إلى المضيف، وإلى غرفة خلفه، المطبخ العام، ليسأل الطُهاة عما هو جاهزٌ من الطعام. في المطبخ استقبلني الجميع بعطف، وأعطاني مُفرِجْ تمرًا ودقيقًا وسمنًا للطريق، وهو الزادُ المعتاد الذي يُمنح من قبل الأمير، ولكنني لم أقبله. وكان المطبخ عبارة عن قاعة متواضعة، بها خليط سائب من الأشياء؛ وفيها يتم غَلْي التمن والقمح في أربعة أو خمسة قدور نحاسية، وثلاثة قدور أخرى للأيام الأخرى المزدحمة (وهي قليلة)، وكانت القدور كبيرةً جداً لدرجة أنه يُمكن طبخ لحم جمل كامل في الواحد منها. إن مطبخ هذا القصر بسيط جداً! وكان يعمل في المطبخ رجل واحد مسكين، ربما مَمْلوك، وهو أحد مَرضايّ، وخمس أو ست نساء يعملن تحت إشرافه؛ علاوة على غلمان هم حَملة الصواني المعدنية، التي يقدم بها الطعام للضيوف. -عندما عُدتُ إلى المسحب حضر بدوي مع جمله لتحميل أمتعتي: إلا أنه أولاً توسل مبارك ليسمح له بإرجاع الريال عربون إجرة حملي، ويتركه يذهبُ إلى حال سبيله. أصدر الأميرُ أمراً بمنح أربعة ريالات للرحلة، وقد

قبلتُها كمقابل لتلك الأشياء التي سرقت من مخزني، وأيضاً قبلتُ الأربعة ريالات من حمود نظير الأدوية.

في أثناء سيرنا إلى السوق، حيثُ سأرافق البدو الذين سينطلقون في رحلتهم من هناك قلت لمبارك: "أحْلف يا مبارك إنك لا تُرسُلني إلى حَتْفي." - "لا والله، وأنا مطمئن يا خليل بأنكَ لن تتعرض إلى أي مكروه." - "وبعد مسيرة رحلتين في الصحراء، هل سيراعي الأعراب كلمة ابن رشيد ويلتزموا بها؟" - "إننا نحكُمُهُم!" - وقال للبدو، "إنكم سوف تأخذونه إلى قاسم بن برّاك (شيخ كبير من مشايخ قبيلة هتيم، كان يخيم مع جماعته على مسافة سبعينَ ميلاً في اتجاه الجنوب)، وهو يرسله إلى خيبر." وخرج إلينا من متجره، ونحن في طريقنا، بائع الأدوية الشعبية، وهو رجلٌ حجازي طيب مثل الكثيرين من المدينة [المنورة]، تلك المدينة شبه العربية، ليستودعني الله حيث قال: "يُمكنك أن تطمئنَ بأن ليس هناك من خيانة، ولكن إعلم بأن أهالي (حائل ونجد) بدو." - "أيا أنت (قال البدوي الذي سيحملني) عجل معنا لنخرُجَ من حائل، ولا تتوقف، ولا تَعُدْ بأدراجك، إذ أنهم عندها سيقتلونك."

ولأنني لم أرغبْ بأن يُنيخ جمله المُحمل بأكثر مما يجب، فقد قفزت لأركب الجمل وهو واقف؛ وصاح البدوي المسكين مسروراً: "اعطني خمستك[يدك ذات الخمس أصابع]" ليساعدني على الركوب. وجاء أيضاً، ونحن نمر بجانب دكانه، رجلٌ شاب يدعى إبراهيم، وهو من رجال الأمير، ويقعُ متجُره في طرف البلدة، وسبق أن تعاملتُ معه، ليودعنا. تحدث إبراهيم في حزم مع البدو بأنه يجب عليهم الاهتمام بي، وهدّدَهم بأنه، إذا ما حدث أي مكروه لي فإن الأمير سوف يقطعُ رؤوسَهُم. عند وصولنا إلى ماء السماء

ناولتُ قـربتي إلى أحـد الرجـال راجيـاً منه أن يذهبَ ليـمـلأها بالماء، ولكنه قال " أملأُ قربة الكافر! لا، تَرجَلْ يا نصرّاوي [نصراني] وأملأها بنفْسك . " ذهب إبراهيم عندئذ ليـملأها، وعلقـها على "عكَفَـة" سرجي. تقـدمنا في مسيرنا ولم يمض وقت طويل حتى غرُبت الشمس. كان عدد مرافقيّ ثلاثةً ـ المالك المسكين لجـملي، وهو رجلٌ جـبـان مـبـتـسم بشكل دائم، وجـارُه المُتعَصّبُ، الذي كان يناديني دائماً بالنصّراوي (وليس النصراني)، وهتيميٌ آخر أكبر سناً، وكان رجلاً مستقل الرأي ذا شخصية خاصة به، ولقول الحق كان مستقيماً. كم هو قصيرٌ الغَسَق حيث حَلّ الليل فجأةً علىَ مسيرتنا بصمت ووحدة رهيبة بعد ضجيج البلدة. عندما إستجبتُ لجميع أسئلة رفاقي البدو بكياسةِ الصحراء "إيه! لماذا ـ صاحوا جميعاً ـ يضائقه أولئك الناس في حائل؟ والله إنهم هم النصارى الحقيقيون! " واصلنا سيرنا في الظلام لمدة ثلاث ساعات ونصف إلى أن وصلنا إلى ما قبل قفار؛ وهناك ترجلنا ونمنا في الخلاء.

عندما إنبلج ضوء صباح اليوم التالي توجهنا ذاهبين إلى منزل ناء، عبارة عن غرفة أو غرفتين طينيتين، خارج الواحة، حيث تسكنُ عائلةٌ فقيرةٌ من معارف رفاقي. كنا في أواخر شهر نوفمبر [١٨٧٧م] (الواحد وعشرين منه حَسْبَ تقديري). كانت الليالي حينها باردةً في هذا الإقليم الذي يرتفع ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وضع الناسُ المساكين التمرَ أمامنا وأعدوا القهوة؛ لم يكونوا من المقيمين ولا من الرُحّل، بل كانوا بدواً. ولأنهم ضعاف ومُحطمون من حياة البداوة، فقد هجروا مآسي الصحراء وأصبحوا "من سكان بيوت الطيّن" في إحدى قرى الجبل، وصيادين أو متعاطين للتجارة مع الأعراب. إنهم يشترون التمرَ والقمح في موسم الحصاد ويبيعونه فيما بعد

للهبط أو رجال القبائل العابرين للتسوق. وعندما يأتي الربيع يهجُرونَ البيوت الطينّية ويحُمّلون بضائعهم على الحمير، ويذهبون للإتجار بها وسط الأعراب. وهكذا فإنهم يهيمونَ في الخلاء طوال أشهُر إلى أن يبيعوا أحمالهم من البضائع؛ وعندما يحُلُّ الصيف الحار يعودون بالقليل من الحبوب والسمن، والمال إلى الواحة. أخذ رفاقي منهم جزءاً من مؤونة الشتاء من التمر بقيمة أقل من سعر السوق في حائل. هؤلاء الناس المساكين، المنقطعين عن العالم، تحدثوا إليّ بعطف إنساني؛ ولم يكن في حديثهم أي كلمة من التعصب. وبينما كنت أجلس معهم، ورفاقي بعيدين لقضاء بعض حاجاتهم، قامت نساؤهم من تلقاء أنفسهن بأخذ عباءتي من على كتفيّ وأصلّحْنها حيث أنها كانت قد مُزقت بالأمس في حائل؛ وربّ المنزل وضعَ في يدي عصاه الخيزرانية. وفي أثناء ذلك حضر قَصّابٌ من حائل كنتُ قد اشتريتُ منه ذات صباح ثلاثة أرطال من اللحم الضأن بمبلغ (أربعة بنسات) وبمرح طيب وبصوت عال أثنى على النصّراني عند هذه الجماعة المتواضعة.

لم يكن الرجال مستعدين للرحيل حتى ساعة بعد الظهر؛ ومن ثم حَمّلوا تمورهم وغادرنا. ثمَّ وراء قفار ارتحلنا على سَهْلٍ من الحجارة الجرانيتية، وكان يشمخ عن يميننا جبل أجأ الطويل . عند الخامسة مساء ترجلنا، وقمت بغلي بعض التمن الذي كان معي من أجلهم، ولكن الشمس وهي تغربُ علينا فجأة، تخلوا عنه وهم يتضاحكون، ليقوموا بأداء صلواتهم، وبدأوا يصلون ما أستطاعوا ببطون خاوية؛ واستمروا بعدها يتسامرون باسلوبهم المؤذي . - ومر بالقرب منا بعض الحطابين من حائل . كانت القمة المزدوجة لسمراء حائل لا تزالُ بادية للعيان على مسافة خمسة وعشرين ميلاً. واصلنا مسيرتنا في الظلام وتخطينا أسوار ونخيل قرية القصر التي تبعدُ ثلاثة عشر ميلاً من قفار

تحت حافة جبل أجأ؛ وبعد مسيرة ساعة من الزمن ترجلنا في الصحراء لننام.

شاهدتُ في الصباح الجوانب الجرانيتية لجبل أجأ مُكسفةً في ظلمة غريبة مع ظلال السُحبِ التي تمر فوق "البازلت" الثائر؛ وكانت هناك بعض القباب السوداء على القِمة شبيهةً بالبراكين.

بعد مسيرة ساعتين دخلنا في أرض جبلية من الجرانيت تسمى المختلَف. وصار جبل أجأ إلى اليمين منا بعيداً، وانتهى امتداده. إلتقينا في هذه الأَرض شاباً من قرية القصر يركبُ على ذلوله باحثاً عن جمل تائه. وكانت طيور الحجَل في كل مكان ترفرف محلقة في هذه البلاد الجرانيتية العالية، تشتم في الشمس حلاوة رائحة نبات هذه الأرض الجنوبية.

في حوالى الرابعة بعد الظهر مررنا على قرية البدايع الصغيرة النائية في وسط السَهْل، ولكنها محوطة بعدد أقل من الجبال الجرانيتية والبازلتية. أختطَّ هذه المستوطنة الصغيرة، الواقعة على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً إلى الجنوب الغربي من قرية القَصر، منذ سنوات قلائل رجال من بلدة موقق؛ وفيها بئران وأربعة منازل فقط. عندما سألت مَرافقي عن المكان استغرقوا يضحكون ويسعلون، وعملوا إشارات تدُل على أن السعال والرشح يسودان فيها. – لحق بنا جماعةٌ من شمَّر على ظهور رواحلهم. كانوا قد سمعوا بخليل، وكان حديثهم وُدياً، وذكروا أن منزل [مضارب] أعرابهم ليس بعيداً أمامنا، حيث يُمكننا تناول العشاء وقضاء الليلة. وسمعنا منهم أنباء سعيدة عن توالد الماشية، ووفرة اللبن. وصاح أحدهم بي قائلاً "ولكن لماذا تسافر في صُحبةِ هؤلاء الكلاب؟" – يقصد رفاقي.

شاهدنا ثعباناً، حنش، أبيضَ ضخماً نائماً على الدرب؛ و حملني صاحب الجمل مسؤولية عدم رؤية الثعبان، فضرب على جمله ليبتعد حيث كاد أن يطأ

على الثعبان، وبرمحه ضرب الأفعى السامة وقطعها إربا. وحينما أوشك النهار على الانقضاء، كان رفاقي قد تسلقوا كل مرتفع بحثاً عن بيوت البدو الوبرية. غربت الشمس وواصلنا الترحالَ في الظلام آملين الوقوع على نار لمخيم للبدو. بعد ثلاث ساعات من المسير توقفنا، واستلقينا منهكين ببطون خاوية لننام في الخلاء. كانت تلك الليلة قارسة، ولم نستطع النوم؛ وكان ارتفاع سطح الأرض ٤٠٠٠ قدم.

قمنا بالتحميل ورحلنا قبل بزوغ الفجر. وخلال وقت قصير من انطلاقنا إلتقينا أعراباً من شمّر، كانت قطعانهم كبيرة في هذه الديرة، وجميعها من الأغنام، وكانت إبلهم تنتشر في السهل. جاءنا اثنان من الرعاة سائلين: "ما هي الأخبار من القرى؟ وكم صاعاً للريال؟ "-ثم وهم يدركون من أكون، قام أحدهم وكان يحمل حربة بيده، برفعها وطلب من الآخرين أن يتراجعوا، إذ كان يريد ذبحي، "كلا لا تفعل ذلك! والله! (صاح رفيقي) إن هذا الرجل في أمان ابن رشيد، وعلينا بالله أن ننقله ولو على أعناقنا إلى الشيخ قاسم بن براك." ما كان رفاقي، وهم من هتيم، إن يفعلوا أي شيء لحمايتي في حضور رجال من شمّر ذوي اليد الطولى، وسفري مع هؤلاء الرفاق، كان تقريباً نفسه كما لو كنت وحيداً، غير أنهم كانوا أدلاء لي في الصحراء.

بسبب السير البطيء للرواحل المُحمّلة، مشيت كثيراً على الأقدام؛ لأن رفيقي المُتعصب، الذي كان يصيحُ بي النصّراوي، النصّراوي! اشتكى عدم قدرته على السير راجلاً، وأنه لابد له أن من الركوب على جملي المستأجر. وعلى الرغم من أنني كنت متعباً لم أر وأنا أتذكر ما جرى في حائل أن من الحكمة المصادمة معهم، خشية أن ينقلبوا ضدي. شاهدت كثبان الرمال العالية التي تكونت على جنبات الجبال المحوطة بنا؛ وكانت هذه الجبال

جرانيتية وبعضها بازلتية - أتينا دون أن ندري إلى مخيم لشمَّر. أسرع شيخهم من خربوشه ليستقبلنا، وكان عجوزاً متوحشاً، وليس على رأسه منديل ولكن عُصابة رأس صوفية ملفوفة حول جدائل شعره. طلب مني دُخانًا، ولكنني أخبرته بأنه ليس لديّ دُخان، وإن كيس التبغ مع الشعلة قد سقط من على جملي قبل فترة قصيرة. "أعطنا تبغاً (صاح)، وأنزل وإشرب القهوة معنا، وإن لم تفعل، فإننا سوف ننوخ جملك ونأخذهُ عَنوة". "كيف، ألا تؤمن بالله! قلتُ لك والله ما معي، وعيب على الرجل أن يُضايقَ عابر سبيل من أجل غليون من التبغ". ومن ثم تركني أمُرُّ، ولكنهم جعلوني أقسم ثانية بأنني لا أحمل شيئاً منه.

بينما كنا مرتحلين عند الظهيرة، وكنا قد دخلنا في منطقة قبيلة هتيم التقينا مع رجل من الشيوخ يركبُ على ذلوّله: كان يبحث عن الكلأ. لقد عرفه رفاقي، ومن منطلق الطمع أوكسب المال قال الرجل بأنه سوف يأخذني بنفسه إلى خيبر. كان هذا الرجل واحداً من الرجال الذين سوف أراهم مرة أخرى بعد وقت، لقد كان عيادة بن عجوين، أحد شيوخ هتيم. نصحني رفاقي بأن أذهبَ معه وقالوا "إنه رجل محترم، ومن الذين يطمئن إليهم، ويمكن المغامرة معهم بأمان." - إن أولى خلجات قلوب الأعراب هي الأفضل، والأقل تأثرًا بالمصلحة، ولو كان بالإمكان التنبوء بالأحداث لكان من الحكمة العظيمة قبولها؛ ولكنني تذكرت كلمات الأمير بأن عليّ أن أذهب إلى قاسم بن برّاك، شيخ بني رشيد، الذي سوف يُرسلني إلى خيبر، ومخيمه غير بعيد من مكان هذا اللقاء. وقاسم أو تساسم أو جاسم، الذي ينطق العرب اسمه كثيراً وفقاً للكنة قبائلهم، كان حسبَ قول رفاقي شيخًا عظيمًا، "ومثل ابن رشيد" في منطقته.

كانت الشمسُ تغرب عندما وصلنا إلى أول مخيمات هتيم، وهناك أنزل رفاقي الحمولة. عَلمنا أن بيت قاسم مقام عند حافة المنحدر، فركبتُ مرةً ثانيةً مع رفيقي صالح، على جمله غير المُحمّل للذهاب إلى هناك. وفي الطريق قال لي صالحِ: "عندما نَصَلُ، انزل بخفة، لأن الأعراب سيقدرونك أكثر كأمرءٍ متمرسٍ على حياة الصحراء الشاقة." لم تكن خيمة قاسم إلا حجرة، أي خَيمة صغيرةً بالية؛ ورأيتُ فرسه مربوطة هناك، ولم يكن داخلها إلا الحريم. ذهب أحدهم لينادي على الشيخ؛ وأنزل صالح حقائبي على عجل. امتطى جمله مرة ثانية، ودون أخذ موافقتي كان سيتركني؛ ولكنني تمسكت بالجمل وأنخته مرة أخرى وقلت: " يا رفيقي، لماذا تهجرني هكذا؟ وعليك يا صالح أن تُسَلمَ كل رسائل الأمير إلى قاسم؛" الذي رأيناه يأتي إلينا من بيت مجاور.

كان قاسم رجلاً نحيلاً، في أواسط العمر تقريباً. في بادئ الأمر قال إنه لن يستقبلني، وتساءل كيف يرسل الأمير هذا الغريب له، ليرسله إلى خيبر في حين أنه كان على عداوة مع الحكومة في خيبر! . بعد ذلك قام بتأنيب صالح الذي كان سيتخلى عني عند مقام غريبة،- تأملتُ كم هو أمرٌ باعثٌ على اليأس، أن يتم التخلي عنك في وسط قِفَار الجُزيرة العربية، حيث تخاف من لقاء بشر، أكثر مما تخشى لقاء حيوانات متوحشة! وقلت: "أنت، يا قاسم قد سمعت كلمة ابن رشيد وإن لم يكن من المستطاع الوفاء بها، فأنا على الأقل قد ترجلتُ عند بيتك، وأنا مُجْهَدُ كثيراً؛ فدعني أرتاحُ الليلةَ، وأنا دخيّلك. "

اقتادني عندها إلى داخل بيته، وطلب مني أن أستريح، ثم وهو يَصُبُ جَامَ غضبه تحوّلَ إلى صالح وأمسك به ودفعه إلى الأمام- هذه هي أعمالَ العُنف الخاصة بهتيم- وأخذ عباءته منه: "إذهب! صاح به، ولكن جَملك سوف

يبقى هنا معي، حيث سأنقل عليه هذا الغريب إلى خيبر، الله يلعن والدك، أنت الذي تتخلى عن رفيقك لتلقى به على الأعراب. " التزم صالح في كل ذلك بالصبر، إذ أن البدو الرُحّل عندما يُقهرون بالقوة فإنهم لا يقومون بأي مقاومة. ووضع قاسم سيفه على نحرِ صالح طالباً منه أن يخبره بكل الأشياء دون كذب، وأولاً إلى أي قبيلة ينتمي. عرف صالحٌ الآن نفسه بأنه ينتمي إلى البجايدة، وهم فرع من قبيلة بشر، ولهذا فهو من قبيلة عنزة، لكن لأنه يعيشُ حياتَهُ مع نوامسة هتيم، فإنه يمكن عدّه هتيمياً. العديد من العائلات الفقيرة من عنزة ومن قبيلة حرب ينضمون لهتيم الأكثر استقراراً من بين البدو الرُحّل، وفي مأمن من الأعداء؛ ولكنهم فقط لا يختلطونَ برباط الزوجية معهم. وهكذا ترك قاسم رفيقي صالح ليذهب لحال سبيله، وأمرَ بأن تضرم النار، وأخذ بنفسه ربطة من علف فرسه ووضعه لجمل صالح؛ ومن ثم عاد ثانيةً وجلس في الخيمة بمزاج المصاب بوسواس. وقال: "من ذا الذي يذهبُ الآن ويبحث لنا عن قهوة حتى نعدَ فنجاناً لهذا الغريب؟- ما أسمُكَ؟ "- " خليل "-" حسناً، قُل لي يا خليل، ماذا يجب عليّ أن أفعل في هذه الحالة، لأنني، والله لا أستطيعُ أن أقدر ماذا أفعل، إذ إنه ليس بيننا وبين أهل خيبر والدولة سوى سجال وقطعٍ للأعناق: كيف إذاً يقولُ الأمير، بأنه يجب عليّ أن أرسلكَ إلى خيبر؟ " أتى بعض الجيران لشرب القهوة، وقال أحدهم: "إذا كانَ خليل سيدفع أربعة ريالات، فإنني بالله سوف آخذه إلى هناك وانزله عند طرف بساتين نخيل خيبر وأعود. " فقال قاسم: " ولكن خليل يقول الصحيح بأنه سيكون وكأنه خارج خيبر إذا وصل فقط لأطراف البساتين. "

أظهر لي شاربو القهوة مشاعر طيبة، وقال لي قاسم: "إيه! يا خليل لو

أنك شكوّتَ لي بأن الرجل الذي جاء معك قد هَجَرك وتخلى عنك، كنتُ، والله، أقطعُ رأســه وألقي به في هذه النار: اللعنة على كلِ العنوز. " - "حسناً، إذا كانت خيبر صعبة، يُمكنك أن تُرسلني إلى هناس شيخ النوامسة؛ وقد سَمِعْتُ أنه ليس بعيداً عن هنا، وأنه سوف يستقبلني بترحاب. " - "سوف نرى الأمرَ غداً. " ووضع أمامي صحنًا هزيلاً من التمن المغلي دون سَمّن، ولبنًا قديمًا؛ ولم يكن لديهم حليب طازج لأن جموع إبلهم كانت عزابًا، أي بعيدة عن مضاربهم، في المرعى في جوار بيضاء نثيل في اتجاه الغرب.

أدركنا الليل وأدلهمّ فوقنا، مع سُحب كثيفة وجو مُكْفَهر، وأضاء برقٌ في الحال في ثلاثة إتجاهات دون رعد. وقال البَدو "إنها المَلائكة!." ذكرتني كلمتهم برؤية البدو الرُحّل في حقَل بيت لحم. وقالوا "إن العاصفةَ فوق وادي الرُمة، " الذي، كما أخبروني، ليس أبعد من رحلة ذلوّل من مكانهم. أُعجبوا بأنني أعرف اسم هذا الوادي العظيم لوسط نجد، وذكروا، أن الرأس أو بداية الوادي يقع بالقرب من الحائط في ديرتهم، على مسافة رحلة يوم بالذلوّل، أي قد تكون على أرض السَهْل مسافةً من خمسة وأربعين إلى سبعين ميلاً. تساقط المطرُ البارد رَذاذاً فوقنا عبر قماش الخيمة المهترئ، وعندما تأخر الوقتُ قال قاسم: "أخلدْ إلى النوم الآن، أما أنا فسأظل يقظاً، طوال الليل، أرقب الجمل خشية أن يأتي العنزي ويأخذه. "

عندما استيقظت عند الفجركان قاسم يَضْرِمُ النار؛ "صباح الخير! قال قاسم، سأرسلك إلى هناس؛ وسوف يحملك الرجل نفسه الذي جاء معك بالأمس". "لقد خانني بالأمس، ألا يخونني اليوم؟ إنه قد يتخلى عني في الخلاء". "ولكنني سوف أربطه بقسم حتى يخافُ بذلك. " وحضرت إليّ

نساءٌ عندما سمعن بأنني مداوي[مداو]، ومعهُن البقل، لكي يشترين الدواء؛ وذكرن بإن البـَقل كان مؤونة لرحلتي. وكانت شقيقة قاسم قد جاءت مع الأخريات وجلست إلى جانبي. وقالت إن قاسم كان منكوداً بالريح أو البرداء؛ وما نوع الدواء الذي معي؟ وكان خـمارَ هؤلاء النسوة عبارة عن قماش قُطني أزرق يغطي أسفل الوجه؛ وكانت عينا شقيقة قاسم واسعتين جميلتين رائعتين، وعلى الرغم من انها نحيلة شاحبةٌ فقد قدرتُ بأنها لابُد أن تكون جميلةً جداً ورشيقةً؛ إنحَنَتْ في رقة لتفحصَ أدويتي بأيد خبيرة لامرأة حكيمة، وعندما لم تجد أدويةً من التي تعرفها قالت بصوتٍ ناعم رَخيم: "إعطني إذاً ما تشاء، ويا خليل لا تعطني إلا الدواء المفيد". وهذه المرأة على الرغم من أنها ذات حُسن وجمال، وشقيقةٌ للشيخ الكبير، فإن أحداً من البدو سوف لن يتزوجها، لأن "أصل قبيلتها غير أصلهم."

جاء صالح، وعندما رأى أن جمله قد أعيد إليه امتلأ فرحاً وسروراً، ووعد بتنفيذ كل ما يرغب فيه قاسم، وأقسمَ بأغلظ الأيمان أن يأخذني مباشرة إلى هناس ابن نومس. ركبنا وانطلقنا إلى الأمام؛ ولكن أثناء سيرنا، جذبتُ اللجام، وألزمتُ صالحاً بقَسَم الصحراء "عَلى العود والرب المعبود" بأنه سوف ينفذُ جميع الأشياء؛ وإذا لم يحلف، فإنني سوف لن أرافقه إلى أي مسافة أبعد. ولكنّ صالحًا وهو يلتفتُ إلى الوراء فزعاً مُرتَجفاً صاح: "أُقسمُ بالله، ولكن دعنا نسرع لنلحق برفاقنا الذين ينتظروننا في بيوت الشعر التالية."

باشرنا المسير معهم من جديد، وقال صالح: "لم أكنْ قط في حياتي في مثل هذا الخوف، عندما وضع قاسم سَيّفَهُ على عنقي!" سرنا لمدة ساعة ونصف الساعة، وأقتربنا من مخيم آخر لهتيم مكون من بيوت عدة؛ وحينما

مررّنا إلى جوارهم، انتحى صالح جانباً وذهب إليهم ليستفسرَ عن الأخبار. ليس بعيداً وراء ذلك المكان أتينا إلى أعلى مُنحدر، حيث كان هناك بيتان من بيوت الشعر منفردين. ذكر مرافقي بأن الجمال (المُحَمّلة بأكثر من طاقتها) قد أُنهكتْ، وأنهم سوف يطلقونَها لترعى لمدة ساعةٍ من الزمن. وعندما وصلنا إلى المكان توقفوا.

في الخيمة الأولى كانت هناك زوجةٌ عجوز، خرجت إلينا، إذ جلسنا بعيداً عن الخيمة؛ وقدمت لنا بقلاً وسمناً، ثم ما هو أكثرُ الأشياء المُريحة في تلك الحرارة الجافة، قدح كبيرة من اللبن. وقال صالح: "هل تأكل مثل هذا الطعام؟ إن هتيم لديهم الكثير منه، وهم طَيّبون ومضيافون." نهض الرجال بعد تناول الفطور وحَمّلوا الجمال - ولكن دونَ حقائبي! - وتحركوا إلى الأمام. تحدثتُ إلى الهتيمّي الأكبر سناً، والذي كان رجلاً محترماً، ولكنه وهو يهز كتفيه ويقلبُ كفيه أجاب في حزم: "ماذا أستطيعُ أن أفعل؟ إنه أمر يتعلق بصالح، ولا يجوزُ لي أن أتدخل فيه؛ ولكن لا تخش شيئاً لأن هؤلاء أناسٌ طيبّون، وفي وسَطِهم لن يقع عليك أي مكروه"؛ وأضاف صالح "كما إن عيادة بن عجوين ليس بعيداً" - "ولكن أين قَسَمك يا رجل؟" فأجاب الرجل الثالث المتعصب نيابةً عنه: "إن قسمه ليس مُلزماً، فقد نُطقَ به لنصراني!" - "ولكن، ماذا عن الأمير؟ وقاسم لا يزالُ قريبًا." أجاب صالح: "أما عن قاسم فإننا نلعنُ والديه، ولكن لا تَقْلقَ فإن هتيمٌ أناس طيبون، وإن هذا الأمر سوف ينتهي بأحسن حال." لم تكن هناك جدوى من مجادلتهم إذ قد ينشرون الخبرَ بأنني نصراني، فتركتهم يذهبون بسلام.

لم يكن موجوداً حيث تركوني إلا امرأتان فقط. الزوجة العجوز التي قالت "صحيح أن عيادة قريب منا، وبالأمس سَمِعْتُ نباح كلابهم." وفي البيت

الثاني كانت كنتها المريضة؛ وأما رجالهم فكانوا قد ذهبوا للرعي. بدت الزوجة العجوز غاضبةَ بعض الشيء عندما تخلى عني اللثام وجاءت إلى حيث كنتُ أجلسُ وحيداً وقالت: "ولكن لا تحزن أنا كخالتك." وبعد ذلك ذهبت لكي تنقل الخبر للرجال في الخلاء. بالقرب من ذلك المكان وجدتُ حدُوداً لسيل لبركان بنيّ اللون، نوعٌ من "التراكيست"، الصخر البُركاني البازلتي: عندما غربتّ الشمسُ ذهبتُ بعيداً عن الأنظار خشية أن يروا أن الغريبَ لا يُصلي وقت الصلاة، ويعرفوا أنني لستُ مُسلماً.

عاد الزوج بعد طويل، وهو رجل أصم، يَحملُ الاسم المُبشرَ بالسَعْد ضيف الله: رَحْبَ بي في عَطْف، وبعده جاء ثلاثةٌ من أبنائه البالغين يقودون إبلهم؛ وقطيعاً كبيراً من الضأن والماعز تتبعُها حملان كثيرة. تبّينتُ بأنه (بالرغم من مَظْهَرهم المُتسم بالفقر) بأنهم لابد وأن يكونوا أشخاصًا قد أصابوا نجاحاً. أحضر لي ضَيفُ الله أثناء جلوسنا حول نار المساء قدحاً من الحليب الساخن، مما تم حَلْبَه في ذلك المساء؛ وقال لي: "لَيس لدينا هنا أي شيء نأكله، لا تمرَ، ولا رز، ولا خُبز، ولكن إشربْ من هذا، إنه نعمة من الله، مع أنه عشاءً فقيراً." شكرتُه وأثنيتُ عليه، وقلتُ إنه أفضلُ من جميع الأغذية. "و قال "إيه، وهو ساخن هكذا فإنه يدخُلُ إلى العظام." وعندما عَلِمَ كيف أن رفاقي قد تخلوا عني صاح قائلاً، بالله، إنه لو كان هنا لقطع أعناقهم. لقد كان الرجلُ المسكين نبيلاً؛ وبالكاد ملأ غليونه مرةً واحدة بالقليل من التتن الذي وجدته في قاع حقيبتي، على الرغم من أنه سلوى عظيمة بالنسبة لهم؛ ولم يكن هو ولا أبناؤه الشبان، يطمعون في الحصول على أي شيء من الضيف (المهجور) الذي أتى به الربُ إليهم اليومَ. هؤلاء الناس كانوا بُسَطاء، وَرِعين، وليسوا (رسمياً) عرب صلاة، أو في أفواههم

أسئلةٌ اعتراضات تافهة عن الدين، ولكنهم كانوا مُفْعَمين بإنسانية الخلاء الربانية. وقال مضيفي العطوف إنه سوف يحملني في صباح اليوم التالي إلى عيادة بن عجوين، الذي سوف يرسلني إلى خيبر.

لقد كانت ليلة حالكة الظلام، جادت فيها السُحب المنخفضة ببرق ورعد ومَطر. قلت لضيف الله: "إن الرب يُرسل بركته مرةً ثانية على الأرض". "أي والله" أجابَ في تقوى، وقَبلَ كفّيه التقيتين ووجههما نحو العاصفة المُزَمْجرة، وتَمْتمَ بالحمد والشكر لله. كم كانت رائعة، كما بدت لي، ومسالمةً! هذه القطعة الصغيرة من أرض البدو الرُحّل تحت سيل من ماء المطر ينهمر عبر بيت شعر بال، بالمقارنة مع بلدة حائل!

عندما شق الصباح حلبت النسوة قطيع ماشيتهم الصغير؛ وجلسنا بينما كانت ربة المنزل العجوز تقومُ بخض قربتها الجلدية المتفخة بالحليب على ركبتيها إلى أن إستخرجت الزُبدَ، الذي يتكتل عند فم الصميل. بعد وقت قصير شاهدتُ الزُبد وهو يغلي على النار ليتحوّل إلى سمن، ونادوا عليّ لأتذوق القشدة اللذيذة بأصابعي. ومن ثم قاموا بنثر قليلٍ من الطحين فيه لترسيب شوائب الحليب؛ ومن ثم يمكن صَبّ السمن أو الزبد المصفى. وتقدم ترسبات الطحين المغمورة هكذا بالزُبْد السائل للضيف؛ إنها ألذُ وجبة في حياة البدو الرحل الفقيرة. فيما بعد أحضرت لي المرأة العجُوز الطيبة السمن(كل الذي أنتجه قطيعها في هذا الصباح) في عكة جلدية صغيرة. كانت تلك هديتها كما قالت؛ وطلبت أن أترك لهم بعضاً من أدْوية الحمّى. أعطيتها جرعات من الكينين. ثم أحضرت لنا قدحاً كبيرة من اللبن؛ وعندما شربنا مقداراً كبيراً منه، قام ضيفُ الله بتحميل حقائبي على جملٍ له. غادرنا وسرنا في اتجاه الجنوب عبر الخلاء.

سرنا لمدة ساعة واقتربنا من مخيم عيادة، كانت السقائف البالية منصوبة في منخفض يطلُ على أرض بُور شاسعة تمتد إلى إتجاه الجنوب: شاهدت سواداً كبيراً إلى ما وراء ذلك، ـ لقد كانت حرة أخرى (حرة خيبر)ـ وجبال الجرانيت الوردية. وتمتد الصخور الرملية المنبسطة مثل لسان بين الجبال الكرستاليه وترسبات طبقات الحمَمْ اتجاه الجنوب نحو خيبر. قال ضيف الله: "عندما نصلُ إلى البيوت ينبغي عليك أن تخبرهم أنك مُداوي، وقد وصلت من حائل، وترغبُ في الذهاب إلى خيبّر، وإنك سوف تدفع لمن يأخذك إليها ريالين."

ترجلنا وقدمني ضيف الله إلى عيادة؛ (وقال) بأنني كنت "مُداوياً ماهراً" ومن ثم أخذ جمله وغادر. كان عيادة هو الشيخ الهتيمي الذي كنتُ قد شاهدته قبل يومين يجوبُ القفار؛ ولربما يكون قد عرف عندئذ (من بعض أقوال المتعصب) بأنني لستُ مُسلماً حقيقياً، حيث أنني عندما حييته وقلتُ له بأنني أرغب في الذهاب معه إلى خيبر، استقبلني بفظاظة. قال عيادة: "حسنا لقد قُلتُها لك بالأمس، ولكنني لا أستطيعُ أن آخُذُك إلى خيبر."ـ كان هناك رجال يجلسونَ أمام خيمته ـ فخاطبهم "هَوّ! من منكم يأخذُ الرجل إلى خيبّرَ مقابل ثلاثة ريالات." أجاب أحدهم، "أنا أحملُهُ إذا كان سيُعطيني هذا المبلغ." وعدته بذلك، فذهبَ ليستعدَ للسفر؛ ولكنه عندما عاد قال لي، "إعطني أربعة ريالات، ـ إن عليّ ديناً، و هذا سوف يساعدُني فيه." و قال عيادة: "إعّطه أربعة وإذهب معه." قبلتُ بالعرض بشرط أن يضَمن لي الشيخ بأن الرجل لن يتخلى عن رفيقه، مثلما حدث من أولئك في اليوم السابق. فقال الشيخ، "كلا، ثقْ بي، إن غصيب هذا شيخٌ، ورجلٌ شجاع." فقلت "أقسمْ يا غصيب بحياة ساق هذه العشبة بأنك لن تتخلى

عني، أنا رفيقكَ، إلى أن توصلني إلى خيبر!" - "أُقسمُ بأن أوصلك إلى هناك، إلا إذا مُتُّ." قال عيادة: "وإن لديه ذلولاً سريع، يطير مثل الطائر". وقال غصيب: "أترى كيف أن الشمس قد آلت للمغيب! دعنا نقضي الليلة هنا، وغداً نسافر." - "كلا، اليومَ" أجاب الشيخ باقتضاب، لدرجة أنني تعجبت من عدم كرمه، ومن برودة غصيب. ولم يدعوني الشيخ إلى بيته، ولكنه أحْضَر قدحاً كبيرة مَلآى باللبن. اجتمعت الحريم من حولي مع أوانيهن الصغيرة المملوءَة بقطع البقل آملات في الحصول على الأدوية. لم أجد من البدو من هو أكثرُ رغبة في الشراء من المُداوي مثلَ هتيم. بعد مغادرتي، وبعدما جَرّبوا أدويتي أشاعوا أن خليل رجل صادق. رأيهم الطيب هذا ساعدني بعد أشهر عند عودتي ثانيةً إلى هذه البلاد.

أخبرني غصيب بأن المسافة من مكانهم الذي انطلقنا منه إلى بيضاء نثيل نصف رحلة، وإلى حائل ثلاثاً، وإلى تيماء أربع رحلات، وإلى العلا أربع رحلات ونصف الرحلة؛ وإنه تلزمنا ثلاثة ليال إلى خيبر.



وهكذا وصل داوتي بسلام إلى خيبر في يوم ١٨٧٧/١١/٢٨م، وبقي فيها حتى أواخر شهر مارس من سنة ١٨٧٨م. ولم يمكث داوتي كل هذه الفترة الطويلة في خيبر برغبة منه، بل بسبب منع الإدارة التركية فيها له من مغادرتها، ومصادرة أوراقه ونقوده، حتى تَبتّ باشوية المدينة المنورة، التي كانت خيبر خاضعة لسلطانها، في أمره. وإذ كان عليه الانتظار لتقرير مصيره فإنه تجشم عناءاً شديداً على الرغم مما وفره له مضيفه محمد النجومي، أحد المواطنين المهمين في خيبر، من الحماية وحسن الضيافة والصداقة.

مارس داوتي خلال وجوده في خيبر الطب، إذ سُمِحَ له بذلك؛ وشارك صديقه ومضيفه أعماله الزراعية ؛ ودرس خيبر والمجتمع الخيبري فقدم أشمل وصف للبلدة ومجتمعها (١٤).

قرر الوالي التركي للمدينة المنورة، صبري باشا، بعد طول انتظار إعادة كل ما تَمّ مصادرته من داوتي، والسماح له بمغادرة خيبر، والعودة من حيث أتى إلى حائل.

وغادر داوتي خيبر مع مرافقين من الجنود التابعين للإدارة التركية فيها مكلفين بإيصاله إلى حائل، التي وصلها في اليوم الأول من شهر أبريل ١٨٧٨م. والآن أترك القارئ الكريم يتابع مباشرة مع داوتي قصته الجديدة منذ مغادرته خيبر حتى وصوله إلى حائل وطرده منها، وتوجهه إلى منطقة القصيم (١٥):

* * *

أشرقت شمس يوم جديد، وكانت تلك هي ساعة خلاصي من " ضيق الصدر " الطويل، في خيبر. وطلب عياد [الذي استأجرته لمرافقتي إلى حائل] أن أدفع كامل أجرته قبل أن نتحرك؛ لأنه يريد ترك المال مع زوجته. في أيٍّ من مضارب البدو لم أشك أبداً في أن البدوي رفيقٌ جديرٌ بالثقة، ولكن عيَّاد كان واحد من أسوأهم، لذلك رأيتُ أن من الأفضل دفع ثلث الأجر عند المغادرة، والثلث الثاني عند قرية الحايط، والثلث الأخير عند وصولنا إلى حائل. حاول عبد الله السروان [قائم مقام خيبر] أن يقنعني بأسباب واهية ملؤُها الخداع بالموافقة على طلب عياد؛ وعندها رفضت رفقة عيَّاد كلية ، التي تنبأت من هذه البداية بأنه سوف يكون رفيقاً غير مأمون. فقال عبد الله: "دعونا لا نختلف، فقد نجدُ شخصاً آخر بدلاً من عياد، و

سأفعل ذلك بكل سرور يا خليل، مهما كان الأمر. " بعدئذ قال: " إنني أشهدُ لعياد، وإذا ما فشل أو قصر في أي شيء فإن المسؤولية واللوم يقعان على رأسي! إن عياد من العسكر التابعين لي، و للدولة يدٌ طويلة، وسوف أقطع رأسه إذا ما أخطأ. ومتأخرات رواتبه تبلغ الآن حوالى خمس مئة أو ست مئة ريال، وهو لن يجرؤَ على مخالفة الدولة. فقط أذكر الطريق الذي تود أن تسلكه إلى حائل، و سألزمه باتخاذه. ويمكنك أن ترتاح هنا وهناك لمدة يوم كما تشاء، وأن تشرب أينما تجد البدو؛ وعياد لن يمانع في ذلك لأن ذلوله هزيل. هل تعتقد أنك تحتاج إلى أكثر من خمسة عشر يوماً للرحلة؟ إنني سوف أعطيه خمسة وعشرين يوماً للذهاب والإياب. "

كان محمد النجومي[والدي وصديقي ومضيفي في خيبر]، الذي وقف اليوم متفرجًا في وسطنا، عاليَ الصوت وفظاً في كلماته؛ وأعطى رأيه بحماقة أمامهم جميعاً، مما سبب لي ألماً! للدرجة التي أشحتُ وجهي عنه والألمِ يعتصرني! فالمسافر في هذه البلاد المتعصبة، عليه أن يغادر في سلام وأن يتقدم في رحلته قبل أن تبرُدَ وتنفد النوايا الحسنة: طلبت من عياد أن يقسم باللّه أمامهم جميعاً بأن يكون مُخلصاً لي، ويعد الريالات الخمسة في يده.

عندها طلب عبد الله مني الموافقة على أن يصحبنا صبي يعمل عقيلياً، من قبيلة البشر[العنزية]، أسمه مرجان. كنت أعرفه بوصفه سطحي الفهم، مسبباً للمشاكل، ومن المحتمل أن ينقل أخبار تقلب حالي في خيبر للأعراب في الطريق، لكي يعيق مروري إلى حائل. وذكر عبدالله: ' إنها خدمة طلبها مني لكي يزور شقيقته الوحيدة وشقيقه الصغير في حائل؛ والذين لم يرهما طوال هذه السنين. " وافقتُ على الطلب، وبعد ذلك ندمتُ أيما ندم على موافقتي: تحل علينا أحياناً عاطفة إنسانية في غير محلها.

. . . لقد شعرت بانقباض في داخلي عندما رأيت نفاق عياد عند توديعه لهؤلاء البؤساء. أما أنا، وعلى الرغم مما لاقيته على أيديهم فقد قلت(كان فرح عبد الله المجرم ظاهراً) سلام. وجاء رفيقي الجندي أمان الغالي[نسبة إلى بلاد الغالا في الحبشة] ليسير معي مودعاً. وكان النجومي قد ذهب ليبحث عن فرسه حيث سيقابلنا في الطريق ويودعنا. مررنا على صخرة كبيرة وهناك أمتطيت الذلول: أخذ أمان يدي بيده المُحتضرة، ودعا بصوت عال بأن يحفظني الله ويوصلني بسلام إلى نهاية رحلتي. وطلب أمان المسكين بصدق من عياد أن يهتم بي جيداً، ومن ثم انطلقنا في رحلتنا.

جاء معنا في طريق رحلتنا شاب فظ من القرية، أسمه حامد مرسلاً من قبل النجومي ليحضر بعض أغنامه المودعة مع قبيلة هتيم في المنطقة المجاورة إلى خيبر. وأخبرني العم محمد النجومي بأن والد حامد، كان من أغنى أغنياء خيبر؛ "ولكن ثرائه ذهب منهم، وهو يعمل لكي يملأ بطنه الجائع، ويضع نفسه في خدمة أي شخص؛ وأنا أختاره لخدمتي لأنه لا يقول لا مُطلقاً. كان شقيقه قد أحب فتاة في القرية، ولكن والدها زوجها من شيخ مسن: كان الشيخ والد إبراهيم[أحد معارفي في خيبر]. وفي أحد الأيام وجد شقيقه الشاب زوج محبوبته في بساتين النخيل وحيداً، ولم يكن هناك أحد حولهما، فانقض على الشيخ وشج رأسه بقضيب شائك. ولما لم يعد الشيخ لمنزله أثار قلق سكان القرية؛ وبدأوا البحث عنه في المزارع. ولم يتم العثور على الميت إلا في صباح اليوم التالي؛ كان جثمانه ملقى وسط العيدان والقصب، التي غطى الجاني جثمانه بها. ولمدة يوم أو يومين كان كل رجل يسأل الآخر عمن يكون قد فعل ذلك؟' وفي النهاية ذهب طفل إلى الشيخ صالح [قاضي خيبر] وقال له: "سأخبركم بمن قتله لقاء مكافأة": ' ووعده الشيخ بالمكافأة. فقال

الطفل : ' أنه كان فلان ، لقد شاهدته يقتل الشيخ ؛ وعندما خبأ جثمانه رآني ، وهربتُ دون أن ألتفتَ إلى الوراء ، وعدوت حتى وصلتُ القرية . كانت الدية كبيرة ؛ ولكن والد القاتل التعيس تخلى عن جميع أملاكه تقريباً ، ليفدي حياة ابنه : لقد وهبها جميعاً لإبراهيم ، ابن القتيل ؛ ولم يتبق له إلا القليل ليعيش بقية عمره . " سألت عما إذا كان إبراهيم يعيشُ الآن في خوف خشية انتقام الأشقاء الصغار ، إذ أنه يستمتعُ بميراثهم؟ " إيه ، أجابني العم محمد ، إنهم أصدقاء حميمون : و الشباب الصغار يُدينون بالفضلِ له ، لأنه قبل الديةَ ، وإلا نفذ القصاص في شقيقهم . "

قابلنا النجومي في الطريق ، وكان راجلاً . وقال إنه لم يجد فرسه ؛ ولو كان وجدها لسار معنا إلى الطبق[جوار خيبر] ، حسب قوله ، لكي يقطع طلع ذكر النخيل شبه البريَّة الموجودة هناك ، لإيبار نخيله في القرية . ويكفي كافور واحد من كوافير ذكر أشجار النخيل لتلقيح عشرة كوافير من إناثها . وعندها قلت له : " والآن ليكن الله معك ، يا والدي محمد ، ويُجْزيك خير الجزاء ، " فرد بقوله : " الله يوصلك بالسلامة ويوفقك يا خليل " ، وأخذ يدي بيده مودعاً . ذهب العم محمد إلى حال سبيله ، وتقدمنا في طريقنا ؛ لقد فرقتنا الحياة ، والموت ، و . . . الأديان إلى الأبد!

تقدمنا بصعوبة عبر أرض المستنقعات وآخر القنوات وبرك الماء فوق ظهر ناقتنا البطيئة الحركة . وعندها شعرت أنني قد خرجتُ من وديان خيبر المُهلكة ، والأسر غير المُحتمل للدولة [العثمانية] ، إلى الهواء الطلق الجالب للسعادة عند حافة الحرة! في الساعة التالية مررنا بالكثير من العُقد المطوية بصخور البازلت غير المشذبة ، والتي افترضتُ بأنها ركام حجارة فوق قبور قديمة . وبعد مسيرة عشرة أميال شاهدنا امرأةً من البدو تقفُ بعيداً فوق صخرة

بركانية، و خربوش أو خربوشين من خرابيش قبيلة هتيم. أراني رفيقاي البدويان قمم جبلٍ يقع في اتجاه الجنوب، يسمى جبل البيضاء، وذكرا أنه لا يبعد كثيراً من المدينة [المنورة].

عند الظهر توقفنا وتركنا الذلول لترعى، وجلسنا لنستريح إلى أن يحلَ المساء. وعندما بدأت الشمس بالغروب توجهنا نحو الخرابيش التي رأيناها: ولكن عياد المتقلب تركني مع حامد والذلّول بما حمل، وذهب مع مرجان لينزلا ضيوفاً في البيت الآخر، غير الذي وقفت عنده. وصل صاحب البيت الذي كنت فيه مع قطعان أغنامه وإبله؛ وكان شاباً لم تنبت لحيته بعد. أحضروا لنا اللبن، وسمعنا صوتَ زنجية تنادي من شق النساء، "حامد! يا حامد." كانت هذه الزنجية من خيبر، وفي زيارةٍ لأصدقائها البدو، لتغذي نفسها بشربِ اللّبَنِ معهم. ومع أن الظلام قد أرخى سدوله خرج الشاب ثانية مع حماره ليَجلبَ ماءاً. وعاد بعد ساعتين، ودون علمي قاموا بذبح شاة: لهذا السبب ذهب الشاب ليجلُبَ الماء. صار الشاب الهَتيمي يدعوني بطويلَ العمر.

جاءنا عياد بعد فراغنا من العشاء وقال لي: " يا خليل، ألم توفر لي لقمة وأنا رفيقكَ؟ هل تخليت عن رفيقك؟ " ثم بدأ يستشيرني حول الطريق الذي سنسلكه إلى حائل، ويقترح أن نتخذ طريقاً يميل إلى الغرب أكثر، لأنه وفقاً لما سمعه من أخبار في البيت الثاني قد لا نقع كل يوم على منزلٍ من منازل البدو، ونجد الحليب والطعام؛ أما إذا ما بقيت على قراري بالذهاب إلى قرية الحايط، فإن الطريق سينحو شمالاً إلى حائل ولن نجد فيه بدو. - وهذا يعني أنني سأفقدُ فرصة الذهاب إلى قرية الحايط، ولن أتمكن من شراء مؤونة الطريق: فوافقَتهم أيضاً في ساعةِ غفلة! كان الوضع سيكون أفضل لو لم أوافق هؤلاء

الرفاق الخونة.

غادرنا المكان عند شروق الشمس، وكان عن يميننا بعيداً في حرة الأبيض (جبل البيضاء غير ذلك الجبل الواقع بالقرب من المدينة.) وحسب ما ذكر رفاقي فإن في ذلك الجبل أعلى شعبان وادي الرمة ؛ أما الشعبان الموجودة في هذه الجهة فتسيل إلى وادي الحجاز الكبير، ووادي الحمض . مررنا إلى جانب لأبات[مسطحات] بركانية حادة. وحلق أمامنا زوج من طائر الحبارى الكبير، شبيه طيور الماء، والذي نادراً ما شاهدته في الصحراء (فقط في مثل هذا الفصل من السنة)، وتحمل هذه الطيور ريشاً أبيضاً ورمادياً أرقط. و بيض هذا الطائر (بنية ووردية اللون، مرقطة باللون الأسود)، وسبق لي أن وجدت في شهر مايو بيضتين من بيض الحبارى ملقيتين في الأرض الحصبائية القاحلة [بالقُرب من معان، شرق الأردن]؛ وكانتا كبيرتين في حجم بيض الديك الرومي، ومذاقها طيبٌ للغاية: قد تكون تلك الطيور نوعاً من أنواع الحباريات. قال عياد البِشْري المترف: "إن لحومها طرية جداً وتذوب في الفم. " قام رفيقاي باستدراج الطائرين، بإطلاق الصفير؛ وسحبا بنادقهما الطويلة من اجربتها الجلدية، وانسلا وراء الطائرين؛ ولكن لأن البدو لا يهدرون الرصاص في الهواء، عادا سريعا بخفي حنين. لم أر على الإطلاق أن العرب يصوبون بدقة على أهدافهم في كل أنواع الصيد: كان النجومي هو الوحيد الذي رأيته يطلقُ النار على طيور الحجل وهي طائرة في الجو (ويصيبها من أول طلقة).

ابتداءً من هذا المكان تحول الحقل البركاني المحوط بنا قفراً من الصخور البركانية الحادة التي لا تتبين فيها درب [أو جادة حسب لهجة قبائل بشر العنزية]مطروق مُطلقاً؛ ولا يسير البدو الرُحَل وسط المناطق الصخرية إلا على

أقدامهم. شق حجرٌ كبيرٌ ساقط ظفر قدم حامد، فترجلتُ من فوق الراحلة لكي يركب هو عليها؛ ولكن الزنجي استعار سكيناً، وبوحشية، قطع ظفره، وواصل السير راجلاً. وعند توقفا في المساء قام بربط جرحه النازف، وقال إنه سيبرأ خلال المسيرات التالية. وبينما كنا في مسيرنا عصفت علينا رياح شهر مارس الشمالية؛ وكانت تدفع بالأعشاب والاغصان الصحراوية الجافة أمام هباتها القوية. كان مسارنا غير واضح، ولا ملجأ فيه ولا ماء؛ وارتفاع هذا السهل البركاني يبلغ ٣٤٠٠ قدم. عند الظهيرة صرخ مرجان، الذي كان يعاني من (الطَّحال) بعد داء الحمى في خيبر، بأنه رأى قطيعاً؛ ثم أخذ يشتمنا لأننا لم نوافقه: كان القطيع من الغزلان. وبعد أن هدأ سألوه "فين الأعراب؟" فقال "نافرة! لقد خدعونا الهتمان ليلة أمس؛ ولكن هذه هي عادتهم! الله يضيعهم مثل ما ضيعونا." شرب الزنجي حامد كل ما في قربتي من الماء تقريباً: وقرب المساء قام بحل فم القربة وكان سيرشف كل ما فيها في شربة واحدة؛ ولكنني قلتُ له: "كلا، إننا جميعاً عطشى، ويجب أن لا يشربَ أحد من الماء أكثر من الآخر." صاح البدو عليه "وهل تعتقدُ أننا الآن في الصحين[ساحة سوق خيبر]؟ إننا هنا في الخلاء وليس في مكان لعب الخيابرة." وأخيراً عند غروب الشمس بحثنا عن قاع وأشجار سدر لتقينا تلك الليلة من الرياح، التي كانت تهُبُ في سرعة كبيرة وتخترقُ ثيابنا الخفيفة: قاموا بقطع أغصان شجرة طلح ميتة، لإشعال نار المساء. ثم بعد ذلك، وبعد عجن الدقيق بالقليل من الماء الذي تبقى معنا، وضعنا العجينة تحت الجمر بعجلة لنحصل عل خبزنا. كان ليلُ شهر مارس بارداً.

غادرنا المكان عند انبلاج الفجر، وواصلنا سيرنا بمحاذاة جبل جرس ذي الصخور الرملية: وكم كنت سعيداً عندما ارتفعت الشمس إلى درجة معقولة

ولم تعد معالم خيبر المقيته في نطاق رؤيتنا. ومررنا عبر ركام من الجدران القديمة المتهالكة في الحَرَّة، ومقبرة قديمة. فقال عيَّاد: " أترى، هذه هي قبور الأولين، إنهم يرقدون وأكوام الحجارة من فوقهم! ". سرنا في الحقل البركاني دون أكل حتى الظهر حيث وجدنا بعض آثار إبل مطبوعة على الأرض الرملية. قال رفاقي في بادئ الأمر إن الآثار تعود إلى "رحلة تمت قبل خمسة إلى عشرة أيام؛ ولكن بتفحصهم للجلة [بعر الإبل] ظنوا بأنها منذ خمسة أيام مضت. قادتنا الجلة عبر الحَرَّة في اتجاه الشمال الغربي، نحو الأطراف البلوتونية لجبال الحجر. تنطمس آثار الأقدام في الصحراء تدريجياً بفعل الرياح القوية التي تتسبب في جرف ذرات الرمال؛ وفيما عدا ذلك فقد تبقى حتى موسم الأمطار التالي. في معلم أثري تم اكتشافه حديثاً في مصر، وجدت طبعات باطن الأقدام في أرضية المعلم؛ وكانت لمئات الأشخاص منذ عصور مضت! ذهب البدو إلى منخفض أرضي بحثاً عن الماء في برك الأمطار، وهناك تمكنوا من ملء قربْ الماء. كان الماء ملوثاً بالهوام البيضاء؛ ولكن شربنا، حامدين الرب، بتقطيره بمناديلنا. (نرى مشافر الجمل الكبيرة مُحوطة بهلب، شعر صلب وغليظ، مُنحنيًا إلى الداخل؛ لتصفية كل ما يشربه من مياه الصحراء المُلوثة!) وكان الرفاق يتسلقون كل صخرة عالية ليتشوفوا مضارب بدو: وواصلنا سيرنا إلى أن غرُبت الشمس، وعند ذلك ترجلنا في ارض مُنخفضة فيها أشجار طلح وآجام؛ وفيها ما يشير إلى أن هناك بدواً قد رحلوا حديثاً عن المكان. لقد كنا بالقُرب من حدود الحرة.

عندما أشرقت شمس اليوم التالي واصلنا رحلتنا، وقادتنا جلة الإبل نحو ضلعان الحجر. وخلال وقت قصير كنا عند طرف الحرة. وأطراف الحرة هنا تشبه حافة الجليد المُتجمدة؛ وحيثما هبطنا كان الارتفاع حوالى عشرين قدماً،

أما في الاماكن القريبة من نقطة هبوطنا فيصل الارتفاع إلى ثمانٍ أو عشر قامات. وبعد نزولنا من الحرة عبرنا سهوبًا من الحصباء البلوتينية المتخددة بفعل الأمطار، والمنحدرة باتجاه القفار المروعة لجبال الحجر. جفل ظبي كان غافياً في أجمة وانطلق أمامنا؛ ثم توقف هنيهة مُحملقاً بنا، ثم خرّ ساقطاً بطلقة من الأوروبي، لأن العرب، كما هي عادتهم، لم يكونوا مستعدين لذلكٍ. أثناء سفرنا شاهدتُ حُفرةً بعمق ياردة محفورة في تراب الصحراء فاستفسرت عنها؛ أجابني الرفاق، 'إنها حفرة المجدور (أي المصاب بمرض الجدري). في العادة يوقدون النار في الحفرة، وبعد رفع الجمر خارجها يجلسون المريض فيها على الرمل الساخن: مثل ذلك ربما يكون حماماً صحياً للتعرُّق. إن العرب يرتعبون من هذا المرِض المميت إلى أبعد الحدود؛ وكانت ذكرى مأساة شيخ كبير من مشايخ عنزة في القصيم مازالت حية عند الناس. لقد رحل عنه رجال قبيلته؛ وكذلك تخلت عنه وهجرته عشيرته وحتى أهل بيته.

تحركنا تاركين جبل الخطم إلى يميننا، ووصلنا إلى جبال الحجر المقفرة، التي كانت منحدراتها وجروفها السفلية من حولنا ذات ألوان بُنية، وصفراء، ورمادية، وألوان مختلطة، حمراء وأرجوانية. وكانت تحلقِ طيوِر العقاب من فوقنا، تنزلق مثل الظلال، التي تنشرها أجنحتها المفرودة فوق الشواطئ الصخرية. وحلقت الغربان وطيور الرخم على مستو متخفض، فوق منزل بدو هجر للتو: كان رماد الجمر الذي خلفوه لا يزالُ دافئاً، مما يعني أنهم رحلوا هذا الصباح. زحف رفاقي البدو حاملين بنادقهم العتيقة على أمل أن يصطادوا غراباً، وكان معهما غليونان مصنوعان من عظام ساق. سألتهما عما إذا كانا قد أسقطا ريشة طائرٍ بطلقاتهم حتى لو مرة واحدة في حياتيهما؟ فأجابا

قائلين، "إي واللّه، يا خليل؛ إننا أصطدنا طيور القطا مرات كثيرة." لم يمض وقتٌ طويل حتى لمحنا بدواً مع إبلهم. ووصلنا إليهم بعد الظهر بقليل، وكانوا قد توقفوا ليضربوا بيوتهم. وعندما رأى شيخهم أن أشخاصاً غرباء يقتربون تخلّف عن جماعته لمقابلتهم. كان رفاقي يعرفون هذا الشيخ، وكان هؤلاء البدو الرُحَّل من قبيلة هتيم، -فرادسة ابن سمرة. جلسنا سوياً، وقام ولدٌ بحلب ناقتين من نوق الشيخ أكراماً للضيوف.

عندما عَلِم هذا الشيخ أنني نصّراني، تغير أسلوبه، مع أنني كنت ضيفاً على محاليبه. وصرخ قائلاً "ماذا! رجل نصّراني، من أين أتيت إلى هنا؟ ألا تخشى سكين الأعراب؟ أم تظن، أيها اليهودي، أنها لا تصلك؟ يا خوياه (رفاقه)، ألن تقطعوا حنجرته؟ والآن، إلى أين تريد أن تذهبَ - إلى حائل؟ ولكن ابن رشيد سوف يقتله إذا ذهب هذا (الرجل) إلى هناك ثانية." إن الهتمان ليسوا بلطافة البدو الحقيقيين . . . نحو الضيف. عندما رأيت أن الرجل ذو روح فظة، سخرتُ من جهله إلى أن خجلَ؛ وبمثل هذه الطريقة يمكن بسهولة دحر السذاجة الماكرة للعرب.

قدنا راحلتنا إلى مخيمهم، وجلسنا أمام أحد البيوت. فأحضر لنا رب البيت قدح لبن، وقدحاً أخر من المريسة؛ وقمنا بحل عقال الذلُول لترعى، وجلسنا إلى جوار أمتعتنا في الرياح والشمس المحرقة حتى المساء؛ عندها دعانا المُضيف لندخلَ البيت، فوجدنا عشاءً جاهزاً من الرز المطبوخ من أجلنا. كان مُضيفنا أحد هبط [العاملين في البيع والشراء مع المناطق الحضرية] قبيلة هتيم، الذين وقع عليهم مؤخراً غزو لقبيلة جهينة قرب أسوار المدينة[المنورة]. في صباح اليوم التالي رحل مُضيفنا هذا مع جماعته، فحللنا ضيوفاً على بيتٍ آخر؛ لأننا كنا قد قررنا أن نرتاح هذا اليوم في منزلهم، الذي

كان فيه ثلاثون بيتاً من بيوت الوبر . وعندما أعطيتُ مريضاً منهم دواء الراوند (rhubarb) [مُسكن لآلام الروماتزم]، سُرَّ أصدقاؤه كثيراً و قالوا "إن طعم الدواء يدل على أنه دواء جيد " . حضر إلينا بعض الأشخاص ليستعلموا عن الأخبار؛ ولكن لم يكن هناك الكثير من الرجال في بيوتهم في أثناء النهار: لأن هؤلاء البدو رعاة يمتازون بالنشاط أكثر من غيرهم من البدو في تربية الماشية .

سمعتُ بعض النقد لأبن رشيد في مخيمهم؛ لأنه حسب قولهم "هو الذي أضعفَ البدو؛ " وأضاف عياد قائلاً: "إي باللّه أنه هو الذي أضعف القبائل. " استفسرت منه سائلاً، "وكيف تم ذلك؟ فهل كان هناك أي أمن في الصحراء قبله؟ ولولاه لاستمرت القبائل بغزو بعضها بعضاً إلى الأبد. " رد عياد: "إن ابن رشيد هو الذي أضعف البدو، لأنه كان يجرد القبيلة من كل شيء، حتى تصبح معدمة ، قبل أن تخضع له، وبعد ذلك يتركهم يعيشون بسلام. " يفرض ابن رشيد على هؤلاء الهتمان الجنوبيين ضريبة؛ وبما أن سُلطة الدولة وصلت إلى خيبر، فإن حكومة المدينة [المنورة] تفرضُ عليهم ضرائب أيضاً. ومنذ وقت ليس بالطويل، قبل مجيئي إلى خيبر، كان عبدالله السروان يطوف في هذه الأنحاء مع العم محمد النجومي لجمع ضريبة العُشر المفروضة عليهم. تدفع أغلب قبائل هتيم خاوة لكل ذي سُلطة من حولهم؛ وبالتالي سلموا من الغزوات، وهم بشكل عام أكثر نجاحاً من بقية البدو الموجودين في الديار نفسها . وتعد إبلهم الأفضل، إذ لا توجد لدى أي قبيلة من قبائل البدو سلالة إبل جيدة مثل سلالة إبلهم؛ (سوف نرى لاحقاً أن أفضل الإبل هي إبل قبيلة الشرارات.) ويمتاز الهتمان بعمومهم بقوة أبدانهم بخلاف بقية البدو الذين يعانون المسغبة، ونساؤهم في الغالب جميلات .

سألوا بشكل عام في بيت مضيفنا عن " من هم النصارى، وما هو دينهم؟ " فقال أحدهم: " سأخبركم عن قصتهم، وحسبما سمعتها (في المدينة، أو في بلدان الشمال المُتحضرة: يعيش النصارى في مدينة مقفلة بالحديد ومطوّقةً بالبحر! " فقال عياد: " لا تتحدث بهذه الطريقة فقد تسيء إلى خليل؛ فهو من الذين يمكنهم بكلمة واحدة اسقاط هذا البيت فوق رؤوسنا. " ردّوا عليه، " أيه!، أيستطيعَ حقاً أنَ يفعل ذلك؟ " وجدت في مخيمهم شخصين مصابين بداء الملوك[النقرس]، وسألت: " أين أصابهما المرض؟ " فأجاباني: " في المدينة. "

رحل البدو عندما شق النهار. وتبعناهم في الاتجاه الغربي، في تلك الجبال؛ وصعدناها عبر ممر ذي جروف مُتعرجة، لم يكن فيها أثر لأي إبل. عاد حامد، الذي كان قد تركنا، يجرجرُ قدميه مَع أحد الأشخاص الذي كان دليلاً له: فقلت " وداعاً، يا أخو حمدة. " رفع الخيبري نظره إلى أعلى مسروراً ومرتبكاً، لأنني أعتبرته (بطلاً) وناديته باسم أخته، وتمنى ليّ حفظ الله ورعايته. بقينا في مسيرتنا وسط هؤلاء البدو علاوة على بعض الأصدقاء الذين سوف يكرمونا ببعض الحليب قبل أن نفترق عنهم. بدت لي هذه المتاهة المرعبة لهذه الجبال المقفرة بلا نهاية! وهي تحمل اسم الحجر: إنها أرض قبائل ولد علي والبشر، وهؤلاء الهتمان أيضاً بعد سماح أولئك لهم. وفي قيعان أوديتها يجدون " الربيّع والمرعى الخصب في أغلب السنين. وتفيض شعبان هذه الجبال في وادي الحجر الذي يصب في وادي الحُمض. لقد ابتعدنا في اتجاهنا نحو الغرب. واتجه البدو الرحل باتجاه جنوبي؛ وبعد انقضاء ساعة من مغادرتنا لهم، نزلنا إلى بطن واد رملي، حيثُ وجدنا منزلاً آخر من منازل قبيلة هتيم، ويضم حوالى الثلاثين خربوشاً، وهم من الصويدرة من قبيلة

هتيم، وشيخهم ابن سمرة. وتسمى هذه المنطقة (أرض منخفضة) يطروحة ؛ ويندر أن يأتي أعراب عياد إلى هذا الجزء من ديرتهم؛ ولم يسبق له أن جاء إليها إلا مرةً واحدة. وتسيل شعبان هذه المنطقة الجبلية في وادي خافوضة ، أحد أودية خيبر.

وجد مرجان في هذا المنزل بيتاً أو بيتين من أفراد عشيرته البجايدة، وهم من بشر. تعيش عائلات فقيرة كثيرة من قبائل البدو الأخرى في المجتمع المسالم لقبيلة هتيم. أقتاد أحد أبناء عم مرجان الذلول نحو بيته. كان مُضيفنا بالأمس قد أبلغ خبر وجودي في الديرة لشيخٍ مريضٍ منهم، هو الشيخ ابن حيزان ، الذي كان مُصاباً بجرحٍ من طعنةِ حربةٍ في إحدى الغزوات. كان عم محمد النجومي قد باع بعضاً من المرهم الذي كان معي في خيبر إلى بعض أصدقاء الرجل المريض، الذي وجدَ أنه ممتاز؛ ورغبَ معارفي في أن أقوم بزيارة له. فوافقتُ على شرط الانتظا يومًا كاملاً إلى أن يعود الرسول الذي بعثوا به للشيخ.

عندما أخرجتُ محبرتي وكتب الطب التي معي، تجمَّع الرجالُ والنسوة من حولي؛ لقد كانت أعجوبة أن يروني أكتبُ وأقرأ. وتهامسوا فيما بينهم، "إنه يقرأ الغيب؛ وعلى الأقل يعرف أكثر منا نحن الناس المساكين! ماهو مكتوبٌ فيه!". كان لُمضيفنا بنتان جميلتان؛ وقد تعجبتا لرؤية بشرة الغريب البيضاء. كان تصرّفُ الفتاتين عادياً على السجية، مع حياءِ العذارى؛ ولكن نظرات عيونهن أذابتا قلب الصبي مرجان، ابن عمهما، الذي لم تنبت لحيته بعد، وعنده زوجة شابة في خيبر. كل هؤلاء النسوة البدويات النجديات يضعن غطاء على وجوههنَ، ولكن من الفم إلى الأسفل؛ ويضعن أزمامًا فضية على الجانب الأيمن لأنوفهنَّ، ويسدلن جدائل مضفورة على

أصداغهن. خرج مضيفنا الطيب وهو يحملُ فأساً قصيرة اليد، ولم يعُد حتى غابت الشمس، وكان هو زوجته يسحبان سيقان شجرة طلح: لقد سبق وشاهدنا من قبل آثار سحب سيقان الشجر في الخلاء، وكانت دلالة على وجود منزلٍ للبدو. يقوم البدو بانشاء زريبة أغنام أمام بيوتهم من هذه السيقان؛ ليَدخلوا فيها أصحاب البيوت أغنامهم عند المساء. ويطلقوا على الزريبة هنا اسم حظيرة، أما قبيلة شمَّر فيطلقون عليها اسم الصريفة، ثم قام المُضيف بوضع طبقٍ كبير من الرز أمامنا.

كان عياد خائناً، وفي حالة تفكير دائمة حول كيفية التخلص مني طالما أنه قد أخذ أجره مُقدماً: فهو لا يريد أن يذهبَ إلى حائل. فعرض عليّ الأمر بقوله: " خليل، هل أتركك هنا؟ والله إن الذلوّل لا تحتمل الرحلة الطويلة؟ " فقلت له: " أعدْ لي ثلاثة ريالات وسوف أدعكَ تذهب. " ـ " آه! كيف يُمكنني ذلك، يا خليل، لقد رأيتَ أنني تركت النقود مع زوجتي في خيبر. " ـ " إذاً، قم باستدانتها من هنا، " ـ " ليرحمني الله! من ذا الذي بين هؤلاء الأعراب يملك أي نقود، أو منْ سيُسلفني حتى ريالاً واحداً؟ " ـ " لقد توقعت أنك ستخونني عندما كنا في خيبر؛ اسمع يا عيَّاد، ستأخُذني إلى حائل كما تعهدت، " ـ " ولكن لا يوجد طريقٌ إلى حائل من هنا، لقد انحرفنا عن مسارنا؛ هؤلاء البدو متجهون نحو ديرة العواجي، دعنا نذهبُ معهم، إنها مسافةُ رحلتين فقط، وهناك أتركُك. " إن سوء النية عند العرب كبير للدرجة التي تختفي فيها الحقيقة عن الغافل! ولا شيءَ يوحي بالأمل في الرجل منهم؛ وربهم بعيد جداً، أو دون احساس بالمُعاناة الإنسانية. والآن صرت أسمع من فم هذا البائس تأكيداً لكل مخاوفي، التي كان هو غير مقتنع بها عندما كنا في خيبر! وفي صباح اليوم التالي أراد عياد أن نرحل مع طلوع

الشمس: ولكنني ذكرته باتفاقنا بأن نبقى هذا اليوم في هذا المنزل. ومع ذلك حمَّل البهيمة! ثم عاد الرفيق المُجرم بعصاه، وـهذا ما تعلمه في الخدمة العسكرية التُركية ـ هدَّدني بالضرب إذا لم أتحرك: ولكنه تراجع عن ذلك في الحال.

وجدت في هذا المنزل أسرة صلبية من وادي الصفرة، المعروف بالارتفاع المفرط لدرجة الحرارة فيه، وهو في الحجاز وغير بعيد عن مكة شمالاً. وهذه الأسرة هنا بعيدة بأكثر من ثلاثمائة ميلاً عن ديارهم؛ ولكنها لا تبدو مسافةً طويلة للصلبة المتجولين. أخبرني رب البيت أنهم يرحلون عندما يحلُ الصيف، ليقيموا بمفردهم عند أحد موارد المياه في الصحراء: ولأنهم لا يملكون ماشية فهم يعيشون على صيد الطرائد. قلتُ له: " لقد طلبت مني دواءً للعيون، فهل ستذهبُ إلى الصيد بعيون عاشية ؟ " فقال لي: " إن (العيال) هم الذين يقومونَ بالصيد؛ وإنا أبقى بالمنزل. " وذهبت كذلك إلى بيت كانت ربته الهتيمية تغلي لبناً، في إناء كبير، لعمل مريسة. فجلست لمشاهدة ذلك العمل: كان إناؤها يغلي وتتصاعد من الفقاقيع، فسألتني ما إذا كنت أستطيعُ متابعة ذلك وعيوني متجهة إلى السماء ؟ "لقد سمعت أن النصارى لا يستطيعون النظر إلى السماء. " وسخرت من "عدَم إيماني وعداوتي لله" ؛ ولم أجبها بأي شيء. بعد ذلك أخذت مغْرَفَة من عجينة المريسة، وسكبت عليها السمن، في ماعون، ودعت الغريب ليأكل، قائلة بدعابة: " آه! لماذا أنت باق دون دين؟ وتخلي الله والناس ضدك؛ فقط أد الصلاة كما نؤديها ، وسيصبح الجميع عشيرتك. "تلك هي الكلمات التي كنت أسمعها يومياً من البدو في هذه الصحارى .

في صباح اليوم التالي، لم يعد الرسول الذي أرسلوه في طلب الشيخ ابن

حيزان، فقمنا بالتحميل باكراً. وأشرقت الشمسُ ونحن نتقدم في مسيرتنا؛ ولكن رجلاً آخر من بشر في طرف المخيم دعانا إلى أن نترجل، لأنه أعد وجبة ضيافتنا، وهي غير عادية في الصباح؛ لكن طبق الرز الذي أعده كان مفترضاً أن يكون عشاءنا البارحة. وبينما كنا نأكُل، حضرت إليَّ امرأة مسكينة باكية، ترجوني أن أقوم بعلاج ابنتها المريضة وأبقى هنا، - وأن نكون ضيوفاً عليها، وقالت بأنها سوف تهبُ الحكيم جملاً عندما تتعافى طفلتها. عندها أصر عياد على وجوب بقائي، مثلما أصرَّ بالأمس بأن أتحرك؛ ولكنني أمتطيت الذلول وتحركت: بدأنا رحلتنا دون ماء. لأنه لا ينبغي للضيف استغلال كرم ضيافة البدو، لم نكن نستطيع أن نطلبَ منهم أن يملأوا قربَنا الصغيرة بالماء؛ ومع ذلك فإن المضيفين في العادة يرسلون قرب الضيوف مع قربهم إذا ما أرسلوها إلى مورد ماء، ليتم ملؤها مع قربَهم.

واصلنا مسيرتنا لمدة ساعة أو ساعتين من الزمن، فوق جبال لا ممر فيها إلى أن وصلنا إلى حافة منحدر حيث تمكنا من رؤية سهل خال، في اتجاه الشمال. كان مرجان هو الوحيد الذي سبق له إن كان فيه في أيام طفولته؛ وكان يعرفُ بأن هناك أماكن للماء في السهل، ولابد لنا أن نجدها، حيث لم يتبق ماء نشربُه. هبطنا من الجبل وشاهدنا أثراً قديمًا لأقدام ماشية صغيرة؛ وأملنا أن تقودنا إلى مورد ماء. في تلك الأرض ذات الصخور البلوتونية كانت هناك الكثير من الكسر الصخرية اللامعة من الكريستال الشفاف. اعتقد مرجان وهو ينظر إلى المعالم الأرضية بأننا ربما تخطينا مكان المياه؛ وقال رفاقي إنهم سوف يعودون على الذلُول ليبحثوا عن مكان الماء، وطلبوا مني أن أجلسَ وأنتظرهم: ولكنني فكرت في أن الشر الذي في قلوبهم قد يُقنعهم بالتخلي عني، قبل أن يكونوا قد قطعوا ميلاً واحداً، لأموت ميتة بائسة، وعندها

أناخوا الذلُّول، وقاموا بإنزال حقائبي. وقالوا: " إن الطريق وعر ولا يمكن الذهاب على أقدامنا، وقد ينقضي وقت طويل قبل العثور على ثميلة؛ وإن المرء يستطيع الرؤية لمسافة أبعد وهو على ظهر الذلُّول، " فقلت لهم: " سأذهب معكم بحثاً عن الماء. " -قالوا: "كلا، و سوف نعود إليكَ في وقت قصير. " فقلت لهم: " حسناً، ولكن اترك معي بندقيتك يا عيَّاد؛ وبخلاف ذلك لن أسمح بأن نفترِقَ بهذه الطريقة. " قام بوضع بندقيته، مكرهاً، ومن ثم ذهبوا عني.

غابوا عني ساعة ونصف الساعة وثم شاهدتهما عائدين، ولفرحتي، كانا يحملان الماء معهما. و الآن احتج عياد على عدم ثقتي به! وأضاف: "والله لم يحدُثُ أن أخذَ أحداً مني بندقيتي! إلا خليل هذا! " فقلت لهم: " إذا كنتم خويا [رفاق] صادقين، ستجدونني لطيفاً معكم؛ ولكن اخبرني، هل سبق أن أطلقت النار على رجال من قبيلتكم؟ "ـ "آي، بالله! أنا عواجي وأطلقتُ النار على عواجِّي آخر، وإذا كنت قد فعلت هذا مع واحد من قبيلتي، فما الذي يمنعني من فعله معك؟ "ـ " إذاً، كيف يمكنني أن أثق بك؟ " فقال مرجان: " إنك تقول الصح يا خليل، وعياد هذا أحمق خفيف العقل. " يتقبل الأصدقاء من البدو بصدر رحب ممازحة ولذاعة أصدقائهم هزلاً أم جدّاً. قال عيَّاد " والآن دعونا نجلس وندخن بعض التبغ؛ لأننا لن نسير في النهار إلا في المناطق التي يكون السفر فيها خطراً في أثناء الليل. أذهب يا مرجان وأجمع حطباً، ودعونا نخبزُ الخُبزَ هنا، وقبل حلول الظلام، حيث من غير المناسب اشعال النار في الليل". نهض الصبي وتحرك بسرور، لأن مثل هذا العمل يعد هو واجبُ الأصغر سناً وسط الرفاق المسافرين لمسافات طويلة في الخلاء.

أخرج مرجان قصاصةً ورقية من حزامه لكي أقرأها له. لقد كانت شهادةً

بمدة خدمته الحكومية، فيها: " إن المستحق لمرجان البجَيدي، عقيلي [جندي]، عن مدة سنة وبضعة أشهر المبلغ الفلاني من الريالات، ناقصة سبعين ريالاً قيمة ذلوله. " ـ " وماذا عن ذلولك، يا مرجان؟ " ـ " لقد نفقَ، وهم (بالتحديد الكولونيل المحتال، الذي يأكل حق المساكين بهذه الطريقة، عندما يُجندون أنفسهم ولا يكون عندهم ذلول) استقطعوا مني سبعين ريالاً، مقابل ذلول تحتضرُ! كانت تستحق، والله، أقل من عشرة ريالات؛ ويعلمُ الله بذلك" ـ " إنها خدمةٌ كئيبة. " ـ " إيه، وهي خدمةٌ تتطلب الكثير، ولكنني أُفكرُ في تركها هذه السنة. " ثم قلت له: " يُمكنُكَ أن تعمل عند ابن رشيد، الذي يدفعُ لرجاجيله أربعة ريالات مجيدية، شهرياً، وبانتظام، علاوة على ذلك يوفر المنزل والمؤونة. " أجاب قائلاً: " إيه، وهذا ما أُفكر فيه بعد أن أترك العمل مع الدولة. "

أضعنا ساعة من الوقت، بعدها تقدمنا في مسيرتنا؛ كانت الأرض سهلاً رمليًا، يُحدُها من الاتجاه الشمالي الشرقي جبال بعيدة. في وسط السهل بين تلال، يوجد مورد ماء صيفي قديم للعواجي، يسمى يمن. وتوجد آبارٌ مهجورةٌ ضاربةٌ في القدم يصل عمقها إلى عشر قامات، مطوية بالحجر بشكل جيد، يقولون إنها من عمل الجن. و عبرنا ثانية أرض الصخور البلوتينية، إلى أرض صخور رملية حمراء (وهي هنا ذات لون داكن). وظهر بعيداً أمامنا في الحرة جبل بركاني أسود، جبل ثنان. وهذه القفار الرملية هي لقبيلة العواجي؛ وتنمو في هذه الأرض 'البيضاء' أفضل المراعي، وشاهدتُ من حولنا آجام خضراء كثيفة! – ومع ذلك فإن ثلثي هذه الأجزاء لا تعيش فيها أي مخلوقات: عثرنا هناك على أثر حديث لأقدام النعَام. قال الرفاق، " فلنسرِع السير [في هذه البلاد المكشوفة]". وطلب مني عيَّاد أن أنظر في كُتُبي

لأستطلع فرصتنا في النجاة من مغامرتنا هذه؛ 'لأنه "والله يضيق صدري" ، حسب قوله، منذ أجبرته على ترك بندقيته معي.

بعد ساعة من طلوع النجوم توقفنا في مُنخفض من الأرض، تحت أجمة كبيرة وحيدة؛ وأنخنا ذلولنا أمامنا لتقي أجسامنا من نفحات رياح الليل الباردة، التي بدأت تهبُ في شكل إعصار، واخترقت ملابسهم الحجازية الخفيفة. ولكي يستمتع الرفاق بدفء النار نسوا مخاوفهم التي عبروا عنها في أثناء النهار: وبحثوا في الظلام عن بعض الأغصان ليشعلوا النار. وبالحفر بيديَّ هناك عثرتُ على جلة تغطيها الرمال، -لقد كان المكان مَبْرك إبل قديم: ومما لا ريب فيه أن مسافرين سابقين قد نزلوا في هذا المكان لقضاء ليلة في أرض 'فندقنا الصغير' تحت هذه الأجمة الصحراوية الكبيرة: كانت الجلة مدفونة بفعل الرياح، منذ سنتين أو ثلاث سنوات. لف مرجان نفسه بعباءته: وفي وقت قصير توهج لهب النار، وقمت بغلي الشاي الذي لم يسبق لهم أن تذوقوه معي حتى حينه.

استمر البرد المصحوب بالرياح طوال الليل، وكانت الرياح تعصف بشدة. وعند الفجر بالكاد استطاعوا أن ينهضوا بأجسامهم المتيبسة ليشعلوا ناراً جديدة: جلس الرفاق، ولم يكن هناك أي قدر من الدفء في أجسامهم نصف العارية لكي يستطيعوا السيرَ عكس هذه الرياح العاتية. ونثرت هبّةٌ من الرياح التي تندفع في دوائر من حولنا الجمر الخابئ، فصاح عياد الغبي "أخس! "الله يلعن أبو ها الهبوب؛ وأضافَ، "الله يسلط على ها الحطب." وأخيراً نهضنا؛ وأخذ الرفاق يسخنون أجسامهم عند النار لبرهة من الوقت، ونشروا عباءاتهم الفضفاضة فوق الجمر الذي بدأ يخبو. كانت رياح شهر مارس العاتية تعصف على وجوهنا، وأسناننا تصطكُ من البرد، وعيوننا

تمتلىء بذرات الرمال. ترنَحَ الرفاق وهم سائرون على اقدامهم، وسرنا في اتجاه الشمال الشرقي: وبعد مُضي ساعتين من الزمن توقفوا ليشعِلوا ناراً أخرى. ولاحظت أن السماء متلبدة طوال الوقت بسحب خفيفة. انقشعت العاصفة قبل الظهر؛ وبدأت الرياح تهدأ! اقتربنا حينئذ من الحافة السوداء للحرة، تحت جبل ثنان البركاني المرتفع. يقف جبل ثنان منفرداً في حقل للحمم المخروطية المُتصدعة الحادة؛ ويقول البدو بأنه يتعذر بلوغ قمة هذا الجبَل الكبير؛ لأنهم، في بعض الأحيان، وبعد أمطار الشتاء، يشاهدون دخاناً يتصاعد من حول قمته: ويشاهد مثل هذا الدخان في صباح أيام الشتاء يتصاعد من بعض الشقوق العميقة في الحَرَّة، ورائحته تشبه رائحة بخار الماء الدافئ حسب قول العم محمد النجومي.

في تلك المنطقة يوجد معلم أرضي يتمثل بواد يعبر الحَرَّة باتجاه قرية الحايط، يُسمى وادي مخيط. كان الماء في قربتي بالكاد يكفي ثلاثة من الرجال العطشى ليوم واحد في فصل الصيف، وكانت مسيرتنا هذه هي المسيرة الثانية؛ لذلك شربنا قليل منه عند الظهر، ولم يكن معنا شيء نأكلَه. ولكن ذهني كان مشغولاً برؤية هذا الكم الهائل من التلال البركانية المخروطية المتفرقة التي تغطي الحرة السوداء المروعة. وتسمى هذه التلال حلاءة، وحلية، والكلمة تعني وفقاً لتفسير العم محمد النجومي، الشيء ' الذي يظهرُ بوضوح، وقد أخبرني بأن هناك نوعاً من التمر بذلك الاسم في المدينة. أما عيَّاد فقد فسر لي ذلك بقوله: "تطلق كلمة حلاءة على كل تل في الحرة يتكون من تربة سوداء مختلطة بخبث البراكين؛ وتطلق كلمة حلية على كل تل صغير في الحرة؛ أما "حلاء أو حلاوات (آخرون يقولون حليان) فتطلق علىٍ تلال الحرة مجتمعة." سرنا نحو نفس الحليان التي سبق وأن مررتُ بها

مع غصيب . وعند غروب الشمس لَمَحَ رفاقي القمر الجديد وحيوه بخشوع .

كانت النجوم تتلألأُ عندما توقفنا وسطَ الحليان ، وكانت تلك الليلة هي الثامنة منذ سفرنا من خيبر . و رأى رفاقي أن من غير المناسب إشعال نار ، ولم يكن معنا ما نأكله ؛ – وحسب معرفتهم السابقة ظنوا بوجود ماء في الجوار . ذهب عياد ليبحثَ عن مكان الماء ، ولكنه لم يعثر عليه بسبب الظلام . شعر عياد بأن ذاكرته قد خانته فتمتم قائلاً : لم آت لهذا المكان منذ اثنتي عشرة سنة ! " في الصباح تذكر معالم الأرض ؛ ثم خرج ثانية ، وأحضر معه قِرْبَة الماء مملوءَةً بماء بركة موحلة . كانت 'عين الشمس' (كما قالوا) قد ارتفعت ' طول رمح ' علَى الأعالي حينما شعرنا بأننا قد أنعشنا أنفسنا بالمشروب الطيني ، لننطلقَ بسرعة من جديد في مسيرتنا .

سلكوا مساراً يتجه شرقاً في الحرة إلى ضرغد : وهي قريةٌ صغيرة تقطنها أسرة واحدة ، وتقوم على آبار مستوطنة قديمة عند الطرف الآخر للحَرَّة . قال عيَّاد : "لقد تم اكتشاف هذه المستوطنة في الجيل الماضي عن طريق أحد الأشخاص الذين يجوبون القفار ذهاباً وإياباً ، يتجَسس ، مثلك على البلاد" : وقال لي بأنه كان من الأجدر بي أن أرى ضرغد بدلاً من قرية الحايط . واصلنا مسيرتنا بمحاذاة سيل طويل وقاع رملي أسود في الحرة ، حيث كان يوجد القليل من عشب الربيع : ولأننا وصلنا بذلولنا البائسة إلى هذه الحدود الخضراء تركناها ترعى وهي سائرة ، أو كنا نجمع الأعشاب بأيدينا أثناء سيرنا ، ونقوم بدفعه إلى فمها . وحيثما كانت هناك أشجار طلح ، كنت أجد عادةً عشباً صغيراً ، ينمو تحت الجانب الشمالي للشجرة ؛ وذلك في المكان الذي تجد فيه جذور الأعشاب الصغيرة ظلاً في هذه الأرض المحروقة ، عندما تجفُ رطوبة الخريف القليلة . كنت مُتقدَماً أمامهم عندما شاهدتُ أثر أقدام

إبل! وناديتُ على رفاقي لاستفسر منهم عما إذا كان الأثر منذ الأمس: فقالوا إنها منذ ثلاثة أيام. ولم يتمكنوا من إفادتي عما إذا كان أثرًا لغزو، بمعنى، أن هؤلاء البدو العقيلات لم يستطيعوا أن يُميِّزوا ما إذا كانت آثار إبل تسير بسرعة مع راكبيها، أم إبل ترعى! ولكن برؤيتي لآثار أقدام حشيان الإبل عرفت أنها لإبل ترعى. وهذا ما كان إذ وجدنا آثار رعية إبل ابن سمرة، وكان رأي الغريب أقرب للحقيقة من رأي البدو. واستمرت رؤيتنا للأثر إلى أن قرب الظهر وبدأ يداخلهم الشك حول ما إذا كان من الأفضل لنا العودة إلى طريقنا. عندها رأينا عدداً من الإبل ترعى في مكان مُخضَرٍّ بعيداً أمامنا.

عندما وصلنا إلى حيث الإبل وجدنا الرعاة في قيلولتهم منبطحين على بطونهم فوق العُشب الأخضر، ولم يشعُروا بنا، إلى أن اجفلتهم أصواتنا بسبب الخوف الذي يعيشونه في الصحراء. فنهضوا على عجل يتنابهم الخوف، لرؤيتهم البنادق في ايدينا؛ ولكن بسماعهم السلامُ عليكم استعادوا رباطة جأشهم. عندما تذكر عياد لاحقاً هذه المغامرة قال: " لو كان هؤلاء قوم (أعداء) لكنا أخذنا، والله، جميع تلك الإبل التي رأيناها ولم نترك لهم واحدة". وبينما كنا جالسين معهم سألنا أكبر الرعاة سناً 'كيف يجرؤ على اقتياد إبله إلى هنا؟" فأجاب: " الله يطوِّل عُمر ها الولد! [الأمير ابن رشيد]، الذي نستطيعُ تحت حكمه أن نرعى حلالنا دون خوف. والأحوال اليوم غيرها قبل عشر سنوات، واليوم أنا وشقيقي الصغير يُمكننا أن نرعى إبلنا في سلام في جميع هذه الأراضي." بعد ذلك قام بإرسال صبي ليحلبَ لنا حليبا؛ وبما أننا كنا مُنهكين وجائعين وعطشى فقد تجرع كل منا مقداراً من الحليب يساوي ثلاثة أو أربعة باينتات في شربةٍ واحدة: كان مرجان هو الوحيد الذي لم يشرب الكثير من الحليب بسببِ معاناته من الطحال. كان الصبية من قبيلة

هتيم، وكانوا قد خرجوا من منازلهم منذ بضعة أيام مع إبلهم لترعى. وكانوا يحملون عصيهم وعباءاتهم فقط، ومحلبًا واحدًا لهم جميعاً، ولاشيء من المؤن، أو الأسلحة. وكانوا حينما يشعُرون بالجوع يقومون بحلب ناقة ويشربون الحليبَ حتى يرتووا. ودلونا على المكان التالي الذي سوف نجدُ فيه بدواً، وبعد ذلك افترقنا عنهم.

* * *

وصلنا بعد الظهر إلى هضبة صخرية قائمة وكأنها جزيرة بمنحدرات صخرية في الحرة البازلتية؛ ظن الرفاق أننا ضللنا الطريق لأنهم جالوا النظر بعيداً في أرض الحرة ولم يروا الأعراب. ومن أرض مرتفعة أخرى أعتقدوا أنهم رأوا قطيع إبل عند جبل بعيد: ولكنني وقد نظرت من خلال منظاري لم أتمكن من رؤيتها! انطلقنا إلى هناك، ورأينا بدوياً على حافة إحدى الحمم البركانية، يحرس قطيعه من الأبل. نهض الرجل عندما رأنا وتقدم لملاقاتنا: وصاح قائلاً " ماذا جاء بك هنا ثانية يا خليل؟ " لقد عرفت الصوت، وكان عيادة بن عجوين، الشيخ الهتيمي، الذي من مضاربه ذهبت مع غصيب لعبور الحرة، إلى خيبر.

حياني الشيخ عيادة، ولكنه نظر بإزدراء إلى رفاقي، وكانا باردين معه وصامتين. هذه هي العادة في الصحراء عندما يتقابل بدو مع بدو آخرين ولا يكونون متأكدين من كونهم أصدقاء أم أعداء. جلسنا سوياً؛ فقال الهتيمي الفظ، "خليل، من هؤلاء الذين معك؟ " فقلت "أسألهم بنفسك" ، فسألهم " يا رجال، من أي قبائل أنتم، يا الجايين كما أظن من خيبر؟ " أجابوا، "نحن عقيلات أرسلتنا باشوية المدينة لنسلم خليلاً إلى ابن رشيد. " ـ فرد عليهم قائلاً " ولكنني أرى أنكم بدو، وأنا أسأل من أي بدو أنتم؟ " أجاب عياد، : " يا

فلان، أنا ما عرفت اسمك حتى الآن، ولن نذكر من أي قبيلة نحن، خوفاً من أن يكون هناك عداء بين قبائلنا "ــ "أو هو! هل هذا ما يخيفك؟ لا تخافوا من شيء [فأهملهم]، إيه، يا خليل، من يكونون؟ ـ أظن انكم عطشى؛ سأحلب لك يا خليل حليباً، ومن ثم لهما إذا أرادا أن يشربا! " حينما شرب رفيقاي أجاب عياد، "والآن يمكن أن نخبرك بأننا من البشر. " ــ "هذا جيد، نحن أصدقاء؛ وأنت يا خليل اسمع إنك نصراني، كيف وجدت خيبر؟ " ــ "مكان منحوس. " ــ "لماذا ذهبت إلى هناك ألم أحذرك منها؟ "ــ "أين غصيب؟ "ــ "إنه ليس بعيداً من هنا، وهو في حالة طيبة؛ وقال عنك إنك رفيق طيب، إلا أنك كنت على وشك أن تأخذ ذلوله منه عندما اختلفتما قرب خيبر، والذي لا أعرف لماذا؟ هذا ما قاله، وهذا غير ممكن لأن خليلاً (موجهاً كلامه لرفيقَيّ) رجل أمين؛ فالدواء الذي اشترته منه حريمنا، وحريم أعراب قاسم [ابن براك] يقولون إنه مفيد. وكيف وجدتموه أنتم؟ هل هو رفيق طيب؟ "ــ "إيه، ولابد لنا أن نعترف بذلك، بالرغم من أنه نصراني! ولكن بالله إن المسلمين في كثير من الأحيان يستحقون أن يقال عنهم نصارى. "ــ "وأين ستنزلون الليلة؟ "ــ "إننا نبحث عن الأعراب، ولكن اخبرنا أين نبحث عن مضاربهم" ــ "هناك (نهض واقفاً يشير بأصبعه إلى الطريق)، خذوا الطريق الأدنى، في ذلك الاتجاه، وإذا لم تتباطؤا في سيركم فإنكم ستكونون في مضاربهم قرب غروب الشمس. وربما سألحق بكم في المساء، وغداً أرافقكم إلى حائل. "لقد استغربنا رؤية هذا الشيخ الغني يعتني بإبله بنفسه!

سافرنا عبر أماكن صخرية، قريبة من الجانب الشرقي للحرة؛ وكانت الشمس تغرب عندما وجدنا بيوت البدو منصوبة في منخفض من الأرض. وكانوا فريقًا [جماعة] من هتيم. والفريق على هذا الأساس يعدّ قرية متنقلة؛

وفي العادة يكون أفراد الفريق من عشيرة واحدة تقريباً. وأغلب القبائل الرحل في نجد تكون متفرقة طوال ثلاثة أرباع العام، حتى حلول فصل الصيف؛ إذ يجتمعون ويقيمون مضربهم بقرب بعض موارد الماء في ديرتهم.

عند وصولنا إلى مضرب هذه الجماعة ترجلنا أمام بيت الشيخ؛ ووجدنا سجادة تركية زاهية في بيت الشعر، وهذه على غير العادة عند هتيم، وضيافتهم البائسة. وضعوا أمامنا وعاء فيه بقل لا يمكن تكسيرة إلا بالرحى. ومع ذلك فقد أحضر هؤلاء المضيفون البائسون، والمتعصون، ملء سطلين تقريباً من حليب النياق، ولم يأت عيادة.

لقد سبق وإن سمعوا هؤلاء المضيفين عن النصراني، وعن رحلتي مع غصيب، ويعرفون قصة قريبهم معه، وهي أنه (على الرغم من أنه رفيق طيب) كان على وشك أن يأخذ الذلول عندما كانوا بقرب خيبر. وقال أحدهم لقد كانت رحلة خطرة، وحياة غصيب عند عودته تعرضت لخطر شديد؛ لأنه وبينما كان عائداً في الحرة هطل مطر شديد. بعدها اتجه غرباً ليتجنب مساوئ أرض الحمم البركانية؛ ولكنه وهو يعبر سيلاً رملياً حاصرته السيول، فانهارت ذلوله، وسقطت بندقيته: واستطاع غصيب بشق الأنفس إنقاذ نفسه وذلوله وبندقيته.

رحلنا في الصباح، وبعد ساعتين من المسير، وصلنا إلى مخيم آخر من مخيمات هتيم. ـ ولأننا قررنا أن نستريح هذا اليوم، ذهبنا للنزول عند بيت من بيوتهم؛ وبصدفة غريبة كان ذلك بيت صالح! الذي تخلى عني في هذه المناطق عندما جئت من حائل (قبل ثلاثة شهور). وعندما كان الرجل يخرج من بيته لمقابلتنا، ناديت عليه باسمه، وكان مندهشاً لرؤيتي. لقد كان متحزماً بحزام بندقيته ليذهب راجلاً مع رفيق له إلى قرية الحايط، على مسافة

رحلتين، ليضعا مقابض جديدة لبنادقهم الطويلة عند صانع ماهر (سمعوا إنه وصل إلى هناك). كان صالح وعياد تابعين لشيخ واحد، وعلى معرفة ببعضهما بعضاً. وكان البيت المجاور لبيت صالح للهتيمي العجوز، الذي كان المرافق الثالث في رحلتنا خلال فصل الخريف. لم يتأخر العجوز في الحضور إلينا إذ حياني بود صادق؛ وأخر صالح رحلته إلى القرية من أجل ضيوفه. يسمى هذا الجزء من الحرة حبران، على اسم جبل أحمر قائم منفرداً وسط الحمم البركانية: وباتجاه الشمال رأيت مرة ثانية جبال بشرى أو بثرى - بعد أن شربنا اللبن، قضينا ساعاتنا بهدوء. طلبت مني زوجة العجوز الهتيمي قليلاً من الدقيق واعطيتها حفنة، وكان ذلك كل ما معي منه؛ ونثرت هذا الدقيق في قدر السمن الذي كان يغلي، ودعتني لتصفية القشدة من السمن. صبت المرأة السمن المصفى في عكتها؛ وقدمت لنا رواسب الدقيق والزبدة اللذيذة لنأكل.

لأنني قد عدت سالماً لم أنطق بشيء؛ ولم أكن قادراً على تحية صالح بكياسة الأسكندنافيين، "شكراً للمرة الأخيرة: " لكن زوجته سألتني، هل صالح رجل طيب يا خليل؟ " لصالح وزوجته طفل عمره ست سنوات؛ وكان هذا الطفل عارياً مثل دودة، يرتجف من البرد بين سواعد أمه؛ - وكان بتلك الصورة أيام الشتاء، على ارتفاع (هذا المكان) ٤٠٠٠ الأف قدم! إنه لأمر عجيب بقاؤهم أحياء في مثل تلك الأيام القارسة. وجاء إلينا رجل كان يلبس لباساً لم أر أبداً أيّا من البدو وقد لبسه، فقد كان يرتدي عباءة منسوجة محلياً من قماش بيوت الشعر؛ ولكن شدة الريح كانت تخترق كسوته الثقيلة. وجدت قطعة قماش قطني مع أغراضي فأعطيتها الأم لتخيط ثوباً صغيراً لابنها.

حينما حل المساء قدم لنا صالح جدياً مطبوخاً، وأكلنا جيداً. بعد العشاء

سألني ما إذا كنت راضيا عنه الآن؟ ـ مسكين ! لقد كان خائفاً من ذاكرتي الشيطانية، وكتبي السحرية. اتفق صالح مع عياد ومرجان على أن يذهبوا سوياً إلى خيبر بعد أن يعودوا من حائل، ويمروا عليه في طريق عودتهم؛ فهو يريد أن يقايض سمنه بالتمر، الذي سيستلمه في موسم جداد [جني] التمر. ومع أن صالح من البشر المعادين لأهل خيبر، فهو هتيمي بالتبني، ومع عياد سيكون آمناً في خيبر. ـ ولكن كيف سيجدون هذه الخرابيش الثلاثة في الخلاء بعد عودتهم، بعد عدة أيام. أعطاهم صالح الشور (الرأى) ؛ "في اليوم الرابع سنرحل (عندما أعود من الحايط)، إلى ذلك المكان (مسميا له) : وبعد أن يرعى القطيع هناك، سنرحل إلى المكان الأخر [مسميا له]؛ وبعد عشرة أو اثني عشر يومًا ابحثوا عنا. بين المعالم المحددة [مسمياً لها]، حيث سنرد موارد الماء المعينة [عينها لهم)" . لقد كان يتحدث على مسامع رجال يعرفون أسماء كل الجبال والصخور والسيول والمنخفضات في تلك البرية الواسعة: لقد كان عياد يطوف في تلك الأماكن في شبابه.

وجاء من البيوت المجاورة إلى جلستنا المسائية حول موقد النار بعض الشباب. وقال أحدهم: "إن خليلاً رحالة من بلاد بعيدة؛ وهذه حياته يجول الدنيا! ووالله إني أرى أنها الوظيفة الأفضل، ولكن من يسافر يحتاج المال. ولو ملكت المال لفعلت ما يفعله، وسأزور البلاد الأجنبية لأتعلم كلامهم، وأرى كيف يعيشون في كثير من البلدان الغريبة: أما نحن! ما هي حياتنا؟ ـ إننا مثل الغنم في الخلاء. وسأرحل مع خليل غداً لو كان سيأخذني معه: إيه، والله يا خليل سأكون رفيقاً مخلصاً! " وقال آخر: "بما أنك شاهدت العالم، أخبرنا أين وجدت الحياة الأفضل؟" فقلت "في بيوت الشعر." فقال: "لا، لا! إن هذه أرض البؤس، والبدو مساكين." وأجاب أخر، "ومع ذلك فإن

الأعراب شجعان، ولا يوجد مثلهم في العالم! كيف وجدت خيول البدو؟ أليست بالله مثل الطيور؟ "

لا يوجد لدى هتيم إلا القليل أو لا شيء من الخيل؛ وقد سألت عن أسماء خيلهم. وذكر أحد الرجال الطيبين :ـ صيره، البومه، الشعل، رهيدين؟(er-Raheydin)، أم صغار، سبيقات، هيهة ؟(Hyha)، عجرة ؟(Agerra)، السعفة،ـ بعض هذه الأسماء من أسماء أفراس (في قصائدهم) بني هلال؛ ـ شطفة، الجمريه، الشقراء» (أغلب خيول نجد من ذلك اللون، ومن اللون الكستنائي المحمر؛ أما اللون الرمادي فنادر والأسود أكثر ندرة). وهذه الأسماء جميعها لأفراس؛ أما الأحصنة فتقريباً لا يعدها رجال الصحراء ضمن قطعانهم. وسألتهم عن أسماء حميرهم. ـ كانت الأسماء: الدغيمة، الدحيسة، الجميرة، الخيبة، القوع، الدعمه، الوجيله، المنسلة، صورة، الجرذية، الضمران، الشعراء، النجيلة، الرخصه، اللهاء، الحنابه، السوداء، الجيرملة، الخصابه، الحبارة [وهذه أيضاً أسماء لأفراس]. وصرخ عياد خارجاً عن صبره متسائلاً عن هذه الحماقة في خليل؟ وقائلاً "آه يا أنا! أنت رفيقنا، وسماعك لهذه السخافات! ـ والله سيجعلنا مهزلة أمام الناس! "

وأخبروني أيضاً أسماء عشائر هتيم: ابن براك، ابن جلدان، ابن داموك (من الخلويه ـ يعاملون كصلبة)، ابن سمرة أو الذيبة، المضابرة، الفرادسة، ابن حيزان، الخيارات، النوامسة، القبيد.

عندما أيقظنا ضوء صباح اليوم التالي نهضنا وغادرنا، وسرنا بالقرب من جبل حبران، ووصلنا إلى نقرة في منطقة الحمم البركانية: أخذني عياد لرؤية المكان، الذي يسمونه اللبيدي، كأنه أعجوبة طبيعية. وهو مورد ماء صيفي لأولئك السبعة[من قبيلة السبعة العنزية] الذين يترحلون جنوباً مع مثل

[العـواجي] عندما يخيم العـواجية عند مورد ماء بيضاء نثيل. يوجد في ذلك القعر البازلتي، المفروش بجلة إبل البدو، بئرين قديمين، وبينما كنا عندهما لننظر فيهما، طارت منهما حمامات برية؛ إنها طيور مياه الصحراء، حتى لو كانت تلك المياه مرة ومهلكة للعرب. جلسنا لنرتاح ساعة في ظل جرف، (لأننا ظننا أن البدو لن يكونوا بعيدين عن ذلك المكان): وكانت حولنا بقعة مملوءَة بنبات القراص بدت لناظري حديقة في الصحراء! - وفي أي مكان توجد تلك الشجيرات الخضراء الطبيعية، يكون لها بعد إنساني.

أكلنا كفايتنا؛ ا ثم امتطيت الذلول، وسار رفاقي راجلين، وكان مرجان مرهقاً وغاضبًا ونحن ما زلنا في منتصف رحلتنا الطويلة. قلت له بينما كنا سائرين، "اسرع يا رجل أو دعني أسير، فأنت تعيق سير الذلول؟" تمتم، والتفت، بنظرة ماكرة، مصوباً بندقيته إلى صدري. لهذا قلت، "لا، أعطني تلك البندقية، وسوف أعلقها في إطار الشداد، وهذا سيكون أفضل لك." وتكلمت مع عياد ليأخذ منه البندقية ويعلقها فوق الذلول بعيداً عن متناوله. وعد عياد نيابة عنه قائلاً "إنه لن يضايقك أبداً بعد الآن: وسامحه يا خليل - لأنني قد أنخت الراحلة - وعليك أيضاً أن تتحمله، وهذه هي طبيعته، كلها طيش." قلت "هذا كفاية، والآن إنْسَ الموضوع؛ - ولكن لو رأيت مثل هذا التصرف ثانية، يا ولد، فسألقنك درساً على غلطتك، و هل سمعت يا عياد أن بدويًا قد هدد رفيقه بالموت؟" فقال: "لا، واللّه أبداً."

صرخ هذا الرجل النكد قائلاً: "ولكن هذا (الرجل) نصراني، - ومع نصراني لا يحتاج المرء أن يلتزم بأي عرف؟ أليس هذا عدو اللّه؟" عند تلك الكلمة انتزعت منه بندقيته، وأعطيتها عياد: مددت عصاي عليه (لأن تلك هي الطريقة التأديبية التي يعرفونها في المدينة) وأوسعته ضرباً، وخلال لحظة،

كان ظهره يتألم. جاء عياد من خلفي فمسك سواعدي؛ تخلص مني الرجل ثم رفسني بطريقة خسيسة، وضربني بعقال رأسه الثقيل على وجهي: ثم أخذ حجراً كبيراً وجاء به ليكسر رأسي، ولكنني عندها حررت نفسي من عياد. وصرخ عياد قائلاً: "لقد تصرفنا جميعاً بجنون، إيه، ماذا سيقال عنا حينما تنقل هذه القصة في يوم ما؟ ـ الآن! خذ يا مرجان بندقيتك، ولكن ابتعد عن نظر خليل؛ ويا خليل كن صديقنا، وامتط الذلول ثانية. اللّه، لقد كنا على وشك حصول أذى كبير، إن مرجان أكثر من رأيت من الرجال حمقاً على الإطلاق، وهو هكذا دائماً."

تحركنا بصمت؛ ولم أتلفظ إلا بالقول إننا سنترك مرجان عندما نصل إلى أول منازل نأتي إليها. وكان الرجل سبباً أيضاً لتعرضنا للعطش في الطريق؛ لأنه كان علينا أن نقتسم معه ثلث الماء الموجود في قربة صغيرة معنا. والأسوأ من كل ذلك أن هذا الرجل العنيد تسبب في فساد القليل من الطبيعة الطيبة لعياد، من خلال إشاعاته، ومحاولات إبعاده عني. لقد ندمت على إنسانيتي التي كانت في غير مكانها نحوه، وعلى موافقتي على تغيير طريق رحلتنا. ومع ذلك فإن ما حدث كان جيداً ليفهموا أنني لست خائفاً منهم. إن سياسة العصا التركية قد تجعل مثل هؤلاء يفهمون أفضل؛ ولكن الأفضل أن تكون في سلام مع العرب في أي من الأوضاع المنطقية، فلكونهم ذوي طبيعة رقيقة، فهم أصدقاء لطفاء وأعداء عنيدون.

تشبه الحرة في هذا المكان مداً متموجًا من البازلت: وغالباً تتسع القيعان المستطيلة حول قعور الحمم، أو النقرات، الممتلئة بالرمل المتحرك. ثم وصلنا إلى حافة الحرة؛ حيث كان إلى يميننا طريق يصل إلى ضرغد، مسافة نصف رحلة. قلت لهم: "لنذهب إلى ضرغد." رد عياد، "سيمر الطريق حالاً عبر

حمم عسيرة! ويا خليل، ينبغي علينا الاتجاه شرق مكاننا الذي كنا فيه صباحاً: ومع ذلك سأذهب إلى ضرغد من أجلك، رغم أننا لن نستطيع الوصول هذه الليلة، وليس معنا أي شيء للأكل." طلب مرجان من عياد ألا يوافق، وأكد أنه لن يذهب إلى ضرغد. وقال عياد: "إذا ما واصلنا سيرنا، فلربما نصل البدو الليلة: وقد ذكر صالح بدقة انهم يخيمون تحت الجبل القائم هناك." بدت هذه الخطة إنها الأفضل لرجال متعبين: وأعطيت عياد الكلمة أن يواصل في طريقنا الأصلي. ثم هبطنا من ضلع الحرة إلى سهل قاحل من الصوان. وذكر عياد أن هذا السهل يكون مرعى خصبًا في سنوات المطر؛ وأنه الآن محل، إذ لم تهطل أمطار خريفية في هذه المناطق؛ - وواصلنا سيرنا بعض الأميال، ومررنا بمحاذاة ضلعان بثرى(أو بشرى) الصوانية.

صرخ الرفاق وهم يستطلعون المنطقة المحوطة بهم قائلين "- ولكن أين وصلنا؟ لا يمكن أن يوجد أعراب في هذا الخلاء؛ هل يمكن أن يكون صالح أراد خداعنا؟" غربت الشمس ونحن في مسيرتنا البائسة؛ وتوقفنا في قاع رملي لسيل للمبيت. عقلوا القوائم الأمامية للذلول وتركوها في ضوء القمر؛ ولكن لم يكن هناك أي كلأ. لقد كنا صائمين منذ الأمس، وليس معنا أي شيء لنأكل، ولا ماء لنشرب. ووجدوا جذر شجرة كبيرة، وأشعلنا ناراً قوية؛ وغطتنا الأرض المنخفضة، تحت جبال تسمى الثمد.

لقد أعادت الليلة الساكنة في الخلاء المظلم، عند نار المساء، ما انقطع بيننا بسبب حماقتنا وبؤسنا البشري، وجمعتنا بعد الشرخ الذي أصاب رفقتنا. نسي مرجان ضغينته؛ ولكنه وهو يريني آثار الضرب في جسمه قال "لماذا تفعل ذلك مع صديقك يا خليل؟ لقد انتهت الجفوة، ومعها انتهى الألم، والغلطة غلطتي، وأرجو أن تتذكر أنه في السفر لا يوجد لا مسلم ولا

نصراني، ولكن رفاقة، أخوان. " ـ "طيب، خليل، لِنَنْسَ الموضوع. "

ذهب مرجان لجلب الذلول المجهدة والجائعة؛ ثم عقلها لتصد عنا عاصفة الليل، وأغمضنا عيوننا.

مع إشراقة اليوم الجديد، نهضنا من مراقدنا الرملية، وكنا جاهزين للانطلاق. وسرنا لعدة ساعات عبر ذلك السهل القاحل؛ وعبرنا ما بين مرتفعات جرانيتية شاحبة، لم نر فيها إلا طائر السيسكن، أم سالم، ذا الصوت الجميل، والذي كان يطير أمامنا في هذه المنطقة الصخرية المجدبة. لم يكن معنا ماء، وكان عياد يواصل تسلقه ما بين الجبال التي كانت عن يميننا. وقرب الظهيرة أعطى إشارة ونادى بأعلى صوته على مرجان ليذهب إليه بقربتنا. جلبوا القربة مملوءَة بالماء الذي وجده عياد في فجوة صخرة مغطاة بصخرة مسطحة؛ ويعتقدون أن ذلك من عمل أحد الصلبة (صياد). وضعنا كسر بقل في الماء ومرسناها به حتى أصبحت مريسة شربناها وأنعشنا أنفسنا. يبلغ ارتفاع هذه المنطقة ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. واصلنا مسيرنا طيلة ذلك اليوم في تلك الحالة المثيرة للشفقة؛ وكان مسيرنا دائماً في أرض رملية قاحلة تقطعها أحياناً جبال جرانيتية وبازلتية. ولم نجد إلا مرة واحدة فقط بعض آثار أقدام لرحلة من السنة الماضية.

تفحصوا الأفق؛ واستمروا يبحثون جيداً عن البدو: عند العصر تحدث مرجان، الذي كان حاد البصر، قائلاً: "أنا أرى زول" ! ـ والزول (جمع أزوال)، هو الطيف الذي يلوح من بعيد، ولا يمكن تمييزه بسهولة وتحس به العين التي لا ترى البتة؛ وقد قال لي مريض أعمى؛ "أنا أرى زول الشمس". حدق عياد جيداً وأفاد أنه قد رأى شيئاً. يمكن رؤية الأزوال من بعيد، ولكن لا يمكن تمييزها أكانت حيوانات برية أو قطيع أنعام، أو أعرابًا. وبعد أن راقبوا

المنظر لفترة من الزمن، قالا "إننا نرى رجلين مترادفين ذلولاً!" بعدها سحبا على عجل بنادقهما، وأشعل كل منهما فتيل بندقيته ووضعا البارود في فوهات بنادقهما من جلودهما الطويلة. لقد رأيت عياد قلقاً وعجلاً فسألته "لماذا كل هذا؟" فقال "لقد رأونا، وهم قادمون إلينا." استعد رفيقاي للمواجهة بالغناء والوثب وتركاني مع الذلول؛ أما أنا فكنت أشعر بالأمن بوجود سلاحي السري. عادا لاحقاً ليقولا إن الرجلين تراجعا عندما رأيا بنادقهما. وصاحا "ولكن لنسرع مبتعدين عن هذا المكان." ترادفا الذلول وابتعدا عني. تبعتهم ماشياً واهناً، وخطر ببالي أنهما سيتخليان عني.

بدأ ضوء النهار يخفت، ولامست الشمس الأفق، وكان أملنا يتلاشى مع تلاشي الشمس: ولابد أن نبيت ليلة أخرى في الخلاء دون طعام وسلوى إنسانية. بدأ رفيقاي البدويان تسلق المرتفعات المحوطة للنظر بعيداً في الصحراء، وكنت راكباً في السهل الواقع بين تلك المرتفعات. وبقي الذلول صائماً في هذه الأرض القاحلة يوماً ثانياً؛ ولكن الخلاء بدأ يأخذ بالتغير. وعند غروب الشمس صرخ مرجان بأنه رأى قطيعاً. وبعدها رادفني عياد الذلول، وحثه للوصول قبل حلول الظلام: خببنا الذلول مسافة ميل، وكان مرجان يهرول بمحاذاتنا. وسرعان ما رأينا قطيعاً مندفعاً في أرض صخرية لجبل أمامنا. كان يرعى القطيع صبية وغلام؛ وكان ذلك القطيع يختلف عن كل القطعان التي رأيتها حتى الآن، إذ لم يكن ضمنه أي من الماعز. قد يكون هذان الأخوان سمعا قعقعة سيرنا فوق الصخور المتحركة، أو رأونا الثلاثة قادمين، لذلك رجعوا على أعقابهم. إن مثل هذه المواجهات في الخلاء لا تخلو من الفزع: فلو كنا قطاع طريق للحقنا بهم ببطء، ولقيدناهم، وسرنا بالقطيع طوال الليل. ربما أن مثل هذه الأفكار كانت عند عياد؛ لأنه لم يسلم

عليهم إلى الآن، فقد بادرت بالتحية للغلام، بالقول السلام عليك! عندما سمع كلمة السلام صار ودوداً؛ وسأله عياد "فين المَعزبة؟" — لم نكن قد رأينا المضارب بعد. فأجاب الغلام البدوي بلطف "ليست بعيدة من هنا."

لم نعرف بعد من أية قبيلة كانوا، وأخذنا الصبي الذي ترك أخته مع القطيع إلى المضارب. ولأن وقت الصلاة قد فات، ولم يؤد رفاقي صلاتهم، فقد توقفنا وصلا على الرمال في الظلام منفردين، وبقيت على سنام الراحلة بجانبهم؛ لا يهمل عابر السبيل المرهق واجبه الديني، لذلك لابد أن ينزل ويؤدي صلواته المفروضة. حللنا في بداية الليل على مضاربهم؛ ولم يكن هناك إلا ثلاثة بيوت شعر. لقد كنا متفقين فيما بيننا على ألا يشير رفاقي إلى نصرانيتي. استقبلنا المضيف بلطافة في بيته وفرش لنا بساطًا أحمر زاه في قسم الرجال، ولا أشك أبداً أن تلك الفرشة هي الوحيدة التي ينام عليها هو وزوجته. ثم أحضر لنا محلبة مملوءَة باللبن، وطلب منا أن نطفئ ظمأنا: وهكذا تركنا لفترة (ليعد وجبة الضيوف). عندما سألت رفاقي من يكون هؤلاء الأعراب، همس عياد قائلاً "طريقة كلامهم تقول إنهم من حرب." فسألته "أي حرب؟" — "لا نعرف حتى الآن." وهمس مرجان في أذني قائلاً: "والآن هل أنت نادم على مرافقتي يا خليل؟ ألم تكن عيوني هي التي قادتك إلى هذه الضيافة؟ وإلا لكنا بتنا في الخلاء ثانية."

عاد إلينا المضيف، وطلب بدماثة إن كان ممكناً الحصول على مائنا، لعدم وجود ماء عندهم. اعتذروا منه بطريقتهم للمجاملة في الصحراء، وهم يعرفون أنه سيستخدمه لطبخ وليمتهم؛ ولكن الرجل الطيب فاز بالماء: فهو قد ذبح خروفًا حولي لضيوفه. والآن بدأ الطرفان البدويان يتحدثان حول قبائلهما: كان أولئك البدو، من بني سالم، من حرب نجد؛ ولكن ديرتهم

الأصلية تقع على الدرب السلطاني بين المدينة ومكة. إن هـذه هي المرة الأولى التي آتي فيها إلى بيت من بيوت تلك الأمة [القبيلة]؛ ولم يسبق أن وجدت مضيفين من البدو بهذا السلوك النبيل. وكلما رأى هذا المضيف المبتسم أن اللبن قد نقص في المحلبة الكبيرة ملأها: -لقد شربنا عن عطش يومين، ولم ينطفئ بعد. ولأنه رأى أنني أشرب أكثر من رفاقي حثني هذا المعزب الطيب على أن أشرب أكثر بقوله "إغتبق!" ورفع المحلبة إلى شفتي وقال: "اشرب، من نعمة اللّه، الحمد للّه، فهو متوافر! فأنتم قادمون من الجنوب عابرين لأرض شاقة." فقال عياد: "والله إنها كلها محل، والبارحة كنا خلاوية (وحيدين في الخلاء)؛ وهذا هو اليوم الثاني، إلى أن وجدناك هذا المساء." أجاب الرجل الطيب "الحمد لله على ذلك." أخبرهم عياد عن الغزو. ثم سأل المضيف "ومن يكون خليل؟ -أهو مشهدي؟ (من مشهد علي [النجف])؛ يخيّل لي أن رطنه (كلامه) ولونه مثلهم." قال رفاقي «إيه، إيه، إنه مشهدي، وهو حكيم، وعائد الآن إلى حائل." فقال الرجل "إن ابن عم له كان هنا مؤخراً، وكان رجلاً فاضلاً؛ وكان قد جاء من حائل لبيع الأقمشة بين الأعراب، ويا خليل، هل تعرفه؟ لقد كان يشبهك، بالله، كأنكما كنتما أخوين."

استلقينا للراحة. وبعد ساعة أو ساعتين تاليتين حمل هذا المعزب الكريم، وأخوه الراعي، طبقًا كبيراً من الرز، وفوقه اللحم الذي كانت حرارته تتبخر؛ إن ضيافتهم في الصحراء قد لا يستطيع حملها رجل واحد لأنها تقدم في صينية كبيرة. يوضع الطبق البدوي على بساط، أو على قطعة من قماش بيوت الشعر لكي لا تقع أي لقمة من الطعام على الأرض، ولو رأوا نقطة حليب أريقت (للندرة الأبدية والعوز لكل الأشياء) فإنهم يشعرون بألم. لقد

سمعت حديثاً لنبيهم يلعن سفك الحليب. دعانا المعزب الطيب لتناول الطعام بقوله "قوموا! حياكم الله والنبي، افلحوا!" وكان ردنا ونحن جاثمون حول الصينية، "الله يحييك." تركنا المضيف لنأكل دون أن يشاركنا. ولكن عياد بادر ووضع جانباً ثلاث قطع من أحسن اللحم للمعزب وزوجاته؛ لأنهم لم يتركوا شيئاً لأنفسهم. تحتفظ ربات البيوت البدويات دائماً ببعض الشيء لأنفسهن ولأطفالهن، لكن عياد، البدوي الشهم، متعود على حياة الحضر، أكثر من البساطة الطبيعية للصحراء. قال المضيف عند عودته "لا، ما هذا الذي تفعله؟ لا حاجة لذلك، والله لدينا ما يكفي؛ افلحوا!" فقال عياد "اجلس معنا." وطلبنا منه جميعاً "اجلس معنا، يا معزب؛ ولا يمكننا أن نأكل بدونك." رد بقوله "أبداً." "إن من ينتهي من الأكل عند البدو يبقي يديه عند الطبق، أما من يسكن الواحة أو البلدة، فإنه عندما ينتهي من الأكل ينهض منفرداً ليغسل يديه، مما يربك الجوعى وبطيئي الأكل. والبدوي عند طبق الأكل، إذا كان قد خبر البلدة، فإنه سيقطع أفضل قطع اللحم ويقدمهاجاهزة ليدي الصديق ليأكلها: والآن عبر ليّ عياد عن صداقته بتقطيعه للحم وتقديمه ليّ.

يتناول البدو الأكل بسرعة: وأصابعهم خبيرة في تقطيع اللحم، ويلتهمون لقماتهم القليلة من الرز المغلي أو البر بسرعة الطير الموجودة في كل أفعالهم. وكوني بطيئاً وضعيفاً في أكلي لم أغير عادتي في الأكل معهم بعد أن التمستهم العذر في ذلك. وإرضاء الخالق أفضل من إرضاء البشر. وأفترض حسن النية في أي رجل طلب مني شيئًا؛ وقد قدر العرب صراحة وصدق الغريب معهم. لا يعلو شكر على شكر اللّه على عنايته؛ ولكن عندما نهضنا بعد الأكل شكرنا الرجل بالقول (كما يقولون في هذه الديرة) ينعم الله عليك

يا المعزب. حُمل الطبق، وسحب البساط الذي كان تحته، وجلب لنا اللبن. شربنا ورجعنا إلى مكان جلوسنا عند وجار النار. ومع أن هذا الرجل الطيب كريم خيّر إلا أن بيته بدون قهوة. ونادراً ما يكونون عرب القهوة بمثل هذا الكرم.

يتوجب على الضيف (كما رأينا) أن يرحل عندما يشق ضوء اليوم التالي؛ ويتركه المضيف يذهب دون أن يقدّم له ما يأكله في الصباح، ليسافر بتلك الحال في الخلاء. ولكن إذا كان الضيوف أصدقاء له، والموسم موسم لبن، فإن المضيف الطيب سيطلب من ضيوفه الانتظار حتى يكون اللبن جاهزاً ليسقيهم. كان معزبنا المنتمي لبني سالم [من قبيلة حرب] مضيافاً إلى النهاية، وعندما نهضنا لنغادر أخرنا بلطف، وقال، "إن زوجتي تخض الصميل، اصبروا حتى تصير الزبدة، وتصب لكم بعض اللبن؛ أنتما الأثنان بدو، ولكن هذا المشهدي غير متعود مثلنا على السفر كل اليوم في الخلاء دون أن يأكل شيئاً. " كان ذلك الربيع هو الربيع الثاني لي في الجزيرة العربية وكان في بدايته؛ وفاضت أرض الصحراء ثانية بالحليب، واكتست الطبيعة حلة هذا الربيع الجديد الرائع. قال الرجل الطيب بصوته العميق غير المتكلف "اصطبح! " أي اشرب مشروب الصباح.

ـ لأنني كثيراً ما سئلت في أوروبا عن الضيافة العربية، ولذكرى الرجال الطيبين، فقد تحدثت مرات عديدة عن كرم الضيافة العربية. إن كرم الضيافة في بيوت الشعر، كرم الضيافة لعابري السبيل والغرباء في أرض ملآنة بالبؤس والخوف، كما رأينا، شديد الإفراط. وسمعت أيضاً من أفواه الحضر في الجزيرة العربية قولهم، "إن سبب كرم البدو هو حرصهم على السمعة الحسنة التي قد ينشرها عنهم عابرو السبيل في البلاد: ولأنهم متأكدون من أن

المضيفين الآخرين الذين سينزل عندهم هؤلاء الضيوف تالياً سيسألونهم "أين نزلتم البارحة؛ وهل كانت ضيافتهم طيبة؟"

ولما كنا نسافر في سهل صحراوي رملي، يسمى الشعبة؛ محوط من جميع الجهات بعدد كبير من الجبال البازلتية الملساء والمتلاصقة، لم نكن قادرين على تبين ما وراءَها: كل هذه الأرض تسيل منحدرة إلى وادي الرمة. سرنا لمدة ساعة ووصلنا إلى جوار روضة واسعة. والروضة هي أي قاع، في الصحراء، تنفذ فيه مياه الأمطار: والأمطار المتدفقة إلى الروضة من الأرض المرتفعة حولها تحمل إليها رواسب ناعمة، تجعل أرضها طفالية خصبة. وقد تعني كلمة روضة حديقة، ـ وتلك هي الوجه المبهج بخضرتها في الخلاء: وجمع كلمة روضة رياض [وهي أيضاً اسم عاصمة الوهابية في شرق نجد]. سألت عياد، "أليست هذه الأرض خصبة وكبيرة مثل واحة تيماء؟ لماذا لم تستوطن إذاً؟" فأجاب "أظن أن لا ماء فيها، وإلا وجدت فيها آبار من آثار الأولين." إن القاع مثل الروضة أو الخبرة منخفض طيني في الصحراء، تركد فيه المياه الضحلة المتجمعة بعد هطول أمطار غزيرة. وخبرة (أو خبراء) اسم قديم لواحة رئيسية [الخبراء] في نفود القصيم:ـــ زرتها لاحقاً.

اصطاد عياد برمية حجر أرنباً برية؛ ولا أحد يستطيع أن يستعمل الحجر أفضل من البدو: توقفنا وأشعلوا ناراً من عيدان الأعشاب. ولأنه نادراً ما يحمل الأعراب الجنوبيين سكيناً، فقد استعار عياد مطواتي لذبح طريدته، ثم قذف بها إلى النار كما هي. وعندما همدت نارهم أخذ عياد أرنبه، المشوية بجلدها، وقطعها وقسمها علينا؛ وجدنا لحماً طرياً ولذيذاً. هذه هي طريقة طبخ الصيادين: إنهم لا ينتظرون النتف، والسلخ، والقدر، ولا لأي أدوات أو وعاء؛ ولكن كل ما يقترب من رجال جائعين، يكون مهيئاً للمائدة.

وجد البدوي في جوف جسد الأرنب قليلاً من الدم فلحسه بشره، مع بعض ما في الفرث، وهمهم القول الساخر والشائع في الصحراء قالت الأرنب أنا شرمة. إنهم يشربون الدم بجهل؛ وقد شربه العم محمد النجومي في شبابه، ولم يعد الدم محرمًا. وقد قلت له "مع أنكم تتركون بعض الدم يخرج من الذبيحة عند ذبحها، الا يبقى كل الدم المتخثر في جسدها؟ وهذا تأكلونه!" فأجاب بصراحة رائعة "نعم، لقد أصبت عين الحقيقة! إن الدم يبقى في الجسم، ونحن نأكله في اللحم! وبالتالي لا أستطيع أن أرى فرقاً." إن أرنب الصحراء صغيرة، وبدنها الرقيق المشوي والموزع على ثلاثة أشخاص كان لنا فطوراً ضئيلاً. وجد عياد في المكان نفسه جحراً (بفتحتين) لجربوع، إنه فأرة الربيع الصالحة للأكل في هذه البرية القاحلة، وهي مخلوق صغير يعيش تحت الأرض، لا يزن أونصتين، له قائمتان خلفيتان طويلتان جداً وله ذيل طويل معنقد، جلده حريري، وبطنه أبيض؛ وفي هيئته يشبه الفئران ذات الجراب الأسترالية. حفر عياد الجحر بعصا الناقة وفجأة أمسك بالغنيمة الواهنة وقطع حلقها بغصين شجيرة، ورمى بها على الجمر؛ بعد لحظة قدم لنا قطيعات منها، ولكننا لم نقبلها. يذكر الصيادون أن الجربوع والوبر حيوانات مجترة؛ وأخبرني عم محمد النجومي بأن هذه الحيوانات تصاد في كثير من المرات وجرتها في فمها.

أرخينا رباط الذلول لترعى، وجلسنا في هذا المرعى اللطيف. ورفع مرجان الشداد عن سنام الذلول ليريحها، وقال ضاحكاً "انظر لترى ما إذا كان سنامها قد كبر؟" - جعلت طريقة ربطنا للشداد، واجتهادنا في إطعامها في مسيراتنا البطيئة، الذلول المريضة تبدو بوضع أفضل. وعندما رأيت أن وسْمها كان الدبوس استفسرت عما إذا كان قد سلب هذه الذلول من هتيم؟ كان عياد

مندهشاً لمعرفتي للوسم، وتفاخر أنها من الإبل الأصايل بنات التيه؛ وأنه قد اشتراها صغيرة من هتيم بأربعين ريالاً: وكانت حينها تبز كل الركائب. ولكنها الآن ذلول يستخدمها العقيلات للنقل؛ وبذلك كانت مصدر دخل لعياد إذ أرسلها مرتين، محملة بالحصائر التي تصنعها نساء خيبر من سعف النخيل إلى المدينة؛ حيث سخر منه البدو هناك .- إن التيه جمل وحشي حر خرافي، يوجد في قفار الشرارات. له ثلاث قوائم، كما يقولون، وغير طبيعي السرعة؛ وقد يسبق أي حصان. وقيل أن الشرارات يتركون إبلهم تتيه في الصحراء، لعلها بالصدفة تضرب (تلقح) من التيه. ويتظاهرون بتمييز ذريته بوضع علامة من ثلاثة أضلاع . وهجن الشرارات. . . تُفضل على كل الإبل في غرب الجزيرة العربية: يركب رجال ابن رشيد المسلحون الإبل الشرارية الخفيفة والسريعة. كما أن إبل الحويطات الموجودة في نفود العريش [سيناء] هي أيضاً من نوعية ممتازة رغم ان قوامها صغير.

كان عياد يبدو أنه رجل شريف المحتد، بمحياه الذي يشبه محيا يهودي وسيم، وبلحيته السوداء المشذبة، وكان مسافراً بملابس حسنة، وبالشجاعة التي تميز الشيوخ في الصحراء. وكان كثير التحديق، وبصره منحرف: كلامه معسول وواضح ولكنه غير صريح بالدرجة نفسها. سألته "لماذا لم يحتفظ بجدائل الشعر (القرون)؟ - فالقرون مصدر الجمال الرجولي [العنزي]". قال عياد: "لقد انتهيت من مثل هذه التوافه الشبابية، بعد أن خلصتني طلقة من القرن في هذا الجانب، وجاءت طلقة ثانية فقطعت القرن الثاني؛ ولكن ذلك الإنذار لم أذهبه سدى! إي بالله، إنني لا أستسيغ حياة البدو: يوم نكون فيه بنعيم، وفي اليوم التالي قد يؤخذ حلالنا بغزو أعداء لنا! وإذا لم يكن للرجل أصدقاء طيّبون، ليجمعوا له بعض الحلال ليبدأ حياته من جديد، لأصبح

واللّه شحاذاً. "

لقد نشأ عياد مع شمر بعيداً عن قبيلته الأصلية، وفي هذه الديرة التي كنا فيها. كان والده شيخًا مؤسرًا، يمتطي فرسه الخاصة؛ وابنه عياد يمتطي حصانًا. في أحد الأيام هاجمت مضاربهم هتيم بغزوة كبيرة سلبت إبلهم، فطاردهم عياد مع الآخرين لمواجهتهم. أما الهتمان (يتغذون جيداً بالحليب) عدا أنهم يمتازون بأبدانهم القوية وفرسانهم الشجعان فقد كانوا أكثر سلاحاً من البدو، وبينهم عدد كبير من الرماة. تغلب عياد برمحه على اثنين من الهجانة، وحينما كان يشق طريقه مهاجماً وسط الأعداء، الذين كانوا جميعاً على ظهور الإبل، أصابته رصاصتان فقطعتا ضفائره المجدولة؛ وفقد أيضاً حصانه، ولكن ليس شبابه. فقلت "لقد مثلت دور الأسد يا عياد" - فقال: "آها، وقد لا تصدق ماذا قال الهتمان؟ لقد قالوا نسألكم بالله أن تتركوا الفارس الشاب يأتي إلينا وقت ما يريد، و[يتزوج من بناتنا] لعلهن ينجبن منه أولاداً شجعاناً؟. وسألته أيضاً: "وعندما تحصل على متأخرات رواتبك، تلك المئات من الريالات، هل ستشتري لنفسك حلالاً؟ وهل سنراك غنياً وشيخًا ثانية؟ أجاب: "غني، وشيخ، هذا جيد لو حصل، وهل كنت غير ذلك؛ ولكن عقلي ناقص، وكثيراً ما قمت بأعمال حمقاء تعوزها الحكمة: أما أنني أصير بدويًا ثانية، فلا! أنا ما عدت أحب تلك الأخطار: سأشتري وأبيع في حائل. ولو تاجرت بالثياب والعباءات والمناديل في السوق لأتى إليّ كل البدو: ولأنني بدوي، أعرف كيف أتاجر معهم مقابل إبل وماشية، وغير هذا سأكون رجل ابن رشيد وأحصل منه على راتب كل شهر، ما يتأخر، وأغزي (أغزو) معه، وبكل غزوة أحصل على شيء!" قال مرجان: "لقد قال خليل الصحيح، إن أحسن حياة هي حياة البدو" قال عياد: "ولكني ما

أريد منها شيئًا، وكلها لا خضراء ولا تونس" ؛ ولم يفسر لي عياد هذا المثل الذي تعلمه مع الحضر.

وكان بدوي آخر، مضير، وهومن البشر ومستوطن في خيبر، يتلقى العلاج عندي حينما كنت في خيبر. ومع أنه الآن فقير جداً فقد كان يوماً ما بدوي غني، وهو مثل عياد كان يترحل مع شمر. وفي إحدى السنوات، حينما انتشر الطاعون في نجد، نفقت كل إبله: وبعدها دفن المسكين بيته، وأمن سقط المتاع عند تاجر التمر الذي كان يشتري منه التمر (في إحدى القرى)، وترك زوجته قائلاً إنه سيذهب إلى الذي تبقى له، ـ تركته من نخيل خيبر. وسمع فيما بعد أن زوجته قد ماتت. والآن قد مضت له سبع سنين، ولم يبق لديه عزم ليعود ويطالب بأمانته الموجودة عند التاجر؛ وذكر إن بيته (بيت الشعر) المدفون لابد أنه تهرى.

كانت خضرة هذه الأرض الخالية بأكملها عبارة عن أعشاب جافة قصيرة تشبه الشعير البري دون سنابل. وحينما تكون هذه الأعشاب غضة تشكل كلأً جيداً للماشية؛ ولكنها نادراً ما تأكلها عندما تجف لأنها تجرح بلاعيمها. لم أر أي أعشاب أخرى من أعشاب فصل الربيع الجديد.

واصلنا سفرنا، وبعد الظهر وصلنا إلى ست بيوت شعر شمرية. كان الشيخ، وهو شاب، اسمه بريكان، وكان معروفاً لعياد. فرح رفاقي لرؤية دلال القهوة في الوجار؛ لأنهم لم يتذوقوا القهوة (الليلة الرابعة) منذ مغادرتنا خيبر. كان البيت كبيراً وشامخاً؛ على طريقة شمر وعنزة. وكانت هناك فرس ترعى على مدى نظرنا؛ وتلك أمارة على أن هذا المنزل ليس لشيخ فقير. كما أن الرجال الذين أتوا من بيوت الشعر المجاورة كانوا أيضاً معروفين لعياد؛ ولأنني الوحيد غير المعروف بينهم سأل أحدهم "أليس هذا خليل،

النصراني؟ " كان قد رآني في حائل. كنا سنقضي ذلك اليوم مع هؤلاء الناس لذلك أطلق رفاقي الذلول لترعى. دعانا في المساء رجل مسن إلى بيته لشرب مزيد من القهوة؛ كان له ولد يعمل عقيلياً [جندياً] في المدينة. وقد قال: "أنا كنت مؤخراً هناك ووجدت ابني ورفيقه يأكلان طعامهم جافًا، دون سمن! إنه عمل رديء ذلك العمل الذي لا يوفر للرجل عيشه. "

لقد كانوا مدهوشين لرؤية النصراني بينهم: - ويتساءلون "خليل، عدو الله، ومع ذلك فهو مثل كل الرجال! " تولى عياد الإجابة بمرح، "لذلك يظهر أن الواحد يمكن أن يعيش زين مع أنه كان كافر" وروى قصة متداولة كأعجوبة بين القبائل، تذكر عند سماع كلام فيه كفر. [مع ذلك انظر سفر أيوب- الإصحاح ٢١، فقرة ١٥ (من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه)] والقصة هي: "خرج ابن ناموس (شيخ النوامسة من هتيم) في غزوة كبيرة ليلة بطولها؛ وأناخوا عند الفجر لأداء صلاتهم (هكذا هم لصوص ويصلّون) وحينما كانوا ساجدين قال أحدهم، "ما هي فائدة كل هذه الصلوات المتعبة، سنة بعد سنة، صلاة بعد صلاة؟ فأنا أؤدي الصلاة كل يوم ولم تتحسن حالي؛ إنها ضياع للوقت: إيه، إلى متى وأنا أمرغ أنفي في غبار الخلاء؟ والآن يا ربي أقولك إذا لم تعطني اليوم ذلولاً وقربة، فإنني سأضربك بعصا الناقة هذه! " وحدث قبل مساء ذلك اليوم أن كانت غنيمة الهتيمي من غزوة ذلك اليوم ذلولاً وقربتين؛ لذلك قال في مجلس المساء، "والآن قد عرفتم، كيف أن الرب خاف مني اليوم؟ " لم يكن هذا الرجل بدوياً حقيقياً بل من الهتمان. ولكن كثيراً ما قد يزلق لسان بدوي، في أمر ديني، فتصبح سذاجته على كل لسان في مجالس الخلاء. نحو ذلك أن واحداً لفظ بتبجيل اسم الأمير ابن رشيد، فقال رجل بدوي "صلى الله عليه وسلم. "

- ولقد عرفت مبشراً سوريًا في واحدة من القرى الواقعة وراء الأردن، قال في يوم من الأيام لرجل قبلي (من بني صخر) متهكماً، "هل سمعت؟ هذا الخبر الجميل الذي نزل على الدنيا؟ لقد نزل الرب مؤخراً في دمشق؟" فقال البدوي: "اللّه نزل بالشام! الحمد للّه! ولكن هل ما ذكرته صحيح؟ وهو أن ربي نزل من السماء!" - "نعم وتدفق إليه كل الناس؟ اذهب أنت لتزوره!" أجاب البدوي "إيه! أذهب وأراه بسرور، ولكن انظر أيها السيد بالأمر! إن الشام فوق سبع رحلات من هنا، فكيف لي أن أترك القطيع في البرية (المكشوفة)؟"

جاء إلينا حينما كنا جالسين شاب قادم من الخلاء، وقد مشى حافي القدمين في الحر، متنقلاً من فريق (جماعة) إلى فريق. لقد كان معدماً وجسوراً لا يحمل معه لا طعام ولا ماء، بل هراوة بيده. لم تكن المسافات بين مضارب البدو في هذه البرية الربيعية تتجاوز ساعات عدة؛ وكان يستطيع الوصول إليها بسهولة، لأنه كان شمرياً من المنطقة نفسها. كان هذا الولد ذو الثلاث أو الأربع عشرة سنة يبحث عن العمل راعياً، وكان سلوكه حكيماً لأن أباً حنوناً قد رباه. وإذا ما سأله أحد عن مغامرته (الخطيرة)، فإنه يفكر لحظة، ثم يعطي الإجابة برجولة ورجاحة عقل. سألناه ما هي الأجرة التي يطلبها؟ قال "الأجور المعتادة، أربعة من الماعز عند نهاية السنة، وعباءة وثوب" (تقريباً ما قيمته جنيهان إنجليزيان). ولا يتضمن الاتفاق أي ذكر لمعيشة المأجور، ولكن الرعاة يحملون معهم محلبة يشربون بها ما يملأ بطونهم من الحليب: وهذه معاملة ليست سيئة. وجدت بعد أن أجريت عملية حسابية بالرمال أن هذا الشاب قد يصبح مالكاً لخمسين رأس من الماشية، أو أربعة جمال حينما يكون في سنته العشرين.

لقد سمعنا أن ابن رشيد كان خارج حائل، ويقولون "إن الأمير في غزو في الشمال مع رجاجيله؛ والأمراء [مثل حمود، و سليمان] معه، ومخيمين في الحيانية"، وهي موضع آبار ماء في النفود، باتجاه الجوف. وقد حصنها أمراء شمر ببناء حجري، وتركوا فيها رجلاً أو اثنين لحمايتها، والذين عليهم أن يطلقوا النار على أي غزو معاد: لهذا لا يمكن لأحد أن يمتح ماء من مياه هذه الآبار دون مشيئة ابن رشيد. وسمعنا أن عنيبر قد كُلف للعمل نائبًا للأمير في حائل فترة غيابه. كانت السماء ملبدة بالغيوم حينما كنا جالسين، وفجأة هطل مطر غزير. سطعت الشمس ثانية، وجرت الحريم فرحات من بيوتهن ليملأن قربهن، تحت الصخور الجرانيتية المتدفقة. طلب الشيخ تعبئة أواني القهوة وقدم لنا قدحاً من ذلك الماء العذب لنشرب. طبخت لنا أم بريكان طبقًا من التمن: كانت ضيافة البدو من الحليب هنا مقتصدة، ولكن ذلك هو المشهود في بيت الشيخ الذي يقدم القهوة.

غادرنا في اليوم التالي باكراً وكنا نسافر في منطقة مألوفة جيداً لعياد. كانت أرض القاع المجاورة مثل بساط مفروش بقرع الحنظل، الذي كان في لونه وحجمه مثل البرتقال. سرنا لمدة ساعتين وقابلنا قطيعًا من الإبل: كان الرعاة شابين من شمر. سألوا عن الأرض التي وراءنا، وعبرناها، "هل نبت الربيع، وما هي أعشاب الرعي التي رأينا هناك؟" بعدها ذهب أحدهما إلى ناقة حلوب ليحلب لنا، ولكن الراعي الآخر، وهو ينظر إليّ، سأل "أليس هذا خليل، النصراني؟" (هو أيضاً كان قد رآني في حائل). كنا قريبين لأول مستوطنة نائية من قرى الجبل؛ وصرنا ونحن ننظر عن يسارنا، نشاهد منظراً ساراً، لمزارع الذرة الخضراء. قال رفيقاي، "إنها القصيصة وهي قرية ذرة، وهناك بعض نسائهم؛ إذ يأتين من البيوت ليجمعن العلف الأخضر

للسـواني . " التـفت شـاب كـان بـالقـرب منهن، وبيـده منجل، وجـرى إلينا ليستعلم أخبارنا نحن المسافرين. لا هذا الشاب ولا هؤلاء النسوة يمكن تمييزهم بسهولة عن البدو! بعد أول كلمة طلب منا تبغًا؛ ثم قال "لكن تعالوا معي إلى قصورنا[بيوتنا]؛ حيث تجدون التمر والقهوة، وتريحوا أنفسكم. " علق على رقبته ما جمعه في عباءته من علف، وسبقنا إلى القرية. لقد وجدنا قصورهم عبارة عن بيوت صغيرة متواضعة بغرفة واحدة. ـ وهذه القصيصة ما هي إلا مزرعة [جديدة] صحراوية للأمير، تستوطن لمدة ثلاثة شهور في السنة، لري حقول الذرة (من آبار محفورة في الأرض الصلبة، وعمقها ست قامات)، حتى موسم الحصاد، بعدها يعود السكان إلى قراهم الأصلية: وتقع هذه القرية في واد صغير.

لم يكن يسكن القرية غير ست عائلات عدد أفرادها خمسة عشر أو عشرون فرداً، ونادراً ما زارها طرقية (مسافرون). قدم لنا مضيفنا علي تمراً مع زبدة ولبن: لقد تعجبت من حماسته للترحيب بنا، كما لو أن هناك معرفة قديمة بيننا! بعدها أخبرنا، أنه رأى في منامه ليلة الأمس طرقيًا جلب لهم تبغًا! وحتى هنا عرفني أحدهم، وقال "أليس هذا خليل، النصراني؟ إنه يحمل ورقة من ابن رشيد تمنع من أن يعترضه أحد؛ وقد رأيت بأم عيني الورقة وهو يختمها. " وقالوا "كم هو لذيذ الدخان عندما نتذوقه ثانية! والله إننا شرابه (مدمنين على التبغ). " فقلت "إن عندكم أرضًا، فلماذا لا تزرعونها؟ "ـــ "حسناً، نحن ندخنه، لكن أن نزرعه، ونرى شجره ينمو في حقولنا، فذلك مكروه! " حينما غادرناهم قرب الظهر، أشاروا علينا أن نمر بالعقلة، وهي ديرة مثل ديرتهم، مزرعة نائية للذرة؛ وأنه يمكن الوصول إليها قبل حلول الليل. رأيت خلف حقول الذرة غرائس نخيل تم غرسها عند حافة السيل:

ولكن كثيراً منها كان ذابلاً لنقص الماء. وعموماً تنبت الأعشاب الغضة، كما نرى، في أي موضع عميق في مجرى مائي (الذي ربما قد كان ملجأ لحيوان بري معين) في الخلاء الجاف، على الرغم من أن أرض الصحراء بأكملها قاحلة: ومزارعي القصيصة زرعوا نخيلهم في ذلك المكان لتنمو دون سقي. وملكية النخيل البرية لأهل القصيصة مناصفة بينهم وبين البدو.

سرنا في الطريق الذي وصفوه لنا، عبر أرض صوانية، بنسبة من الصخور البركانية أكثر مما كان في المنطقة السابقة. أراني عياد معالم آبار السقف التي كانت عن يسارنا. وتحت سفح جبل صواني رأيت مداميك سفلية لصومعتين، مثل تلك الموجودة في الحرات أو الحرار (جمع حرة)؛ وفي مكان آخر صف من ثمانية أو أكثر من الألواح الصخرية غير المشذبة، التي ترتفع إلى صدر الإنسان. لقد كان هناك في الأزمان الوثنية معبد وثني في هذه الجبال المهجورة.

عندما رأى رفاقي أن رأس الجبل الجرانيتي في متناولهم، صعدوا إليه ليبحثوا عن ماء؛ وإذ وجدوا شيئاً منه ملأوا قربنا. وبينما كانت الشمس على وشك الغروب وصلنا إلى طريق يمر عبر واد، كان من المحتمل أنه هو الذي سيؤدي بنا إلى العقلة. أصبحت البرية محلاً من جديد، وأحاطت بنا رياح عاتية، وحجبت الغيوم النجوم، فانسدل الظلام، وبدأ كأن الأرض ستزلزل من تحت أقدامنا. وعندها أراد رفاقي أن يجدوا مكاناً ليلجأوا إليه، ويهجدوا حتى الصباح؛ ولكنني شجعتهم على مواصلة السير، للوصول إلى القرية في تلك الليلة. سرنا لمدة ساعتين قبل أن أرى منزلاً، مع أن رفاقي ذكروا أن ذلك ليس إلا صخرة بيضاء: بعد ذلك بقليل سمعنا أصوات ونباح كلاب، فسرنا حتى توقفنا أمام بيت شعر منعزل. لقد وصلنا إلى ديرة العقلة. لم يكن في

تلك الديرة سوى منزلين وآبار، وحقول ذرة. كانت الريح عاتية، فصوتنا من تحت جدران المنزل الأول، فتقدم إلينا رجل أدى علينا السلام. أعطانا حطباً، وأشعلنا ناراً في حمى بيته، وأدفأنا أنفسنا: ثم أحضر مضيفنا تمراً وزبداً ولبنًا، وقال، إنه يعتذر عن عدم إيوائنا داخل منزله، والوقت متأخر لطبخ أي شيء! بعد ذلك أخذ أوانيه الفارغة، وتركنا لننام.

لقد ذكروا أننا عبرنا بمحاذاة قرية صغيرة، حفيرة ظلول، لكن لا أحد من رفاقي قد سبق له أن زارها. وقال عياد: إن حائل ليست بعيدة "وبكرة عند الجهمة (بزوغ الفجر) سننطلق في مسيرنا." كانت الريح الشمالية (الليلة الأخيرة في شهر مارس [١٨٧٨م]) قوية وقارسة، وعندما بزغ الفجر نهضنا نرتجف من شدة البرد؛ وبسبب ذلك البرد قرر رفاقي ألا يتحركوا حتى ترتفع حرارة الشمس. ومع ذلك فقد ارتحنا أكثر من مضيفنا؛ إذ كنا نسمع صرير محاحيل (دواليب) آبارهم حتى طلوع الصباح. سألني مرجان: أيهما أفضل حياة المزارعين أو حياة البدو؟ قل يا خليل، لأننا نعرف أنك لم تنشأ بين البدو." قلت "لو كنت مزارعاً لبعت نخيلي، إن كان لي نخيل، ولاشتريت إبلاً، ولعشت مع البدو الرحل." فقال "وأنا."

بينما كنا في طريقنا كان العجاج (أو الريح التي تحمل ذرات الرمال) يعيق رؤيتنا. وقد أتى معنا غلام كان عائداً إلى قرية القصر، التي كنا سنمر بها ذلك اليوم: وهكذا يمكن لأي شخص أن يضم نفسه لجماعة مسافرين إذا ما أراد في البلاد العربية المكشوفة. كانت الأرض في اتجاه الشرق سهل مزدحمًا بالجبال الجرانيتية، التي تكون رؤوسها غالباً صخوراً بركانية داكنة، ونادراً ما تكون من الصخور البركانية الرمادية. قبل الظهر، كنا على مشارف بلدة القصر، في سفح جبل أجأ، الذي نطقه مرجان أجا: لقد اجتزنا المنطقة الممحلة، وبدأنا

نرى خضرة الربيع تغطي وجه الصحراء. توجد حول قرى الصحراء أراض عامة تسمى الحمى، قد لا يسمح للبدو أن يرعوا قطعانهم فيها، ومن يفعل يكون تحت عقاب الأمير. قابلنا شاب من القصر، كان يركب حماراً، وذاهباً ليجمع حطباً، وليقطع علفاً لسوانيه. نادى علينا مرحباً، ثم نزل من على حماره؛ وكان ذلك ليخرج من مزهبته قربة لبن لنشرب منه وقال "يا المسافرين عساكم عطشانين؟" بعدها أخرج تمراً فنشره على الأرض أمامنا، وطلب منا أن نكسر جوعنا: وقال وهو يركب حماره مبتهجاً، "سنلتقي ثانية هذا المساء في القرية."

أطلق رفاقي الذلول لترعى، واستلقينا في رمل سيل دون ظل، لنستريح هنيهة. تحدث رفيقاي فيما بينهما؛ وعندما سمع الغلام الذي رافقنا ذكر الدولة في المدينة [المنورة] في حديثهم، قال "المدينة! [كلمة بذيئة]." رفع عياد ومرجان بصرهما مثل قديسين بملامح المجملين! وذكراه بورع ديني، إنه قد كفر! لأنه لا يعرف أن المدينة أحد الحرمين الشريفين؟ وأضافا تلك الكلمة التي تعبر عن تقوى المسلمين "الله، عمرها" ـ وقد سمعت بدوياً يضعها بصيغة أخرى، "مبرك ذلول النبي" (وسيقولها المسيحيون في الأراضي الحدودية العربية في دواخلهم، الله يحرقها). لقد كان درساً جديداً للغلام المسكين، الذي ذكر وهو نصف مشدوه أنه لم يقصد سوءًا، وأنه يتركها للّه. سحب الغلام من مزهبته (حقيبته الصغيرة) جراداً مجففًا، وشرع يأكل ثانية: وذكر أن سحب من الجراد مرت قبل شهرين، ولكن الضرر كان قليلاً.

لم يطلع بعد الطلع (سيقان تلقيح النخيل)؛ ورأينا أيضاً حقول الذرة خضراء: لذلك فإن موسم الجداد أو موسم جني التمر في جبل شمر يتأخر حوالى ثلاثة أسابيع عن الموسم في المدينة وخيبر.

عند العصر تقدمنا باتجاه أسوار بساتين قرية القصر، المحصنة بأبراج . قال عياد: "وإذا ما رحلنا باكراً يوم الغد فإننا قد نصل إلى حائل، هالحزه، (أي في مثل هذا الوقت). " كان القرويون في قيلولتهم بمنازلهم، في هذا الوقت الأشد حرارة خلال النهار، ولم يكن هناك أحد يتحرك. سرنا منحرفين عن الطريق الرئيسي في الأزقة المسدودة للقرية الطينية، بجدرانها المهدمة، وأرضها المغبرة بالأتربة غير النظيفة. ينظر الأوروبيون إلى عدم النظافة العربية باشمئزاز، ولعقولنا هي همجية. وقادنا بعض الأطفال إلى داخل القرية، التي يوجد في وسطها مناخ، وهو مكان صغير مكشوف فيه قناة ماء، اسقينا منها الذلول: كان ذلك الماء العذب والفاتر، مثل كل المياه الجوفية في الجزيرة العربية. بعد ذلك ذهبنا لنجلس تحت ظل الجدار الغربي المرتفع، وعلى مرأى، ننتظر أن يدعونا أحد.

وقف رجال عند عتبات بيوتاتهم لينظروا إلينا نحن البدو: ثم تقدم أحدهم، إذ يبدو أن هؤلاء القرويين يتبادلون الأدوار، ووقفنا لملاقاته. استفسر الرجل "من أنتم، ومن أين أتيتم، وإلى أين ذاهبون؟" جلسنا بعد أن أجبناه، ثم غادرنا. عاد ثانية وقال "سموا"، أي تفضلوا، فنهضنا وتبعناه. قادنا القروي إلى حوش داره؛ الذي فيه جلسنا على الأرض، وأحضر لنا تمراً مع قليل من الزبدة ولبن مخفف بالماء: وعندما انتهينا من الأكل عاد إلينا، ودعينا إلى قهوة القرية. وفيها أيضاً كانوا يعرفونني، لأن أحدهم كان قد رآني في حائل. أمطرني هؤلاء الفلاحون الكئيبون بأسئلة دينية؛ إلى أن ضجرت من تعصبهم الجنوني.

إن قرية القصر، أي قصر العشراوات، قرية ذات مئتين وخمسين إلى ثلاث مئة نسمة، وفي المقبرة الكبيرة المجاورة لها عدد كبير من الشواهد غير المشذبة

لأجيال كثيرة. وآبارهم محفورة، كما يذكر البدو، لعمق ثلاثين قامة!

والآن سمعنا أخباراً مؤكدة عن الأمير؛ لقد انتقل مخيمه إلى الحزل، وهو عد أو جو (مورد ماء محفور في أرض منخفضة) غير بعيد، وإلى الشرق، من مورد ماء الشقيق في أرض الرولة (حيث كانت المنطقة ربيعًا)، وأن جميع شمر معه وكذلك قطعانه، وهم غير بعيدين عن حائل إلا مسافة أيام قليلة، وإن عودة الأمير وجماعته لن تكون إلا بعد بضعة أسابيع. تلك هي رحلات الربيع الرعوية وشبه العسكرية التي يقوم بها أمراء شمر. إذ يعيشون مدة شهر أو شهرين في بيوت الشعر مثل البدو؛ ولكن النهاية لرحلاتهم الطويلة تكون نشاطاً عنيفاً: لأنهم في أي مكان تكون فيه قطعانهم مربعة، يقومون بغزوة كبيرة، مع الرجاجيل ومجموعات من البدو ويهاجمون أعداءَهم؛ وبعد ذلك يعودون (عادة بغنائم) إلى حائل. أخبرونا أن الصحراء بأكملها بعد القصر كانت محْلاً. وأن الربيع كان هذه السنة في المنطقة الواقعة غرب أجأ؛ وأن مجموعات خيول الأمير أرسلت لترعى بالقرب من موقق. وسأل عياد، عما إذا سُمع شيء عن العشرين هجان من العقيلات الذين قدموا من المدينة. "

ينتمي سكان القصر إلى بني تميم: واسمهم اسم عريق جداً في الجزيرة العربية. وهم من القدم بدو وحضر، والمستوطنون منهم كانوا يحيون جزئياً حياة البدو؛ أما الآن فهم حضر فقط. وهم أكثر نشاطاً من جيرانهم البدو، ولكنهم أصعب مراساً، وأكثر اقتصاداً. في المساء تحدث هؤلاء القرويون مع الغرباء إلى حد الملل، ولم يجهزوا قهوة. كان في أحد جوانب مجلس قهوتهم العام مكان حصبائي مرتفع يستخدمه الضيوف للنوم وكان قاسيًا ومتحجراً بالنسبة لقادمين من بساطة ورقة الصحراء؛ والتي في كل مكان منها تشعر بنعومة الرمل النقي. إن الليالي التي وجدناها باردة في البرية المكشوفة،

كانت هنا دافئة بين جدران المنازل . وحينما غادرنا قبل طلوع النهار، رأيت كثيراً من هؤلاء الفلاحين نائمين في عباءاتهم خارج بيوتهم، إذ ينامون ممددين . . . في غبار شارع القرية .

عند شروق الشمس رأينا الرأسين التوأمين لجبل سمراء حائل . وكان عياد قد أجاب عن أسئلة الرجال حولي بقوله، "نحن ذاهبون مع خليل إلى حائل بأمر من باشا المدينة؛ وحاملون رسالته إلى ابن رشيد؛ ولكننا لا نعرف ما هو مكتوب بها، التي ربما تحتوي على ما يشير إلى قطع رؤوسنا جميعاً . " وحدثتني نفسي "الأتراك خونة" ولكن هل يجب أن أفتح رسالة الباشا؟ لا! سآمل بلقاء خال من هذه المخاطرة . هذه الرسالة المغلقة فُتحت بعد عودتي من الجزيرة العربية، في القنصلية البريطانية، ولم يكن فيها إلا التوجيه باستلام الشيخ ابن رشيد لي والطلب منه أن يسمح لي بالسفر قدماً في رحلتي . "

لقد سرت على قدمي لمدة ساعتين في الصباح، ومثلها عند الظهيرة، لأسمح لرفاقي بالركوب، وللمحافظة على ذلولهم المريضة، التي قفزت على شدادها، حينما كانت واقفة، كما يفعل البدوي : ولكن إنسانيتي التي أظهرت لهم، وهذا درسي مفيد لي، تسببت في قسوة قلوبهم غير المتسامحة . ولأنني رأيتهم مرهقين، وعياد يشتكي من تعب قدميه، واصلت المشي حافي القدمين إلى أن وصلنا إلى قفار، وسمحت لهم بالركوب حتى الوصول . وفي قفار رأيت ثانية (يا له من منظر يجلب السعادة) أشجار الخوخ وأشجار اللوز تزدهر في واحة عربية . لم يقابلنا أحد في الطريق الرئيسي الطويل؛ فالرجال في حقولهم، أو في قيلولتهم في بيوتهم اتقاء لحرارة الظهيرة . وسرنا بمحاذاة المناخ، الذي أعرفه جيداً، ولكن رفاقي، الذين لا يعرفونه لعدم زيارتهم لقفار في السنوات الأخيرة، واصلوا سيرهم، ولذلك فقدنا فرصة الإفطار . وحينما

كنت أنادي عليهم كانوا لا يجيبون؛ فذهبوا يطرقون باب دار بعيدة. وأخيراً جلسوا عند نهاية الشارع، ولكننا لم نر أي رجل. فقال الرفاق "دعونا نذهب إلى حائل، واركب أنت يا خليل. " فسرنا عبر أنقاض الحي الشمالي، إذ أرشدتهم إلى الطريق؛ وعندما قربنا من الطرف الصحراوي، أخذت الطريق الأقرب ولكنهم ساروا في طريق أخرى. ناديت عليهم، وهم نادوا عليّ، ولكني واصلت السير في طريقي. عندها أخذ عياد الذي كان رأسه بحالة دوار، إما بسبب عدم تذوقه للتبغ كل اليوم، أو لأنه منهك وصائم، يشتمني، وجاء مسرعاً مثل المجنون ليأخذ الذلول. وعندما بلغته أنني لن أسمح له بذلك، وقف بعيداً مواصلاً شتائمه، وبدا وكأنه فقد عقله. وبعد مسافة ميل رجع إلى وضع أفضل معترفاً لي بأن جوفه كان يتحرق ودماغه يغلي لأنه لم يتناول تبغ الصباح، وأنه شعر بنفسه مثل العفريت. كان من السهل احتواء مثل تلك الروح.

لقد سرت مسافة غير قصيرة حزيناً، هذه المرة الثالثة، في هذا الطريق المألوف إلى حائل؛ ولاحظت ثانية أنه عند كل نهاية مسافة ثلاث ساعات توجد "أماكن صلاة" ؛ وفي هذه الأماكن الصغيرة المحددة بالصخور، والمنتشرة في أرض الصحراء، يؤدي المسافرون صلاتهم عند حلول مواقيتها وهم في طريق سفرهم. وتقريباً في منتصف الطريق قابلنا مسافري الصباح إلى حائل: وكل من مر بجانبنا حدق بعيونه المعبرة عن تعصبهم، وتفوه بنفس الكلمات القاسية لرفاقي، "لماذا تحضرونه ثانية؟ " وقابلنا بعد ذلك عنبر، أخا عنيبر، راكباً حماراً ضمن مجموعة من المسافرين؛ لقد كان ذاهباً إلى قفار حيث يملك أرضاً ونخيلاً فيها. ولكن هذا العبد العتيق والشخصية المهمة حيانا بروح لطيفة طيبة، ربما أن ذلك تعبير عن أن العائلة الأميرية أقل حدة من

الأهالي المتعصبين في نظرتها لي. لم يمض وقت طويل إلا ورأينا عند حافة الصحراء القمة البيضاء للبرج الكبير للقصر وعندها قال مرجان "يظن البعض أن أولاد طلال الصغار مازالوا يعيشون فيها. فهم يرون العالم من برجهم، ولكن لا يراهم أحد." وكان عن يميننا بستان نخيل في الصحراء، هو بستان الشرفة، الذي أقامه متعب: وهكذا دخلنا إلى حائل.

دخلنا حائل قرب صلاة الظهر. ولأن الأمير كان غائباً لم يكن هناك عمل! فأغلب الدكاكين مقفلة. وشارع السوق الطويل ساكن؛ وبدت بلدتهم مكان ميت وخال. رأيت عبدالله (المسلماني) جالساً عند باب دكان؛ وبعد ذلك إبراهيم وآخرين من معارفي، وأخيراً مدير المدرسة. وقف هذا المعلم البغيض صارخاً في إيماءات مضللة قائلاً: "والآن، مرحباً! والحمد لله! ـ لقد أصبح خليل مسلماً!" (لأنه ظن أنني لا يمكن أن أكون متهوراً لدرجه كبيرة لأعود إلى بلدة ابن رشيد). عند نهاية الشارع تقابلت مع عنيبر وهو القائم مقام الأمير في حائل (المهجورة)؛ لقد جاء من القصر حاملاً سيفاً مذهباً في يده: حياني الرجل الكبير بحرارة ومشى في طريقه. ذهبت لأنزل أمام القصر، في المسحب المهجور، الذي في العادة يكون مزدحماً برواحل البدو الزائرين: لكن في هذه الأيام لم يقدم أحد لأن ابن رشيد في غزو. والآن نصف رجال حائل تقريباً في الميدان مع ابن رشيد؛ إذ إنه بجانب رجاجليه، العاملين براتب، يذهب حتى البائعون في السوق معه لخدمته. وقد تسبب هذا التقليد في الخدمة العسكرية في إثناء عدد كبير من تجار مناطق شرق نجد من محاولة تجربة حظهم في حائل.

أسرع بعض رجال السوء من العاملين في القصر للخارج عند سماعهم لخبر عودة النصراني. ورأيتهم واقفين عند بوابة البرج، مع مقدم القهوة المسن؛

وصاحوا قائلين: "إنه هو بالفعل! والآن إن شاء الله سيلقى حتفه." وبينما كنت في دهشة من هذا الذي سمعت عاد عنيبر؛ والذي لم يكن قد سار بضع خطوات إلا وقد وجد عقله. القيت عليه السلام، فرد بود واستغراب وهو يلوي رأسه إلى الخلف؛ لأنهم جميعاً تعلموا التبختر مثل الأمراء. مد عنيبر يده اليمنى عن طيب خاطر إذ كان بيننا في السابق خبز وملح: "من أين أتيت ياخليل، ومن تكونون أنتم أيهما المرافقون له؟ - اذهبوا إلى القهوة وهناك سنسمع أكثر." ومر بجانبنا علي العيد، الذي كان قادماً من منزله، ورحب بي من كل قلبه.

عندما كنا جالسين مع عنيبر في مجلس القهوة الكبير سأل ثانية، "من أنتم أيها البدو الذين معه؟" أجاب عياد بتواضع: "نحن من هتيم." — "لا ليس من هتيم." فقلت "أخبروهم من أنتم ومن أرسلكم إلى هنا." فقال عياد: "نحن عقيلات من المدينة، أرسلنا الباشا من خيبر لتسليم خليل، مع رسالة إلى ابن رشيد." - "حسناً، من عقيل، ولكن من أي القبائل؟" — "إننا بدو، عواجية." فقال عنيبر: "وين الرسائل ياخليل؟" أعطيته رسالة عبدالله السروان ورسالة الباشا المغلفة. اعطى عنيبر، الذي كان أمياً، الرسائل إلى كاتبه، وهو رجل متزن وودود، والذي قرأ فيها "إلى الشيخ ابن رشيد" دون أي عبارات تملق، فأعادها إلي دون أن يفتحها. وعندها جاء مفرج، مسؤول المضيف، فأخذني بكل أريحية من يدى قائلا: "سم"، تفضل، وقادنا إلى المضيف حيث وضع أمامنا طبق من التمر الذي يحصل عليه ابن رشيد كضريبة، وقدح من لبن صغار النياق، وأراني أحد العاملين في المطبخ قطعة نقد نحاسية تحمل رسماً للنسر وجدت في حائل، وكانت عملة رومانية.

تم تخصيص المخزن نفسه الذي أقمت فيه سابقاً لنزولنا: وغادر رفاقي

لزيارة أصدقائهم في البلدة. وحالاً تجمع الأطفال أمام المخزن وأخذتهم الشجاعة لشتمي، كذلك جاء إليّ الطفل الأميري، عبدالعزيز، يتيم متعب: لقد وجدته وقد نضج إلى حد ما خلال هذه الشهور الثلاثة؛ فهو يختال الآن مثل عمه بغطرسة ولكن ليس بنظرة ازدرائية، وهو يشبه عمه الأمير محمد. وقف الأمير الصغير وحياني بصمت، ووضع يده على سيفه الصغير، ولكنه لم يهن الغريب؛ لذلك قال: "لماذا عدت ياخليل النصراني؟" ـ "لأنني أملت أن ذلك سيسعد عمك، ياعزيزي." ـ "لا ياخليل إن الأمير يقول لا لبقائك هنا." رأيت زيداً، حارس البوابة يقود مرجان [مرافقي] بيده؛ وبدأ الرجل، ذو الطبيعة الانتقامية يسأل، عن كل ما حصل لي منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى خيبر. إن مثل هذه الأسئلة والأجوبة لا يمكن أن تكون إلا للإضرار بي: لقد كان خطر استشرفته بين هؤلاء العرب غير الكرماء.

وجدنا عنيبر في القهوة عند المساء وبادرني قائلاً: "خليل، إننا لا نستطيع إرسالك قدماً في رحلتك، لذلك لابد أن تغادر غداً." ـ "حسناً، أرسلني إلى الأمير في الشمال مع رسالة [باشا] المدينة إذا لم يكن من الممكن البقاء حتى عودته إلى حائل." ـ "نم هنا الليلة، وفي الصباح أرحل: ـ ابق هنا يا خليل! لقد رأيت بنفسك كيف هجم عليك الناس عند دخولك." ـ "لم يهجم عليّ أحد بل رحب بي كثيرون." ـ "ولكنني والله لا أستطيع أن أتحمل بقاءك في حائل إذ إن الكثيرين مستعدون لقتلك، وأنا مسؤول أمام الأمير: عليك النوم هنا الليلة، وإن شاء الله دون حدوث ما يؤسف له، واركب راحلتك عندما يشق الضوء." بينما كنا نتحدث وصل رسول من عند الأمير في البراري الشمالية: فسأل عنيبر الرسول: "كيف حال الأمير؟ وأين تركته مخيماً؟" حياني الرسول، وهو رجل مهم في منتصف العمر، دون أية

إشارة تعبر عن عدم محبة بي. لقد كان من الغرباء في حائل، وهو من المناطق الشرقية لنجد. قال عنيبر: "هل سمعت ياخليل؟ وعبر لي بثلاث كلمات عن عقله الماكر بأصابعه، غداً! ـ صباحاً! ـ اركب (ارحل)"! ــ "إلى أين؟" ــ "إلى المكان الذي جئت منه، ـ إلى خيبر: أولست على دينهم؟" ــ "لا، إنني لست على دينهم." ــ "ولهذا فإن العرب لا يتحملون مسؤولية حياتك: وإذا ما أصبحت على دينهم، فإنه يمكنك العيش معهم إلى الأبد." ــ "إذاً ارسلني غداً، على حسابي، باتجاه القصيم."

لم يكونوا مسرورين عندما أشرت إلى الدولة [العثمانية]: وصرخ عنيبر بشدة قائلاً: "أي دولة! هذه أرض البدو، وتحت حكم ابن رشيد. ـ إنه يقول القصيم: ولكن لا يوجد أحد من البدو في البلدة (ليحمله إلى هناك). ياخليل، إننا لا نجرؤ على أن نذهب إلى القصيم"، وقام بعمل إشارة ذكية بسبابته على حلقه الأسود. فقلت: «لا تضللني يا عنيبر؛ أوليست أخت أمير بريدة زوجة لمحمد ابن رشيد؟ أوليسوا حلفاءكم؟" ــ "حسناً ولكن ذلك غير ممكن ياخليل: ماذا ترى يا شريف؟"

لقد كان هذا الشريف شحاذاً متمرساً، بعيون مكحلة، من الجيل الأربعين بعد النبي، بزي تركي، وكان قد قدم من المدينة [المنورة] التي يعيش فيها. لقد كانت تجارته تجارة الدين المربحة والخطرة: فهو يعيش ثلاثة أو أربعة شهور في بلده؛ وفي الباقي يسافر، أو يعبر البحار إلى أبعد المناطق في العالم المحمدي[الإسلامي]. وفي كل بلد زارها اتخذ جارية جديدة؛ وفي كل مكان وصله ظهر بمظهر ديني جذاب جداً أو أظهر لهم شهاداته الممنوحة من الملوك والأمراء، وقدموا له أحسن المنازل بصفته شريفاً من المدينة المقدسة، وابن عم رسول الله [ﷺ]: وبتلك الطريقة يحصل على صدقاتهم الدينية ويعود إلى

المدينة المنورة. لقد كانت بخارى محطة لهذا الرجل الشريف في رحلته، ومدن أخرى، وحتى كابول. وفي الهند المحمدية، ذهب متسولاً لمدة طويلة كانت كافية ليتعلم اللغة العامية. وفي السنة الماضية زار إستانبول، ولحق بالقوات [العثمانية] في أوروبا؛ ومنحه سلطان الإسلام فرمانه الإمبراطوري. ـ وقد أراني نص الوثيقة بختم الخليفة على ورقة محكمة طولها نصف قامة. وبهذا الصك الكبير كان سيغادر سريعاً في رحلة هندية ثانية.

عندما سأله عنيبر عن رأيه حول موضوعي أجاب (ذو الروح الضحلة) بقولة: "والله يا المحفوظ، أنني أقول ما قلته، ان ذلك غير ممكن؛ وماذا عند هذا الرجل في القصيم؟ وماذا عنده يتجول صعداً ونزولاً في كافة أرجاء البلاد؟؛ (وأضاف متمتاً)، ويكتبها." فقال عنيبر: "حسناً، غداً، ارحل ياخليل؛ وأنت يا عياد تحمله عائداً إلى خيبر." فقال عياد: "ولكنهم هناك سيقولون لماذا اعدتموه لنا ثانية؟ والله إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك يا عنيبر." تأمل عنيبر قليلاً، لكني قلت، "لقد سمعتم كلام رفيقي، وحتى لو كان راغباً في ذلك فإن الذلول لا تحتمل، وأنتم رأيتم بأنفسكم أنها لا تستطيع حملي." ـــ عياد: "والله إنها لا تحتمل." وأضفت قائلاً: "إنكم إذا ما رميتموني إلى المهالك مرة أخرى، فإن الدولة قد تطالب بدمي، وأنتم تدخلون سنوياً بعض بلدانهم مثل بغداد والمدينة [المنورة]: وعندما ترسلون خيولكم إلى الهند أفلا تكونون ضمن سلطة مواطنين من بلدي؟" ـــ الشريف: "إنه يقول الحقيقة، لقد كنت هناك، وأعرف الإنجليز ودولتهم: والآن اتركوني أتحدث معه بلغة سوف يفهمها." تحدث الشريف باللغة الهندوستانية، فاستغرب عدم فهمي له وتساءل قائلاً: "ماذا! انجليزي ولا يعرف لغة الهند؟" فقال عنيبر: "اسمع يا عياد (انك من البدو الخاضعين لنا)! ومن غير المسموح أن تقول لا؛ أنني

أمرك أن تأخذ خليلاً إلى خيبر، وعليك أن ترحل غداً! وأن يكون ذلك عند ساعة صلاة الفجر! " ذكر البعض انهم قد سمعوا الآذان: ونهض الجميع؛ وذهبوا لأداء صلاة العشاء في المسجد الكبير.

كان يسكن في المخزن المجاور لمخزني رجل غريب وصل حديثاً من الحروب: وسمعت منه أول الأخبار المؤكدة عنها، ـ لقد كان وضع المسلمين سيئاً؛ ولكن لأن الجهاد كان قد وصل مرحلته النهائية، فقد عادوا إلى بلادهم. وذكر هذا الغريب أن الموسكوفيين [الروس] يمتازون بأجسامهم الكبيرة ولحاهم الطويلة. ولكن من كل الأشياء التي رآها في أوروبا فإن ما استغربه أن أغنام النصارى لها ليات تشبه ليات الإبل (وليست كبيرة مثل ليات الأغنام العربية). لقد وصل هذا الرجل مؤخراً إلى حائل برفقة شيخ العجمان الكبير [راكان بن حثلين]، الذي أخذه الأتراك أسيراً عندما احتلوا الأحساء ونفوه إلى مناطق الحدود مع روسيا. وبقي هناك سبع سنين متواصلة؛ و بدأ جماعته (في السنتين الأخيرتين) يضحون له مفترضين وفاته! ولكن هذا الرجل الشجاع الأمي الموجود في أرض غريبة حينما سمع بالدعوة إلى الجهاد تقدم إلى السلطان بعريضة متواضعة يطلب فيها المشاركة في الجهاد؛ فسمح له أن يسارع إلى الجهاد في سبيل الله ورسوله. أصيب هذا الشيخ البدوي بجروح في ذراعه، وعندما عقدت الهدنة طلب منه السلطان أن يطلب مكافأة، فأجابه "أن ارجع إلى منطقتي، هجر ! "ـ وفي رمضان نزل في جدة مع هذا المرافق: وزارا مكة والمدينة، ومن المدينة جاءا إلى حائل. وفي حائل استقبله محمد ابن رشيد بحفاوة، وودعه بهدية أميرية عبارة عن ثلاث رواحل، وخرج سرج مملوء بالريالات الفضية. وبعدها عاد ذلك النبيل العربي إلى منطقته؛ وسمعنا أنه أخضع نفسه إلى الوهابيين.

لقد ذكر لي ذلك الغريب، رفيق الشيخ، الذي كان بعين واحدة حقيقية، بدت أنها ترى الأشياء منحرفة، إنه رآني في الإسكندرية قبل ثلاث سنوات، وإنه تحدث معي! (أظن أن ذلك كان صحيحاً ـ إذ قابلته في الشارع في أحد الأيام وسألته عن الاتجاه.) كان كلام أهل الجزيرة العربية يبدو لسمعي مقطعًا ومتكلفًا على لسان هذا الرجل. وذكر انه من اليمن، لكن من هو حقيقة (في ذلك الوقت من المشكلات) لم يكن ممكناً أن استفسر أكثر. وعندما سألته عن الشريف من المدينة أجاب بإزدراء قائلاً: "إنه ليس شريف، انني أعرفه جيداً، وهو ليس أكثر من متسول قطع كل هذه المسافة من المدينة إلى حائل حاملاً صندوقاً من الشموع (التي لا توجد في هذه المناطق) إلى ابن رشيد، بغرض الحصول منه على أربعة أو خمسة ريالات، وغيار ملابس. ويكرر زياراته كل عدد من السنوات، مع انه يملك منزلاً جيداً في المدينة؛ وهو يدور الدنيا يستعطي" ـ "لكن من أجل ماذا؟" ــ "إنه جشعه لا غير."

جاء الشريف، بعد الصلاة، ليزورني، مع مرافقه، لابسين جبب المدينة، بأحزمة واسعة، وسراويل فضفاضة، وطرابيش حمراء ملفوفة بعمائم قطنية كبيرة. وسألا عما إذا كان يوجد عندي ماء. لقد كنا جميعاً عطشى من أثر السفر، الذي يشبه الحمى في الجزيرة العربية؛ وخرجت لطلب قليل من الماء، لضيوفي، من عند بوابة القصر. كانت البوابة مغلقة: وسمعت صوتاً في الظلام يقول: "ماذا تريد ياخليل؟" وعرفت أنه كان صوت عنيبر، الذي كان جالساً في مقعد حمود الطيني، فسألته، "لماذا عملت كل هذه الجعجعة حول عودتي إلى حائل؟ وأنت ترى أنني جئت برسالة من باشا المدينة؟" ــ "لا تقل لنا شيئاً عن الباشوات، إن الموجود هنا حكومة ابن رشيد: ارحل غداً، وليس هناك أي كلام آخر؛" ثم التفت إلى من كان معه، و الذي أجابه، "غداً مبكراً

أغـرب أيها النصراني الملعون. " سألت عنيبر عن مستشاره هذا لأنني لم أتبينه، ولكنه لم يُجبَ. مر بمحاذاتنا مدير المدرسة الحقـود وعندما عـرف أصواتنا قال: «أخس، لقد رحبت بك اليوم عندما رأيتك تعود، لأنني توقعت أنك أصبحت مسلماً، ولكن الآن ستقتل. " لم يكن عنيبر رجلاً سيّئاً، أو متعصبًا، ولكنه يحمل قلب عبد، والخير فيه أفسده خبث الآخرين.

ذهبت بعد ذلك لأطرق باب علي العيد وأطلب قليلاً من الماء. فتحت زوجته الباب قائلة: "مرحباً خليل. " فسألتها، "أين علي؟" فقالت: "إنه ذهب لينام في حقول القمح (موسم الحصاد) لأن عليه أن يحرسها طوال الليل؛ " طلبت مني الدخول، ولكنني اعتذرت. لقد كانت صغيرة ودمثة، تتصرف بتواضع، ولها عدد من الأولاد. وحينما كنت في حائل في المرة السابقة كنت غالباً ما أزورهم، وكانت تجلس دون حجاب أمام الحكيم مع زوجها؛ وكان يقبل ذلك لأنني كنت نصرانيًا. لقد أحضرت لي الماء فعدت إلى مخزني.

كان مرافق الشريف في قافلة بغداد؛ ولكنه كان قد وقع مريضاً في مستشفى في المدينة [المنورة]حيث قابل الشريف الذي كان جاهزاً للانطلاق في رحلته الشمالية، فترافقا. وحملهم بعض البدو الرحل المتجهين إلى حائل على ركائبهم مقابل ريالين عن كل منهما، ولكن لطول المسافة فقد وصلا مجهدين جداً وضجرين. وعندما عادا إلى مخزنهما قررت زيارتهما فقال عياد: " أوليس الشريف ذاهب إلى المشهد [النجف] ؟ إننا سندفع له مالاً ليأخذك معه، ودعنا نرى ماذا سيجلب لنا الصباح؛ وأنا يا خليل لن أتخلى عنك. " عندما دخلنا مقر إقامة الشريف، سحب لي فرمان السلطان؛ فأخذ في تركيب نظارته التي وضعها بوقار فوق أنفه، ورفع شمعته من نهايتها وبدأ

يقرأ. وأخرج لنا وثائق ورسائل أخرى صادرة من أمراء وباشوات، وذكر أن ما ينقصه واحدة من الإنجليز! وأرادني أن أكتب له شيئاً يساعده على دخول قنصلية دولتنا في بغداد؛ وكان يتطلع إلى أن يحصل منها على شهادة تساعده في رحلته الهندية. طلب هذا الفضولي السليط، الذي اضطهدني هنا، ويريدني أن أساعده في الخارج، من مرافقه أن يناوله المحبرة، وأن يبحث عنها في الحقائب، فقلت له "ناولني تلك القصبة، وسوف لن أخيبك، - فما هي أعمالك الطيبة التي يجب أن أذكرها؟ وهل ستقنع عنيبر؟ " فقال: "آخ! " (إنه يتمنى أن أهلك في هذه الصحراء، بينما هو يحقق النجاح في الهند).

قال عياد: "يا شريف، بما انك ذاهب إلى مشهد، خذ خليل معك، وسوف نعطيك أربعة ريالات؛ وسيسلمك خليل ورقة للإنجليز. " فقال الشريف: «آخ!، أربعة ريالات أربعة فقط، آخ! قد نناقش الأمر غداً. وأضاف باللغة الإنجليزية المثل البائس، قد ينزل الله رحمته قبل الصباح: وهذا كل ما أعرفه من اللغة الإنجليزية، علاوة على كلمة بريد[خبز]، والإنجليز فري جود (Very Good). " فسألته، "هل نظروا إليك أيضاً على أنك جاسوس في الهند؟ " فأجاب، «نعم، وأنا لا ألوم إلا حكومتهم: فأنا لم أسافر إلى أي مكان في كل الهند إلا وكنت مراقباً، ولهذا أريد أن أحصل على شهادة من القنصلية. " فسألته "وهل هاجموك بسبب دينك؟ " فأجاب "لا. " فسألت، "أوليسوا عادلين مع الجميع بدون تمييز؟ " - فقال: «إنهم عادلين دون أدنى شك؛ (وقال موجهاً كلامه إلى عياد) سوف أخبرك قصة. في أحد الأيام وبينما كنت راحلاً في الهند، وكانت معي جارية لي، أحث الخطى للوصول قبل غروب الشمس إلى بلدة ليست بعيدة لأنزل فيها: ولكن الليل داهمنا قبل الوصول، فالتفت جانباً، ورأيت محطة عسكرية؛ لقد كنت خائفاً على المرأة،

فلو بتنا ليلتنا بعيداً عن البلدة، فإننا نعرض أنفسنا لخطر اللصوص. لقد رفض المجند الهندي أن يسمح لي بدخول بوابة المحطة العسكرية، لأن الشمس قد غابت: فضربته تحت تأثير الغضب (إن هذا التصرف ليس من كياسة عرب الجزيرة العربية؛ ولكن هذا التقي الطفيلي ذو تربية حضرية وغير متعود على مواجهة الصعوبات بعيداً جداً عن بلده) فأبلغ الجندي الحرس بما جرى فطلبني الضابط، الذي كان إنجليزياً، ـ جمعيهم ذوو شعر أشقر مثل خليل. وعندما أخبرته عن مكانتي ونشرت أمامه الفرمانات، التي رأيتها، أمر الضابط أن يُعد لنا عشاء ومكان للمبيت، وأعطاني ٢٥ روبية؛ وقال لي: يمكنك أن تنزل هنا لمدة شهر، وتحصل على حصة يومية من الغذاء." فقلت له: "لعلك تستطيع أن تقنع هؤلاء الناس في حائل أن يظهروا بعض الإنسانية تجاه الغرباء."

ـ "ها! (أجاب الشريف، بأسلوب يعبر عن احتقاره لهم) أنهم بدو!" وابتدأ الرجل المزيف المسن أن يكون مرحاً.

وأخبرني الشريف: "أن بخارى مدينة أكبر من دمشق؛ وأميرها الذي ـ أضاف بسخرية ـ سوف يُلقب سلطان، يملك بلداً واسعاً وغنياً!؛ لكن الآن (تمتم) يوجد بها الموسكوفيون [الروس]" ـ "حسناً أخبرنا عن الجهاد" ـ "لقد كنت بنفسي في الحروب، ولم أعُدْ إلا مؤخراً إلى المدينة"؛ ـ التي سمع فيها، كما ذكر، أنني (محجوز) في خيبر، وذلك عندما عُرض أمري على المجلس ـ وأضاف: "ولكن كانت للنصارى اليد العليا في هذه الحروب؛ وقد أخذوا منطقة من مناطق السلطان!" فقال عياد: "اخس! أخبرنا يا شريف عما إذا احتل النصارى أي بلاد من بلاد السلطان؟ نصره الله! وهل يستطيع النصارى التغلب على المسلمين؟" فأجاب الشريف برزانة المسلمين وبتحسر، "أمر اللّه، أمر اللّه." فقال عياد: "ها يا شريف، ماذا تعتقد أنت، هل يمكن أن

يصل النصارى إلى هنا؟ " فقال الشريف: "غير محتمل" . لقد كان رأس عياد المشغول والمحبط مملوءاً بالمكر: لذلك قلت، "يا شريف ألا تعتقد أن هذه الأرض لا تساوي عندهم فنجان قهوة؟" فقال: "نعم، أرضها قاحلة؛ وما هي الفائدة التي يمكن أن يحصلوا عليها من هذه البلاد؟" فسألت: "والإنجليز" ـ فقال: "إنهم متحالفون معنا" ـ فقلت: "يا عياد لقد سمعت هذا من لسان الشريف." فقال عياد: "ولكن النصارى يأخذون مناطق السلطان، كما يقول الشريف: والإنجليز نصارى."

عندما أشرقت الشمس شعرت بسرور لأن ليلتي كانت وكأنها ستستمر إلى الأبد. لقد كنت متعباً، ولم يحسم أمري. ذهبنا إلى القهوة الكبيرة، وكان عنيبر جالساً، وبجانبه كان الشريف ذو القلب الفظ، الذي جاء ليتناول فنجان قهوة الصباح بسكون التقوى. وتحدثت: "لقد أكد لي عياد أنه لا يستطيع، ولا يجرؤ، على حملي إلى خيبر ثانية." فقال عنيبر: "أنت تذهب إلى خيبر، حالاً."

كان عياد يقود راحلته المريضة ليأخذها لترعى تحت جبل أجأ، ولكن المغربي حارس البوابة منعه بالقوة. لقد كان قلب ذلك المغربي، كما كان عند مغادرتي الأولى من حائل، مليئاً بالوحشية. فقلت له: "تعال يا زيد، ألسنا نحن الاثنين رجال غربيون ومتحضرون بين هؤلاء البدو؟" فقال: "فقط صر مسلماً، وسنحبك جميعنا؛ ولكننا نعرف أنك النصراني الأعند. تعال يا خليل لأقول لك (وطلب من الواقفين الابتعاد عنا) نصراني هنا في بلاد المسلمين! ألم يكن كافياً أننا أبعدناك المرة الأولى بسلام، وتأتي ثانية إلى هنا!" كان رأس هذا الرجل الفظ مدوراً بمحيا وحشي؛ له رقبة غليظة ليست مثل رقاب عرب نجد النحيلة؛ أما بقية جسمه فجثة ضخمة، وكرشه تزن

نصف حمولة عربة جر.

بغياب العائلة الأميرية، كانت روحي معلقة بأيدي براغيث المسحب هؤلاء. وجلست لأتحدث معه بهدوء، ومع ذلك فإن هذا الرجل الوحشي رفع عصاه مرات كثيرة ليضرب الكافر، ولكن كان صعباً على زيد الذي سبق أن عملت له معروفاً، أن يعتدي عليّ. إن آراء العرب دائماً منقسمة، وفي العادة بين كل ثلاثة يكون واحد وسيطاً :ـ كان من الصعب أن يتصدى أحد للدفاع عن قضية لعدو اللّه. ومع ذلك فإن بعضًا من أهل حائل الذين حولنا كانوا قد تجمعوا وتلفظوا ببعض الكلمات اللطيفة ولكنهم كانوا غير مفيدين. ووقف بجانبي الرجل الأعور الغريب الذي لم يجرؤ على مواجهة العاصفة؛ ولكن بعد أن تركنا زيد للحظة، همس في أذني بأن عليّ أن أتخلص منهم، وباحتقار قال إنهم بدو لايفهمون، تظاهر بالإسلام وإلا فإنهم سيقتلونك؛ قل "محمد رسول الله" وبعد ذلك عندما تكون في بلاد آمنة احتفظ بالدين أو تخلّ عنه حسب مشيئتك. وهذا لا يعد ذنبًا أمام اللّه إذا كنا مكرهين، ولا وسيلة أخرى لتجنب الضرر.

وهاجمني بعض الأشخاص المستكعين والأولاد اللئيمين بألسنتهم البذيئة: ولكن إبراهيم، من مواطني حائل، والذي بود رافقني خارج البلدة في المرة السابقة، كان مستعداً للوقوف بجانبي ثانية، فصرخ في وجوههم قائلاً: "ابتعدوا عنه، فعيب أن تهاجموا الرجل! إنكم مجانين، ألم تروه من قبل؟" وكان من بينهم عبدالله ذو الذراع المكسور، الأخ الأصغر لحمود. ولاحظت أنه ازداد طولاً، وصار يحمل سيفاً صغيراً؛ وسحبه في وجهي وصرخ: "أنت أيها النصراني الملعون، الذي لم يترك الكفر!" فقال الرجل الأعور الغريب: "ارضهم! انه لمضيعة للجهد، محاولة إقناعهم، ارجعوا إلى الخلف

أيها الناس! وسأتحدث مع هذا الرجل، وربما ترون حدثاً سعيداً، قد يرضي الله. " همس في أذني، "إيه! سيحدث ما لا تحمد عقباه؛ تظاهر بالإسلام، وخلص نفسك منهم. اثبت لنفسك أنك حكيم، ولا تدعني أراك تموت من أجل كلمة؛ وبعد ذلك، عندما تكون قد تخلصت من أيديهم، العن أبوهم! هل وافقت؟ - أيها الناس، اذهبوا إلى المسجد، ونادوا على المؤذن: لقد أصبح خليل مسلماً! " تلفت الناظرون ولكنهم لم يتحركوا من مواقعهم؛ إنهم لم يصدقوا كلماته حول الكافر العنيد. ولكن حينما قلت لهم: "ليس هناك حاجة إلى أن تذهبوا. " صرخوا، "آها! النصراني الملعون، الله يعلن أبوه! " فقال زيد (البواب): "ولكنني أرى أنه لابد من أن نجعله مسلماً ونختنه؛ فليذهب أحدكم ويحضر سكيناً من القصر. " لم يتحرك أحد لأنهم خافوا من الأمير ومن حمود (المعروف بصداقته لي). فقال زيد: "وافقنا يا خليل على شيء واحد وسنكون أصدقاء لك؛ قل، لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: وإذا ما كنت فقيراً فسنغنيك أيضاً. " فأجبت: "إنني اعتبر فضتكم مثل غبار هذا المسحب: – ولكن من منكم أيها العرب التعساء قادر أن يعطي شيئاً؟ ولو أعطيتموني هذا القصر وبيت المال، حفر وجوالات الفضة المخزونة التي تقولون إنها فيه لن أغير ديني. " فانطلقت الأصوات "أخس، أخس، أخس، أخس! " : لقد احتقرت بلحظة واحدة الدين الصحيح، والمبالغ الكبيرة من أموالهم! وبصرخات مروعة عبروا عن معاداتهم للمسيح.

- وسأل أحدهم: "ايه يا نصراني، وماذا وجدت في خيبر، هاه؟ " - فقلت: "كثيراً من البلح أيها الرجل، وحمى. " فهتفوا بصوت واحد "إن ما يؤسف له أنه لم يمت هناك؛ ولكن أخس! هؤلاء النصارى الملعونون لا يموتون أبداً، ولا يمرضون مثل الآخرين: ولو أن هذا هذا الرجل لم يكن نصرانياً، لكان

ميتاً منذ فترة طويلة. " وهمهم البعض: "الله يلعن أبوه. " ورفع زيد قبضته الضخمة؛ ولكن عنيبر ظهر على الجمع قادماً من السوق، فصاح إبراهيم قائلاً لزيد: "امسك يدك! ولا تضرب خليل. " وقال عنيبر: ما هذه الجعجعة هنا و(موجها كلامه إلى زيد) لماذا لم يرحل النصراني؟ ألم آمرك بذلك. " فرد زيد: "ان البدو المرافقين له غير جاهزين؛ أحدهم ذهب ليودع أقاربه في البلدة، أما الآخر فسمحت له أن يذهب ليشتري غرضاً من السوق. " وقال عنيبر: "وأنتم أيها الناس لماذا لا تذهبون في سبيلكم؟ شيطان! ماذا تريدون من النصراني؛ الله يعذبكم ويعذبه أيضاً. "

قلت لعنيبر: "دع عياد يأخذ أجرة جديدة مني وهدده لكي لا يتخلى عني" - "ماذا استلم منك سابقاً؟ "ـ "خمسة ريالات "ـ "إذاً اعطه خمسة ريالات أخرى. (ريالين أو ثلاثة كانت كافية لرحلة العودة؛ ولكنه لا يريد أن يبقي معي شيئاً). وحينما يأتي الذلول، اركبه، وسيشهد زيد عملية الدفع. " ويغطرسة مشى العبد من عندي. - لقد كان طيشه قاسياً؛ كيف يمكنني أن أنقذ نفسي في الخروج من هذا البلد المروع إذا لم يبق معي شيء لإشباع جشعهم؟

زيد: ادفع تلك الخمسة ريالات، بسرعة، أو والله - ! - ومع نوبة أخرى من غضبه البهيمي، دفع يده الضخمة من جديد إلى صدري. تركت الأمور للحظتها، فللدفاع الأخير عن نفسي كنت مسلحاً جيداً؛ ولكنه بضربة يضربها بكل قوته قد يقتلني. سحبني إبراهيم من عندهم قائلاً: "قف، واعطني الريالات الخمسة، وسأعدها بيد عياد مباشرة. خلص نفسك يا خليل وابتعد وأنا معك. " أعطيته ريالات الفضة فقادني عبر المسحب ممسكاً بزمام الذلول بيده، وتركني عند باب دكان، وذهب إلى عنيبر.

تجمع أشخاص من العاطلين أما المكان الذي جلست فيه، وكان الأسوأ من

بينهم البائس الصغير عبدالله العبيد؛ الذي حينما انقطع نفسه من قذف اللعنات، سحب سيفه الصغير ثانية؛ ولكن المارة عاتبوه، ودخلت للمخزن.

طلب تاجر مشهدي، غليوني، ودعاني للجلوس؛ وعبأه بالتبغ الحميدي، ذي الطعم العسلي، والدواء السلمي لحياة الإنسان. قال التاجر: "ما هي أخبار العالم؟ لقد سمعنا أن ملكة الإنجليز(١٦) قد توفيت؛ وخلفها ابنها." وبينما كنت جالساً حزيناً وأنا أستمع لذلك الخبر جاء وجلس فجأة شاب قوي حاملاً سيفه ممن بقوا في حائل. تذكرت وجهه الوسيم المتخشب، وكان يكنى بالمغربي، وغير محظوظ بذكائه. واستل سيفه وتلمس حده: لذلك يقال عنهم إنهم سواعد بلا عقول - وكان ذلك حال عدد كبير منهم، وأقسم بالله: "أمس، عندما دخل خليل، كنت أجري بهذا السيف لأقتله، لكن بعض الناس منعوني!". رد التاجر، "ماذا فعل لك لتقتله؟" فأجاب صاحب السيف: "أنا سعيد أنني لم أقتله": - وعندها بدا أقل حدة في تهوره وأكثر تعاطفاً معي.

والآن جاء عنيبر، الذي كان في تلك الفترة يذرع الشوارع الجانبية ذهاباً وإياباً، (لا يُريد أن يراه أحد وهو يهتم بالنصراني) ومعه إبراهيم. دخل العبد نائب ابن رشيد وجلس، وسيفه في غمده، على ركبتيه. طلب منه إبراهيم أن لا يصر على المبلغ الجائر الذي حدده، ويتوجب على خليل أن يدفعه من محفظته الخاوية، أو على الأقل أن يخفض المبلغ. فقال: "لا، خمسة ريالات!" (قالها العبد الحاكم) وهو ينظر إلى سيفه، ويحركه ليحدث قعقعة. فقلت: "سيسألك الله عنها؛ واعطني وثيقة للسفر الآمن، يا عنيبر." وافق على ذلك، فأعطاه التاجر ورقة بحجم كف اليد وكتب فيها إبراهيم، "لا يعترض هذا النصراني أحد." ثم حبر ختمه النحاسي وختم الوثيقة باسمه،

عنيبر ابن رشيد.

وقلت له: "أن الشريف ذاهب إلى بغداد، وسيمر بالقرب من مخيم الأمير: ويوجد بعض البدو عند البوابة، سمعت أنهم يرغبون في حملي إلى الشمال مقابل ثلاثة ريالات. ولو أجبرتني على الذهاب مع عياد، فإنك تعرف أنني سأرمى بعيداً: والخيانة يا عنيبر يُعاقب عليها حتى في عالمكم! وقد لا يمر غريب في بلاد الأمير؟ خليك معقول، لأذهب بسلام اليوم، وأقول، الله يذكره بالخير." جلس العبد بغرور يجلجل مقبض سيفه في حضنه، وبالطريقة التي تحقق الرعب الأميري؛ وعند كل كلمة مني يمسك بيده السوداء مقبض السيف. وعندما انتهيت من كلامي لم يجد أي إجابة، إلا القول بحزم استبدادي، "اخلص وإلا والله" -! وأظهر لي اتساع اليد أو اثنتين من سيفه خارج الغمد. وقال: "ماذا، ألم تَخفْ بعد؟" عندها دخل عياد، فعد إبراهيم بيده الريالات: وسلم عنيبر الورقة (وثيقة السفر) إلى عياد، الذي قال "لقد أعطى الأمير جوازه لي، ولكني لن أتركك تأخذه، اركب! وأنت يا إبراهيم لا يمكنك أن تراه خارج البلدة."

عند طرف السوق كان يجلس الطفيلي السيد أو الشريف متربعاً أمام عتبة في غبار الشارع. فقلت وأنا أعبر: "اخرج قصبتك وورقة، وسأعطيك شهادة؟" جفل الشيخ الثعلب الذي كان في عمامته، وهمهم ببعض الآيات القرآنية بين أسنانه المثلومة. وجاء إلينا بدوي مسرع على ذلول وقال: "إنني آت إليكم؛ وأنا سأوصل النصراني إلى العراق مقابل خمسة ريالات." فقال عياد: "حسناً، إذا ما وافق عنيبر على ذلك، فسأعيد الريالات الخمسة التي معي؛ وكل منا يكون قد أدى ما عليه، ويسافر خليل بسلام: اجلس يا خليل عند الذلول وسأذهب أنا وهذا البدوي إلى عنيبر لعقد الاتفاق، إذا ما وافق؛

والله إنني حزين من أجلك. " جاء إليّ أحد معارفي السابقين، وهو أجنبي من الاحساء، ووقف ليتحدث معي. كان الرجل أحد الغرباء الذين يعملون في الصناعة في حائل، إذ كان يخيط المطارح واللحائف للأغنياء. وقال هذا الرجل: "إن هؤلاء الناس جهلة! وكل الأشياء بيد الله: والآن مع السلامة يا خليل، وأرجو من الله أن تكون نهاية هذه المغامرة سعيدة. "

عاد عياد وذكر أن عنيبر لم يوافق، وأنه شتم البدوي المسكين. وقال: " اركب، دعنا نسرع للابتعاد عنه؛ أما بالنسبة لمرجان، فإنني لا أعرف ماذا حصل له. سأحملك إلى قفار، وأتركك هناك..ويا خليل أُقسم أنني لست خائناً، ولكنني لا أجرؤ، ولا أستطيع العودة معك إلى خيبر: سأتركك في قفار، وإذا لم توافق سأتركك مع البدو. " فقلت له: "إذا خنتني، فخني عند بيوت الشعر [أي عند البدو] وليس في المستوطنات؛ ولكن عليك أن تُعيد الريالات الفضة. " فقال: "لا، لقد صرفتها؛ ومع ذلك سأعمل أحسن ما يمكنني عمله من أجلك. "

أخذنا الطريق المألوف باتجاه قفار؛ وبعد قطع مسافة ميل قال عياد: "دعنا ننتظر، ونرى إن كان ذلك القادم هو مرجان. " أخيراً تبينا أنه هو القادم حاملاً صرة على رأسه إذ أحضر معه تمناً وتمراً أعطته له أخته (المتزوجة في البلدة). أخرج عياد كيس جلدي، فيه مؤونة للطريق حصل عليها من المضيف (دون علمي): هذه المؤونة لم تكن أكثر من وجبة قليلة من البر وبعض التمر من النوع الرديء، لا تصل قيمة الكل شلناً واحداً. جلسنا، فنشر مرجان تمره الطيب، فأفطرنا؛ كنت آمل أن مشاركتنا جميعاً في الأكل تجعلهم أكثر وداً تجاهي، مع ذلك فسوء الحظ كان نصيبي مع مثل هؤلاء الرفاق غير المحظوظين. وكان حظي سيكون أفضل لو كنت مع واحد منهم فقط. فعياد قد

التقط بعض مشاعر التعصب في حائل من فوه الشيخ شريف المدينة! فقد سمع أن النصارى ينتهكون باستمرار حرمة بلاد السلطان، وأن أمة خليل، مع أنهم ليسو أعداء، إلا أنهم لا يضمرون الخير لدين الإسلام. ولما كنت أريد الركوب على الذلول، قال عياد: "لا، إن عودتنا لن تكون مثل قدومنا؛ أنا من سيركب." لم أعترضء، لكي لا أترك في القفار ثانية، وكان لابد من أن أوافقهم. وبينما كنا نسير، كان رفيقاي يتباهيان بالوعود التي قُطعت لهما في حائل. لقد وعدهما عنيبر بأنهما لو عادا ثانية إلى حائل وتركا خدمة الدولة [العثمانية] فقد يُضمان إلى قوات ابن رشيد؛ عياد كفارس ضمن راكبي الخيل، ومرجان كواحد من الرجاجيل.

لحقت بنا إمرأتان كانتا قد خرجتا من حائل إلى قفار. وقالتا (المسكينتان برقة أنثوية): "الحمد لله أن الأمور لم تكنْ أسوأ. آه! هل أنت خليل؟ - انهم هناك [في حائل] جبابرة، انهم يقطعون رأس الرجل لسبب بسيط. أوليس الذي هو أمير الآن قطع رؤوس أبناء أخيه؟ إنك طيب مادمت خرجت من عندهم، إنهم قساة. وما هذا الذي يقولونه (على النصراني)! والنصارى أحسن من المسلمين." عياد: "إنهم هم النصارى، والله، إنهم خبثاء." وقال مرجان: "أنا أكره المشاهدة، الله يخزيهم." لقد سبق لي أن عالجت (مجاناً) ولداً يعمل في المطبخ العام، خلال إقامتي السابقة في حائل. وكان ذلك الولد شقيقاً لمرجان، وهو من أخبره أن المشاهدة هم الذين أشاروا على عنيبر ضدي. - إن من سافر في المناطق الفينيقية والسامرية السورية قد يتذكر عدم إنسانية (بقايا أصحاب معتقدات غير عقلانية، - بأن لا يأكل ولا يشرب المرء مع أخيه!) المستوطنين الفرس والأشوريين، المتاولة.

وعند تركنا للطريق ذهبنا باتجاه القسم الشرقي لقفار: - تتكون قفار من

مستوطنتين[حيين]، شرقية وغربية، تقومان على شريانين للمياه الجوفية، يبعدان عن بعضهما حوالى ميل. فالواحة الغربية، والتي عبرها يمر الطريق العام، هي الأكبر؛ ولكن عياد ذهب لرؤية أحد معارفه السابقين في الواحة الشرقية، والذي قد ننزل عنده. وفي هذه الواحة أيضاً مررنا ببساتين نخيل ومنازل مهجورة، إلى أن وصلنا إلى المنطقة المأهولة؛ وتوقفوا أمام دار صديقهم. جلس عياد ومرجان ليروا ما إذا سيتقدم الرجل الطيب . . . ليرحب بنا. تجمع الأولاد يحدقون بنا بارتياب، وعندما عرفني بعضهم بدأوا يسخرون من النصراني. لعنهم مرجان وجرى خلف اللئام الصغار بعصاه؛ ولكن عندها جاء مضيفنا من بستانه وحيا عياد، ودعانا إلى المنزل. وحمل ولده حقائبي إلى مجلس القهوة، ووضعوا أغصانًا خضراء وأعشابًا برية أمام الذلول.

وضع المضيف الطيب أمامنا صحن من التمر؛ وأعد لنا قهوة: وخلال فترة وجيزة دخل الجيران. وكانوا جميعاً من بني تميم، هيئاتهم هيئات فلاحين، ليس فيها أي تحضر فطري؛ ولكنهم كادحون، يعيشون باستقامة من عرق جبينهم-بأيدي مقتصدة. وعندما قلت لأحدهم، "أرى أنكم جميعاً تتمتعون بهياكل وأحجام كبيرة، وليس مثل السكان (النحيلين) في حائل!" أجاب الرجل، وهو يقدح بهم "إن شمر بدو." وبينما كنا جالسين، جاء ثلاثة رجال غرباء، داكني البشرة، كانوا في طريقهم إلى حائل، ونزلوا لشرب القهوة .. كانوا يحملون زكواتهم لخزانة الأمير؛ فلأنهم أعراب بعيدون وقليلون لم يذهب إليهم أحد من جباة الزكاة خلال السنتين الأخيرتين: لقد كانوا من حرب، ومناطق ترحالهم قريبة من المدينة. انطلقوا على مطاياهم حال شربهم القهوة إلى حائل؛ التي منها سيواصلون رحلتهم إلى ابن رشيد

في البراري الشمالية.

تركني رفيقـاي وحيداً دون النبس بكلمة! لذلك قمت وأحضرت عـدة الذلول، مخافة أن يقودوا حيوانهم ويتخلوا عني. فهما لا يخافان بعد الآن من أي مسؤولية عني؛ وبما أن غضبهم يزداد عند كل كلمة مني، فإنني تنبأت بكيف سيكون عليه الحال في القادم من الرحلة معهم: لحسن الحظ لحياتي السئمة كان موسم الحليب قد بدأ في البلاد.ـ ينبع الماء الدافق في الشريانين اللذين بنيت عليهما واحتهم المزدوجة، حسب ما يقولون من جبل أجأ. ويصل عمق الماء في آبارهم إلى ثمان قامات، ولكنه في الصيف الطويل يهبط قامة واحدة. أظهر المضيفون من بني تميم ترحيباً فاتراً لعدو اللّه، رغم أنهم كانوا على إطلاع على قصة إقامتي السابقة في حائل: وحتى أنهم أخبروني عن ناقتي القديمة، الخوارة، وأفادوا أنها قد ولدت مؤخراً: لو أنها كانت ماتزال ملكي! لاستفدت من حليبها الكثير الذي قد يحفظ حياة الإنسان بصحة كاملة في الصحراء. تدر الناقة ذات السنام الجيد حليباً كثيراً، أما ذات السنام الواطئ فتدر حليباً قليلاً وغثاً.

إن بني تميم عريقون جداً في هذه المقاطعات: ومع ذلك فإنهم يقولون أن بني تعمر سبقوهم في الاستيطان في هذه المناطق. ويسمون جدهم تميم؛ وتميم كان أخاً لوائل جد عنزة ومعازة. ـ عاد رفيقاي ثانية عند المساء بنظرات غادرة.

* * *

عند شروق الصباح غادرنا قفار: وكان ذلك الأسبوع، حسب تقديراتي، هو الأسبوع الأول من أبريل ١٨٧٨م. أطلق عياد ذلولنا المريضة للرعي، وساقوها ببطء للأمام في السهل الصحراوي إلى أن توارت الشمس خلف

جبل أجأ، حيث توقفنا تحت جبال جرانيتية شهباء. تتشابك هذه الجبال مكونة حدبًا وكهوفًا أكثر مما هو موجود في جبال سيناء: وفي العموم تكون قمم هذه الجبال صخور بركانية. قام عياد بإشعال نار وأحمى مدكّ بندقيته الحديدي وكوى ذلولهم الجرباء. قضيت اليوم بأكمله راجلاً، وعند كل ساعة كان العقيليان يهدداني ساعة برمي حقائبي، على الرغم من أنها حينها كانت خفيفة لا يزيد وزنها عن وزن ثمّن مرجان الذي تحمله. تقدمنا إلى الأمام أربعة أميال، ولمحنا نار مخيم من بعيد؛ وبوصولنا للمكان وجدنا رعية من الأبل المناخة للمبيت، في الخلاء المفتوح. وكان الراعي وأخاه يجلسان مستترين في ضفة قاع سيل، وأمامهما نار مراقبة مشتعلة. لا تلحق كلاب الأعراب القطيع، لذلك لم يكن باستطاعة الراعيين الرؤية وراء ضوء نارهما، وقد أفزعهما سلامنا: بعد ذلك جثونا على ركبنا وجلسنا بجوارهما، وبتلك الكلمة تعارفنا. أثار الراعيان بعض نياقهم الناخة لتنهض وحلبوا لنا حليباً، وقدموه لنا. سمعنا صوت طير ليلي قرب المكان الذي وضعنا فيه حقائبنا مع الذلول: نهض رفيقاي وجريا نحوه ومعهم عصيهم، وذلك لأن الطير (الذي يسمونه سروق) قد يسرق شيئاً، حسب ما يقولون. وعندما تناولنا الحليب الذي كان عشاءنا تمددنا فوق الرمل الناعم ونمنا.

انطلقنا حالما شق نور اليوم التالي. وبعد مسيرة قصيرة رأينا سرب طيور بحرية تلتقط العشب واقفة على أقدامها الطويلة في القفار. - وتعجبت من وجودها (هنا في نجد) بعد رحلة طويلة من شاطئ البحر البعيد؛ وقد تشرق عليها شمس الغد وهي بعيدة عن هذه الأرض الحارقة من جزيرة العرب! في البداية أخطأ رفيقاي الغبيان وحسبا تلك الطيور قطيعًا من الأغنام، مع أن أغنام هذه الأجزاء من نجد سوداء اللون: بعد ذلك جهزا بندقيتيهما وتقدما

زاحفين للاقتراب من تلك الطيور؛ ولكن ما لبثت أن رأيت تلك الطيور الكبيرة، تنشر أجنحتها فوق الصحراء الواسعة، ورأيت الصيادين يعودان، - فسألتهما: "من أين أتت هذه الطيور؟" - فكان الجواب: " والله إنها من مكة، " (أي أنها من وسط البحر الأحمر).

كانت هذه الأرض حصبائية، حمصتها أشعة الشمس الحارقة بقوة، ومقفرة جراء الجفاف الدائم، وتتوقد من تحت باطن أقدامنا الحافية؛ وكان الهواء ملتهباً. في مثل هذه الظروف من طقس الجزيرة العربية من الأفضل للمسافر الواهن البقاء على الدوام راكباً: والآن بفضل فظاظة رفيقَّي بقيت على الدوام راجلاً؛ و هما راكبان. ولأنهما كانا يسيران بسرعة كان علّي أن أسير بسرعة أيضاً ليبقيا في نطاق رؤيتي؛ وإلا كانا قد تركا النصراني: كان المأزق الذي أنا فيه بعد تلك الأيام من المعاناة للدرجة التي فكرت فيها بأنه ينبغي أن أموت و أستريح إلى الأبد. ولذلك عندما كان الوقت يقترب من منتصف بعد الظهيرة الحارق، وبسبب نوبات اجتاحت صدري، اعتقدت بأن قلبي سينفطر. وأخيراً تفجر الدم الحار من أنفي: ناديت الرفيقين اللذين يسيران راكبين أمامي بأن يقفا، ليتسنى لي أن أتمدد برهة من الوقت، ولكنهما لم يكونا يسمعان. بعد ذلك التقطت حجارة لتلقي الدم المتخثر، حتى لا أضطر للوصول إلى الأعراب بثوب ملطخ بالدماء: إضافة إلى أن ذلك قد يحرك في نفسي رفيقي المسمّين روح الرحمة! في ظل العجلة للحاق بهما وقع دم على يدي. وعندما لحقت بهما توقفا مندهشين وهما يريان يدي الملطختين بالدماء! وعندها قال مرجان: "والآن أليس هذا بكافر!" فقلت: "ألستما كافرين أكثر مني، فأنتما تركمتا الرفيق في الطريق؟" والأن تقدما ببطء ومشيت بمحاذاة الذلول. وأضفت قائلاً: "إذا ما تركتما الرفيق، من من

الرجال الشرفاء سيستقبلكما بعد ذلك في مضاربه؟ " فأجاب مرجان قائلاً: " إن العهد يحفظ بين المسلمين، ولا يحفظ مع عدو الله! "

وليس ببعيد توقفا وترجل عياد: قدح مرجان الذي لا يزال جالساً على ظهر الذلول ناراً بحجر صوان: اعتقدت بأنها من أجل غليونيهما، إذ أنهما اشتريا قليلاً من التبغ الحميدي الفاخر بنقودي في حائل: غير أن عياد أضرم فتيل بندقيته. فقلت: "ما هذا؟" فأجابا قائلين: "أرنب!" فقلت: "وأين أرنبك؟ أرني هذه الأرنب!" وكان عياد على وشك وضع الفتيل بفوهة بندقيته؛ تعثرت الكلمات على شفاههما وظلا حائرين. فقلت لهما: "هل بدوت لكما مثل هذه الأرنب المزعومة؟ بحياة من خلقنا، ففي أي لحظة تريانني فيها فوهة البندقية، فسأطرحكما جثتين على هذه الأرض: أطفئ الفتيل! " فقام بإطفائها. دهمنا برد المساء، وتقدمنا ببطء وبصمت، وكانا بدون شك يديران في نفسيهما معاني كلمات النصراني العنيفة. وقلت لهما: "انظرا أيها الأوغاد! واقول لكم بصراحة، بأنكما في اللحظة التي تثيران فيها انفعالي فلن تكونا سوى كلبين ميتين، وسآخذ هذه الذلول الجيفة! "

إن مغامرتي في قضية كريهة جداً مثل هذه كانت ستكون على نحو أكيد عملاً متهوراً؛ فلو أردت النجاة بنفسي فإن المكان الوحيد الذي ارى فيه خلاصاً الحدود السورية. فسورية كانت هدفًا واضحًا يمكن التوجه إليه ولكنها بعيدة جداً؛ ومع ذلك فعلى ذلول جيدة، مروية جيداً، لأن الشدائد تقوي عزم الرجال، وفي الغالب تجعلهم يتفادون الأخطار لن أيأس من المضي قدماً؛ وبوجود مورد ماء في منتصف الطريق، إذا ما قدر لي أن أجد ماءً مرة واحدة، فقد تنجو الذلول وراكبها. أو أنه يجب علي الركوب نحو تيماء؛ والتي تبعد مائتي ميل من هنا؟ ولكن برؤية معالم الطريق الكبيرة من هذه

الجهة التي لم أمر فيها سابقاً، إذ كان عبوري لها من الجهة الأخرى عندما ذهبت إلى حائل، فكيف يمكنني التعرف عليها ثانية! - وإذا ما وجدت أعراباً جهة الغرب فإنهم سيكونون من بشر، رجال قبيلة الرجلين. أو هل يجب علي أن أركب نحو الشرق في ديار غير معروفة؟ أو أن أواصل فوق طعوس النفود المخيف للبحث عن الشرارات؟ فحيثما ركبت كان من المحتمل أن تخور قواي قبل أن أصل إلى أي خلاص آدمي؛ أوَليس من المحتمل أن يقوم أحد الأعراب الغريبين بقتل الغريب، لرؤيتهم شخصاً يأتي بهذه الطريقة بدلاً من استقبالي؟ كانت عيناي معتمتين مما تعانياه من الرمد ولم أكن أستطيع الرؤية، فكيف بهما، في اتساع الصحراء، استكشاف أية أعراب؟ وإذا ما أتيت برحمة من الله إلى أية آبار ربما أستطعت تناول جرعة ماء بحيلة ما، ولكن لن أستطيع سقي الذلول. التقطت حجراً وفركت يديّ الملطختين بالدم، متمنياً غسلهما عندما نصل إلى الأعراب، ولكن هذا الوقت هو وقت مرعى الربيع، حيث تكون القطعان الكبيرة جوازي [أي تكون في المرعى]، وفي معظم الأحيان لا يكون عند البدو ماء، لأن هناك ما يشربونه من اللبن. فكر عياد بأن اللعبة انقلبت ضده! فعندما وصلنا إلى أحد المضارب كان من الممكن أن أشكو لهم ما فعلاه معي وينالا اللوم، فقال: "انتبه، عندما يتبول أحد الإبل، اجرِ واغسل يديك؛ لأنهم والله لو رأوا الدم في يديك فلن يأكل معك أحدٌ منهم." كان الجمّالة الحضر في بعض الأحيان يشربون بول الإبل عندما يداهمهم العطش. وأعرف من تجار المدانات[في شرق الأردن]، الذين يتاجرون مع الشرارات، أن هؤلاء عندما يصلون إلى معان في منتصف الصيف من وادي السرحان ويجدون أن الماء في بركة الماء (فوق معان) قد جف، فإنهم يملأون أوانيهم بالبول الذي يصبون عليه قليل من دم أذن

البعير. وقد أخبرت هذه الحكاية إلى بعض البدو؛ فأجابوا قائلين: " ولكن شرب ذلك يؤدي إلى الموت السريع، ويعصر أمعاء الرجل. "

كان الوقت مساءً، والآن مررنا ثانية بالعقلة وعندما كانت الشمس تغيب رأينا رعية من الإبل غير بعيدة عنا. وكان الرعاة يخبون فوق بعض جمالهم الخفيفة ويسوقون القطيع الكبير إلى مكان مستتر بين مرتفعين، إذ إن هذه الليلة مظلمة وجوها ممطر. وعندما وصلنا إليهم أوقف الشباب إبلهم مطلقين أصوات معينة لإناختها، أخ- أخ-أخ! بركت الإبل الكبيرة في مكانها، وهي ترغي، على الركبة أو الركبتين الأماميتين، ومزاوجة أقدامها الخلفية المعقوفة، ثم باركة بثقلها فوق أوراكها. بعد ذلك عدلت وضع ركبها الأمامية ساحبة إياها للأمام، ومع حك الحصباء الخشنة تحت هياكلها الضخمة! استقرت على الأرض، ومع هذه الآلام ارتاحت: تتحمل الأزوار كل الثقل الأمامي للحيوان؛ وهكذا تظل باركة تلوك ما تجتره حتى تبزغ شمس الصباح. يحمل الجمل طبعة غريبة (تشبه جلد الزواحف) فوق الركب وعلى الزور والأطراف الناتئة الخلفية، والتي قد ترى بعد سنة أو سنتين من ولادة الجمل في المناطق الحجرية في الصحراء. وللجمال رائحة مسكية مع قليل من رائحة تماثل رائحة الكلب، في أجزائها الخلفية التي يصيبها البول؛ ومع ذلك يبقى الجمل أكثر جمالاً في عيوننا من الغزلان، لأن الرجل يرى أن كل حياته في الخلاء مرتبطة في هذا المخلوق.

قام الرعاة الطيبون بتقديم كمية كبيرة من الحليب لنا: وشربنا بشره وأطلنا الشرب خلال الليل؛ وكانت كل رشفة رشفناها قبل الصباح بمثابة دم عذب ولحم خفيف وقوة صلبة. ضرب المطر ظهورنا ونحن جالسين حول نارهم المشتعلة فوق رمل الصحراء الناعم: وكان هناك برق ورعد. وعندما أنهكنا

السهر افترقنا، وذهبنا نحن إلى حيث تركنا حقائبنا وتمددنا في عباءاتنا تحت المطر والرياح الليلية. تمددت طويلاً جداً متأملاً في الغد، لكي يظن رفيقاي بأنني قد نمت. استراحا في ستر الصخرة المجاورة حيث سمعتهما يقولان، وقد ساعدني سمعي الحاد الذي يشبه حدة أبصار البدو في تلك المخاطر، بأنهما سيحملان خلال الليل أمتعتهم فوق الذلول وسيغادران. فتركتهما ينقلبان للنوم: ومن ثم نهضت وتوجهت إلى المكان الذي كانت تشتعل فيه النار. كان الرعاة نائمين؛ وفكرت بأن أخبر الشباب الطيبين بمشكلتي. وكانت أختهم ترعى معهم، ولكنها لوجود رجال غرباء جلست طوال هذا المساء مستترة من المطر، وبعيدة عن النار البهيجة. والآن كانت تدفئ نفسها عند الجمر الذي بدأ يهمد، وقد أصدرت صرخة خفيفة وهي تراني قادمًا، فالخوف يلف أرجاء الصحراء كافةً. فقلت سلام! انني أريد التحدث إلى أخوتها. فأمسكت أكبرهم من كتفه وهزته، فنهض في الحال، لأنه في مثل هذا الطقس لم يكن قد استغرق في النوم. ونهض الجميع، وسأل الشباب وهم يفركون وجوههم قائلين: "أوه، ماذا؟ ولماذا لا يتركهم الغريب يرتاحون، ولماذا لم أذهب للنوم مع رفيقَيّ؟" لقد كان هؤلاء شباب ذوو رجولة ولكنهم جهلة، إذ لم يتبينوا بأنني أجنبيّ. أخبرتهم بأن: "أولئك الذين معي من قبيلة عنزة، وأنهم عقيلات، وأنهم حصلوا على مال لحملي إلى خيبر: ولكنهم يريدون التخلي عني، وربما تركوني هذه الليلة." - فقالوا وهم يمسكون بأفواههم ويتثاءبون: "أنظر، نحن رعاة مساكين وصغار، وليس لنا معرفة كثيرة بهذه الأشياء: ولكن إذا ما رأيناهم يخطئون بحقك فسنكون معك. إذهب الآن وتمدد، حتى لا يفتقدك رفيقاك، ولا تخش شيئاً فنحن معك."

قبل حوالى ساعتين من طلوع الفجر نهض عياد ومرجان وهما يتهامسان،

وحملا الأمتعة فوق الذلول الباركة، ومن ثم بصمت أقاماها بركلات خفيفة، وسمعت عياد يهمس قائلاً: "قدها وسنعود للبنادق." بقيت متمدداً، وعندما تقدما قليلاً نهضت لكي أخيب آمالهما: ذهبت وفي يدي بندقيتاهما إلى مكان الرعاة، وأيقظت الشباب. لم يجد الرفيقان الغادران أسلحتهما وهما عائدان في الظلام: عندها أتيا إلى حيث كنت أجلس مع الرعاة، وقالا: "أوه، لقد كان شك في غير محله يا خليل فقد تحركنا قليلاً لكي نجد ساتراً، لأن الريح والمطر قد ضايقانا في المكان الذي كنا فيه." لقد أقنعوا بألسنتهم المعسولة الرعاة المساكين، الذين لم يتعودوا على هذه الخبائث؛ وبلا رأفة صدقوا الفريق القوي، أن خليلاً قد أساء فهم رفاقه. وقالوا: "حسناً، خذوا أسلحتكم وأذهبوا للنوم، وأطمئن يا خليل، ولا تعطيانه حجة: والله إننا لم نغمض عيوننا طوال هذه الليلة!" رحلت مع العقيليين عندما شق نور الصباح؛ و ركب عياد الذلول. لم نقطع ميلاً واحداً حتى هدد بتركي في الخلاء. والآن هدد بصورة مكشوفة بأن يقتلني بالبندقية، ورفع عصا الجمل ليضربني، ولكني أمسكت زمام الذلول، وقلت بأنه إن تفوه بكلمة أخرى مثل هذه فسأطرحه ارضاً. لم يشارك مرجان بهذا العنف، ومشى بعيداً عنا، لأنه متعكر المزاج إذ أنه كان قد تشاجر مع عياد خلال الساعة السابقة. (في أحاديثهم الحميمية الخاصة، كانت الكلمات الودية عند هذين الرجلين البشريين ترد في كل عبارة، من مثل: مرجان: والله يا ابن عمي! عياد: الله يهديك! ـ وحياة رقبتك! ـ ويش عليك، أي اعمل ما بدا لك أو وما يمنع.) وقال عياد: "حسناً، يا خليل، اترك الزمام الآن، وأحلف لك بأن مضارب الأعراب ليست بعيدة عنا، إن كان الرعاة أخبرونا الحقيقة."

مشينا ساعة من الزمن ووجدنا رعية إبل. وبينما كان الرعاة يحلبون لنا

التقينا علي الذي كان قد استضافنا في القصيصة. لقد عاد ثانية إلى هنا خارجاً من بلده لجمع العلف. وقد أخبرنا بأن زوجة له طريحة الفراش من الحمى وسأل: "ألا يوجد لديك علاج يا خليل، للأنثى؟" فقال عياد: "إن خليل لديه الكينين، أفضل ما في الأدوية للحمى، لقد جربته في المدينة، وإذا شرب الرجل قليلاً منه فإنه سيتعافى في الحال." ـ "كم كلفته يا خليل؟" ـ "ريال." فقال علي: "اعتقدت بأنك ستعطيني إياه، ماذا يعني القليل من العلاج، إنه لم يكلفك شيئاً، سأعطيك أربعة دراهم: ألم أطعمك في ذلك اليوم تمراً؟" وعلى الرغم من أن زوجته الشابة عزيزة عليه فإنه فضل أن يسير إلى مضارب البدو ويشتري حملاً بالثمن الذي كان سيدفعه لي. وصلنا إلى فريق من شمر حوالى التاسعة صباحاً. تذكر عياد بعضاً من أولئك الأعراب، وقد تذكروه بدورهم: وسمعنا كذلك بأن مضارب بريكان هي الآن مسافة نصف ساعة منا على يمين الراكب. أحضر لنا هذا المضيف الشمري طعام إفطار من أفضل ما تنتجه قرى الجبل من التمر، وكان نظيفاً وكأنه عقيق أحمر، مع إناء من لبن الربيع. ذهبنا إلى فريق بريكان تاركين أمتعتنا دون أدنى ارتياب (كما يحدث بين الأعراب)، وكان رفيقاي يأملان في شرب القهوة هناك. وكان هناك القليل من الجراد يطير ويحط فوق هذه الأعشاب.

جلست مع بريكان بعد الظهر، وكان عياد ذاهبًا إلى بيت شعر آخر، و مرجان مع الذلول، وتحدثت معه حول غدر رفاقي، وتحدثت أيضاً مع فراح، وهو رجل مسن أمين التقيناه هنا من قبل، وسألتهما: "ما رأيكما؟ وقد دخلت هذا اليوم تحت سقفكم." فأجابا نفسيهما بوقار قائلين: "نرى بأن خليلاً قد طلب حمايتنا، وعلينا حفظ حقه." ولكنهما خلال لحظات تراجعا عن موقفهما الطيب الجميل، خشية أن يقال أنهما وقفا مع النصراني ضد

مسلم، وختما كلامهما بالقول انهما لا يستطيعان الدخول بين خويان (أي رفاق درب). وطلبا من عياد عندما وصل بأن يعيد إليّ ثلاثة ريالات من الريالات الخمسة التي أخذها مني اجرة لتوصيلي إلى خيبر، ويتركني معهم ويذهب في حال سبيله، لأنه لم يحمل سوى حقائبي الخفيفة وتركني أسير راجلاً من حائل إلى حيث كنا، وكان يهددني عند كل مكان حللنا به بأن يتركني؛ فأجاب عياد بالقول: "إذا كان هناك لوم يقع عليّ، فإن ذلك بسبب ضعف ذلولي." فقلت: "لماذا أخذت خمسة ريالات لحمل مسافر فوق جيفة جرباء؟" فضحك البدو، ورغم ذلك قال البعض، بأنه لا يجب استخدام كلمات حادة مع رفيق دربي، وقالوا: "يا خليل إن البدو يحبون الكلام الطيب." وكنت أعرف هذه الحقيقة، وأن حقي البين سيبدو أقل في عيونهم الضحلة من كلمات رفيَقّي اللينة. وقال عياد: "حسناً، وليكن الأمر كذلك." فقالوا: "لقد سمعت وعده، عد مع خويك (رفيقك)، وكل شيء سيكون على مايرام." إنها كلمات الأعراب التي لا معنى لها! غابت الشمس وغادر رفيقاي، وتبعتهما.

نحر لنا مضيفنا الشمري واجب الضيافة: وقد قدم اللحم في صينية كبيرة فوق تمن مطبوخ في حساء. ولكن الرجل جلس بعيداً، ولم يشارك في حديثنا المسائي؛ قد يكون غير راض من رؤية كافر تحت سقف بيته، أو لأنه كان كارهاً لرفيَقّي العنزيين. أخبرت علي بأن في إمكانه الحصول على الكينين كهدية إذا ما ساعدني في حقي مع عياد. فأجاب بالموافقة. – وتعجبت من رؤيته بغاية التبسط في بيوت الأعراب! لقد كان والداه بدويّين، و ترك يتيماً في القصيصة التي تربى بها. اشترى علي منهم بالدين خروفاً حولياً طيباً ليهبه لي: انهم يسمون الخروف الحولي هنا طلي، ويسمون الأنثى منه رخلة.

عندما كنا نستعد للمغادرة في صباح اليوم التالي جلب علي الطلي وقال: "هذه هديتي ياخليل!" فقلت: "إنني كنت أتطلع للوفاء بكلماتك ليلة البارحة؛ وبما أنك أخلفت، فلن اساعد أحدًا لا يبالي بهلاكي!" ولم يقدر الرجل حزني وألمي وفهم بأن النصراني يزدريه: وضعت حقائبي فوق الذلول وحدق بنا ونحن ننصرف، وتمتم ببعض الكلمات. كان الشفق غير الندي يتخلل تلك الجبال المقفرة، دون صوت لأي مخلوق في القفار الكئيبة؛ سرت راجلاً خلف عياد ومرجان المترادفين فوق الذلول.

كانت الحجارة الحصبائية حادة، واتقدت الأرض سريعاً في الشمس وكأنها نار تحت قدمي الحافيتين؛ وكان المسدس العاري (مخفي تحت ردائي) يتدلى بثقله فوق قلبي الخفاق؛ وكان الهواء ساكناً، ولم يكن معنا شيء نشربه. كان من الصعب علي أن ألحق بهما، مع أن ذلولهم تسير ببطء: لا تحتاج (الناقة) سوى لكز خفيف من عقب راكبها وتعدو بعيداً عن ناظري! إن صبر الإنسان قوي! فلو بينت أني مسلّح، لأمكنني إجبارهما على التخلي عن الناقة؛ ولكن من منهما سيجرؤ على رفقتي لاحقاً؟ ولو أغضبتهما (وهما يحسبان بأنني غير مسلح) فربما هجما علي بأسلحتهما: عندها هل يجب علي قتلهما! — ولكن، هل ذلك عدل؟ - لم يكن ممكناً لي في مثل هذه الحالة من الوهن البدني والروحي الجزم بشيء، وفكرت بأنه يجب على الرجل التخلي عن الحياة ولا يتخلى عن العدل، وتدنيس روحه بالوحشية. مضيت في مسيرتي متكئاً على عصاي، فكان علي أن أعاني من جديد إذ كان عليّ ان أعبر أخدوداً في تربة حصبائية صلبة، خشية أن يغيب أولئك الرفيقان الخسيسان عن ناظري ومن ثم أتيه في الخلاء. فكرت في العودة على آثار مسيرتنا إلى مضارب بريكان والأعراب. ورأيت أن الوقت صار ظهراً؛ وأملت في أن ألمح عند كل

منحدر إبلاً ترعى، أو مضارب بدو.

وبعد ساعة رأيت إبلاً كانت تسير ببطء في منخفض من الأرض للسقيا. وهناك لحقت برفيقّي: لقد توقفا للتحدث مع الرعاة الذين سألوا عن الصحراء خلفنا. إن البدو يتعطشون للأنباء لأنهم يعيشون في الصحراء المكشوفة، وإذا ما رأى الرعاة مسافرين يعبرون بسلام في الصحراء فإنهم يجرون خلفهم ويسألونهم، ما الأخبار! أخبرونا عن الأرض التي عبرتموها؟ ومن من الأعراب هناك؟ وهل هم مقيمون الآن؟ ومن أي موارد الماء يشربون؟ وأين وجهتهم؟ وما الأعشاب التي رأيتموها؟ وكيف هي الارض بيننا وبينهم؟ وهل وجدتم أماكن ممحلة؟ ومن كان مضيفكم البارحة؟ وهل سمعتم أي شيء جديد هناك، أو وأنتم في الطريق؟ في العموم يقوم الرجل الصحراوي بتحرير نفسه بعد هذا النوع من الأسئلة ويركض نحو المسافرين ويقول وهو يلهث بصوت أكثر نعومة "السلام عليكم". وعندها يكون فقط متأكداً من أنهم سيلاقونه بلطف؛ إذ سيقومون باختصار كل تساؤلاته بـ" والله أنت فلان! " يردد الرعاة عند كل لقاء بالمسافرين الكلمات نفسها، وينهون حديثهم بطريقة رسمية بقولهم: "وأنت سالم." لا يودع البدوي الغريب، عندما يدير ظهره راحلاً؛ أو أنه يقف غير مبال ويترك المسافرين في سبيلهم.

و الآن توقفت ويدي على الذلول؛ ورأينا أمامنا سهلاً أخضر فوق الهضاب المجاورة. كان عطشنا عظيماً، وأشار عياد بإصبعه نحو صخور معينة كانت أمامنا وقال بأننا سنجد حفراً فيها (بعد الأمطار الأخيرة) ماء، ولكنني حفرت في لأرض قليلاً(بطريقة أفضل من طريقة رفيقّي الأحمقين) وتأكدت من أن المطر لم يصب هذه الأرض. وجدنا بركة مياه ضارية للحمرة، وقد كانت عفنة لدرجة أن الذلول العطشى رفضت الشرب. رأيت هناك موقعًا

مهجوراً لمخيم شتوي: كانت العلامات خنادق غير عميقة وحجارة كبيرة مطروحة حول أماكن بيوتهم. والآن لمحنا الإبل التي كانت تسترها الأرض المنخفضة، ومن ثم رأينا قرية من بيوت شعر منخفضة الارتفاع! ولأنها كذلك قال رفيقاي: "لا بد وأن يكونوا من قبيلة حرب!" وعندما تقدمنا قالا: "ولكن بيوتهم مشدودة ببعضها بعضاً! إنهم بالتأكيد من هتيم."

التقينا بأحد رعاتهم وكان يسوق إبلاً نحو مورد الماء وناديناه قائلين: "سلام! أنت يا! من أي الأعراب أولئك الذين في القاع؟" فأجاب الرجل بصراحة غير معتادة قائلاً: "أنا من قبيلة حرب، و أقطن في هذا الفريق، وهم من هتيم." ساور الشك عياد! فإذا ما كانوا من هتيم القصيم (أعداء الدولة في خيبر)، فهو في خطر. ومع ذلك فهما لا يستطيعان التراجع، وإذا ما انحرف عنهم فإن ذلوله الجرباء ربما نهبت. لذلك تقدم العقيليان بهدوء الضيوف الذين يصلون إلى مضارب البدو. تواثبت كلاب المخيم تنبح بأصوات عالية، وعندما وصلنا بجوار البيوت، نظر الرجال والحريم الجالسين في الداخل إلينا فقط بتحريك عيونهم، وعدونا غرباء عابري سبيل. توقفنا أمام أكبر البيوت في الصف المكون من عشر أو اثني عشر بيت شعر.

ترجل عياد ومرجان وأنزلا الأحمال وعقلا الذلول. بعد ذلك تقدمنا معاً بوقار الضيوف للنصف المفتوح من البيت، الخاص بالرجال؛ كان قسم الرجال في الجانب الأيمن من هذه البيوت، ومفتوحاً من الأمام، وهو لا يكون دائماً كذلك عند أهل الصحراء. دخلنا، وكان هذا البيت بيت الشيخ، وكان فيه خمسة أو ستة رجال يجلسون فوق الرمل داخله. نهض الرجال باحترام (ذلك لأن بعضهم تعرف عليّ)! لاستقبالنا، وهم ينظرون بصمت نحوي، كما لو أنهم سيقولون: "ألست أنت ذلك النصراني؟"

يدخل ضيف البدو ـــ وهو بعيد عن أهله ــ بيت الضيافة الغريب، بنظرات محتشمة، تعبر عن رجولتة. جلسنا في البيت، غير أن هؤلاء المضيفين الجهلة ظلوا على صمتهم المضطرب. كان الأمر غريباً؛ وأخذ رفيقاي يضربان بعصي جمالهم فوق الرمل ويوجهون أبصارهم للأرض: حدق الهتيميون بنا باطراف عيونهم ثم وجهوا أنظارهم إلينا. وأخيراً توجهت للشخص المتكتم الذي يسترق النظر إلينا وكان يجلس بجانبي، محتقراً صمتهم الماكر ومتحرقاً في داخلي من العطش، وهو هتيمي . . . وأخ للمضيف، و قلت: "اسقني ماء." فنهض كارهاً وأحضر جرة بها ماء عفن. وعندما رشفت من هذا الشراب السيىء قال بمكر: "رويت؟" طلب رفيقاي ماءً، ودورت الجرة عليهم وقال الهتمان: "اشربوا! فهناك ماء كاف." وأخيراً أحضروا بعض كسر المريسة واللبن: ثم كسروا صمتهم (وقال صاحب الماء الملوث): "أعتقد بأنه يجب أن نعرفكم؛ ألست أنت النصراني الذي ذهب إلى القصيم من عند ابن رشيد؟"

لقد حط هولاء البدو رحالهم في هذا المكان بالأمس: وهم يسمون هذه الأرض ذات الجروف ومورد الماء أول. ويسمى المعلم (الجرانيتي) غلفه؛ أما صفا فتطلق على الجبل البركاني الذي يظهر تجاه الشرق في السهل على بعد سبعة أميال؛ وهم يجلبون الماء من هناك. كان ارتفاع الأرض يصل ٤٦٠٠ قدم. تعود القطعان التي في المرعى إلى هذا الفريق عند مغيب الشمس؛ وأخيراً شاهدنا معتوق، مضيفنا، يجاهد لكي يمسك بأحد الحملان الصغيرة. فقام عياد بإرسال مرجان قائلا: "اذهب وامنعه." تصرف مرجان وكأنه سيساعد الحمل قائلاً نفاقاً "يجب عدمَ فعل ذلك، لا والله لن نسمح بذلك." فرد معتوق قائلاً: "أوهو! أيها الشاب، دعني لوحدي، ألا أستطيع

أن أفعل ما أشاء بما أملك؟ " وسحب الحمل الذبيحة إلى قسم النساء. وبعد ساعتين حمل معتوق إلينا الحمل مطبوخاً فوق صينية كبيرة من التمن. كان معتوق يلهث لأنه كان مصاباً بالربو. قال عياد عندما كنا جالسين بمفردنا: "يا خليل سنتركك هنا، والقصيم تقع خلف تلك الجبال، إن هؤلاء أناس طيبون، وسوف يرسلونك إلى هناك. " فقلت: "ولكن كيف ستعبران إلى العواجي، وأنتما لا تحملان قربة؟ " فأجاب قائلاً: "حسناً، سنميل إلى ضرغد (بلدة صغيرة في حرة خيبر) لتوفير قربة. " فقلت: "سيذكر الله خيانتك، وسيلومك الأعراب لتركك رفيقك، ويعاقبك الباشا، ولأنك سطوت على تلك الريالات القليلة مني فربما صادر بعض ما تملكه. " فقال: " أوه، لا تقلْ ذلك يا خليل، ولا تحزنني بهذا، وعند مغادرتنا لا تشتكي: لا تجعل المضيفين يسمعون كلماتك، وإلا فإنهم لن يرسلوك قدماً في رحلتك. "

وعندما كان البقية نيامًا رأيت معتوق ماشياً؛ ولأنني قدرت أن هذا المضيف رجل طيب . . . ، ذهبت إليه وقلت بأنني أريد التحدث إليه. فقال: " هل نجلس هنا، ونواصل الحديث، " ـ يعتقد العرب بأنه من الأفضل تبادل الرأي وهم جالسون، مسترخون فوق الأرض. أخبرته كيف تركني رفيقاي أسافر إلى هذا المكان ماشياً (مئة ميل) من حائل، وكيف أنهم كانوا يهددوني بتركي في وسط الخلاء، وحتى أنهم هددوني بالقتل: " وهل يجب علي المضي معهم إلى مسافة أبعد؟ " فكان الجواب "لا! " ولأنني كنت هذا اليوم ضيفه، طلبت منه أن يحكم بيننا، ومن ثم يرسلني بسلام إلى القصيم. فقال: "سأفعل كل ذلك، رغم أنني لا أستطيع إرسالك إلى القصيم بنفسي، ولكني أستطيع أن أرسلك إلى البعض من قبيلة حرب، الذين ينصبون خيامهم غير بعيد عنا تجاه الشرق، ويمكننا أن نجد لك شخصاً يحملك إلى هناك.

والآن عندما يشق الصباح وترى أن هؤلاء الرفيقين مستعدان للانطلاق، عندها قل لي دخيلك، وسنكون في صفك، وإذا ما أبديا مقاومة فسوف نحجز ذلولهم." - فقلت: "أعطني يدك واحلف لي." فقال: "نعم إنني احلف لك، واللّه واللّه!" غير أنه سحب يده، فكيف تلامس يده يد نصراني! ولكن في هجعة الليل وعندما كنت نائماً قام رفيقاي باستشارة معتوق: لقد كان الأمر بين رجال من الديانة نفسها، وخانني معتوق مقابل ملء غليونه من التبغ الحميدي الفاخر.

عند شروق الشمس قام رفيقاي بوضع حقائبي فوق الذلول، ورأيت عياداً يعطي معتوقاً القليل من التبغ الحميدي الذهبي، فشكره الهتيمي على ذلك بلطف. ومن ثم، أقاما الذلول وهما يأخذان عباءتيهما وبندقيتيهما: كان الزمام بيد مرجان وقد قادها للأمام قائلاً "نسلم عليك". قلت لمعتوق وهما يخطوان الخطوات الأولى: "يا مضيفي امنعهم، وأنا دخيلك! واحكم بيننا؟" فرد قائلاً: "آخ! اذهب معهم (كان الأمر غريباً) وما العدالة التي تملكها أيها النصراني؟" فقلت: "وأين وعودك ليلة البارحة؟ أليس هناك حفظ للعهد، أيها الهتيمي؟ أسمع! أنا لن أذهب معهما." ولكني رأيت بأن جدالي سيكون غير مجد؛ لأنني اكتشفت بأن هناك تفاهمًا بينهم. كاد عياد ومرجان يغيبان عن الأنظار، وعندها صاح الرجال في الخيمة قائلين: "أسرع وألحق بهما وبحقائبك، وإلا غابوا." فقلت: "أنا دخليكم، وأنتم قطعتم يميناً كاذبة، ولكني سأظل هنا." - فقالوا: "لا!" والآن بدأوا يدفعونني (فهم من هتيم). وأخذ معتوق عمود خيمة ووقف أمامي، وركض أخوه، النذل الماكر، من الخلف ومعه خنجر. ثم صرخ معتوق قائلاً: "هاه! سأكسر رأسه." وصاحت أصوات مسعورة أخرى قائلة: "اقتله، اقتله!" (كانوا

شباباً من قبيلتي حرب وعنزة يعيشون في هذا الفريق) فصاح أخوه قائلاً: "دعوني وحدي وسوف أفلق رأس النصراني الملعون." فقلت لهم: "إنني لا أستطيع منافحة عدد كثير، رغم أنكم جبناء، ضعوا أسلحتكم. وأرجوك أيتها المرأة الطيبة! (مخاطباً زوجة معتوق التي كانت تنظر إلّي من وراء حجاب، وتنتقد عنفهم معي) صبِّي لي قليل من اللبن؛ ودعوني أرحل عن هذا المكان الملعون." فقالت لهم: "واعيباه! كيف تطردون غريباً! هذا حرام، وأنت يا معتوق إنه دخيلك:" وأسرعت تصب لي شراباً وقالت: "أشرب! وناولتني الإناء، أشرب! لعل ذلك يريحك،" وتمتمت وهي في هذا الوضع قولاً شائعاً في ديرتهم يقول "ود الغريب أهله" وهي تعني أما أن ود الغريب لأهله، أو أوصله إلى أهله.

قلت لمعتوق: "انهض وتعال معي لإرجاع العقيليين، لأنني منهك، ولا أستطيع بمفردي اللحاق بهم." فقال: "أنا آت ووالله سأنصفك معهم." وعندما قطعنا مسرعين ميلاً واحداً قلت له: "لا أستطيع السير أكثر من ذلك، يجب أن أجلس هنا، أذهب وهاتهم إن أردت." إن إنسانيتهم الفطرية عظيمة: فهذا الهتيمي، الذي كان هو نفسه واهنا، طلب مني أن استريح، وأنطلق مترنحاً بأسرع ما يمكنه منادياً لهما، وأومأ لرفيَقّي! وعادا إلينا ببطء فقلت: "يا معتوق، إن اليوم هو نهاية رحلتي معهما: فليعطني عياد توصية عنيبر بالعبور الآمن، ويعيد لي ثلاثة ريالات؛ ولا أريد أيضاً أن يكلمني أحد منهما لأنني رجل هدني الإعياء، فقد دفعتموني للانفعال." فقال معتوق (لعياد): "ماذا تقول في ذلك؟ يبدو أن رفيقك متعب بحيث يتعذر عليه المشي أكثر من ذلك، هل ستحمله على الذلول إذا ما رافقك؟" فقال عياد: "لن نحمله، فنحن أنفسنا لا نركبها إلا في بعض الاوقات؛ مع ذلك سأحمله -

فالمسافة نصف يوم إلى ضرغد ، وسأتركه هناك! " فرفضت ذلك . وقال معتوق : "حسناً، سيبقى معنا ، وسأرسل خليلاً إلى حرب[خلف] ابن ناحل مقابل نقوده . والآن أعد له ريالين من نقوده، والورقة التي حصل عليها من ابن رشيد، ما هذا يا رجل : إنها خاصة به . " فقال عياد : " لا أمانع في أن أعطي خليل الورقة ، بشرط أن يكتب على مخالصة يمكنها أن تبرئني أمام الباشا ، ولكني لن أعيد ريالاً واحداً من الفضة ، لقد صرفتها ، ماذا ، أيها الرجل! أتريد أن تأخذ ملابسي؟ " فقال معتوق : "لن نتركك تغادر هكذا! أعط خليل ريالاً واحداً، وهات ورقة عنيبر . " فرد عياد : "حسناً، لقد قبلت : " وأخرج "كرون " وقال : "هذا كل ما بقي لدي ، و على خليل أن يعطيني أربعة دراهم "بنسات " ، لأن الكرون يساوي أكثر من مجيدي . " — فقلت : "ربما اعتقدتم بأنكم تخلصتم بصورة حسنة بأربعة دراهم ، هي من حقي : خذ تلك الفضة يا معتوق ، عربون الريالات الثلاثة مقابل توصيلي كما قلت إلى قبيلة حرب . " فاستلمها ، غير أن الحقير قليل الثقة طلب أن أعطيه في الحال الريالين الآخرين . واستعدت توصية العبور الآمن التي كتبها عنيبر ، وهي تساوي الكثير من أجل سلامتي في الصحراء الموحشة . أصر عياد على تسلم مخالصة مكتوبة مني فكتبت : "إن عياد ، العقيلي ، من البجايدة ،من بشر ، التزم مقابل خمسة ريالات استلمها من عبد الله السروان ، قائم مقام خيبر ، أن يوصلني إلى حائل ، والتزم هناك مع عنيبر ، نائب ابن رشيد ، بحملي ثانية والعودة بي إلى خيبر ، مقابل خمسة ريالات أخرى ، وهو الآن يتركني غدراً عند موقع أول ، تحت جبل الصفا ، في ديرة شمر . " أخذ العقيليان الختم من يدي وختما به عشرين مرة لنفسيهما زيادة بالإثبات : ثم بعد ذلك أجبرهما معتوق على العودة بحقائبي إلى المخيم . وهكذا غادر عياد

ومرجان؛ ومع ذلك لم يغادرا دون صرخات من رجال المخيم توبيخهم على عدم الوفاء مع الرفيق. يملأ قلوب هؤلاء الهتمان تعصب يخلو من الكياسة البدوية: لقد باعني معتوق مقابل القليل من التبغ. فهو بعد ساعة أو ساعتين من تعطير مخه بالمخدر الفواح قال لي: "يا خليل، دخيلك، أليس معك شيء منه، أتوسل إليك قليلاً من الدخان؟ آه! لا تقل أن ما معك شيء، أعطني ولو قليلاً، وسأعيد لك تلك الريالات الثلاثة، وسأحملك فوق ذلولي إلى ابن ناحل." فأجبته قائلاً: "ليس لدي دخان، ولو قطعت رأسي!" فقال: "يا خليل، املأ غليوني مرة واحدة وسأسمح لك كل شيء!" لوكنت اشتريت بعض التبغ من حائل لساعدني كثيراً.

كان في هذا المخيم بيت لأحد الأشخاص من قبيلة عنزة وثلاثة بيوت أخرى لأفراد من قبيلة حرب يعيشون مع هذا الفريق الهتيمي. وقد سألني بعض من هؤلاء الغرباء بعد الظهر عن اسم قبيلة رفيـقّي اللذين تركاني. فأجبتهم قائلاً: "واحد عواجي والاخر بجيدي، وهما من بشر." فقالوا: "لو قلت لنا ذلك من قبل لما رحلوا هكذا! ولكُنا سلبنا ذلولهم، لأنهم قوم، (أعداء) ولم يحصل بيننا عيش وملح." وقال أحدهم: "عندما كانا يتحدثان ضننت أن كلام أصغرهما يشي بذلك، أي بالله كان بجيدي." فقلت: يمكنكم اللحاق بهما. "فقالوا: "من أي طريق سيتجهون؟" فقلت: "إلى بيضاء نثيل، ومن هناك سيعبرون إلى جماعة العواجي." كان عياد مكلفاً من خيبر بإحضار ذلولي عبدالله السروان وعقيلي آخر المودعة عندهم. (مع أن أولئك البدو كانوا أعداءً للدولة، إلا أن العقيلات يضعون إبلهم بصفة شخصية معهم للمرعى مع إبلهم.) في ذلك الجزء من القفار نما (هذه السنة) ربيع كثير، بعد الأمطار الخريفية، "وبذلك فإن الجمال يمكنها أن

تشبع وتبرك لترتاح عند الظهيرة. " (وقال أحدهم للآخر): "وكيف الأمر الآن؟ هل سترافقني إذا ما وردت الإبل هذا المساء؟ هل نأخذ رواحلنا ونركب خلفهم: سيسيرون ببطء مع ناقتهم الجرباء، وإن شاء الله، يمكننا اللحاق بهم، وقطع حلوقهم. " فقلت: "انظروا، لقد أخبرتكم عن طريقهم، اذهبوا وخذوا الذلول إن استطعتم، ولكن لا تؤذياهما. " بقيت أفكر في خروج هولاء خلفهم حتى حلول الليل: ولكن الإبل لم تأت.

لم يكن لديهم أخبار حديثة عن أعراب ابن ناحل. و تحدثوا كثيراً على مسامعي عن ابن ناحل: وقد ذكرت الحريم بأنه أطيب من في المضارب قلباً وبأن "بيته كبير، كبير جداً! وبأنه ثري، ثري جداً! أوف! وكل شيء متوفر عنده: وعندما تأتي إلى خيمته قل أرسلني يا ابن ناحل إلى القصيم، وسيرسلك. "

كان كل من معتوق وأخوه ذو العين الشريرة وسيمين، كما أن أختهم وهي تعيش في بيت معتوق، كانت من أجمل ما جادت به الطبيعة ؛ فقط اللون لم يكن شديد البياض. لقد كانت تتبختر بثياب أنيقة، ولا يمكن أن يخفي جمالها منديل الوجه المثير: ومع أنها في ريعان سنين انوثتها إلا أنها لم تتزوج بعد! وكلما تبدت يسحب الشاب العنزي الشمالي الغبي الذي يجلس طوال اليوم في بيت الشيخ، أنفاساً طويلة، كما لو أنها حورية على مرأى منا؛ وعندها كان يشدني من طرف عباءتي سائلاً: "هل رأيت مثلها من قبل! " . . . . .

كان موجوداً ضمن هذه الجماعة هتيمياً كان عائداً من غياب: وقد تساءلت أين كان غائباً ؟-فكان جوابه: " واللّه في الحايط التي لا تبعد سوى مسيرة يوم طويل فوق الذلول، وقد تزوجت هناك زوجة سوداء. " ـــ

" ولماذا؟ " ـ " والله رغبت فيها. "ـ" وماذا كان مهر العروس؟ "ـ "لم أصرف أي شيء. " ـ" أو أنها أعطتك شيء؟ " ـ "أي بالله! بعض النخيل. "ـ " دفعت لك! "ـ" حسناً، ولم لا؟ "ـ" ألن يكون أطفالك سوداً مثل العبيد؟ " ـ " إنها بين اللون الأسود والأحمر، وسيميل لون أطفالها إلى الحمرة. "ـ " وماذا ستفعل الآن بزوجتك القروية؟ "ـ" أيه! سأزورها من وقت لآخر: وعندما أذهب إلى هناك أكون في بيتي. " وأضاف البدوي متوسط الذكاء قائلاً: "اقرأ، يا خليل، هل هذا الذي فعلته حلالاً أم حراماً؟ " (تقع قرية الحايط المأهولة بالسود على الحدود الجنوبية الشمالية لحرة لخيبر؛ ورحلة من هناك تجاه المدينة توصل إلى قرية الحويط ذات النخيل. وقد كان يملك أراضي هاتين القريتين بدو عنزة إلا أن عُبَيداً ابن رشيد طردهم لأنهم لم يكيفوا أنفسهم مع إدارة الأمير، إذ استقبلوا جيرانهم من قبيلة عتيبة، الذين كانوا أعداءه، كدخلاء لهم، وكانوا يحمونهم ضده).

كانت الإبل في العزاب (العزاب هو وجود الإبل في المرعى بعيداً عن المضارب)، وكانت ذلول معتوق معها؛ وعليه فلن نتمكن من الخروج إلى ابن ناحل حتى تعود إلى المضارب. مر في صباح أحد الأيام بعض الصلب فوق حميرهم؛ فقام أهل الحي بإعطائهم دلالاً وأباريق (وهي عادة مصنوعة من النحاس)، ليحملوها معهم من أجل قصدرتها(طلائها بالقصدير). ووجدت شابين من الصلب يخصون حماراً خلف الخيام! وقال الصلبيان وهما يضحكان بأن هذا الحيوان كان حماراً أكثر من اللازم، وقد جعلوه عفيفاً! ووجدت شيخاً من الصلب يجلس في خيمة معتوق، رجلاً قوياً بلحية شيباء؛ وقد سلط عينيه الصغيرتين الشريرتين عليّ. فقلت له: "ماذا تريد؟ " فقال: "كنت أفكر، لو قابلتك لوحدك في الخلاء لقتلتك. " فقلت: "ولماذا، أيها

الصفاح (العامل في صناعة الصفيح) العجوز؟" فقال: "من أجل ملابسك، وأي أشياء صغيرة يمكن أن تكون معك، أيها النصراني لو قابلك الذئب في القفار، ألن تخاف؟" فقلت له: "إن الصلبة لا يؤذون احد، ولا أحد يؤذيهم." وسألت هؤلاء: "هل صحيح أنكم تأكلون الميتة من الأغنام والإبل؟" فأجابوا بالقول: "نعم نأكلها، وإلا كيف بنا، ونحن لا نملك الماشية، أكل اللحم في مضاربنا! واللّه، يا خليل، هل هذا حلال أم حرام؟"

قال معتوق بعد يوم أو يومين من تردده في الذهاب إلى ابن ناحل: "هل أحملك إلى الحايط؟ أو لعلي أتركك في سميراء أو في السليمي." غير أنني أجبته بالقول: "إلى ابن ناحل؛" وقد كانت زوجته الطيبة نوير، وهي امرأة مسكينة، تتحدث كل يوم، وهي تنظر من فوق ستار شق بيتها، لمصلحتي وتقول: "أوه! أنت منت طيب يا معتوق، يا معتوق! لماذا تعوق خليل؟ أوف بوعلك، وود الغريب بلده (وهذه العبارة لازمة ترددها البدويات ومعناها: وصل الغريب إلى أهله، أو أنها: إن رغبة الغريب في بلده وليس في بلد غريب.) وتجاوبها الحريم الطيبات، جاراتها، بكلمات الزيف في الجزيرة العربية المتعصبة، عندنا دين وعندهم دين؛ ونوير من النساء الطيبات اللائي يجلبن البركة للبيوت. لقد رأيت وجهها الشاحب عدة مرات، دون حجاب؛ ومع أنها ليست في صحة ممتازة إلا أنها كانت يومياً تذهب الى الخلاء، من الضحى حتى الظهيرة؛ وعندما سألتها من أجل ماذا ترهق نفسها هكذا؟ ردت متنهدة: "علّي أن أحضر الماء من الصفا اليوم، وغداً أتفقد الإبل، و إلا لضربني معتوق." كان كرم ضيافة معتوق معي أكثر من كرم أي بدوي رأيته: كانت نوير تقدم لي لبناً، طلبت مني أن أتناول من قطع المريس، الذي كان منشوراً للتجفيف في الشمس فوق سقف بيتهم، عندما أجوع. وإذا وردت

الإبل على المنزل يحلب لي معتوق ملء إناء كبير للغريب قائلاً، إنها صدقته لوجه الله. وفي هذه الأمسيات رأيت عددًا من الماعز تلهو وتنزلق وتقف، في معظم الأحيان اثنتان منها أو ثلاث منها سوية، فوق اسنمة الجمال العالية: ولا تبدي الإبل التي تبقى باركة تجتر وتمضغ ما في جوفها في مراحها تحت ضوء القمر، بهذه الحركات أي أهتمام أكثر مما تبديه الماشية في حقولنا من التفاتة عندما تحط الغربان أو الزرازير.

كان معتوق خائفاً من نقلي إلى مكان آخر خوفاً من ابن رشيد: وقد أخبروني حكاية غريبة. فقبل سنة أو سنتين حمل هؤلاء الهتمان على جمالهم بعض الغرباء، الذين يدعونهم "نصارى!" لا أعلم إلى أي مكان. وعندما سمع الأمير بذلك، لم يستطع أحد استعطافه إلا بشق الأنفس لكي لا يعاقبهم بقسوة، أو يصادر ماشيتهم. وأضافت نوير قائلة: "أيه، إن هذا حقيقي يا خليل!" فقلت: "ولكن أي نصارى! ومن أين؟" فقالت: "والله، لم يعرفوا، فالغرباء كانوا نصارى كما سمعوا." إن العرب متبلدو العقول بسبب فراغ حياة الصحراء، والانغلاق عن كل شيء لا يمت لحياتهم بصلة. فكلمة "نصارى" ربما لا تدل في أفواههم على أكثر من "المخالفين لهم في العقيدة." قال معتوق: "إن ابن رشيد ليس صديقاً لك، والبلد خطر: ابق معي، يا خليل، حتى موسم الحج ومن ثم عد ثانية إلى بلدك في الربيع القادم." - "كيف يمكنني أن أعيش هذه الأشهر الطويلة؟ هل يوجد طعام في الخلاء؟" - "يمكنك أن ترعى ابلي." - "ولكن كيف لي فعل ذلك تحت الشمس الحارقة، في موسم الصيف الطويل؟" - "عندما تشتد الحرارة يمكنك أن تجلس في بيتي وتشرب اللبن؛ وسأقدم لك زوجة." وعند سماعي كلماته، دخلني السرور لان ذلك يعني أن الأعراب لم يعودوا يحتقرونني،

يعاملونني مثل معاملتهم لبعض الأثرياء الغرباء بينهم! وعندما تلفظ بكلمة "زوجة" حبس الرجل المحترم أنفاسه! - هل يمكنه عرض بنت من هتيم على رجل بهذا البياض؟ ولذلك أضاف قائلاً: "سأزوجك حربية."

قال معتوق: "قبل سنوات أتى إلى مناطقنا مغربي (مثل خليل)، ووالله لم يخبرنا إلا القليل عن نفسه؛ ولكن الرجل باع واشترى، وخلال فترة وجيزة رأيناه ينتعش. وعاش مع حرب، وتزوج واحدة من بناتهم: وامتلك المغربي قطعان أغنام وإبلاً، توالدت في البداية وزادت من تجارته في السمن والملابس. والآن هو متوفى، ويعيش أبناؤه مع حرب، وهم بحالة طيبة."

جلسنا في الخيمة وسألوني عن الشعب الذي انتمي إليه؟ فأشرت إلى الشمس الآخذة في الغروب وقلت يمكننا الإبحار إلى هناك على سفننا. فقال بعضهم للبعض الآخر: "إن السفن زينات (كلمة غير واضحة المعنى في أفواه المتحدثين من هتيم)، ولكن أوه، يا خليل، إن (بلادكم) هناك، في الغرب، لقد سمعنا بأن هناك أمة كافرة! وأنه من هناك سيأتي الخطر الأعظم على الإسلام: خلف كم من البحار تسكنون، سمعنا أنها سبعة: وكم من رحلة على ذلول تبعدون وراء السلطان؟" قليل ما ترى القهوة عند هتيم، على الرغم من أنهم أفضل أحوالاً معيشية من البدو المجاورين لهم، ولا حتى في بيوت شيوخهم: كان لا يوجد أي قهوة في جماعة معتوق. يخضع هولاء الأعراب إلى ابن رشيد، وأعداؤهم الوحيدون هم عتيبة: ويشير معتوق تجاه الشرق ويقول: "كل الخطر يأتي من هناك!" ولا يصنع هؤلاء الهتمان (عكس أقربائهم القاطنين قرب المدينة) الجبن.

إن الرجل الذي يستطيع حمل ممتلكاته الدنيوية كافةً فوق أحد كتفيه رجل حر: والآن تخلصت سراً من حمل كتبي الزائدة قبل المحاولة الأخيرة للخروج

من جزيرة العرب، واحتفظت فقط بكتابين، كتاب: "جغرافية الجزيرة العربية Die alte Geographie Arabiens "، وكتاب البرخت زيمة: " الجزيرة العربية في مئة عام Arabien seit hundert Jahren "، وأوعت البقية باحترام في شق ثوب وأودعتها جحر ضب غطيته بالرمل ووضعت حجراً كبير فوقه. وربما في هذا الجيل أو جيل آخر يكشف جمل يتمرغ أو مطر جارف من أمطار الشتاء لهم ذلك العمل الشرير الذي قام به النصراني. مضت ستة أيام على هذا المخيم في موقع أول، وفي الغد سيرحلون؛ والآن قد قبل معتوق حمل الغريب إلى ابن ناحل؛ لأن نوير ظلت تلح عليه كل يوم قائلة: "إيه، يا معتوق! لا تؤخر خليل عما يريد: ود الغريب لأهله."

لقد عادت إبلهم؛ وعندما شق الصباح، قال معتوق، "هل انت جاهز، أنا سأحضر الذلول: وأقول لك بصدق إنني لا أعرف أين المكان الذي قد يكون نازلاً فيه ابن ناحل." وضعت نوير عكة سمن صغيرة في خرج زوجها وقالت إنها للغريب. امتطينا ذلولنا، ثم لحق بنا الخبيث شقيق معتوق؛ وهمس في اذن اخيه اخر توصياته، التي بكل تاكيد ليست في مصلحة النصراني: كان معتوق يجيبه "إيه! إيه!" كان سفرنا فوق حر، أو جمل حمل (قليلاً ما يستخدم في هذه الديار)، خشن المركب إلى حد ما. كانت الشمس على ارتفاع ساعة من شروقها عندما انطلقنا في مسيرنا؛ واصلنا السفر في الصحراء بإتجاه جبل الصفا. وبعد ساعتين من المسير شاهدنا مخيماً أخر من مخيمات هتيم الشيخ ابن داموك، وكانت إبله ترعى في السهل. نادى معتوق على الرعاة ليسألهم عن الأخبار؛ لكنهم لم يكونوا قد سمعوا أية أخبار جديدة عن ابن ناحل.

كانت القفار خلفنا ممحلة تقريباً: سرنا بمحاذاة صفوف من الصخور البركانية المنتظمة وكأنها أساسات لأبنية، اتجاهها الجنوب الشرقي، كما لو أنها

تتجه صوب مكة: ويمكن عدّها أماكن عبادة: غير أن معتوق أجاب بالقول: "إن هذه الأعمال شيدها القدماء في هذه الديار، وهم بنو تعمر." رأينا جحر ضب كبير جداً، فترجل رفيقي ليتبين ما إذا كان المخلوق البشع الذي يأكلونه في جحره: كان يغني مبتهجاً فأفزع بصوته رعية من الغزلان، ففرت الغزلان الجميلة بسهولة أمامنا؛ بعد ذلك ضج بصراخه مثل الرجل المتوحش، فصممت على الفرار بأقصى سرعتها. توقفت الغزلان الفارة قريباً في سهل صحراوي حصبائي، وحدقت للخلف مثل فتيات مخلوعات الفؤاد، لمعرفة ما أخافها. في سورية رأيت أفراساً يقال بأنها "تسبق الغزلان؛" ولكن ما أذا كان هذا الكلام من قبيل المبالغة المعتادة للتصوير في كلامهم الشرقي، الذي نسميه كذبًا، لم اتأكد بعد. يصطاد البدو الخشوف (صغار الظبا) بواسطة كلابهم السريعة جداً، والتي رأيتها تصطاد الأرنب البري الصغير في دقيقة تقريباً. سألت معتوق، أين بندقيته؟" فأجاب بأنه فقدها في غزوة مع عتيبة، كان ذلك قبل سنة؛ والآن يسافر وليس معه سوى سيف قصير، استخدمه أخوه في أحد المرات لتهديد النصراني. كان معتوق يهيجن بطريقة . . . (شبهها أحد شعرائهم القدماء، عنترة، بطنين النحل!) ونحن نعبر الصحراء خببا، وكان صوته يرتعش (إي، إي، إي) مع رجرجة شداد الذلول. وأخبرني معتوق (بزهو الشيوخ) بأن أصحاب البيوت البدوية من غير قبيلته ويقيمون مع فريقه يجاورون عنده منذ سنوات عدة. وبأنه في منتصف فصل الصيف تتجمع كل الجماعات التابعة لهتيم ابن براك(تحت إمرة الشيخ قاسم ابن براك) وتنصب بيوتها سوياً بالقرب من وادي الرمة "حيث يمكن للمرء أن يجد الماء، تحت الرمل بعمق عصا البعير." وكما رأينا فإن انتشار هتيم واسع النطاق: وهناك بعض منهم من بني رشيد في أقصى الشمال بالقرب من

الكويت!

ظهر أمامنا جبل جرانيتي شاهق اسمه قنا؛ وكان بعيداً عن يسارنا مورد ماء بنانه، الكائن بين جبال. وصلنا قبل منتصف الظهر إلى رعية كبيرة من إبل هتيم: لكن هذا الموضع هو أسوأ منطقة رعي (باستثناء سيناء) رأيتها في الصحراء؛ لأنه لا يوجد فيه إلا نبت الحنظل. حلب لنا الرعاة نياقهم؛ ولكن الحليب برغوته كان لاذعاً بمرارته (هكذا هو طعم حليب الأغنام في هذا المرعى). سألنا الرعاة بطريقتهم المتسرعة قائلين: "الأخبار؟ ويش علومكم؟" فأجبنا: "تسر الله." فسألوا مرة أخرى: "والأعراب الفلانيون والفلانيون، خلفكم وبجواركم، أين هم الآن؟ وأين يخيم الشيخ الفلاني، وماهو مورد الماء الذي يشربون منه؟ هل هناك كلام أو غزو؟ وماذا عن البلاد التي مررتم بها؟ هل قحط، أم ربيع؟ وما نوع العشب الذي رأيتماه فيها، إيه يا معتوق؟ وماذا يقولون عن الأمير، وأين تركتما بيوتكم؟ أوه! وماذا عن مراعي الجماعات والأعراب الذين ذكرتم؟" فقال معتوق: "وما الأخبار التي عندكم لنا، ومن من الأعراب وراءكم؟ وهل من أخبار عن أي غزو؟ وأين ابن ناحل؟ وأين مضاربكم؟"

بعد ساعة أو ساعتين وجدنا رعية أخرى من إبل هتيم: وكان يرعاها صبيان فقط! قام معتوق بإشارة وشد لحيته عندما ركبنا من عندهم؛ وقال: "والله لو كانت إبل أعدائنا لأخذناها!" تظل أرجاء هذه البلاد كافةً مكشوفة لغزوات عتيبة، الذين يسكنون خلف وادي الرمة. ولم نمض الكثير حتى أتينا على منزل من منازل هتيم، فأنخنا لنقضي بقية ذلك اليوم. كان سكان هذه البيوت يعرفونني وقالوا لمعتوق، بأنني سبق وأن سافرت مع رجل من قبيلتهم اسمه غصيب، وأن اسمي خليل؛ وأن أعراب قاسم ابن براك اشتروا أدوية مني،

وقد وجدوها مثل ما وصفتها لهم: وأنني من الذين لم يغشوا الأعراب؛ وحول ابن ناحل فقد سمعوا بأنه تخطى "الوادي" إلى تخوم مناطق عتيبة (كانوا قد هجروها في السنوات الأخيرة خوفاً من ابن رشيد). كان ارتفاع الأرض في هذا المكان يصل ٤٧٠٠ قدم، وتنحدر نحو وادي الرمة.

رحلنا عند شروق الصباح، ووصلنا بعد ساعة من المسير إلى مخيم آخر من مخيمات هتيم. كانت كل القفار قاحلة، تقريباً ممحلة، ورغم ذلك فهي ممتلئة بتجمعات بدوية صغيرة في هذا الفصل. وجد معتوق أخًا غير شقيق له في هذا المخيم، مع والدتهما العجوز؛ وترجلنا للجلوس هنيهة معهم. وأحضر الرجل حليب معز طازج وطلب مني أن أشرب، وقد شربت منه الكثير، لأن ضيافته بكاملها اقتصرت على الحليب؛ وقال بأن السمن لم يشتره أحد. ويعد السمن نقود البدو الفقراء، حيث يقايضون به لأنفسهم الملابس وحاجياتهم من القرى؛ ولذلك فقد تعودوا على تقديم اللبن للضيف فقط. سرنا متقدمين؛ و الآن أصبحت الصحراء (الجرانيتية) رملية، فيها تنمو أفضل المراعي البرية بعد أمطار الشتاء، وبدأنا نجد العشب الجيد. ولمحنا رعية إبل ترعى تحت جبل قنا، وعبرنا نحوها لتسقط أخبار الرعاة؛ ولكن معتوقاً، الذي كان فزعاً، توقف؛ لأنه غير متيقن من هويتهم فقلت: "هناك، إبل سوداء فقط، إنهم من حرب!" (تتميز قطعان قبائل الجنوب والوسط وهم من حرب، ومطير وعتيبة، في العموم بألوانها الداكنة أو السوداء، ولا يوجد بينها الكميت). فأجاب معتوق بأنها الحقيقة بعينها وتعجب من أين لي بهذه المعرفة الخاصة بالصحراء. تقدمنا إلى هناك ووجدناهم بالفعل من حرب. وأخبرنا الشباب بأن ابن ناحل نزل بالقرب من السليمي هذا اليوم؛ وحلبوا لنا. غادرناهم، ومن ثم رأينا رؤوس أشجار النخيل لقرية صحراوية وعبرنا

من جانب جبل كباد ذي الصخر البركاني.

ظهر أمامنا، في سهل رملي منحدر جبل مسطح يسمونه دبي؛ وبدت من خلفه سفوح زرقاء لبعض الجبال العريضة، جبال العلم. وقال معتوق: "هناك يقع الطريق إلى المدينة[المنورة]، التي تبعد من هنا مسيرة أربعة أيام على ذلول." واصلنا مسيرتنا في حر الظهيرة؛ ورأينا رعية إبل أخرى ترعى تحت الجبل؛ اتجهنا نحوها وترجلنا لشرب الحليب وسؤال الرعاة عن الأخبار. وكانوا أيضاً من حرب، وأشاروا إلى ممر صخري في الجبل يوصل إلى ابن ناحل. ولكني سمعت منهم نبأً غير مؤات: وهو أن بني علي (أي كافة قبيلة حرب الموجودين من الشمال والشرق من هنا) كانوا ينسحبون تجاه الجنوب، وهجروا المنطقة خشية غزوة لابن سعود وعتيبة! فكيف بي الآن أن أمضي قدماً إلى القصيم؟ ورأينا مخيماً كبيراً من بيوت الوبر الأسود تحت جبل دبي؛ وعندما سألنا عنهم قال الرعاة بأنهم العوف، - أتوا إلى هنا هاربين من القحط الدائم في مناطقهم الحجازية، بين مكة والمدينة؛ لأنهم سمعوا بأن الربيع متوافر في هذه المناطق. إن اسم العوف كما رأينا، اسم مرعب حتى بين إخوانهم؛ لخروج قطاع الطرق وسارقي الحجاج منهم. لذلك يقول أحد الأف أمثالهم "العوف ما وراهم شوف." حقاً لقد شهدت عالماً صحراوياً جديداً ومخيفاً! جمالهم سوداء، وجبال موحشة غير مألوفة، وصحراؤهم رملية واسعة تنحدر إلى وجهة مدينة [الرسول ﷺ]. . . .

يعدّ جبل قنا أحد المعالم الأرضية للرعاة البدو؛ ففي قمته توجد برك تختزن مياه الأمطار. واجهنا ونحن ننحدر في طريق السهب رجلاً صحراويًا هزيلاً راكباً ذلولاً طويلة ويقود فرسًا: وكان يحمل فوق كتفه شلفا (نوعاً من الرماح) فارس متمايلة. انكمش معتوق فزعاً فوق الشداد؛ لأن ذلك الرجل

المسلح شبيه السحرة شبح مفزع، وقد يكون عوفيًا. أعترضنا هذا الرجل بفظاظة، وكانت ترددات صدى صوته تنتشر في المدى بقوة شديدة: وبدا أنه روح رجل أضاع كل شيء في الحجاز ولم يبق منه سوى صوته المروع! كان وجهه الداكن قاسيًا بشكل عجيب وجبينه بارزًا. لقد رأى أن حقائبي قد تكون غنيمة سيما انه رأى رحلاً غريباً فصاح قائلاً: "أخبرني، من تكون؟" فأجاب معتوق بخوف: "أنا هتيمي، وأنت؟" فرد قائلاً: "أنا حربي، وآخ! صاح الهيكل العظمي الخطر، ومن الذي معك؟" فرد معتوق قائلاً: "شامي يتاجر بين الأعراب." فقال: "نعم، حسناً، وأنا أراه شامياً من خلال ملابسه." سحب فرسه إليه، وعند ذاك وضعت يدي على مسدسي المخبأ في صدري، خشية أن يقوم هذا الموت الراكب فوق ذلوله، بتوجيه رمحه الطويلة إلينا. تنحى معتوق بالجمل جانباً؛ ولكن الحربي حث ناقته وسار في سبيله.

نظرنا من فوق جبل نحو سهل يشبه الوادي، ورأينا بيوت الأعراب. فقال معتوق: "يا خليل، إن الناس جهلة، ولن أقول لأي واحد منهم بأنك نصراني، ولا تقل أنت ذلك. وأنا والله، قد لا أذهب معك إلى مضارب ابن ناحل، ولكني سأوصلك إلى أعراب يخيمون معه." - فقلت: "ستحملني إلى ابن ناحل نفسه. أليست هذه القبائل صادقة الدين؟ لن أنزل في خيمة أخرى، ولن تتخلى عن رفيقك؟" فقال: "ولكن يا خليل هناك خلاف قديم بيننا حول إبل، وإذا ما ذهبت هناك فربما أخذ مني هذه الذلول." فقلت: "أعرف أنك تكذب." فرد: "لا، والذي خلق عصا الجمل هذه!" غير أن البدو يحلفون كذباً! وقد قال النجومي لي في خيبر: "إن خليل محظوظ لأنه لم يلتق بحرب؛ وإلا لكانوا قطعوا حلقه." وذكروا أن حرب المقيمة بين المدينتين المقدستين . . . . ليست لهم تجارة أفضل من الركض صارخين وراء

قوافل الحج مطالبين بالبخشيش!

هنا وصلت إلى حرب نجد، الخاضعين لابن رشيد؛ غير أنه لا يمكن لجاهل مثلي التحقق من الفروق بين حرب نجد وحرب الحجاز. لقد وجدت في حرب نجد العقلية العربية القديمة، أكثر مما وجدتها في قبيلة عنزة. فأفضل جندي عقيلي في خيبر كان شاباً من قبيلة حرب، وكان يتميز باللطف والشهامة مع ميل إلى الزهد في طباعه؛ فنادراً ما يشاهد في جلسات القهوة عند عبد الله السروان[قائم مقام خيبر]، ولكنه كان يأتي أحياناً إلى العم محمد النجومي، الذي تربطه به صلة قبلية (من جهة والدته)، وكان من عشيرة أخرى غير عشيرة والدة العم محمد. وفي أحد الأيام قال مفاخراً: "نحن بنو سالم أفضل منكم؛ لأنه ليس لدينا شيء إفرنجي (أدوات مستوردة من قبل الأتراك والحجاج الأجانب إلى الأماكن المقدسة)، سوى التبغ." وعندها توجه معتوق إلى ثلاثة أو أربعة بيوت، كانت منصوبة متفرقة في سهل الوادي؛ ترجل أمامها وقال بأنه سيتركني هناك. خرجت امرأة عجوز إلينا، حيث كنا نجلس فوق الرمل بجانب ذلولنا التي مازالت بثقلها، ومن ثم خرجت زوجة شابة من البيت المجاور لنا. لقد بدت ملابسها زاهية كثيراً مقارنة بالأعراب، بثوب أحمر جديد، مطرز بتطريزات زرقاء. أليست هذه عروس، في ثوب عرسها على أحد شباب البدو المحظوظين؟ تقدمت بسمو الصحراء وبعض النقاء الندي في خديها، الشيء الذي يندر أن يشاهد، قد يكون ذلك بسبب الحياء الودي. سألت المرأة الشابة على استحياء، ماذا نريد؟ فأجاب معتوق بنت حرب قائلاً: "سلام، وإذا كان عندكم مريض، فهذا حكيم من الشام، يسافر بين الأعراب بأدويته، وهو ماهر: والآن يبحث عمن يوصله إلى القصيم. سأترك هذا الشامي في بيتكم، لأنني لا أستطيع حمله

بنفسي أبعد من هذا؛ وسترسلونه أنتم إلى هناك. " فدعت المرأة الكبيرة للمشاورة؛ وأجابتا قائلتين: " مثل ما تشوف! الرجال في الخلاء، ونحن نساء لوحدنا. كان من الأفضل أن تذهب به إلى ابن ناحل! انظر فهناك بيته الكبير منصوب في الخلف! " فقال معتوق: "سأتركه هنا، وعندما يأتون رجالكم (في المساء) يمكن أن ينظروا في الأمر. "ولكني أجبرته على أن يركب معي للتوجه إلى ابن ناحل.

نزلنا عند البيت الكبير لأبن ناحل؛ ودخلنا بوقار الضيوف الغرباء. كان ولد ابن ناحل ومعه بعض الشباب يجلسون فوق الرمل في الشق الواسع من بيت الشعر الكبير هذا. وعندما جلسنا تهامسوا فيما بينهم بأنني أحد الجنود الهاربين من الدولة (من المدينتين المقدستين أو اليمن): ثم سمعتهم يهمسون، لا، إنه ذلك النصراني! - لا يستطيعون سؤالنا حتى نشرب القهوة.

وقفت امرأة بدوية ذات قوام مروع، خارج البيت الكبير لأبن ناحل، توبخ بشدة الشباب! وتلفظت بكلمات حادة لم يعرها أي رجل منهم أي اهتمام. لقد كان يثقلها تراجع قيم الكرم هذه الأيام! كان ابن ناحل(وهو روح هزيلة تحت جلد صقيل) موجوداً في بيت شعر أخر بعيداً عن هدير صوت الزوجة المسترجلة. يتحمل البدو في عمومهم بصبر الغضب الآدمي، أو ما يسمونه زعل، كما لو أنه قدر اللّه: وهم بسطاء حتى في حنقهم، وهناك القليل من المعنى في كلماتهم الغاضبة. وإذا قام أي من رجال القبيلة بسّب شيخه، فإنه، كنبيل، سيهز كتفيه ويمضي لحال سبيله، أو يبقى صامتاً حتى يقوم آخرون بإخراس الفم المؤذي. ولكن ذوي الألسن الشريرة، في القرى والبلدان، لا يستطيعون التصرف هكذا على ما يحبون: فالذي يسب الشيوخ في حائل أو في بريدة من العامة يضربه رجال الأمير.

دوى رنين هاون القهوة للضيوف في بيت ابن ناحل: والآن رأيت الرجل الكبير وأصحابه الذين كانوا يشربون معه القهوة قادمين بتلك المشية المتمايلة بسبب لباسهم الطويل وأجسادهم الواهنة. إنهم سادة قهوة، ورجال الفراغ في حياة الصحراء؛ وكذلك بدت ملابس رجال قبيلة حرب أنيقة أكثر مما هي بين البدو الأخرين. حيانا خلف بن ناحل نحن الغرباء بابتسامته العذبة، وبتكلف حذر يتميز به سياسيو هذه النوعية من المجالس، وصوت عميق رنان منتم للصحراء القاحلة، ومد يداً بدت متشامخة بعض الشيء: وجلسنا جميعًا لشرب قهوته، - ولم يكن ذلك بالأمر الحسن. همس خلف لابنه قائلاً: "من يكون، جندي؟" انتظر الشاب وهو يبتسم لعل أحدًا يتحدث: لذلك قال أحد الشباب الجالسين: "يجب أن نتعرف عليك." وقال الابن: "ألست النصراني الذي أتى في العام الماضي إلى حائل؟" فقلت: "أنا هو." فقال: "كنت في حائل بعد رحيلك بقليل، وسمعت عنك هناك؛ وعندما دخلت عرفتك بالوصف." ثم تحدث خلف دون مشاعر تاثر قائلاً بأنه: "سبق لي وأن زرت النصارى عندما كنت أتاجر بالجمال مع مصر؛ وهم رجال ذوو استقامة رائعة. والله، إن واحدًا منهم أخطأ في حسابه فسار نصف يوم ليلحق بي لإعادة زيادة استلمها مقدارها خمسة بنسات؛" وأضاف قائلاً: "إن خليل يسافر بين الأعراب! حسناً، أقول، ولم لا؟ إنه يحمل أدوية، وهم (النصارى) لديهم علاجات جيدة، وقد زار أبو فارس قبله الأعراب، ووالله إن الأمراء في حائل يريدون هذا الخليل؟ والشيء الوحيد الذي لا أحبه عندهم هو جلوس الرجال والحريم معاً حتى أن ركبهم تلتصق ببعضها؟"

هنا وصل شابان يتحدثان بأسم قرويي بلدة السليمي، على الرغم من أنهما كما بدا بدويان. شكيا من الضرر الذي تسبب به خلف لهم ذلك اليوم بأرساله

إبله للرعي في مرعاهم المحمي؛ وهددا بأنهما سيركبان ويتجهان إلى حائل لتقديم شكوى ضده عند الأمير! دعاهما ابن خلف في الحال للأكل في الشق الداخلي وسط بيت الشعر الكبير والطويل جداً (مثله لم أشاهد من قبل): لا تلائم الوجبات المخبّأة وسط البيوت أعراب نجد، ولكن لها نكهتها في القرى والمدن. أجاب الشابان باستياء بأنهما ليسا جائعين، وأنهما لم يأتيا هنا للأكل، وبأنهما هنا في بيتيهما. فقال خلف: "ولكن أدخلا وكلا، وبعد ذلك ستتحدث؟" فذهبا متمنعين، وعادا في الحال: وعندما رآهما مرة أخرى بدأ خلف، لأنه أخطأ في حقهم، بتوبيخهم قائلاً: - "ألم يتلق أهل السليمي الكثير من المنافع منا؟ ألم نشتر منكم التمر والحبوب؟ لماذا أنتم ناكرين للجميل؟ يلعن أبوهم، وابو الستة عشر كلباً." وقال آخر: "الله يلعنهم، وأباهم الاثني عشر كلباً." أشكال من اللعن ربما أكثر تحرراً من "الستين كلباً" الخاصة بالشتم العامي. كان هؤلاء شباب حرب الشهماء، الذين يحملون في بداوتهم صفات الحضر. وقال خلف مع القليل مما تبقى من المرارة لأرضائهم، بأنه سوف يرحل في الغد. والسليمي هي قرية شمرية صغيرة فيها اثنا عشر بيتاً وبها آبار عميقة.

عندما ذهب الشباب استعاد خلف هدوءه وأصغى لمشكلتنا. أخذ معتوق إلى خارج البيت وبدأ يهدد الهتيمي الجبان بغضب ابن رشيد، وسأله عن عبوري للبلاد، وحول مجيئي إلى مضاربه. توجهت لخلف وقلت له: "حسب ما يقوله كل الناس فإنك الوحيد الذي تستطيع إرسالي، إلى القصيم، فقد نزلت في بيتك، وتذوقت كرم ضيافتك، سأستريح هذا اليوم وغداً؛ ومن ثم دع أحد رجالك ممن تثق بهم يرافقني، مقابل أجر، إلى القصيم." كان صوته ناعماً، ولكن قلبه قاس و مملوء بالخداع السياسي فقال:

" ما أقدر، وكيف نرسلك للقصيم؟ من سيغامر بالذهاب إلى هناك؛ إن أهل عنيزة أعداء لنا. " - "يا خلف، لا تتظاهر، أنت تستطيع مساعدتي إذا أردت. "- "حسناً، أسمع، صر مسلماً، وسأرسلك لأي مكان تريد؛ قل لا إله إلاالله، وسوف أرسلك إلى القصيم مجاناً. "- "أتعد بذلك، أمام شهود؟ " - "وهل أنا رجل كاذب؟ " - " اسمعوا جميعكم: لا إله إلا الله! دعهم يقربون الذلول. " - "أيه! قل كذلك محمد رسول الله! " - "إنها ليست في اتفاقنا؛ الذلول يا خلف! ودعني أذهب. "- "لم أكن أعلم بأن النصارى يقولون ذلك؛ كان هدفي أن تصبح مسلماً. يا خليل يمكنك أن تجد بعض الجماميل (أصحاب الجمال) من أهل القصيم الذين يأتون قرب هذه الأماكن في هذا الفصل لبيع الملابس بين الأعراب. سمعت بالأمس عن أحدهم في هذه الأطراف (كان ذلك كذباً)، سيحملك وهو راجع معه بريالين. عندما تتعشى وتشرب حليب النياق المسائي أركب مع هذا الهتيمي! وسيوصلك إليه. " ولكني قرأت في نظراته بأنه غير صادق. تنحى جانباً بمعتوق ثانية، وتحدث معه طويلاً، وطلب منه بكلمات كأنها تهديد بأن يحملني عنه. وعندما تناولنا العشاء دعاني معتوق للركوب. فقلت لابن ناحل سأذهب لكن إذا ما تُركت في هذه القفار، أو لم أجد أحدًا يستقبلني ورجعت لك هل ستستقبلني عندها؟ فأجاب خلف بأنه سيفعل. مع بدء سدول ظلام الليل ركبنا من عنده؛ وأخذنا نبحث عن فريق لمحه معتوق عند مجيئنا من جبل قنا. وبعد ساعة قال معتوق: "هنا رمل، هل ننزل وننام؟ " - لأننا لم نر بعد نارهم - فقلت: "دعنا نمضِ قدماً؛ وإذا ما فشلنا بالعثور عليهم، أخبرني ماذا سيصير لي أيها الرفيق؟ " فقال: "يا خليل، لقد قلت، بأنني سأحملك وأرجع بك لتعيش معي في فريقي. " عند ذلك نبح كلب من

عمق الظلام في جانب الوادي: فاتجهنا نحوه، ووصلنا إلى ثلاثة بيوت شعر؛ وكـان هناك رعيـة إبل باركـة تجتر وتمضغ في سـلام الليل: كـانت نارهم قـد أطفـئت ويغطون في نومـهـم. نزلنا وأنزلناحـقـائبنا وعـقلنا الذلول. وكنت سأتقدم نحو البيوت، ولكن معتوق أمسك بي وقال هامساً: "لا، إن ذلك عـملاً غير طيب، دعنا ننزل هنا، ونعطيهم الوقت، وننظر إذا أتى أحد منهم لدعوتنا." بعد قليل تقدم رجل وقال وهو يسمع سلامنا: "آخ! لماذا لا تأتيان إلى البيت؟" هذا المحترم كان يحمل في يده رمح وفي الأخرى سيفاً ضخماً. وجدنا المضيف في الداخل جالساً ينفخ الجمر في الوجار؛ وقد وضع فوقها حطباً للإنارة لنا. أيقظ ربة البيت، وناولتنا من فوق ستارة البيت إناء من اللبن الحامض، الذي يصنعون منه مريسة حامضة. رشفنا شرابهم الليلي القليل، ليكون كل شيء بعد تذوق شرابهم أمناً وسلاماً؛ وعلى الرغم من ذلك جلس حامل الرمح والسيف ممسكاً بسلاحه بكلتا يديه، عابساً في وجهينا. وأخيراً: " والآن كـيف، أيهـا الصـديق! هل هذا يعني أنك تحـسـبنا لصـوصـاً، أنا ورفيقي؟" فأجاب قائلاً: "آخ! لا يستطيع المرء الاطمئنان، فالخطر دائم؟" فقال معتوق مداعباً: "لـديه سيف ولدينا آخر!" فأجاب المضيف وهو يبتسم، "إنه لا يتخلى عن حمل سيفه الضخم ورمحه مستيقظاً أونائماً!" فأدركنا بأن الرفيق المسكين ليس بفارس. وقلت لمضيفنا، "إنني حكيم من دمشق، وأريد الذهاب إلى القـصيم: سيتركني رفيقي هنا، فهل سترسلني أنت إلى هناك مقابل نقود، أربعة ريالات؟" فأجاب بلطف قائلاً: "سنرى غداً وأعتقد أنه يمكننا الاتفاق، سواء أوصلتك أنا أو وجدت لك رجلاً آخر؛ وفي الوقت نفسه، أمكث معنا يوماً أو يومين." . . . وعندما شق الصباح قال معتوق لهم: "إنني أتركه معكم، اهتموا به." وركب وانطلق من عندنا.

قال مطلق (هذا هو اسم مضيفنا) : "دعنا نمش إلى ابن ناحل، ونتبادل الرأي معه حول الكيفية التي يمكن بها إرسالك إلى القصيم، غير أن عقب رجلي متشقق ولا أستطيع السير بسهولة. "فربطت الجرح بمرهم وأعطيته جوربًا صغيرًا؛ فسحب البدوي حذاءً قديم كان قد اشتراه من المدينة. فمضينا نصف ميل عندها رأيت فارساً معه رمح طويل متجهاً نحونا: كان ذا مظهر شرس متعصب. لقد كان هو بعينه ولوحده من بين جميع الجالسين عند خلف، ضدي بالأمس. هذا الفارس هو طلق، الأخ الأكبر لمضيفي! وكان بيته الذي أمضينا به الليل! . . . صاح فارسنا محدقاً بي مثل المذعور قائلاً: "والآن كيف! " فأخبره أخوه عن الشامي الحكيم والهتيمي. فقال: "أخس! من أية طريق ذهب الهتيمي؟ " (وانطلق معدلاً من وضع رمحه الطويل) وقال: "سأعدو خلفه وأعيده، الله يلعن أبوه! و أنت الم تعرف أن هذا نصراني؟ " وقف مطلق دقيقة وهو مندهش! ومن ثم قال الرجل المسكين بنبل، "ولو، . . . ؟ إنه ضيفنا وغريب؛ وذلك الهتيمي هو الآن بعيد ولا يمكن اللحاق به. " فانطلق طلق؛ لقدكان سليطاً في البيت وفظاً، ولكن مطلق كان رجلاً لطيفاً. عبرنا مرعى من مراعي الربيع، وصاح مطلق لطفل كان يرعى أغنامهم غير بعيد، لكي يجري إلى البيت ويخبرهم بأن ينتقلوا إلى هنا، وعندما جرى الولد قليلاً ناداه وصرخ قائلاً، لا. لقد غير رأيه: لأنه لم يكن بذلك الاتزان الجيد، وهكذا تجد رجلاً من بين كل ثلاثة بهذه الصفة في الصحراء. رأيت ونحن نعبر تحت رأس من الأرض الجرانيتية بعض الأساسات الأرضية لبناء حجري على شكل غرفة دائرية تشبه تلك الموجود في الديار الغربية من الجزيرة العربية؛ افترضت أنها قبور.

لقد رحل خلف من منزله الأول منذ الأمس: ووجدناه عند الظهر في

البيت متمدداً فوق الرمل للنوم. عدّ عودتي ثانية أمراً غريباً، ولكن مطلق ، مضيفي دافع عني باحترام من كافة الوجوه. استيقظ الثعلب وقال بنظرات متسامحة: "أها! هذا خليل ثانية؛ كيف يا خليل تركك ذلك الهتيمي الملعون؟" وعندما سمع أن معتوق أخذ أجرة مني أضاف قائلاً: "لو عرفت ذلك لقطعت رأسه، وأخذت ذلوله؛ أوه! أنتم، أعملوا قهوة الظهر. " فأجاب ابنه قائلاً: "لقد أعددناها وشربناها. " فقال: "أعملوها ثانية، لا توفروا القهوة. " قبل عشرين يوماً تزوج خلف أحد بنات القرية، ودفع مهر العروس؛ وقد تهامس البدو بدعابة بأنها لا تزال بكراً. ومن أجل ذلك كان قلبه حزيناً، وقد استغل الابن المناسبة للسخرية من الهتيمي، لأنه رأى والده مرتاحًا من الحكيم . و في الأخير قال ابن ناحل بلطف: "بما أن خليل قد ترك في بيتك، أرسله يا مطلق إلى حيث يرغب. "

كان ابن ناحل، الذي يصح اسمه عليه، تاجراً بدوياً، قام بجمع ثروات كل الخلاء. وعلى الرغم أنه لم يولد في أسرة مشيخة، إلا أنه أصبح عن طريق تجارته في الإبل واحداً من أثرى الأثرياء بين أعراب الجنوب؛ وله وكلاء يتاجرون له، يبيعون القهوة والملابس بين الأعراب. وقد زادت إبله الكثيرة إلى الحد الذي لا يمكن رعيها إلا بقسمتها إلى رعيتين؛ ومع ذلك فابن ناحل كعربي جائر يجد دائماً بعض الحيلة لاقتطاع جزء من أجرة الرعاة الضئيلة. وهولم يكن مالك أغنام، رغم أن الماشية الصغيرة (التي تنتج السمن) أكثر ربحية للأسر البدوية الفقيرة؛ ولكنه يمتلك مخزوناً من السمن، الذي يحصل عليه بمقايضتة ببضائعه. و إضافة إلى ذلك يمتلك ما يبدو للأعراب ثروة كبيرة من الفضة، يخزنها في صندوقه. بدأ ابن ناحل مغامرته الأولى، قبل سنوات، مع قطيع جمال إلى مصر. عبر المغامر الحربي تلك المئات من الأميال

الصحراوية مصطحباً معه رفاق الطريق: كان رجال قبيلته يتوجهون بأنظارهم بصورة طبيعية تجاه مكة والمدينة، غير معتادين لرحلة إلى ذلك الجزء من العالم. وصل هناك بسلام وكانت أرباحه سبعين في المئة. وبعد سنوات (خُدع بشائعة) قام بمغامرة أخرى هناك؛ ولكنه وجد أن الجمال رخيصة، وكانت خسارته ثلاثين في المئة. لا يعرف خلف الحروف، فهو لا يحتاجها: وعندما وضعت في يده ورقة عنيبر قال مع آهات: "نحن البدو! لا نعرف القراءة." إن حياة خلف ليس بها الكثير من السلوى مقارنة بثروته المتراكمة، فالقليل يصرف لأبهاج الكثيرين معه. يسمي عرب نجد هذه الروح روح التجار. إنه اليوم شيخ الأعراب ظاهرياً، فهو ليس من بيت مشيخة . . . حيث إن عدداً كبيراً من بيوت الأعراب ترحل وتنزل معه. لقد كانوا جماعته أو فريقه؛ علاوة على ذلك فهو رجل ابن رشيد.

كان السمن رخيصاً في السنة الماضية، إذ كان الصاع يباع مقابل ريال في حائل؛ ولكن خلف لديه أنباء تفيد بأن نفس المقدار يباع الآن بريالين في جدة. وتعجبت ونحن جالسون عند وجار النار لسماع هؤلاء الأعراب يسألون بعضهم بعضاً قائلين: "كم تبعد جدة"، والبعض منهم لام نفسه لأنه لم يحج، وحتى أنهم سألوا: "أين تقع جدة؟" إن جدة، التي تبعد أكثر من ٤٠٠ ميل من هنا، بالنسبة لخلف وجمّالته البدو ليست سوى مسيرة اثنتي عشرة مرحلة على الجمال. وسوف يغادر خلف إلى هناك قريباً ومعه الكثير من أحمال السمن، ويكسب الفضة. يوجد في كل الأعراب روح المقايضة؛ ولكن القليلين منهم ممن يتمتع ببعد النظر وروح المغامرة التي يتمتع بهما خلف، وتكون لديهم القدرة على الدخول في مشاريع مشروعة. لقد فكرت أن أذهب معه لرؤية بلاد لا يعرف عنها الكثير؟ - ولكن لا، فبدلاً من ذلك

يجب أن أزور القصيم أرض النجديين النشطين. ربما قدرت أن كل ثروة خلف؛ إبله التي تبلغ ٣٠٠ رأس، و أمواله وموجودات منزله بحوالى ٢٠٠٠ جنيه إسترليني؛ وهذه ثروة كبيرة عند البدو الفقراء الموجودين في الصحراء! وبصفته بدوياً فإن خلف يقوم بشن الغزوات؛ وكان هو وجماعته على وشك أن يقوم بغزوة على عتيبة، في الأيام القلية التالية. يخرج هؤلاء البدو على الأقل مرة في السنة لسلب الإبل؛ ويحدث ذلك عندما يتجدد الدم في عروقهم في موسم الربيع، أو عند بداية الصيف. وسألتهم عما يحدث لو أصابت طلقة ابن ناحل، إلى أين ستذهب ثروته وبضائعه؟

لأحقاً سألت السؤال نفسه إلى صديق في عنيزة؛ فأجاب بحكاية أخرى - وقال: "كان يوجد شيخ ثري جداً من شيوخ عتيبة، نعرفه جميعاً؛ وكانت إبله تبلغ خمس مئة رأسًا، وماشيته الصغيرة لا تعد. وكان وقتها في بداية مشيبه، إلا أنه لم يستطع العيش بهدوء في بلاده، وظل يخرج في الغزوات ضد أعدائهم شمر. وفي الغزوة الأخيرة توغلوا في بلاد أعدائهم؛ وأخذوا غنيمة تافهة، فقفل الغزاة عائدين إلى بلادهم. ولكن فرسان شمر لحقوا بهم، لأن الغزاة كانوا يركبون الجمال، فحاصروا المغيرين، ولكونهم أعداءً حتى الموت، ،لم يتركوا منهم حياً!" - لقد رأيت الكثيرين من الفرسان في قبيلة حرب. فطلق ومطلق، رغم كونهما أرباب بيوت تعيسين، يمتلكان حصاناً ومهرة. وعندما أستغربت أن ظلوف حوافر مهرتهما طويلة: قال طلق بأنه لا يوجد بيطري في هذه الديار، ولكن عندما يعبر أحد الصلب فإنه يقوم بتقليمها. كانت طريقة كلام قبيلة حرب تشبه في أذني طريقة الكلام في مدينة عربية، كتلك التي كان يتحدث بها محمد النجومي في خيبر. لقد كانوا من أعراب المدينة.

على الرغـم من أن شائعة خـروج ابن سعـود في غزوة مع عتيبـة على كل لسـان، إلا أنهـا لـم تكن حقـيقـية! لـقد وجدت أن الأخبـار لا تصل بسرعة في جزيرة العرب، إلا في المناطق التي تمر بها طرق القوافل؛ وفي الموسم الذي لا تعبـر فـيـه القـوافل، ربما تضطر للانتظار شهـوراً طويلة لتسـمع أية أخبـار. ساهمت شائعة الغزوة بتأخير رحلتي: وقال مطلق: "عليك بالصبر حتى نسمع أخبارًا جـديدة، وعندها سـوف أركب معك بنفسي، ليس إلى عنيزة فهم أعداء لنا، وليس إلى بريدة، ولكن إلى صبيح بالقرب من النبهانية (تحت جبـال أبانات)؛ فـأولئك القـرويين طيـبـون وسيـرسلونك قـدمـا مع بعض الجمّالة." ولكن الأخوين تشوشا عندما بينت لهما خطل معلوماتهما حول المسافات. فكيف يمكن للغريب معرفة بلادهم!- وماذا يفعل فيها؟ وفي خلال رحلتي في جزيرة العرب لـم أدخل أية قرية برغبة مني، ولم أدخلها إلا بصحبة البـدو: لقـد سـمـعت بأن بعـضـاً من أهل السليـمي ذكـروا بأنهـم سيـقطعـون النصراني إرباً إذا ما غامر بنفسه بينهم. ومع ذلك فبين كلماتهم وأعمالهم بون شاسع.

كانت الضيافة عند هولاء الجماعة فقيرة لا تتعدى اللبن وكان قليلاً. وكم أكون سعيداً عندما ترد نياقهم إلى المضارب مساء اليوم الثاني لخروجها إلى المرعى، حيث أحـصل على قليل من الحليب الدافئ. كـان طلق، الفـارس المستهتـر، رجلاً متـعـصبـاً مـخادعـاً؛ أما مطلق فكان يتـصف ببعض النبل الصبياني: . . . . وكان هذا الحي البدوي الذي يقيم به ثلاثة أخوة خاليًا من سلام الله ونعمته ؛ فقد كانت أصواتهم المتنافرة والمتنازعة تتواصل من شروق الشـمس حتى تطلع النجوم فوق رؤوسنا. ومع أن صملانهم الآن تفيض بلبن الربيع، إلا أنها كانت في أيدي الحريم، اللاتي يقمن بطبخه كله من أجل صنع

المريسة، لبيعها لاحقاً في المدينة. إن بدو نجد العليا يحتقرون مثل هذه التجارة الحقيرة، وتحلل أصول الضيافة في مثل هذه الجماعة.

لأنني افتقدت التغذية كنت أقع مغشياً عليّ من الوهن طوال اليوم. وفي صباح أحد الأيام رأيت جماعة تنصب مخيماً جديداً فوق جانب الوادي، المقابل لنا؛ وعندما وجدت أن لا أحد يراقبني ،ذهبت هناك بحجة بيع أدوية. كان هناك رجال قلائل يجلسون في البيت، وناقشوني حول اسمي النصراني؛ وطلبت المرأة معرفة أنواع أدويتي، ولكن لأن أحدًا لم يسكب لي ولو القليل من اللبن تركتهم. تخيلت أنني رأيت بيوت شعر أخرى منصوبة في الخلف: فمشيت إليها مسافة ميل واحد فتبين لي أنها ليست سوى أجام. ومع ذلك ورغم كوني بعيدًا عن أنظار الأصدقاء وغير مسلح، مضيت قدماً، على أمل أن أجد بعض بيوت الأعراب. لمحت بقعة سوداء تتحرك بعيداً عني في السهل المرتفع، فاعتقدت بأنها ربما كانت قطيعًا من الماعز: وعزمت أن أذهب إليها لشرب الحليب. عبرت نحو ظل شجرة طلح؛ لأن الأرض أحرقت باطن قدمي الحافيتين من شدة الحرارة؛ وعندما استدرت رأيت بدوياً فارع الطول فوق راحلته الضعيفة يخرج من شق أرضي ويمر من جانبي، ولكنه لم يتبين الغريب: تقدمت ميلاً أو ميلين، حتى وصلت إلى قطيع الماعز. وجدت امرأة شابة معها طفل يرعيان القطيع. فقلت سلام! وسألت عما إذا كان باستطاعتها أن تخبرني عن الناس الفلانيين وأين نصبوا بيوتهم، فأجابت مع قليل من الخوف، ما اسمهم؟ ولم تكن تعرفهم، لإنهم ليسوا من أعرابها. - فقلت: "أيها الفتاة احلبي لي!" فقالت: "من فين أحلب؟ لقد حلبناها باكراً في البيوت؛ لا يوجد شيء في أضرعها، وليس معنا ماعون نحلب فيه:" وقالت بأن بيوتهم منصوبة بعيداً في الخلف. فقلت: "ألا توجد جماعة من

حرب كنت أبحث عنها طوال هذا الصباح؟ " فقالت تعال قليلاً إلى طرف المرتفع وسأريك إياه: "انظر هناك! يمكنك أن ترى بيوتهم. " لم تكن عيناي على ما يرام: ولكني تتبعت إشارة إصبعها ومضيت قدماً. مشيت لمدة نصف ساعة، فوق أرض قفر وعرة، ولم أر البيوت إلا عندما اقتربت منهم؛ واستدرت قاصداً البيت الكبير في الدائرة، لأنني لمحت رجالاً جالسين.

قابلتني كلابهم بنباحها، فجرى صاحب البيت ومعه بليطة، ليطردها عن الغريب (الضيف) الواصل. وبينما كنت جالسًا بينهم تبينت بأنهم ليسوا البدو الذين بحثت عنهم. بعدها سألت: "هل لديكم تمر؟" لأن مذواقتهم ستكون جيدة لسلامتي إذ سيكون بيننا خبز وملح. فأجاب الرجل مبتهجاً: "ليس لدينا شيء غير الجبن؛ وسنحضره في الحال. " كان المضيف غريباً، فهو مطيرياً [من قبيلة مطير] طريداً بسبب قضية قتل، ويعيش مع هؤلاء الحروب. جلس يرص لحاءً اخضر من أغصان شجر من أشجار الصحراء، ويلف من ليفها حبالاً جيدة الصنع: وقال: "هذه لبعض القلبان الغميقة في هذه الديار، أي للآبار العميقة". عاملني هولاء الناس الطيبون باحترام سائلين ومجيبين على أسئلتي بلطف. قلت: "أتيت لأبحث عمن يحملني إلى القصيم مقابل أجر. " فأجاب الرجل قائلاً: "عندي ذلول طيبة، واذا ما دفعت لي خمسة ريالات، فسوف أحملك وأضعك، والله، في سوق عنيزة! "

عندما رجعت إلى مضيفي، صاح مطلق قائلاً: "إين ذهبت؟ أن الذهاب بعيداً عن بيوتنا خطر عليك: ويوجد الكثيرون ممن لو وجدوك وحيداً لقتلونك، فالبدو كفار، يا خليل. " وعندما أخبرته باسم الرجل الذي سيحملني إلى عنيزة أضاف قائلاً: "لا تتعامل معه في شيء! إنه مطيري، وإذا ما ركب معك رديفًا فاحترس من خنجره . . . و لربما قتلك وأنت نائم:

وهل تستطيع الركوب لمدة أربعة أيام إلى القصيم دون نوم! " أن مثل هذا الحديث الشرير كثير بين القبائل المتجاورة؛ ولكنني كنت أعتقد بأن المطيري سيوصلني بأمانة إلى عنيزة. كان مطلق في أشياء معينة يمتلك ألطف عقلية مما لدى أي عربي ممن تعرفت عليهم هناك. فعندما رآني أغط في النوم لدقائق وأنا جالس، في الشمس الحارقة، ورأى أنني تجولت بعيداً عن البيوت (غير المضيافة) لم يكن منه إلا أن بحث عن ظلال عند بعض الصخور، لأتمكن من النوم وأنا في هذه الحالة من التعاسة المهلكة والضجر الروحي. وقال إنه يدرك بأن صدري قد ضاق (بالأحزان) هنا بينهم: وبما أنني أريد القيام بهذه الرحلة من قلبي، وبما أنه لا يستطيع حملي بنفسه إلى مكان بعيد مثل بريدة، فإن باستطاعته أن يبحث عن شخص هذا اليوم ليوصلني إلى هناك، ومع ذلك فهو من أجلي قد ترك فرصة غزوة ابن ناحل تفوته والتي من أجلها أستعار حصانًا آخر.

كان علي، بجانب مطلق، طرفاً رئيسياً في التخفيف عني وأنا بينهم. وكان علي هو صاحب الرمح والسيف: ربماكان ذلك السيف الحديدي غير المصقول من السيوف التي يتمنطق بها لاعبو الرماح التابعون لأحد ضباط المدينة، وقد منح أحد شخصيات المدينة هذه اللعبة التي تشبه عدة الحرب ويحملها هذا الرجل المسكين. قال ليّ علي: "أنا صاحبك،" بصوته المبحوح من المعاناة الطويلة للتعاسة. لقد كان من حرب آل علي: وهم غير بعيدين من هنا باتجاه الشمال الشرقي، وليسوا من هؤلاء الأعراب. سألته: "وأين تركت زوجتك وأطفالك وإبلك؟" فأجاب قائلاً: أنا لا أمتلك غير عباءتي وثوبي وسلاحي. فأنا يتيم!" كان هذا الرجل البدوي المسكين، البالغ من العمر خمسين عاماً، ما يزال في سن القصور؛ ماذا يا ترى سيكون شكل عذاب

الجوع والتعاسة لو قدر له وعاش عمره من جديد! لقد ورث مع أخيه نخيل في المدينة؛ ولكن ابن الوالد الأقوى طرد أخاه الضعيف: ويقول مطلق: بأن " الرجل المسكين لا يمكنه الحصول على تعويض هناك. " (لأنه يعد مجنوناً). فقلت: "ولماذا هذه الأسلحة دائماً في يديه؟" فقال: "إنه يعيش خوفًا دائمًا من شيء حدث قبل سنوات: فقد كان علي وصديق له ينهضان من على طعام العشاء فأرادا أن يتمازحا، فتطارحا، فرمى علي بصديقه ووقع فوقه، ولكن رفيقه لم ينهض فمات بالحال، لأن شيئاً قد يكون حدث في داخله! لم يشتك أحد علياً: ومع ذلك هرب المسكين بحياته، ومنذ ذلك الوقت وهو يروح ويجيء مسلحاً، خشية أن يجده أحد أقارب الميت ويقتله. "

جلس معنا في المساء شاب من أقارب زوجة طلق الجديدة. لقد كان من جماعة أخرى؛ وقال الكثير من كلام التجريح بحق النصارى وأضاف قائلا: " أنت يا طلق وأنت يا مطلق! والله، لم تفلحا باستقبال كافر في بيوتكم؛ " كما أنه كان قد جلس محتلاً كل المكان المحوط بوجار النار مخالفاً عادات البدو الحميدة، وتقريباً أزاح الضيف الغريب بعيداً عن النار في البرد؛ ولأن مكان الرجال هذا لم يكن إلا مكاناً صغيراً مغطى بقماش خيمة، لا يختلف عن باقي ضيافتهم. فصرخت قائلاً: "لا بد أن يكون هذا عقيلي!" فأجابوا، " أي نعم فهو عقيلي! وهو مغرور يا خليل!" - فقلت: "لقد وجدتهم كلاباً، أتراكاً وخونة: أحلف بإيماني، أنني رأيت منهم أحقر الرجال. " فقالوا: " والله يا خليل، أن ذلك صحيح. " - فقلت: "من أي حرب هو؟" فقالوا: " إنه حازمي. " فقلت: "حازمي!...!" -فقالوا: "إنها نبوءة، يا خليل، آها-ها-ها!" وتضاحكوا فلم يجب الشاب المهزوم عندما وجد لسانه إلا القول، سَبَعَك الله، أي الله يخزيك. " وقد بدا الأمر مدهشاً بأن أعرف

خلفياتهم الخاصة. . . . والآن تم فسح مكان لي عند الوجار، وقرب هذا الضحك البقية للنصراني. لقد عجبت من أن أرى جزءًا كبيرًا من بيت طلق مغلقًا، ولكن في الصباح، وعندما جلست زوجته وأم أولاده في الخارج تغلي السمن، خرج من البيت المغلق وجه جديد، شابة جميلة، نظيفة، مرتدية ثياباً جديدة! إنها عروسة طلق (الجديدة) في ثياب زفافها؛ وهذه هي أيام حبها، دون مسؤولية منزلية. تقدمت بعينيها المبهورتين في ضوء الشمس الحارقة.

عندما بزغت شمس اليوم التالي، رأيت بأن بيوتنا الثلاثة أصبحت أربعة. إن هؤلاء الواصلين الجدد كانوا صيادين أو صيادنه، ليسوا صلباً ولا صناعًا ولكنهم (وكما رأينا) باعة متجولون من عشيرة بدوية فقيرة، يحملون أوانيَ فوق حميرهم بين الأعراب. ذهبت لزيارة الغرباء؛ وقلت: "سلام" فقالوا: "عليكم السلام؛ تفضل يا خليل! أأنت هنا؟" فقلت: "ومن تكونون!" فقالت المرأة: "ألا تتذكر عندما أتيت مع الهتمان وشربت قهوة في قصرنا[بيتنا]؟" وأضافت المرأة المسكينة: "وقد قمت برتق عباءتك." وقال الرجل: "يا خليل، أين غليونك؟ سأملأه بالتبغ الحميدي." كان هذا الرجل المولود بدوياً، يعرف طرق الصحراء كافةً؛ وتجول بعيداً حتى القصيم، وأجابني بصدق على كل ما سألته عنه: لقد كانوا طيبين مع من قست عليه الدنيا! وليس بهم رائحة تعصب.

قدم صباح اليوم نفسه من العراق بدويان من شمر، يعملان جماميل في قافلة حج ابن رشيد ومعهما جملان محمّلان بالتمن لطلق ومطلق. لقد تعجبت كيف اهتديا إلى مضارب ابن ناحل بعد رحلة طويلة. وقد أخبراني أنهما منذ أن تركا حائل وهما يسألان: "وين (أين) ابن ناحل؟" وقد كانت

الإجابات متباينة، فالبعض قال: "سمعنا أنه في جنوب شرق البلاد"، ومنهم من قال: "إنه ارتحل إلى مناطق عتيبة." وآخرون قالوا: "حينما سمعنا عنه آخر مرة كان في المكان الفلاني، وأنه رحل مؤخراً باتجاه السليمي وستجدون أعرابه بين كيت وكيت من معالم الأرض، وأنه يرعى إبله حول جبل قنا."

وبينما كانا ينزّلان الأحمال عن الجمال، وصل بدوي غريب على راحلته، ولكنه كان معروفًا في هذا الفريق: لقد قطع مؤخراً ١٣٠ ميلاً باتجاه الغرب، لزيارة البشر [من قبيلة عنزة] الذين ولد ونشأ بينهم. والآن يعيش مع حرب، وهو من شمر، وله زوجة مهجورة تعيش مثل الأرملة في هذه المضارب، وكان قد جاء لزيارة ابنهما الصغير. نصحني مطلق باستئجار هذا الرجل الأمين كي يوصلني إلى القصيم، ودعوناه. فأجاب، والله، إنه خائف أن يعبر منطقة مفتوحة واسعة، بها قد يسطو أحد الغزاة من عتيبة على ناقته، إلا أن مطلقاً أقنعه بأن بإمكانه شراء حمْل من التمر بأجره (التمر رخيص جداً في القصيم). فعرض عليّ حملي إلى البكيرية، إلا أننا اتفقنا على أن أدفع له خمسة ريالات مقابل أن يوصلني إلى بريدة. فقال الرجل والذي كان اسمه حامداً "اركب". وحمل أمتعتي وركب خلفي، وانطلقنا فقال طلق: "الله يوصلك بالسلامة إلى وجهتك، ولا يريك مكروهاً!"(١٧).

الهوامش

(١) تم الاعتماد في ترجمة تشارلز داوتي على ما ورد عنه في:

D. G. Hogarth, **The Life of Charles M. Doughty**, London: Oxford University Press, 1928.

روبن بدول، **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة عبدالله آدم نصيف، (الرياض: خاص، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص ٧٧-٨٩.

Zahra Freeth and H. V. F. Winstone, **Explorers of Arabia: From The Renaissance to The End of Victorian Era**, London: George Allen & Unwin, 1978, pp. 225-267.

(٢) النص المترجم في هذا الكتاب يشمل الفصول ٢١، ٢٢، من المجلد الأول، والفصول ١، ٢، ٣، ٨، ٩ من المجلد الثاني من كتاب الرحلة:

Charles M. Doughty, **Travels in Arabia Deserta**, Cambridge: The University Press, 1888, pp. 566-619, Vol: 1; pp 1-85, Vol: 2.

والجدير بالأشارة إليه أنه تم الاحتفاظ بالكلمات العربية، التي استخدمت في النص الأصلي، عامية وفصيحة كما هي.

(٣) تولى الأمير محمد بن عبد الله الرشيد الحكم سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م. وسيصف داوتي فيما يلي من صفحات كل ما يتعلق بكيفية توليه الحكم وطريقة حكمه، كذلك سيفعل الرحالة الذين تبعوا داوتي وحتى وفاة الأمير سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م.

(٤) لم تذكر المصادر الأخرى أن فهداً كان هو الابن الأكبر لعبيد بن رشيد، بل أحد أبنائه، وأن اسمه فهاداً وليس فهداً. ولكننا ابقينا الاسم كما أورده ورسمه داوتي.

(٥) الباينت (Pint): وحدة وزن تساوي ثُمن غالون.

(٦) الحرات، مفردها حرة، ويطلق "مسمى الحرة على المناطق المغطاة بالصخور البازلتية السوداء الناشئة عن تصلب الصهر المنبثق من باطن الأرض، سواء أكان من خلال الشقوق والانكسارات أم من فوهات البراكين. ويعد أن يتصلب يتشقق نتيجة لتباين الظروف الحررية في الصحراء بين الليل والنهار والشتاء والصيف مما يؤدي إلى ظهور الحرة في شكل صخور مبعثرة أو متراكمة فوق بعضها تبعاً للنشاط البركاني وتتابعه وكذلك القرب أو البعد من مركز الشقوق، ومن أكثر الحرات انتشاراً في بلاد العرب تلك الواقعة في غرب شبه الجزيرة العربية". انظر: **موسوعة الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية**، المعارف الجغرافية (٧)، الرياض: الدائرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٢٥٦.

(٧) توجد قرية أخرى تعرف بالاسم نفسه وتقع شرق جبل رمان بمنطقة حائل. انظر: فهد العلي

العريفي، **حائل**، سلسلة هذه بلادنا (١)، الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢١٠.

(٨) كان ذلك سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م.

(٩) جلس بندر في الحكم أكثر من سنة وذلك من سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م إلى سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م.

(١٠) المقصود حسن بن مهنا الصالح أبا الخيل، أمير بريدة من سنة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م إلى سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م. ويصفه داوتي بهذا الوصف لعدم تلقيه معاملة حسنة خلال زيارته إلى بريدة التي تمت خلال صيف ١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ.

(١١) لقد حدث وأصبح عبدالعزيز أميراً بعد وفاة عمه الأمير محمد بن عبدالله الرشيد سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م، وبقي أميراً لحائل حتى مقتله في معركة روضة مهنا سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، على يد أنصار الملك عبدالعزيز آل سعود.

(١٢) يشير داوتي هنا إلى قصيدة مشهورة لعبيد ابن رشيد يصف فيها واقعة عرفت بمعركة بقعاء (نسبة إلى قرية بقعاء الواقعة شرق حائل وتبعد عنها ٩٥ كيلو مترا) التي انتصر فيها أمير جبل شمر على أهل القصيم وحلفائهم سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م.

حول ظروف وملابسات وتداعيات هذه المعركة انظر:

عبدالله الصالح العثيمين، **نشأة إمارة آل رشيد**، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٠٤-١٠٥.

أما القصيدة نفسها والتي ورد فيها الوصف فمن أبياتها:

وإني ذبحت بشذرة السيف تسعين   منهم ولاني عن طردهم سايل

انظر القصيدة في: ضاري بن فهد الرشيد، **نبذة تاريخية عن نجد**، قدم لها وحققها عبدالله الصالح العثيمين، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٥٥-١٦٢.

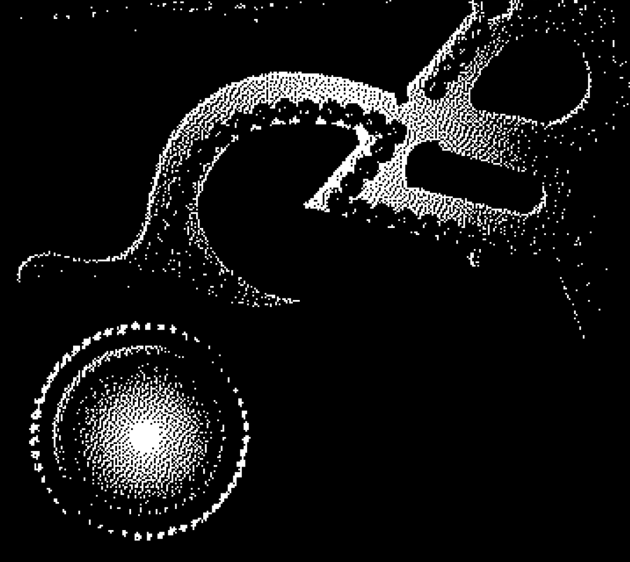
(١٣) استخدم داوتي اسم حيزان Hayzan وقد يكون ذلك خطأ مطبعي لأن حرف النون جاء بديلاً عن الميم في أسماء عربية عدة أوردها. والشيخ الذي ذكره داوتي وتنطبق عليه الأوصاف والقصص كافةً التي سترد في هذا القسم من الكتاب وفي بقية رحلته إلى القصيم هو الشيخ حزام بن عبد الرحمن بن حشر آل عاصم من شيوخ قحطان. وعليه فإن اسم حزام هو الذي سيتكرر بدلاً من حيزان. انظر: محمد بن عبد الله بن بليهد، **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، ط ٣، الجزء الأول، الرياض: دار عبد العزيز بن محمد بن سعد آل حسين، ١٤١٨هـ، ص ص ١٥٢-١٥٣.

(١٤) Charles Doughty, Travels in Arabia Deserta, Vol: 2, pp. 94-248

(١٥) النص المترجم من المصدر السابق، ص ص ٢٣٢-٣٢٠.

(١٦) كانت الملكة فيكتوريا هي الملكة البريطانية عند زيارة داوتي، وقد توفيت سنة ١٩٠١م.

(١٧) استطاع داوتي تدبير أموره حتى وصل إلى القصيم.



هذا الكتاب

تكتسب كتابات الرحالة الأوروبيين إلى الجزيرة العربية أهمية بالغة في مجال توفير معلومات أولية في الجوانب المتعلقة بها كافة، لا غنى عنها للباحث في التاريخ العام للجزيرة العربية وفي التواريخ المحلية للمناطق التي زاروها .

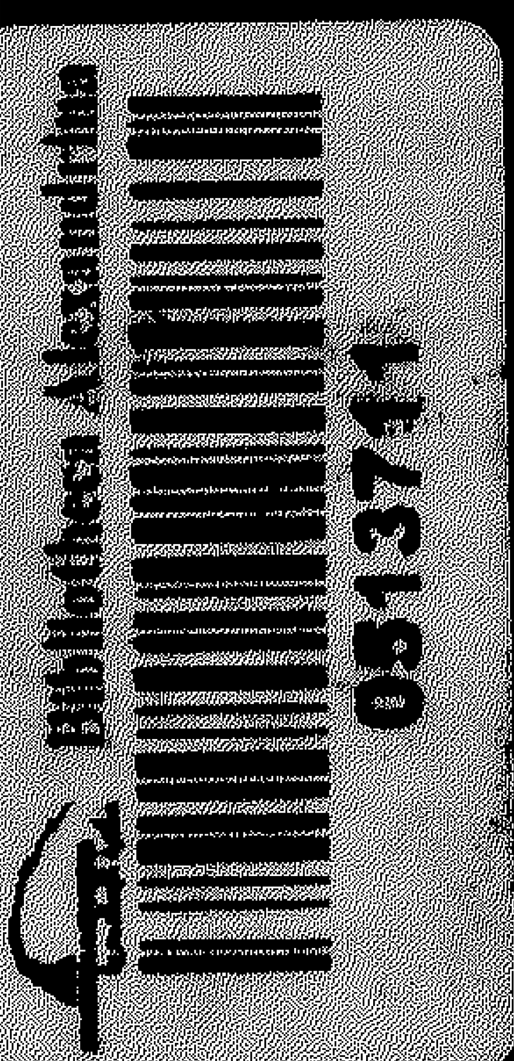
كانت منطقة حائل، وعاصمتها مدينة حائل ، إحدى أهم مناطق شمال وسط شبه الجزيرة العربية التي اتجهت إليها أنظار أولئك الرحالة الأوروبيين، وخصّوها بعناية كبيرة في كتاباتهم نظرا للأهمية السياسية التي كانت تحظى بها زمن قيامهم برحلاتهم. زار منطقة حائل خلال الفترة الواقعة ما بين (١٨٤٥م - ١٢٦١هـ) و (١٩٢١م - ١٣٤٠هـ) اثنا عشر رحالة من الأوروبيين خصوها باهتمام في كتاباتهم .
وقدم هؤلاء الرحالة عن المنطقة الكثير من المعلومات التي تصف جغرافيتها وتؤرخ لأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتركيباتها السكانية، حاضرة وبادية .

يقدم هذا الكتاب هؤلاء الرحالة، ويقدم أيضا نصوصهم كاملة باللغة العربية مترجمة من لغاتها الأصلية .
ونظرا لغزارة المادة التي وفرها هؤلاء الرحالة حول هذه المنطقة، فقد جاء الكتاب في جزأين: يتناول هذا الجزء الرحالة الأوروبيين الأوائل، وهم جورج أوغست والن الفنلندي، ووليم جيفورد بلغريف الإنكليزي، وكارلو غوارماني الإيطالي، وتشارلز داوتي الإنكليزي.



الرحالة الأوروبيون

في شمال وسط الجزيرة العربية



دار برزان للنشر
www.barzanpress.com
I.S.B.N: 9953-0-336-X